

المركز القومى للترجمة
ألفرد زيمرن
ميراث الترجمة
الحياة العامة اليونانية
السياسة و الاقتصاد
فى أثينا فى القرن الخامس
ترجمة: عبد المحسن الخشاب
مراجعة: أمين مرسى قنديـــل
تقديم: أحمد عتمان
المشروع القومى للترجمة
الطبعة الثانية
2/1030





فى أثناء طبع هذا الكتاب قامت الحرب العالمية الأولى، وبذا واجهت بريطانيا لأول مرة منذ أن غدت ديموقراطية، المسئوليات المدنية فى معناها الكامل فى الفكر والعمل، تلك المسئوليات التى كانت أمرًا عاديًا للغاية بالنسبة لأثينا فى القرن الخامس فى مجال نظام الدولة المدنية الضيق. فالأفكار اليونانية والإلهام اليونانى يمكن أن يساعدنا اليوم، لا على مواجهة واجبات اللحظة التى نحن فيها فحسب، بل فى العمل على إرساء قوائم الديموقراطية، ونشر حقوق المواطن، وتوسيع مجال الحرية والقانون، وتدعيم مرماهما، وهى أمور يبدو أنها الواجبات السياسية الرئيسية أمام البشرية فى هذه الحقبة الجديدة التى بدأناها من التاريخ.

الحيـاة العـامـة اليونانية

(السياسة والاقتصاد فى أثينا فى القرن الخامس)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ١٠٣٠/ ٢
- الحياة العامة اليونانية (السياسة والاقتصاد فى أثينا فى القرن الخامس)
- ألفرد زيمرن
- عبد المحسن الخشاب
- أمين مرسى قنديل
- أحمد عتمان
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة

The Greek Commonwealth
Politics & Economics
in Fifth – century Athens
by: Alfred Zimmern

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الحياة العامة اليونانية

السياسة والاقتصاد

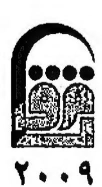
فى أثينا فى القرن الخامس

تأليف: ألفرد زيمرن

ترجمة: عبد المحسن الخشاب

مراجعة: أمين مرسى قنديل

تقديم: أحمد عتمان



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٥٢٥ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 6- 378- 479- 977- 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

تقـــديم

لم يعد التاريخ كما كانت النظرة التقليدية إليه من قبل، أى تاريخ الساسة والقادة العسكريين والحروب والفتوحات والإمبراطوريات. وشيشرون خطيب روما المفوه هو الذى سمًّى هيرودوتوس "أبو التاريخ" Pater historiae، فى حين كان بعض العلماء المحدثين يفضلون عليه ثوكيديديس بوصفه الأكثر تدقيقًا وتحقيقًا. وفى الآونة الأخيرة عادت لهيرودوتوس مكانته المرموقة بين المؤرخين؛ لأنه ضمَّن تاريخه الكثير من المعلومات الإثنوجرافية والفولكلورية والحكايات والنوادر والأساطير. ويقول العلماء المعاصرون: إن التاريخ الحقيقى هو تاريخ الشعوب لا تاريخ الملوك والزعماء والنخبة.

وهذا التغيير الذى طرأ على مفهوم التاريخ فى القرن العشرين يُعزى إلى عدة تطورات وقعت منذ بداية القرن العشرين وحتى نهايته، لعل أهمها الثورة البلشفية فى روسيا وازدهار الشيوعية القائمة على طبقة الكادحين من عمال وفلاحين، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى والثانية وأهوالهما. وكان المسئولون عنها هم قادة وزعماء متطرفون ومنحازون ومتعصبون، فسقط القناع عن الفرد، وبرز دور المجتمع، وازدهرت الدراسات الاجتماعية، وظهر اتجاه سوسيولوجيا الأدب والفن.

وتأثرت الدراسات الكلاسيكية بكل هذه التطورات؛ فأعيد النظر فى الأدب والفن الإغريقيين. وعلى سبيل المثال لم تعد "إلياذة" هوميروس مجرد قصة حرب بين الإغريق والطرواديين، ولم تعد مقصورة على الأبطال أو أنصاف الآلهة مثل أخيليوس وهيكتور، بل أعيدت القراءة على أساس أن "الإلياذة" لا تخلو من البعد الاجتماعى. فإلى جانب العلاقات الاجتماعية والأسرية الواضحة فى "الإلياذة"، والتى تم التركيز عليها فى بعض الحالات مثل العلاقة الحميمة بين هيكتور وزوجه أندروماخى وطفلهما أستيأناكس نقول

إلى جانب هذه العلاقات الأسرية والإنسانية هناك على "درع أخيليوس" صورة أكثر وضوحًا للمجتمع الإغريقى فى قريتين متجاورتين إحداهما تنعم بالسلام والأخرى تشقى بالحرب. فجدير بالملاحظة أن الزخرف على درع أخيليوس يمثل الكون والحياة الجارية فى أرجائه. وتبلغ دقة الوصف حدًا مذهلاً؛ مما يجعلنا نشعر وكأننا نلامس الواقع، حتى إن كل ما وصلنا من فنون عصر هوميروس وتمتلئ به المتاحف يبدو وكأنه شذرات من ذلك الإبداع الهومرى.

ولقد أثارت زخرفة "درع أخيليوس" الكثير من الجدل والمناقشة فى كتب التاريخ والأدب والفن. صنع هيفايستوس إله النار والحدادة الدرع من خمس طبقات جلدية تغطيها طبقة برونزية مطعمة بأربعة معادن أخرى. يمثل الإطار الخارجى الأوكيانوس أى المحيط، أما المساحة المركزية فتضم الأرض والأجرام السماوية. أما المشاهد الأخرى فهى كما يلى :

١ – حفلة زفاف الكتاب الثامن عشر: أبيات ٤٩٠ – ٤٩٦ .

٢ – مشهد قتل: أبيات ٤٩٧– ٥٠٨ .

٣ – الحصار: أبيات ٥٠٩ – ٥١٢ .

٤ – الهجمة على مدينة محاصرة: أبيات ٥١٣ – ٥٤٠ .

٥ – حرث الحقول: أبيات ٥٤١ – ٥٤٩ .

٦ – الحصاد: أبيات ٥٥٠ – ٥٦٠ .

٧ – جنى الكروم: أبيات ٥٦١ – ٥٧٢ .

٨ – الأسود تهاجم قطعان الماشية: أبيات ٥٧٣ – ٥٨٦ .

٩ – حظائر الأغنام: أبيات ٥٨٧ – ٥٨٩ .

١٠ – الرقص: أبيات ٥٩٠ – ٦٠٦ .

ونقتطف من الإلياذة هذا الجزء من الحياة فى قرية السلام :

" ونقش (هيفايستوس) أيضًا حقلاً من الأرض الناعمة الغنية.

أرضًا محروثة ثلاث مرات، شاسعة سمراء ضاربة إلى الصفرة.

ودفع حارثون كثيرون الأنيار أمامهم يسوقونها

هنا وهناك، وكلما عادوا بعد أن يبلغوا حدود الأرض المحروثة

يأتى رجل ويضع فى يد كل منهم كأسًا من النبيذ اللذيذ كالعسل.

لذا كان الحارثون يعودون مسرورين

فى لهفة، عندما يصلون إلى حدود الأرض عميقة الحرث.

وكان الحقل من خلفهم قاتمًا بعد أن قُلِّبت التربة ،

فتبدو كأنها مذهبة، وتلك آية من عجائب الصنع !

ونقش (هيفايستوس) ضيعة ملكية يحصد العمال فيها،

حاملين مناجل حادة فى أياديهم، تتساقط فى صفوف متراصة

بعض سيقان (القمح) على الأرض بطول الجزء المحصود

ويربط الحزَّامون (القمح) فى حزمات بأربطة من القش المجدول،

حزَّامون ثلاثة وراء الحصَّادين، يجمع خلفهم

الغلمان سيقان القمح ملء أذرعهم ، ويحملونها ، ويعطونها

للحزَّامين. فى الوسط يقف الملك يمسك صولجانه صامتًا،

منشرح الصدر، عند خط المحراث.

ويعد الأتباع وليمة بعيدًا تحت شجرة بلوط.

فكانوا يهيئون ثوراً ضخماً ذبحوه قرباناً.

ونثرت النسوة شعيراً أبيض بكثرة على جلده لغذاء العمال.

ونقش (هيفايستوس) كرمة ذهبية جميلة، حملها ثقيل

من العناقيد، عناقيد سوداء من أعناب.

تصطف من أول الكرمة إلى آخرها أعراش فضية تحمل العناقيد.

ونقش حولها خندقاً طلى بالأزرق القاتم حوله سياج.

من القصدير، يؤدى إليه ممر واحد يسلكه.

قاطفو الأعناب عندما يتجمعون فى الكرمة.

وقف الفتية والغلمان منشرحين فى مرح،

حاملين فاكهة ناضجة أحلى من العسل، فى سلال من الصفصاف.

وفى وسطهم غلام يحمل قيثارة جلية النغمات.

يعزف عليها، ويتغنى مع الألحان.

بأغنية (خفيفة)، وبصوت رقيق، ويدق الباقون

الأرض فى تناغم، ثم يتقافزون فى رقص وصياح.

ونقش (هيفايستوس) قطيعاً من الماشية مستقيمة قرونها،

محلاة بالذهب والقصدير،

خافضة (رءوسها)، مسرعة من الحظيرة، لترعى.

بالقرب من نهر يعلو فيه خرير المياه، وتتمايل على ضفتيه العيدان.

يمشى بجانب الماشية أربعة رعاة من الذهب،

تلهث وراءهم تسعة كلاب. قفز وسط مقدمة الماشية أسدان مهولان،

وأمسكا بثور شرع يجأر بالخوار المدوى،

لأنهما يبتعدان به، ويسرع وراءه الكلاب

والآيل، فيمزق الأسدان جلد الثور وينهشان

أحشاءه ودماءه السوداء، ولم يفعل الرعاة شيئًا.

بسبب الخوف، فحرضوا الكلاب التى لم تجرؤ

على ملاحقة الأسدين، فما كان منها

إلا أن وقفت تنبح، وابتعدت بنفسها جانبًا، وتقهقرت"(١).

وإذا كانت إعادة قراءة هوميروس قراءة اجتماعية قد احتاجت إلى جهد علمى ونظرة فاحصة مدققة، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة لمؤلفات هيسيودوس "الأعمال والأيام" و "أنساب الآلهة": فكلها موجهة للفلاح والملاح والطبقات الدنيا من المجتمع. والأمر كذلك بالنسبة للشعر الغنائى الذى لا تنحصر اهتماماته فى النخبة حتى لو كانت النخبة الحاكمة، بل تمتد لتشمل الناس جميعًا فى أفراحهم وأتراحهم وسائر أوجه حياتهم ومماتهم. أما الدراما الإغريقية من تراجيديا وكوميديا فهى فن جمعى يقوم أساسًا على وجود جمهور متفرج هو جميع سكان المدينة - الدولة. وبدون هذا الجمهور لا وجود للدراما. وإذا كانت الدراما هى قمة النضج الفنى والشعرى، فإن ازدهارها فى القرن الخامس ق.م. له دلالة عميقة؛ فهذا الازدهار يواكب تطور الديموقراطية الأثينية وبلوغها الذروة فى عصر الزعيم الفذ بريكليس. فالقرن الخامس ق.م. هو العصر الذهبى ليس لأثينا فقط بل للحضارة الإغريقية برمتها. ورمز هذا العصر الذهبى هو

---

(١) "إلياذة" هوميروس ترجمة أحمد عتمان (وآخرون) المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة عدد ٧٥٠، الكتاب الثامن عشر أبيات ٥٤١ وما يليه.

بلا جدال أثينا وبريكليس أى المدينة - الدولة وزعميها؛ فلا غرو إذن أنه منذ بدايات القرن العشرين توالت مئات - أو قل آلاف - الدراسات الاجتماعية التى تحاول شرح ما سموه "المعجزة الإغريقية"، ويعنون هذه الطفرة غير المسبوقة فى القرن الذهبى القرن الخامس ق.م. ولاسيما أثينا التى ضمت معظم الدويلات والمدن الإغريقية تحت راية "إمبراطوريتها" المتمثلة فى حلف ديلوس. ومن هنا يأتى عنوان الكتاب الذى نقدم ترجمته فهو كما يلى :

The Greek Commonwealth, Politics & Economics in Fifth - Century Athens.

واستخدام المؤلف لكلمة Commonwealth "الكومنولث" إنما هو مقصود تماماً، لأنه يرمز إلى - ويلمز - الكومنولث البريطانى الذى برز للوجود فى بدايات القرن العشرين؛ فالإمبراطورية الأثينية التى بلغت الذروة فى عصر بريكليس وفى ظل الديموقراطية كانت تحمل فى طياتها جرثومة الفساد والانهيار بفعل النزعة "الإمبريالية"، وبالفعل انتهت بهزيمة أثينا أمام إسبرطة فى نهاية الحرب البلوبونيسية عام ٤٠٤ ق.م. بموقعة أيجوس بوتاموى، وهذا ما يذكرنا بانهيار إمبراطورية بريطانيا العظمى التى لا تغيب عنها الشمس.

ظهرت الطبعة الأولى الإنجليزية عام ١٩١١، وفى مقدمة الطبعة الثانية ١٣ ديسمبر عام ١٩١٤ يكتب المؤلف قائلاً :

" وفى أثناء طبع هذا الكتاب قامت الحرب العالمية الأولى، وبذا واجهت بريطانيا لأول مرة منذ أن غدت ديموقراطية، المسئوليات المدنية فى معناها الكامل فى الفكر والعمل، تلك المسئوليات التى كانت أمراً عادياً للغاية بالنسبة لأثينا فى القرن الخامس فى مجال نظام الدولة المدينة الضيق. فالأفكار اليونانية والإلهام اليونانى يمكن أن يساعدنا اليوم، لا على مواجهة واجبات اللحظة التى نحن فيها فحسب، بل فى العمل على إرساء قوائم الديموقراطية، ونشر حقوق المواطن، وتوسيع مجال الحرية والقانون، وتدعيم مرماهما، وهى أمور يبدو أنها الواجبات السياسية الرئيسية أمام البشرية فى هذه الحقبة الجديدة التى بدأناها من التاريخ".

فالكتاب منذ طبعته البريطانية الأولى وحتى الطبعة الخامسة ١٩٣١ عاصر أحداثًا جسامًا مثل الحرب العالمية الأولى والثورة البلشفية، كما عاصره وعلّق عليه أو حاوره أساتذة كبار فى الكلاسيكيات مثل جلبرت مرى Gilbert Murray، واهرنبرج V. Ehrenberg وغيرهما، وقرأه المؤرخ الأشهر أرنولد توينبى Arnold Toynbee .

وواكب اكتشاف البردى ونشأة علم البردى ظهور هذا الكتاب فى طبعاته المتتالية، وبادئ ذى بدء فالبردى نبات مصرى وورق البردى صناعة مصرية مائة بالمائة. وكان لنشأة هذا العلم - بعد الاكتشافات البردية المذهلة فى رمال مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر - آثار عميقة فى فروع الدراسات الكلاسيكية كافة. فالبرديات المصرية القديمة والإغريقية تغطى كل نواحى الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية جنبًا إلى جنب مع ملابسات الحياة السياسية؛ فهى تشمل وثائق زواج وطلاق وتراتيل دينية ورسائل خاصة مليئة بالأسرار الشخصية ووصولات تسديد الضرائب ورسائل تزكية والتماسات وشكاوى ومظلمات، وجميعها يتناول دقائق الحياة اليومية حتى كأننا ونحن نطالعها نعيش مع هؤلاء الناس الذين ماتوا من آلاف السنين. وهكذا أضاءت برديات مصر جوانب الحياة كما لم يحدث فى التاريخ من قبل. ومع أن البرديات الإغريقية المكتشفة فى مصر لا تعود إلى ما هو أقدم من القرن الثانى ق.م. فإنه من الطبيعى أن تؤثر هذه المعلومات الغزيرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر البطلمية فى تصور العلماء حتى قبل ذلك التاريخ. ومن ثم نستطيع القول بأن لعلم البردى وتطوره بعض الفضل فى إعادة قراءة حياة الإغريق القدامى منذ هوميروس وحتى العصر الكلاسيكى بتركيز أشد على الجوانب الاجتماعية ومعيشة البسطاء والفقراء.

هذا عن الكتاب أما المترجم الدكتور عبد المحسن الخشاب فهو من أنشط المترجمين فى أواسط القرن العشرين. وصرف وقتًا طويلاً وجهدًا مضنيًا فى تعقب الحضارة الإغريقية والرومانية، ونحن نعتبره استمرارًا لسلسة تبدأ من رفاعة رافع الطهطاوى وسليمان البستانى وأحمد لطفى السيد، وتمتد إلى لويس عوض وثروت عكاشة ودرينى خشبة، أى رواد الثقافة المصرية غير المتخصصين الذين دفعوا

بجهودهم فى الترجمة إلى التفكير فى تأسيس هذا التخصص وتطويره، فهم الذين مهدوا الأرض، وبذروا البذور، وعلينا أن نستعيد فى الذاكرة دومًا جهود هؤلاء الرواد، ونرفع لهم أيدى التحية والإجلال لما بذلوه من جهد مخلص ووعى مثمر. فتحية للمترجم د. عبد المحسن الخشاب، وتحية للكتاب المترجم، ونأمل أن يجد القارئ المعاصر فى هذا الكتاب المتعة والفائدة معًا. وله أن ينظر للوراء فى اعتزاز وإكبار.

وبالله التوفيق

أحمد عتمان

الحياة العامة اليونانية
السياسة والاقتصاد
في أثينا في القرن الخامس

تأليف
ألفرد زيمرن

الطبعة الخامسة منقحة

ترجمة
الدكتور عبد المحسن الخشاب

مراجعة
الأستاذ أمين مرسي قنديل

إلى كليتى
سانت ماري ونتون

مقدمة الطبعة الخامسة

لقد أدخلت تغييرات طفيفة على هذه الطبعة ، ولكنى لم أحاول هذه المرة معالجة الأبحاث الحديثة ويسرنى أن أقدم شكرى إلى الأستاذ فيكتور إهرنبرج لإشارته إلى الكتاب فى « جنومون » (الجزء الأول ، العدد الثالث ، ١٩٢٥) .

أ كسفورد ،　　　　　　　　　　أ . ز .

أغسطس ١٩٣١ .

مقدمة الطبعة الرابعة

دأبت منذ نشر الطبعة الثالثة لهذا الكتاب على متابعة الأبحاث الجديدة الواسعة النطاق التى يتناولها . إلا أنه لم يكن من السهل أن أقرر أفضل الوسائل للاستفادة مما جمعته من شتى المعلومات . والطريق الطبيعى هو ما اتبع فى الطبعات السابقة من حيث إدماج المادة الجديدة فى النص والتعليقات . إلا أن مر السنين قد نأى بى بعيداً ، لا عن موضوع الكتاب الذى سيبقى ملكا لى ، ولكن عن الظروف الفكرية التى فى ظلها كتبته . فعندما اتخذت مكانى فى المدرسة البريطانية فى أثينا وسط مادرسته ، كنت قد تشبعت بتفاصيل الموضوع مدة عشر سنوات أو أكثر ، وما اتخذت قراراً فى موضوع كان مثار جدل ، إلا بعد اعتبارات جمة ، غاب عن خاطرى الكثير منها الآن . ولكن أقنعتنى الخبرة التى اكتسبتها من متابعة ما وجه إلى من نقد ، سواء إلى طريقة بحثى العامة أو إلى نقط معينة ، بأنه يجب أن أعدل الكتاب ، إلا أننى أكون متجنياً لو عبثت بآرائى السابقة دون تحفظ . كما أنه من الحق البين أن أتجاهل الأبحاث الجديدة ، فيغدو الكتاب جامدا لا يشمل ما استحدث من الآراء والكشوف

وعلى ذلك رأيت ألا أغير من نصه إلا فى حالات قليلة جداً (مثل تاريخ تماثيل البارثنون) تضمنت مسائل أصبحت ثابتة . وعزمت على تناول الأبحاث الحديثة وما أدت إليه من اعتبارات وآراء فى تذييل منفصل ويلوح لى أن هذا هو أفضل طريق لإنصاف المؤلف ، الذى أعتبر نفسى ، كتعبير كاتب أيرلندى ، أقرب مثل حى له ، ولإنصاف ضميرى كباحث ، ولمقتضيات موضوع آخذ فى النمو والزيادة .

هذا وقد أضفت إلى الكتاب فهرساً للكلمات والجمل اليونانية .

لندن ،

أبريل ، ١٩٢٤ .

مقدمة الطبعة الثالثة

إننى مدين فى مراجعة الكتاب وإعداده للطبعة الثالثة بالأخص ، لصديقى المستر شيرلى . ك . آتشلى ، الموظف بسفارة صاحب الجلالة بأثينا فقد استخدم معرفته الواسعة بالريف اليونانى فى تلك المراجعة ، وأصلح أيضاً خريطة أتيكا على ضوء معلوماته التى اكتسبها بكثرة تجواله . وإنى مدين كذلك إلى الباحث الأسبانى الممتاز ، الوطنى الكاتب ، « دون بجويل دى أونامونو » الأستاذ بجامعة سلامانكا ، لما حبانى به من اقتراحات نافعة. أما التغييرات والإضافات الأخرى فترجع أولا إلى الأبحاث الحديثة فى هذا الموضوع ، كما ترجع إلى تطبيق الأفكار ومتابعة الميول والاتجاهات المشار إليها فى النص .

أوكهيل درايف ،

سوربيتون .

٢٠ مارس ١٩٢١ .

مقدمة الطبعة الثانية

إنى مدين لكثير من النقاد والأصدقاء الذين مكنونى من إصلاح بعض الأخطاء ، وتوضيح بعض النقط الغامضة فى الطبعة الأولى . وأخص بشكرى عميد كلية وادهام بأكسفورد ، ثم القس كروكشانك ، ومستر ه . ج . كانتجهام ومستر ج . ديكنز ، وإلى النقاد فى التايمز وفى مجلة Jour. of Hell. St. ، ثم الأستاذ فرانكوت بجامعة ليبج ، وفى مقدمتهم وبنوع خاص الأستاذ ڤيلا موڤيتز مولندروف بجامعة برلين . وقد انتهزت الفرصة وأشرت إلى البحوث والكتب التى صدرت فى هذا الموضوع منذ عام ١٩١١ ، كما قمت ببعض التعليق هنا وهناك على الحوادث الجديدة ، كما يرى فى صفحات ١٠٦ ، ٢٩٢ — ٢٩٤ . على أن أهم ما أضفته إلى الكتاب هو خريطة أتيكا التى وضعها صديق المستر أرنولدج . توينبى .

والكتاب فى جملته لم يتغير . ولست أدعى أنى راض عن دراسة موضوع الرق بالشكل الذى تركته عليه فى الجزء الثالث فى الفصلين ١٤، ١٥ اللذين استمسك بعض النقاد بالمقابلة بينهما ، ولكن لم أصل إلى أبعد مما وصلت إليه من قبل عند كتابة هذين الفصلين ، ولعل غيرى يوفق إلى الاستفادة من الأدلة التى نبهت إليها .[1]

وفى أثناء طبع هذا الكتاب قامت الحرب العالمية الأولى ، وبذا واجهت بريطانيا لأول مرة منذ أن غدت ديمقراطية ، المسؤليات المدنية فى معناها الكامل فى الفكر والعمل ، تلك المسئوليات التى كانت أمراً عاديا للغاية بالنسبة لأثينا فى القرن الخامس فى مجال نظام الدولة المدينة الضيق . فالأفكار

---

(١) ١٩٣٤ — بلغ مستر ها يتلاند شأناً أبعد مما بلغته فى هذا البحث فيما يختص بالعمل الزراعى على الأقل ، وقد وصل إلى النتيجة نفسها . أنظر ملاحظاته (Agricola ، ص ٤٤٦ — ٤٤٧) على أسباب اختلاف خصائص الرق فى المناجم وفى « اللاتيفونديا الرومانية» ، عنه فى أعمال الخدمة المنزلية والحرف الصناعية والمهن .

اليونانية والإلهام اليونانى يمكن أن يساعدنا اليوم ، لا على مواجهة واجبات اللحظة التى نحن فيها فحسب ، بل فى العمل على إرساء قوائم الديموقراطية ، ونشر حقوق المواطن ، وتوسيع مجال الحرية والقانون ، وتدعيم مرماهما ، وهى أمور يبدو أنها الواجبات السياسية الرئيسية أمام البشرية فى هذه الحقبة الجديدة للتى بدأناها من التاريخ .

إدارة المعارف
هوايت هول ، س . و .
٢ ديسمبر ، ١٩١٤

مقدمة الطبعة الأولى

إن هذا الكتاب نتيجة محاولة أردت بها أن أوضح لنفسى ما كانت عليه أثينا حقيقة فى القرن الخامس . فمعظم من تعلموا لهم فكرتهم الخاصة عن بلاد اليونان القديمة . وقد حاولت أن أعبر عن رأيى فى صورة دراسة لطبيعة قوتين عظيمتين فى الحياة الأثينية . وما كان لهما من أثر وتفاعل فيها.

وحسبنا كلمات قليلة لبيان السبب الذى أملى على اختيار الطريقة التى سلكتها .

يسلم الجميع الآن بأنه لا يمكن فهم الأفراد ولا الأمم حق الفهم دون الإلمام بأحوال بيئتهم وبوسائل معيشتهم ، وبمعنى آخر من غير معرفة أحوالهم الجغرافية والاقتصادية . ومع أن هذا المذهب يبدو واضحا جليا ، فقد كان الاعتراف به بطيئا فيما يخص دراسة اليونان القديمة . فتقاليد الدراسات القديمة ، ونقص الأدلة اللازمة ، تآلفا على إبعاد الباحثين عن متابعة الجديد فى طرق البحث الاجتماعى . ولكن فى الجيلين الأخيرين تلوفى هذا النقص لحد بعيد ، بفضل رجال الآثار . ولدينا الآن معلومات واسعة متزايدة تؤهل لاستنتاج جديد عن الجانب الاقتصادى فى الحياة

اليونانية . وتزايد هذه الأدلة الجديدة يميز ، أكثر من أى عامل آخر ، اليونان الحديثة عن اليونان فى عهد جروت وأجدادنا .

وعلى ذلك لم يعد أحد ينعى على الدراسات القديمة اليونانية والرومانية فى القارة الأوروبيـة ، أنهـا أغفلت استعمال تطبيق الوسـائل الحديثة . والأخطار الخاصة التى قد تتعرض لها هـــذه الدراسات الآن ، والتى دفعتنى إلى اختيار الطريقة التى انتهجتها فى هذا البحث ، كامنة فى عكس هذا الاتجاه . فهناك أولا نزعـة إلى الإسراف فى التخصص ، وإلى الاقتصـار على جانب واحد من الموضوع ، والإغضاء عن الجوانب الأخرى . وهذه تجربة تمر بكل علم عنـدما تتجمع المعلومات بسرعة فائقة ، ولـكنها تـكون مضللة بنوع خاص فى مثل دراسة اليونان القديمة ، حيث كل شىء يتوقف على أن يظل الباحث واضعاً نصب عينيه دائما عظمة الـكل وروعته ، حتى فى دراسة أصغر التفـاصيل وأدقها . فمثلا من السهل جداً فى دراسة نقوش الإرخشيوم أن ينهك الباحث فيما بها من معلومات عن العمل والأجور ، وينسى أنها تتصل بالإرخشيوم ، وإذا نسى هذا ، فقد نسى كل شىء .

فالـكتب والمقـالات التى تـكتب بهـذه الروح من السهل معرفتهـا وأخذها على علاتها . ولـكن ثمة مدعاة أخرى للخطأ والزلل من العسير أن نحترس منها . وتنشأ عن تطبيق الأفـكار والطرق الحديثة على العصور القديمة دون تقدير كاف للفرق بين اليونان القديمة ، وبين الأحوال الحديثة . وإليك مثلا ظاهراً : فقد كان واضحا المؤرخين منذ زمن طويل أن للأحوال الاقتصادية صلة كبيرة بالحرب البلوبونيزية ، ولـكن ليس لنا الحق فى أن نخرج من هذا إلى تفسير النزاع كله على أساس الاعتبارات الاقتصادية الحديثة . وليس المضلل فى هذه التفسيرات التفاصيل ، بل الأساس الذى بنيت عليه . فهى موضوعة على أساس فـكرة خاطئة ، أو على الأقل على أساس تصور ناقص لحياة اليونان الاقتصادية العادية . والطريق السليم الوحيد لحل هذه المشكلة وما يشابهها ، أن يرجع الانسان إلى البداية الأولى ، وإلى التحليل

الدقيق لأساليب القدماء وعباراتهم المألوفة . وهذا ما أعتذر به عن عدم تناسب حجم القسم الثالث من هذا الكتاب .

وقد يستلزم الأمر توضيح الأسباب التى دعتنى إلى اتخاذ الموقف الذى اتخذته إزاء فلاسفة القرن الرابع . فكثيراً ما اعتبر أفلاطون وأرسطو مصادر أساسية لحياة الدولة المدينة ، لنقص ما لدينا من الدلائل نقصاً نسبياً ، وربما لم يدرك الناس بعد إدراكا كافياً أنهما ليسا كذلك . فهما لم يعرفا الدولة المدينة إلا وقت اضمحلالها ، واصطبغ نظرهما إليها بلون أفكارهما ومذاهبهما الشخصية ، فخطر الاعتماد عليهما فى تعرف الحقائق والروح السائدة فى القرن الخامس والقرون السابقة ، كخطر اعتمادنا على كارليل ورسكين فيما يخص الحقائق والروح السائدة فى الحياة الإنجليزية قبل عصر قانون الإصلاح النيابى والانقلاب الصناعى . فالمنهج الصحيح هو نقيض ذلك تماماً ، أى تطبيق تاريخ الأجيال السابقة عليهما ، لتفسير مذاهبهما . وأى تأويل للنظريات السياسية أو الخلقية للفلاسفة المتأخرين لن يكون مقنعاً مالم يتضمن التأثير الذى تركه التقدم الاجتماعى على تفكيرهم ، ذلك التقدم الذى حاولت أن أصوره . وقد كان فى نيتى أن اختتم الكتاب بقسم أعالج فيه هذا الموضوع ، وهو موضوع ذو أهمية قصوى فى تاريخ الفكر السياسى الأوروبى ، ولكن عدلت عن ذلك لأنه خارج عن نطاق خطتى المثلى ، ومع ذلك فقد سمحت لنفسى أحياناً أن أمس هذا الموضوع وأشير إليه فى الهامش ، كما يتضح ذلك لكل من ينظر إلى الفهرس .

ولقد عملت على تنظيم الكتاب على نحو يجعله نافعاً للطالب ، سهلا بقدر الإمكان على القارىء العادى . ولم أستحسن جمع التعليقات كلها فى آخر كل فصل ، ولكنى أرجو أن يكون تنظيمها فى فقرات يسهل على القارىء العادى تخطيها . ومهما يكن الأمر فإن مراجعى القديمة التى أعتمدت عليها كانت لمؤلفين معروفين . أما الكتاب الحديثين فلم اقتبس منهم إلا لتأييد قول يبدو أنه فى حاجة إلى إثبات وتأكيد ، أو لاعتقادى أن المرجع قد

يكون مساعداً للقارىء . ولم أشر مطلقاً إلى كاتب لمجرد أنى أخالفه ، ولم أهتم أن أزيد الشواهد الحديثة ما دام لدى أدلة قديمة قوية تؤيدنى . ولا يمكننى أن آمل سلامة الرأى فى كتاب يحوى الكثير من الآراء فى نقط مختلف عليها ، ولكننى بذلت أقصى ما فى وسعى حتى لا أعبث بالأدلة ، والحق فسيرى من يعنيهم الرجوع إلى المراجع ، أن مسائل خاصة قليلة نسبياً ، هى التى يمكن أن أقول أنى أضفت إليها جديداً .

ولا بد لى من أن أشكر أصدقاء عديدين لمساعدتهم الطيبة وتشجيعهم لى ، وخاصة الأستاذ جيلبرت مرى ، والأستاذ ميارز والمستر ريجنالد كوپلاند ، ومستر ر . ه . دونداس ، ومستر أرنولد ج. توينبى، ومستر ريتشارد چيننجز، ومستر و . ك بارتون والقس ج.م. مورفى بجامعة أيرلاند الأهلية ، وأخيراً وليس آخراً أستاذى القديم وزميلى الآن المستر جراهام ولاس . وإنى لأتوجه بشكرى كذلك إلى أولى الأمر فى المدرسة البريطانية بأثينا الذين بقبولهم إياى بالمدرسة ، مكنونى من كتابة أكبر جزء من الكتاب فى أسعد الأحوال المواتية .

أوكهيل درايف ،

سوربيتون ، ١٩١١ .

فهرس الموضوعات

الخاتمة

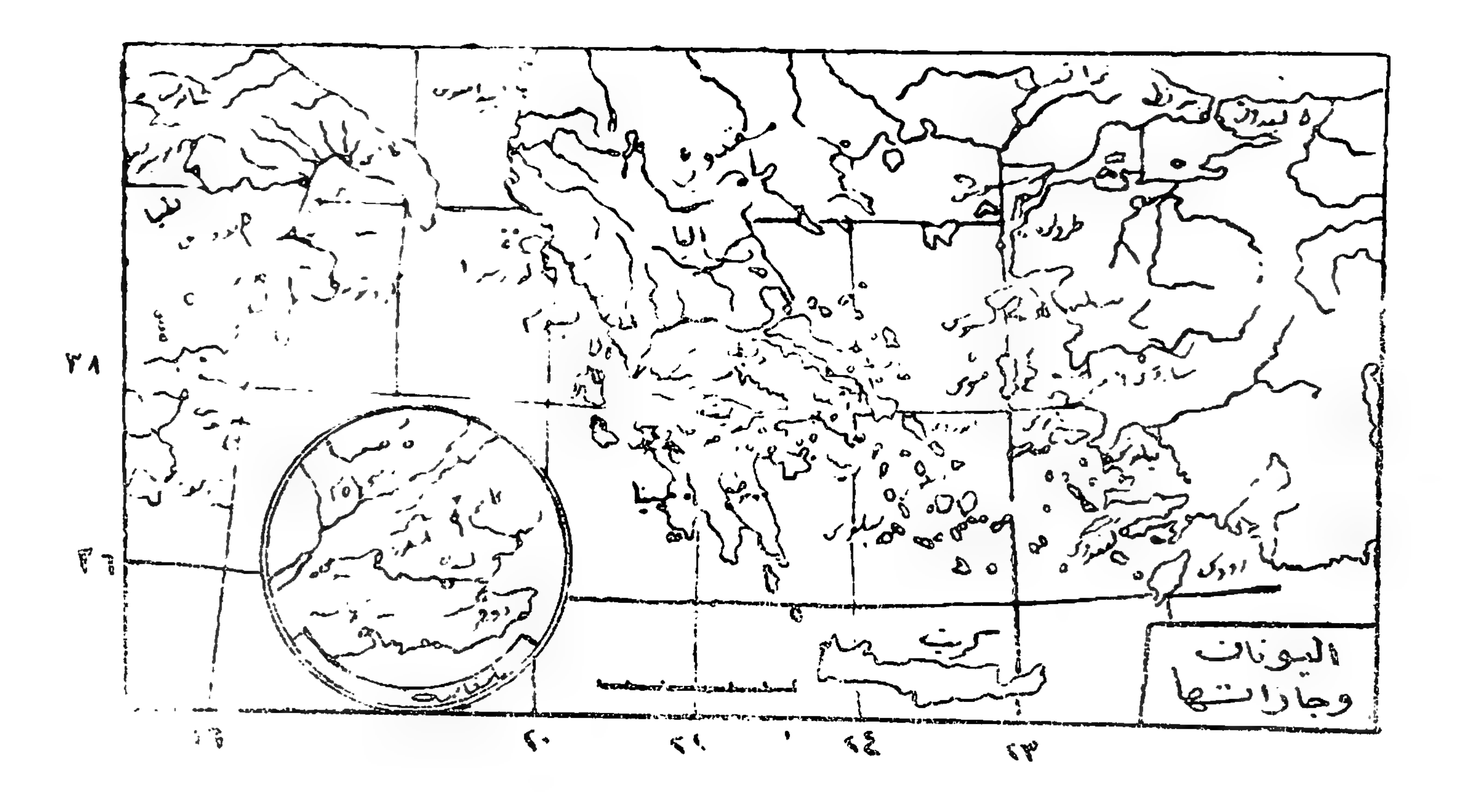
الخرائط



ليس القصد من هذا الكتاب سرد جانب من تاريخ اليونان، فذلك من اختصاص المؤرخين للحوادث والأيام . أما غرضنا فأكثر من ذلك تواضعاً، وهو جمع طائفة من الحقائق المعينة ، وتتبع مجرى أفكار معينة كذلك ، قد تساعد على جعل تلك القصة والرجال الذين قاموا بتمثيلها أكثر وضوحا للقراء الحديثين ، وأيسر فهماً عليهم .

فالحضارة اليونانية تختلف عن حضارتنا من حيث بيئتها المادية ، ومن حيث ما يجيش فيها من إحساسات ، ويشيع فيها من أفكار . والطريقة التي سنتبعها هي أن نعالج أولا المعالم العامة لهذه البيئة ، ثم ندرس النظم السياسية التي وضعها اليونان لها . ثم يلي ذلك دراسة الوسائل التي كانوا يكسبون بها عيشهم أي دراسة « اقتصادياتهم » أو تدبيرهم لشئون المنزل ،ثم أخيرا النزاع الذي قام ،كما يحدث في كل الجماعات المتمدينة الحديثة ، بين الضرورات الدافعة التي يقتضيها التقدم الاقتصادي ، وبين النظم والمثل العليا التي ارتضوها في الحياة القومية . وهو نزاع سبب شقاء نفسياً ، وجر الكوارث على أرقى جماعة يونانية شأناً وهي في أوج عظمتها ، وترك أثره على تفكير وكفايات الرجال الذين وضعوا أساس الفكر السياسي الأوربي .

وبذلك نعالج الحضارة اليونانية من اتجاه مناقض فعلا لذلك الاتجاه الذي كثيراً ما يتبعه الكتاب الحديثون ، أي نعالجها من الجانب الذي يتضح فيه تماماً اختلافها عن حضارتنا ، والذي يمكن أن نرى فيه بسهولة ويسر خواصها التي انفردت بها .


اليونان
وجاراتها
كريت
رودس
٢٠
٢٤
٢٣
٣٨

الحياة العامة اليونانية

Die Griechen sind, wie das Genie, *einfach* : deshalb sind sie die unsterblichen Leherer. — Nietzsche.

إن اليونانيين بسطاء ، مثلهم فى ذلك ، مثل الإله الحارس ، ولذا كانوا معلمين خالدين . — نيتشة .

الجزء الأول : الجغرافيا

هنـــاك صوتان ، صوت من البحر
وآخر من الجبـــال ، وكلا الصوتين جبار
إنك لتطرب لهما من جيـــل إلى جيل ،
فهما موسيقاك الأثـيرة . . . . الحرية .

الفصل الأول

إقليم البحر المتوسط[1]

Ἡ Ἑλλὰς τὰς ὥρας πολλόν τι κάλλιστα κεχρημένας ἔλαχε.

تتمتع اليونان بأرق مناخ وأكثره اعتدالا — هيرودوت ٣ — ١٠٦ .

τὸ τῶν Ἑλλήνων γένος μεσεύει κατὰ τοὺς τόπους.

يتبوأ الجنس اليونانى مكانا جغرافيا وسطاً بين البلدان — أرسطو السياسية ١٣٣٧ .

اليونان بلد من بلاد البحر المتوسط ، وكما يقول أرسطو ، تتوسط الأقاليم المدارية والأراضى الباردة فى الشمال . وإذا ما قورنت بالأقاليم الأوروبية فيما وراء جبال الألب والمناطق الأفريقية وراء جبال الأطلس ، فاليونان كبلاد البحر المتوسط لها جوها ومناخها ، ومناظرها الخلابة الرائعة وبذا كان لها أسلوبها فى الحياة .

وأول ما يسترعى نظر السائح فى تلك البلاد مناظرها الطبيعية التى اجتذبت الغزاة منذ فجر التاريخ ، عندما اندفع البرابرة الأول صوب الجنوب . فقد كانت شعوب الشمال دائماً شديدة التأثر بجمال أراضى البحر المتوسط . وإذا ما ذكر المثقفون من أهل الشمال اليونان وإيطاليا فإنهم يقصدون أثينا وروما ، وذكر هاتين البلدين يذكرنا بجملة خواطر موروثة عن الفن والحرية والقانون.

---

(١) اعتمدت كثيراً فى هذا الجزء وما يليه على كتاب Philippson, Das Mittelmeergebiet وهو كتاب للجمهور كتبه عالم ثقة فى جغرافية البحر المتوسط ، وأحسب أنه لا يوجد مثل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية ، رغم ما نحن فيه من مسيس الحاجة لمثله . وأرجو أن تكون محاضرة الأستاذ مايرز الإفتتاحية عن اليونان والشعب اليونانى Greek Land and the Greek People قد بدأت فى هذه الناحية عهداً جديداً فى التعليم الإنجليزى للدراسات القديمة .

ونظام الحكم ، وهمانى عرفنا مهد قوى من أقوى الدوافع فى حياتنا القومية من حيث أنهما أول منشأ لحضارتنا الغربية الخصبة . أما فى عرف الآخيين والدوريين الذين عاشوا قبل التاريخ ولمن أتى بعدهم من الجلاتين والقوط واللومبارديين والوندال والآوار ، فإن هذه الناحية المجردة لا معنى لها ولا دلالة . ومع ذلك فهم فى بلادهم الشمالية الباردة قد استمعوا إلى نداء الجنوب واستجاب إليه منهم آلاف . وقد ظلوا يندفعون صوب الجنوب الدافىء المشمس شهوراً وسنينا ومعهم أسراتهم ومتاعهم وآلهتهم العائلية الحارسة مأخوذين بما سمعوه من قصص عن أراضى عجيبة فيما وراء التلال . ولما اجتازوا آخر ممرات البلقان الوعرة وضربوا خيامهم ذات مساء على أرض اليونان المنبسطة بين الجبل والبحر ، كانت روعة هذه الدنيا الجديدة وجمالها هو الذى أوحى إليهم بأنهم نزلوا مستقرا وظفروا بموطن . لقد كان لمناظر الجنوب فعل السحر على عيون أهل الشمال التى لم تألف التضاريس الحادة والألوان القوية فأحسوا أنهم وفدوا على أرض ساحرة وأن لا بد لهم من الاستقرار فيها إلى الأبد .

وقد تغنى شعراؤهم من مغنى الغزاة الأول الذين تسلسل عنهم هومر إلى جوته وبايرون وإبسن وبراوننج بهذا السحر ورددوه فى أشعارهم على طول الزمن. إلا أن الشعور بالإنسجام والاستقرار فى الأرض الساحرة أمر عسير إذا استثنينا فترة الغسق حين يطغى السحر على الناس فيرتضون بلدا جميلا منزلا لهم . فقد يغمرنا الخيال ويطغى علينا لحظات ما، ولكن العادة والعواطف قوى أقوى فى طبائعنا وهما أكبر من أن تكتسبا بإغراء سطحى ، والهوة بين الشمال والجنوب أكبر من أن تتصل بمجرد زيارة واحدة أو فى حياة واحدة . فلا بد من عدة أجيال حتى تنصهر الحياة الجديدة فى كيان المرء . وشعراؤنا من أهل الشمال لم يشيدوا بالجنوب إلا من حيث هم غرباء عابرون خياليون لا واقعيون ، متفرجون متحمسون ، أكثر منهم أناسا استقر بهم المقام وارتبطت مصالحهم بالبلاد يعبرون عن حياتهم ومشاعرهم تعبيراً

طبيعيا لا تكلف فيه . فروح الجنوب تظل غريبة عليهم ، رائعة تسترعى عجبهم وفضولهم . ولكنها لا تثبت فى فكرهم ولا تملك عليهم مشاعرهم . وما أشد صراحتهم فى تصويرهم حقيقة إحساساتهم أحيانا أو ما أصدق تلك الصيحة « ما أجمل أن يكون الإنسان فى انجلترا ، التى صدرت عن براوننج وهو يستعرض فى مخيلته تلك المناظر العزيزة عليه ، التى بعد عنها :

ما أروع أن يكون الإنسان فى انجلترا
الآن وقد حل شهر ابريل
فكل من يصحو فى انجلترا
يرى ذات صباح على غير انتظار
الفروع المتدلية من الأشجار
والغصون ، الملتفة حول جذوع شجرة الصفصاف ، قد أورقت
بينما تنبعث أغاريد الطيور من بين أغصان البساتين
فى انجلترا — الآن !

وقد يعطينا ذلك فكرة عما يجب أن يتخلى عنه الرجال عندما يتركون أوطانهم وينزحون نحو الجنوب ومن الخير أن نذكر ذلك فى ابتداء بحثنا .

إذا كان الشاعر قد أحس بالحنين إلى الوطن لحنين الرجل الساذج لابد أن يكون أقوى وأشد ، ولابد أن الغازى المغير قد أسف وندم لتلبية نداء الجنوب واستحمق نفسه إذا ما فتح عينه ذات صباح بعد ليلة مضطربة شديدة الحر — على سماء وهاجه من فوقه ، وأرض ملتهبة من تحته . ولم يكن بغريب أن ترك كثير من « بارونات الفرنجة » فى العصور الوسطى ممتلكاتهم فى اليونان بعد أن حصلوا عليها بعناء وجهد ، وعادوا أدراجهم إلى وطنهم ليموتوا إلى جانب الرين واللوار . ولكن هل هناك شيء أشد إثارة لروح التملك لنبيل من الشمال أكثر من أن يملك مدينة أثينا ويتطلع لأن يورثها لابنه من بعده ؟ . لقد اتخذ أوتو دولاروش أول أمراء الإقطاع فى أتيكا وبيوشيا من « الأكروپول » مستقراً له ومن « البارثنون » مكانا

لكنيسته ولكنه ترك كل ذلك فى شيخوخته ورجع بأولاده إلى سهول برجانديا الفسيحة(١) .

فإذا لم يكن فى وسع رجل الشمال الذى رأى هذا السحر واستسلم له أن يوفق بسهولة بين عقله وروحه وخصائص الجنوب ، فلا شك أن الأمر أشق على أولئك الذين لم يعرفوا أرض الجنوب ، إلا عن طريق الكتب والصور ، ولن يستطيع هؤلاء فهم الحياة فى حوض البحر المتوسط وما أنتجه من أدب سواء فى اليونان أو فلسطين إلا ببذل جهد كبير من الخيال لتصورها ولا شك أنه جهد جدير بأن يبذل ، ولكنه أمر شاق دونه صعاب كأداء ولا سيما على الشباب وذوى العقول التى لم تتدرب . فتقاليد التعليم فى انجلترا ، على أية حال ، لاتساعد كثيراً على التغلب على هذه الصعوبات . فمن تصورات رجل الشمال الخاطئة أنه يتمثل أحراش شجر الزيتون فى «كلوترس» حديقة إنجليزية ، وأشجار الصنار فى إلبسيس يخالها منتزه على نهر التيمز ، بينما يمتد فى نظره منحدر « سنيوم الرخامى » على طوال شاطىء البحر الذى يتنابه المد والجزر كما تمتد الصخور الطباشيرية على ساحل انجلترا الجنوبى .

إن إصلاح تلك التصورات الخاطئة من الصعوبة بمكان ، لأن شعراء اليونان الذين وصل أمرهم الينا قلما وصفوا مناظر بلادهم ، ولم يتناولوا تلك الأوصاف بالتفصيل كما وصفها الشاعر « وردسورث » . فتصوير المناظر الطبيعية فى الشعر كتصويرها بالنقش والرسم لا يكون إلا عندما تبلغ الأمة مرحلة التأمل والتفكير ، وذلك عندما تعرف كيف ترى نفسها فى بيئتها التى تحيط بها . ولم يكن كتاب اليونان حتى القرن الخامس على الأقل قد بلغوا هذه المرحلة من الشعور الذاتى ، فهم ككل الطوائف الساذجة

---

(١) Miller, Latins in the Levant ص ٩١ — ٩٢ قارن ٦٨و٧٤ . إن الكونت Berthold of Katzenellenbogen الصليبى ، الذى أعطى الإشارة لحرق القسطنطينية مثل آخر للحنين إلى الوطن وما زال قصراهما المتواضعان قائمين ! فيقع قصر أوتو أى La Roche-sur-Ognon فى أعلى الساوون بينما يطل قصر Katzenellenbogen على قرية صغيرة فى نساو .

قد افترضوا فى كل من يستمع إليهم الإلمام بمناظرهم وما يحيط بها . فمناظر البحر المتوسط ، كنظم دولة المدينة ، أساس ثابت للحياة والفكر اليونانيين وإنا لنلمس أثر ذلك فى كل شيء . ولكنهم قلما كانوا يعبرون عنها بل تركت لتعبر عن نفسها بشكل حر تلقائى صادق فيما يتناثر من تفاصيل أو يعرض من مصطلحات عند روايتهم لقصة ما ، أو فيما هو مضمن أو مشار إليه إشارة خفية أكثر مما يذكرونه صراحة وقصدا . وتعد تلك الأيماءات ذات الدلالة بالنسبة إلى الملاحظ المدقق للشعوب وللرجال أصدق وأنجح معبر عن الطبع والأخلاق .

وهكذا سيظل المتجول فى بلاد الجنوب ، إن كان على استعداد أن ينس كل ما وعاه ، وأن يبدأ تعلمه من جديد ، يكشف باستمرار عن المعنى الصحيح للكلمات والعبارات والإستعارات التى تعود منذ أيام دراسته أن يعدها ، اقتباسات كلاسيكية ، أو يعتبرها اصطلاحات شعرية ، أو ربما لم يكن قد تنبه إليها البتة . ويجب أن يتغلب الإنسان على أول شعور له بالغربة ويتعود الذهاب إلى الأكروپول فى نزهاته المسائية قبل أن يتبين الباعث الذى حدا ببركليس أن يقول « إن أثينا تظل تشرح القلب وتسر العين يوما بعد يوم » . ثم يجب أن يقف بعد الغروب على مرتفع فى جزيرة ما ، قبل أن يفهم على الوجه الصحيح كلمات (ألكمان) فى أنشودة المساء :

غلب النعاس على التلال ،
شمل الهدوء
الأخاديد والصخور
المطلة على الشاطىء
وأظل هاتك المجارى التى فيها تنساب النهيرات[١].

---

(١) Alcman القطعة ٥٦ التى تبدأ :
ينشر النوم سلطانه على قم التلال وعلى الأخاديد ،
= εὕδουσιν δ᾽ ὀρέων κορυφαί τε καὶ φάραγγες,

أو أن يقدر دقة جوته الفائقة عندما استفاد منهـا فى أغراضه قائلا « شمل الهدوء كل الذرى » .

ويجب أن يجتاز مضايق جزيرة سلاميس ثم ينزل إلى الشاطىء ليرى تلال أتيكا حتى يشعر بما شعر به من استمع إلى إيوريبيدس عندما تغنى جماعة المنشدين :

فى سلاميس الزاخرة بزبد البحر
والأمواج المتلاطمة ، الحافلة بطنين النحل
استقر تلامون الشيخ بعد ترحال طويل
منذ بعيد ، على عرش البحار
متطلعا إلى التلال المحمله بأشجار الزيتون
مأخوذا ، حيث نبتت لأول مرة
فاكهة العذراء أثينا الرمادية البراقة[1] .

ولكن ما يبدو بسيطا واضحا لمن يقيم فى البقعة ذاتها غالبا ما يخفى تماما عن ملاحظة القارىء من أهل الشمال ؛ ولو وجه اهتمامه إليه لبدا له شيئاً غير طبيعى يكتنفه الغموض والأسرار . وإذا استطاع السائح الإستفادة من الدرس فإنه سيعرف تدريجيا ما يجب أن ينشده . فهو يعيش فى الجو الملائم ويغشاه شعور بالبيئة التى فيها صنفت الكتب القديمة ، ويظل يستشعره طوال اليوم . فإذا ما عاد إلى مكتبه أو مدرسته وراجع سوفوكليس أو أرستوفانيز وعقله حافل بالصور ، أمكنه أن يستمع إلى جماعة المنشدين من شيوخ القرية وقد التفوا حول النبع حتى أنه ليكاد يشم رائحة الثوم المنبعثة منهم . أما الزميل الآخر الذى لا يبرح وطنه فلا يمكنه مطلقا مجاراة

= والمرتفعات المطلة على مجارى الأنهر الصخرية .

πρῶονές τε καὶ χαράδραι,

حيث ينبغى أن تذكرنا كل كلمة بمنظر رائع :

(١) إيوريبيدس طروادة — ٩٩٧ وما بعدها ، ترجمة موراى Murray

زميله إلا بالمساعدة والإرشاد . فكم تختلف قصص الرحالة عن الرحلة نفسها . ودراسة الجغرافيا ماهى إلا بديل هزيل لا يعوض عن التجربة الشخصية . فالكتب والمحاضرات والفانوس السحرى لا يمكنها أن تقوم مقام الحياة أو الطبيعة . ومع ذلك فإن محاولة الإرشاد لها قيمتها إلا إذا تملكنا اليأس من تعلم الدراسات القديمة . فلنحاول إذن أن نوضح بعض المميزات البسيطة التى يمتاز بها العالم الذى عاش فيه الشعب اليونانى قبل أن ندرس النظم اليونانية تفصيلا[١] .

تعلمنا فى صغرنا أن العالم مقسم إلى قارات ، وعرفنا أن البحر المتوسط يحف بثلاث قارات من الخمس ، فهو يفصل بين أوروبا وآسيا وأفريقيا . ونحن نعد أوروبا متحضرة وآسيا شرقية أو جامدة وأفريقيا بربرية ؛ أو إذا اعتبرنا الفاصل دينيا أكثر منه حداً يفصل بين حضارات مختلفة ، فأوروبا مسيحية ، وآسيا وأفريقيا مسلمتين . وفى هاتين الحالتين فنحن إنما نفكر على أساس القارات ، جاعلين من الأرض محور تفكيرنا .

ما من شك فى أن هذا الأمر طبيعى فى لندن ، ولكنه يبدو غريبا فى القسطنطينية ، حيث يعبر رجال الأعمال مرتين كل يوم ببواخر صغيرة من قارة إلى أخرى . والواقع أن هذا كان مضللا دائما بالنسبة إلى الجغرافيا الطبيعية ، لأن البلاد المحيطة بالبحر المتوسط تعتبر من حيث البيئة والمناخ إقليما خاصا متميزا مهما من أقاليم الأرض . وهو مضلل أيضا من حيث التاريخ والسياسة . فمنذ الإحتلال الفرنسى للجزائر لم يعد شمال أفريقيا بربريا ، كما أنه بقيام المجلس النيابى فى أنقرة ، وبامتداد خط حديدى إلى قبر النبى فى المدينة قد نفى عن

---

(١) ليس هذا مكان سرد الحجج الخاصة لمناقشة هل نستعمل اللغات اليونانية واللاتينية وآدابهما كوسائل لتعليم الصغار أولا نستعملها. ولكن يجدر بنا أن نشير إلى أن مثل هذه المحاولة لاستعمال اللغة الإنجليزية وآدابها كوسيلة تعليم فى الهند قد لاقت نقداً شديدا من كثير من هؤلاء الذين حبذوا التقاليد الكلاسيكية للتعليم الإنجليزى — ١٩٢١ . أنظر فى ذلك التقرير العظيم الذى وضعته لجنة سادلر عن جامعة كلكتا الذى سيظل لأمد طويل مرجعا رئيسيا ، ليس فقط لمشكلة التعليم فى البنغال بل لكل المشاكل المشابهة لها فى البلدان الأخرى .

الشرق الأوسط وصمة الجمود . فها نحن نعود ، فى الواقع ، إلى الظروف السوية المعتادة لأن منطقة البحر المتوسط كانت تعتبر دائما فى نظر اليونان وحدة ، والبحر المتوسط نفسه طريقا عاما ، لا حداً يفصل قارات بعضها عن بعض. فالعالم فى نظرهم « حافة أراضى ساحلية متقاربة محيطة بالبحر المتوسط الذى هو بحرنا » . وكلمة بحرنا أو « هذا البحر » هى فعلا الاسم الوحيد الذى أطلقوه عليه . لقد عرفوا البلاد التى تحف البحر مباشرة معرفة لا بأس بها . أما البلدان التى وراء الساحل فقد كانت بالنسبة لهم شيئاً غامضا مليئا بالأسرار. وهى تختلف من حيث مناخها وعادات أهلها إختلافا كثيراً عن بلاد الساحل. وقد توغل هيرودوت فيما وراء إقليم البحر المتوسط الحقيقى حتى سيثيا وبابل ، وفى أراضى مصر وليبيا الداخلية . وقد أتاح لنا كتابه أن نعرف نظرة الإغريق إلى البلاد الخارجة عن نطاق البحر المتوسط[1] .

تختلف منطقة البحر المتوسط من حيث البنية عن البلدان التى تحيط بها فهى أحدث منها جيولوجيا . وإن نظرة إلى الخريطة الجيولوجية لتعرفنا أن معظم هذه البقاع تتكون من سلاسل جبال حادة وعرة حديثة الالتواء جيرية فى الغالب . ويرى السائح فى البقاع المنعزلة فقط كتلك « التلال البتراء» التى حول القسطنطينية ما يشبه ما اعتاده فى انجلترا ، وذلك يزيد فى روعة المناظر ولكنه كذلك يزيد فى صعوبة المواصلات البرية وهى ميزة دائمة

---

(١) كتب مايرز عن الشواطئ المتقاربة فى Anthropology and the Classics ص ١٢١ والإشارة إلى هيرودوت ٤ — ٣٦ — ٤٥ . لم يستطع هيرودوت (الفصل ٤٥) أن يفهم « لماذا قسمت الأرض ، وهى واحدة ، ثلاثة أجزاء سميت على أسماء نساء » . فالأسماء — أوروبا وآسيا وليبيا لم تكن معروفة عند هومر وظهرت لأول مره فى بندار وأسخيلوس (مثل بندار ٥ — ٤١٣) . قارن مقال مايرز The geographical Aspect of greek Colonisation الذى نشر فى Proceeding of the Classical Association الجزء الثامن (١٩١١) وفيه يستمسك بالصبغة « اليونانية الدائمة » لشاطئ البحر المتوسط حتى الآن، ويبين كيف أن « فى أهم وظائف الحياة البشرية ، وفى كل العلاقات الهامة بين أجزائها المختلفة» — كيف « أن الدنيا القديمة التى كانت حتى فى العصر الرومانى دنيا يونانية غالبة — كانت تطل من الداخل على شواطئ بحر يتوسط اليابس » Midland Sea.

تميزت بها الحياة فى البحر المتوسط . وفى بعض الأحيان ، كما هو الحال فى دلماشيا مثلا ، التى تعد شيلى أوروبا ، تنفصل قطعة من الأرض تماما عن الإقليم الذى وراء الجبال ، مما يؤدى بها إلى أن تحيا حياة خاصة مختلفة عن الحياة فى المناطق الأخرى طوال معظم عصور التاريخ .

هذا والبحر بسعته وأبعاده الحالية يعد أحدث من الصخور ، والدلائل على ذلك كثيرة متعددة ، منها ظهور بقايا متحجرة من الأفيال والأقزام فى مالطة وصقلية وساردينيا مما أقنع الجيولوجيين أنه قد حدث فى بعض العصور الحديثة جيولوجيا هبوط فى بقاع فسيحة من تلك المنطقة نتج عنه ، بطبيعة الحال ، طغيان البحر . وإلى هذا ترجع تلك الأغوار والمنخفضات التى تتخلل سلاسل الجبال فى أجزاء كثيرة وتسبب تعرج الساحل ، والجزائر الصغيرة والكبيرة التى لا حصر لها ، وكذلك الصخور الغارقة فى بحر إيجة . إن المرتفعات الصخرية التى برزت أومايسميه سوفوكليس « الأخاديد البحرية » فى جزر السيكلاد ليست إلا استمراراً لسلسلة الجبال الرئيسية عبر منخفض مغمور بالمياه . وإلى هذا أيضاً ترجع تلك المضايق الغريبة التى نجدها فى البلاد اليونانية والتى تشبه قليلا بحارنا الضيقة عند دوفر أو سترانرير . ثم إن البسفور والهلسبونت ثم « إيوريپوس » كلها ممرات ملتوية ضيقة كثيرة المنحنيات والزوايا ، والواقع أنها وديان أحدثتها التحات وغمرتها المياه فيما مضى ، وكان القرن الذهبى المشهور نهرا فرعيا فى وقت ما[1] .

وزيادة على ذلك فإن ظاهرة هبوط الأرض هذه لم تكمل بعد ، كما تدل على ذلك بكل وضوح كلا بريا وصقلية . والزلازل والبراكين أمر عادى للإنسان الذى يعيش فى أقليم البحر المتوسط . حتى أنه استرعى نظر هيرودوت « اعتبار حدوث زلزال ،فى سيثيا « شتاء كان أو صيفا أمر عجيب »

---

(١) خلجان البحر . Trachiniae, ١٠٠ .

وقد رأينا أثر ذلك فى الدين والأدب . فالأرض الثابتة لم تكن بالنسبة لليونان ، ماهى بالنسبة إلينا .

ولكن يجب علينا أن نتجه إلى البحر أولا ، فهو أحق أن يتقدم فى الدراسة الأرض الثابتة فى جغرافية البحر المتوسط[١] .

---

(١) هيرودوت ٤ — ٢٨ ، سترابون ٥٧ — ٩ يعطى قائمة عن خسائر الزلازل والبراكين. وفيما يخص الشعور العام ، إيوريبيدس Bacchae ٧٣٩١ ثم فقرات عديدة أخرى فى هذا المعنى .

الفصل الثانى

البحر

Θέρε γὰρ

هيا

حددوا أى عون يجب أن أقدمه

σήμαιν᾽ ὅ τι χρή σοι συμπράσσειν·

لن تستطيع أن تقول أن

Οὐ γάρ ποτ᾽ ἐρεῖς ὡς ᾽Ωκεανοῦ

لك صديقاً أخلص من الأقيانوس

φίλος ἐστὶ βεβαιότερός σοι·

(Aeschylus, Prometheus Vinctus 294.)

Πῶς δὴ ἄνδρες γεωργοὶ καὶ οὐ θαλάσσιοι
... ἄξιον ἄν τι δρῷεν;

كيف يتسنى لمزارع لا يعرف البحر ... أن يقوم بعمل جدير بالذكر؟
بركليس فى توكيديدس ١ — ٤٢ — ٧

يعرف كل إنجليزى « البحر » ولكن بحر اليونان غير البحر الذى يعرفه الإنجليزى، فهذا بحر مغلق من جميع نواحيه كما يدل عليه اسمه إلا إذا استثنينا المنفذين الضيقين عند جبل طارق والدردنيل . فالبحر المتوسط يبدو هادئا هدوء بحيرة داخلية . إلا أن فى تسميته بالبحيرة إنتقاصا له ولإمكانياته ، فهو فى الحقيقة ذو طبيعتين ، فأحيانا يكون فى هدوء بحيرة حتى ليكون أصلح للمجداف منه للشراع وأحيانا يكون هائجا كالمحيط ، كما يمكن أن يعبر عنه البحار اليونانى الهياب : لا يصلح فيه إبحار بمجداف ولا بشراع ، وبعبارة هذا البحار نفسه . هو بحيرة عندما ترضى الآلهه ومحيط حينما تغضب . وطبيعة البحر المزدوجة هذه لها ميزاتها ، فبعضها لها أثر رائع فى حياة السكان الذين يعيشون على جانبيه .

وهذا البحر غير ذى كفاية ذاتية فهو كبحر داخلى معرض لنقص مستمر بسبب التبخر ، ولا يعوض هذا النقص ما يرد إليه من المياه العذبة إذ لا يصب فيه سوى ثلاثة أنهر كبيرة : النيل والرون والبو ، أما أمطاره فقليلة نسبيا .

ولو كان البحر المتوسط مقفلا تمام الإقفال لأدى ذلك التبخر المستمر إلى جفاف بعض نواحيه جفافا تاما ولصار، كما كان فيما مضى، سلسلة بحيرات ملحة على حد قول بعض الجيولوجيين . والبحر على حاله الآن أشد ملوحة من المحيط الخارجى ، ويزداد ملوحة فى نواحيه الشرقية ، ومن ثم انتشرت من القدم عملية جمع الملح أو تركيزه، كما يسميه اليونان، فى أحواض خاصة ، وقد كانت عملية سهلة هينة . وراجت تجارة الملح بين الشواطىء والبلاد الداخلية المفتقرة إليه . وعادة كان يستبدل بالملح الرقيق حتى أطلق اسمه على قوم رخيص من العبيد « مُليح » . وهناك طريقان رومانيان لم يسميا باسم مصممهما وهما طريق « لاتنيا » وطريق « سالاريا » وهو الطريق القديم العام الذى كان يستعمل لنقل الملح من شاطىء « أوستيا » إلى الداخل عن طريق وادى التيبر[١] .

ويستعيض البحر نقص مياهه من جهتين: من المحيط الخارجى ومن موارد المياه العذبة الهائلة التى تجلبها أنهار روسيا والدانوب إلى البحر الأسود . ولا يزيد اتساع مضيق جبل طارق على سبعة أميال ، وهو ضحل نسبيا ، وقديما كان أضحل من ذلك وأضيق ، ولا تكاد تدخل منه كميات من المياه

---

(١) Teiresias فى الأوديسة ١١ — ١٢٣ يتحدث عن شعوب يسكنون أقاليم داخلية يأكلون طعامهم دون ملح ، وربما كان يتكلم (كما يتكلم نبى) عن علم صحيح، لأن شعوب الصيادين والرعاة الذين يعيشون على اللحوم واللبن لا يحتاجون إلى ملح . فأكل الحبوب هو الوحيد الذى لا يستغنى عن الملح ؛ ولذا ختى فى اليونان بقيت تقاليد عن تلك العصور التي لم يكن الناس فيها يستعملون الملح ، والتي كانت تقدم فيها القرابين من اللحوم بدون ملح دائما. أنظر فيما يخص ἁλώνητον (التمليح) فى سويداس (Suidas). . هناك كلمة أخرى إشتقت من الملح هى سالاريوم (Salarium) ، كانت فى الأصل النقود التى تعطى للجنود مع جراياتهم لشراء الملح (أنظر التذييل) .

كافية تسوى منسوب البحر المتوسط بمستوى المحيط الأطلنطى . ومضيقا الدردنيل والبسفور أقل إتساعا من مضيق جبل طارق . ذلك إلى أن شدة تيار المياه عند منفذى البحر المتوسط وشدة إندفاع الريح عند المضايق جعلا منافذه إلى المحيط الأطلنطى وإلى البحر الأسود صعبة الإجتياز على السفن الشراعية قبل اختراع السفن البخارية .

قبل العصر الهيلانى لم يعرف اليونان إلا القليل عن المحيط الأطلنطى ، وقد ظلت معرفتهم زمنا طويلا لا تتعدى جبل طارق الذى أسموه أعمدة هرقل . وهذا الاسم نفسه يبين ما انطبع لأول وهلة فى نفس بحار آت من الشرق . فالصخرة الطويلة ذات اللسان الممتد فى المضيق، وهى ما يشبهها اليونان بذيل كلب ، تبدو للبحارة المقبلين من المغرب كأنها عمود . وقد دفعت الرياح الشرقية بجماعة من البحارة، ضلوا طريقهم، إلى المضيق واجتازوا الطرف الأغر ودخلوا خليج قادس واكتشفوا سوق « العذراء » فى تارتسوس على نهر الوادى الكبير ، ولكنهم لم يعرفوا شيئا البتة عما وراء رأس « سانت فانست » . حتى هرقل نفسه لم يذهب إلى أبعد من جزيرة « جيريون » فى خليج قادس . فالمرء ، كما يقول بندار ، لا يمكنه أن يبحر فى الظلمات غرب قادس فارجع بالسفينة إلى «أرض أوروبية». وقد سمع هيرودوت بعض القصص عن القصدير الذى يجلب من جزائر القصدير ولكنه لم يتمكن من أن يقف على شيء واضح محدد عن ذلك . وزيادة على ذلك فإنه يخبرنا فى حديث ، له مغزاه ، عن حملتين استطلاعيتين شقتا طريقهما إلى تارتسوس ، إحداها من الفوكيين والأخرى قام بها كوليوس من جزيرة ساموس ، ويحتمل أن ذلك لا يرجع إلى رغبة فى التسابق لإحراز شرف الإكتشاف، كما هى الحال بالنسبة للقطب الشمالى ، بل إلى أن الطريق كان خطراً لدرجة أن المواصلات لم تكن ممكنة

، ولا ميسورة[١] .

ولم تكن صعوبة إجتياز جبل طارق وحدها الحائل دون وصول اليونانيين إلى المحيط الأطلنطى ، بل كان هناك أيضاً عائق آخر وذلك هو منافسة القرطاجنيين لهم . فبحارة قرطاجنة إمتدت على طول سواحل الأطلنطى الغربية من ساحل أسبانيا وأفريقيا، وقد دار أهلها حول رأس الرجاء الصالح وتوغلوا فى البحار الشمالية للحصول على القصدير من كورنوول وجزائر سيلِز . ولدينا تقرير قرطاجنى باللغة الإغريقية عن طريق غرب أفريقيا عرف باسم رحلات هانو ، ويبدو أن رديارد كبلنج قد اعتمد عليه فى قصته « المخاطرة المرحة » فى كتابه Puck of Pook's Hill . وهى قصة جزيرة يسكنها نساء ذوات شعور شعثاء يعضضن ويخدشن ، متوحشات يسميهن المترجمون « غوريلات »[٢] .

وقد كان من صالح القرطاجنيين طبعا ، وصالح كل القوات البحرية الأولى أن يجعلوا رحلاتهم سرا محفوظا ، وأن يبالغوا فيما يكتنفها من أخطار ، وظلوا زمنا طويلا وهم ينفردون بمناجم القصدير فى انجلترا قبل أن يعرف الطريق إليها منافسوهم من الرومان الذين تلوا اليونان . وقد بين سترابون الجغرافى كيف عملوا على إحتكارها ، فى وصف شيق عن هذه التجارة البريطانية إذ يقول :

---

(١) ظهر اسم إطلنطيق لأول مرة فى هيرودوت ١ — ٢٠٣ فى شكل ἡ ἔξω στηλέων ἡ 'Ατλαντὶς καλεομένη (θάλασσα) . بندار Nem. ٤ — ٦٩ (فى رجوعه من قادس) ؛ ولكنه يتكلم فى موضوع آخر بنفس طريقته عن العمود : Ol. ٣ — ٤٤ و Nem. ٣ — ٢١. (أنظر إيوريبيدس س Hipp. ٧٤٤). هيرودوت ٣ — ١١٥ (جزائر الصفيح) . فيما يخص جزيرة جيريون أنظر هيرودوت ٤ — ٨ وهزويد Theog. ٢٨٧ و ٩٧٩ ، وفيما يخص المستكشفين أنظر هيرودوت ١ — ١٦٣ ثم ٤ — ١٠٢ (ἀκήρατον ἐμπόριον) . ثم هناك « ذيل كلب » (κυνόσουρα) فى مرتون مثلا ، وأخرى فى سلاميس .

(٢) Ἄννωνος περίπλους فى Geographi Graeci Minores (طبعة ديدوت). ومن المحتمل أنها ترجع الى ما بين ٤٦٦ — ٤٥٠ ق . م. أما مايخص (الغوريلا) فانظر ١ — ١٣ مع ملاحظة طريفة. إن جزيرة الغوريلا تبعد عن ساحل سيراليون . وربما كان شرف أول إكتشاف لانجلترا يرجع إلى البحارة اليونانيين الذين من مرسيليا ، ولكن مدينتهم التى عاشت حياة منفصلة عن حياة اليونان الشرقيين لم تقو على منع غيرهم من اكتشافها .

يبلغ عدد جزر القصدير هذه عشرة ... إحداها غير مأهولة والباقى يسكنها رجال يرتدون ملابس سوداء ويلتفون بعباءات طويلة تصل حتى أقدامهم ومربوطة عند صدورهم ، ويتكئون فى مشيتهم على عصى ، كما يمشى الفيورى فى المسرحيات ، ويعيشون على منتجات ماشيتهم ، ويسود حياتهم التنقل والترحال ، وعندهم من المعادن القصدير والرصاص ، يقايضون بهما وبجلود الماشية، التجار ، نظير الفخار والملح والأوانى النحاسية . وقد انفرد الفينيقيون وحدهم تقريبا بتجارة قادس وأخفوا الطريق عن كل إنسان . ولما إقتفى الرومان أثر أحد ربابنة المراكب ليعرفوا بأنفسهم مكان تلك السوق دفع الرجل بمركبه إلى شاطىء ضحل ليخيف من تعقبه من الرومان من هذا المصير ، وقد نجا الرجل بأن أمسك ببعض أجزاء باقية من المركب الغارقة ، وكافأته دولته بأن دفعت إليه ثمن حمولة المركب المفقودة . ورغما عن هذا فقد ثابر الرومان حتى اكتشفوا الطريق .

ونجد أمثال تلك القصة فى حوليات الرحلات البحرية الكبرى التى قام بها الهولنديون والبريطانيون إذ يسيرون فى إتجاه عكس الإتجاه المتبع فى البحار الخطرة المحتكرة[1] .

واجتياز الدردنيل والبسفور كان أشق من عبور مضيق جبل طارق ، إذ يجرى فيه تيار شديد تصحبه عادة رياح عاتية[2] . ومتوسط سرعة التيار فى الدردنيل أو الهلسبونت ، الذى كان أكثر اتساعا من البسفور ، تتراوح بين ميلين وستة أميال تقريبا فى الساعة . وحينما عبره بايرون عند أضيق نقطة فيه كان يقطع أربعة أميال ليتقدم ميلا واحداً . أما فى البسفور ، فمتوسط سرعة التيار ترتفع حتى تصل ثلاثة أميال ، وقد بلغ من شدة

---

(١) سترابون ١٧٥ — ١٧٦ من المحتمل أن الغموض القرطاجنى كان هو المسئول عن خرافة الأطلانطس — وهو اسم ما زال يجرى على شفاه الرجال ، فلا تزال تحمله بشكل ملائم كل الملاءمة ، جريدة يونانية تظهر فى نيويورك (أنظر التذييل) .

(٢) كما يلاحظ كينج ليك Kinglake فى Eothen (الفصل الثالث) ، فى لغة شعرية رائعة لا يتناسب ذكرها هنا .

اصطدامه بالشواطيء أن حفر فى بعض جهاته موانيء فعلية للسفن .

وقد ترك لنا بوليب وصفا لطريق البحر الأسود يمكن أن نتحقق من صحته من اتجاهات الملاحة فى دليل السفن المسمى « بايلوت » الذى تصدره إمارة البحر البريطانية[١] .

والصعوبة الكبرى فى الهلسبونت اجتياز الركن الأول عند رأس سيجيوم، التى احتلها بيزستراتوس باسم أثينا فى إبتداء ظهور قوتها البحرية . فى تلك المنطقة يندفع التيار على الساحل الأسيوى بقوة شديدة دون أن توجد بها دوامات عكسية لمقاومته . ولهذا يرجع بعض الكتاب أهمية موقع طروادة فى الأزمنة القديمة . ولم تحاول السفن الصغيرة فى ذلك الوقت الدوران حول الرأس بل كانت تفرغ حمولتها حين ترسو على الخليج الصغير لجزيرة تنيدوس وتحمل البضائع برا إلى الخليج عند منعطف الركن. ويسيطر تل طروادة بموقعه على هذا الطريق البرى . وكان الرؤساء هناك يحمون هذا الطريق ويفرضون جعلا على كل من يمر به . وتحرص السفن الآن إذ ما وصلت المضيق ، على تجنب التيار الرئيسى الذى يمكن تمييزه بوضوح ، فتسير فى وسط الدوامة ، حتى إذا ما اجتازت المضيق إلتزمت الشاطيء الأوربى حتى تتفادى الرياح الشمالية ميممة صوب بيزنطة ، وهذا ما اتبعته السفن قديما ، إلا من حيث توجيه السفينة إذ كان يزيد من متاعبهم عجزهم عن السير فى مواجهة الريح[٢] .

---

(١) بوليب ٤ — ٤٣ — ٤٤ (كُتِبت كما يقول لدحض قصص البحار فى أيامه) . Med. Pilot الجزء الرابع ١٠١ — ١١٨ (طبعة ١٩٠٨) Sailing Directions for Dardanelles ص ٢٦ وما بعدها (الدردنيل) ، ص ٩٤ ومابعدها (البسفور) .

(٢) Med. Pilot (١٩٠٨) الجزء الرابع ص ١١٨ وطبعة سنة ١٨٣١ ص ٢٧٥ و ٢٨٠ . بوليب ٤ — ٤٤ — ٦ . طبعا كان التيار هو المسئول (كما فى أى نهر) عن كثير من الأماكن الضحلة الخطرة . إن أول تفسير لأهمية طروادة هو ما ذكره برارد Bérard فى كتابه Les Phéniciens et l' Odyssée الجزء الأول ص ٧٩ — ٧٢ . وقارن مورای فى كتابه Rise of the Greek Epic ص ٣٨ (الطبعة الثانية ص ٥٩) . وفيما يخص سيجيوم أنظر هيرودوت ٥ — ٩٤ إلى ٩٥ . كانت ريح الدردنيل هى المسئولة عن استيلاء الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ . وقد حجزت فرقة إغاثة فى جزيرة تنيدوس مدة شهر =

والبسفور أكثر صعوبة من الدردنيل إذ تمتد ممراته إلى خمسة عشر ميلا ، ويتراوح اتساعها بين ميل وربع ونصف ميل ، ويتعرج التيار فى إندفاعه من زاوية إلى أخرى أكثر من سبعة مرات . وآخر هذه المنعرجات تبدأ من سكوتارى أو خريسوبوليس على الشاطىء الأسيوى ، حيث تقول الأسطورة أن أيو Io قد نزل فيها إلى البر ، وأن الكبيادس قد أسس فيها الجمرك عام ٤١٠ ق . م . ثم ينتهى هنا المنعرج عبر نقطة السيراليو عند مدخل القرن الذهبى تحت سفح قلعة بيزنطه القديمة ، حيث يطفو إلى اليوم مركب أغرقها التيار . وهنا ينقسم هذا التيار إلى قسمين : أحدهما ضئيل يدخل القرن الذهبى ، والآخر يرجع ثانية إلى وسط القناة . إلا أنه هذه المرة لا يندفع عابرا بحر كالسدون فى الجهة المقابلة ، لبعد الأرض ، ولكنه يندفع إلى بحر مرمرة أو پروپونتيس ، وبذا تبقى كالسيدون بمنأى عنه . والواقع أن بوليب قد أصاب فى قوله « إنك دائماً تصل بيزنطة أردت أم لم ترد ، ولكن مهما كانت إرادتك أن تصل كلسدون ، فمن الصعوبة بمكان أن تحقق ما تريد » . والواقع أن هذا ينطبق على الذهاب والإياب لأن الطريق الطبيعى لاجتياز البروپونتيس هو أن تلزم الشاطىء الشمالى أكثر مما تلزم الضفة اليمنى فإذا ما بلغت القسطنطينية ، وكانت الرياح غير موانية أو التيار شديداً جداً أو إجتمع الأثنان معاً أمكنك أن ترسو قرب سور المدينة الجنوبى ، كما تقول

= بأكمله . أنظر Sir Edwin Pears فى Destruction of the Greek Empire ص ٣٥٢ (والمؤلف مقيم منذ قديم فى القسطنطينية) . هذا الكتاب وما كتبه المؤلف عن احتلال البندقية فى ١٢٠٤ يزخران بكثير مما يكشف عن تأثير جغرافية هذه الجهة الفذة على تاريخها — ١٩١٤ . وقد تركت الفقرة فى النص بدون تغيير فعلى لأن ذكر طروادة إنما كان عارضاً . ولكن ليف Leaf يناقش فى كتابه Troy, A study of Homeric Geography ص ٢٥٧ وما بعدها مثبتا أن خليج بيزكا فى قناة تنيدوس يستحيل أن يصلح مكانا لابتداء طريق برزخى ، وأن طروادة كانت حصنا يقطع طريق الدردنيل البحرى بسيطرتها البرية ، وتعوق السفن المارة أكثر منها محطة لجبى المكوس فى ممر أرضى فى برزخ . ولهذا غدت كما يرى ، مركزاً لسوق سنوية كبيرة (ص ٣١٤) ، يأتى إليها التجار من جميع الجهات — ١٩٢١ . أنظر أيضاً ليف Leaf فى كتابه Homer and History ص ٧٢ .

التوجيهات البحرية. وهكذا يكون أبولون قد أصاب عندما رمى الميجاريين بالعمى عندما فضلوا تأسيس مستعمرتهم فى كالسيدون دون بيزنطة. فلما كانوا لا يبحثون إلا عن مستعمرة زراعية فقد فضلوا الخلجان الهادئة والشواطئ الزراعية المثمرة على خليج أزمير حيث تنتشر فى الوقت الحاضر منازل مدينة القسطنطينية الفخمة، فضلوه على موقع من أحسن المواقع التجارية والحربية فى العالم[1].

وهنا ندع الكلام عن الممر الشرقى ونعود إلى الممر الغربى. فهناك أمران آخران ينجمان عن طبيعة مضيق جبل طارق، فهو مضيق ضحل جداً لا يسمح بدخول مياه البحر العميقة الباردة التى تأتى إليه من المناطق القطبية عن طريق محيطات العالم، وبذلك تكاد تكون درجة حرارة قاع البحر المتوسط هى درجة حرارة المياة القريبة من سطحه تقريبا. وأما مقدار دفئه هذا فيعرفه كل مسافر لم يعبأ بالنذر المحلية، فتجاسر وغاص فى البحر فى وقت يبرد فيه الماء لدرجة تمنع المرء من أن يستحم فيه. وقد يضيف هنا علماء الطبيعة فصلا عما لذلك من أثر فى حياة الكائنات التى تعيش فى البحر المتوسط، على أنا لن نتناول هذا الأمر فى بحثنا هذا.

ثانياً: يخلو البحر المتوسط من المد والجزر على الصورة التى يعرفها الشماليون وما به من مد وجزر خاصين يمكن قياسهما فى كل مكان ويمكن ملاحظتهما تماما فى بعض الجهات، على حين أن مد محيطنا الكبير وجزره قلما يصلان فيه إلى أكثر من منفذه. وانتفاء المد والجزر ميزة كبيرة من عدة نواح، إذ يسهل استعمال الموانىء والمراسى وبناء الأحواض وإنشاء

---

(١) ثبت الانتحال على أبولون مرة، فنصيحته للبيزنطيين بأن يؤسسوا مدينتهم «تجاه الرجال العمى» قد ذكرها سترابون (٣٢٠)، وكانت «أسطورة طيبة لتأسيس مستعمرة»، إذ كانت كل مستعمرة يونانية تستند فى تأسيسها لمثل هذه الأساطير. ولسوء الحظ يخبرنا هيرودوت (٤ — ١٤٤) أن هذه الملاحظة صدرت عن الجنرال الفارسى ميجابازوس الذى زار المدينة بعد تأسيسها بسنين كثيرة، مضيفاً أنها كانت لا تزال مذكورة فى تلك المنطقة. إن برزخ إسطنبول هو البسفور «المماثل» لطروادة، ولكن بما أن هذا المكان كان محتلا باستمرار فليس هناك أى دليل على أنه كان «مركزاً حصينا للتبادل» فى العصور المتقدمة. Scutari: إجزينوفون. Hell ١ — ٢٢ — ١، المرسى الجنوبى: Med. Pilot طبعة ١٨٣١ ص ٢٧٨.

الموانئ . وليس لأبحار فى زورق أو الرسو به فى البحر المتوسط ،أصعب منه فى أنهار انجلترا ، وقد كانت زوارق اليونان الصغيرة ، وحتى المراكب ذات الثلاث طبقات ، وبعض المراكب التجارية ترسو قرب الشاطىء ، ثم تسحب إليه بضعة أقدام توطئة لشحنها وصعود الركاب إليها ، ومن ثم كانت تلك « المعارك على السفن » التى كثيراً ما ترد فى كتب التاريخ والأساطير اليونانية حيث تقطع فيها أيد الرجال وهم متعلقون بمؤخرة مركب حربية فى أثناء دفعها إلى الماء . كما وقع لأخى أسخيلوس فى موقعة مرثون . ومن ثم أيضاً كانت الموانىء اليونانية تختلف إختلافا ظاهراً عن الموانىء الإنجليزية . فليس هناك إفريز عال أو سور أو شاطىء بعيد الأمتداد تنتشر عليه صغار الحصا والأعشاب المائية بل كل شىء أنظف وأحكم ترتيبا ، وسكان «الفيلات» التى على ضفاف البسفور يمكنهم فتح نوافذهم البارزة التى تطل على البحر . وفى أيجينا يستطيع صيادى السمك أن يلقوا بما معهم من الأسفنج على طول الطريق العام . وتصف لنا ناوزيكا وكانت تحب النظام فى كل شىء ، ميناء أبيها النموذجى فى فايكيا وما كان عليه من نظام فتقول « هناك على جانبى المدينة ميناءان جميلان بينهما مدخل ضيق كانت السفن المقوسة تجر منه على الطريق ، ولكل رجل شقة خاصة به » . ثم تستطرد فى الحديث قائلة « وهناك السوق وبها مخازن للوازم السفن ثم مصانع للمجاديف » . هذا النظام نفسه نشهده اليوم فى كثير من موانئ الجزائر حيث يوجد مكان ضيق يكفى لحشر المدينة فيه بين الميناء والتلال وقد زاد مظهر الدقة الناتج عن حسن ترتيب السفن على طول الرصيف المنخفض بسبب حدة الساحل (كما يظهر لكل من يحاول المسير بمحاذاة الشاطىء على الطريقة الأنجليزية) ، كما زاد فيها الحد الذى يظهر واضحا قويا حيث تتقابل الصخور الدكناء فى المياه المزبدة على طول الشاطىء[١] .

---

(١) الأوديسة ٦ — ٢٦٣ إلى ٢٦٩ (فايكيا) ؛ هيرودوت ٦ — ١١٤ (معركة على السفن) ؛ ٧ — ١٩٨ (المد والجزر فى خليج ماليان) ، لكن المد والجزر يلاحظان أيضا بوضوح فى الليدو بالبندقية .

ومن جهة أخرى فللمد والجزر ميزات أخرى من السهل أن يعرفها اليونانى ويقدرها . فهما مصدر قوة محركة عليهما يعتمد البحار مطمئنا كل الأطمئنان فيوفر بذلك على نفسه كثيراً من المتاعب ، إذ يمكنه مقاومتها ووقفها فى لحظة واحدة باستعمال المرساة وهى من أبسط الوسائل وأقدمها . ومن أصعب المشاكل التى واجهت اليونانى قديما الإبحار من الموانىء التى لا تهب عليها رياح .وربما يثير فيه منظر السفن وهى تنزلق وتتهادى مع المد والجزر عند مصاب أنهارنا الشمالية الحسد والحسرة .

وإذا كان البحر المتوسط قد حرم المد والجزر فقد عوضته التيارات عن ذلك النقص إلى حد ما ، وهذه يجب على البحارة أن يحسبوا لها حسابا كبيراً وخاصة فى المضايق . وكما لاحظ سترابون « فلتلك التيارات أكثر من إتجاه للسير فى المضيق » ، واختلاف خصائصها يشغل باله باستمرار . والتياران المعروفان حق المعرفة هما تيارى فى مضيق مسينا ومضيق إيوريپوس .

وليس فى سيلا ولا فى خاريبدس ما يعترض البواخر الحديثة ، وتلك الدوامات الصغيرة القريبة من ميناء مسينا والتى عرفت بخاريبدس لا يمكن أن تكون مصدر تهديد أو فزع كبيرين ، ولكن التيارات الناشئة من تقابل البحرين ، فضلا عن الرياح ، جعلت مسير السفن قديما فى هذا الممر أمرا شاقا . وقد كان توكيديدس وهو الذى لاحظ ذلك ، والذى كان يجعل للأساطير معنى مفهوما ، كلما استطاع ، — كان حكيما عندما أطلق اسم خاريبدس على المضيق كله . ومهما كان الأمر فإن خاريبدس ، أياً كان نطاق عملها . كانت مصدر سعادة ويمن لبلد من أغنى بلدان العالم القديم . فربابنة السفن الذين كانوا يخشون تلك المضايق ولعلهم كانوا يخشون كذلك قوة بطش المستعمرين من الخالسيديان ، فى رجيوم ومسينا المسيطرين على تلك المضايق ، فضلوا أن يفرغوا بضائعهم الذاهبة إلى الغرب فى ميناء على الساحل الشرقى ، ثم تنقل برا عبر طرف (حذاء ايطاليا) . وأقصر طريق وأيسره لذلك هو

وادى كراتس من سيباريس Sybaris .وقد ازدهرت هذه المدينة حتى أصبحت ثروتها مضرب الأمثال. ويرجع الفضل فى ذلك إلى سيطرتها على طريق هذا « البرزخ » واستغلاله ، وهو يؤدى بعد مسيرة يومين إلى مستعمرتها فى لاوس على الساحل الغربى . ومن هنا كانت تشحن البضائع مرة أخرى إلى موانىء إتروريا الواقعة بعد ذلك غربا . ولذا فإنه عند مادمرت بلدة سيباريس بواسطة جارتها كروتون ظل « أهل ميليتوس يحلقون رؤوسهم ويظهرون عليها الحداد العميق ، لأن هذين البلدين ، قد ربطتهما صداقة متينة أكثر من أى بلدين آخرين نعرفهما » . لقد كانت ميليتوس البلدة اليونانية التجارية الأولى فى ذلك العصر . وقد تأسف مانشستر ، ولو أنها تعبر عن أسفها بطريقتها الخاصة ، إذا ماخرجت مدينة الكاب من سلطتها ، وفقدنا السيطرة على مدينة السويس.[1]

وأشهر تيارات البحر المتوسط هى تيارات إيوريپوس Euripus فى مضيق خالسيس ولم يكن[2] عرها عريضاً عرض ملعب الكريكيت . وكانت هذه التيارات التى تندفع فى المضيق أثناء العاصفة بسرعة تزيد على ثمانية أميال فى الساعة ، تتغير أربع مرات فى الأربعة وعشرين ساعة ، ومع ذلك فقد كان إيوريپوس الممر المعتاد للسفن القاصدة إلى الشمال من پيرية ، إلى شواطىء إيوبيا الشرقية . ويصفه البحارة القدماء بأنه « صخرى غير منتظم وغير شديد الإنحدار ، وخال من الموانىء ولذا يجب تجنبه دائما » . وفى أواخر حرب البلوپونيز سد الثوار فى خالسيس هذا المضيق بأن أقاموا قنطرة وردموا نصف الممر بالطين — وكان ذلك ضربة قاسية أصابت سيطرة أثينا على

---

(١) هيرودوت ٦ — ٢١ . أنظر Mélanges d' archèologie et d' histoire الجزء ٢٧ ص ٢٥٠ وما بعدها حيث يصف « النقل » : كان هناك منحنى إلى Temesa ثم طريق آخر ينافسه من سيريس إلى بيكسوس ، ثم من هناك إلى ڤيليا وپوزيدونيا . سترابدس : توكيديدس ٤ — ٢٤ — ٥ ، أنظر ٦ — ٢ — ٤ .

(٢) — « كانت » لأنها قد وسعت حديثا إلى ١٢٩ قدما بنسف صخر وسط القناة أقيم عليه حصن من العصور الوسطى . والقنطرة الجديدة تفتح لمرور السفن .

البحر . وهذه القنطرة ظلت قائمة فى أشكال شتى من ذلك اليوم إلى الآن . ويدل بقاؤها على أن الحركة التجارية بين إيوبيا وأرض القارة ، وهو ما كانت تقوم به أثينا على زوارق صغيرة من أرتريا وأوروبوس ، لها فى كل العصور أهمية تعادل أهمية الطريق البحرى العام[١] .

لم تكن التيارات أكبر العقبات التى كان على البحار اليونانى أن يجاهد فى سبيل التغلب عليها ، وبخاصة إذا كان قد خبرها منذ طفولته ، أما عدوه الحقيق فقد كان الجهل . وقبل أن نلومه على تهيبه وأن نظن به السوء لانقطاعه عن العمل فى شهور الشتاء يجب ألا ننسى ما كان عليه من معرفة قاصرة محدودة وخبرة غير كافية . ويجب أن نذكر أنه كان يسير فى البحر دون خريطة أو بوصلة ، حتى إذا انحرف به السير مرة عن طريقه الذى يعرفه ضل سبيله فلا يدرى أى تيار قد يكتسحه ، وأية صخرة قديمة منذ قبل التاريخ تحت سطح المياه قد تصادفه . وبحسب ما وصل إليه علمنا فما من شعب من الشعاب المغمورة تحت سطح المياه فى بحر إيجه التى يفيض بذكرها دليل السفن الحديثة ، يحمل أية علامة بحرية تنذر به . ولا بد أن يكون اليونانيون قد عجبوا كل العجب لما رأوا الفرس يقيمون عموداً على ميرمكس Myrmex المشهورة أو آنت التى تبعد عن سكياثوس Sciathus . وكان رسم الخرائط

---

(١) Med. Pilot المطبوع سنة ١٨٣١ ص ٢١٨ (شاطىء إيوبيا الشرقى) . بخصوص طريق البحر أنظر توكيديدس ٧ — ٢٩ — ٢ ثم أسخيلوس . Ag. — ١٩٠ ولا نعرف مطلقا لماذا اختار أجا ممنون ملك أرجوس مرفأ أوليس فى الجهة المقابلة لخالسيس ليبدأ منه رحلته . وفيما يخص هذا المرفأ كقاعدة بحرية أنظر ليف Leaf فى كتابه Homer and History ص ١٠٣ ، « فالأسطول يكون عديم الفائدة ما لم يظل وحدة واحدة ، وكيف يظل هذا الأسطول (المكون من ١٢٠٠ مركب) وحدة إذا كان على كل سفينة أن تنتظر ، إلى أن يهدأ الماء ، أربع مرات فى اليوم لتتمكن من المرور » ، ويقترح ليف أن أوليس تظهر فى الملحمة الشعرية كاختيار لشاعر بيوشى أراد أن « يجعل من موطنه مسرحا لتجمع الأسطول » . وكذلك هيرودوت ٧ — ١٧٣ ، ٨ — ٦٦ . أما بشأن حركة المراكب أنظر توكيديدس ٧ — ٢٨ و ٨ — ٩٥ — ٢ . لم يعش توكيديدس ليكتب البيان عن أول قنطرة ؛ وهو البيان الذى لم يرد ذكره فى اجزينوفون وذكر فقط فى ديودور ١٣ — ٤٧ . لابد أن تكون أثينا قد سيطرت على جانبى المضيق قبل ثورة خالسيس وفى ليف ص ١٠٢ خريطة لقناة إيوريبوس والمنطقة التى حولها .

لايزال معدوداً من فنون الهندســـة . ولم يحيدوا عن التقيد به فى رسم القارات والأنهار الكبيرة التى تصور النيل فى إتجاهه موازياً للدانوب ، وتصور المحيط المستدير الهائل (وقد تخيلوه نهراً ذا تيار جارف) يحيط بالجميع فى أناقة . ولم يجشموا أنفسهم مئونة تسجيل كل التفاصيل التى تصادف الرحلات الساحلية . وكان ذلك إلى حد ما على نمط الدليل ، الذى كان مع هانو . ولـكن من المحتمل أيضاً أن هذا الدليل وأمثاله لم ينتشر استعماله بين البحارة غير المتعلمين الذين يفضلون الاعتماد على الخبرة الشخصية والإرشاد الشفوى ، والاستمساك بالتقاليد . ومن ثم كان البحر يبدو لهم غير ما كان يبدو للساكن على البر وقد أشرف على البحر من مرتفع عالى ، مساحة غير محدودة من المياه ، صالحة للملاحة . وكانت الطرق البحرية التى يسلـكونها محددة لهم كل التحديد بقدر معلوماتهم، مثلها فى ذلك مثل الطرق البرية ، وقلما كانوا يخاطرون بالإبتعاد عن مرأى اليابسة حتى ولو كلفهم ذلك قطع مسافات طويلة . فالطريق العام إلى الغرب مثلا كان يتجه إلى كورسيرا ومنها إلى طرف شبه جزيرة إيطاليا . وكذلك قلما كانوا يخاطرون بالمسير فى البحار الغربية عليهم ، فإذا ما دفعوا إليها رغم إرادتهم لم يتوانوا فى الاستعانة بمن يرشدهم . وهكذا كانت الملاحة بالطبع محلية ، فالبحار الأيجينى لا يعرف عن الطريق الإدرياتيكى إلا بقدر ما يعرفه المرشد السويسرى بوجه عام عن مرتفعات جبال التيرول[1].

---

(١) Myrmex : هيرودوت ٧ — ١٨٣ . إن الصخرة (التى لا تحمل علامة ما اليوم) قد دلهم عليها رجل من سكيروس ، وربما تلاعب شعب سكيروس وشعب سبورادس بالميرمكس Myrmex . وبعد سنوات قليلة طردت أثينا شعب سكيروس من جزيرتهم بناء على إلتماس الإمفكتيون ، وذلك لما أتوه من أعمال القرصنة التى لا أمل فى إيقافها (توكيديدس ١ — ٩٨ وبلوتارخوس : كيمون ٨ الذى يعطى تفاصيل) . أما مايخص استعمال الصخور المغمورة فى الماء كمجاز فأنظر أسخيلوس . Ag — ١٠٠٧ ، Eum. — ٥٦٥ . الخرائط : أنظر المنظر فى السحب Clouds (٢٠٦ ومابعدها) . وهيرودوت ٢ — ٣٣ . إن الميل الطبيعى للرجل غير العلمى أن يتصور الدنيا أكثر نظاما وأقل تعقيداً مما هى عليه . قارن الدراسات الأولى لعلم الفلك (خريطة بطلميوس للسماء) ، والكيمياء (العناصر الأربعة) ، والعلم السياسى (أشكال الحكومة الثلاثة) ، والتنظيم الصناعى (المنافسة العالمية ضد الإشتراكية العالمية) .

ولم تقم قوتهم البحرية إلا على روح المخاطرة الحقيقية فقط، التي عبر عنها في« المرثية » بأنها شقت « طريقاً إلى كل بحر من البحار » وقد عنيت الشعوب البحرية الكبرى، أو سادة البحار، كما سماهم اليونانيون، باجتذاب البحارة المجربين إلى موانئهم، وبذلك امتد نطاق تجارتهم وتأثيرهم إلى البحار البعيدة. أما الجماعات البحرية الصغيرة فقد كانت تعمل في نطاق أضيق. وإذا كان ذلك لم يهيء لهم، بطبيعة الحال، سوى فرص قليلة للتجارة المشروعة، فقد أدى بهم الأمر إلى اتخاذ القرصنة ومهاجمة السفن الأخرى مهنة لهم. ولذا فتاريخ البحر المتوسط من مينوس إلى تاريخ ضرب الجزائر بالقنابل ليس إلا قصة النزاع بين « الأشرار » من أهل الجزر الصخرية والساحل، وبين البوليس اليقظ للدولة صاحبة السيادة في البحار [1].

ولم يكن البحر وسيلة نقل فقط بل كان أيضا مصدر إنتاج. والإنتاج في بعض البحار له المقام الأول فسمك « الرنجة » في بحر الشمال، و« السالمون » في النرويج، « والحيتان » في نيوفوندلاند كلها مصادر أساسية فعلا في ازدهار هذه البلاد ورفاهيتها. أما البحر المتوسط فلم يكن له مثل هذه المصائد الأساسية حتى أننا لنرى اليوم « رنجة يارموث » تتخذ غذاء لأهل بيرية الفقراء. وأهم أنواع السمك في البحر المتوسط التونة، والأنشوجة، والسردين وكلها معروفة لقراء أرستوفانيز. وكان اليونان يصطادونها قرب الشاطيء فقد تعودوا أن يرقبوا من بين الصخور سمك التونة ثم يخرجون إلى البحر ليجروه إليهم أو يصطادونه بالحراب ذات الثلاث شعب. وقراء

---

(١) Pilots (أدلاء τοῦ πλοῦ ἡγεμόνες) : توكيديدس ٧ — ٥٠ — ٣ (شمال إفريقيا) ويعتقد Bérard بيرارد الجزء الثاني ص٥٤٣ ومابعدها أن الدقة الجغرافية الممتازة في الأودية التي تتعلق بما فيها من معلومات عن الريح والطقس والأماكن إنما أخذت عن دليل بحرى فينيقي أو يوناني قديم، ولكن المؤلف لا يقدم برهانا على ما يقول ويعتبر دليل هيكاتيوس، خليفة هيرودوت في القرن السادس، أقدم عمل من هذا النوع. تالاسوكراسي أي سيادة البحار : كلمة وردت باستمرار في كتب المؤرخين اليونان مثل هيرودوت ٥ — ٧٣ . وفيما يخص مينوس والجزيرة κακοῦργοι أنظر توكيديدس ١ — ٨ — ٣ و Murray موراى في كتابه The Greek Epic — التذييل C .

Persae يذكرون وصف أسخيلوس كيف كان الفرس يضربون على رؤوسهم بالمجاديف عندما كانوا يجاهدون للوصول إلى الشاطىء فى سلاميس ، كما يضرب « السمك المعروف بالتونة أو أى كمية من السمك صيدت بالشبكة » . ولكن دور صائد السمك فى الحياة اليونانية العامة لم يكن سوى دور ثانوى . أما أتيكا فلا تكاد تحسب له أى حساب . ونعطينا « رودنز Rudens » لمؤلفها « پلاوتوس Plautus » صورة لرجل أتيكى من صائدى الأسماك يدل ما يناجى به نفسه على أن الشعب الأثينى كان ينظر إلى أصحاب تلك المهنة وكأنهم شىء تافه [1] .

ومع ذلك فثم محصول آخر من محصولات البحر المتوسط جدير بالإشارة ، وذلك هو صبغة « الأرجوان » وهى الصبغة التى تستخرج من نوعين من القواقع الرخوة يسميان پورپورة Purpura وموركس Murex . ولا يخفى أن القدماء لم يكن لديهم أصباغ معدنية ، ولذا فإن تلك الصبغة كانت الوحيدة لديهم من الأصباغ الثابتة . وكثيرا ما كان يقارن الشعراء وغيرهم بينها وبين الأصباغ الخداعة المأخوذة من الأعشاب ، ومن ثم أطلقت كلمة أرجوان قديما على جميع الألوان المستخرجة من أصل حيوانى (الأحمر القانى إلى البنفسجى). وكانت تعتبر فى الأزمنة القديمة نوعا عظيما من أنواع الترف ، وعلامة من علامات

---

(١) إن الفصل المختصر عن صائدى الأسماك النرويجيين فى الجزء الثانى من Demolins, فى Comment la Route crée le type social ص ٤٦٨ مفيد حتى أنه جدير بأن يشار اليه كمرجع . Tunnies : Persae ٤٢٤ .Aq Ar ٣١٣ . إن المسمون « جماعة الشاطىء » الذين نسمع عنهم فى أتيكا فى عهد بزستراتوس لم يكونوا صائدى أسماك ولكن سكان البارليا أى سكان الجزء الجنوبى من أتيكا . وما نسمع عنه من أماكن فيها « مصائد أسماك » فى العالم اليونانى كما فى Grimsby أو فى Yarmouth (فى انجلترا) هى تارنتوم وسيزيكوس وبيزانطيوم (حيث يدفع التيار السمك قريبا من الساحل) . أنظر أرسطو فى السياسة ١٢٩١ ب — ٢٣ ثم أرجع أيضا إلى التذييل . وفى البوسفور أنواع كثيرة من السمك ممثلة فى مجموعة عبد الحميد فى يلدز . وحربه پوزيدون ذات الثلاث شعب (التى أخذتها بريطانيا ووضعت صورتها على النقود البرنزية) ، هذه الحربة كانت أصلا شوكة بسيطة طويلة كتلك التى لا تزال تستعمل لصيد السمك . وقد استعملها (پوزيدون) بعد ذلك (كما نرى ذلك من الرسوم على الإرخثيوم) لدق ثقوب فى الأرض ، وحتى لتخس خيوله . ويجد الإنجليز المقيمون فى اليونان — أن الحربة ذات الثلاث شعب شوكة تصلح لتحمير الخبز . أنظر المقال فى دارمبرج .

الامتياز والسيادة مما كان سببا فى تحريم استعمالها على الأسبرطيين فى حكم ليكورج ، رغم أنه كان بين ملابسهم الرسمية معطف حربى ذو لون أحمر ، علاوة على أن بعض أجزاء لاكونيا كانت من أحسن مناطق اصطياد البوربورة . ويروى هيرودوت أن سفير إيونيا حين أتى إسبرطة إرتدى معطفاً أرجوانى اللون ليلفت إليه أنظار الجمهور . ويقال إن الفينيقيين هم أول من اكتشف تلك الصبغة ، إذ تقول الأسطورة إن إلههم ميلكارت Melkart لاحظ ذات يوم إحمرار أنف كلبه عقب وضعه فى بعض الأصداف ، ثم أخذها عنهم اليونانيون من عهد بعيد ، ثم نسيت تماما فى العصور المظلمة إلى أن اكتشفها باحث فرنسى سنة ١٨٥٨ ، كان يتتبع آثار اللون البنفسجى على ملابس صائدى السمك فى مينورقا (١)

ومن الغريب أن طبيعة استعمار الفنيقيين واستقرارهم فى بلاد اليونان قديما ، كان مرتبطاً بعادات هذه الحيوانات البحرية ، فهى تختفى فى أشد أوقات الصيف حرارة ، ولا تنتج ألوان صباغة جيدة فى الربيع ، ولذا كان أنسب أوقات صيدها فى الخريف والشتاء . وبما أن القدماء لم يتعودوا أن ينزلوا إلى البحر شتاء فقد كان يقوم بصيدها الأهلون أو بعض الغرباء المستعمرين القاطنين على الشواطىء . وأمر آخر هو أن المادة الملونة لا يمكن أن تستخرج إلا والحيوان حى ، وإذن فلا بد أن تتم عملية استخراج الصبغة المعقدة فى المكان الذى تعيش فيه الأصداف ، ولا زال ممكنا إلى الآن أن نرى مصانع استخراج اللون الأرجوانى من كميات الأصداف المحطمة

---

(١) هيرودوت ١ — ١٥٢ الزى الأسبرطى: — Ar. Pax ٣٠٣ ؛ راجع Bérard الجزء الأول ص ٤١٥ وما بعدها فيما يخص الخرائط ووصف أمكنة الصيد فى لاكونيا ، ثم أرجع أيضا الى مقال پورپورة Purpura فى دارمبرج وساجليو Daremberg et Saglio . وليس صحيحا أن الفينيقيين هم الذين اكتشفوا صبغة الأرجوان فقد عثر فى كريت فى طبقات مينوية (من عهد مينوس) على بعض أصداف مكسرة للميرمكس (Myrmex) [التى تستخرج منها صبغة الأرجوان) . أنظر The Annual of Brit. School at Athens الجزء التاسع ص ٢٧٦ .

الملقاة على سواحل بحر ايجه ، التى لا مد فيها ولا جزر . ومن المرجح إذن أن اليونانيين كانوا على حق لإعتقادهم أنهم قبل أن يقوموا بالملاحة ، كانت سواحلهم ملأى ببعض المستعمرات الفينيقية فى الجزر الملائمة والرؤوس الصخرية الحصينة عليها ،مثل شواطىء صقلية (١)

---

(٢) توكيدبدس ٦ — ٢٠٦ . أنظر هيرودوت ٢ — ٤٤ ثم ايوريبيدس ، I. T. ٢٦٣ (معسكر صائدى الأرجوان) ويذكر هيرودوت أن أحد صيادى الأرجوان قدضل الطريق أثناء زوبعة .

الفصل الثالث

المنـــاخ

Αὖται γάρ τοι μόναι εἰσὶ θεαί· τἄλλα δὲ πάντ' ἐστὶ φλύαρος·

إن السحب وحدها هي آلهتنا وأما ما عداها فلغو — أرسطو — السحب ٣٦٥ .

قيل إن الجزائر البريطانية لا مناخ لها بل لها (طقس) ليس إلا . ولا ريب أن مناخنا فى جملته ثابت ، أساسا، كل الثبات ، ولكنه كثير التقلبات من يوم لآخر حتى أننا نتقبله على علاته متجاهلين أثره العام . أما مناخ البحر المتوسط فله عكس تلك الخصائص تماما فى معظم أيام السنة ، فهو ثابت لا يتغير من يوم لآخر ، ولكنه شديد الاختلاف من فصل إلى فصل ، ومن ثم كانت أهميته كعامل إجتماعى ذات أثر بيّن ولها اعتبارها .

إن أهم النقط التى يعرض لها الحديث عن المناخ ثلاث ، الرياح والمطر ودرجة الحرارة، وطبيعى أن نبدأ أولا بالحرارة . يعنى الصيف عندنا بالتأكيد جوا حارا (أو هو يجب أن يعنى ذلك) . ويعنى الشتـــاء جوا باردا . أما فى الجنوب فيقل تفكير الناس فى الحرارة والبرد عنه من تفكيرهم فى الجفاف والرطوبة ، وبقدر مايهمهم أن يعرفوا إن كانت الرياح ممطرة أو جافة يقل فى حسبانهم هدوء الرياح وعصفها أو لفحها وبردها .

أما من جهة المناخ فمنطقة البحر المتوسط إقليم انتقال ، يقع فى منتصف الطريق بين الجهات المدارية والمناطق ذات المناخ الثابت « المعتدل » فى شمال أوربا ووسطها . وترى حدوده واضحة على خريطة الأمطار ، وهى تبرز المنطقة « القليلة المطر صيفا » . وخط تلك الحدود غالبا ما يتبع ، حتى فى

إنحرافاته ، حدود امتداد الإستعمار اليونانى، فيضم مثلا جزيرة لها مناخ البحر المتوسط وتقع فى الركن الشمالى الغربى من البحر الأسود [١] .

ويمكن القول أن هذه المنطقة لا يسودها مناخ واحد ، بل مناخان على الأقل نتيجة هبوب نوعين من الرياح أو حدوث ضغطين جويين مختلفين . فالجو لا يتغير من يوم لآخر، ولكنه يتغير فجأة فى الربيع والخريف. وهذه التغيرات ،كما لاحظ هيرودوت ، متعبة ومصدر معظم الأمراض. فالأحباش المقيمون بأرض ليبيا الجافة هم أصح الناس ويطول عمرهم إلى مائة وعشرين، وذلك لأنه ليس عندهم فصل أمطار . ولم يكن توكيديدس متحذلقا ولكنه كان منطقياً وعلمياً عندما قسم تاريخ بلاده إلى أصياف وأشتاء بدل أن يقيم تقسيمه على أساس الألمپياد أو القسيسات أو الأراكنة. فالصيف والشتاء قسمان حقيقيان واضحا المعالم . ففى كل خريف عندما تتجمع السحب فوق الجبال وتنزل أولى قطرات المطر يودع اليونانيون حياة الصيف المشمسة التى يقضونها فى الهواء الطلق ويتركون القتال والتنقل فى البحار والرقاد على الأحجار الدافئة ، يتناقشون فى السياسة والفلسفة ، ويترك الرعاة مراعيهم على سفوح الجبال ، ويستقر التجار فى المدن يباشرون قضاياهم ، ويتجمع الجيران فى محلات الحدادة يتجاذبون الحديث حول الأكورة، ويخرج الناس الملابس والأحذية الشتوية ، ويستعد كل منهم لملاقاة البرد حتى يأتى الربيع . فالذهاب إلى البحر فى الشتاء جنون ، والقيام بحرب ، كما فعل فيليب ، أقل ما يقال عنه ، أن فيه مخالفة للروح الرياضية [٢] .

---

(١) يفسر هذا سبب تجنب اليونان بحر الأدرياتيك . راجع خريطة Philippson السادسة ،وقد قدر أعلى منسوب للمطر فى الصيف بأربع بوصات (أنظر التذييل) ص .

(٢) « يجب أن يكون ذلك هو الطقس » : هيرودوت ٢ — ٧٧و٣ — ٢٣ كذلك. توكيديدس ٧ — ٨٧ — ١ : ولكن أنظر ٧ — ٤٧ — ٢ نهاية الفصل : هزويد Hesiod Erga ٤٦٧؟ . Dem ٩ — ٥٠ . السحب : أنظر السحب ٢٧٥ وما بعدها. فيما يتعلق بصنع الحداد « كمكان عام » أنظر هزويد Erga ٤٩٣ ، الأوديسة ١٨ — ٣٢٨ ، هيرودوت ١ — ٦٨ .

كان الشتاء فى نظر اليونانيين ، كما هو عند الحيوانات التى تختبىء فى الشتاء، مجرد فترة استراحة بين فصلين . ولم يبذلوا أية محاولة لوضع حياة مناسبة له ، فقد سنت كل نظمهم للصيف . وقليلا ما كانوا يمكثون فى منازلهم الباردة ذات التيارات الهوائية فى فصل الشتاء ، كما أنهم قلما مكثوا بها فى ليالى الصيف الحارة. ولكن فى القرى كان العمل يجرى كالمعتاد أثناء الشتاء فيجنون فيه الزيتون ، وهو عمل بطىء يصيب الأصابع ببرودة شديدة . وكان البرلمان ينعقد فى العراءوكذلك المحاكم ، كما تمثل روايات أرستوفانيز فى العراء فى يناير عادة قبل أن يجرؤ أى زائر أجنبى أن يعبر البحر . وسكان البحر المتوسط أقوياء شديدو المراس ، وإذا ماجد الأمر أمكن اليونانيون أن يتحملوا البرد، كما يتحمله معظم الرجال . والقول بأن اللاتينى جنس منعم ، خرافة مبعثها زائر عابر يزور أماكن مثل كورفو أو الريفيرا ، أو بالحكم على نشاط أهل الجنوب بمظاهر النوام فى الطرقات فى ظهر يوم قائظ . وقد تحمل العشرة آلاف رجل الذين ذكرهم إجزينوفون مالاقوه فى ثلوج أرمينيا. والكثير من نجود اليونان (مثل سهول تيجيا حيث لايحصد القمح إلا فى أغسطس) لاتكاد تتمتع مطلقاً بالدفء الحقيقى المنتظر فى الصيف . وفى أثينا نفسها لا ينزل الثلج عادة إلا مرة واحدة فى السنة ، بينما تغطى الثلوج شتاء التلال المحيطة بها ما يقرب من خمس مرات [١] .

إن الرياح الشمالية الشرقية الدائمة ، والسماء الصافية ، هى علامات الصيف عند اليونان. واجتماع الرياح والصفو أمر غريب بالنسبة لنا إذ أن معظم رياحنا العاتية تأتى من المحيط الأطلنطى محملة بالأمطار . ورؤية بحر إيجة هائجاً مضطرباً أثناء عاصفة فى حرارة الصيف فى نظر الإنجليزى أمر غريب ، اللهم إلا إذا تصادف ورأى رياح « الفوهن Föhn » فى هبوبها على إحدى بحيرات سويسرا . والرياح الإتيسية (وهى الرياح التجارية عند اليونان) ، التى تهب عادة فى فصل الصيف من يوليو إلى سبتمبر على الأقل ، هى المساعد الأكبر للتجار

---

(١) Ar. Ach. — ٥٠٥ (إنفراد الكوميدى قبل موسم السياحة) .

اليونانيين . فإذا ما امتنعت ، كما حدث فى سنة الوباء الأكبر، صارت اليونان وكأنها منطقة مدارية . وهى تهب بشدة على بعض الجزائر حتى أنها لتعطل نماء بعض الأشجار على المنحدرات الشمالية . وقد بذل هيرودوت جهده فى أن يدحض الرأى القائل بأن سبب فيضان النيل فى الخريف يرجع لمنع الرياح التجارية مجىء المياه طوال الصيف . وكان عذر الكورسيريين معقولا عندما قالوا إن هبوب هذه الرياح حول رأس ماليا Malea الخشنة منعهم ، لسوء الحظ ، من الاشتراك فى معركة سلاميس . وقد كانت هذه الرياح الشمالية الشرقية نفسها بداية متاعب أوديسيس عند ماليا . وإذا كان اليونانيون لم يتعودوا الإبحار شتاء فقد توخوا أن تكون موانيهم مناسبة للرياح الشمالية فقط . ولذا كان أغلب هذه الموانى مواجها للجنوب ، ومكشوفا فى الشتاء كالبحار الطليقة . والذين قرأوا « الرسل » يذكرون كيف استطاعت سفينة بولس أن تصل بعد صعوبة إلى ميناء ، سمى تهكما « بالمرسى الجميل » ، ليجدوا أنفسهم كما قال لهم الرسول قد وقعوا فى فخ ، إذ « لم يكن ملائماً لتمضية الشتاء »[١].

وفى الشتاء تهب الرياح من كل الجهات ولا يمكن الإعتماد عليها ولا ليوم واحد ، فهى كما يقول هزيود « مصدر تعب للناس كبير » . ولها جميعها أسماء عند اليونان. وقد درست ونوقشت محتويات جعبة أيوليس وكذلك الرياح الساحلية المحلية والأعاصير الجبلية التى يصفونها « بالمقتلعة » ἅρπυιαι . وكانت تلك

---

(١) لم تهب رياح موسمية فى سنة ٤٣٠ ق . م : راجع ديودور ١٢ — ٥٨ — ٤ الذى يعزو بالطبع سبب الوباء إلى تلك الرياح . أما توكيديدس فلم يذكر ذلك واكتفى بقوله إن هذه السنة كانت خالية من الأوبئة على غير العادة (٢ — ٤٩) فيضان النيل : هيرودوت ٢ — ٢١ . الكورسيريون فى ماليا : أنظر ٧ — ١٦٨ ، راجع الأوديسة ٩ — ٨٠ إلى ٨١ ، ولكن رياح أوديسيس الشمالية كانت تهب فى الخريف أو الشتاء . راجع بوليب ٥ — ٥ — ٣ إلى ٦ ، فيما يخص تأثير الرياح الموسمية على خطط القتال ، ثم هيرودوت ٦ — ١٤٠ فيما يخص كيفية استخدام الرياح الموسمية فى الذهاب من أتيكا إلى ليمنوس . الموانى الجميلة : Acts ٢٧ — ٨ إلى ١٢ . إن هذا الفصل ملىء بالتفاصيل الهامة ويصور تماماً أخطار الملاحة فى آخر الموسم (تصويراً حسناً) .

« النسور » المروعة أشد هذه الرياح وأخطرها وأكثرها خداعاً ، فهى تهب فى أى فصل ، وتخرب وتدمر كما فعلت فى « أرجنوزة » بعد ظهر يوم من أيام أغسطس وأضاعت ثمرة انتصار عظيم تم بعد مجهود كبير . كما عرفوا الرياح الساحلية، وكان لها حسابها . وبما أن البحر أدفأ من البر ليلا ، وأبرد منه نهاراً ، فتنقل الرياح كان بعد الشروق والغروب . ففى المساء يهب نسيم البر وفى الصباح نسيم البحر ، ولذا أرسل « الفايكيون » أوديسيس فى الليل بعد العشاء رغم أن اليونانين لا يحبذون بوجه عام الملاحة ليلا . ولذا أيضاً أقلع تلماخوس ومن معه من الخطاب وبحارتهم الأكفاء ليلا ، كما انتظر فورميو Phormio ، أمهر ملاح عرفته أثينا ، فى خليج كورنثة رياح الصباح المحلية ليشيع الفوضى بين البلوپونيزيين ، وبذا أتاح لبحارته أن يظهروا ويثبتوا أن التجربة والتدريب ألزم للحروب وأجدى من كل مافى العالم من شجاعة فطرية[1].

ترتبط الرياح والأمطار بعضها ببعض ويبدأ موسم الجفاف فى اليونان من نصف مايو ويظل حتى منتصف سبتمبر، وينعدم المطر ، فى المتوسط ، سنة كل ثلاث سنوات ، بينما ما ينزل منه فى السنتين الأخرتين قليل جداً . وتعتمد اليونان ، كفلسطين ، فى الرى على جوها غير المستقر شتاء ، وعلى الأمطار المنهمرة فى الخريف والربيع ، وهما المرتين « الأولى والثانية » اللتين ذكرهما الأنجيل . وتتوقف الحياة على هذه الأمطار الفصلية ، أوكما تقول الأساطير « زواج الأرض بالسماء » . وقد أبدى هيرودوت الذى جاب « مناطق المطر » شمال البحر المتوسط وجنوبه ، دهشته من هذه الخصائص . فقد قرأ فى حوليات مصر أنه « فى عصر هذا الملك أمطرت السماء فى طيبة » . ولما سأله

---

(١) أنظر هزويد فيما يتعلق بالرياح الشتوية : . Theog ٨٧٢ . والرحلات الابلية فى الأوديسة : ٢ — ٣٨٨ ثم ٤ — ٧٨٦ ثم ١٣ — ٧٠ . أما من حيث وجهة نظر البحارة فانظر الأوديسة ١٢ — ٢٧٩ . ثم فورميو Phormio : توكيديدس ٢ — ٨٤ — ٢ . تناقض توكيديدس فى ٢ — ٨٧ — ٦ و ٣٩ — ١ . كان توكيديدس بالتأكيد عارفاً تماماً بهذا التناقض ؛ وكذلك كان بركليس .

المصريون عما يكون عليه حال اليونان إذا منع زيوس المطر ، هز كتفيه وأجاب دون مبالاة ظاهرة ، كال النيل . وأما سيثيا Scythia « فيختلف شتاؤها عن الشتاء فى أى مكان آخر ، إذ لا ينزل فيه مطر أو على الأقل لا يستحق ذكر ما ينزل منه ، وأما صيفها فمطره لا ينقطع » . هذا وقد أبرز هيرودوت عبارة « فى أى مكان آخر » ناسيا كم من البلدان لم يزرها ، راجعاً إلى الأساليب المحدودة الأفق التى كان يعمل على تحرير مستمعيه منها [١] .

وكان من الطبيعى أن يظهر تأثير هطول المطر على العيون والأنهار . بل ذلك هو سبب خلو اليونان من الأنهار بمعنى الكلمة ، « ودليل أميرالية البحر » يلاحظ ذلك أو يذكر فى تهكم ظاهر « إن صلة الأنهر ، التى تصب فى بحر إيجه ، بالثقافة الكلاسيكية ، تستحق الملاحظة أكثر مما لها من أهمية تجارية » . فاليونان فى الشتاء تفيض بالسيول ، وتنقلب إلى مجارى صخرية جافة فى الصيف ، وأحيانا يشقها مجرى ماء ضيق . ولكن الأنهار كما نعرفها ، « الأنهار الفياضة » بالماء طوال العام ، أو كما يعبر عنها اليونانيون « المحتفظة بنسوبها » ، هذه الأنهار لا وجود لها فى اليونان . نعم إن بعض النهيرات الكبيرة عميق يتسع للاستحمام صيفا ، ولكن غالبيتها قد يخطئها السائر غير الحذر فيظنها طريقا وعرا ، وإذا نبت إلى جانبيها أحيانا أزهار الدفل المتفتحة ، يظنها حديقة طغى عليها الإهمال . وفى ديموستثينز نرى موضوع إحدى القضايا ، خلاف على أرض ، هل هى مجرى ماء أم طريق عام أم حديقة خاصة . وشواطىء الأنهار وعرة فى الطبقات الصخرية الصلبة ، أو كما يسميها توكيديدس « مجرى لا مخرج منه » ، كالمجرى الذى اعترض الأثينيين حين تقهقروا من سيراكوز . بينما يصب النهر المندفع الذى يشبه فى قوته رأس الثور ، فى حوض صخرى كبير [٢] .

---

(١) راجع هيرودوت ٢ — ١٣ و ٣ — ١٠ و ٤ — ٢٨ ويتصل بذلك الجواب على لغز « لماذا كان النيل والدانوب مختلفى العادات ؟ » (٤ — ٥٠) .

(٢) مجارى السيول: .Dem ٥٥ — ٤ وخاصة الفقرة ١٣ ؛ ثم توكيديدس ٧ — ٨٤ — ٤ ؛ ثم أنظر ٣ — ٩٨ : كلمة ἀνέκβατος وهى الكلمة التى يعلم معناها معظم السائحين فى اليونان .

ومهما يكن فإن أنهار اليونان جميعها تشترك فى خواص ثلاث : أولا عدم صلاحيتها للملاحة . فاليونانيون الذين لم يغادروا بلادهم لم يعرفوا ما هو النهر الصالح للملاحة . وقد سر هيرودوت بالملاحة فى نهرى الفرات والنيـل ، ووصف تلك الرحلة بالتفصيل . ومع ذلك فإن السكان القاطنين على ضفاف التيمز لا يمكنهم أن يقولوا أن هذين النهرين صالحان للملاحة ما دام كلاهما لاتصلح أجزاؤه العليا للمراكب الصغيرة . وكان أصحاب القوارب فى نهر الفرات يحملون معهم الحمير عبر النهر كى تعود بالقارب عند العودة برا . هذا ويرتبط النهر عند اليونانيين بالطريق العام ، فحيثما يجرى نهر يحتمل أن يكون بجانبه طريق عام أيضا . وتأتى البضائع من الشمال على طول الأنهر الكبيرة كنهر ستريمون Strymon الذى يصب فى بحر إيجه الشمالى ، ولكنها ، ما عدا الخشب ، كانت تنقل إلى جانب النهر برا ، لا محمولة فيه . فأنهار روسيا وأووربا الوسطى وحدها هى التى سخرت للنقل حقا . وليس بعجيب أن يشيد بها هيرودوت فيقول لمستمعيه ، فى سيثيا عجائب ثلاث : الأنهر والسهول الفسيحة وأثر قدم هرقل [1] .

ثانيـاً — عدم سهولة عبور الأنهر اليونانية ، فإن كان ليس بعسير على المرء صيفاً أن يتخطى مجارى الأنهار الصحرية ، التى كان يصعب تماماً إقامة قنطرة عليها ، إلا أن عبورها كان يستحيل شتاء . فهى لا تصلح للنقل البرى ولا المائى . ومطر ساعات قليلة كفيل بأن يقطع طريقا عاما هاما ، كما حدث للطيبيين عندما زحفوا على دفعتين ، إلى بلاتيا فى ليلة ممطرة ، فقد عبرت الفصيلة

---

(١) الفرات Euphrates : هيرودوت ١ — ١٩٤ وأنظر مايرز . Class. Assoc ١٩١١ ص ٦٠٥ وقد رأى J. Eldred نقس عمل الحمير سنة ١٥٨٣ (الجزء السادس ص ٥ — ٦ Hakluyts' Voyages (طبعة ماكلهوس) . النيل : هيرودوت ٢ — ٩٦ ، أنهار سيثيا : ٤ — ٤٨ إلى ٤٩ و٨٢ . أما فيما يتعلق بالأنهر الصالحة الملاحة فى اليونان فقد كتب أنشلى (C. S.) «أن نهر لوروس فى إبيروس يصلح الملاحة لمدة أميال ، وقد استخدم للنقل أثناء الأعمال الحربية ضد الترك عام ١٩١٢ وهناك أنهر أخرى قليلة مثل Acheron تصلح لملاحة القوارب الصغيرة أميالا قليلة » .

الأولى نهر أسوبوس فى سهولة ويسر، أما الثانية فتوقفت وشق عليها اجتيازه. وإذا ما فاض نهر يونانى فليس أمامهم إلا الانتظار حتى ينحسر الماء، كما فعل القروى الذى أشار إليه هورس. وهذا هو ما يرمز إليه الثور الخوّار الذى غالباً ما يمثله السكان بجوار الأنهر على نقودهم. وقد استرعى نظر هيرودوت فى البلاد ذات الأنهار الدائمة، فكرة ترويض نهر سريع الجريان واستغلاله فى مشاريع هندسية عظيمة، وأثارت خياله اليونانى فكتب ما استطاع من القصص ذاكرا إمكانيات أرض الجزيرة. (١)

وقد يرجع عدم إهتمام اليونانيين بالأنهار إلى سبب آخر. فمياهها فى جملتها عكرة كثيرة الأوحال لا تصلح للشرب. وإذا ما مد اليونانى أنابيب المياه تحت الأرض فهذا ليس لجلب ماء من النهر أو من البحيرات، إنما ليجلب المياه من العيون والينابيع فى الجبال، فكانت هذه وحدها صافية نقية إلى حد أن جعلوا منها مأوى لأرواح العذارى. ولم تعرف عند اليونانيين جنيات للأنهر.

هذا وفيضان أنهار حوض البحر المتوسط بالمياه الداكنة الكثيرة الطمى أكثر أهمية مما يبدو، إذ يعنى ذلك ترك الأنهار لما فيها من الغرين عند مصابها، وهذه الرواسب تبقى إذا ما ألقيت فى بحر خال من المد والجزر. وإذا ما رجعنا إلى « الدليل البحرى » ثانية رأينا أن أنهار اليونان ضحلة المداخل، وقليل منها

---

(١) Asopus : توكيديدس ٢ — ٥ — ٢. وأنظر تقودجيلا ونورى، ثم أنظر أيضاً سوفوكليس Trach. ١١، حيث يوصف أخيلوس بأنه « أحيانا ثور بيّن، وأحيانا كأنه ثعبان براق ملتو، وأحيانا له جسم آدمى ورأس ثور ». ويختلف ذلك كثيراً عن الأب تيمز (Father Thames). أما من حيث هندسة الأنهر فانظر هيرودوت ١ — ٧٥ — ١٨٩ ثم ٣ — ٩ — ١١٧. وقد أمكن اليونان أن يلعبوا بعيون المياه كما علمنا ذلك من ممر فى ساموس (٣ — ٦٠) من مصارف پيزستراتوس فى إنيا كرونوس Enneacrounos؛ ولكنهم لم يلعبوا بالأنهار إلا إذا كانت هادئة جداً لدرجة ألا يعرفوا على وجه التحقيق فى أى جهة تجرى. فيما يخص النهر الصعب فى تيجيا أنظر توكيديدس ٥ — ٦٥ — ٤ ثم اجزينوفون. Hell ٥ — ٢ — ٤، فهذا النهر الجبار (εὐμεγέθης) إذا ماغير إتجاهه الى شوارع مانتينيا كان شديد العمق حتى أنه بلل أسس المنازل. ولا تزال بقايا بعض القناطر القديمة موجودة، وكثير منها يقع قرب ميسيناى، وهو من عهد ماقبل اليونان.

ما يسمح بدخول القوارب . ومن هنا أيضاً لم تقم على مصاب الأنهار فى حوض البحر المتوسط مرافىء إطلاقا . ورغم أن وادى النهر دائما طريقا بريا ، إلا أن المرافىء لاتقوم بجانب المصب . فالبندقية لا تقع على مصب نهر البو ، ولا تقوم مرسيليا على مصب الرون ، وليست سالونيك على مصب نهر أكسيوس ، ولا الإسكندرية على مصب النيل ، وكذلك أزمير ليست على مصب نهر هيرموس . ولا يخفى أن السهول الغرينية التى تكونت بهذا الشكل لها أهمية خاصة فى اليونان ، ولكن دراسة موضوعها تأتى فى باب غير هذا .[1]

---

(١) نجت أزمير حديثاً بصعوبة من سد خليجها بالرواسب ، ويقال إن البندقية مهددة بإمتلاء الإدرياتيك الشمالى بالرواسب إمتلاء مطرداً . أنظر توكيديدس ٢ — ١٠٢ ، بخصوص لغز « متى لا تكون الأرض أرضاً ؟ » — ١٩٢١ . أن بللا Pella ميناء مقدونيا القديم أصبحت الآن بعيدة عن البحر أميالا عدة ، ويسير مرفأ سالونيك الآن إلى مصير مماثل ، وذلك لنقص وسائل مقاومة رواسب نهر أكسيوس (Axius) وغيره من الأنهار ، وهذه هى الحالة أيضاً بالنسبة لميناء حيفا فى فلسطين ، فإن مقاومة إمتلاء هذا الميناء وسده من أولى واجبات الحكومة الجديدة فى هذا البلد . والمناطق التى تراكمت عليها الرواسب فاسدت ترجع كما يبدو إلى وقت قطع الغابات ، فإتساع ممر ترموبيل الآن يبلغ من ٣,٥ — ٤ أميال ، على حين أن إتساعه سنة ٤٨٠ لم يكن يصل إلى بضعة ياردات ، مع أن منسوب سقوط الأمطار كان بنفس المعدل الذى هو عليه الآن . ولذا فيبدو أن عملية التعرية تلت إقتلاع الغابات الذى إبتدأ على نطاق واسع بعد غزوات البرابرة من الصقالبة فى القرن الخامس الميلادى .

الفصل الرابع

التربة [1]

: Τρηχεῖ', ἀλλ' ἀγαθὴ κουροτρόφος· οὔ τοι ἐγώ γε
: ἧς γαίης δύναμαι γλυκερώτερον ἄλλο ἰδέσθαι.

هومر — الأوديسة ٩ — ٢٧ .

إنها خشنة ولكنها أم رجال وأحلى أرض عندى .

لا نعنى بكلمة التربة سطح الأرض فى جملته ، وإنما نقصد بها ذلك الجزء الذى لا هو شديد الصلابة ولا كثير الجفاف حتى أنه لا ينبت زرعاً . فصخور الألب المرتفعة لا تربة فيها ، والوحيد الذى تكلم عن « التربة الخفيفة » فى إحدى صحراوات أفريقيا ، هو أحد الدبلوماسيين عندما أشار إلى عدم التوازن فى تبادل الأقاليم .

يعد هذا الرأى عادياً مألوفاً فى انجلترا ، ولكنه ليس كذلك فى اليونان ، فالناس حين يتكلمون عن « الجنوب الخصيب » لا يدركون أن من بين أراضى حوض البحر المتوسط ما هو أشد صلابة وأكثر حصى جافاً وأقل خصباً من أراضى شمال أوروبا الغربى . فنسبة الأراضى المزروعة إلى مجموع أراضى اليونان قليلة جداً ، وإنه لمن المغالاة أن نصف الكثير منها بالخصوبة .

ولكى نفهم كيف كان يعيش اليونان يجب أن ندرس بلادهم ونعرف نواحى إستغلالها . وكان من الممكن أن تتخذ الوصف الذى ورد على لسان فرقة الطير بإحدى روايات أرستوفانيز ، أساساً لتقسيمنا ولكن يبدو أن هذه الفرقة إنما كانت تتغنى بأتيكا وحدها ، إذ لم تذكر شيئاً عن الغابات ،

---

(١) أنظر خريطة أتيكا المقابلة ص

أو تتخذ صورته من هذا التقسيم المرسوم على درع أخيل فى الإلياذة ، ولكن ذلك وصفاً أساسه إقتصادى أكثر منه جغرافى ، ويصف ما يعمله الناس أكثر مما يصف البلد الذى يعيشون فيه . ولكن خطته فى تقسيم الحياة اليونانية أقساماً منفصلة ليس أمراً مصطنعاً كما يبدو . وقد يكون من الميسور تحديد المميزات العامة الطبيعية للريف اليونانى بأوضح من تحديد مميزات ريف بلادنا، وإنها لتتناسب حقيقة إلى حد ما مع مقتضيات أى تصميم متناسق[1].

ففيما عدا هومر وأرستوفانيز يقسم الجغرافيون المحدثون اليونان أربعة أقسام : قسم غير مزدرع والآخر غابات ثم المراعى وأخيراً القسم الزراعى . وبالإجمال يبدأ هذا التقسيم بالنجود وينتهى تدريجياً بالسهول . وسيتضح لنا هذا من دراسة كل قسم على التوالى .

تتكون المنطقة الجدبة فى جملتها من صخور ومن نحات الأحجار ، وتبلغ مساحتها ثلث اليونان تقريباً . وهذا القسم أبرز أقسام اليونان . فاليونان ليست غنية موفورة الغذاء كإنجلترا ، بل هى بلد جدب بادى العظام ذو أشكال حادة واضحة المعالم والحدود . فهى مهد النحاتين والمهندسين والمعماريين ، وهى بلد أناس يشعرون بما فى شعاب جبالها وسهولها من جلال وهدوء ، ويرون فى صخورها التى لم تهذب بعد ، مواقع صالحة كل الصلاح لمبانى شامخة . ولا تبدو اليونان عارية لأنها أرض جبلية ، فقليل من قممها يعلو عن المستوى الزراعى فى جبال الألب ، بل ومن المنتظر أن تبلغ النباتات فى الجنوب مستوى أعلا من هذا . ولكن وصفها بالجدب منشؤه قلة الرطوبة الدائمة عند أى ارتفاع لتقاوم عوامل النحات التى تفرى الأرض . ويمكن أن يتحقق السائح من ذلك بمقارنة الجزء العالى فى جانب القطع الذى تمر به سكة الحديد فى اليونان ، بالجدران التى تعود رؤيتها فى أية رحلة عادية

(١) الإلياذة ١٨ — ٤٩٠ إلى ٥٨٩ ، ثم الطيور ٢٣٠ وما بعدها ، ثم أنظر السحب ٢٧٥ . هذا التقسيم الثلاثى صحيح بالنسبة لفلسطين كما هو بالنسبة لليونان . قارن مثل الزارع « بصخرته وشوكاته » (أى المراعى) و « التربة الطيبة » .

فى إنجلترا . فنى الجهات المدارية يقضى الإنسان الوقت فى استئصال الحشائش الضارة من الزرع، على حين أنه فى إنجلترا يمضيها الإنسان فى الزرع ورعايته . وفى اليونان عليه إيجاد التربة ، وحتى إذا ما وجدت فإن نقاءها أمر مشكوك فيه، فالتخريب أو الإهمال يمكن أن يودى بها ويحولها مرة أخرى إلى رمال وحصى لافائدة فيها . ومن ثم فإن نتائج أى تخريب كبير خطر يطول مداه عندهم أكثر منه عندنا . فالتخريب الذى حدث فى السنوات الدكلية Decelean أثناء حرب البلوبونيز . لم تبرأ منه أتيكا مطلقاً ، رغم أنها هبت من عثرتها فى الحال بعد الحريق المخرب الذى حدث فى السنين العشرة الأولى من تلك الحرب . وفى الشمال حيث تسلك الطبيعة مسلكها تجد مفاوز ومجاهل . وهكذا خلقت الطبيعة فى جزء كبير من اليونان صحراء لا حياة فيها . حقاً قد ساعد الناس الطبيعة ، بما قطعوه وأحرقوه من غابات ، وما زالوا يقطعون ويحرقون تلك الغابات التى تحتفظ بالرطوبة فى جذورها، وبذلك ساعدوا الزوابع على إقتلاع النبات من الجبال ، وتركوها عارية . ثم أهملوا مصاب الأنهر وتركوا التربة الطيبة الصالحة تتحول إلى مستنقعات . ورغم ما يتصف به الناس فى العصور القديمة من تدبير وإقتصاد ، فإن جانباً كبيراً من أراضى اليونان ظل عارياً جدباً لا حياة فيه، حتى أن القمح لم يزرع مطلقاً على ذلك التل الصخرى القليل الإرتفاع الذى صار فيما بعد (أكروبول) أثينا وحصنها [١].

والآن ندع الصخر جانباً لننطلق إلى الغابة . وربما لمسنا هنا أبرز الفروق بين اليونان الحديثة والقديمة . إن مائة جيل من الزراع المهملين عاشوا فى تلك البلاد من عهد أفلاطون وبركليس ، ومن المحتمل أنهم لاحظوا الأشجار تتناقص على مر الزمن . والمراقبون العارفون يقدرون أن مساحة الأرض

(١) تدمير أتيكا : أنظر توكيديدس ٧ — ٢٨ ، ٤ ، ثم Hellenica Oxyrhynchia ١٢ — ٥ (١٩٢١) . وقد أخبرنى المستر أتشلى أن مثل هذه الأدغال البرية لا تزال ترى الآن فى إبيروس .

التى تغطيها الغابات قد نقصت فى الثلاثين سنة الأخيرة بمقدار النصف . فقد أفنى الفلاحون الأشجار بأن أحرقوها ، وساعد على تلك العملية أنهم كانوا يشرطون سيقان أشجار الصنوبر للحصول على الراتينج ، وبعدئذ تنقل الأشجار الجافة لتستعمل وقودا وتأتى الماعز على النباتات الصغيرة . وعلى هذا النحو يمكن القضاء على جانب تل بأكمله فى سنين قليلة . وقليل من الغابات ما زال باقيا فى اليونان الشرقية حتى اليوم ، مع أن أجزاء من اليونان الشمالية الغربية وإيوبيا لا تزال كثيرة الغابات . وهكذا احتفظت تلك البقاع بمظهر اليونان القديمة الخارجى أكثر مما احتفظ به غيرها من المناطق المعروفة [1].

ويجب ألا نتصور أن اليونان كانت وقتئذ بلاد غابات بالمعنى الذى تدل عليه هذه الكلمة فى ألمانيا . فالماعز هى الماعز دائما وشهيتها لأكل الأخشاب الجافة كانت قوية كما هى عليه الآن . وبقى لنا من رواية مفقودة لإيوبوليس Eupolis ، وهو من الأدباء الذين سبقوا أرستوفانيز ، عدة أسطر تصور ثغاء فريق من الماعز من أجل الشجيرات الحبيبة ، مما يدل على أنها بدأت منذ أزمن طويل قضم الحشائش فى الجبال [2] .

(١) إن الأمر المحير هو أنه لا يمكن أن يتصور الإنسان على وجه أكثر تحديداً ما كانت عليه اليونان فى القرن الخامس ، وهى نقطة لا تجدى فيها كثيراً بعض الدلائل المتفرقة . وانى أضيف هنا اثنين ، يتكلم سوفوكليس عن سونيوم فيقول إنها « مرتفع صخرى عليه أشجار » (أجاكس ١٢١٧) ، وأما اليوم فلا توجد أشجار عليها . ووفقا لما يقوله ڤيلاموڤيتس (Orestie ص ٢٢٨ فان كلمة ἄλσος بمعنى مجموعة من الشجر حول مقصورة إله (وهى تقابل الآن أشجار السرو فى أفنية كنائس الجنوب) ، لم تكن مزروعة أصلا وإنما هى متروكة كما وجدت « بكراً » (أنظر ليوربيدس .Hipp ٧٤) ، بينما قد اقتلعت بعضها لبناء مستعمرات حولها . ثم فيما بعد ، فى العهد التاريخى ، عندما غدت الأشجار نادرة إهتموا بزراعتها .

(٢) ماكروبيوس ٧ — ٥ — ٩ أنظر تعبير (ماشية الغابة) كما فى ايوربيدس .I. T ٢٦١ . لقد حاول تريكوبيس بشجاعة أن يحصر المعز اليونانى وسيده ، ولكنه لم ينجح . ولم يبذل أحد أى مجهود حقيقى لتنفيذ القوانين الحديثة العهد . ويبدو أن الفلاح اليونانى كان يعتبر الأشجار كأنها له عدوا ، حتى أنه فى عصر أفلاطون بدت أتيكا عارية دون شجر . وقد تنوقلت روايات عن الأشجار الكبيرة التى قطعت . أنظر فقرة هامة جداً فى كرتياس ١١١ . ولكن من المحتمل أن الضرر لم يكن قد إنتشر بشكل واسع حتى مجىء الغال فى القرن الثالث ق . م مع قطعانهم الهائلة من الماشية المتنقلة .

وقد ساعد حارقو الفحم ، الماعز فى القضاء على الأشجار . فالقدماء لم يستعملوا إطلاقا الفحم الحجرى ، بل كان كل وقودهم من الخشب جافا أو متفحما ، ولذا فقد قطعت كل الأشجار النامية بجوار المناطق المأهولة بالسكان . وتقف لها الماعز بالمرصاد وتحول دون نموها مرة أخرى . وكانت أثينا تقتطع وقودها من غابات حول أخارناى على بعد سبعة أميال منها .

وبالرغم من أن أثينا كان لديها ما يكفيها من وقود ، فقد كان ينقصها الخشب اللازم لبناء سفنها ، فكانوا يستوردونه من منطقة الغابات الحقيقية خارج شبه جزيرة اليونان ، إذ لم تكن تربة اليونان صالحة كأرض الشمال ، لمثل هذه الغابات ، فالأشجار فى اليونان أصغر مما فى الشمال ، وتنمو متباعدة بعضها عن بعض . وأغلبها أشجار دائمة الخضرة مثل الصنوبر والحور والبلوط الكثير الأشواك . وليس عندهم من أشجارنا المعروفة فى الشمال ذات الأوراق المنتشرة، إلا شجر الدولب والبلوط والكستناء . وقلما تكون الغابة اليونانية كثيفة لدرجة تمنع عنها الشمس بل تنمو أشجارها متباعدة فى جو مكشوف . وفضلا عن ذلك فعظم ما يسميه اليونانيون غابات، يجب أن يسمى أحراشا . وأهم الأشجار فى اليونان ، فى الحقيقة ، شجيرات الغار والصمغ والدفل والآس والمصطكى والأسعدان « والفراولة » . وقد اضطر إيوريبيدس أن يذهب إلى مقدونيا بحثا عن الغابات العالية ، حتى يكون منظر الموكب رائعاً عندما يزمر « أورفيوس بمزماره » ، فتبدو الأشجار وكأنها تتحرك وتتبعه . والواقع أنه لم يكن عند اليونان كلمة خاصة « للشجرة » ، فكلمة ὕλη التى يستعملونها للدلالة على الغابة البرية تطلق على الأشجار الكبيرة والصغيرة على السواء ، بينما كلمة δένδρον التى نترجمها بشجرة تعنى « شجرة فاكهة خاصة » . بل إن اليونانيين ، على عكس الأتراك والإنجليز ، لا يحبون الشجر الكبير وربما قالوا عن مناظر المتنزهات الإنجليزية النموذجية، إنها ازدحمت بتلك الأشجار

الهائلة العديمة الفائدة ، وإنها أرض شعثاء غير مهذبة[1] .

وتحت هذه الغابات أو بينها على منحدرات الجبل ، أو حيث الأشجار قد إنقرضت، وتحت الصخر العارى مباشرة ، تنمو المراعى . وكلمة المرعى عندنا توحى بصورة مرعى كثيف العشب الأخضر الناضر على سهول محوطة بسياج يفصلها عن حقل للخضر ، أو عن أرض صالحة للزراعة بجانبه . وبعض أراضى مراعينا منتشرة على سفوح التلال ولكن معظمها بين الأراضى الزراعية التى تحيط بها ، وأغلبها حشائش خضراء . أما مراعى اليونان فليست كذلك فمراعيها تنبسط على أرض لا تصلح كثيراً لأن تزرع ؛ وهى تشبه حلقة منفصلة على درع ، إذ هى مناطق منعزلة تماما عن المساكن التى فى السهول وبعيدة عنها. ولذا فقد كان الأولاد غير المرغوب فيهم، مثل أوديب أوسيروس ينقلون بسهولة مع الرعاة إلى بلاد أخرى . فالحدود تتقابل عند المراعى. ويقضى رعاة طيبة وكورنث صيفهم مجتمعين معا على منحدرات كيثايرون العليا ، ثم ينزلون ، كل إلى بلده فى الخريف . وقد كان ذلك أيضا سببا فى قيام الحروب ، لما يقع من سرقة الأغنام بعيدا عن متناول العدالة[2] .

ويرعى اليونانيون بعض الأبقار . ولكن السائد عندهم الماعز والغنم فإذا وجدوا البلوط ، كما فى مراعى « أركاديا » ، فإنهم يربون الخنازير . ويقصد الماعز إلى أعلى الجهات ، حيث تكاد السفوح أن تكون عارية ، بحثا عن

---

(١) أنظر إيوريبيدس Bacchae ٥٦٠ ثم ٦٧٧ وما بعدها (كلام الرسول) ، فلا يوجد أى تشابه بين وصف الميناد Maenads على الجبال وبين عاطفة الغابة الألمانية (Waldzauber)، فكلاهما يختلف عن الآخر إختلاف البارتنون عن الكاتدرائية القوطية . أنظر δένδερον الشجر و ὕλη الغابة فى توكيديدس ٤ — ٦٩ — ٢ ثم ١ — ١٠٨ — ٢ ثم هيرودوت ١ — ١٩٣ (حيث الكروم هى δένδερον) . وانظر أيضاً الأوديسة ١١ — ٥٨٨ (الأشجار الباسقة المنتشرة الأغصان التى كانت تغرى تانتالوس Tantalus).

(٢) الرعاة سوفوكليس O. T. ١١٣٦ . وهيرودوت ١ — ١١٠ . أنظر ص فيما يلى .

الأحطاب لتأكلها . وكذلك يعثر الأغنام على غذاءا تمجه أغنامنا. لأن ما ينمو على جبال اليونان ليس عشبا وإنما شجيرات كلها « مواد جافة φρύγανα» صلبة ، وأغلبها أشواك تنمو حيثما وجدت لها مكانا فى التربة الصخرية . وحتى «المراعى» فى إليزيوم ليست كلها خضراء ولكنها حمراء بلون anemones التى تزدهر فى الربيع ، أو صفراء لكثرة ماينبت فيها من البرواق[١] .

ومع أن المراعى كانت سببا فى ضمور الحيوانات ، إلا أنها تهيء العمل لكثير من خلايا النحل، إذ تزهر النباتات الجافة زهراً كثيراً، فجأة وعلى غير انتظار ، كما تزهر شجرة الوزال الإنجليزية ، ولذا فقد كانت اليونان دائما أرض لبن الماعز والعسل . والواقع أن العسل كان عند القدماء غذاء ضروريا لا كماليا، إذ لم يكن لديهم سكر أو أية مادة أخرى للتحلية ، كما أدخل العسل فى كثير من التراكيب الغريبة كما يعرف الذين درسوا فن الطب فى هومر .

وبطبيعة الحال تتراكم الثلوج فى الشتاء على المراعى المرتفعة ، فينزل الرعاة إلى الأرض المنخفضة على حدود الأراضى الزراعية أو على حوافيها أحياناً . وهذا الحد ، أو آخر خطوط الدرع المتمركز ، يكون بينا فى فصل الأمطار .

---

(١) إن نبات البرواق لمن أكثر الأزهار إنتشاراً، وهو نوعان أحدهما طويل أبيض، والآخر أحمر اللون وأقصر من النوع الأول . وبالنسبة للفلاح اليونانى العادى فهذا الاسم لا يعنى شيئاً مما حاكه شعراؤنا حوله من قصص . وقد أصبحت مراعى البرواق تعبيراً إصطلاحياً فى الملاحم لحقول الفردوس (Elysian fields)، ويقول بنـدار عن الموتى فى جزء رائع من إحدى مراثيـه : « إن الحقول التى خارج مدينتهم قد لونها الورد بلون قرمزى (φοινικορόδοις ἐνὶ λειμώνεσσι προάστιον αὐτῶν) : أنظر أرستوفانيز الضفادع ٣٧٣ . وبخصوص الشجيرات المهملة أنظر مايرز Greek Lands and the Greek People ص ٢٤ ، وقد أخطأ مع ذلك فى قوله إنه نظراً لعدم زراعة النباتات التى تحمل أنواع التوت فى اليونان « أصبحت على وجه العموم بلاداً لا تصنع مربى فيها » . ويرد على ذلك أتشلى فيقول « بالعكس إن اليونان بلاد الأشجار التى تحمل أنواع التوت فالعليق الأسود كثير جداً، بينما الآس والمصطكى وعنب الديب والمرعر والبريونيا كلها تثمر أنواع التوت . أما الكمثرى البرية فهى متوفرة فى كل اليونان وأما البرقوق البرى فلم يكن نادراً بينما كانت الفرامبواز والشوليك كثيرة موفورة فى بندوس Pindus ». إن عدم توفر السكر لا التوت هو الذى قضى على صناعة المربى فى اليونان .

وكما يقول الأستاذ مايرز « إن كل من يذهب فى الربيع إلى آتيكا ويجيل النظر حواليه من أعلى الأكروبول يتبين ذلك التغير الفجائى — أى الحد بين الخضرة اليانعة والأرض الحمرة المغبرة مما يدل على إنتهاء حدود السهول وأرض القمح ، وابتداء منحدرات جبال الماعز » ، وذلك لأن السهول اليونانية ليست محوطة بما يمنع القطعان من التهام ما لا يجب أن تأكله ، والماعز التى تعودت تسلق الجبال لتتغلب على أتفه العقبات . ولذا فقد دربت الكلاب على أن تكون سريعة جدا ومتوحشة ، لأن عليها كما على أصحابها واجبات كثيرة لا بد من أدائها [١] .

وأخيرا إنحدرنا إلى مستوى الأرض الزراعية ، وهى باستثناء الغابات أصغر مناطق البلاد الأربعة ، ولكنها أهمها جميعا إذ لا تصلح اليونان للسكنى بدونها، وفى الحق لولاها لما كانت مهدا لتلك الحضارة .

إن تكوين تلك السهول مهم للغاية ، إذ يتوقف عليها أكثر تاريخ اليونان السياسى . ونحن نعتبر كل بلد جبلى ، أرض مرتفعات ووديان تجرى متوازية فى الغالب ، وتزداد اتساعا كلما اتسعت الأنهر ، مثال ذلك سويسرا ، البلد الذى ابتدأ كفاحه للحصول على الاستقلال السياسى بالتعاون السهل بين رجال الوديان حول بحيرة لوسرن . ولكن أرض اليونان لا تتكون من وديان، ولكنها تتكون من سهول أو أراضى منبسطة (πεδία) . فإذا نظرنا إليها من على رأينا سلاسل الجبال لا تجرى فى خطوط مستقيمة ، ولكنها إجمالا تكون مستطيلات تضم ، البلاد فتجعل منها ما يشبه صناديق مربعة صغيرة . وهذه السهول منبسطة فى جملتها كلية ، كانبساط البطائح الإنجليزية . فإذا كانت مرتفعة فليس إرتفاعها عند سفوح الجبال ، وإنما يتجه إلى مركزها أشبه ما تكون

---

(١) أنظر ص ١٦٥ فى Anthropology and the Classics . لم تبدأ إقامة السياج عندنا إلا من وقت أن تركت طريقة القرون الوسطى ، وأصبحت المراعى والأرض الزراعية تتدخل بعضها فى بعض . فالماعز التى كانت تمدنا باللبن حتى الباب ، كما يجرى كثيراً الآن فى المدن الجنوبية ، يجب أن ترعى وسط الأراضى الزراعية ؟ أنظر الأوديسة ١٠ — ٨٢ و ١٧ — ١٧٠ .

بطبق مقلوب ، ترويها نهيرات آتية من المنحدرات . وهذه النهيرات لا تجرى في وديان عظيمة تنساب فى تدرج متناسب نحو البحر ، بل تجرى متدفقة فى التواء « كسائر ضل الطريق » ، وأحيانا تهرب فى خانق ضيق وتختفى فيه نهائياً مثل نهر « إيوروتاس » جنوب إسبرطة أو نهر Peneus فى « تمب » . وذلك ما يفعله نهر « المول » فى بوكس هل بانجلترا ، وأحيانا تكون بحيرة كما يفعل نهر ستيفالوس وبنيس ، والأنهار التى تصب فى بحيرة كوبايس . وأحيانا ينتهى بها الأمر إلى أن تجف وتختفى نهائياً ، كالنهر المشهور فى سهل تيجيا الذى كان مدار منازعات كثيرة .

ولذا كانت الأراضى الزراعية فى اليونان مقسمة مناطق منعزلة محكمة الإقفال صعبة الدخول ، وبعض تلك الأراضى بل أهمها ، يتكون من أرض غرينية ينبسط أحد جوانبها نحو البحر مثل سهول أرجوس وأثينا وإيلوسيس . والبعض الآخر مثل سهول إسبرطة وتساليا والجزء الأوسط من سهل أركاديا تحيطه الجبال . وكلا الوضعين زاد فى عزلة السهول فى الأزمنة السالفة . فلم تكن هناك مواصلات بحرية منتظمة قبل تأمين الملاحة ، ولذا فقد خططت كل المدن ، مثل أثينا وأرجوس ، بعيداً عن الشاطئ . هذا وقد قامت النظم السياسية ، ونشأت القومية اليونانية ، وظلت أجيالا عديدة منعزلة بعضها عن بعض داخل تلك الصناديق من الأراضى الزراعية بحدودها الصلبة الجبلية[١] .

عاش اليونانيون على ما تنتجه أراضى تلك السهول الصغيرة منذ أن استقروا وانتهوا من مزاولة حياة الرعاة والترحال . وأهم المنتجات اللازمة لبقاء الإنسان هى : القمح والزيت والنبيذ . وقد أطلق عليها « ثالوث البحر المتوسط » .

(١) أنظر خريطة جرندى Grundy لليونان (Murray's Handy Classical maps) التى تبين السهول فى كل الإرتفاعات خضراء .

فالقمح أول وألزم تلك العناصر الثلاثة من القدم ، لأن الإنسان قبل أن يشعر بأنه قد استقر وثبت ويأخذ فى زراعة الزيتون أو الكروم ، كان يبذر القمح للموسم القادم ، ثم يستعد للرحيل بعد جمعه وإعداده . « والسيتوس σῖτος » أى القمح أو الشعير ، كان طعام اليونان الأساسى . وقلما كانوا يأكلون اللحوم إلا فى الأعياد عندما توزع عليهم لحوم الحيوانات التى تقدم للتضحية . وكل ما خلا القمح يعتبر عندهم « أوپسن ὄψον » أى « حلوا » . وكان الفرس الذين لم يتعودوا أكل اليونان يشكون من عدم توفر ما يستحق الأكل عندهم بعد طبق الدقيق ، وأنهم كانوا يتركون الموائد قبل أن يشبعوا . وقد ردد تلك الشكوى الزائرون الذين أتوا بعدهم . فاليونانيون كانوا يأكلون الطعام المصنوع من الدقيق بكميات كبيرة وبأشكال شتى ، والقاعدة عندهم أن الحنطة فقط هى التى تستعمل للخبز أما الشعير فيعجن بدون أن يخبز ويؤكل مع الماء كأنه نوع من « البودنج » . وهذا هو الكعك الفاخر الذى يزود به أفلاطون وجبات حراسه الإقتصادية فى جمهوريته . ولم يكن اليونانيون نهمين ولا سكيرين ، وكانوا يتناولون وجبتين فى اليوم كما يفعلون الآن ، وجبة الغذاء فى منتصف النهار بعد نصف يوم من العمل ، ثم وجبة العشاء فى المساء . وهذه الوجبات مثل أيام العطلة النادرة ، يكون الناس بحاجة إليها حقاً عندما يحين حينها ، وينتظرونها بفارغ الصبر . وكان نظام اليوم ، حتى فى زمن الحرب ، يدور حولها ، أى حسب مواعيد الأكل . وإن قليلا من قواد اليونان (خارج الملاحم) هم الذين كانوا يستطيعون أن يرغموا جنودهم على الحرب وقت فترة الغذاء العادية . وإن هم اضطروا إلى ذلك فإنما ليكسبوا نصراً حاسماً[1].

---

(١) زراعة القمح : توكيديدس ١ — ٢ — ٢ ؛ أنظر هيرودوت ٤ — ٤٢ عن « كيف استطاع الفينيقيون حمل زاد بالقدر الكافى حتى يدوروا حول رأس الرجاء الصالح ؟ » . وانظر إيزوكراتيس ٧ — ٢٩ فيما يخص زيادة الاحتفالات المستمرة التى يحتاج إلى أضاحى . أنظر كذلك Ath. Pol. [Xen.] (الذى سيشار إليه من الآن فصاعداً بعبارة « الأوليجارشى العجوز ») ٣ — ٨ . ثم توكيديدس ٢ — ٣٨ ، والوجبات =

وتنتج كل مدينة يونانية قمحها أو هى تحاول ذلك ، فإذا جاوز الطلب الإنتاج، وعجزت المدينة عن أن تكفى نفسها بنفسها ، أدى ذلك إلى إشكال سياسى كما سنرى . ويبذر القمح فى أكتوبر ،ويجمع فى مايو أو يونيو، ويزرع فى كل بقعة فى الدولة تصلح لزراعته . وليس من الغريب أن نرى الثيران تحرث منطقة مسطحة من الحجر يظن من يراها أنها صغيرة جداً وصعبة الوصول لا تستحق هذا العناء . وتوكيديدس الذى اعترض على التأريخ بشهور أثينا الصعبة (لأن معظم الدول اليونانية تطلق على الأشهر أسماء مختلفة عن أسماء الشهور فى الدول الأخرى) أرخ حوادثه بحالة المحصولات فى كل فصل . وذلك أمر طبيعى بالنسبة للقارئ من أهل الريف .

يأتى النبيذ بعد القمح . وإنه لمن المستغرب ألا تكون الأهمية الكبرى التجارية للعنب فى اليونان الحديثة كحولية إطلاقا . فأهم عناصر التصدير ، هو الزبيب (أوكما يسميه الألمان ، وهم فى ذلك أصوب من غيرهم ، كورنث) . وهو نوع من العنب صغير جداً عرف فى اليونان حتى القرن الرابع عشر . والأعناب ، بأشكالها القديمة ، وجدت من أقدم العصور . وكان النبيذ دائماً المشروب الوطنى ، وقد دهش هيرودوت عندما رأى نفسه فى مناطق أخرى لها مشروب غير النبيذ ، رأى المصريين يشربون « الجعة » لأنهم لا عنب عندهم ، ورأى البابليين يشربون نبيذ البلح . وليس الشعب اليونانى شعباً مدمناً ، رغم أن النبيذ يلعب دوراً هاماً فى حياتهم الإجتماعية والدينية . وهم

= الفارسية : هيرودوت ١ — ١٣٣ ، ثم .Ar. Ach ٧٧ — ٨ . الكعك : .Rep ٣٧٢ب التفاصيل مأخوذة كلها من الحياة اليومية . الحرب فى فترة الغذاء : إجزينوفون .Hell ٢ — ١ — ٢٧ (Aegospotami) ، حالات أخرى : توكيديدس ٧ — ٣٩ — ٢ ثم ٨ — ٩٥ — ٣ ، هيرودوت ١ — ٦٣ ثم ٦ — ٧٨ . قارن بيان معركة تريبا (وهى معركة شتوية) فى بوليب ٣ — ١ إلى ٧٢ . أنظر كليتمنسترا Clytemnestra (إيسخيلوس .Ag ٣٣١) الذى يفيض فى وصف غنم اليونان بأول وجبة طيبة لهم فى طروادة . أنظر أيضاً توكيديدس ٨ — ١٠١ — ٢ . يمكن الإنسان أن يمشى مسافات طويلة فى اليونان ومعدته خاويه ، أما إذا عضه الجوع فجأة فسيشله شللا تاماً . أنظر موراى Greek Epic ص ٢٧ (الطبعة الثانية ص ٤٧) .

دائماً يشربونه مخلوطا بالماء بنسبة ثلاثة أجزاء من الماء إلى اثنتين من النبيذ . وكانوا يعتبرون من يشربه خالصاً غير متمدين ، إلا أنه لا يمكنهم الاستغناء عنه [١].

وثالث هذا الثالوث هو الزيتون . وهو الوحيد بين هذه المنتجات الذي يعتبر من خصائص البحر المتوسط حقاً . فبينما الكروم تنبت شمالا حتى « كولونيا » وڤينا ، ويمكن أن تنبت فى إنجلترا أيضاً ، فالزيتون يتبع بدقة المناطق غير الممطرة صيفاً . وبما أن فوائده غير معروفة عندنا فمن الأجدر أن نشرحها ، فقد كانت « قنينة الزيت الصغيرة » فى الحياة اليونانية شيئاً أساسياً لا غنى عنه ، وكان من السهل على المرء أن ينسى أين وضعها ، كالمظلة بالنسبة لنا .

وقد قام زيت الزيتون عند اليونانيين بثلاثة أدوار منفصلة : دور الزبد ثم الصابون ، ثم الغاز . فكانوا يستعملونه فى المطبخ ، وفى الاغتسال والإضاءة . فما من أحد فى اليونان (خارج الفنادق العصرية بأثينا) يأكل زبداً ، فالخبز والزيتون ، والخبز وجبن الماعز هى خبزهم وزبدهم . وقد رأى هيرودوت أنه من الضرورى أن يصف لقارئه عمل الزبد فى سيثيا ، أو بالمعنى الصحيح عمل « جبن البقر » [٢].

---

(١) مناطق الشراب : هيرودوت ٢ — ٧٧ (لكن أنظر ٢ — ٦٠) . إن كلمة κρασί الاسم اليونانى الحديث للنبيذ تعنى « خليط » . ومسألة الاعتدال تختلف باختلاف مناطق الشراب — مثل اليونان وإسكنداناوة وإختلاف وجهه النظر فيهما بالنسبة لهذه المسألة . وفيما يتعلق بوجهة نظر يونانية تدل على تفكير ، أنظر مناقشة أفلاطون فى القوانين (الكتاب الأول) والذى يلخصها (٦٥٠) فيقول إن الخمر « امتحان عادل الأخلاق وانها أرخص وآمن وأسرع من أى امتحان آخر » وانها أيضاً « طريقة رخيصة وبريئة لتدريب الخلق إذا ماروعى الحرص فى استعمالها » . وقد استعمل اليونان كلمة « سكران » بكثير من التساهل ، أكثر مما نستعملها نحن على أى حال فى عالم البوليس . فمثلا « الرجل الذى يضع الأمور فى غير موضعها » عند ثيوفراستوس « إذا ما اعتزم الرقص يقع اختياره على رجل لم يسكر بعد » ، ومن الطبيعى أن « الرجل المخمور » كان يعتبر غير قادر على القيام بأداء الحركات المعقدة فى الرقصة اليونانية . ثيوفراستوس ٩ طبعة Jebb الثانية سنشير إليها فيما يلى ، ص) .

(٢) هيرودوت ٤ — ٢ ، من المحتمل أن تكون كلمة زبد هى Βούτυρος وبديل الزبد عند البابليين هو الزيت المستخرج من السمسم ١ — ١٩٣ .

ولذا نجد الزيت فى كل صنف من أصناف الأكل ، ولا يمكن لأى طباخ يونانى العمل بدونه . كذلك لم يستعمل اليونانيون الصابون بل كانوا يدلكون أنفسهم بالزيت ، وإذا لم يكن ذلك كافياً مزجوه بالروائح . وأخيراً إذا لبثوا إلى ما بعد غروب الشمس (وكانوا يفعلون ذلك أقل منا كثيراً) ، فليس لديهم ما يستضيئون به إلا الزيت أو شعلة الصنوبر . ولذا غصت المتاحف بمسارج الإضاءة بالزيت . ولكل من هذه الأغراض يستعمل القائمون على تدبير شئون المنازل المقتصدون ، نوعاً مختلفاً من الزيت . ويعصر الزيتون فى المعاصر ، فأول جلبه تخصص لزيت الطعام ، والثانية تأتى بزيت التدليك أو الدهان ، والثالثة تخرج زيت الإضاءة . وأخيراً البقايا من القشر وغيره تستعمل وقوداً [1].

---

(١) المطور : يجب أن نتذكر أن الملابس المصنوعة فى المنزل، على خلاف ملابسنا، تعيش زمنا طويلا . وكان المنظف وغاسل الملابس يستعملان صابونا خشنا لإزالة البقع ، (ومن ثم كانت الاستعارة فى الجمهورية ٤٣٠) ، ولكن الزيت كان ، مثل الكافور عندنا، يستعمل ليحفظ على الملابس طراوتها . (الإلياذة ١٨ — ٥٩٥) . وأحيانا يخلط بالزيت الرماد الناعم المتخلف من بقايا النار ، فيصير المزيج صابونا (Ar. Lys. ٤٧٠ الشراح : أنظر Ar. Ach. ١٧ — ١٨) . ولكن لم يكن اليونان شعبا نظيفا إذا ماحكمنا عليهم بمقياسنا الإنجليزى العالى، فلبس الملابس الكتانية إنما يعتبر ترفاً لأنه يحتاج إلى غسيل مستمر، ولذا فبعد تجربة قصيرة للبس الملابس الداخلية الكتانية عادوا ثانية، حتى الأثينيون، إلى الملابس الصوفية مع أن تلك الملابس لا تعتبر أنظف ملابس تلائم بلداً حاراً . (أنظر توكيديدس ١ — ٦ — ٣ ثم هيرودوت ٢ — ٣٧ ثم الأوديسة ٦ — ٦٤ إلى ٦٥ ؛ وقد غالى برارد كثيراً فى هذه النقطة فى فصل ممتع كتبه فى الجزء الأول ص ٥٥٦ عن غسيل ملابس ناوزكا) . ومما يلاحظه ثيوفراستوس فى «الرجل ذى المطمح الصغير» (Jebb ص ٦٣) إفراطه فى النظافة ، إذ « يقص شعره باستمرار ويحافظ على نظافة أسنانه وبياضها ، ويغير ملابسه وهى لا تزال نظيفة ، ثم يدهن نفسه بالأدهنة » . أما فيما يتعلق بترتيبات الاغتسال فانظر Sudhoff فى Aus dem Antiken Badewesen مع أبدع مجموعة من الأوانى المرسومة التى تبين مثلا « حوامل لغسيل اليدين » رفيعة فى المنازل الخاصة ، وكذلك بساطة منظمات الحمامات العامة . وقد كان هناك حمامات عامة للنساء أيضاً ، ومن المحتمل أنهن كن يترددن عليها أسبوعياً (ص ٦٣) . ويمكن أن نرى المناشف والمحكات (المجارد) وقدور الزيت والإسفنج ولكنا لا نرى أثرا للصابون . وعلى إحدى الأوانى الأثينية فى متحف اللوفر (الجزء الثانى لوحة ٦٨ ش ٢٠٣ فى Louvre Album) نرى رسماً لحمام سباحة نسائى ربما كان حمام بئر التسع ينابيع أى الإنيا كرونوس Enneacrounos الذى يقضين فيه بضع ساعات . أنظر أيضاً ليبياس ٩ — ١ . Furtwängler و Reichhold شكل ١٠٧ والنص فى الجزء =

وقد اعتاد الناس أن يعتبروا دخول زراعة الزيتون اليونان متأخراً نسبياً . وتروى الأساطير كيف أدخلته أثينا فى أتيكا فى وقت لم يكن فيه الزيتون موجوداً فى أى جزء آخر من أجزاء اليونان . ولكن الأثريين قد صححوا هذه الفكرة التى ربما كان مرجعها بطء نمو زراعة الزيتون . فقد وجدت آثار لا شك فيها لمعاصر الزيتون فى قصر مينوس فى كنوسوس ، كما وجدت معاصر أخرى تحت أحجار الخفان الناتجة عن ثوران البراكين التى حدثت فى ثيرا قبل التاريخ ، كما عثر على بذر الزيتون على بعد عميق فى كريت . وهكذا يمكن اعتبار الزيتون عنصراً أصيلا فى اليونان ، كما يعتبر « إكليل الزيتون البرى الأولمى » جائزة هيلانية حقاً . وتنمو أشجار الزيتون فى كل مكان فى اليونان حيثما وجدت أرضاً صالحة حتى على ارتفاع ١٨٠٠ قدماً ، وغالباً ما توجد على الجبال فى جهات يصعب الوصول إليها . ولكن أكبر مجال لازدهارها أتيكا والشعر الأثينى . وليست شجرة الزيتون عادة بالشجرة الكبيرة ، فهى لا ترتفع أكثر من شجرة الصفصاف المشذبة ، إلا أن ساقها أكثر تعقيداً ، ولمعان أوراقها البديع هو سر حسنها . والريح والشمس يحيلانها إلى لون بين الرمادى والأبيض الفضى . وقد انتشر الزيتون من اليونان ، حول البحر المتوسط إلى ما بعد كيرينايكا واليونان الكبرى . واتسعت رقعة زراعته بإيطاليا فى القرن الثانى قبل المسيح تقريباً . وانتشرت

= الثانى ص ٢٣٧ — ٢٤١ وفيه بحث نفسانى طريف . وعلى إناء من القرن الرابع معروض هناك أيضاً نرى سيدتين تغتسلان أمام حوض يشبه أحواض المياه المقدسة الكبيرة ؛ وهناك منظر آخر ممثل على إناء بشكل كيلكس Kylix فى المتحف البريطانى يرجع الى عام ٤٨٠ — إن أول احتكار « Corner » سجل فى تاريخ اليونان هو الذى كتبه الفيلسوف طاليس عن معاصر الزيتون وقد مكنته معرفته بالنجوم — كما تروى لنا القصة — أن يتنبأ بمحصول طيب ، فاشترى كل المعاصر وذلك ليثبت « أن فى إمكان الفيلسوف أن يجمع الثروة إذا أراد » أرسطو — السياسة ١١٢٥٩ . — أنظر قاموس دارمبرج وساجليو ، مقال Olea شكل ٥٣٨٨ .

زراعته بكثرة فى شمال إفريقا . ونعرف أنه عند الفتح العربى كانت تمتد غابة من الزيتون بين طرابلس وطنجة[١] .

وقد ذكر لنا الكتاب اليونانيون والرومانيون توجيهات كثيرة لزراعة الزيتون فى اليونان وإيطاليا ، يمكننا أن نتحقق منها فى نزهاتنا الخلوية . وأحراش الزيتون لاتسمى غابة ، بل هى بستان مكشوف . وتزرع أشجاره فى خطوط منتظمة فى تربة جيدة ، ومن الأفضل أن تترك مسافة أربعين قدماً بين كل شجيرة وأخرى فى الصف الواحد ، وستين قدماً بين كل صف وآخر ، وهكذا يجد الإنسان متسعاً كبيراً بين الأشجار لزراعة القمح . وليس للفلاح أن يختار بين زرع الإثنين ، ولكن ينصب اختياره على أيهما يكون عنده الزراعة الأساسية .

إن زراعة الزيتون كما لاحظ « فرجيل » ، لا تحتاج إلى كثير من الرعاية أكثر من الحفر حول الجذور ، وإذا ما زرع فى بلد ما كانت زراعته أحب الزراعات إلى زارعيها ، فكل رجل من رجال الجنوب (بل الرجال كلهم) يسر بجلوسه راضياً مطمئنا تحت أشجار ثمره . ولا يبدأ العمل فيه إلا فى أواخر الخريف وهى فترة مناسبة هادئة ، إذ لا تتطلب المحصولات الأخرى فى ذلك الوقت جهداً فى الزراعة . فالزيتون ينضج بعد التين والعنب ، ويقول محترف زراعة رومانى « إن الزيتون الذى تصل إليه اليد ، أو يقتطف باعتلاء سلم ، يحسن أن يجنى باليد ، ذلك أفضل من هز الشجر ذاته . أما الأغصان التى تبعد عن متناول اليد فالأفضل أن تضرب بعصا طويلة رقيقة لا بعصا غليظة ، لأن الضرب الشديد يتطلب طبيباً » . وكانوا لا يحتفلون بموسم حصاد الزيتون كاحتفالهم بموسم الكروم .

---

(١) الزيتون : هيرودوت ٥ — ٨٢ .. غرست أول زيتونة للآلهة أثينا على الأكروبول .. أنظر ڤيلاموڤيتس الجزء الأول ص ١٠٠ ؛ من Aristoteles und Athen (الذى سيشار إليه من الآن فصاعداً بـ A. A.). أنظر التشبيه البديع فى الإلياذة ١٧ — ٥٣ ، وطبعاً أنظر جماعة المنشدين لسوفوكليس (O. C. ٦٩٤ ،). وراجع أيضاً Hehn ص ١١١

وحصاده يتطلب مجهوداً كبيراً كجنى الفرولة أو حشيشة الدينار فى بلاد الإنجليز . وكان العمال المستأجرون يخرجون من المدينة لجمعه على طريقة «كنت» المعروفة [١] .

ولكن هناك عامل مهم آخر ، فالوقت بين زرع الزيتون وجنيه طويل ، وأشجاره لا يكتمل إثمارها إلا بعد ستة عشر أو ثمانية عشر عاماً ، ولا بد من مرور أربعين أو ستين سنة قبل أن يصل الزيتون إلى كماله ، ولذا فإن زراعته ، كالغابات ، تتطلب إشراف حكومة مركزية قوية ، وشعباً ريفياً يستطيع الصبر . وقد يفسر هذا بطء التقدم فى زراعة الزيتون قديماً ، كما يفسر ما لقيه سولون وپيزستراتوس من صعوبات عندما شجعت حكوماتهم ازدياد انتشار زراعة الزيتون فى أثينا . ومن المحتمل أن زراعته ، ما كانت لتعم أتيكا كلها لو لم يكن پيزستراتوس قد دفع للملاك نفقات ذلك من جيبه الخاص [٢].

ومن ثم كان القضاء على مزرعة زيتون خسارة فادحة . والخسارة التى تنشأ عن ذلك لا تعادلها خسارة تحطيم حقل من القمح ، فليس الضرر فى ذلك خسارة دخل سنة فحسب ، بل هو خسارة رأس المال أيضاً . وقد كتب سوفوكليس فى سنة ٤٠٦ ق . م ، بعد ما دام إحتلال العدو للبلاد سبع سنوات متوالية ، فوصف ، بشجاعة ، الزيتون بأنه « الخالد الذى لا ينهزم » مذكراً سامعيه بأن الزيتون المقدس على الأكروپول قد عاد بعد أن ذهب الفرس . ولكن الفلاحين الذين استمعوا إليه أدركوا أن تلك كلمات جوفاء . فلما انتهت الحرب تركوا حقولهم الخربة بما فيها من أعجاز زيتون محروقة

---

(١) Varro ; Rerum Rusticarum ١ — ٥٥ . جامعى الزيتون Ar. Wasps ٧١٢ . وهم ممثلون على إناء فى المتحف البريطانى ، له صورة فى دارمبرج وساجليو ، مقال Olea شكل ٥٣٨٥ . الزراعة : (Georgic) ٢ — ٤٢٠ .

(٢) Ath. Pol. ١٦ — ٢ .

وانخرطوا فى سلك الجندية جنباً إلى جنب مع أعدائهم الآخرين لكسب رزقهم ، ولا بد أنهم أحسوا بغصة فى حلوقهم وهم يتغنون بأنشودته حول نار معسكراتهم .(١)

ويذكر الجغرافيون المحدثون بعض الزراعات الأخرى فى اليونان الحديثة، وهى المنتجات الشبه مدارية التى تحتاج إلى تربة تروى باستمرار . وأهم هذه المنتجات القطن والدخان ، وكلاهما يزرع فيها الآن ، ويزرع الأخير بكميات كبيرة .

والمزروعات الشبه مدارية لم تعرف فى اليونان القديمة . فلم يعرفوا القطن إلا كنوع نادر غريب « من شجر الصوف » . أما « الدخان » فمع أنه يبدو الآن متأصلا فى بلاد الشرق الأدنى، مثل البن ، إلا أنهم لم يعرفوه إطلاقا، وهو ما ليس لنا أن نذكره هنا إلا لنبين أن طرق الزراعة التى تتطلب عناية وعمل جماعات كبيرة فى كل البلدان الأخرى ، كانت مجهولة لدى اليونانيين القدماء ـ ولو عرف اليونانيون السكر بدلا من العسل لتبدل حالهم وأصبحوا أصحاب مزارع كبرى بدلا من بقائهم ملاكا صغارا . ومن الطريف أن نلاحظ إلى جانب ذلك ، أنهم لو اتخذوا الأرز غذاء لهم بدل القمح ودقيق الشعير ،

---

(١) يشير سوفوكليس فى O.C. ٦٩٩ إلى القصة التى وردت فى هيرودوت ٨ — ٥٥ . وفيما يتعلق بالحديث حول نيران المعسكرات بين الأثينيين والإسبرطيين أنظر إجزينوفون .Anab ٤ — ٦ — ٧ إلى ١٩ . أما أن يقصد البلوپونيزيون أشجار الزيتون خاصة بالتدمير فى أتيكا فيبدو واضحاً (ذلك وغيره) من كلام توكيديدس ٣ — ٢٦ — ٣ « إنهم دمروا ما قد نبت منه فى الأجزاء التى دمروها من قبل » (τά τε πρότερον τετμημένα) ولم تكن هناك حاجة إلى إضافة « ماقدنبت » (εἴ τι ἐβεβλαστήκει) إذا كان المقصود هو القمح الذى كان لديهم وقت كاف منذ وصولهم لزراعته . وقد كان محصول الزيتون الجديد هو الدافع لامتناع الإيطاليين عن الذهاب إلى القتال عندما عبر قيصر نهر الروبيكون . وأول زيت صدرته إيطاليا كان قبل ذلك بثلاث سنوات : بلينى :Pliny N. H التاريخ الطبيعى ١٥ — ١ — ٣ . وقد نهى قانون موسى اليهود عن قطع « الأشجار للقوت » فى الأعمال الحربية : .Deut ٢٠ — ١٩ إلى ٢٠ . ولكن أنظر الملكين ٣ — ١٩ .

لوفروا على نسائهم كثيراً من عمل الطحين الشاق . ولكننا وقد جاوزنا الحد الفاصل بين الجغرافيا والاقتصاد – أى بين منتجات الأرض وما يفعل الإنسان بتلك المحصولات – آن لنا أن نختم هذا الفصل [١] .

---

(١) القطن (εἶρον ἀπὸ ξύλον أى صوف الشجر وهو بالالمانية Baumwolle): هيرودوت ٣ — ٤٧ و ١٠٦ . وقد كانت زراعة الكتان فى بلاد اليونان عددة المساحة ؛ ويذكر توكيديدس ٤ — ٢٦ أن الهيلوت قدموا الأسرى فى Sphacteria بذور الكتان المطحون التى تقدمها نحن للماشية . أما القنب فلم يكن يزرع هناك وقد كان أمر غريبا على هيرودوت حين رأى سكان ترافيا يصنعون منه ملابس ، والسيثيين يستعملونه فى حمام البخار (٤ — ٧٤ إلى ٧٥) . ولم يكن لدى اليونان من محاصيل الحدائق المعروفة شيئاً من الكريز ولا البرتقال ولا الليمون ولا الطماطم . أما المشمش والخوخ فلم يعرفا إلا بعد الإسكندر ، ودخل دود القز لأول مرة الغرب فى سنة ٥٣٦ ق . م وإن كانت البضائع الحريرية قد عرفها الرومان . وقد عرف نوع غير جيد من الحرير صنع فى تاريخ متقدم جداً ، من شرنقة نوع من البومبكس المحلى (Bombyx) . وأهم الفواكه اليونانية التين وهو أولها لا شك ، ثم التفاح والكمثرى والرمان ؛ أنظر الإلياذة ١١ — ٥٨٨ (تنتالوس) ثم ٢٤ — ٢٤٦ (حديقة Laertes) . ثم بقيت كلمة عن الحيوان : فالديكة والدجاج التى يسميها الأثينيون « الطيور الفارسية » (ويسميها الرومان الطير الغالىّ) أتت جميعها إلى اليونان من آسيا فى القرن السادس ق . م وهكذا أتى على اليونان عصر لم يستطيعوا فيه تقديم ديك أو فرخ إلى أسكليبوس أو إلى أى سائح أنهكه المسير . وفيما يتعلق بكل هذه المسائل أنظر Hehn فى كتابه Culturpflanzen und Haustiere (الطبعة السابعة برلين ١٩٠٢) ، E. T... (من طبعة سابقة) لندن ١٨٨٨ .

الجزء الثانى

السياسة

Τοῦς μὲν σώμασιν ἀλλοτριωτάτοις ὑπὲρ τῆς πόλεως χρῶνται,
τῇ δὲ γνώμῃ οἰκειοτάτῃ ἐς τὸ πράττειν τι ὑπὲρ αὐτῆς.

أنهم ليفنون أجسادهم ، كشىء منفصل عنهم ، فى خدمة المدينة ؛
ويعدون عقولهم وهم يسخرونها فى عمل من أجلها ، كأخص خصائصهم .

هذه إذن هى الأسس المادية التى بنيت عليها النظم السياسية اليونانية ، وهذه هى البيئة الدائمة التى مثلت فيها مأساة التاريخ اليونانى، وقد آن لنا أن نقدم شخصيات الذين قاموا بهذا التمثيل ، فأى الرجال هم ، وماذا أفادوا من هذه الأرض الخشنة التى تدر لهم العيش ؟ .

إن أكبر ميراث تركه اليونان للعالم الذى أتى من بعدهم ، هى وطنية « المدينة الدولة ». فالمدينة كانت المحور والوحى فى كل أعمالهم التى تميزوا بها ؛ والتى بلغت أقصاها فيما كتبوه من أدب وفن ، ومن نشاط عملى قام به رجال عظام أتوا أعمالا عظيمة فى القرن الخامس فى أثينا لم ير العالم لها مثيلا ، لا من قبل ولا من بعد . ولما أن انقضت المدينة صاحبة السيادة فى القرن الرابع قبل الميلاد خمدت معها الانفعالات والعواطف التى ألهبتها وغذتها . وإن الرجل الحديث ليستلزم جهداً كبيراً لا ليتمثل ما كانوا عليه هم ، بل أشباحهم . وإذا لم ندرك ، ولو بشكل غامض ، شعور الأثينيين نحو بلدهم أثينا، فقد يظل أحسن ما فى بلاد اليونان القديمة غامضاً علينا . فلنحاول إذن أن نحل فى صبر وحذر تلك الخيوط العديدة التى تربط اليونانى بمدينته — وما نحسب ذلك هيناً — مستعينين بالجغرافيا وبالتاريخ وبكل ما يساعدنا على أن نقوم بدور الشارح لأرفع وأسمى تعبير عن فن الحياة فى الدولة المدينة، ألا وهو مرثية بركليس أو خطبته الجنائزية .

الفصل الأول

تطور حق المواطن

الزمالة أو حكم الرأى العام

Tò κοινóν

كان الرأى عن الدولة عندهم أساسا هاما للصداقة والود ، ولست أعرف شيئاً آخرا أقدر على تكوين عادات أرسخ وأعز، وأبهج وأنبل، وأشرف وأفضل من ذلك .

برك

كيف تؤثر العوامل الجغرافية فى سكان أرض اليونان ؟

إن الحياة فى بلاد اليونان صعبة وسهلة معا . أو قل إن سكان تلك البلاد لينو العريكة وشديدو المراس فى وقت واحد . فخشونة تلك البلاد وجدبها ، والتفاوت بين الفصول ، وقسوة برد الشتاء ، ساعدت كلها على بقاء الأصلح وجعلت من اليونانيين فى كل العصور أناساً بسطاء أشداء متقشفين غير متهالكين على مشرب أو مأكل . ولكن طول صيفهم الصافى وسهولة المعيشة وقلة تكاليفها بسطت مشكلة الوجود إلى حد كبير ، فلم يكن اليونانى بحاجة إلى أن يعمل بل ولم يرغب إطلاقا أن يعمل من الصباح إلى المساء ليمسك على نفسه جسدا وروحا معا . كما لم يك بحاجة أبدا إلى نشاط نمطى يجرى على وتيرة واحدة من النوع الذى يسير عليه العمال فى الشمال ، ويراه إقتصاديو الشمال نظاما محتوما على البشر كافة . ولم يعرف اليونانى ، لا فى عاداته ولا فى مثله العليا ، الرجل الإقتصادى بمعنى الكلمة العادى . والكلمة اليونانية للبطالة هى « سخولى scholè » وتعنى « وقت الفراغ » . على حين أن

اليونانى لا يعبر عن « العمل » بأكثر من عكس هذه الكلمة « أسخوليا aschoila » أى « عدم الفراغ ». وهو يعد فترة فراغه من ساعات وأسابيع أحسن أيام حياته وأكثرها ملاءمة له . والذين يعيشون وسط الكروم والزيتون يدخلون بطبيعة الحال ، فى نطاق ذلك الفكر الحر الطليق غير المسؤول . فالطبيعة تتولى إنضاج الثمر ، وما على المرء إلا انتظار وقت الحصاد. وقد عاش اليونانيون دائما فى ظل مجال كاف من الفراغ . والفراغ هو مبعث الفن والتأمل ، كما أن الحـــاجة هى باعثة الوسائل الفنية أو ما نسميه نحن « المخترعات ». ولذا كان الفلاح اليونانى يفهم ويتذوق عمق إيوريبيدس ودقته ولكنه لم يكن يفكر مطلقا فى اختراع سهل مثل طاحون الهواء [١] .

إن نشاطنا الإقتصادى المتواصل دون تغير ، يجرى غالباً داخل الأبواب ، وعادة فى أوضاع جلوسية متعبة . لم يكن ذلك اختياراً منا ، بل إن الجو والعمل نفسه فرضاه علينا . وإن أكثرنا ليفضل أن يقضى كل أوقاته فى الهواء الطلق لو استطاع إلى ذلك سبيلا . وكذلك كان اليونانيون، ولم يكن هناك ما يحول بينهم وبين ذلك . وقد ورد على لسان رجل عادى من أثينا ، كما يذكر إجزينوفون قوله « إنى لا أمكث داخل البيت أبدا ، فى مقدور زوجتى أن تقوم بكل أعمال المنزل وتدبيره وحدها »، وينطلق هو فرحا ليقضى وقته بين الحقول أو فى السوق العامة أو حلبة المصارعة ، أو فى المحكمة أو فى جمعيات الشعب ، أو حيثما يجتذبه الواجب واللذة . وكل المؤسسات الرئيسية فى حياة اليونانيين كانت فى العراء ، ومن النادر أن يستقر اليونانى فى بيته ، فهو لا يأوى إليه إلا عند النوم أو الأكل . كما لا تجده فى حديقة منزله الخاصة، إذ انحصرت المدينة اليونانية داخل جدرانها حتى لم يعد بها للحدائق مكان .

---

(١) طبعاً يجب أن لا تكون الأحوال المناخية مما يؤثر على حسن استخدام وقت الفراغ ، وقد أوضح ذلك مايرز فى كتابه (Greek Lands ص ٢٨) إذ يقول « إن التفكير الأيجيى يختلف عن (التفكير) الهندى ، وذلك لأنه يندر أن يكون الجو حارا جداً بشكل يحول دون المرء وأن يفكر ليعمل » .

واى فائدة يرجونها من الحدائق الخاصة ، ولديهم البساتين خارج الأسوار مباشرة . وكان المرء يقطع وقته دائما فى العمل أو مع زملاء آخرين له فى مكان عام[١] .

ماذا لو أمطرت السماء ؟ إن كل مدينة تحترم نفسها قد استعدت لذلك بإقامة البواكى أو الممرات ذات السقف التى تشبه ما نراه الآن فى بعض الجهات التى يؤمها الناس للاستشفاء بمياهها المعدنية . ويروى سترابون قصة سكان كيمى فى آسيا الصغرى وأنهم رهنوا « بواكيهم » كضمان لدفع دين حكومى عليهم ، فلما عجزوا عن الدفع حرم عليهم المشى داخلها ، ولكن حين أمطرت السماء أحس الدائنون بخجل شديد لما حل بالمدينة من حرج فأرسلوا منادى المدينة يعلنون إلغاء حظر الإحتماء بها . ومن المحتمل أنه لم يكن فى مقدور رجال كيمى إستقبال زائريهم فى منازلهم ، كما نفعل نحن الآن . فأول كل شئ وجود النساء بالمنازل لا يمكن الرجال من التحدث بحرية كاملة . ثانياً إذا كان المنزل اليونانى غير مريح فى الجو المشمس فهو كذلك أثناء المطر وذلك لفقدان وسائل التدفئة طبعاً ، وعلى ذلك كانت السوق العامة أو الممرات المغطاة لليونانى بمثابة النادى عند رجل الشمال . والفارق الوحيد هو كثرة تردد اليونانى عليها . فالرجل اليونانى ليس « رجل عائلة » بل هو حيوان سياسى كما يقول أرسطو ، وبما أننا لا نزال بعيدين عن جو السياسة فهو بالأحرى « رجل الشارع » كما نقول نحن الآن . ولكن زوجه ، حفظا للتوازن ،

---

(١) اجزينوفون .Oec ٧ — ٣ حتى البابليون ، كانت مستشفياتهم فى الهواء الطلق ، وقد ظن هيرودوت (١ — ١٩٧) أن ذلك الأمر كان ترتيباً معقولا يساعد على تقدم المعرفة الطبية . ولم يكن ذلك الأمر عاما عند اليونان ، وربما كان يرجع إلى أنهم لم يحبوا رؤية المرضى ؛ ومن المحتمل أن يكون ماتعلمه أورستيس Orestes ، الذى ذكره ايوربيدس ، من نومه على سرير المرض خارج بابه الأمامى الخاص فى فناء منزله أمراً منقولا عن الحياة نفسها . وفيما يخص السرر فى السوق العامة أنظر أيضاً مارك ٦ — ٥٦ . ان الحدائق تكشف عن الرغبة فى العزلة . وتلك فكرة غريبة عن الدولة المدينة . ومن المعلوم أن أول من سن استعمال الحدائق الخاصة بانتظام واعتبرها شيئاً لازما هم الفلاسفة . فالأكاديمية والليكيوم Lyceum لم يكونا تدريبا على حياة دولة المدينة بقدر ما كانا بديلا عنها . فسقراط درس فى السوق العامة وساحات المصارعة العامة ، أما أفلاطون وأرسطو فقد « نزحا إلى القرى » (أنظر التذييل) .

كانت شديدة التعلق بالمنزل فعلها إعداد الطعام والملابس ، ذلك إلى أن إباحة دخولها السوق العامة بما فيها من الاجتماع السهل الحر لم يكن أمراً مأمونا . فاليونانى إذن كان يعتقد أن نادى الرجال حق طبيعى له . ويقول إجزينوفون إن « الآله قضى، والقانون يؤيد ، أن يعمل كل بحسب قدرته أو كفاءته فليس مما يشرف المرأة أن تكون خارج المنزل ، بل الشرف أن تظل داخله ، كما أنه من المخجل أن يظل الرجل فى بيته دون أن يقوم بعمله فى الخارج » . ولذا أحس هيرودوت أنه فى بيئة ذات نظام مقلوب عندما رأى فى مصر الرجال يغزلون والنساء يقمن بشراء لوازم المنزل ، بل ويذهبن للاتجار فى الأسواق . وقد أنشد هزويد Hesiod كما ينشد رجل للرجال فقال « منزل وزوجة وثور للحرث — هذه أولى ضرورات الحياة » . وبعد مضى عدة قرون أخذ أرسطو هذه الجملة المقدسة وجعل منها أساساً لنظريته السياسية ، ويحتمل أن يكون مرجع ذلك حبه للنظام الذى روعى فى ترتيب هذه الأشياء[1].

وحياة النوادى تولد الزمالة الطيبة ، واليونانيون كمعظم الشعوب التى تعيش فى مثل جوهم، قوم إجتماعيون ، يحبون الجماعة ويستمتعون بالإندماج فى جماعات كبيرة . وقد لا يستصوب بعض أهل الشمال أن يخاطبوا أحداً قبل أن يتعرفوا به ، على حين أن اليونانى يرى أن عدم الترحيب بالغريب ليس من الذوق فى شئ، وأنه من الحق ألا يرضى فضوله الطبيعى بأن يسأله عن عمله وما يريد. هذا والمحاورات الثنائية التى نجدها فى رواياتهم التراجيدية المكونة من سؤال والرد عليه فى سطر واحد (στιχομυθία) عند ظهور شخصية جديدة من الممثلين ، تتخذ معنى جديدا للسائح الذى يتجاسر ويجول فى إحدى قرى اليونان ويعانى كثيراً من أسئلتهم . فالسائح الغريب فى بلاد اليونان قد يغمر بالأسئلة فى غير رحمة أكثر مما نغمر بها تلاميذ مدارس الآحد فى البلاد الشمالية . فهذا جزء من نظم الإجتماعات فى النوادى ويرجع

---

(١) إجزينوفون .Oec ٧ — ٣٠ ؛ وهيرودوت ٢ — ٣٦ ، هزويد (إرجا Erga) ٤٠٥ . أرسطو السياسة ١٠٥٢ ب ١١ . سترابون ٦٢٢ .

إلى ما قبل الاستقرار ، عندما كان حتى القرصان واللصوص لا يتورعون عن ذكر أعمالهم ونياتهم لمن يسألهم . فالوحدة عند اليونان تشبه تماماً ما نحس به نحن من حنين إلى الوطن . ولما كان اليونانيون يعيشون دائماً فى شبه « كلية » طبيعية فلم يكن فى مقدورهم أن يروضوا أنفسهم على ظروف تبعدهم عن زملائهم . وهكذا كانوا فى هجراتهم إلى صقلية أو إيطاليا ، فى القديم ، أو إلى الولايات المتحدة، كما هى الحال الآن، « لا يذهبون فرادى بل يذهبون جماعات كفصيلة من الجند » ، أو كما يقول أفلاطون فى حشد من الأصدقاء كبير . فإذا ما وصلوا إلى الشاطئ الآخر إهتموا بالبحث عن النواحى الإجتماعية التى تناسبهم أكثر من اهتمامهم بالبحث عن الشئون الاقتصادية . فإذا كان على اليونانى أن يضحى بإحدى اثنتين ، فلن يضحى بالمعيشة وسط الجماعة . وإذا لم يكن أمام المهاجر إلا مزاولة الزراعة فى الحقول الأمريكية المنعزلة القاسية التى تبعد عدة أميال عن أقرب مسكن ، فإنه يفضل البقاء بالمدينة ، حيث سرعان ما ينسى مهارته الفنية فى تربية دودة الحرير وزراعة الزيتون ، نظير استمراره فى الحياة الإجتماعية التى شب عليها من قديم ، حتى لتملأ عمارة كبيرة بأكملها بسكان من أهل قرية واحدة . ألا إن ناطحات السحاب لبديل هزيل عن السوق العامة المشمسة ! ولكن ليس لمستجد أن يختار[1] .

كل ذلك كان له أثره الفعال فى حياة اليونان السياسية . فالزمالة معناها المساواة ، ولكنها ليست تلك المساواة الوهمية التى تتخذ شعاراً فى الجمهوريات الغربية ، بل هى إحساس راسخ نلمسه فى الحاجات والمعاملات المشتركة بينهم حول الينابيع والعيون ، وفى مفارق الطرق والأسواق والمعابد والأضرحة والمساجد فى الشرق الأدنى . ولقد كان فى تركيا مساواة حقة فى عهد السلطان عبد الحميد ، أكثر مما كان فى الولايات المتحدة فى عهد روزفلت . وحسبنا مثل واحد

---

(١) أنظر فصل « المهاجرين فى حكومة المدينة » بأكمله فى كتاب جين آدمز عن Jane Addams's, Newer Ideals of Peace ص ٦٢ وما بعدها ؛ وانظر توكيديدس ١ — ٥ — ١ (القراصنة) ثم ٧ — ٧٥ — ٦ الإجتماع (Gregariousness) . ثم القوانين لأفلاطون ٨ ٧٠٨ ب (الإستعمار) .

من هـذه المساواة ، كى نكون فكرة واضحة عما هو معهود فى الأسفار والرحلات. إذ يصف لنا ضابط إنجليزى كيف استقبله أغا تركى فى بلدة صغيرة عند أعالى نهر دجلة فيقول :

هناك مثل من روح المساواة الحقيقية السارة التى توارثها الشرقيون تظهر جلية بين أفراد الجماعة التى كانت فى استقبالى — الأغا نفسه وهو قائد الجيش، وشحاذ أعمى وعامل مسيحى يعمل بمحل تجارى ، وكاتب فى مكتب البرق ، وخادمان ، ويعقوب (خادم كاتب هذه السطور) وأنا ثم قصاب جاء يتفق مع خادمى على ثمن خروف ، وقد جرت المساومة بينهما أمام الأغا فى أثناء تناوله القهوة[1].

فهذا المنظر يعد منظراً نموذجياً وخاصة تلك المساومة على ثمن الخروف ، فتلك جماعة لا تحتاج إلى تعارف ، ولا تعرف الحياء ولا تحفظ عندها فى الـكلام ، فالـكل يقول ما يريد ، كما يفعل الناس فى النوادى سواء كانت المحادثة بشأن نقود أو زواج أو أى شئ آخر .

فالمساواة التى من هذا القبيل تـكون أساساً صالحا للنظم السياسية ، وإنه لمن الأجدى على رجال كل مجتمع أن يتقابلوا ويتحادثوا لأنهم سيتناولون بالطبع أموراً تهم الصالح العام . والآن فأهم شىء يتصل بالصالح العام — فى جماعة قليلة العدد ساذجة التفـكير فى جو مستقر ، لن يكون حالة هذا الجو ولا المال ولا الزواج ، بل هو الدولة . والواقع أن الدولة ، كما يسميها اليونانيون هى « الصالح المشترك « τό κοινόν » » ، وكما يقول الرومان « Res publica » . فإذا ما تحدث إنسان عن زوجتك وبناتك ، خصوصاً فى جماعة متعصبة لبلدها مثل تعصب المجتمع اليونانى ، يمكنك أن ترد عليه بأن يهتم بشئونه هو ، أما فى السياسة فكل مشكلة وكل شخصية أمر مباح للجميع . وهذه إحدى مميزات حياة النادى فى عرض كل المسائل التى تطرح علنا ، فيرمى بكل شىء « فى الوسط » (εἰς μέσον) كما يقول

(١) مارك سايكس (Sykes) فى كتابه Dar-ul-Islam ص ٨٨ .

اليونانيون. هذا وإن اعتراضهم الشديد على الحاكم المطلق ليس لأنه يحكم حكماً غير عادل — فهم يسلمون بأن الرجل الذى يقضى فى الأمور بنفسه لابد أن يكون ذا كفاية كبيرة — بل لاعتقادهم « أنه يحتفظ بنفسه لنفسه » فحكم جماعة بحاكم مطلق معناه القضاء على الجماعة . وقد أدى ذلك بالإيونيين إلى التحدث فى ما وراء الطبيعة ، وحتى إذا لم يتمش هذا الاتجاه مع مزاجهم وجهوا اهتمامهم الشديد نحو العناية بملابسهم تخلصاً عما فى الحياة من خمول . والواقع أنه عندما أصبحت المناقشات السياسية بعد الإسكندر الأكبر مجرد سفسطة كف أصحاب الفكر عن الذهاب إلى السوق العامة، ونزلت المناقشات إلى المهاترة والخرافات ، فأثينا فى عهد القديس بولس هى أثينا فى عهد بركليس بعدما استبعد من حياتها عنصر هام .(١)

فالحياة الإجتماعية فى مثل هذه الظروف هى التى خلقت القوة التى نسميها « الرأى العام ». وهى تلك القوة التى نعرفها متركزة فى الصحف، أو من صنع الصحف نفسها ، ونلمس قوتها ظاهرة أثناء الإنتخابات والإجتماعات العامة . وبعد سبعمائة عام قضتها إنجلترا فى الحكم البرلمانى ، أصبح الرأى العام قوة يحسب حسابها كل من رجال السياسة فيها . هذا ونرى قوة الرأى العام فى جميع البلدان الدستورية الأخرى بدرجة أقل ، ولكننا لا نعرف الكثير عن مدى قوتها وشدة تأثيرها فى جماعة مثل جماعة اليونان . فالحيوان السياسى كان يناقش كل أمر يعرض عليه ، وكان قول كل شىء παρρησία حقاً من حقوقه التى يتمسك بها ، ويمارسه بروح « حرة كبيرة » لا يأمل المشتغلون منا بالأمور العامة ، ولا صحفنا الوصول إلى درجته فيها . فالطريقة البديعة التى

---

(١) أنظر هيرودوت ٣ — ٨ — ٨٢ (الملك σιγῷτό τε ἄν βουλεύματα : ويقول دموسثينيز مثل هذا الكلام عن قلب) . إن الملك الذى تسهل محادثته يعتبر سائراً على « طريقة لا تليق بملك » . أنظر هيرودوت ٢ — ١٧٣ إذ يذكران أمازيس سهل الاتصال به كما يفعل أى رئيس للجمهورية الأمريكية ؛ أنظر أيضاً توكيديدس ١ — ١٣٠ و (پوزانياس « العادات الشرقية ») . وإحدى علامات « الرجل المتعاظم » عند ثيوفراستوس « أنه لا يستقبل زائراً فى وقت تدليكه أو استحمامه » (ص ٥٠ Jebb) ؛ وقد كان الإيونيون دائماً فى المقدمة بالنسبة للأزياء كما يظهر ذلك واضحاً على الأوانى والآثار : أنظر هيرودوت ٣ — ٢ — ١٣٩ (« صديرى Syloson » المزركش وما أدى اليه) .

يخلط فيها ديموستينيز بين خطبه وحديث المجالس الخاصة، تبدو لنا غريبة وبعيدة عن الموضوع ، ولا يمكننا أن نفهم لماذا يهتم النقاد المعاصرون بأن يقولوا لنا إن أم إيوريبيدس كانت بائعة تفاح ، ومع ذلك وقبل كل شيء فلماذا يجب على المواطن الذى يتكلم بحرية أن يمسك عن « الملاحظات الشخصية » ؟ لقد كان حال السياسة فى اليونان فى ذلك الوقت ، كما هو الآن إنما يقوم فى جملته على المناقشات الشخصية ، وكل ما يفعله المرء أو يقوله أو يشتريه أو يلبسه قد يكون ذا أهمية سياسية . وكانت أثينا تفخر، على عكس الدول الأخرى ، بسماحها لأفرادها بحرية واسعة فى أن يسلكوا السلوك الذى يحلو لهم ويتفق ومزاجهم ، وحتى فى أثينا نفسها كان ديموستينيز يرى ضرورة السماح للموالى « أن يمشوا فى أثينا بسرعة ويتكلموا بصوت عال وأن يحملوا عصياً يتوكؤون عليها » . وكم تبدو كلمات بركليس فى مدحه حرية الحياة الإجتماعية فى أثينا، غريبة للإنجليز الذين شبوا على أنه من الطبيعى المسلم به أن كل إنسان يمكنه أن يعمل ما يريد ما دام ذلك لا يمس إلا نفسه ، إذ يقول « نحن لا ننظر نظرة جفاء أو نوجه كلمات ملؤها الغضب إلى جارنا إذا استمتع بنفسه كما يريد ويهوى ، ويمسك عن الأعمال التافهة غير اللائقة ، التى رغم أنها لا تترك أثراً إلا أنها تضايق من يلاحظها » . ويمكننا أن نتصور أنه كان على بركليس أن يواجه تصرفا أكثر من «تلك التصرفات التافهة التى لاتترك أثراً» إذا هو حاول أن يقود سيارة فى بلدة أتيكية . وفى الحق لم يكن هناك مايدعو المرء إلى جمع الثروة ما دام الرأى العام يرقب استغلال المرء لثروته . فالرجال فى مجتمع مثل هذا المجتمع ، حتى من شاخ منهم وهرم ، كما يقول بركليس ، كانوا يعتبرون الشرف خيراً من الثروة ، إذ أن فى حصول المرء على ما يسميه الإغريق « حسن تقدير » ἀξίωσις قد يؤدى إلى سعادة حياته أكثر مما يؤديه أى شىء آخر فى مقدوره . فلا عجب إذا ما جنح الإغريق إلى الظن بأن الفضيلة ليست أن يكون المرء طيباً حقاً بل أن يبدو فاضلا [1] .

---

(١) توكيديدس ٢ — ٣٧ — ٢ . . Dem ٣٧ — ٥٢ . أفلاطون الجمهورية ٣٦٥ .

ولعل خير طريقة لإبراز مكانة الرأى العام فى الحياة اليونانية هو تتبع معانى الكلمات المتعلقة بالسوق حيث ساد الرأى العام . فكلمة أجوراً **Agora** لم يكن معناها الأصلى السوق ولكن « الجمعية » ، لأن الأغريق ميالون بطبعهم إلى الاجتماع والمعاشرة وذلك قبل أن يعيشوا فى المدن بوقت طويل . ثم هى تعنى أيضاً مكان الاجتماع ، حيث تقام الاجتماعات والمحاكمات ، ولما أصبحت الحياة أكثر تعقداً صارت تعنى مكاناً للشراء والبيع . ولكن الأجورا أو الاجتماع العام يمكن أن يقام فى أى مكان . وحين أراد أوديسيس البت فى أمر سياسى على ظهر مركب ، طرحه للبحث على جمعية من البحارة ، وقد نجح إيوريلوخس أحد البحارة وزعيم المعارضة معترفاً به كل الاعتراف ، نجح فى فرصة سيئة ، أن يضع القائد الأعلى فى أقلية من شخص واحد فقط . ويذكر قراء إيوثن **Eothen** الفصل عن البحارة اليونانيين وما فيه من وصف هيدريوت العبوس الذى كان يمثل زعيم المعارضة ، والذى عارض بوادر الطغيان ، وحمى ، حتى خادم غرف السفينة ، من الظلم . إلا أن « الأجورا Ἀγορά » لم تدل على المناظرة فقط ، ولكنها استعملت للدلالة على الانتهاء منها ، فقد كانت تستعمل علامة للوقت Ἀγορᾶς πληθυούσης أو « أجورا كاملة » ، تدل على الفترة التى بين الصباح إلى وقت الغذاء ، فإذا ظل اليونانيون يتناقشون إلى أن يحسوا أثر الجوع ، لم تكن بهم حاجة إلى ساعة المدينة تنبههم للرجوع . والفعل من أجورا ، ἀγοράζειν (أجورازين) وهو أيضاً كلمة شائعة ومعناه « يتردد على السوق أو يتسكع أو يشترى » ، وفوق ذلك كله تستعمل فى عبارة تفسر ترجمتها « ينزه نفسه » أو يكون فى حالة « جيدة » — ملائمة للسوق . ولما هرب الطبيب اليونانى ديموكيدس **Democedes** من البلاط الفارسى ، إلى بلدته كروتن عثر رسل دارا عليه وسط جمهور من المعجبين به (ἀγοράζοντα) . فلا بد أن تكون قد تسربت إلى كروتن كثير من القصص الغريبة عن حياة البلاط الفارسى أثناء اجتماع ذاك الصباح . ومثل هذا المجتمع لا يحتاج إلى كتب ولا صحف ، فهو يلتقط الأفكار الجديدة ، جادة

كانت أو تافهة ، من أسخيلوس أو ديموكيدس بالرواية والسماع مباشرة[1] .

إلى هنا ذكرنا العوامل التى تؤثر فى معظم أراضى حوض البحر المتوسط فحيثما تكن الحياة سهلة وطلقة ينشأ نوع من المساواة الطبيعية . فالشمس تشرق على كل من أبناء الأسر الكبيرة والوضيعة على السواء ، ولم تعرف الفوارق بين الأفراد فى الطبقات الأولى والثانية والثالثة . ولم تبق فى الجهات التى أدخلت بها إلا بمجهود مستمر . وزيادة على ذلك فقد أفضت تلك المساواة إلى وجود رأى عام حى دائم ، واهتمام بالأعمال العامة .

وليس معنى ذلك أن حوض البحر المتوسط يتمتع كله باستقلال طبيعى داخلى ، ولا أن بقاعه كلها لا بد أن ينشأ فيها نوع من أنواع الحكومات الشعبية . فتلك أمور لم يكن فى الإمكان الاحتفاظ بها كلها . والحق أنه قلما يحصل عليها كلها إلا بعد أن تقطع البلدان شوطا طويلا فى سبيل الارتقاء المعقد . وفى سبيل ذلك ، كما سنرى فيما يلى ، كان لا بد من تضافر عوامل كثيرة أخرى غير تلك القوى البسيطة القليلة التى أوردناها . فتاريخ الشعوب لا يمكن أن يكتب دفعة واحدة على أساس استنتاجات عامة سهلة نستنتجها من بيئاتها التى تعيش فيها . ففلسطين قد سلكت على يد حكامها مسلكا مخالفا لليونان ، وكذلك اتخذت دلتا النيل طريقا يختلف عما اتخذته سواحل آسيا الصغرى . ولكنا لا زلنا نؤكد أن كل تلك البقاع ، حتى إذا لم تكن قد تمكنت من الاحتفاظ باستقلالها ، أو لم تتوصل إلى إقامة حكومات ديمقراطية ، فلديها من الظروف ما يساعدها فى أى وقت ، على الوصول إلى الديمقراطية .

كل هذه الظروف قامت فى اليونان ، ولكن خصائص اليونان الطبيعية التى ذكرناها كانت تؤيد وتدعم هذه الظروف وتقويها ، إذا ماقورنت ببقاع

---

(١) الأوديسة ١٠ — ١٨٨ πᾶσιν μετὰ θέμενος ἀγορήν) ، (ἔειπον ١٢ — ١٩٧ ، هيرودوت ٣ — ١٣٧ (ديموكيدس) أنظر قصة طريفه أخرى ٤ — ٧٨ .

البحر المتوسط الأخرى . فالطبيعة قد وهبتها وجيرانها الميل للمساواة ، وهيأت لها أيضاً فرصاً كثيرة لإنماء قوة الرأى العام، ثم زادت فى قوة تلك الدوافع بأن حددت المجال الذى تعمل فيه تحديدا ضيقا . فكل سهل صغير محصور تماماً داخل جدرانه الجبلية، وبسكانه الذين يتجمعون فى أرضه الصغيرة المساحة الصالحة للزرع ، يبدو أنه خلق ليكون عالما قائماً بنفسه . فإذا صعدنا إلى المراعى وعبرنا الممر ، ونزلنا إلى الحقول والبساتين فى الجانب الآخر ، التقينا بتقاليد جديدة ، وعادات جديدة وقوانين جديدة وآلهة جدد ، ومن المحتمل جداً أن نسمع كذلك لهجة جديدة أيضا . إذن فسنكون بين أمة جديدة ، فهل القومية إلا اجتماع كل تلك الصفات ؟ فسنجد روحا قومية عارمة عنيدة لا تعرف ولاء لحاكم خارج أفقها، وتعتبر استقلالها الداخلى كيانها الروحى . ولم يتعلم اليونانيون تقدير قيمة استقلالهم المحلى بمشقة وآلام ، بل نشأوا غير قادرين على تصور أى وضع آخر للحكومة . وقد كان هذا تراثاً تراكم ببطء أثناء عزلتهم الطويلة الأمد التى امتدت من تاريخ استقرار الغزاة الإغريق الأول إلى أن ظهروا كجنس متمدين بعد ذلك بعدة قرون . ونظمهم السياسية فريدة عظيمة ، ولم يدركوا هم أنفسهم — حتى كبار كتابهم — إلى أى مدى كانت نظمهم هذه فريدة رائعة ، وإنما رأى فيها هيرودوت وتوكيديدس وأفلاطون وأرسطو أنها النظم التى ينبغى أن تكون قاعدة الحياة السياسية وأن من لا يأخذون بها إنما هم شواذ فهى الأساس الذى قام عليه شعورهم وتفكيرهم فى الأمور السياسية ، وبذكائهم وتأثيرهم صبغت آراء العالم الغربى السياسية وبلبلت تفكيره من ذلك الوقت .

فهذه العزلة وشدة الشعور المحلى هما اللذان ميزا اليونانيين عن غيرهم من سكان البحر المتوسط . فكل بلد فى سوريا أو فى بلاد العرب واقع على طريق الحج إلى مكة هو بمثابة ناد ، ولكن أعضاءه يعلمون أنه ليس النادى الوحيد فى العالم ، أو على الأقل ليس بأفضل نوادى العالم . إلا أن المواطن الإغريقى نشأ كما ينشأ كل عضو من أعضاء بعض الجماعات ذات النظم القوية الخاصة المخطوطة ،

فى جو مخالف لذلك ، فبعض التلاميذ الإنجليز وبعض القرويين الإيطاليين يعتقدون أحياناً ألا مدرسة غير مدرستهم ، ولا قديس غير قديسهم . وقد صهرت الوطنية اليونانية عواطف المدرسة مع عواطف العائلة ، والصفات الموروثة مع الصفات المكتسبة من الدين والسياسة ، أى أحسن مافى الطفولة وأحسن ما فى الرجولة معاً — صهرت الوطنية كل ذلك وصيرته عاطفة واحدة شاملة ، فمدينة اليونانى هى المدينة الوحيدة ، وطرقها هى الطرق الوحيدة . لقد أحب كل حجر وكل جدول ينساب فى ثنايا جبالها، واعتز بكل معبد ومسكن داخل أسوارها ، وراقب منذ نشأته الظل وهو يزحف ببطء عبر السوق ، ورأى الشيوخ وهم يغيرون مقاعدهم عندما تشتد حرارة الشمس ، وأمكنه أن يعرف صوت منادى المدينة وهو فى الطرف الآخر منها ، وقد قام بدراسة خاصة (للمشاهد الخاصة)،للشخص الذى كان هدف الكوميدى فى آخر روايات العام الماضى . وعرف كل موضع وكل شبر فى الطريق الخلفى للقلعة ، كما عرف كل الحيل لدخول المدينة بعد أن تقفل أبوابها . وقد كان بالطبع متدينا كل التدين فلم ينس قط أى احتفال بإله أو بطل، ويمكنه أن يخبرك عن الطقوس التى تتبع فى كل مناسبة ، وخاصة ما يتصل بالتضحية . ولم يسأم مطلقاً الأصغاء إلى أبيه وأعمامه وهم يروون له أخبار الغزوات والوقائع مع الرجال خارج الحدود ، والإصغاء لبعض الرواة البارعين المحترفين الذين يروون تلك الحوادث فى قالب قصة شعرية . ولم تقتصر مدينته على إخراج المحاربين والشعراء ، بل أخرجت أيضاً المهندسين والمثالين . وكانت كل مصادر الفن تزيد فى قوة تأثير الارتباط والاتصالات القديمة ، والجمال الطبيعى — فلا عجب إذا كان المواطن اليونانى (كما يقول بركليس) لا تعوزه إلا نظرة واحدة يلقيها على مدينته ليهيم بها حباً . فقد أحب الأثينى الأكروبول عندما كان حجراً لم يهذب بعد ، عندما كانت تشع الشمس على هيمتوس فلا تضىء غير صخور حمراء اللون وكتل بلازجية خشنة، ويحبه الآن عشرة أضعاف حبه السابق عندما تستقبل

معابده الرخامية أولى أشعة الصباح ، أو تقوم شامخة فى جلال فنها امام الشمس الغاربة وهى تختفى متوهجة عبر جبال الغرب[١] .

(١) الأوديسة ٦ — ٢٦٧ (السوق العامة) . أرسطو فى السياسة ١٣٢٦ ب — ٧ (منادى المدينة) . هيرودوت ١ — ٨٤و٨ — ٥٣ (الطريق الخلفى إلى الأكروبول) . توكيديدس ٢ — ٤ — ٣ ثم Aen. Tact. ١٨ — ١٩ (حيل خاصة بالقضبان والمزاليج) .

قارن هذه النظم التعليمية التى وصفناها فيما سبق بتلك النظم التى استنتها المدن الحديثة كما يصفها الكتاب العارفون بتطور تفكير الشبان وما يتطلبه . فانظر مثلا الفصول عن الصبى الذى يعيش فى جنوب لندن فى Across the Bridges التى كتبها Alex. Paterson ، (لندن ١٩١١)، وبخاصة كتاب جين أدامز The Spirit of Youth and the City Streets (نيويورك ١٩١٠) التى تبين فى صور واضحة ، من تجاربها هى ، كيف أن الصناعات — ووسائل الترفيه ، وفى الجملة كل عادات الحياة فى المدينة الحديثة ، ترمى الى القضاء أو الانحراف عن كل الخصال الأدبية التى عنى بها اليونان العناية الكبرى . فتقول متبعة أفلاطون « إنه ليس عملا هينا ولا سهلا أن نستبدل حب الجمال بمجرد الرغبة ، ولا أن نضع عقولنا فوق حواسنا » ص ٣٠ . وكذلك لم يدرك حكامنا بعد ضرورة تضافر الجهود لتحقيق ذلك . أنظر فى هذه النقطة أيضاً ، هامش صفحة فيما يلى .

الفصل الثانى

تطور حقوق المواطن
العادة أو حكم الأسرة

(τὸ πάτριον)

οὐ γάρ τι νῦν γε κἀχθές, ἀλλ' ἀεί ποτε
ζῇ ταῦτα, κοὐδεὶς οἶδεν ἐξ ὅτου 'φάνη.

سوفوكليس أنتجون ٤٥٦

« ألا خبرنى متى ولدت العادة البارحة أو السنة الماضية ؟ انها لا تعرف أياماً ولا سنين لقد كانت دائماً هنا » .

حسبنا ما ذكرناه فيما تقدم عن تأثير البيئة فى النظم السياسية عند اليونان . وقد آن أن نعود إلى الكلام عن طباع اليونانيين وخلقهم . إن البيئة لا تفسر إلا جانبا صغيراً من تاريخ الشعب ، أما الجانب الباقى فيجب أن نبحث عنه فى أسرار نفسيته . وهو بحث أشد صعوبة وأكثر دقة، ولكنه ممتع جداً ، فأغلب الرجال « لأنهم رجال » ، يرون أن العلوم البشرية أمتع لهم من العلوم الطبيعية .

ما الذى أفاده اليونانيون من الظروف التى تحيط بهم ؟ ما من شعبين يستغلان بيئة بعينها على نحو واحد . فمناظر اليونان لم تتغير إلا قليلا بين عهد هومر والعهد الذى فتح فيه اللاتينيون القسطنطينية . فالجبال والسهول ، وكذلك الصيف وإيجينا ، كلها لا زالت هى التى تهيء نفس الميل للعمل . وما زال البارثنون قائما على الأكروبول دون أن يمسسه ضرر ، ولكن الفرنجة الغزاة لم يعرفوا من النظم إلا نظام الأقطاع الذى نشأوا عليه ، ونجحوا

بطريقتهم القوية الغربية فى تطبيق مبادىء (دومزداى Domesday) ، فقسموا اليونان ، كما فعلوا بإنجلترا وفرنسا من قبل ، إلى إقطاعيات ودوقيات . ولو لم يفعلوا ذلك لقال كثير من الناس إن قيامهم بعمل كهذا كان مستحيلا أمام تلك الصعوبات الطبيعية . وليس من الصعب أن نشير إلى بعض من درسوا التاريخ اليونانى القديم وأغفلوا تاريخه الحديث ممن لا يزالون يقولون ذلك[1] .

لما دخل اليونانيون بلادهم فى جموع عديدة متفرقة أثناء الألف سنة الثانية ق . م ، كانوا كما يجب أن نسميهم ، متوحشين . وقبيل العهد الذى ألقى فيه بركليس مرثيته كانت أكثر جماعاتهم تقدما ، من حيث الأمور الأساسية ، أكثر منا حضارة ، فهل يمكن أن نكون فكرة عن الطريقة التى حدث بها هذا التغير ؟ إن خير طريقة لذلك هى أن نراقب بدقة تطورهم ، لا بالنسبة لفنهم وأدبهم واختراعاتهم ، ولا بالنسبة لعلومهم ، إنما بالنسبة لنظمهم السياسية وما صحبها من آراء . فى عام ٤٣١ ق . م كانت الدولة المدينة ورجال السياسة ، ورجال العمل ، الذين عاشوا حياة سياسية قد اجتذبوا إليهم ، رجال الكلام ، والفنانين مثل سوفوكليس وأرستوفانيز وفيدياس ومنيسيكليس — اجتذبوا هؤلاء إلى خدمتهم حتى أن بركليس أمكنه أن يتكلم عن أعمالهم التى نعتبرها نموذجا لكل العصور ، كما لو كانت مجرد زينة وحلية

---

(١) أنظر خرائط ميلر فى The Latins in the Levant. إن هذا الكتاب وكتاب السير رينل رود Rennell Rodd وهو The Princes of Achaia and the Chronicles of Morea هما أحدث الكتب الإنجليزية عن اليونان فى العصور الوسطى ، ولكن القارىء يحار فيهما لكثرة ما جمعا من التفاصيل . والقارىء الذى يعرف اليونانية يجد متعة فى قراءة كتاب The Chronicle of Morea باللغة الأصلية . وقد نشره (شميت) بشكل يثير الإعجاب ، (مطبوعات مثون ١٩٠٤ ومعه قاموس مفيد) . وهو كتاب عظيم الفائدة وبخاصة للذين يهتمون بالنضال بين الشرق والغرب ؛ أنظر أيضا (برى) Bury فى Romances of Chivalry on Greek Soil (أوكسفورد ١٩١١) ؛ ثم معلومات مفيدة فى كتاب Demolins, Comment la route crée le types social ، الجزء الثانى ص ٣١٣ وما بعدها وهو يحوى بياناً عن نظام النورمانديين فى جنوب إيطاليا .

مكملة للعظمة السياسية . فأسخيلوس فى نظرنا شاعر ، وعند معاصريه مواطن قبل كل شيء . ولما مات فى صقلية اختار الناس أن يكتبوا على قبره ، ما لم يكن هو الذى كتب عن نفسه ، كما تقول إحدى الروايات ، عندما أحس باقتراب المنية :

هـــذا القبر يضم أسخيلوس ، الأثينى المولد ،
ابن إيوفوريون ، وسط حقـــول قمح جيلا البعيدة
مرثون تنبـــؤك أى محـــارب كان ،
ويعرف عنه ذلك الفرس ، أصحاب الشعور الطويلة ، حق المعرفة .

لقد طغى المواطن على الشاعر . ويعتبر بعض المشتغلين بالدراسات الهيلانية الآن ، الخرب على الإطلاق شراً ، والسياسة « عملا قذرا » ، ولـكن ما لم يفهموا نظرة جيل أسخيلوس إليها ، فإنهم لن يبدأوا إدراك الروح اليونانية وفهمها على حقيقتها .

يبدأ التاريخ اليونانى بهجرة شعوب وسط أوروبا وجنوبها الشرقى مما ترتب عليه دخول الهيلانيين بلاد اليونان . وكان هؤلاء الوافدون « متوحشين » . فلم يكونوا أطفال الطبيعة الأحرار الأبرياء ، كما تطلع إليهم فى حسرة فلاسفة القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية . بل على العكس من ذلك ، فحقوق الحرية الشخصية وكذلك حق الملـكية الفردية أمور لم تـكن معروفة إطلاقا . وقد أظلهم نظام معقد من عادات ونظم اجتماعيـــة ودينية لم يخطر ببالهم قط الاعتراض عليها . ولم نبدأ التحقق من مدى إحكام ذلك النظام القبلى وإلى أى حد كان تأثيره دقيقاً وثيقاً بـكل ناحية من نواحى حياتهم إلا بفضـل البحوث التى قام بها علماء علم الإنسان . ويبدو مستحيلا أن نعطى أى فـكرة عامة عن هذا النظام ، مبرزين العناصر التى ظلت قائمة واندمجت فى حياة الدولة الأثينية ، دون أن يبدو الأمر مبسطا أكثر مما يجب . ولـكن هذه العناصر لها من الأهمية ما يحتم علينا ، لفهم موضوعنا كما ينبغى ، أن نحـاول دراستها وفهمها .

كانت حياة اليونانيين الأول محصورة لأغراض سياسية فيما يمكن أن يوصف بأنه دوائر ولاء متمركزة . ففي الخارج ، عندهم الشعب (أو ما يسمى في التاريخ اليهودى بالقبيلة) ، وفي داخل هذا القبيلة بمعناها الضيق . ثم في داخل هذه القبيلة «الأخوة» أو «الزمالة» في الخيمة أو على مائدة الأكل . وفي داخل هذه ، وهي أضيق الدوائر ، تجد العائلة . فإذا ماخرج الرجال المحاربون للحرب خرجوا (لا كما يذكر نسطور أجا ممنون) ، لا كشراذم بدون نظام ، بل يخرجون وقد « انقسموا قبائل وأخوة ، حتى تستطيع الإخوة أن تكون في عون الإخوة ، والقبيلة في عون القبيلة[1] » .

ففي هذه الدوائر الداخلية ، وقبل كل شيء في الأسرة ، كان اتصال الفرد بالحياة اليومية وثيقاً . وفي الدائرة نفسها كان الفرد يتلقى أول دروسه في حقوق المواطن . فقد كان طيلة حياته منذ صباه ، محوطاً بالنظام القبلي ، يعيش في جمود وتهيب في عالم مليء بالمخاوف والقوى الخفية ، متمسكا بعقائد وعادات ومحرمات أصبحت بالنسبة إلينا عديمة المعنى . فعندما يخرج علماء الإنسان باحثين ويعودون إلينا بغنائم غريبة من أراضي المتوحشين ، فإن تلك الأشياء تبدو لعقولنا الحديثة الخالية من الأوهام ، شيئاً سخيفاً ورهيباً إلى حد ما ، ننظر إليه مدهوشين . ومع ذلك ففينا منها أكثر مما نعتقد ، لأن الكثير من أسباب المحافظة المتأصلة فينا مردها إلى تلك النشأة الأولى . فإذا اجتمعت أسرة إنجليزية حول المدفأة ليلا ، فذلك غالبا دون إدراك الأسطورة التي ستظل دائما تحلل مثل هذه الاجتماعات في نظر من يقدس الماضي . فتلك

(١) الإلياذة ٢ — ٣٦٢ ، يستعمل السياح وغيرهم كلمة « قبيلة » بالإنجليزية بمعناها اليهودى الذى يقابل لفظ ἔθνος اليونانى أى « شعب » ونحن نوردها هنا بمعناها اليونانى والرومانى ، إذ ليس هناك كلمة أخرى بالانجليزية غيرها تقابل كلمة φυλή (بمعناها الدقيق) أو tribus ، وكل قبيلة من قبائل إسرائيل الإثنى عشر كانت (شعبا) بالمعنى اليونانى . وكل واحدة من هذه القبائل في حالتها الهمجية السوية ، كانت تحت سيطرة شخص يسميه علماء الأجناس « بالملك المقدس » أو « الملك الطبيب » . وقد استمرت ذكرى تلك الشخصية في اليونان في صور غريبة مثل قصة أورانوس وكرونوس وزيوس في هيزويد Theogony . ولكن هذا وغيره من المظاهر الهمجية لا يدخل في نطاق بحثنا .

الأسرة لا ترجع بمخيلتها إلى عهد هؤلاء الهمج المجهولين ، الذين كانوا أول من أسس دين الموقد واستأنسوا الإنسان الطبيعي وروضوه على الاكتفاء بزوجة واحدة . أما الإغريق فقد رأوا ذلك بشكل أوضح مما نراه ، لأن ذلك لم يكن منهم ببعيد . لقد كانوا راديكاليين طبيعيين ، ككل الرجال المغرمين بإعمال فكرهم فى المسائل السياسية ، ولذا فقد عرفوا وأحسوا بالفرق بين الأخلاق والعادات المتأصلة فيهم والتى آلت إليهم عن أسلافهم ، وبين النظم التى وضعوها حديثاً أو وضعها لهم مشرعوهم . أما الأولى فقد راعوها ، لا عن حساب وتدبير ، بل عن « تبجيل » . فهى لم تكن تصميما عقلياً قابلا للخطأ ، «بل أوامر غير مكتوبة تعد مخالفتها أمرا مخجلا» . وليست كل قوانين (دلف) والحكماء السبعة كلها عزيزة عندهم ، مثلها . ذلك لأنها نزلت إلى مستوى لم يسبره العقل بعد ، وتضمنت الإيثار الأساسى — شعور الفرد البشرى بعلاقته الطبيعية بغيره — الذى كان نواة المدينة اليونانية ، ونواة كل وطنية صالحة فى العالم إذ ذاك . فالقول بالإخاء لا ينسجم مع دعاة الفوضى . وينشأ الإخاء الحقيقى ، كما نشأ فى اليونان ، من تلك العواطف البدائية البسيطة ، عواطف الصداقة والأسرة(١) .

ويمكن أن نستعيد إلى حد ما الحياة البسيطة التى كان يحياها هؤلاء « المتوحشون » القدماء مع آلهتهم ومواشيهم . فقد احتفظ لنا هزويد بكثير من الذكريات ، بل والجمل أو الألقاب التى ترجع إلى عهدها . وإنا لنعرف — كالتقليد الجميل فى صورة المسيح — أن الحيوان كان جزءاً فى دائرة الأسرة القديمة . إلا أن خير دليل لدينا هو ما نأخذه من أفكار اليونانيين المتأخرين

---

(١) إن إلهة المنزل هيستيا Ἑστία أو (فستا) يرجع عهدها إلى أقدم ما عرف عن اليونان ، أنظر الأوديسة ١٩ — ٣٠٤ . استعمال كلمة « الموقد » للعائلة ، أنظر (أمثلة فى هيرودوت ١ — ١٧٦ و٥ — ٧٢) . القوانين غير المكتوبة : توكيديدس ٢ — ٣٧ — ٣ ، ثم سوفوكليس أنتجون ٤٥٤ ثم O.T. ٨٦٣ مع ملاحظة فى جب Jebb . أنظر استعمال كلمة باتريون πάτριον عند المؤرخين والخطباء (الخ . . . πάτριόν ἐστιν ἡμῖν) .

ومن أعمالهم . فهناك بعض نواح للحياه لم تجرؤ دولة حديثة على دخولها .
فإذا ما اجترأت وولجتها كان لا بد من أن تفعل ذلك فى حذر واحتياط .
وهناك لحظات خاشعة يشعر فيها الرجل الحديث أنه تجرد من مدنيته ، وفيها
يميل ، حتى رجل السياسة الذى اعتاد الحياة مكشوفة على مرأى من العالم ، كما
اعتاد اليونانى من قبل ، إلى أن يعتزل الناس وينفرد بنفسه ، ويشعر أنه ليس
سوى رجل يعيش وربه ، أو مع أقاربه فى عالم من الغرباء . وفى مثل هذه
اللحظات ، عند المولد وعند الزواج وعند الموت بنوع خاص ، تسترجع
الطريقة القبلية قوتها وسلطانها . فاليونانى لم يعمد أو يتزوج او يدفن عن
طريق الكنيسة . فلم يكن هناك شىء كالكنيسة منفصلا عن ديانة العائلة ،
أو الدولة أو عن هيلاس . فلا تعازى عن الوفاة ، ولا آمال فى خلود مجيد . كما
لم تكن الدولة التى أشرفت على كثير من الواجبات ، التى أصبحت الآن عملا من
أعمال الكنيسة ، لتلقى حمايتها المباركة على مثل هذه اللحظات . فلم تحتفظ
المدنية اليونانية بقوائم للمواليد ، ولم تهتم بأمر الطفل حتى يكبر ويبلغ درجة
التدريب العسكرى . والزواج عندهم «كزواج المسلمين» ، احتفال عائلى محض .
ولم تهتم الدولة بالميت إلا إذا كان ممن يستحقون جنازة عامة ، وحتى فى هذه
الحالة كما يقول توكيديدس ، كانت الدولة حريصة على إعطاء مجالا كافياً
لإجراء الطقوس العائلية المتوارثة . وقد حرم على النساء تشييع الجنازة .
فكن يذهبن وحدهن الى المقبرة ليقمن بمراسيمهن الجنائزية العائلية . فإذا
قادتنا المأساة ، كما يجب من حيث هى مأساة — وجها لوجه بحقائق الحياة
الأساسية ، نجد أنفسنا فى جو عبادات وطقوس ترجع إلى ما قبل التاريخ .
ومناظر هذه الطقوس الطويلة المرسومة ، وهذه الإجراءات الغريبة النصف
متوحشة ، التى كان سوفوكليس مغرما بها إلى حد كبير ، قد تبدو لنا أحيانا ،
كما بدت لبعض الفلاسفة الرواقيين الواقعيين ، طويلة مملة ، بل سخيفة بعض
الشىء . هذا يرجع إلى أن الخيال يعوزنا . فإلكترا وأورستيس وهما يتبادلان
التوسل المتعاقب للآلهة على مقبرة أجا ممنون ، ثم تويسر وهو ينازع الملوك

ليحصل على مدفن لأخيه أجاكس ، ثم هذا المنظر الذى لا يحتمل ، بين قاتلة الطفل ميديا وزوجها العقيم ـ هذه المناظر لا يمكن أن تدل على معناها الحقيق إلا إذا فهمنا شيئاً عن النظام القبلى فى الدنيا القديمة[١] .

إن قتل الأم والزواج بالمحارم أو قصتى أورستيس وأوديب ما زالت فى نظرنا أموراً بشعة . ولكن لنذكر مأساة أخرى إنقضى تأثيرها ، تعود بنا إلى قلب هذا العالم القديم وترينا كيف تتدخل الدولة وتستولى على أقدس تصوراتها . لقد نسينا ، ويصعب علينا الآن أن نعود فنتصور ماذا يعنيه فى ديانة المنزل هذا « العقم » كما يسميه اليونانيون — أى عدم وجود ذرية شرعية من الذكور . هذا أخوف ما كان الرجل اليونانى يخافه فى حياته كلها ، فلا أحد يرعاه فى شيخوخته ، أو يغمض عينيه عند وفاته ، ثم يقوم بمراسم الدفن ، أو يزوج بناته فى حدود العرف والشرف ، ويحفظ ذكرى الميت ويصون النظم التى كانت عزيزة عليه فى حياته، وبالاختصار « يحفظ البيت» . والقانون والعرف اليونانى يزخران بكثير من المعارضات والأساطير لتخفيف هذا الرزء المخوف . وهذا الشعور هو الذى أوجد فكرة الطلاق وسمح للأرملة ، التى لم تلد، أن تقدم على الزواج ثانية كى تعقب « نسلا » لزوجها الأول . الأمر الذى سهل وأباح فكرة التبنى . والعزوبة وهى دائماً محرمة عرفا فى اليونان ، وكثيراً ما حرمت بقانون خاص ، كانت تعد فسوقاً وبعداً عن التقوى ، لا بجرد سوء حظ فحسب . وكم من أبوين متلهفين على الأطفال حزناً عندما

---

(١) الفصل الثالث من كتاب موراى السالف الذكر Greek Epic ، وإشارات إلى هيزويد (الألقاب) . ثم أسخيلوس . Cheoph ٣١٥ وما بعدها ؛ ثم سوفوكليس ، أجاكس ٨٦٦ (حيث يمكن أن تنتهى رواية حديثة) إلى ١٤١٩ . وقد كان فى اليونان كثير من « المعتزلة » جعلوا الحساب والخلود جزءا مهما فى عقيدتهم الرسمية ، وبصفة عامة لم يكن لهم أثر كبير فى الحياة اليونانية ، إلا أنهم أثروا كثيرا فى الفكر المتأخر عن طريق أفلاطون (الذى كما يعبر نتشة « قد ذهب إلى المدرسة مع المصريين » أو كما يظن البعض أنه ذهب إليها مع الهنود) . ولا زال الزواج فى اليونان حتى الآن يتم فى المنازل الخاصة ، ولا زال الأطفال الذكور هم المفضلون على الإناث ، حتى أنه من الضرورى أحياناً أن يخفى على الأم أن مولودها بنتا ، لئلا تؤدى الحسرة إلى نتائج وخيمة . (أنظر التذييل) .

ولدت لها أنثى ! . وقد عرف ذلك كله بركليس صديق سوفوكليس ، وأحسه أكثر منا عندما وقع عليه الاختيار ليقوم بمواساة جمهور من الآباء الذين فقدوا أبناءهم فيقول « تذرعوا بقلوب ملؤها الشجاعة والأمل فى إنجاب أطفال آخرين ، فالأولاد الجدد سيساعدونكم على نسيان الفراغ الذى حدث فى دائرة بيوتكم ، كما أنهم سيساعدون المدينة على سد الثغرات التى حدثت فى صفوف جيشها » . وليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن هؤلاء الآباء ابتأسوا وهم يستمعون إليه . لقد تدربوا منذ أزمنة سحيقة على أن يضعوا جانبا أحزانهم وعواطفهم الشخصية . ففى أيام حكم القبيلة كان الابن يولد للمنزل ، وليس المنزل هو الذى يعمل من أجل الابن . والآن وقد غدت الأسرة مدينة ، وأصبحت نارها المتواضعة ناراً مستعرة قوية ، هل يجرؤ أى مواطن مدنى أن يظن أن أثينا تحترم الأشخاص ؟ إن الأثينيين قد ولدوا من أجل أثينا ولم تخلق المدينة من أجل الأثينيين . ولقد تهامس بعض من أصغوا إلى السفسطائيين وقالوا بعكس ذلك ولكن ألسنتهم كانت تنعقد فى يوم مثل يوم الدفن[1] .

هذه هى الدنيا التى عاش فيها اليونانى الأول قبل أن يتحرك إلى موطنه التاريخى . ولنبحث الآن باختصار هذه الحركة وما ترتب عليها من نتائج .

فى أوقات الفوضى والهجرة كانت النظم الرتيبة المعهودة فى الحياة اليومية ، تعطل على حين كانت روابط القبيلة أو الشعب تزداد قوة وإحكاما ، فسار

---

(١) توكيديدس ٢ — ٤٤ — ٣ ، من لا أولاد له : هيرودوت ٥ — ٤٨ (ἀπέθανε ἄπαις θυγατέρα μούνην λιπών) ٦ — ٨٦ آخر ؛ أخيلوس .Cheoph ٢٦٤ ، « . Ag ٨٩٦ وما بعدها . الطلاق : هيرودوت ٥ — ٣٩ ثم ٦ — ٦١ . إن نظم العائلة التى وجدها اليونانيون ماثلة بين المايسينيين لما أن وصلوا إلى اليونان ، لم تكن بطرياركية (أبوية) ، ولكنها كانت ماترياركية (أموية) ؛ ويظهر أثر تلك النظم فى العبادة والخرافات . أنظر موراى ص٧٣ إلى ٧٨ (الطبعة الثانية ص٩٦ إلى ١٠١) . لكن الاهتمام الحديث بالأمور المايسينية أغرى الباحثين بالمبالغة فى أهمية تلك العناصر التى كانت فى الحياة اليونانية فى عصر ما قبل اليونان .

الغزاة صوب الجنوب كما تخبرنا الأساطير ، ولكنهم لم يكونوا طوائف صغيرة بل كانوا شعوباً بأكملها ، ولم يكونوا يقيمون قبيلة هنا وقبيلة هناك ، بل كانوا إجمالا بقدر ما تتبعنا من آثارهم ، يقيمون فى كل محلة أقساماً تتألف من القبائل كلها . وهذا يفسر لنا ما يظهر لأول وهلة من غموض فى التقسيم العام على خريطة اليونان القديمة . فالخرائط العادية لا تقسم اليونان مدنا ودويلات ، ولم تعرف التقاسيم السياسية بين سهل وآخر ، ولكنها تقسمها إلى وحدات أكبر . فالپلوپونيز مثلا قسمت إلى أرجوليس ولاكونيا ومسينا وإليس وآخيا وأركاديا ، ثم قامت بعض الجزر مثل كريت وإيوبيا ولسبوس كدولة قائمة بذاتها . وهذا لا شك مضلل إلى مدى بعيد . فتاريخ أركاديا لا يعد شيئاً إذا لم يكن هناك تاريخ للنزاع بين الدول المختلفة التى فى سهولها العديدة الصغيرة . وكان فى كريت فى العصر التاريخى ٤٣ دويلة ، مستقل بعضها عن بعض ، وفى إيوبيا عشرة بلدان مستقلة ، وفى ليسبوس ست دويلات . إلا أن هذه التقاسيم الكبيرة (التى تمثل مديريات المملكة اليونانية الحاضرة على وجه التقريب الآن) — لم تكن سوى تراث الأيام الأولى لاستقرار المهاجرين . وبعضها دون شك يرجع أيضاً إلى تقسيم البلاد السابق إلى « ممالك » ، فى عهد الحكام المايسينيين . وعلى أية حال فقد بقيت كل تلك التقاسيم حية إلى حدما فى الوقت الذى كتبت فيه قوائم السفن الهومرية . ومع أن تاريخ اليونان « الإقطاعية » حتى القرن السادس ، وفى الحالات المتأخرة ، ما هو إلا تكوين دويلات صغيرة ، فقد بقيت آثاره فى الأسماء القديمة وفى أطياف من التقاليد القديمة . وطبيعى أن تكون هذه الآثار بارزة بشكل أوضح فى المحيط الدينى . فكان الرجال فى بيوشيا يشتركون فى عيد جميع البيوشيين ، الذى يقام فى كورونيا بعد مضى قرون من حربهم بعضهم البعض كطيبيين وبلاتيين وأورخومينيين . والإلهة التى كانوا يعبدونها هناك

فى عيدهم ، رغم أنهم عرفوها باسم «أثينا» كانت قد أتت معهم من الشمال.[1]

وحين وفدت القبائل اليونانية إلى بلاد اليونان كانت قبائل رحل ، أو شبه رحل ، ولم يكونوا قبائل رعوية بمعنى الكلمة مثل إبراهيم أو السيثيين الذين يعيشون فى المراعى الروسية ، لأنهم كما يبدو، كانوا يستخدمون أنعامهم فى الحرث كما كانوا يستخرجون منها الألبان . ولكن الزراعة تناسب حياة غير مستقرة . وكما فعل الفينيقيون فى طريقهم حول الرجاء الصالح ، كقول هيرودوت، فإن اليونان الأول رأوا ألا يقفوا فى مكان ما مدة طويلة إلا بما يكفى لبذر وحصد زرعة واحدة ، فقد كانوا غير مستقرين وغير آمنين حتى أنهم لم يفكروا فى أن الأمر يستدعيهم أن يزرعوا شجر فاكهة ، أو يبنوا بيوتاً جميلة ، أو يقوموا بأى عمل آخر دائم للمستقبل . وقد صور توكيديدس فى أول صفحات تاريخه (بدون أى شيء من وسائلنا العلمية التى لدينا الآن) هذه المرحلة الإقتصادية الشبيهة بحياة التنقل والانتجاع . ولم تزد الأبحاث الحديثة على ما ذكر سوى أنها فصلت وصفه المختصر[2] .

إن التقدم الروحى فى اليونان يبدأ حقيقة كما حدده جلبرت موراى Gilbert Murray بفوضى الهجرة. ويرجع أصل قصص الإلياذة إلى العصر

---

(١) أنظر توكيديدس ١ — ١٢ — ٣ (« الشعوب » المهاجرة مثل البيوشيين والتساليين) . وسترابون ٤١١ (Παμβοιώτια) ، أنظر قاموس روشير Roscher مقال Itonia . وفيما يخص الميل الدائم أنظر ماير Forschungen الجزء الثانى ص ٥١٢ وما بعدها. « مدينتان » فى جزيرة صغيرة : الأوديسة ١٥ — ٤١٢ . لقد رسمت خرائط اليونان ، كما يتضح ، من كتالوج السفن : أنظر وريان Historical Geog. of Europe الجزء الثانى ثم الإلياذة لمنرو Monro ١ — ١٢ ، ثم شادولك Chadwick فى الـ Heroic Age (كمردج ١٩١٢) . وتوكيديدس الذى اعتمد عليها على أنها وثائق تاريخية، يعتد بها نسبياً إلى حد ما ، كانت فى ذهنه صورة واضحة تماما عما كانت عليه اليونان فى ذلك العهد ؛ فمثلا كون لنفسه فكرة عن تلك المشكلة المعقدة الخاصة بالعلاقة بين ديوميد الذى قاد رجال عصابة أرجوس، وبين أجاممنون « ملك أرجوس وجزائر كثيرة » ، ولم يتمكن من أن يلاحظ ، كما فعلنا نحن ، أن ملحمة طرواده كانت عرضاً لسلسة من المشكلات الأدبية أكثر منها عرضاً لمشكلة تاريخية ، وبهذا يطمئن إلى أن يستبعد ذلك من تصويره لليونان القديمة .

(٢) هيرودوت ٤ — ٤٢ . وتوكيديدس ١ — ٢ .

الذى كان فيه الرجال يحاربون بعيدا كل البعد عن الآلهة والعائلات خارج نطاق الجزاءات التى كانت تفرضها القبيلة والعادة . فقد ألفى الإنسان نفسه فى البداية حراً طليقاً فى هذا العالم دون ما مراقب ، إلا المحاربين الآخرين الذين كانوا على شاكلته مستهترين بلا ضابط ولا مراقب . « والقوى الوحيدة التى تسيطر عليه هى القوى التى ينطوى عليها صدره » ، أى أفكار الواجب والشرف التى يعترف بها على وجه ما . ولكن هذا التطور من التقدم الذى خلده الأدب لم يدم إلا أجيالا قليلة فى تاريخ اليونان . فلم يكن مقدوراً على الرجل الأول أن يعرف الحرية إلا فترة قصيرة . فهناك صلات جديدة كانت تنتظر الغزاة فى البلاد التى اتخذوها لهم موطناً . فعند استقرارهم فى اليونان دخلوا فى علاقات بطيئة مع « المسينيين » الذين عرفوا أنهم أصحاب الأرض عند دخولهم ، وتدريجياً اندمج المنتصر والمنهزم فى جيش واحد ، وسرعان ما اختفت الفوارق بينهم اختفاء يكاد يكون تاماً ، كما حدث فى إنجلترا بعد الفتح السكسونى . لقد كان فى اليونان — فى ذلك العصر التاريخى — سكان منهزمون مثل الهلوت وغيرهم ، ولكن حالتهم هذه لا ترجع إلى الهجرات الأولى بقدر ما ترجع إلى أسباب اجتماعية وسياسية تدخلت أو نشأت بعدها . فالنظم « الإقطاعية » اليونانية وخاصة الأتيكية هى نتيجة الاندماج المنسجم بين نظام القبيلة والآلهة من المهاجرين من أهل الشمال ، وبين تلك التقاليد الغامضة غير المحدودة الخاصة بالسكان الذين استوطن المهاجرون أرضهم واستقروا بين آلهتهم[1] .

كيف استقر الغزاة بأرضهم الجديدة ؟ ليس لدينا وثائق تاريخية لهذا العصر المتقدم بل كل ما لدينا أساطير وروايات ، وكتب الرواية من أشعار روجعت من جيل إلى جيل ، مثل كتب اليهود المقدسة . ولكن هناك شيء

---

(١) أنظر الفصل الثانى من موراى (وأحسبه فيما أظن قد غالى فيما كان للفوضى من أثر فى التاريخ فيما بعد ثم ڤيلاموڤيتس خاصة ص ١٢١ إلى ١٢٤ من كتابه Orestie, Introduction to Chœphorœ ثم الجزء الثانى من كتاب ماير Geschichte des Altertums فقرة ١٧٦ (الترجمة الانجليزية) .

واحد يتضح كل الوضوح من الكتب والآثار الباقية على السواء . فاليونانيون الأول لم يعيشوا معاً فى مدن ، بل كانوا منتشرين فى القرى . وعادة التحضر أو الاجتماع فى المدينة ، التى نظن أنها من أبرز خواص اليونانيين كانت متأخرة الظهور . لقد قامت الدولة فى شكل بدائى قبل ظهور المدينة . وألف الغزاة التنقل زرافات مع مواشيهم وقطعانهم ، ولكنهم لم يعتادوا الاستقرار متكدسين داخل أسوار . فلما رأوا أنفسهم فى سهول اليونان الصغيرة، تفرقوا جماعات ليقيموا أكواخاً أينما توفرت المياه والتربة الصالحة. وفى هذه القرون الأولى يجب أن نتصور الأراضى الزراعية فى اليونان ، لا على ما صارت اليه فيما بعد ، رقعة واسعة من أرض مفتوحة وسطها مدينة مسورة ، أو تناثرت هنا وهناك ضياع منعزلة ، كما نرى فى الريف الأسكتلندى ، بل كانت عدداً معيناً من القرى الواضحة المعالم لكل قرية أرضها التابعة لها . وفى لغة القرن الخامس تعنى « الحياة على النمط القديم » المعيشة فى قرى مكشوفة (κατὰ κώμας ἀτειχίστους) . وقد عاش أهل إليس على هذا الطراز إلى ما بعد الحرب الفارسية ، وظل كثير من الشعوب المتأخرة من سكان شمال غرب اليونان يعيشون كذلك حتى أيام توكيديدس . والواقع أن « تحويل المدينة إلى قرى » ، أى هدمها هى وحصونها وبعثرة سكانها فى الريف ، هو أشد وأقسى عقاب ينزله فاتح بالناس . وقد كان الإسبرطيون خاصة، مغرمين بهذه العقوبة ، لأن لاسيديمونيا نفسها ظلت (لأسباب خاصة)، مجموعة من القرى غير المسورة . وأورد إجزينوفون وصفاً بديعاً لبعض أعمالهم التأديبية . عندما استولى ملكهم أجسيبوليس على منتينيا ، بتوجيهه النهر إلى أساس الأسوار والمنازل ليبللها ،

«هدم السور وقطع منتينيا أربعة أجزاء كما كانت فى الأيام الأولى . وقد غضب أهلوها كل الغضب، بادىء ذى بدء ،إذ كان عليهم هدم بيوتهم القائمة، وبناء أخرى جديدة. ولكن لما رأى ملاك الأرض أنهم قد اقتربوا من أملاكهم

التى كانت بجانب القرى ، وأنهم أصبحوا تحت حكم أرستقراطى ، وتخلصوا من متاعب الديماجوجيين ، رحبوا بهذا التغيير الترحيب كله » .

ليس ذلك وصفاً منصفاً ، لأن إجزينوفون كان متحيزاً للأسبرطيين مناصراً لهم ، ولكنه يرينا كيف كانت تلك الطريقة القديمة طبيعية وملائمة لشعب من المزارعين . وغالباً ما كان على السكان الذين اتخذوا المدن سكناً لهم فيما بعد ، أن يمشوا أميالا كل يوم فى الذهاب والإياب من مزارعهم ، يخرجون إليها قبل الفجر ويرجعون منها بعد أن يعم الظلام ، أى إلى آخر لحظة قبل أن تقفل أبواب المدينة . ومثل هذا المنظر نراه اليوم فى جنوب إيطاليا وأسبانيا مع وجود الدراجات القليلة ، أو الطرق الممهدة المرصوفة ، تعين الفلاحين على تلك الصعوبات[1] .

إذن لماذا ضايق اليونان أنفسهم بمحض إرادتهم بسكنى المدن ؟ يجب أن نرجىء الإجابة على هذا السؤال الواضح إلى الفصل الثانى . ولكن يجدر بالذكر هنا أنهم (رغماً من أرسطو) لم يسكنوا المدن كلهم ، فأكثر اليونانيين تجديداً ، أى الأثينيين ، لم يفعلوا ذلك كلهم ، حتى إلى زمن الحرب البلوبونيزية على الأقل ، ويتوقف توكيديدس ليقول لنا ذلك ، حتى يبرز ما لاقوه من مشقة وعنت ، ليصلوا إلى أثينا عند ابتداء الحرب :

---

(١) إجزينوفون .Hell ٥ — ٢ — ٧ . أنظر توكيديدس ١ — ٩٠ — ١ و ٥ ٤ — ٣ (العودة بعد الصلام) . κῶμαι : توكيديدس ١ — ١٠ — ٢ و ٣ — ٩٤ — ٤ ، ثم سترابون ٣٣٧ ، ثم أنظر ماير الجزء الثانى الفصل ١٩٣ . إن توكيديدس برغم تلك الفقرات وغيرها ، لم يؤكد كما يجب سير المركزية فى المدينة (Synoecism) كأحد العوامل الرئيسية فى انتقال اليونان القديمة إلى العهد الإقطاعى . وهذه مشكلة أخرى تسببت عن حرب طروادة التى دفعت توكيديدس إلى الاعتقاد بأن حياة المدينة قد وجدت فى عصر متقدم جداً أكثر مما كان يعتقد . ولذا فهو يتكلم فى كل فصوله الأولى عن « المدن » . وفى موضع يسميها ، وهو على علم تام بما يلقاه من صعوبة فى تسميتها ، πόλεις ἀτείχιστοι ، كما لو أن اليونان الهومرية كانت ملأى بالإسبرطيين . κατὰ κώμας οἰκουμέναι أنظر ١ — ٥ — ١ وخاصة ١ — ٩ — ٢ فيما يخص Pelops كزعيم شعبى . ومن المحتمل أن يكون ذلك سبب انخداعه وكلامه عن التجمع فى المدينة الأثينية على أنها اتحاد « مدن » بدل اتحاد قرى (٢ — ١٥ — ٢) .

وعاش الأثينيون منذ زمن بعيد، منتشرين فى جوانب الإقليم فى مجموعات مستقلة من المساكن. وبعد أن تركزت الحكومة فى أثينا ظلت هذه العادة قائمة، وظل أغلبهم، حتى هذه الحرب الحالية، يسكن القرى مع زوجاتهم وعائلاتهم. ولذلك فإنهم لم يفكروا فى أن يتحركوا الآن، لا سيما وأنهم قد أصلحوا بيوتهم ومبانيهم بعد الحرب الفارسية».

كان ذلك بعد مضى ثمان وأربعين عاما على الغزو الفارسى، وتلك فترة تقدمت فيها المدنية وازدهرت بسرعة لم يعهد لها مثيل لا من قبل ولا من بعد. ولكن فى هذا الأمر يعالج المؤرخ الوقت بروح ساكن الريف الحقيقى[1].

وثم نقطة واحدة أخرى يجب أن يلاحظها الإنسان على تلك القرى القديمة. فكما توضح لنا قصة مانتينيا، لم يكن الدفاع عن تلك القرى مستطاعا. فقد قامت فى عصر لم تعرف فيه الحرب المنظمة بين دولة وأخرى، بل كان الأمر مجرد غزو ونهب. ولذلك لم تكن هناك طريقة حربية منظمة لمقاومة غزو منظم، بل كان كل رجل يحمل أسلحته ويستعملها على طريقته، كما يفعل الرجال فى بعض أجزاء البلقان اليوم، أو الطلائع فى معسكرات التعدين بأستراليا أو فى الغرب الأقصى. ويقول توكيديدس «إعتادت هيلاس كلها قديما حمل السلاح، إذ لم تكن مساكنها محصنة، كما لم تكن مواصلاتها فيما بينها آمنة، ولذا كان حمل السلاح عندهم، كما عند البرابرة، جزءا من الحياة اليومية».

---

(١) توكيديدس ٢ — ١٦ (و ١٥). فى هذه الفقرة أصاب توكيديدس فى بعض النقط، إذا تذكرنا أن المزاج الفنى ينفر من الإصلاحات المنظمة. فحيث لا تكون «قطعة خيط»، يفضل تصميم الشىء من جديد. سل أى شخص ممن استخدموا نجاراً يونانياً أو إيطاليا. إن سكان أتيكا رغم أنهم جميعاً كانوا يعيشون فى القرى حول أثينا (ἐν τοῖς ἀγροῖς)، لم يسموا أنفسهم أتيكيين (على نمط بوشيين وآركاديين)، بل أطلقوا على أنفسهم أثينيين، فيما عدا سكان الجهات المتطرفة جدا. ويكاد يكون من المؤكد أن هذا أثر باق من عهد المايسينيين (أنظر توكيديدس ١ — ٢ — ٥ ثم ماير فى Forschungen الجزء الثانى ص ٥١٦). ومن هنا نجد أن توكيديدس عندوصفه، كيف ركز تيسيس الأمور فى أتيكا، قد ترك سؤالاً هاماً، ألا وهو من أين أتت له تلك السلطة؟ لأنه لم ينصب ملكا (مثل Deioces، ص ٩٧ فيما بعد) ولكنه ظهر وقد تذرع بسلطة قديمة جداً. (أنظر فرانكوت فى La Polis grecque، بدربورن ١٩٠٧ ص ٧).

ويواصل حديثه إلى أن يقول ، إن الأثينيين (رغم أنهم ظلوا سكان قرى) كانوا أول من نزع السلاح من اليونانيين . ومما لا شك فيه أن من الأسباب التى دعتهم إلى ذلك أن بلادهم لم تكن كثيرة التعرض للغزو[١].

وإذا ما أغار على اليونانيين القدماء عدو شديد ، ولم يستطيعوا له دفعاً أو مقاومة بهذه الطريقة المرتجلة ، تركوا قراهم إلى جهات منيعة ، قد تكون أحياناً فى أعالى الجبال ، يظلون معتصمين بها إلى أن يتراجع العدو . هذه الحصون كانت مختلفة تماماً فى شكلها وجوهرها عن الحصون التى كانوا فى حاجة إليها قبل ذلك وفيما بعد . فقد كانت ملاجئ أكثر منها حصونا . وهكذا ترك سكان سهل أرجوس مرتفع تيرنز Tiryns ، رغم أسواره الحلزونية ، ولجأوا إلى لاريسا فى أرجوس التى تقع على ارتفاع ٩٥٠ قدما . وقد احتمى سكان البرزخ ، بالأكروكورنث ، وهو برج لا مثيل له ، للاحتماء به ، فى قمته نبع صاف ، إلا أن ارتفاعه لم يجعل منه سكنا دائماً ملائماً . بينما قنع الناس فى سهل كيفيسوس وايليسوس بالأكروبول ، الذى لم يكن ملجأ عظيما كالأكروكورنث ، ولكن دورهم أتى فيما بعد . كانت هذه الحصون الأولى تحمل اسماً مشهوراً ، فكانت تسمى بوليس (πόλεις) ، وهى الكلمة التى تجمعت حولها فيما بعد ذكريات الوطنية المتصلة بالدولة المدينة . ويقول توكيديدس « لهذا السبب ظل الأكروبول يعرف عند الأثينيين باسم المدينة حتى الآن » . فأثينا كلندن مدينة داخل مدينة . ولذا كان أرسطو يروى لنا تاريخا صحيحاً ، وإن لم يكن قد أدرك ذلك ، عندما قال إن المدينة قد وجدت لتحافظ على الحياة[٢] .

ولكن يجب ألا نتسرع عملية المركزية ونسبقها . وحسبنا هذا القدر كمقدمة

---

(١) أنظر توكيديدس ١ — ٦ — ١ ثم ، ١ — ٢ — ٦ .

(٢) توكيديدس ٢ — ١٥ — ٦ ثم الجزء الثانى من كتاب Geschichte لماير فقرة ١٩٣ ثم فرانكوت فى كتابه السالف الذكر ص ١٠٦ . إن كلمة Polites (التى صارت فيما بعد « مواطن ») ، كانت أصلا تعنى « رجل قلعة » ، أى مراقب . وليس مصادفة أن يكون بوليتس بن بريام قد استخدم فى مثل هذه المراقبة (الإلياذة ٢ — ٧٩٢) .

لهذا التطور الذى نحن على وشك أن نتتبع أثره ، ألا وهو تبلور شعور اليونانيين حول الدولة المدينة. كان هذا التقدم مزدوجا — حركة طاردة وحركة نحو المركز. وقد تكلمنا عن الحركة الأولى وهى حركة تفكك الشعوب تدريجياً إلى وحدات صغرى. والذى علينا أن نتتبعه الآن هو التصدع التدريجى للجماعات الصغرى ، التى تكون الحلقات الوسطى بين الدولة والفرد ، حتى يغدو المواطن حراً مستقلا يقف وجها لوجه أمام المدينة.

«إن المدينة» كما يذكر أرسطو فى أول فقرة من كتابه «السياسة» ، «هى أرقى أشكال الجماعة كلها وتشمل سائر الأشكال». هذا أمر من السهل كتابته على الورق، ومن السهل أن يلوكه هؤلاء الذين لم يتحققوا مما يعنيه ذلك، أو إلى أى حد كان تحقيق معناه فى التاريخ نادراً. ولكن يكاد يكون مستحيلا أن يدرب الناس المتحضرون، لا فى ساعات الخطر فقط، ولكن فى وقت العمل والفراغ يومياً ، على إيثار البلد على الزوجة والعائلة ، أو رفقاء الصبى أو زملاء المهنة ، والعبادة ، «وعلى أن تطبق النظم البديعة الرائعة فى الحياة الخاصة على خدمة الدولة وإدارة شئونها» ، وعلى «التضحية بأجسادهم كمجرد آلات خارجية ، فى سبيل خدمة المدينة ، وأن يعدوا عقولهم أخص خصوصياتهم، إذا ما استغلوها فى صالح المدينة».

هذه النتيجة الرائعة التى لامثيل لها إلا فى اليابان فى الأيام الأخيرة ، كان دونها مناقشة طويلة بين المدينة وبين جميع المطالب الأخرى التى لها حقوق على الرجال . والنزاع الذى قام طوال العصور الوسطى اليونانية كان غامضاً فى كتابات الكتاب المتأخرين، إذ لم يأت بنتيجة ، بالنسبة لهم . يأبهون لها . إلا أن هذا النزاع المفتعل ساعد المنتصر والمنهزم ، على حد سواء ، على خلق ذلك الأثينى الكامل الذى تغنى به بركليس [1].

---

(١) أنظر برك Burke فى كتابه Present Discontents ، وتوكيديدس ١ — ٧٠ — ٦ . لقد أظهرت سجلات الحرب الروسية — اليابانية الدقيقة أن اليابان هى البلد الوحيد الذى يتصف بوطنية مماثلة . ولكن هناك كثير من تلك الأمثال فى المجال المهنى ، وربما كان =

أحسن مثل لذلك الضباط البحريون الحديثون ، وبخاصة الذين في الغواصات ، فتدريبهم كل يوم وكل ساعة على الشجاعة وضبط النفس ، يظهر جليا واضحاً في الساعات الحرجة . وفيما يتعلق باليابان أنظر Uyehara ، وكتابه The Political Development of Japan ١٨٦٧ — ١٩٠٩ ص ١٥ ، إذ يقول « إن كلمة Ego أو (أنا) عند الشعوب الغربية التي تميل إلى الهجرة ، هذه الكلمة هي أولى الأشياء بالنسبة لهم ، فهم يقولون « أنا جئت هنا وحرثت الأرض وأقمت بيتي » ، أما في اليابان فالأمر يختلف كثيراً فالـكوكوكوا Kokku-Kwa أو « البلد والمنزل » هما أول شيء عند الياباني ، فهما بالنسبة لحقيقة أعلى وأعظم من « نفسه » ، فيقول « إنه الوطن والمنزل، الذي حمى حياة أسلافي ، وسيحمي بدوري وخلفائي من بعدي » . ومن هنا كان الولاء للامبراطور الذي تتمثله عقلية الشعب الياباني رمزاً للوطن ، (كما كانت أثينا عند الأثينيين) . « هذا الولاء هو أساس دستور الأخلاق اليابانية » . ومن هنا أيضاً كانت اليابان مثل أثينا قادرة على أن تقدم سقراطاً آخر إلى الموت . نجد بياناً كاملا عن النظام البطرياركي كتبه Fustel de Coulanges في كتابه La Cité antique . هذا الكتاب المشهور كتب عام ١٨٦٤ ، لكن النصف الأول منه مازال معدوداً أحسن تصوير ، ليس فقط للمدينة كدولة في حد ذاتها ، بل أيضاً للولاءات الصغرى التي كونت المدينة . والأفضل أن نذكر باختصار بعض النقص الذي أظهره مرور الزمن فيه — (أولا) إنه ككثير من الكتب الفرنسية كتاب منظم ومنطقي للغاية . وقد بسط العالم القديم وعقائده أكثر مما ينبغي . — (ثانياً) يحاول أن يعالج دراسة اليونان وروما في آن واحد ، وهذه خطة غير ممكنة يرجع أصلها إلى عصر كان فيه الناس يعتقدون أن الحضارة الآرية هي أم الجميع ، وعلى هذا كانت النتائج التي يصل إليها تضيع أحياناً بين الأمرين ولا تناسب أي منهما . « فاليونان وروما » كما قالت حديثاً سيدة أمريكية فطنة « لاقتا نفس مصير ڤولتير وروسو كما تقول مدام كاردنال : يظهر أنهما قضيا حياتهما ولم يتمكنا من الشعور بأنهما قضياها في قول الهراء ، وبعد موتهما فقط صارا متعادلين » . من كتاب The Lady ص ٣٩ الذي كتبته Emily James Putnam . (ثالثا) غالى كثيراً في تأثير العناصر المحافظة المضادة للراديكالية في حياة اليونان . ففيما يخص أثينا اتفق الناس على أن قصتها تنتهي مع كليسثينيس (أنظر ص ٣٣٧ طبعة ١٩٠٦) . وإنه لمن المغالاة الشديدة مثلا أو من إساءة استعمال الكلمات ، أن تقول كما في ص ٢٦٩ ، إن الرجل القديم لم يتمتع بالحرية أبداً أو حتى « لم يكن لديه فكرة عنها » . — (رابعاً) إنه يتجاهل جانباً من أهم جوانب الحياة البطرياركية أي نظامها في القانون الجنائي . هذا وقد أكمل هذا الكتاب حديثاً كتاب جلوتز (La Solidarité de la famille dans le droit Criminel en Grèce) الذي اعتمد فيه المؤلف اعتماداً كبيراً على أدلة من الأساطير ، وكتابه هذا يعد نموذجاً لطريقة العلم في استخلاص الحقيقة من الخرافات . أنظر أيضاً لنفس المؤلف كتابه المختصر Etudes sociales et juridiques sur l'Antiq. gr. (أنظر التذييل) .

الفصل الثالث

تطور حق المواطن وواجباته

الكماية أو قاعدة الحاكم

Τὸ εὖ ζῆν الحياة الحسنة

ايو ، داست الآلهة الجديدة القوانين القديمة .

Ἰὼ θεοὶ νεώτεροι, παλαιοὺς νόμους

وأحطتنى بالشرور .

Καθιππάσασθε κἀκ χερῶν εἵλεσθέ μου.

أسخيلوس فى إيومنيدس ٧٧٨

تعبد آباؤنا فى هذا الجبل ، وأنت تقول ،إن فى بيت المقدس يجب أن يتعبد الناس .

رأينا اليونانى فى انتقاله من مرحلة البدوى القبلى إلى مرحلة القروى المستقر ، وعلينا الآن أن ندرس الخطوة التالية لتطوره من قروى إلى مواطن .

قد يكون أهم فارق ظاهرى بين ما يعرف بالعهد الإقطاعى اليونانى ، وعهد الإقطاع فى انجلترا ، هو أن رجل الإقطاع القديم فى اليونان ، مهما كانت مهنته ، غالباً ما كان من سكان المدينة . نعم كان فى انجلترا مدن من العصر الرومانى وما بعده ، ولكنها لم تكن فى يوم ما سكناً للجزء الأكبر من المزارعين . ففى أثناء العهد الإقطاعى عند الانجليز عاش المزارعون مبعثرين فى الريف . أما المدن التى لها ممثلون فى المجلس وحصلت على مراسيم ، فامتازت عن القرى والمدن الزراعية ، فقد زاد اشتغالها بالتجارة

والصناعة وذلك بنفوذ الطوائف الصناعية — وهذه الحالة أوضح فى القرى الفرنسية والفلمنكية الكبرى ذات الحكومة المحلية، مثل غنت وايبر، وكذلك الحال فى مدن شمال إيطاليا ووسطها. ومثل هذا الاختلاف لا نجده فى عهد الإقطاع اليونانى. بل ومن أقدم العصور يمكن أن نلحظ فعل القوى التى دفعت سكان القرى إلى المدن مهما اعتبر عملهم. وفى «الملاحم» اعتبرت حياة المدينة الطريقة الطبيعية لحياة الجماعات البشرية. ولم يكن الفيكيون والإيثاكيون وحدهم سكان مدن، بل اعتبر اللايستروجيون الهمج والكميريون الذين ذكرتهم الأوديسة، سكان مدن أيضا. وهذا الميل إلى التجمع فى مركز واحد، الذى بدأ من قديم، استمر دون انقطاع طوال تاريخ المدينة الدولة[1].

فالمدينة اليونانية كما نجدها عند نهاية تطورها الطويل فى القرن السادس أو الخامس، تختلف تماماً عن مدننا ذات الحكم المحلى فى أواخر القرون الوسطى. فهى أساساً ليست مركزاً تجارياً ولا صناعياً، ولكنها قرية زراعية كبيرة. وليس سكانها من أهل الحرف أو أصحاب التجارة خاصة، بل هم عادة زراع أرض، أو هم وحدهم على حد التعبير اليونانى «أقاموا معا منزلا لهم». وتقويمها المقدس ملىء بالأعياد الريفية، وتمثيلياتها مقامة على أساس من العادات الريفية. وقد نشأت المآسى عندهم (أو ظن اليونان أنها نشأت[2]) عن جماعات المنشدين، وهم رجال يلبسون جلود ماعز يتغنون ممجدين إله الخمر. ونشأت «المهازل» عن ألعاب المقنعين عند موسم حصاد الكروم. فلم تنس المدينة الكبيرة أصلها الريفى أبداً، كما لم ينقطع سكانها عن الخروج إلى الحقول خارج أسوارها. فمن الوجهة النظرية، وكذا من الوجهة العملية تقريبا، ظلت المدينة الدولة فى كل مكان، وفى كل أيامها زراعية قبل كل شىء[3].

---

(١) الأوديسة ١٠ — ١٠٣ — ٨، ١١ — ١٤، وانظر ٩ — ١١٤ حيث يمثل السكيكلوپس Cyclops نموذجا للجنس الذى انقرض من الآباء البطرياركيين المستقلين.

(٢) إن البيان التقليدى الذى وضع نظمه أرسطو عن أصول المأساة اليونانية، قد بحثه أخيراً جلبرت موراى ورد جواى وغيرهم، وربطوه بطقوس الدفن أو احتفالات التكريس.

(٣) إن هناك بحث شامل حول (عملية) إقامة منزل فى اليونان Synoecism =

وقد آن الوقت للإجابة على السؤال الذى أثرناه فى الفصل السابق « لماذا أتى اليونانيون من القرى ليقيموا معا منزلا واحداً لهم » ؟ .

إنهم ذهبوا ينشدون « الكمال و الكفاية » ، فاكتشفوا على حد تعبير أرسطو، أنهم وإن كانوا يستطيعون العيش فى القرية على مخزون مئون كثيرة ، فإنهم يستطيعون أن يعيشوا «عيشة طيبة » ليس إلا فى المدينة . كان تكوين هذه المدن الزراعية عاملا له أهميته فى ذلك التطور الذى أحسن توكيديدس وصفه — النمو المطرد للمصادر والقوى المادية للدولة اليونانية ، ذلك النمو الذى بلغ منتهاه فى الحربين الفارسية والبلوبونيزية . ولم يكتف ، لا هو ولا بركليس، أن تكون الدولة صالحة أو جميلة ، بل يجب أن تكون أيضا قوية . فالحرب الفارسية لم تكن انتصار ضعيف على قوى ، ولكنها كانت انتصار القوة على عدم الكفاية . واليونانيون على عكس اليهود لم يكن فى طبيعتهم شيء من التهريج ، إنهم لم يقدموا على أمل ضائع مالم يقنعوا أنفسهم بأنه غير ضائع . ولقد رأى الأثينيون وهم يجوبون مدينتهم ويهيمون بها حبا — تلك «القوة» مجسمة فى نظمها ، وفى آثار الأكروبول . وما زالت أعمدة

= قام به فرنكوت فى كتابه Polis grecque ص ٩٥ وما بعدها وخاصة ص ١١٠ . وقد بين أن ثمة أنواعاً وضروبا كثيرة لهذه العملية فى الحالات الفردية ، وبين أن ذلك لا يدل دائما على هجرات جغرافية فعلية كما اعتقد الكتاب اليونانيون المتأخرون . كما أن أتيكا تقوم مثلا على عكس ذلك، وهناك أمثلة أخرى. والنقطة الجوهرية هى انتقال مقر الحكومة من القرى إلى المدينة ، ولكن المساكن كانت تنقل أيضاً عادة . وإن قصة مدينة مانتنيا لتبين كم كان ذلك سهلا . وبالطبع لم تكن المدينة الزراعية اليونانية ظاهرة فريدة ، بل توجد مثيلات لها فى فلسطين » . ومن الواضح أن تكوين أتيكا الذى قام به ثيسيس Theseus يشابه إلى حد ما تشريع يوشع Josiah الثانى . وأحد أغراضنا من تتبع تاريخ اسرائيل هو إظهار الوقائع التي مرت بها دولة مدينة فى دور التكوين» .وقد صورت وجهة النظر هذه بشكل يثير الانتباه فى كتاب Politics and Religion in Ancient Israel الذى ألفه Canon J. C. Todd (لندن ١٩٠٤) كما صورها Wellhausen بشكل أوضح، وهو ثقة أعظم، فى كتابه Israelitische und Jüdische Geschichte (الطبعة السادسة ١٩٠٧)، ولا سيما الفصل السادس الخاص بحياة القرية اليهودية القديمة ثم ص ١٣٤ وما بعدها . لقد تركزت فى المعبد مظاهر إعزاز دولة المدينة فى جودا ، كما تركزت مظاهر الوطنية الأثينية فى البارثنون .

البارثنون الدورية توحي بتلك القوة إلى الآن [١] .

وأوضح أسباب هذا التغير كان حربياً. فبدلا من الالتجاء إلى « مدينتهم» وقت الحاجة رأوا أن استيطانها أسلم لهم وأزفر ، فذهبوا وتجمعوا فى مساكن حول سفح قلعتهم ، وإذا استحال ذلك بنوا قلعة أخرى وحصنوها ،فى موضع أكثر ملاءمة. ولكنهم حتى ذلك الوقت ، لم يفكروا فى الدفاع عن منازلهم وأراضيهم، فقد أقاموا السور من حول القلعة المحصنة ، لا حول المدينة الجديدة نفسها التى تقوم وتتجمع تحت القلعة مباشرة . وعندما اتسعت المدينة فيما بعد، وازداد إدراك المواطنين لوحدتهم كما ازداد إدراك حكوماتهم لقوتها ، جندوا الأيدى كلها للعمل،حتى النساء والأطفال ، وذلك عندالضرورة الماسة ، ومدوا سياجا هائلا حول مساكنهم ، بل وحول بعض الحقول المكشوفة المجاورة أحيانا . وعندما نزل الفرس مرثون كانت أثينا ما تزال مدينة مكشوفة تقريبا ، فلم يكن بها تحصينات حقيقية إلا الأكروبول، إلى أن أقام ثمستوكليس ، بعد تقهقر الفرس،حولها سورا صالحا. وقد ظلت اسبرطة مخلصة للطرق القديمة، فلم تبن أى سور حولها . فماذا تفيده من ذلك ؟ فقد كان على الهيلوت، أعدائها الحقيقيين ، أن يأتوا المدينة يوميا حاملين الطعام لسادتهم . إن المدينة المنقسمة على نفسها لا يمكن أن يحميها سور . [٢]

---

(١) أنظر مناقشة خطاب فورميو فى توكيديدس ٢ — ٨٩ . إن أحدث المصادر (مثل كتاب Grundy ، Persian War . الحرب الفارسية ص ٢٩٣ وما بعدها ، ثم Macan) لا تسمح لنا حتى باعتبار ثرموبيل مجازفة لا أمل فيها . ولقد حيرت غرابة الفكرة هيرودوت (أنظر ٧ — ٢٢٠ إلى ٢٢١) . لاحظ استعمال الكلمات التى ترمز الى القوة والضخامة فى توكيديدس مثل ٦ — ٣١ ، ١ — ١٧ فهو يحب الأشياء التى يستحق الكلام عنها ἔργα ἀξιόλογα لكبرها .

(٢) سور أثينا : توكيديدس ١ — ٨٩ إلى ٩٣ . النساء والأطفال : ٩٠ — ٣ (التى وضعت خطأ بين أقواس فى نص أوكسفورد أنظر ٥ — ٨٢ — ٦) . والسؤال الخاص فيما إذا كان لأثينا سور لحمايتها قبل عام ٤٧٨ ، كان موضع نقاش كبير ، وأنا أتبع ڤيلاموڤيتس فى (Aus Kydathen ص ٩٧ وما يليها) ، ثم Doerpfeld, Körnemann =

وهذا الاكتفاء بالطرق الدفاعية القديمة ، وحتى بعدما أصبحت المدينة الجديدة أكبر من أن تحميها قلعتها ، يدل على أن الدفاع ما كان إلا مجرد عامل ثانوى فى تأسيسها . فالقوى المحركة الحقيقية التى دفعت الرجال إلى المدينة لم تكن الحاجة إلى الكفاية فى زمن الحرب بقدر ما كانت حاجتهم إلى الكفاية فى زمن السلم . إنهم لم يتجمعوا رغبة فى الأمان ، بل حبا فى العدالة . وهذا هو أقدم (وربما كان أقوى) مطلب للمدينة بشأن ولاء رجالها . وقد أكد ذلك مراراً ومراراً من كتبوا عن دولة المدينة فى كل العصور ، فأعطاه بركليس المكانة الأولى فى ثنائه على النظم الأثينية . ويصف أفلاطون فى أسطورته الممتعة التى جاءت على لسان بروتاجوراس عن سكان المدينة الأول الجاهلين « بفن الحياة فى المدينة » ، كيف أرسل لهم زيوس رسوله هرميس « حاملا بين يديه الاحترام والعدالة لتكونا أساسا لنظام المدن وروابط الصداقة والمسالمة »[1].

= (الجزء الخامس ص ٧٨ من Klio) ، وأحدث من ذلك كتاب كافنياك (Hist. de l'Antiquité الجزء الثانى ص ٤٠) . أما Dörpfeld فيرى أن الأكروبول أيضاً قد أعيد تحصينه بعد عام ٤٨٠ ، وأن المبنى المسمى بروبيليا الذى ينسب الى بركليس ، يقوم مكان الباب الأخير من « البوابات السبع » القديمة . وقد امتدت التحصينات القديمة فى الأكروبول إلى الجنوب والغرب ، إلى ما بعد التل نفسه بقليل (توكيديدس ٢ — ١٥ — ٣) . وواضح من توكيديدس (١ — ٨ — ٣) أن السور لم يكن جزءا من الوسائل الأصلية التى زودت بها المدينة (أخذت بعض المدن الغنية فى بناء أسوار) . وهيرودوت ١ — ١٥ — ١٤١ و ١٦٣ (لقد عبر أحد الرؤساء البحريين الأسبانيين عن شكره بأن أعطى الفوكيين مالا لبناء سور ، كما أن (راجا) هندياً قد قام بحفر بئر فى Stoke Row فى التشلترن Chilterns تعبيراً عن شكره لمهندسه) . وكان للفوكيين الذين ذكرهم هومر ، سور مؤقت أقاموه من طين وخشب (الأوديسة ٧ — ٤٤) ؛ ثم أنظر برارد الجزء الأول ص ٥٤٣ ؛ ثم أنظر أرسطو — السياسة ١٣٣٠ ب ٣٢ مع نقده للرأى القديم فى أفلاطون — القوانين ٧٧٨ د .

(١) توكيديدس ٢ — ٣٧ — ١ . قارن بيان بوليب عن حياة القرية فى إليس Elis التى صارت ممكنة بعد أن عمل رجال السياسة هناك على إقامة العدالة (القضاء) (٤ — ٧٣ — ٨) .

وهذه الأسطورة كغيرها من الأساطير أخطأت وأخذت السبب على أنه نتيجة ، فقد شعر الرجال بالحاجة إلى « فن الحياة فى المدينة » قبل أن يعيشوا فى المدن . ولكن وصف أفلاطون المدينة القديمة سواء على لسان بروتاجوراس أو سقراط ، صحيح فى أساسه من الوجهة التاريخية. ولنرجع إلى الإلياذة . إن كاتب هذه الملحمة القديمة الذى سجل عليه « بالاجتماعيات » بصورة على درع أخيل ، يرينا هذه المدينة كما أراد من بطله أن يتصورها عند ذهابه للحرب فى سبيلها . فثم موكب زواج يمر عبر الشارع مصحوباً بالموسيقى والرقص والمشاعل المضيئة وكل مايخص المراسم القبلية القديمة . وعند سماع الضوضاء ، تنهض النساء اللائى يعملن فى الحجرات الداخلية ليشاهدن الموكب من النافذة أو مدخل الدار — ولم يكن مسموحاً لهن بأكثر من ذلك . ويتقدم الاحتفال نحو السوق العامة المكشوفة . وهنا يتوقف لوجود حشد آخر بالمكان . فإذا ما وقف المبتهجون على أطراف أصابعهم رأوا جمعاً من الشيوخ ، فى أيديهم عصى ، جالسين فى شكل نصف دائرة على مقاعد من الحجر ، أبلاها الاستعمال ، أمامهم وقف متخاصمان فى شدة الغضب ، عند قدميهما كتلتان من الذهب البراق . لم كل هذا ؟ سرعان ما تسرى القصة بين الناس . لقد وقعت جريمة قتل ويأبى ممثل أهل القتيل أن يقبل التعويض المالى الذى قررت عائلة القاتل دفعه، فى اجتماع سرى لرؤسائها . وعلى هذا رفعوا الأمر إلى شيوخ المدينة ابتغاء حكم عادل . فهل هذه التلتنات من الذهب إذن التعويض المراد دفعه ؟ لم يكن الجمع متأكداً من ذلك تماما . فالقدر يبدو أقل من أن يعوض حياة رجل صالح — فهو لايزيد عن المكافأة الرابعة للفائز فى سباق العربات الذى جرى فى السنة الماضية، فى الحفل الجنائزى الكبير . وهذا صديق له رأى آخر ، أقرب إلى القبول . وكلاهما متأكد من الكسب ، حتى أنهما راهنا على النتيجة، فمن خسر يدفع المال كأجر لأفصح متكلم بين الشيوخ [1] .

---

(١) الإلياذة ١٨ — ٤٩٠ ومابعدها ، مع ملاحظة مونرو Monro على السطر ١ — ٥٠٧ ؛ =

ومن هؤلاء الشيوخ ياترى ؟ وكيف حصلوا على هذه السلطة ؟ إن صديقنا الذى فى الشارع لايعيننا هنا على معرفة الإجابة على هذا السؤال. وما سيقوله لنا هو ما يعرفه كل الناس من أن هؤلاء الشيوخ تجرى فى عروقهم دم الآلهة والأبطال ،ولذاهم يعلمون الخطأ والصواب فى كل الأمور أكثر من العامة . وللحصول على تفسير أوضح يجب أن نرجع قليلا إلى الوراء ، ونرى كيف تكونت من بين العائلات البطريركية المتساوية القديمة هيئة أرستقراطية من الأكفاء ليكونوا حكاما للمدينة وقضاة لها، وذلك خلال أجيال قليلة ، مرت بأرض اليونان .

لما دخل الغزاة اليونان كانوا قد اعتادوا أن يحكموا حكماً قبلياً على يد شيخ القبيلة لا على يد هيئة ارستقراطية . فكانوا يدينون بالطاعة لرؤساء الأسرة أو « الأخوات » . وكانوا يخرجون إلى الحرب تحت قيادة زعيمهم ، ويرتضون أحكام مجلسه الذى يتكون من رجال عرفوا بالحكمة. ولكنهم لم يكونوا يعتبرون أى أسرة أو أخوة بعينها ، أو أى قسم من أقسام الجماعة ، أنها أحسن من غيرها ولا أفضل منها . وقد تمسكوا بهذا التقليد الديمقراطى عند استقرارهم فى اليونان . وقسمت الأراضى الزراعية « أقساما متساوية » بينهم (كليروى κλῆροι) ونال كل فرد نصيباً اعتبره وديعة يستغله

= ثم ٢٣ — ٢٦٩ . قارن روث Ruth ٤ — ١ . أما عن رأى أفلاطون فيما يخص المدينة القديمة فانظر بروتاجوراس ٣٢٢ (C) ، والقوانين ص ٦٨٠ وما بعدها (حيث أشاعت حرب طروادة الاضطراب فى التقدم كالمعتاد) . أما « الجمهورية » فلم تحاول حتى الادعاء بأنها تاريخية ؛ ولكن حجتها والعنوان الملحق بها عادة (πολιτεία ἤ περὶ δικαίου) يصوران نفس الفكرة . فيما يتعلق بقرب مجلس القضاء من السوق فى أثينا القديمة ، أنظر ڤيلاموڤيدس Aus Kydathen ص ١٩٥ وما بعدها . والأجر هام : لم يكن يعطى لكل هيئة المحكمة ولكنه يعطى فقط لأفصح المتكلمين . وذلك الأجر هو الأصل فى الأجور التى كانت تعطى لجماعات المحلفين الكبيرة فى أثينا فى القرن الخامس . وقديما كانت تسمى بريتانيا πρυτανεῖα (رسم المحكمة) ، ويدفعها الـ κωλακρέται (النحاتون) . وهكذا يتضح مم كانت تتكون . وكان الخدام العموميون يعتبرون أهلا لما يكسبه كل منهم من الأجر ، وهكذا كانوا فى القرن الخامس ، أنظر مار الجزء الثانى فقرات ٢٠٩ و ٢٢٥ . (أنظر ص ١٧٥ فيما يلى والتذييل) .

ويحفظه لأسرته وخلفائه من بعده. لأن الملكية الخاصة عندهم قد نشأت على أنها واجبات يقومون بها لا على أنها حقوق. وتتكون الأسرة التى تتمتع بحق الانتفاع المؤقت بهذه الملكية، من نساء وأطفال، وأحياناً كانت تضم قليلا من العبيد الذين أسروا فى الغارات، وأكثرهم كان من النساء لا من الرجال. وكان «أعضاء المنزل» (أيكتاى οἰκέται) من العبيد أما كنهم وواجباتهم المعترف بها فى المنزل. وعند وصولهم إليه، كان يحتفل بابتداء تدريبهم على مباشرة أعمالهم، بإراقة الخمور، وكانوا أقل أعضاء المنزل منزلة. ولكن مركزهم كان أفضل كثيراً من مركز «المشردين غير الشرفاء» الذين لم يكن لهم مأوى ولا نصيب إطلاقا فى العالم. وكما ورد فى أشعار هومر فإن هؤلاء ومن يعولون أحق الناس بالشفقة والرحمة. إن عبدا مثل إيومايوس Eumaeus راعى الخنازير، كان فى مقدوره أن يكون شفيقاً وراعياً لرجل متجول من أمثال أوديسيس المتنكر، وقد أظهر بعض طالبى الزواج كرمه بأن عرض عليه عملا كأجير، أجره المأكل والمسكن والملبس، نظير قيامه بغرس الأشجار وبناء الأسوار — وهو عمل من الجلى ألا يستطيع أن يضحى بعمله من أجله، فعنده أن ما يقوم به من خدمات كعبد أفضل من ذلك العمل. والرجل الذى «لا نصيب له» قد يحاول كسب عيشه الكفاف من قطعة أرض استصلحها لنفسه، أو قد يكون سائلا أو منفيا، أو مجرد ثائر أو قاطع طريق يعتدى على كل انسان. وعلى أية حال فهو رجل «لا ينتمى إلى أية جماعة، ولا يقيد برعاية عادات وحقوق أسرات ما»، والنظام البطريركى قاس شديد الوطأة على أمثاله. فليس فى المجتمع بعد مكان للرجال الذين «يشقون طريقهم الخاص فى الحيـــاة». ولكن مع هذه الاستثناءات اعتبر كل رؤساء الأسر متساوون. وكانوا مقسمين جماعات متسقة متعادلة على الأرض أو فى الدولة، على أنهم جماعات من أعضاء متساوين. فالمساواة فى الأرض والحقوق كانت تقاليد راسخة فى الحياة اليونانية متأصلة فيهما. وإنا نلاحظ فى تاريخ المدينة الدولة كله، مراعاة أسس المساواة القديمة عند تأسيس مستعمرة جديدة، مهما كان التفاوت فى الدولة الرئيسية. وفى

الوطن نفسه لم يبرح حلم تقسيم جديد للأراضى أذهان الرجال مطلقا . وفى تمثيلية « السحب » لأرستوفانيز ، يسأل أحد الناس تلميذاً لسقراط الساخر عن فائدة الهندسة . فيجيب قائلا : « ألا تعلم أنها مفيدة فى تقسيم الأرض إلى أقسام متساوية » . فيسأله « هل تعنى أرض المستعمرين ؟ » فيقول « لا بل أقصد كل الأراضى » . « هذه فكرة عظيمة وعملية تتفق والروح العامة[١] » .

ولكن الأراضى المتساوية لا تستمر كذلك طويلا ، وخاصة عند تلك الجماعات التى تأصلت فيها فكرة المساواة بقوة . لأن اليونانيين على خلافنا لم يعترفوا بأولوية الابن الأكبر فى الميراث ، فكانوا يقسمون ممتلكاتهم عند الموت تقسيما متساويا بين الذكور من أبنائهم . ونتائج ذلك فى مجتمع قوام ثروته الأرض الزراعية ، جلية واضحة . فبعد أجيال قليلة يصبح بين الجماعة قسم مميز ، ولن يمض زمن طويل حتى يبدأ الأكفاء أو المحظوظين من الأعضاء فى تكوين طبقة ارستقراطية وراثية[٢] .

---

(١) لقد تعدلت الفكرة البطرياركية عن المساواة طبعاً ، حسب المقتضيات العملية . فقد كان للشعوب المهاجرة ملوك ومجلس (γὲροντες و βασιλεῖς) ، وكانت بعض الأسرات أكثر ثراء ومجدا من غيرها . ولكن أرستقراطيتهم لم تكن إلا مظهراً فقط يدخر للزوم . إن كلمة βασιλεύς تعني « قائد حرب » . أنظر ماير الجزء الثانى فقرة ٥٣ . المراجع : أسخيلوس .Ag ١٠٣٥ (تعليم كسندرا شئون البيت) ، الأوديسة ١٤ — ٥٦ (حديث إيومايوس البليغ لأوديسيس) ، ١٨ — ٣٥٧ (يوريماخوس وهبته أعمال الترفيه) ، ١١ — ٤٩٠ (العمل من أجل رجل لا أرض له) ، الإلياذة ٩ — ٦٣ (ἀφρήτωρ ἀθέμιστος ἀνέστιος) ؛ هيزويد Erga ٦٠٢ (لا تدع العمال المأجورين يشتغلون مع الأطفال الصغار) ؛ الإلياذة ٩ — ٦٤٨ ، ١٦ — ٥٩ (ἀτίμητος μετανάστης) ؛ أرستوفانيز السحب ٢٠٢ (الهندسة) ؛ توكيديدس ٣ — ٥٠ — ٢ (كليروى κλῆροι) . أنظر فى Dittenberger's Sylloge رقم ٩١٣ نص خاص بالاستعمار فى القرن الرابع ، حيث المستعمرون لا يزالون يتكتلون حسب نظام القبائل الدورية القديم . (أنظر التذييل) .

(٢) أنظر هيزويد Erga ٣٧٦ . إن النظرية الآرية وميل اليونانيين إلى تحديد نسلهم بابن واحد دعيا بالعالم Fustel de Coulanges إلى أن يضل فى بحث مسألة حقوق الابن الأكبر . أنظر ص ٩٠ (طبعة ١٩٠٦) . وانظر أيضاً ماير الجزء الثانى الفقرة ١٩٧ . وأنا أوافق ماير فى تجاهل التأثير الممكن للهجرة والفتح فى قيام الأرستقراطية ، وإنى لمدرك أن ذلك ربما يسهل هذا المشكل أكثر مما يجب ، ولكن فى ظل الأدلة الحالية ، يبدو أن ما من معالجة أخرى ممكنة فى حدود هذا الكتاب . أنظر أيضاً ملحوظة ص ١١١

هؤلاء هم طائفة « الملوك » المنحدرين من نسل زيوس ، الذين نعرفهم جيداً من الملحمة . وكانوا من سلالة زيوس على نحو خاص غريب . فقد انتشرت فى اليونان فى العصر التاريخى ، عادة ادعاء الفرد التسلسل عن إله أو بطل ، يعتقد أن جماعته تنتسب إليه . فالأثينيون مثلا ، ادعوا أنهم من سلالة زيوس عن طريق إيون بن أبولون . ولكن أرستقراطييهم ازدروا سلسلة نسب أفراد الشعب ورجعوا فى نسبهم إلى « الأب الأكبر » بطريق خاص بهم — حتى أن منهم من فعل ذلك بطريقة مختصرة مثيرة للشك . ويعرفنا بندار الذى كتب عن هذا النظام الأرستقراطى ، مدى أهمية هذه الأنساب بالنسبة للأثينيين . وقد أثار هيرودوت ضحك كثير من قرائه الديمقراطيين ، حين روى لهم كيف استطاع أحد الكهنة المصريين ، بحساب بسيط ، أن يخجل هيكاتيس ، الحديث العهد بالأرستقراطية ، حين افتخر بأنه « السليل السادس عشر لأحد الآلهة » . وهذه القصص الخرافية التى كثيراً ما كانت اختراعات متعمدة ، نراها اليوم أموراً صبيانية ، نحن الذين نميل إلى أن نضحك من College of Heralds . ولكن اليونانيين وضعوا نظمهم السياسية بدقة تامة فى كل العصور . « فكان مشرعوهم كالمهندسين يعملون بالمسطرة والفرجار » ، فهم يحبون النظام والتناسق . فلديهم مجالس من خمسة آلاف عضو وقبائل مكونة من « مئات المراكب » . فكل شىء عندهم تام ومنطقى كتصميم مدينة أمريكية . ولذا كان لابد لأى عائلة نبيلة من الحصول على سلف تنتسب إليه وذلك كما فعل كليستنيز عند ماقسم القبائل الأربعة فى أتيكا إلى عشر ، إذ ذهب إلى أبولون يسأل عن أسماء الأبطال الذين يجب أن يسمى بهم هذه القبائل [1] .

---

(١) هيرودوت ٢ — ١٤٣ وأفلاطون . Euthyd ٣٠٢ ب (حيث أحرج سقراط بالنسبة Ζεύς πατρῷος) ، ايوربيدس . Med ٨٢٥ : Ἐρεχθεῖδαι ثم θεῶν παῖδες (ياأبناء إرخثيوس الكبير الذى سوته الآلهة العليا من قديم ...) . ولقد كان مفخرة الأثينى الأكثر ديموقراطية ، فى عصر متأخر ، أن يكون مولودا « من مواليد البلد » (αὐτόχθων) ؛ فرنكوت Polis ص ١٢٥ و ١٤٧ ؛ مايرالجزء الثانى فقرة ٢٠٣ . وقد أوضح هذا المؤلف أن هؤلاء الملوك « سلالة زيوس » ذوى النسب الرفيع) يبدو أنهم كانوا وقفا على اليونان . فاليهود والعرب يرجع تسلسلهم إلى أب الجميع : أب الجنس كله ، فبدلا عن « أبراهام » أو عن « اسرائيل » الذى يماثل عند اليونان هيلين . ولا يجرؤ بنيامينى أو حتى ليفيتى أن يدعى نسبا خاصاً به ، كأصل له ، مثل هيراقليد أو نيليد .

إننا لا نرى فيما كتبه هومر وبندار ، اللذان يمثلان أدب هذه الفترة العظيمة ، إلا القليل عن اليونان فى القرون الوسطى . فلا نرى سوى هؤلاء الملوك وأتباعهم الذين احتكروا لأنفسهم كل ما فى عصرهم من الأبهة والمجد ، كما احتكروا السلطة فى عصرهم . فالحكومة كانت ، كما يقول توكيديدس ، « فى أيدى ملوك يتوارثونها ، لهم امتيازات خاصة محدودة » . فإذا كانت الملكية هى كما نفهمها الآن ، فمن الصعب ، بل من المستحيل أن نفسر كيف حدث هذا فالجماعة التى تتكون من أسرات ذات نظام قبلى ، لا تكون تربة صالحة لقيام ملكية وراثية . ولكننا يجب أن نحاذر من أن نوسع الشقة بين هؤلاء « الملوك ورعاياهم » ، فقد كانوا ملوكا بمعنى خاص وضيق جداً . وملكيتهم كانت تسمح بوجود درجات متفاوتة . فمثلا يمكنك أن تتكلم عن ملك « أكثر ملكية » من الآخر . وهناك ملوك أفقر من كثير من رعاياهم العاديين فى المدينة ، بل إن أبناءهم المرشحين ليكونوا ملوكا فى يوم ما ، لم يخجلوا من العمل فى الحقول ، أو من الخروج (مثل داود) لرعاية الأغنام . وعندما ذهبت أثينا لتقابل أوديسيس لما نزل إثاكا ، أتته فى زى شاب من الرعاة ، « له تقاطيع رقيقة مثل التى لأبناء الملوك » . فأنت تستطيع إذن تمييز الأمير من غيره من الرجال العاديين ، وهو جالس ينفخ فى مزماره لقطعانه — تميزه بملامح وجهه ، لا بملابسه . وهكذا تغنى شاعر الملحمة معنيا بمستمعيه كشأنه أبدا . ولكن ما من أحد يستطيع أن يميز البطل الهرم لايرتس وهو يعمل فى حديقته مرتدياً القفاز ، ومنتعلا الحذاء الطويل ، من الفلاحين الذين كان يعيش معهم[1] .

مثل هذه الملاحظات ومئات غيرها ، كانت تخفى عن القارئ العابر ، وراء ما فى الملاحم من عظمة الأسلوب السلس ، أو وراء لغة الإنجيل الإنجليزية التى

---

(١) الأوديسة ، ٢٤ — ٢٢٦ ، ١٣ — ٢٢٢ ، ٢ — ٧٧ (أنظر ٣٨٦ حيث استعار تلماخوس سفينة من أحد العامة) ، ٢ — ١٢٧ ، ثم أنظر هيرودوت ٨ — ١٣٧ (الملكة التى تقوم بطهى طعامها بنفسها). أما فيما يتعلق بالبازيليتروس βασιλεύτερος فانظر الإلياذة ٩ — ١٦٠ و ٣٩٢ ثم ١٠ — ٢٣٩ والأوديسة ١٥ — ٥٣٣ .

يصوغها المترجم الحديث . فهذه الملاحظات تساعد على ربط أبطال هومر بالحياة العادية فى عصرهم . وقد كدنا أن ننسى ، لولا أن ذكرنا الأستاذ صمويل بتلر بمناقضاته الرائعة ، أنه من الغرابة بمكان أن يطلب ملوك مثل مينلاوس من ضيوفهم إحضار طعامهم معهم ، وأن يباشر الأميرات غسل ملابس أخواتهم . والحقيقة أنه لم يكن فى شبه جزيرة اليونان الأصلية ، على أية حال ، فوارق كبيرة بين النبلاء والشعب كما توحى قصة الملحمة إلى خيال رجل الشمال . هذا وقد استمرت تلك المساواة القبلية القديمة قائمة ، باستثناء القانون والسياسة ، رغم التأثيرات الجديدة للثروات والرتب . وقلما يوجد ، حتى فى لاسيديمونا حيث عاش هيلين ومينلاوس فى مستوى عال ، أى أثر للأرستقراطية باق فى التاريخ ، فيما لدينا من وثائق . فقد محتها نظم ليكورج تقريباً من الحياة الإسبرطية . أما فى أتيكا فقد كانت هناك عائلات أرستقراطية أمثال الفيلايديين والألكمايونيين المعتزين بأجدادهم . ومع ذلك فقد مهد ذلك العصر الوسيط لقيام ديمقراطية القرن الخامس ، التى لم يكن من الممكن قيامها على أساس فصل الطبقات . إن التشابه الانجليزى المعروف ، الذى قد يضللنا ، ربما يكون أكثر انطباقا على هؤلاء الانجليز الذين أحبوا هومر . فالفوارق الاجتماعية التى عندنا ، ليست بين النبيل والرجل العادى ، ولكن بين « السيد » أو « السيدة » وبين « الرجل » أو « المرأة » . أو بالتعبير الانجليزى القديم بين « المهذب » و « الساذج » ، هى فوارق عريقة جداً ترجع إلى عهود متناهية فى القدم . فنحن إنما نتقدم ببطء ، وبشعور ذاتى مؤلم ، نحو جو الديمقراطية الحقة الحر . ووراءنا ، بل لا يزال كامنا فى زوايا نفوسنا ، ذكريات مجيدة لعهد الإقطاع بنظام طبقاته المتتالية ، لا تلك المساواة السهلة البسيطة التى كانت للقرية القبلية . فلم يعرف الأرستقراطى اليونانى ما عندنا من تقاليد اجتماعية تفصل الطبقات عن بعضها البعض ، لأنه لم يكن له ما لدينا من مصادر الثروة ، ولا عربات الدرجة الأولى ، ولا مئات غيرها من وسائل المتعة والرفاهية ، للاحتفاظ بتلك التقاليد وتوكيدها . وذلك لأن « عجلات اليونانى » التى لم تجد المجال الملائم لها أبداً على الأرض اليونانية ، لم تكن إلا بديلا هزيلا ، بل إن فرسان الإقطاع الذين كان يفتخر بهم ، لم يستطيعوا الاحتفاظ

بسياساتهم مدة طويلة . ولكي نفهم فهما صحيحا بندار الأرستقراطي أو بركليس الديمقراطي ، وأولهما خادم للنبلاء ، والثاني هو نفسه نبيل ، يجب علينا أن ننزع من أفكارنا ما غشاها من آثار الإقطاع - فالأثيني في القرن الخامس قد ألغى تماما الأرستقراطية مادة وشكلا . فبركليس أمكنه أن يتتبع نسبه إلى نسطور أو إلى ما قبل ذلك ، وكتب بندار بعد جيلين فقط قصائد يمدح بها أسرته . ولما اختير بركليس عام ٤٣١ ، من « أجل تقدير الجمهور إياه ، ليؤبن أموات المدينة ، لم يكن في نظر توكيديدس ، « بركليس الألكمايوني » ، بل كان « بركليس خانتيبوس » . وهكذا صار المركيز سالسبوري مجرد روبرت سيسل . ففي ذلك الوقت كانت أثينا قد ألغت الألقاب الموروثة إلا فيما يتعلق بقليل من الكهنة[1] .

---

(١) فيما يخص التسمية الأثينية أنظر ص ١٥٧ فيما يلي . كان مجلس الشيوخ الأسبارطي مقصوراً على الشيوخ الإسبارطيين الذين من عائلات معينة ، ولكن لم تظهر مطلقاً ، لهذا الأثر الموجب من النظام القديم ، أية أهمية . وفيما يخص الفروسية أنظر توكيديدس ٧ — ٢٧ — ٥ وكذلك أرسطو — السياسة ١٢٩٧ ب ١٨ . وكانت الخيل ضرورية لليونانيين ضرورة السيارة لنا (توكيديدس ٦ — ١٥ — ٣) . وكتب صموئيل بتلر The Authoress of the Odyssey وترجمته للالياذة والأوديسة ، كتب شهرتها قليلة للغاية . وقد أبرزت لغته الانجليزية السهلة كثيراً من النقط التي يمكن أن تفوتنا ملاحظتها وهي في ثوبها اليوناني . أما الفقرات المشار إليها فيما سبق فهي الأوديسة ٤ — ٦٢١ ثم ٦ — ٦٤ . ويوجد مصدر ثان أخطأ فهم الأرستقراطية اليونانية غير ما قد أشرنا إليه من قبل . فنحن نخلط الأرستقراطية اليونانية في العصور الوسطى وفي بندار « بالأوليجارشية » التي عرفت في النزاع الدستوري في القرن الخامس . وهكذا غالينا في عمق العناصر الأرستقراطية وثباتها في دولة المدينة . فأرستقراطية العصور الوسطى و « أوليجارشية » القرن الخامس ينتميان إلى أطوار مختلفة في تدرج دولة المدينة ؛ والأوليجارشيون (الذين بلا شك لقبوا أنفسهم أحياناً بالأرستقراطيين) كانوا حزباً سياسياً في دولة حكمها دستوري ، وكان برنامجهم الحد من الانتخاب ليس بالنسبة للنبلاء فحسب ، بل بالنسبة لأصحاب الأراضي والأملاك ، ضد التجار والصناع الفقراء . وكان شعارهم كلمة لم يسمع بها أبطال هومر ، لأنه افترض وجود دستور مكتوب ، فسياستهم ادعت أنها هي العدالة ἰσόνομος ، وتوفير « المساواة امام القانون » . وسنلقاهم ثانية في الفصل الخامس عندما يكونون قد ساهموا بنصيبهم في تدرج دولة المدينة في عهد بركليس ، ثم يختفون من الميدان . وثم مصدر ثالث لسوء فهم الأرستقراطية ، وهو مزود بلا شك بالنظريات الأرستقراطية لفلاسفة القرن الرابع « فالمهذب » و « الساذج » هما التقسيم الصحيح القديم في الحياة الانجليزية . ويقابلان « النبلاء » و « الشعب » في الجماعات الإقطاعية في القارة الأوروبية . أنظر مثلا جزء من كتاب England under the Stuarts لمؤلفه Trevelyan .

هؤلاء هم إذن النبلاء الذين رأيناهم جالسين، عليهم وقار السن والمركز فى مقعد الحكم الهومرى . ولكن هؤلاء المتخاصمين، من أى الرجال هم ؟ وما الذى جعلهم يخضعون لقرارات هذه المحكمة ؟ للاجابة على هذه الأسئلة يجب أن نترك هذه المدينة الجديدة النشأة ونرجع مرة اخرى إلى القرية القديمة .

إن التاريخ الأسطورى لأتيكا فى عصورها الأولى يقسم السكان ثلاثة أقسام — النبلاء والملاك والصناع . وإن مجرد ذكر الأسماء ليساعدنا على أن نذكر أن هناك عالما آخرا بجانب هذا الذى يعرفنا به شعراء الألياذة والأوديسة . ولحسن الحظ ترك لنا هذا العالم الرجل الذى ينشد ملحمته أيضاً. فإلى جانب هومر عرف هيزويد Hesiod . فالملوك والنبلاء يلعبون دورا ضئيلا فى كتاب «الأعمال والأيام». فنحن لم نعد نعيش فى مركز الحكومة، نقضى أيامنا فى إصدار الأحكام فى القضايا فى السوق العامة ، ونحاول فتح شهيتنا للعشاء ، ونأمل أن يقيم لنا الكينوس أو أى « ملك » آخر من بيننا ، وليمة فى بهو الملك ، وأن نتخلص من سأم حياتنا بتنظيم الألعاب تكريما للغرباء البارزين ، بل لقد انتقلنا إلى دنيا أخرى أهدأ، لا ملل فيها ولا سأم، ويظهر فيها ملوك المدينة الرئيسية ونبلاؤها لا كما صورهم الشعراء ، ولكن كما يراهم الفلاح العادى . إنها حياة شاقة شديدة الارتباط بالأرض : فى قرية أسكرا الفقيرة المتأخرة فى عهد الملك « هيلكون »، «فهى بقعة بائسة، بغيضة شتاء ، غير مرغوبة صيفا، لا تصلح فيها الحياة بحال من الأحوال». وليس لدى عرائس الفن التى يستوحيها هيزويد، رسالة سياسية تقدمها لنا . فهن لا يتكلمن عن ضروب الولاء البطريركى القديمة للقبيلة والأخوة ، ولا عن قبائل النبلاء الذين نسلوا حديثا من أصل مقدس . إنهم لم يسمعوا قط عن الدولة المدينة . ورغم أن حقوقهم المدنيـة بدائية، إلا أنها حقيقية فعلا، وعلى السياسى أن يعالجها فى الوقت المناسب . وفى عالمهم الصغير لم تكن العلاقة بين الرجل والرجل علاقة قبلية، ولكنها علاقة جوار ، أى لم يكن أساسها وحدة الدم، بل وحدة المكان . فلم يكن لديهم الوقت . ولم يدفعهم الفخر لأن يتذكروا أنهم كانوا

أخوة . وإنما هم يعلمون فقط، مثلهم فى ذلك مثل الفلاحين المتواضعين فى «قصص تولستوى القروية»، أنهم يعيشون ويكدون ويقاسون الآلام والمتاعب جنبا لجنب فى سبيل الحياة . لقد كانت عرائس الفن المتواضعة فى هزيود هى أول من تحدث إلى اليونانيين عن واجبهم نحو جيرانهم[١] .

وبين القوم البسطاء البعيدين عن مركز الحكم ، الذين يمنعهم الفقر المدقع والعمل المتواصل من أن يذهبوا خارج واديهم ؛ يحل الجوار محل «حق المدينة» تماما . إن السرعة والفوضى والكآبة التى فى الحياة الحديثة ، هى الدوافع التى ألجأت الناس إلى التكدس فى صفوف من منازل يقيمونها فى الضواحى ، ويمنعهم الكبر أو الخجل الشديد من أن يستعيروا مقلاة من جيرانهم ، أو تدفعهم الإنسانية المحضة فيسدلون ستائرهم عند مرور جنازة جارهم . لم يكن عند الفلاحين فى «أسكرا» شىء كبير يقدمونه ولكنهم أعطوا ما قدروا عليه لأسباب تنبىء عن الذكاء .

«أدع جارك ليأكل معك ، ولكن دع عدوك جانبا ،
ولا تنس أبدا دعوة جارك الجنب :
فأنت تعلم أنه إذا ساءت الأمور وتطلب الأمر عونا من القرية ،
هرع جيرانك إليك، بينما ينتظر أهلك وعشيرتك ، حتى يرتدوا معاطفهم.
لا تأبه إذا اعترى بعض الفتور علاقتك بابن عم لك ، فإن شر الأمور هو جار السوء . فرجال أسكرا الحكماء يعلمون عن خبرة، أن شيئاً ما قد يصيب الثور إذا ما ساءت علاقتك بالجار[٢] .

---

(١) «فى القرية» : هزويد Erga ٦٣٩، ثم «فى المدينة : الأوديسة ١٢ — ٤٣٩ ثم ٨ — ٤٠ . يدعو الكينوس إلى قصره كل الملوك ذوى الصولجانات . ويبين جلوتز فى (Etudes ص ٢٥٠ ، أن القصر هنا يعنى مايسمى (بالبريتانيوم) فى أثينا . والغرباء المتازون والجيرين ، كما يدعى سقراط فى Apology ، كانوا يكرمون فيه . وكان الغذاء العام الذى نسمع به فى ناوكراتس، هو صلة الوصل (الجزء الثانى ص ٨٠ من هيرمياس ، القطعة ٢ فى Frag. Hist. Graec .) وكانت قاعة الاجتماع فى كنيدوس ، حيث يجتمع الحكام للغذاء، تسمى δαμιόργιον أو قاعة الخدام العموميين .

(٢) إرجا، Erga ٣٤٢، ٣٤٨ .

فى أوقات التأمل والتروى ، إذا ما استلقوا على جنبات التلال وقت الظهيرة ، أو اجتمعوا حول نار الحداد فى ليالى الشتاء ، مستعيدين ما رأوه فى المدينة عندما ذهبوا إليها من سنين مضت للبت فى نزاع ما ، فكم يسعدهم أنهم ما زالوا من أهالى الريف . فحياة المدينة زائفة غير صادقة ، ومصطنعة غير شريفة . وتقوم بيننا فى أسكرا منازعاتنا الصغيرة التى تلوح كبيرة فى حينها . فقد أقام خزاف فى السنة الماضية مصنعاً جديداً فى أقصى القرية ، فثارت ثائرة منافسه واحتد طبعه منذ ذلك الوقت . وكذلك قامت منازعات بين النجارين . فأصغر أبناء الرجل العجوز الذى يملك أرضا بجوار عربة البطل ، قد أقام عليها دكانا آخر للنجارة . وهو يقول، لابد أن يكون هيفايستوس إلهه هو إذ قد أصيب ،بعرج دائم يعوقه عن العمل فى الزراعة،فضلا عن أنه كان مديناً للحداد بساعات كثيرة ،كلها سرور ، حتى أنه ليأبى التدخل فى شئون مهنته . ذلك إلى أن النجار الحالى قد اعتراه الكبر ، وزيادة على ذلك فإنه لم يكن حاذقا فى مهنته . فهذه الصور التى أخرجها فى يوم العطلة الماضى كانت عاراً فى جبين التقاليد الفنية للقرية ، وما كنا لندخل طروادة إذا قدر وقام هو بصنع الحصان الخشبى[١] .

كل هذا قد يكون مزعجاً وخاصة بعد يوم من العمل طويل ، ولكنه خير من الحياة فى المدينة حيث يبلغ الجشع بالناس أن لايتعاونوا هم والآلهة على فض نزاع بسيط على ملكية شقة من الأرض على الحدود ، أو على علامة على ظهر خروف . بل لابد من الرجوع إلى القضاء ، وبذل كل ما يكسبون أجرا لجماعة من الملوك .

أطفال ! لم يتعلموا أن نصف الرغيف أكثر من رغيف كامل ؛
ولم يتمتعوا مطلقاً بأكلة من نبات الخبيز والسريس ،
وهى أبسط وأحسن من الأكل الفاخر على أصوات الموسيق فى القصور[٢] .

---

(١) Erga ٤٩٣ (لاحظ التفرقة بين حرارة الشمس وحرارة النار) ٥٢٥ . فى ذلك الوقت كانت التماثيل تصنع من الخشب (ζόανα) : أنظر هيرودوت ٥ — ٨٢ .

(٢) Erga ، ٣٣ — ٤١ .

إلا أن هذه الطرق القروية المريحة لا بد وأن تتغير ، فالمنازعات لا يمكن أن تنفض دائماً بالالتجاء إلى الآلهة والعادات القديمة . فلماذا يجب على الخصم المهزوم أن يرتضى حكماً صدر ارتجالا وعلى غير أساس ؟ إنه يونانى يفكر لنفسه ، ومن طبيعته أن لا يوافق على شىء إلا لسبب . فهو يتطلب قاضياً محايداً يطبق حكمه بذكاء تؤيده الساحة ، ففى الأيام الخوالى ، حين كان الأمر بيد رؤساء القبائل والعشائر . كانت كلماتهم عرفا ملزماً θέμιςτες ، لا يخطر ببال عضو أن يناقشهم . ولكن إذا ما تعارضت العادة مع العادة ، أو قامت منازعات بين الزملاء حول بعض الحقائق ؛ فإن الأمر يستدعى سلطة جديدة أكبر وأقوى ؛ هنا تبدو الحاجة إلى القانون ، ومن هو الكفء الجدير بتفسير القانون — ففى هذا الوقت لم يعد الأمر أن يكون تأويلا ، فزمن المشرعين لم يكن قد أتى بعد — مَنْ غير ملوك جرت فى عروقهم دماء قوية جديدة هى دماء أبى الآلهة . وفى عصرنا هذا ، أخذنا نتجه ببطء إلى إدراك أن القانون الدولى هو الأساس بل الضمان الوحيد للتنظيم الدولى . لننظر كيف علم شاعر (ثيجونى) الرجال فى دنياه القصيرة أن يخطوا خطوة أوسع ، لا من الشعب إلى العالم ، ولكن من العائلة إلى الدولة . إن الكلمات التى تتناثر من بين شفاه هؤلاء الشيوخ لا تتضمن الحقوق القديمة (θέμις) ، ولكنها تتضمن أمراً آخراً جديداً كل الجدة فى حياة اليونان ، « ذلك هو العدالة (δίκη) .

فيقول الشاعر القديم إن « عرائس الفنون ، بنات زيوس ، يسكبن الندى الحلو على لسان كل من يرين أنه جدير بالتكريم ، ويعتقدن أنه ملك من صلب سلالة زيوس ، فتتدفق الكلمات المعسولة من فمه ويتطلع إليه الناس كلهم وهو يصدر أحكاماً حاسمة واضحة عادلة . هذا الرجل بعلمه وثقته بما يقول ، يمكنه أن يهدئ فى لحظة ، أقوى معارضة أو خصومة . من أجل هذا وهب الملوك الحكمة حتى ينصفوا فى السوق العامة كل من ظلم الرجال ، ويقنعوهم بسهولة ، وبالكلمات المعسولة . وفى غدواته وروحاته فى المدينة كان الناس يطلبون

رضاءه فى احترام ولطف ، كما يطلبون رضاء الآلهة . وهو فى المجلس دائماً مرفوع الرأس . هذه هى الهبة المقدسة التى تمنحها عرائس الفن للبشر . فمن عرائس الفنون ، بنات زيوس ، ومن أبولون البعيد مرمى السهم ، يهبط الأرض المغنون والموسيقيون ومن زيوس أيضاً ينحدر الملوك ، فطوبى لمن أحبته عرائس الفنون ، وما أحلى صوتاً يخرج من فيه »(١) .

هذا هو بيان الشاعر عن كيفية قيام أول حكومة قوية بين اليونانيين . وهو يفسر ، على طريقة الشاعر ، لماذا اجتمع اليونانيون فى عصورهم الوسطى فى المدن وامتثلوا مختارين إلى حكامهم الجدد، وأوجدوا بذلك تقليد « الطاعة لمن له السلطان أيا كان » التى ظلت جزءاً كاملا من تقاليد الدولة المدينة مدة طويلة ، بعد زوال تلك الهالة التى أحاطت بالملوك الأول ، مثلها فى ذلك مثل غيرها من الأساطير . على أنا لدينا بيانا آخرا منثورا لأمير القصاصين ، فى إحدى القصص الرمزية السياسية التى أغرم بها هيرودوت كما أغرم بها إيبملخ ومينينوس أجريبا وغيرهما من المفكرين السياسيين الأول — وعنوان هذا البيان « كيف اختار الميديون ملوكهم »، وإن كان قد خلا تماماً من أى شيء يخص الميديين إلا الأسماء فقط . أما الباقى فيونانى صرف كما تبين ذلك المستمعون ببطء ، لما اقتربت الرواية من نهايتها المحتومة. ولكن على القارىء العملى الحديث أن يحرص ، كالمعتاد ، على أن يفرق (وذلك غير يسير على القصاص الممتاز) بين النتائج المرسومة وغير المرسومة .

« كان فى ميديا رجل حكيم يسمى ديوسيس بن فراؤرتس تملكته الرغبة فى أن يعين ملكا وهاك كيف حقق تلك الرغبة . كان الميديون فى ذلك الوقت

---

(١) هيزويد Theog ٨١ — ٩٧. يقال إن آلهة الفن هى التى كانت توحى إلى القضاة لأنها كانت تتذكر السوابق، « كانوا يحيطون بالأقوال الحكيمة والأمثال الحديثة » . وكان المسجلون (رؤساء المحفوظات والعقود الخ) يسمون فى الوقت نفسه « بالمتذكرين » (μνήμονες) ؛ وقبل أن تستعمل الكتابة كانت ذاكرتهم دار المحفوظات (الأرشيف) الحقيقية الرسمية .

يعيشون منتشرين فى القرى . وديوسيس الذى سبق أن نال تكريم منطقته، ظهر دائماً بمظهر الغيور المحافظ على إقامة العدالة . وقد فعل هذا فى عصر انعدم فيه القانون ، وعمت الفوضى ميديا كلها ، مدركا أن الظلم والعدل يجب أن يظلا عدوين متنازعين إلى الأبد . فاختاره الميديون من أهل قريته الذين عرفوا منهجه، قاضياً لهم . ولما كان يتطلع إلى الاستحواذ على السلطة العليا ، كان فى أحكامه واضحاً مستقيما ، وبذلك نال مدح كثير من المواطنين ، حتى أن الرجال من القرى الأخرى ، الذين ناءوا تحت ظـــلم الأحكام والقرارات الجائرة ، أتوا إليه مختارين ليحكم بينهم ، وبلغ الأمر فى النهاية أن أصبح الناس كلهم لا يحتكمون إلا إليه . وبما أن الأمر صار إلى ازدياد منذ أن ترامى إلى سمع الناس أحكامه العادلة ، فقد أدرك الرجل أن كل شىء سائر إلى يديه ، وصرح أنه لن يواصل العمل فى مكانه المعتاد ، قائلا أنه لن يحكم بين الناس إذ لن يجديه شيئاً إهمال شئونه الخاصة ليقضى وقته من الصباح إلى المساء لينظر قضايا جيرانه . فلما ازدادت السرقة بعد هذا وعمت الفوضى واتسع نطاقها فى القرى عن ذى قبل، اجتمع الميديون يتشاورون فى شئون شعبهم، وبعد ذلك ، كما أرى، تزعم أصدقاء ديوسيس المناقشة قائلين : « لم يعد فى مقدورنا أن نسكن هذه الأرض وهذه حالتها . تعالوا ننصب ملكا علينا لتحكم الأرض حكماً صالحاً ، ونخلص نحن لأعمالنا آمنين من أى سلب أو دمار على أيدى العابثين بالقانون » . وبمثل هذه الكلمات أغروا الناس بالموافقة على حكومة ملكية ، فلما عرضوا أسماء من يمكن ترشيحهم ملوكا ، برز اسم ديوسيس من هذه الأسماء ونال القبول عند الجميع ، حتى أنهم قرروا بالإجماع أن يكون ملكهم . فأمرهم ببناء بيت خاص يناسب مقامه الملكى وأن يقيموا حرساً للمحافظة على شخصه . وما أن تسلم السلطة من الميديين حتى أرغمهم على إنشاء مدينة واحدة ، زودها بكل ضرورى لها، حتى يقل تفكيرهم فى غيرها من البلدان[1] .

---

(١) هيرودوت ١ — ٩٦ .

وهنا يمكننا أن نتابع كل مرحلة فى ازدياد تأثير قانون الدولة . فأولا كان ديوسيس حكما بالمصادفة ليس إلا، انتخب على أساس ما ناله من احترام وحسن السمعة ، ليقضى فى المنازعات العرضية بين فردين ، وبالطريقة عينها كان ملك الإنجليز يفصل أحياناً بين دولتين صغيرتين ، وكذلك أحياناً يقوم بعض من لا صالح لهم من الرجال العموميين لفض النزاع بين العمال . فيعترف الناس جميعهم بهذا القاضى كرجل لاشك فى نزاهته وعدم محاباته ويغدو مكانه كعبة القاصدين من المتنازعين فى مشاكلهم المعقدة . ثم خطوة أخرى بعد ذلك ، فيجعل ديوسيس مجلس قضاته محكمة دائمة الانعقاد حتى لتحل محل كل مجلس مشابه لها. ثم أخيراً تتحول من مجلس احتكام يلجأ المتخاصمون إليه إذا شاءوا — إلى محكمة ذات قانون تلزمهم طاعته . وعند هذه المرحلة ينقلب ديوسيس طاغية ، لأنه سواء كان العراك من أجل الكرامة ، أو من أجل الشرف المثلوم ، أو من أجل مجرد مناقشة بسيطة فى أمر وقع ، فليس لأحد اختيار ، بل الكل ملزم بالتوجه إليه. وبذا ألغت قوانين المدينة الملاكمة كما ينتظر أن يحدث فى يوم ما أن تقضى دول العالم على الحروب — وذلك عند ماتؤمن البشرية بالدولية فى العالم ، وبالحاجة العامة إلى قانون عالمى[1] .

هنا نترك سفينة الدولة المدينة وقد أنزلت إلى الخضم بمهارة ، ودفتها فى أيدى حكامها الأول الأقوياء ، لتواجه الأخطار التى تحيط بحكومة الأقلية فى كل العصور . ولكن هناك نقطه واحدة يجب أن نفسرها قبل أن نمضى مسترسلين فى الكلام عن الرجال الذين ذكرهم هومر فى السوق العامة ، نقطة قد أثارت فضولنا أول الأمر ، وهى خاصة بأبرز الأعمال وأعقدها التى قام بها هؤلاء الحكام الأول ، أى إدخال سلطتهم القضائية فى نطاق مانعرفه

---

(١) يجب ألا نخلط بين طلائع حياة المدينة ، وعدالة الدولة مثل ديوسيس أو ثيسيوس (أو Numa ، سرفيوس توليوس Servius Tullius عند الرومان) وبين الطغاة المتأخرين الذين اجتهدوا فى عرقلة سبيل حياة المدينة، وأرجعوا الشعب «إلى الأرض ثانية». إنهم يجيئون فى التطور بعد ذلك بكثير . وفيما يخص الجلسات الممتدة طوال اليوم أنظر الأوديسة ١٢ — ٤٣٩ إلى ٤٤٠ .

اليوم بالقانون الجنائى . فقد قصد أسخيلوس من كتابه « المحادثة الثلاثية » ، أن يظهر لنا مقدار تقدم روح البشرية العظيم الذى تجسم فى محكمة المدينة الجنائية الأولى . ولكننا قد اعتدنا عدالة الدولة كثيراً حتى أننا لنؤثر القتل على المحاكمة — أجا ممنون على ايومنيدس — ونظن أن درسه أفضى إلى نتيجة عكسية . وبعد، فليس من العسير معلداً على الرجال وقد توصلوا إلى الفكرة، أن يوافقوا على أن يقدموا المنازعات البسيطة حول ما يخصنى وما يخصك ، أمام الكينوسى أو ديوسيس . ولكن عند ما تراق الدماء ، أو ترتكب المحرمات البدائية، فإن الأمور تأخذ مجرى آخرا. فهناك خواطر لا بد أن تهدأ وأشباح تسترضى ، ومذاهب وطقوس تمام ، قبل أن يكفر عن هذه الخطيئة . وثم عرف ظل أجيال طويلة ولم يجرؤ حتى أبولون على تخطيه ، يدفع بيت القتيل إلى ضرورة الأخذ بالثأر — العين بالعين والحياة بالحياة .

فإذا ما حدث الاعتداء فى نطاق أسرة ما كان للأسرة أن تتصرف فيه بنفسها ، وبحسب ما لديها من وسائل خاصة . وقد سارت «ولاية الأب» فى اليونان كما فى روما جنباً لجنب مع ولاية القانون طوال عهد الدولة المدينة ، وكما هو قائم إلى الآن فى الصين. «لا تقرب الزنا »، لم يكن هذا النهى فى اليونان كما هو عندنا مجرد شىء يرجع للضمير ، أو هو قاعدة خلقية مخالفتها لا تعنى القضاء مباشرة، ولكنه كان قانوناً . وهذا القانون لم تسند الدولة أو تجبر عليه. لقد كانت المدينة قليلة التدخل فى شئون الناس الداخلية ، حتى أن شعارها « إنك لن تقتل » ، لم يطبق أبدا على الأجيال الناشئة ، حتى ولا فى أثينا المستنيرة [١].

ولكن إذا لم يكن القاتل أحدنا فكيف يكون تصرفنا معه ؟ فهو خارج عن نطاق أسرتنا « وإخوتنا » ، فلم يقم قط بيننا وبين قومه رباط قانونى أو عادة مشتركة فإرتكابه جريمة قتل ، خلق حالة حرب ، فلسنا أعداءه هو فحسب بل أعداء قومه كلهم إذ هم يشتركون متضامنين فى مسئولية ما اقترفه

---

(١) فيما يخص قائمة الحقوق التى أوجدت سلطة الأب Patria Potestas أنظر فوستل دو كولانج (طبعة ١٩٠٦) ص ٩٨ . وقد اندثرت ببطء شديد فى روما أكثر منها فى أثينا ، أو بالأحرى فى اليونان عموما. أما فيما يخص الصين فانظر الملاحظة التى جاءت فى آخر هذا الفصل.

من إثم. وقد كانت حربا حتى نهايتها المريرة تلك التى قامت بين أورسينى وكولونا ، وبين منتاجو وكاپوليت. ومفروض أن تستمر بينهما حتى يكفر عن الجريمة ، (والدين يظل إلى الأبد يتراكم) ، أو إلى أن يقضى على أحد الطرفين. إن ضحايا الأجيال الغابرة تبقى ، فتولد أبناؤهم وفى عروقهم دم الثأر ، مثل أرستوس . « لقد أكل الآباء الحصرم فتضرست به أسنان الأطفال » .

وقد جاهدت الروح اليهودية مدة طويلة جهاداً قاسياً ضد فكرة المسئولية الجماعية . وكتب أسخيلوس (الذى كان هو الآخر مصلحاً فى زمنه) « المحاورة الثلاثية » ليختلع تلك الفكرة نهائياً من رؤوس الأثينيين . ولكن لم يكن من السهل أن « تحول الشياطين » إلى آلهة رحيمة ، وأن تقودها فى موكب إلى مسكنها الجديد تحت الأريوباج ، فالمحكمة الجنائية على تل أرسى لم تنشأ فى يوم. وهذا الاختراع العظيم الذى تمتاز به أثينا أولى المحاميات، كان ثمرة (مثل معظم الاختراعات) لتطور طويل شاق ليس لدينا منه إلا لمحات متناثرة . وقد انقضت قرون قبل أن تتلخص الروح اليونانية من وحشية الأخذ بالثأر .

وما الإلياذة إلا قصة ثأر ، وهى كما يصفها هيرودوت حادث ضمن سلسلة طويلة من حوادث الانتقام بين القبائل المتنافسة . ولكنها قصة اليونان وليست قصة كورسيكا وتعطينا ، كما يبين لنا جلبرت موراى ، لمحات عن كيف أن القصة قد عمرت طويلا . ونستطيع أن نشعر بنسمات الانسانية تهب لتطهر الجو من روح الأخذ بالثأر . فقد وصلنا إلى مرحلة من التقدم لم تعد العشائر تحارب حتى « تجتث أعداءها جذوراً وفروعاً » على حد التعبير الرومانى ، ولكنهم كانوا يرتضون صلحاً بعد تحكيم شريف عادل . ويمكن أن نرى فى تلك الاحتفالات التى تقام عند الصلح وإقامة السلام حيث يقبل كل جانب فى احترام وتسامح العادات الصالحة التى يستمسك بها خصمه — نرى فيها بداية القانون الدولى، شكلا وروحا. فى كل الجماعات فى جميع العصور يقل تقدير الناس واحترامهم للقوانين فى الوحدات الكبيرة عنه فى الجماعات الصغيرة ، ويكون التقدم بأن نجعل روح الجماعات الصغيرة بآرائها وعاداتها

المناسبة ، تغير من الجماعات الكبرى وتلهمها . فإن الإيمان وشرب الأنخاب والأضاحى والحفلات التى فى الإلياذة ، كلها احتفالات عائلية انتقلت إلى ميدان أوسع ، كما هى الحال فى مجلس الصلح بين أخيل وأجا ممنون . فالاثنان لم يولدا أصدقاء ، ولكنهما صارا كذلك . فما الذى جعل منهما صديقين ؟ يرجع جانب من الفضل فى ذلك إلى العشاء المشترك ، أو القربان المقدس فى الوجبات العامة.. فقد أكلا سوياً ، فلن يشعرا بالمرارة ولا بسوء التفاهم ، ولن يعود أحدهما يسىء إلى الآخر بتلك القسوة من جديد ، مثلهما فى ذلك مثل المتنافسين السياسيين . تلك هى المصالحة بين الشارى والبائع فى أسواق الشرق، عند ما يصلان إلى الاتفاق على الثمن بعد أخذ ورد طويلين مليئين بالكذب والنفاق — أو ما يسمى عند اليونان المحدثين « سمفونى » . ولكنه أكثر من ذلك ، هو الشعور بأنهما صارا « أعضاء ، كل فى جسم الآخر » ، وأفراد من كل أكبر . وإن الكلمة التى نترجمها « بصديق » أو شخص « عزيز »، تلك الكلمة التى كان يستعملها اليونانيون فى احتفالات «التعارف»، لها معنى أعمق وأوثق صلة بالنفس. فهى لا تعنى «صديق أو عزيزى»، ولكنها تعنى « ملكى » . فعند ما يتكلم أحد أبطال هومر عن « ركبتيه العزيزتين »، وعن «روحه العزيزة »، فهو لا يتكلم كما يقول بتكلف « يارأسى المسكين » ، بل يقصد أن يقول ركبتيه التى له نفسه أو روحه ، كما نقول نحن عنها « قريبة منه وعزيزة عليه » — « وهى «تقريباً الأشياء الوحيدة التى تبقى له إذا ما ناضل وضعاً ميئوساً منه . وكما يقول كاتب عصرى إن «رجل هومر يسمى زوجته أو منزله « عزيزا » ، « لأنهما ملكه وليس لقلبه وعواطفه دخل فيهما». ولذا فإن هومر عند ما أراد أن يستعمل كلمة «عزيز» بالمعنى الذى نعرفه ، اضطر أن يكون دقيقاً فيقول « عزيز على قلبى » . فالغريب إذن لا يصير عزيزاً ، إلا عند ما يصير جزءاً من جماعة الرجل الخاصة بعد تأدية طقوس دينية ، أو إذا ارتبط معه ببعض الاتفاقات. وعلى هذا فإن هكتور وأخيل « صديقان » لفترة ، اتفقا قبل مبارزتهما بخصوص التصرف فى جسم

الضحية منهما . وبإدخال صور السلام هذه على عادات الحرب ، أصبحت أيام عادة الأخذ بالثأر معدودات[1] .

ولنرقب الآن تواريها . إن المقاومة الأولى التى صادفتها لم تكن إيجابية بل سلبية . ففى يوم من الأيام عند ما لجأ قاتل إلى أهله ، تجرأ يونانى على أن يصرخ مستفهماً « هل أنا حارس أخى ؟ » فأصغت العائلة إلى هذا النداء ، وفكرت فيه ، ثم رفضت أن تخف للحرب قائلة : فليعان نتيجة فعلته ، وكما أخطأ وحده يجب عليه أن يقابل أعداءه وحده . وهكذا أوصدوا الأبواب دونه ، ولم تأخذهم به رحمة وتركوه لما هو مقدور عليه . وبذا لم يبق له سوى أمل واحد — محكمة جديدة عادلة غير متحيزة .

ولكن الأمر يتطلب شيئاً آخر لدفع رجل القبيلة نحو هذه المرحلة ، إلى التقدم « والكفر بتلك التقاليد » . وكان ذلك هو ظهور نظرية دينية جديدة ، هى الفزع « المادى » من الدم نفسه ، ومن عدوى ذنب إراقته . وهذه فكرة جديدة لم نجدها فى أشعار هومر . فتلماخوس فى طريق عودته إلى

---

(١) الألياذة ٧ — ٣٠٢ و جلوتز Etudes ص ٢١ — ٢٢ ، وفى الألياذة ٩ — ١١٥ نرى أن أجا ممنون لم يكتف بأن يمنح أخيه « تعويضاً » ماديا « غير محدود » بل كان على استعداد أن يعوضه بكل سخاء عن « الخسائر المعنوية والعقلية » بأن « يبوح له بكل ما فى نفسه » ، (كما نعبر عنه لغتنا تعبيراً واضحاً) . ἀασάμην (الإلياذة ٩ — ١١٦ ، ١١٩) ، تحتاج هذه الكلمة إلى لفظ قوى يظهر معناها جلياء بالنثر الإنجليزى السهل . أما فيما يخص الإلياذة عند هيرودوت وأنظر الجزء الأول الفصول ١ — ٤ . فمقالته التى تنتمى إلى القرن الخامس لا تستطيع أن تدرك إصرار الناس على الأخذ بالثأر فيما يتعلق باختطاف أيو (Io) ومبديا وهيلين لأنه « من الواضح أنهم لم يكونوا ليختطفوا لو لم يكونوا يرغبون فى ذلك » . ومن الطريف أن نلاحظ الاستعمال الذى استمد من الصور التى تعطيها كلمة « معزة » (φιλότης) فى مناقشات الحرب البلوبونيزية . وقد كانت العلاقات الطبيعية بين أثينا وحلفائها هى علاقة الزمالة ، كما ورد فى المرثية (٢ — ٤٠ — ٤) . فمن المنطق والعدل إذن (ما داموا قد قبلوا أثينا كرأس العائلة) أن يعاقب الثائرون من أهل ميتيلين بمنتهى الشدة التى يملكها « الطاغية » أورب البيت . وهكذا كان يجادل كليون منبعاً وجهة نظر كثير من السادة الذين سبقوه والذين جاءوا بعده (٣ — ٤٠) . ويتهرب معارضه ديودوتوس كل التهرب من الحجج الخلقيه والتقاليد القانونية الخاصة شئون البيت ، ويناقش فقط لباقة هذا العمل المقترح واقتضاءه من الناحية العملية . وقد كان حديثه بعيداً عن الورع ، ولكنه مع ذلك مستنير للغاية . والشىء الوحيد أنه ليس ساخراً (كما يبدو من أول نظرة) .

الوطن من اسبارطة، أنزل معه فى السفينة قاتلا كمسافر دون أن يرى فى ذلك ما يدعو إلى تأنيب الضمير . وسرعان ما اعتبرت هـذه النظرية كغيرها من المذاهب الجـــديدة الكثيرة ، وبخاصة فى دائرة الدين ، مناسبة من الوجهة الاجتماعية ، وآمن بها الناس بشكل جدى من الناحية الأخلاقية . وإنا لنقرأ قصة أوديب ونفـكر فى الملك الشحاذ المدنس، الذى أجهد سوفوكليس نفسه لإظهار حسن نياته كشخص بدائى راح ضحية خرافة غير معقولة ، كما كان يعتقد بعض اليونانيين المتأخرين . ربما تكون هـذه بدائية بالنسبة لنا ، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لليونان. فاليونانيون الأول الحقيقيون، أى رجال هومر الذى ذكروا فى الإلياذة، عاشوا كثيراً فى جو القتال والخطر فلم يعودوا يشعرون بالاشمئزاز من رؤية الدم المراق . فالأحداث التى تقع كل يوم فى عصر ما ، تنقلب إلى قصص خيالية فى العصر التالى . وديرودوت وجمهوره فى القرن الخامس كانوا مغرمين كرجال الإلياذة بسماع قصص القتل ، ولكن فى القصص التى كان يقصها عليهم ، كما هى الحالة فى ألف ليلة وليلة ، لم يكن من المنتظر أن يشعر القتلة بالتأنيب ، لأنهم لم يوجدوا فعلا . لقد نسى الناس تماما أن أوديب فى أقدم رواية ، لإحدى قصصهم المحببة إليهم ، قتل أباه وتزوج أمه ، وحتى بعد أن اكتشف هذين الأمرين الفظيعين سمح له بأن يواصل العيش بين مواطنيه، وأن يستمر فى حكم طيبه[1].

---

(١) الأوديسة ١١ — ٢٧١ وما بعدها (الروايه الأولى لقصة أوديب) : الأوديسة ١٥ — ٢٢٢ وما بعدها وخاصة فقرة ٢٥٧ (قبل أن تنشأ فكرة جريمة القتل) : هيرودوت ٣ — ٥٠ إلى ٥٣ (قصة عن تشبثها بالبقاء). فيما يتعلق بتصور جريمة الدم (كان أول نشأتها حسب وأى جلوتز Etudes ص ٣٩ ، فى النصف الثانى من القرن الثامن) . انظر ڤيلاموفيتس فى مقـدماته لترجماته لإيوميئيدس وأوديب الملك . فى مقدمة الأخير أوضح كيف أن «سوفوكليس المتمسك بالدين» ، على خلاف رجال الفكر فى عصره ، يتعصب لفكرة جريمة القتل التقليديه ، ولكنه يؤكد فى كل مايقصد براءة وصفاء مشاعر أوديب على طول الخط وفى جميع التفصيلات. وهنا بالتحديد نقطة المأساة ، فشكل سوفوكليس تنصب على مسألة المعاناة ، على حين أن مشكلة آخيل هى الخطيئة . إن التعود على رؤية سفك الدماء يمكن أن يؤدى إلى جمود الحس وإنعدام الشعور ، حتى بين رجال نشئوا فى وسط متمدين ، كما يتبين لنا ذلك عندما نقرأ عن الأعمال الحربية أو أخبار الاستكشاف . فلم يكن ثمة شعور بجريمة القتل عند هؤلاء الأوروبيين.

وبين قصة أوديب القديمة هذه ، وقصص هيرودوت القصيرة المرحة الصريحة، يقع عصر الجرائم الذى تقاث فيه جريمة إراقة الدم على نفوس الرجال ، وأوحت إليهم بما يشبه الانقلاب على القاتل والقتل . لقد لوثوا أيديهم بدماء بشرية لا تقوى كل عطور بلاد العرب على إزالة آثار الجريمة منها . فيجب أن يفصلوا من أجلها عن حياة الناس العامة إلى أن تجد لهم الآلهة مخرجاً ، وتطهرهم من آثامهم تطهيرا . وانا لنعرف هذه الدرجة من الشعور بالنسبة للجرائم التى ترتكب ضد المجتمع ، لأن ذلك لا يزال قائماً بيننا منذ عصورنا الوسطى ، وليس من الصعب أن نشير إلى جرائم لا يزال المجتمع يحتفظ لها بالأجراس والكتب والشمع ، من العهد الاقطاعى . وهى فى جملتها معيبة ، لكنها فرادى لا تستحق أدنى لوم فى ذاتها . وتفكيرنا الحديث يرى أن التحريم نظام وحشى بعيد عن المدنية ، ولكنه مع ذلك أرقى وأكثر

= الذين تستخدمهم شركات بوتومايو لجلب المطاط ، فلابد أن كثيرا منهم قد « رجعوا » إلى مستوى من يقاومونهم من المتوحشين . فهذا ، مضافا إليه ما اكتسبناه من العادات الفكرية من طول إقامتنا فى بلدنا المتمدين ، قد يثير مصاعب خطيرة بالنسبة للسياسة الاستعمارية التى تتبعها الدول الديمقراطية الحديثة . إنه لأسهل على الذين يعيشون فى المدينة أن يروا المناطق المدارية خلال رواية مبهمة (يقرأونها) فى كتاب القصص ، عن أن يعملوا فكرهم فى الحقائق بأنفسهم . وهكذا الميل إلى القصص العنيف المثير يزيد الأمر صعوبة على الديموقراطية المتمدينة أن تحكم ، امبراطورية غير متمدينة حكما عادلا ، وكلما حسنت الرواية الخيالية زادت الصعوبة شدة . وقد كان ذلك حقيقة فى روما بالنسبة لكتاب تعليقات قيصر (Commentaries) رغم أنه لم يكن قصة خيالية ، بل أغلب الأمر أنه كتب عمداً من أجل « الرجل الذى يعيش فى الفرندة الإيطالية » . وكما هو الحال بالنسبة لرواية « الجنود الثلاثة « Soldier, Three » وكنوز الملك سليمان » . وخير الروايات الدامية التى رواها هيرودوت هى « رامبسنيتوس (Rhampsinitus) واللصوص ، وهى قصة قتل أخوه وتشويه ، ومقابلات فى منتصف الليل ، تنتهى بزواج البطل بابنة الملك . وهى قصة هامة من حيث أنها تبين أنه حتى المستمعين المثقفين لهيرودوت ، كانوا غير مرتاحين للجثث التي لم تدفن ؟ فقتلك أخاك أمر عادى ولكن أبسط ما يجب عليك هو أن تقوم بدفنه . فهل هناك ثمة تشابه فى مجال تفكير القارىء الحديث ؟ ربما لا ، إذا ما عولج الأمر بشىء كثير من عدم الحدبة والاهتمام . وكذلك لقصتى « رامبسينيتوس واللصوص » أهمية أيضا ، إذ ترينا نواة القصص البوليسية الحديثة . ولكن جمهور هيرودوت لم يكن قد وصل بعد إلى الحد الأقصى من السفسطة والتوقر الذى بلغه سكان مدننا الحديثة ؟ إذ أن شعورهم الطبيعى وعطفهم كان فى جانب اللص ، الذى يحبط لهذا كل المجهودات التى تبذل لضبطه .

إنسانية مما حــل محله . وفى الطريق البطىء الذى تسلكه الجماعة لتحديد المسئولية الشخصية ، مرحلة يكون من الأنسب فيها أن يموت الفرد فى سبيل الشعب ويبقى الشعب حياً لا يموت[١] .

ولكن إذا كان تصور الجريمة من ناحية الطقوس الدينية جائزا فى مرحلة معينة ، فهو كما سنرى بعد ، لا يزال بعيدا عن النواحى الأخلاقية . وليس من المستغرب أن تؤدى حتما بسهولة فى ذلك الوقت ، كما هو الآن ، إلى ورع لا شك فيه ، وإلى سفسطة الكهنة والمنجمين . فإذا أظهر لنا « أجا ممنون » شخصية النبية كاسندرا « الموصومة والبريئة التى ارتعدت خوفا من أبهاء ابن اترس الملطخة بالدماء كما ترتعد من القبور ، فإنه يخبرنا أيضاً عن النبى كالخاس الذى قتل أو بالأحرى ضحى بإيجينيا . وقــد أورد توكيديدس مثلا لهذه الطقوس . فالكمايون ابن أمفياراوس قد قتل أمه فزوده أبولون بنصيحة تصونه من الانهيار . فكان عليه أن يبحث فى اليونان كلها عن أرض لم تشرق عليها الشمس وقت ارتكاب الجريمة . وقد كان من الذكاء بحيث استطاع أن يحل اللغز واستقر وعاش فيما بعد سعيدا كملك على الأونياد عند السهول الغرينية الجديدة عند مصب نهر أخيلوس . وحتى هيرودوت نفسه كان أكثر مرحا ، فيخبرنا عن رجل فى فريجيا وصل إلى بلاط « قارون » بيدين مدنستين ، فقد ألمت به كارثة عائلية . فقال « أيها الملك — إنى ابن أحد أصدقائك ، اضطررت أن أرحل عن وطنى لأنى قتلت أخى » فأجابه الملك « لقد أتيت أصدقاء ، ولن تحتــاج إلى شىء وأنت بينهم ، فخفف عنك ما استطعت وستجد نفسك أحسن حالا[٢] .

(١) انظر وجهة النظر هذه التي أوضحها والد كايتمنسترا Clytemnestra العجوز المحترم فيما يتعلق بقاتلى أجا ممنون المعروفين فى يوربيدس .Or ٥٠٠ . إن مسلك أورستيز القويم كان أن يطرد أمه أما أن يقتل ابنتها الوحيدة فلم يزد الأمر إلا سوءا . التحريم : سوفوكليس O. T. ٢٣٦ ثم انتيجون ٢٠٣ . وهو يصدر بالتأكيد من الدولة لا من الكنيسة .

(٢) توكيديدس ٢ — ١٠٢ وهيرودوت ١ — ٣٥ ولم تعرف الأوديسة (١٥ — ٢٤٧) شيئاً عن جولات ألكمايون . وأسخيلوس .Ag ١٣٠٩ ، ١٣١١ ، ١٢٢ إلى ٢٠٩ ، أنظر أيضاً ليف Leaf فى كتابه « هومر والتاريخ » (Homer and History) ص ١٦٥ مع خريطة تبين سهول نهر أخيلوس .

ولكن ليس كل الناس مثل ألكمايون فيما واتاه من الحظ ، فيغسل عن نفسه أثر تلك الفعلة ويجد مأوى من قاتليه . فإذا ما تنازل أهل المقتول عن ثأره فذلك لا يعتبر تكفيرا عن الذنب فالثأر قائم ولكن الأمر صار حربا ضد فرد واحد بدل أن يكون ضد قبيلة بأ كملها .

وهنا يبدو أن الدولة المدينة وحكامها قد تدخلوا عند هذه النقطة لأول مرة بشكل حاسم ، فى الأمور الجنائية . ونحن لا نعرف كثيرا عن التفاصيل ولكن اكتشفت وثيقة هامة أزاحت الستار عن الدور الذى قام به هؤلاء الحكام الأول فى محاولتهم النهوض بمسئولياتهم . هذه الوثيقة تحوى أولا ، لائحة نعرفها ، لدولة المدينة « عن إنصاف المظلومين » — وهى أصل تلك النظم التى تكلم عنها بركليس فى أثينا . وهذه الوثيقة نص محفور على لوح رقيق من البرونز اكتشف فى أولومبيا عام ١٨٨٠ . وهو : « السلام والطمأنينة لأرض الوطن والأسرة وسلع الملعونين . إذا أصدر شخص إشهارا مقدسا ضد أى رجل من (إليس) ممن يتمتعون بالحقوق المدنية ، وفشل الحاكم الأعلى والملوك فى أن يطبقوا وسائل العدالة فيجب على كل من وقع عليه اللوم أن يدفع عشر مينات إلى خزانة زيوس الأولمبى المقدسة » . ثم يلى ذلك بعض تفاصيل صعبة القراءة . ويختتم النص بهذه العبارة « هذا اللوح مقدس فى نظر الآلهة فى أولمبيا [1] » .

ولا يزيد طول هذه الوثيقة على عشرة أسطر ، ولكن كل كلمة « دورية » غامضة فى هذا النص ذات قيمة . فهذه دولة إليس تحمى أى « الكمايون » وأى « أورستوس » فى شعبها ، وتقرر عقوبات على حكامها إذا لم يتمكنوا من أن يكفلوا له محاكمة عادلة . ومن هؤلاء الحكام واحد يشغل وظيفة ديميورجوس δημιουργός أى عامل عام . وهو نفس الاسم الذى يطلقه اليونانيون

---

(١) « لقد جمعت القوانين لخلاص الذين هم مضطهدون وضمت الى القوانين غير المكتوبة » فى توكيديدس ٢ — ٣٧ — ٥ ، (إن استعمال المضارع هنا قد حير بعض الشراح) . وفيما يخص نص أولمبيا والتعليق الكامل عليه أنظر جلوتز فى Solidarité ٢٤٨ وما بعدها .

القدماء على الصناع عندهم ـــ كالحداد الذى يزود المدينة بحدوات الخيل، والفخار الذى يمدها بما يلزمها من أوانى للماء . فهذا النص يفسر لنا لماذا نجد حاكما فى مثل هذه الجماعات . وهو أيضا رجل يقوم بالخدمات العامة التى تتعارض مع الخدمات الخاصة ، هو يأخـــذ جانب الدولة ضد القبيلة والعشيرة . وقد بقى هذا الاسم كذكرى لخطوة عظيمة إلى الأمام فى الحياة السياسية اليونانية [١] .

ويقول العالم الفرنسى الذى نأخذ عنه هذا « التفسير» إن لهذا النص قيمة لا تقدر ، لا من جهة دراسة القانون اليونانى، ولا من جهة دراسة القانون المقارن فحسب ، ولكن لأهمية مكانته من تاريخ الأفكار الأساسية التى تقوم عليها الجماعات الحديثة . ولما أن وصل رينان مؤرخ بنى إسرائيل العظيم فى تاريخه إلى نقطة الإصلاحات التى نص عليها القانون العبرى عام ٦٢٢ ، بعدما أكد الأهمية الكبرى للمادة التى ألغت قانون عقاب « البديل » ، إتجه إلى اليونان يسألها عما كان عندها فى ذلك الوقت من قوانين تقابل به فجر العدالة الذى بزغ نوره على بيت المقدس. وما كان لليونان أن تخجل من مواجهة المقارنة، فهى تستطيع الإشارة إلى قانون دراكون الذى كان ، بكل ما يحويه من تشدد مع الأفراد ، خطوة فى طريق التقدم . وتستطيع أن تشير إلى جانب

---

(١) فيما يخص كلمة δημιουργοί ديميورجوى « كحكام » ، انظر توكيديدس ٥ — ٤٧ — ٩ و ١ — ٥٦ — ٢ ، ثم I. A. G. ١١٣ ، ٤٧١ ، ٥٤٤ وخاصة ٥٠٦ ، حيث توصف امرأة بتلك الكلمة ديميورجوس δημιουργός فى (اسبندوس) فى القرن الثانى ق — م . وفى موسوعة Pauly قائمة كاملة . وقد اشتقت كلمة ديميورجوس من ديميوس δήμιος بمعنى « عام » ولست من δῆμος أى « الشعب » . إن التفرقة بين الواجبات العامة والخاصة كان أمراً معروفا عند اليونان فى ذلك العهد، ففى الأوديسة مثلا ٣ — ٨٢ (عندما يسافر تليماخوس فى أمر خاص لا فى أمر عام ، أنظر كذلك ٤ — ٣١٤) . والعمال العموميون عند هومر يشملون الكهنة والأطباء والنجارين والمغنيين والشعراء والمنادين ، ولكنه بعد تفكير ، طرح جانبا الشحاذين (الأوديسة ١٧ — ٣٨٣ ثم ١٩ — ١٣٤) . ولكن أهم ذكر للديميورجيين δημιουργοί هو ما جاء فى النص الذى اكتشف فى مايسينا) وذكره ڤيلاموڤيتز فى كتابه .A.A الجزء الثانى ص٤٨)، إذ ينص على أنه حين لا يكون حكام ، يقوم بعض الموظفين الدينيين ἱερομνήμονες بمهام القضاء . إن هذا يوحى بسؤال بديهى ، لماذا لم يمثل رجال الدين كما فى إسرائيل ؟ =

ذلك ، إلى تلك الوثيقة الأصلية من ماضيها ، التى بها يصرح رجال الغرب (ربما كان ذلك فى نفس السنة التى صرح فيها رجال الشرق) ، أنهم لن يسمحوا بعد ذلك أن يعاقب الولد بدل أبيه ، ويعلنون مبدأ المسئولية الشخصية العظيم « أن هذا اللوح مقدس فى نظر آلهة أولمبيا » . نعم هذه اللوحة مقدسة ، لأن قرار حكومة إليس يكون فى وقت واحد مع سفر التثنية حلقة مزدوجة فى السلسلة الذهبية التى تنتهى باعلان حقوق الإنسان [1] ..

ولكن قد آن لنا أن ننتقل من الحقوق إلى الواجبات .

= فيقومون بتأويل ثم بتقنين أو بالإيحاء بالقانون؟ لماذا لم تكن أولمبيا أو دلف كما كان بيت المقدس أو روما فى العصور الوسطى ؟ بدلا من تطور النظم السياسية اليونانية (التى ارتبطت بها طبعاً الديانة الرسمية ارتباطاً قوياً) كلية فى اتجاه دنيوى . إن الفكر السياسى من عهد سولون إلى أرسطو كان أيضاً دنيوياً إذ أنهم كانوا يفضلون الرجل العلمانى على القسيس ، كما كانوا يفضلون أن يفكروا فى هذه الدنيا بدلا من التفكير فى الاستعداد للحياة الأخرى .

(١) جلوتز فى Solidarité ص ٢٥٩ . إن الانتقال من عدالة العائلة إلى عدالة الدولة يجرى فى الصين الآن . وإنه من الطريف أن نسمع على أى شكل يكون فى ربوع قريبة منا . وقد ناقش أحد الكتاب العارفين ، محاكم الدولة الجديدة المقترح تكوينها هناك ، فى مجلة Nation (٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٩) قائلا : « إن السؤال الذى يواجهنا هو : إلى أى حد تتمكن الحكومة من تنفيذ قانون العقوبات فى القرى وأن تمحو من تلك المحاكم الجديدة ضروب مخالفة القوانين التى كان يعالجها فى القرى الشيوخ أنفسهم من أجيال عدة ؟ فشيوخ القرى هم فى الحقيقة حكام ينتخبهم رؤساء جماعات العائلات الذين يعيشون فيها بدون تدخل من الحاكم أو القائد العسكرى فى الأقاليم ، وأحياناً يصدر هؤلاء الشيوخ أحكاماً بالإعدام . ومن رأيى أن هيئة العدالة فى القرية التى تنشأ من سلطة الآباء المطلقة (أو التى تكاد تكون كذلك) على حياة أطفالهم وذراريهم أو موتهم — أفضل من سلطة المحاكم الرسمية . فلو كنت صينياً لفضلت المحاكمة أمام محكمة مكونة من أعمامى وأجدادى على أن أحاكم أمام محاكم مثل محاكم Yamens التى سبق لى أن عرفت شيئاً عنها .

الفصل الرابع

تطور حق المواطن

الرفق أو حكم الدين

(الحكمة σωφροσύνη)

الحكمة عزيزة على،   στέργοι δέ με σωφροσύνα,
إنها أحسن هدية من الآلهة.   δώρημα κάλλιστον θεῶν.

ايوربيدس — ميديا ٦٣٦.

هبنا من لدنك ، يامن جلتنا بحكمة التواضع ،
روح التضحية بالنفس .

(وردزورث)

عرفنا كيف تعلم اليونانيون بالتدريج أن يكونوا مواطنين ، وأن يخضعوا أنفسهم لسلطة الحكام الشرعيين. وعلينا الآن أن نبحث المشاكل والصعوبات التي يتضمنها خضوعهم هذا ، وأن نراقب كفاحهم الطويل فى التخلص من النير الذى ارتضوه ، فهنا قد اكتسبت دولة المدينة النامية خبرة بالصعوبات وفازت بالحنكة السياسية التى طبعت روحها وتاريخها فى القرن الخامس بطابع دائم .

يبدو لنا من تاريخ الدول المتحضرة أنه مامن قسم من أقسام المجتمع، سواء كان ذلك القسم عائلة أو جماعة أو طبقة أو جيشاً أو طبقة كهنوت ، مهما كان مثقفا أو حكيما أو متسامحا أو غير أنانى ، يمكن أن يعهد إليه لمدة طويلة ، بسلطة الحكومة بما فيها من مغريات ، دون رقابة أو مسئولية . وقد تعلم اليونانيون هذا الدرس من ارستقراطييهم المتسلسلين عن زيوس . فهم لم يكونوا ديمقراطيين بطبيعتهم ،كما يقال عنهم غالبا ، بل صاروا كذلك بالضرورة . فالطبيعة والبيئة والتقاليد ، دفعت بهم إلى الإيمان بالمساواة

والإخاء . أما تقدمهم الذى دفع بهم إلى حكومة ذاتية فقد كان بطيئاً وشاقا .

مادامت محكمة ديوسس لم تعد أن تكون محكمة تحكيم ،فقد كان لديه كل الأسباب التى تجعله عادلا فى حكمه . فان لم تكن أحكامه نزيهة عادلة فقد زبائنه الذين يحتكمون إليه ، ولكن لما صارت سلطته ملزمة بدأ الإغراء وأصبحت وسيلة الكفاية أداة للظلم والاستبداد .

لا يمكننا أن نتتبع تفاصيل تلك المرحلة ، ولكننا نعرف نتائجها . فهى مكتوبة بالخط العريض فى تاريخ اليونان فى القرن السابع .فبهذه النتائج وما حوته من أزمات مؤلمة، يبدأ التاريخ القصصى لليونان ، فترفع الستار عما يسميه الشاعر البيوشى القديم العصر الحديدى — وهو جيل من الفوضى والحيرة والارتباك — لم تتلاءم نظمه مع مقتضيات الاتجاه الطبيعى للحياة والأفكار إذ ذاك ، ولم يكن ذلك لأول مرة ولا آخر مرة فى حياة اليونان . ونحن أهل القرن العشرين نعرف جيداً ما يعينه هذا النشاز لأنه موجود فى حياتنا .فهو يعنى ريبة ومرارة من ناحية ،وبؤساً وحنقاً من الناحية الأخرى . ولكن مجتمعنا كبير ومعقد ، وقد تعودنا متناقضاته ، وتعلمنا كيف نسير فى جوه المضطرب . أما فى اليونان فقد كان الأمر مخالفا لذلك . كان على اليونانيين أن يتعلموا أن المجتمع ليس من عمل الفن جميل، وما المدينة الكاملة إلا نسج خيال شاعر . لقد كانوا مفكرين بطبيعتهم محبين للنظام والمنطق ، ولذا جعلوا يبحثون عن الانسجام فى العالم الخارجى ، كما تطلبوه فى عالمهم الداخلى (العقل) . ففى لغتهم « النظام » و «العالم» مدلولا كلمة واحدة بعينها هى كلمة κόσμος . ويقول المبشر الأكبر بهذه النظرية السياسية فى فقرة من أروع فقراته إن « الحب عند الإنسان يتسامى تدريجيا متنقلا من الأجسام الجميلة ، إلى النظم الجميلة ، ومن النظم الجميلة ، إلى الأفكار الجميلة، إلى أن يصعد من الأفكار فيبلغ الجمال المطلق ، وأخيراً يعرف ماهو جوهر الجمال. هذه ياعزيزى سقراط هى الحياة العليا التى يجب أن يحياها الإنسان ». إنها الحياة التى لا يمكن أن

يحلم بها إلا اليونانى القديم . ولكن حتى هو لا يمكن أن يحلم بمثل ذلك فى عصر إنتقال .

ففى القرن السابع كان هذا الوضع كله مضطرباً . فالناس على مفترق الطرق ، كما يشكو أحد الشعراء . فالحق القديم يشير إلى ناحية ، على حين تشير الضرورة التى نشأت حديثاً إلى ناحية أخرى ، وانقسم الناس قسمين فبعض الطيبين اتجهوا إلى سلوك طريق ، والبعض الآخر اتجهوا إلى طريق غيره . ولكن غالبيتهم يقفون حيارى غير سعداء ، يبحثون بلا جدوى عن دليل حى يرشدهم . بينما يتربص قطاع الطرق بكل جماعة فى مأزق ، فينحدروا إلى أسفل التل يسلبون القافلة من كل شىء تعزه . إن آمال المخاطرة بأكملها فى خطر ، وليس إلا شىء واحد يمكن أن ينقذها ويصل بها إلى نهاية سليمة — وهذا هو تدخل إله من الآلهة [١] .

وفى أثناء انتظارنا للعون الإلهى ، فلنلق نظرة فاحصة على الجماعة حولنا . إن حكم سلالة زيوس الذى طال أجيالا عدة قد قسم المدينة قسمين . ومن المهم أن نكون على بينة من الناس فى كل قسم . هذا التقسيم لم يكن نبلاء وغير نبلاء ، أو « بطارقة » و « وبلبيين » ، فإذا كان ذلك كذلك ، لانهزم النبلاء ، ولنزلوا إلى الحضيض . فليسوا من الغنى ولا من كثرة العدد ما يجعلهم يحافظون على بقائهم . ولم يتعادل فرسانهم مع طائفة لابسى الزرد البرنزى من مشاة المدينة . ولا هو بالتقسيم المعهود بين غنى وفقير — الغنى يصبو إلى الأمن والاستقرار ، والفقير يصبو إلى الثورة ، لأن الأغنياء فى هذه الحالة هم الراديكاليون ، بينما الذين يسمون أنفسهم فقراء هم الذين يرفعون صوتهم ضد التغيير . فالتقسيم فى الحقيقة لم يكن بين الثروة والفقر ولكنه بين الشكل

---

(١) Theognis ٩١١ (مفارق الطرق — وعلى أية حال لقد غيرت « اللافتات ») . أفلاطون Symp. ٢١١ (عند أفلاطون « أحسن حياة » هى التى تسمو على مستوى « أجل النظم والأسس » . وقد كان ذلك نتيجة عن كونه قسيساً أعظماً ، لا عن أنه رجل سياسة) . ولم يذكر توكيديدس شيئاً عن تلك الأزمة فى مقدمته ، فهى لم تكن جزءاً من موضوعه . كذلك لم يذكر مؤلف The expansion of England شيئاً عن البؤس الذى جره الانقلاب الصناعى .

الجديد والشكل القديم فى الثروات ، أو بين القرية والمدنية ، لأن هذا وذاك شيء واحد فى الغالب .

وقد أخذت الثغرة بين القرية والمدنية تتسع وسط الجماعات التقدمية طيلة العصور الوسطى . ففى كل جيل كانت الهوة بين العائلات التى اتبعت ديوسس إلى المدنية ، وبين العائلات التى تخلفت فى القرية ، تزداد اتساعا ، وكان هزيود يكتب لعالم ، ويكتب شاعر الألياذة لعالم آخر .

وكان رجال مدينة إيثاكا يسمون أنفسهم رجال المدينة (δῆμος أو ἀστοί) . بينما كان جيران هزيود يعدون خارجين أو غرباء ، أو كما سمى الرومان فيما بعد ، رجال القرى عندهم « باجانس Pagans » . أما الاسم اليونانى الذى أطلق عليهم فهو « السكان حول المدينة » « بريويكى περίοικοι » . ولما كانوا محتقرين من كل العناصر المتقدمة فقد انزووا فى عالمهم القديم ، أى قراهم ، وانحدروا إلى حال من الانحطاط والتبعية . ولما ابتدأ التاريخ ، لم يكن معظمهم عبيداً بمعنى الكلمة ، وإنما كانوا فى « حالة الخدمة أو فى مقام له خصائص الرق » ، وهو التعبير المستعمل فى جنوب أفريقيا ، والمناسب هنا[١] .

ولا يمكن هنا أن نتتبع مراحل تدهورهم المتعددة ، ولكن يبدو أنها كانت واضحة وسريعة جداً فى الجماعات التى تعتمد كثيراً على نظام حربى وخاصة فى دويلات البلوبونيز الدورية — فالدوريون فى نظر اليونانيين فى القرن الخامس ، كانوا يمثلون المحافظين على تقليد عسكرى عظيم . وليس من الممكن الجزم بأنهم نسلوا من قوم أشد صلابة من غيرهم من الهيلانيين . وإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن نسلم بأن بعضاً من أعضائهم المنعزلين ، وخاصة فى الغرب ، قد أظهروا علامات انحطاط وتدهور . ومن المؤكد

---

(١) أنظر تعبير هومر δῆμος τε πόλις τε (مثل الأوديسة ١١ — ١٤) . أنظر سولون ٢ (طبعة هيللر) سطور ٦ ، ٧ ، ٢٣ (ἀστοί ثم δήμου ἡγεμόνες النبلاء والزعماء الشعبيون فى جانب ثم πενιχροί أى الصعاليك فى الجانب الآخر) .

أن الظروف قد أيدت هذا الميل الطبيعي، إن كان حقا كذلك، للجماعات الدورية الكبيرة التي استقرت في البلوبونيز. لقد كانوا آخر القادمين من المهاجرين، وظلت ذكرى جماعاتهم كهيئة محاربة شقت طريقها إلى اليونان، حية في عقولهم. فالاجتماع القديم للرجال المتساوين والمحاربين المدربين، في الأجورا أو السوق، وهو الشكل الوحيد الذي يظهر عليه القوم في الإلياذة، قد ظل قائماً في العصر الإقطاعي، وتحول في نهايته إلى اجتماع ديمقراطي. أما في اسبرطة خاصة، فقد ظلت التقاليد العسكرية قوية، فأرستقراطيوها لم تكن لهم قدم ثابتة في الحكم، والمشاة من جنودها هم أول من استرجع امتيازاتهم عندما جاء عصر الانتقال. ونحن لا نعلم متى تجمعت القرى الخمس التي أسست مدينة لاسيديمونيا غير المسورة تحت حكم تايجتس. ولكنهم سرعان ما أحسوا بتفوقهم على المستعمرات المنتشرة حولهم. ودفعهم الخوف من القحط في واديهم الضيق، إلى سبيل الغزو منذ البداية. وكما فعل الرومان كانوا يعدون حدودهم سنة بعد سنة، فيقسمون الأرض بعد استيلائهم عليها بين عائلاتهم. «فاميكلاي» التي تقع على بعد أميال قليلة في أسفل الوادي كانت «ڤايي Veii» بالنسبة لهم، ثم تأتي بعد ذلك هيلوس القريبة من البحر، ثم يلي ذلك سهل مسينا الغني على الجانب الآخر من نهر تايجتس. وفي النهاية، في بداية القرن السادس استولوا على الشاطئ الشرقي من لاكونيا. وبعد ذلك لم يكن أمامهم إلا الشمال. إلا أن تقدمهم قد وقف طويلا هناك على حدود أركاديا الجبلية. وعند منتصف القرن السادس تبينوا أنهم قد «قضموا أكثر مما يستطيعون مضغه»، فتركوا البحث عن أراضي جديدة تكفل للجنود طعامهم وتحفظ عليهم قوتهم[1].

ولكن أهل مدينة لاسيديمونيا لم يكونوا الوحيدين من المدنيين

---

(١) الدوريون إذا ما قورنوا بالأيونيين قوم رحل إلى حد كبير. أنظر هيرودوت ١ — ٥٦ فلا تزال لديه تفصيلات. توكيديدس ἐκ παλαιτάτου ηὐνομήθη
١ — ١٨. (أنظر التذييل).

المحاربين الذين جعلوا من القرويين أتباعاً لهم ، وإن كانوا بدون شك أكثر الجميع نشاطا فى العمل . والنظام الذى وضعوه أدوم النظم وأكثرها وحشية. وقد كان هناك فى معظم الدول اليونانية الناشئة فى آخر العصور الوسطى « غرباء » ، تختلف أسماؤهم وأصولهم وتواريخهم دون شك . فأرجوس أولى جماعة الدوريين ، قد فرضت سيادتها على تلك المناطق ولم تقتصر فى ذلك على قرى سهلها بل فرضت سيادتها أيضاً على مدينة مايسنا الواقعة على التل ، وهى العاصمة القديمة لهذا الإقليم ، وعلى كليوناى وهزيا عبر الحواجز الجبلية . وقد أطلق الأبيدوريون على السكان حولهم اسم « ذوى الأقدام المغبرّة » ، وأطلق السيكيونيون على السكان حولهم اسم « حاملى الهراوات أو ناسجى القمصان » ، كما أطلق أهل كورنث على الغرباء حولهم اسم « لابسى أغطية الرأس المصنوعة من جلود الكلاب » . وقد كانت كريت وتساليا ودلفى وهرقليا ، من مدن تراخس ، لها قراها التابعة لها ولكل لقب مناسب . وفى أتيكا نرى من أولى صفحات دستور أثينا الذى وضعه أرسطو ، أنه عند ابتداء تاريخنا المفصل — « كان الفقراء عبيداً للأغنياء ، وكانوا هم وأولادهم وزوجاتهم يسمون « بالموالى وأصحاب السدس » ؛ لأن ذلك كان أجرهم نظير العمل فى حقول الأغنياء ، وكانت الأرض ملكا للأقلية »[1] .

---

(١) أنظر فالون Wallon فى Hist. de l'esclavage dans l'Antiquité (الطبعة الثانية باريس ١٨٧٩ وهو كتاب شامل ، ولكنه قديم فى طريقة معالجته الموضوع) ، الجزء الأول ص ١٣٠ — ١٣٤ — فيما يخص المصادر لهؤلاء κονίποδες ثم κορυνηφόροι ثم κατωνακόφοροι ثم κυνόφιλοι . . الخ وما فى مصافهم فى مناطق المستعمرات اليونانية ، وما نعرفه عنهم لا يزيد إلا قليلا على معرفة أسمائهم الخاصة التى كانت تسلية للغويين المتأخرين . أما فيما يخص « Orneates » كاسم عام للبريويكى فى أرجوس فانظر هيرودوت ٨ — ٧٣ ، وربما اتخذ ذلك الاسم لأنه كان أول مكان مهم أخضعه الأرجيون ، وربما اشتق اسم الهيلوت من Helos بالطريقة عينها . ويؤكد ما ير فى تاريخه ، الجزء الثانى فقرة ٣٥٥ (أنظر فقرة ١٧٦) وبنوع خاص ، يؤكد الحقيقة بأن مركز الهيلوت والبريويكى لا يمت بسبب إلى الهجرة الأصلية ، ولكنه يرجع إلى الغزو المتأخر من لاسيدعونيا . وليس هناك أى دليل على اختلاف الجنس أو اللهجة بينهم وبين الإسبارطيين . ويصدق هذا على الآخرين من « عبيد الأرض » وفى بعض الحالات ربما كانوا ينتمون إلى حد كبير لعنصر ما قبل اليونان ، =

فما هى حقيقة حالة الخدمة أو الإقامة ذات صفة العبودية هذه التى انحط إليها هؤلاء القرويون ؟ إن هذا يختلف باختلاف المكان وخاصة بحسب طبيعة الأرض ، ولكن ، فى كل حالة ، كان ذلك شديد الارتباط بفقدان الحقوق السياسية أو زوالها . والسبب الرئيسى فى كونهم عبيداً هو أنهم لم يكونوا مواطنين كاملين ، ولم يكونوا قد توصلوا بعد للديمقراطية من حيث هى ضمان الحرية الإقتصادية .

فالقرويون عند هزويد ، وكثيرون مثلهم ، فقدوا فرصهم نتيجة الأهمال ولكنهم لم يعرفوا أنفسهم بعد كطبقة دنيا أقل من غيرهم . وبجانب هؤلاء نستطيع أن نجد ثلاثة أنواع على الأقل،من الطبقات التابعة الرسمية المعترف بها . وأولى تلك الطبقات وأبسطها هى التى تعرف فنيا بحسب العرف البلوبونيزى «بالبريويكى» أو الساكنون حول المدينة . وهؤلاء كانوا قرويين أو من سكان المدن الصغيرة ويملكون أرضاً غيرجديرة بأن يطمع فيهاأحد. ولما أخضع أهل لاسيديمونيا أو الأسبرطيون ، كما يعرفون بأسمهم الخاص، لاكونيا ، كانت معظم الأراضى التى استولوا عليها فقيرة جداً لاتستحق أن تقسم، ولذا تركوهالأهلها القرويين ، وظل هؤلاء على حالتهم . إلا أن أمرا واحداً فقط جد عليهم وهو أنهم صاروا إلى وضع أدنى ، وظلوا مبعدين عن كل عمل فى حكومة الدولة. وماكانوا ليمارسوا كثيرا حقوقهم فى أن يدلفوا إلى لاسيديمونيا ويصوتوا فى المجلس . فقد كان كل شغلهم الشاغل مقاومة الجوع فى دائرة أراضيهم الجدباء .

= ولكن يستحيل أن نختبر قول Bury (فى History of Greece — الطبعة الكبيرة الجزء الأول ص ١٥٧) بأن الثورات التى أدت إلى وضع السلطة فى يد الطغاة فى سيكيون وكورنث وميجارا « يبدو أنها كانت ثورات قام بها عنصر ما قبل الدوريين ضد العائلات الدورية المتسلطة عليهم. وكان العبيد الكريتيون يسمون أحياناً κληρωται أو أصحاب قطع من الأراضى . ويمكن مقارنتهم بأهل ميتلين المقهورين الذين زرعوا أراضيهم القديمة ولكنهم فى هذه الحالة دفعوا إيجاراً إلى الأثينيين المالكين لهذه القطع من الأراضى. أو κληροῦχοι : توكيديدس ٣ — ٥٠ — ٢ . (أنظر التذييل) .

أما النوع الثانى فهو « العبودية » القائمة فى لاكونيا وكريت وتساليا والأماكن الأخرى . فبالنسبة لرجل يونانى ، مثل توكيديدس فى القرن الخامس، كان مركز الهيلوت أو الصعلوك التسالى الفقير (πενέστης) لا يختلف كثيراً عن حالة الرقيق الأجنبى المشترى . ولكن النشأة السياسية والعملية الإقتصادية تختلف تماماً فى هذا النظام . فمثلا عبيد لاكونيا (التى تتضمن سهـــل مسينا الخصب) وعبيد تساليا مثل السكان الذين حول لاكونيا ، كلهم قرويون مغلوبون ، ولكن الأراضى التى يعيشون عليها لم تعد ملكا لهم . فقد قسمت أقساماً ووزعت على المواطنين الذين سبق أن تغلبوا عليهم . غير أن هؤلاء المواطنين لم يكن لديهم الفراغ ، ولا الميل لزراعتها بأنفسهم . فهم جنود أولا ثم سياسيون ثانيا،وبين هذين العملين نسوا بالتدريج أمر الزراعة . فالجماعة الديمقراطية تواجه دائماً مشكلة كبرى ، كالتى واجهها ديوسس أيضاً ، كما رأينا ، وهذه المشكلة هى كيف يجمع المواطن بين الأعمال العامة والخاصة معاً . أما الاسبرطيون فقد بتوا فى ذلك بطريقة ، من الغريب أن نقول أن أخلاقيى القرن الرابع ، قد ارتضوها ، وهى ألا يقوموا بأعمالهم الخاصة ، ويستغلوا سلطتهم العامة فى إرغام آخرين على أدائها لهم .

وحين افتخر بركليس بأن الأثينيين قد استطاعوا الجمع بين أعمالهم الخاصة والعامة ، كان فى ذهنه هؤلاء الإسبرطيين المتعجرفين الذين يمضون وقتهم فى الصباح فى التدريب على الأعمال الحربية ، وبعد الظهر ، بعد الوجبة غير الشهية التى يقدمها لهم الهيلوت من مزارعهم ، يمضون إلى الصيد أو الملاكمة أو التجمل . وقد أرغم الهيلوت على مد أسيادهم بالغذاء ، ورتب الأمر على أساس أنه إذا لم يوجد ما يكفى لسادتهم فلن يوجد لهم ما يكفيهم ، فهم مرتبطون ، كما يخبرنا شاعر قديم ، بأن يمدوهم بنصف المحصول من قمح الأرض التى يوالونها ، فإذا لم يستطع اسبارطى أن يمون الوجبة العامة من حقله بنصيب معين ، فقد حريته ولن يسترجعها إلا بعد أن يقدر على ذلك ،

إذ يعد مخلا بنظام المجتمع . والمفروض أن يرجع الإسبرطى إلى مزرعته . ويضرب الهيلوت ليستحثهم على العمل والنشاط ، ويثقلهم بوجوده المزعج حتى يعيدوا الأرض إلى كامل إنتاجها . ولكنه لن ينس لهم هذه الشهور التى أساء تمضيتها ، أو كيف كان على وشك أن ينفصل عن قومه . ويحرص ، وتلك الذكرى ماثلة فى مخيلته ، على ألا يكون له كثير من الولد تقسم الأرض بينهم . فإذا بدا الأمر على هذا الضوء ، فليس من الصعب أن نفهم ما حير اجزينوفون من أن اسبرطة أقوى وأشهر دولة فى عصره ، كانت أقل عددا بين الدول ذات المواطنين الأحرار ، أو كما يعبر هو عنها ، مختصرا حتى ذكر الطبقات التابعة لها ، فيقول إنها كانت أقل المدن سكانا (١) .

وفى كل الوجوه الأخرى كان الهيلوت ، مثل زميله العبد ، يعيش كما يحب أو بالأحرى كما يستطيع أن يعيش ، فليس لسيده القوة على أن يمنعه (كما فى

---

(١) أنظر اجزينوفون . Pol. Lac ١ — ١ . فيما يتعلق بعبيد الأرض كعبيد عاديين، ثم أنظر هيرودوت ٦ — ٨٣ (δοῦλοι)، وتوكيديس ٨ — ٤٠ — ٢ (οἰκέται). وفيما يخص أن إعطاء السيد نصف محصول الأرض ἥμισυ παντὸς ὅσον καρπὸν ἄρουρα φέρει من واجب الهيلوت أنظر (الجزء السادس من .Tyrt). ورغم أن الاسبارطيين كانو يعيشون عيشة بسيطة ، إلا أنهم كانوا يهتمون كثيراً بمظهرهم الشخصى كما يفعل سكان « الجبل الأسود » الآن . أنظر هيرودوت ٧ — ٢٠٨ ثم أرسطو السياسة ١٢٦٩ ب ٢٥ γυναικοκρατόμενοι . إن أهم ما يحس به الزائر العابر فى ستيين (Cettigne) ذلك المظهر الجذاب بالملابس الأنيقة الذى يبدو فيه سكان الجبل الأسود وهم يمشون الخيلاء فى الشوارع أو يشربون ويدخنون فى مطابخ بيوتهم الخافية ، كأنما ليس هناك مايشغلهم فى ذلك العالم . وربما كانت تلك هى نفس النظرة أو نفس الشعور الذى يحس به الأثينى السائح فى اسبارطة ، وربما يكون ذلك ما حدا بأفلاطون أن يداعبهم (فى بروتاجوراس ٣٤٢) بقوله أنهم يقضون ساعات فراغهم يتناقشون فى الفلسفة ، وهى الفقرة التى اتخذها باتير Pater عنواناً لفصله البديع عن لا سيداعون فى كتابه Platon and Platonism ولم يكن أسلوب « باتير » الخلاب ليغرينا بأن نستنتج أن الشباب الإسبارطى له روح الرهبان ، وربما أصابه شىء لا قبل له به إذا ما واجه أحدهم فى فترة فراغه من الدرس بمثل ذلك القول . أما ما يخص التساليين فانظر آثينيوس Athenaeus ١٢ ص ٥٢٧ ، إذ لم يكن لديهم رجل مثل ليكورجوس يحد من عاداتهم . ولذا كان الفارساليون مثلا « أكثر الناس كسلا وإسرافاً » . (أنظر التذييل) .

حالة العبد الذي يعمل قريبا من سيده) من الزواج ، ومن أن ينجب أطفالا ، فمهما كان فقيرا ، فإن الصغار يستطيعون العيش على أرضه أو الأرض المجاورة ، وهكذا فإن الأسبرطيين ، لما لم يجدوا أرضا جديدة يستولون عليها عمدوا إلى تحديد نسلهم . والحقيقة أنهم تعرضوا لنقص ذريع فى تعدادهم ، بينما كان عدد الهيلوت سريع الازدياد إلى أن بلغ بهم الأمران الحكام الأسبرطيين كانوا فى هم وقلق من اختلال النسبة بينهم وبين المحكومين، ولكن التزامات العبد بإطعام سيده حدت من حريته بأن جعلته مرتبطا بالأرض،وزيادة على ذلك قد فقد الهيلوت ، على أية حال منذ وقت طويل، حقوقه الشرعية . فى الإمكان « القضاء عليه » فى أي يوم على يد البوليس السرى الاسبرطى برضاء حاكم المدينة وموافقته.ويخبرنا توكيديدس ، بدون أن تنتابه رجفة ما ، أن ألفين من الهيلوت قد « اختفوا » بهذه الطريقة خلال حرب البلوبونيز . وهذه هى الوسيلة الوحيدة الباقية لتعويض جانب عن عدم التوازن الذى جعل النسبة بينهم كنسبة مواطن اسبرطى واحد إزاء قرابة خمسة وسبعين تابعا [١] .

---

(١) توكيديدس ٤ — ٨٠ ثم ماير. Gesch الجزء الثالث فقرة ٢٦٣ إلى ٢٦٤ الذى يقدر على وجه التقريب عدد سكان لاكونيا الكلى (بما فى ذلك مسينيا) فى القرن الخامس، قبل الخسائر المتسببة عن الزلزال فى عام ٤٦٤ كما يأتى :

اسبارطيون	١٢٠٠٠	(أى ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ من الشبان)
بريوكى	٨٠٠٠٠	
هيلوت	١٩٠٠٠٠	
المجموع	٢٨٢٠٠٠	إلى ٣٠٠٠٠٠

أما فيما يخص عدم التناسب بين المواطنين فانظر إجزينوفون . Hell ٣ — ٣ — ٥

وقد كان لعبيد الأرض الكريتيين (οἰκεῖς) بعض حقوق تعليمية معتادة customary ثم اعترف بها رسمياً فى عصر سن القوانين . وفيما يتعلق بالتفاصيل أنظر التعليق على قوانين « جورتين » فى Inscriptions juridiques grecques الجزء الأول ص ٤٢٣ وخاصة تلك التعريفة الطريفة للغرامات المقررة عند الاعتداء على الأحرار والمحررين وعبيد الأرض والرقيق (ص ٤١٩) . ولكن ليكورج لم يفعل شيئاً مثل هذا للهيلوت ، وعلى ذلك ظل غير المواطنين من أهل كريت مخلصين ، على حين أن الهيلوت كانوا ثائرين دائماً =

وثم نوع ثالث من هذه التبعية يهمنا بوجه خاص . وهذا النوع كان أشقاهم وأحقرهم جميعا لأنه جاء بسرعة وبدون إنذار ، وهو الذى أثر فى أرقى الجماعات اليونانية وأكثرها تقدما ومنها أثينا نفسها . وهو مرتبط بأكبر تقدم فى الحضارة المادية — أعنى إدخال النقد المعدنى .

فاليونانيون الأول كانوا يتقايضون بالمنتجات الطبيعية أو القضبان المعدنية التى ليس لها وزن محدود . وأول عملة مختومة كضمان لوزن خاص، استعملت أداة للتبادل ، هى تلك التى أصدرها الملوك الليديون فى القرن السابع . وهى مثل المحراث أو المطبعة واحدة من تلك الاختراعات البسيطة التى لا يمكن ، بعد الوصول إليها ، أن نتصور الإنسانية بدونها . وقد انتشرت سريعا فى اليونان ، حتى أنه فى مدى جيل أو اثنين كانت كل الدول الكبرى سواء فى اليونان الأصلية أو الغرب تضرب عملتها، وكل دائن يصر على أن توفى له ديونه بالذهب والفضة .

وقد يبدو هذا تغييرا بسيطا ، ولكن أثره فى القرويين كان خطيرا كاختراع الآلات البخارية ، إذ قد خلق ذلك التغيير ثورة اقتصادية فى حوض البحر المتوسط تشبه تلك التى تخلصت منها أوروبا الآن (إذا كانت قد تخلصت فعلا) . ويمكن أن نراقبها فى اليونان وفلسطين وإيطاليا ، ونرى صورة لنفس من قاسوها متجلية فى أشعار هزويد وتيوجونس وعاموس وهوشع ، وفى أساطير روما الأولى .

فلنتدبر ما يعنيه هذا التغير فى حياة الفلاح الذى يعيش يوما بيوم على محصوله السنوى . فقد تعود أن يحمل ما لديه إلى السوق ويقايض به البضائع التى يحتاج إليها من صوف للغزل لامرأته ، وأحذية لأولاده فى الشتاء ،

= (أرسطو فى السياسة ١٢٧٢ ب ١٨) . أما بالنسبة « للتعريفة » فقارن قوانيننا الأولى — قوانين Aethelbert التى تدرجت بالمثل بحسب اختلاف طبقات السكان . وهى مكونة من ٩٠ مادة قصيرة ؛ فمثلا ، « إذا ضرب رجل رجلا آخراً بقبضة يده على أنفه فعليه غرامة ثلاثة شلنات ، أما إذا أصابت الضربة عينه فالغرامة ٥٠ شلناً ... » الخ .

وقراميد لاصلاح سقف بيته ، أو يدفع للحداد والنجار أجر إصلاح محراثه أو عربته . ولـكن معظم هؤلاء لا يرضون الآن بقمحه أو نبيذه إلا إذا حولهما إلى نقود ، فـكم تساوى من النقود ؟ ليس عنده أقل فـكرة عن ذلك لأن الأمر يتوقف على عوامل خارج نطاقه. وليس لديه وسيلة لمراقبتها فيأخذ ما يعطيه له الوسيط ، والوسيط يأخذ جعلا على عمليته يعيش عليه . وقد صعق فى آخر السنة الأولى حين لم يجد بين يديه شيئا فائضا كما تعود من قبل . ولما أتت سنة الجدب المحتومة لم يكن عنده فائضا مطلقا . والحق أنه ما كان ليستطيع الحياة فى الشتاء بدون مساعدة فـكان الاقتراض ملجأه الوحيد .

وعلى هذا يتجه إلى البيت الـكبير (لأن الوقت لم يكن قد حان بعد لوجود طائفة المحترفين من أمثال شايلوك) . فقد كان الرجل ذو الحسب أو Eupatird (كما يسميه الأثينيون) ملجأهم الأول . فأسلافه الأبطال اعتادوا أخذ الذهب معهم إلى القبور فى صورة أقنعة أو ما شابه ذلك ، وقد أسعده أن يجد طريقة أفضل لاستغلاله . بالتأكيد أن كان الفلاح يحتفظ بما اقترضه طوال الشتاء ، ولـكن كان عليه أن يسدده إليه فى الميعاد المحدد فى الموسم التالى . إلا أن الإيوباتريد يطمع فى شيء قليل من الربح يعوضه عما كان سيناله من استغلال نقوده حتى هذا الميعاد ، ولنفرض مثلا ٢٠ فى المائة لمدة الستة أشهر الأولى ، وذلك عدل ، فهو يرى النقود تتكاثر وتزداد مثل البذور وتأتى بالثمر . إن الرجل الأكارى الذى تفوح منه رائحة الثوم ليحك رأسه . إن فـكرة استثمار المال (توكوس τόκος أى الربح) تبدو له غريبة غير طبيعية بعض الشيء ، ولـكنها لا شك سرعان ما تجد سبيلها إلى الحديث الشائع بين الناس . إنه لا يملك أن يسبق أرسطو ورسكين فى مناقشة الناحية الخلقية عن الربح . وعلى ذلك فإنه يوافق ، ولـكنه يخشى شيئاً واحدا قبل أن يعقد الصفقة فهل هو متأكد من أنه قادر على الوفاء ؟ إنه أقسم بين يدى السيد الحسيب « الأيوباتريد » على ذلك ، ولـكن السيد يريد ضمانا ماديا . فهل يمكنه

أن يأت بأحد جيرانه الأصدقاء كضامن له ؟ إنه يخشى أن لا يمكنه ذلك ، فقد أخذ الجميع حذرهم هذه الأيام — منذ أن صور لهم ، فى يوم من أيام السوق ، رجل غريب من لا كونيا ، البؤس الذى صار إليه الفلاحون هناك . فقال إن أعقل رجل فى اسبرطة يلخص الحال فى خمس كلمات — والناس فى اسبرطة لا يسرفون فى القول أبدا — « اضمن غيرك ثم انتظر الخراب » . إنهم لم يصدقوه فى ذلك الوقت ، ولكنهم تبينوا بعد وفاته مقدار حكمته حتى أنهم صاروا يقدسونه الآن كبطل . فلا خير إذن فى الجيران . ولم يعد الرجل يعتمد إلا على موارده الخاصة . فماذا عنده ليقدمه؟ ليس عنده إلا أرضه وعمله ، إنه لم يعتقد أبداً بأن الأرض ملكه حقا، وإذا أراد الدقة فإنها ملك العائلة ، ملك الأسلاف والأحفاد بقدر ما هى ملكه . ومع ذلك فإن جيرانه يظلون يسرون إليه بأن تلك فكرة قديمة ، وأن الأرض فى هذه الأيام يمكن أن تشترى وتباع وتجزأ وتجمع قطعة واحدة ، تماما كأى سلعة عادية فى السوق . فماذا يفعل الأطفال إن لم يترك لهم أرضاً بعد موته ؟ وماذا يفعل بكل هذه الذكريات والعادات الدينية ؟ حسن ! الضرورة لا تعرف ديناً ، والأولاد يجب أن يبتهلوا إلى الله أن يهبهم وقتاً أسعد . وهكذا يوافق محرجا على إجراء اتفاق خاص بأرضه ، فإذا لم يدفع فى الربيع القادم أخذها السيد منه : وسيزرعها هو له كمستأجر ويدفع له سدس المحصول إيجاراً . إذن اتفقنا . فيذهب ومعه نقوده ، أما السيد فيقيم عاموداً قبيح المنظر ، نقشت عليه كتابة ، قبالة المنزل . هو لا يعرف القراءة ولكنه يدرك أنها تذكرة دائمة للاتفاق المبرم بينهما[١] .

---

(١) ἄτα δ' παρὰ ἐγγύα تلك هى نصيحة Chilon المختصرة . وقد اكتشفت المدرسة البريطانية حجراً يحمل حفراً بارزاً للحروف (X)IΛΩN وهو جزء من ضريحه فى اسبرطه . وفيما يخص القرض أنظر هيزويد Erga ٣٩٤ ، وفيما يختص برفض اعتبار الأرض كسلعة مادية أنظر سفر التكوين ٢٣ — ١١ حيث لا يرضى أبناء هث Heth أن يبيعوا كهف مخبلاه Machpelah لإبراهيم . كذلك قصة نابوت ، ١ الملوك (Kings) ٢١ — وقد أكد ماير فى Wirtschaftliche Entwickelung des Altertums (الذى طبع ثانية فى « Kleine Schriften ») وكان الأول فى تأكيده التشابه الذى بين ثيوجنيس =

هيهات إنه ليس فى حاجة إلى ما يذكره ! وللسنين العجاف دورتها . فى الربيع القادم يكون الحصاد رديئاً كسابقه . وقبل نهاية السنة تكون الأرض قد خرجت من يده ، وانضم إلى طبقة الموالى أو أصحاب السدس . وما هى إلا فترة قصيرة يسير فيها كل شىء سيراً حسناً ، ثم تأتى سنة جدباء وتكون فيها النفقات كبيرة فلا يتمكن من دفع السدس ؛ أو ربما ظهر للسيد أنه يخادعه فى تقسيم المحصول . فأى حل لذلك عند السيد ؟ إنه لا شك يستطيع أن يخرجه من الأرض . ولكن هذا أمر ، إلى جانب كونه يباعد الرحمة ، لن يعود بفائدة على أحد من الطرفين . فالمالك لا يستطيع أن يجد بدلا عنه لزراعته الأرض بسهولة ، ولا الفلاح يجد بدل بيته . فكل شىء أهون من أن يكون دون مأوى . فماذا على الفلاح بعد ذلك ؟ إن مثله مثل الرجل من الدهماء فى العصر الحديث . لا يملك غير عمله ، فلا مندوحة من أن يقوم بإجراء اتفاق آخر أكثر إذلالا له . فإذا لم يدفع الإيجار (بفوائده طبعاً) قبيل الربيع القادم ، غدا محصول عمله كله ملكا للسيد من ذلك الوقت فصاعدا ، أى بمعنى آخر صار هو عبداً له . ومنذا يعول الأسرة إذا ذهب عنها عائلها ؟ يعولها السيد على شرط أن يعملوا فى منزله ويثابرون على إرضائه[1] .

= وعاموس . كما يستحق الذكر كتنجهام فى WesternCivilization in its Economic Aspects (وبنوع خاص ٧٣ — ٧٥) لمراجعه المفيدة عن عصرنا الاقتصادى . أنظر أيضاً فيلاموفيتز A. A الجزء الثانى ص ٥٧ إلى ٥٨ ولا سيما فيما يخص الأعمدة . ولتصحيح أى إسراف ظاهر فيما سبق بيانه ، أنظر ملاحظة ص ٣٠٣ فيما يلى .

(١) كان وضع الأنصبة الأتيكية السادسة ἑκτημόροι مجال مناقشات كثيرة . وأنا أتبع وولكر (الذى تبنى رأيه الناشرون فى ملاحظة ذكرت فى الصفحة ١٤ بالطبعة المختصرة لكتاب جروت History of Greece التى نشرها فى Routledge . ولكنى أختلف معه وأوافق De Sanctis فى "Ατθις" ، الطبعة الثانية ١٩١٢ ص ١٩٦ ملاحظة ٢ فيما يخص هذه الحيازة الخاصة وهى نفسها مؤقتة وتعتبر علامة أو وسيلة «العبودية» و «التبعية» ، (أنظر Pol.-Ath. ٢) أولى الدرجات التى تؤدى إلى الهاوية . وكانت الطريقة التقليدية فى أتيكا ، كما كانت فى سائر الجهات ، هى امتلاك الفلاح للأرض التى أعاد إقرارها سولون . أنظر فى سفر التكوين فقرة ٤٧ — ١٣ وما بعده ، مثالا مماثلا من درجتين فى قصة طريقة مشابهة لتلك .

هذا هو مختصر قصة كثير من عبيد الديون الذين تصاعدت صيحاتهم المريرة فى سماء اليونان فى القرن السابع ، وفى تنبؤات إسرائيل — ربما كانت أبشع صور الرقيق لأن ضحاياها كانوا يقاسون الألم وسط الرغد والرخاء المتزايد . فمثلهم مثل العمال الذين طردوا من عملهم حين اخترعت الآلات الحديثة ، فكانوا يتضورون جوعا ، ولا يكاد يشعر بهم أحد فى وقت تزايد الصناعة وتضخمها . وغالباً ما كانوا يباعون مع مرور الزمن خارج الدولة ؛ وكان أسيادهم يفضلون ذلك على أن يحتفظوا بهؤلاء التعساء فى مزارعهم . لامفر من ذلك فهم مدينون عجزوا عن دفع ديونهم ، والسيد الذى يملك عملهم يملك أجسادهم كذلك . إنهم من كل الوجوه ، يشبهون الأسرى أو المخطوفين من الأجانب ، الذين أخذ الناس يجلبونهم الآن من الخارج إلى المدينة كعبيد(١) .

وزيادة على ذلك كان صاحب الأرض نفسه فى محنة ، إذ لن تمر الأزمة الاقتصادية دون أن تمسه هو الآخر . فهو أيضاً يريد مالا ليحافظ على مستوى معيشته ، وهو أيضاً يؤدى ما عليه من خراج إلى الرجل الجالس على المنضدة فى السوق . وقد أخذ يدرك ككل أرستقراطى من الملاك فى مرحلة ما من مراحل التطور — أن الأرض وإن كانت تدر عليه ما يكفى للحياة ، إلا أنها لن تجلب ثروة له . ومهما بلغت مساحة الأرض التى يشرف عليها ، ومهما كان عدد عماله التعساء ، فلن يستطيع منافسة أخيه الأصغر الذى اشتغل بالملاحة . فكلما ازدادت أملاكه ازدادت صعوبة الإشراف عليها ومراقبتها . وقد أبدى ملاحظة فى يوم من الأيام بعد جولة مثبطة للعزم (هذه الملاحظة بقيت ذخراً فى العائلة حتى سجلها أحفاده) ، قال إن أحسن الأطعمة الحيوانية « عين السيد » . بينما يستطيع أخيه البحار ، إذا ما حصل على مركب ، أن يكون ثروة فى سنين قليلة بما يقوم به من عمل بسيط ، وهو أن يجول بأشياء تافهة بين أناس سذج تصادف أنها لا توجد فى بلادهم . فقديما كنا راضين بما تنتجه بلادنا

(١) سولون ٣٢ — ٧ .

قانعين بها ، وكنا ننظر شذراً إلى المنتجات الأجنبية . أما الآن فى ذلك الوقت ، فالفكرة السائدة هى أن أحسن الأشياء الجديرة بالاقتناء هى التى تأتى من أطراف العالم . لقد كانت مهارة من أخى أن يستغل نقطة الضعف البريئة هذه، وقد قام بذلك فى الرحلات القليلة الأولى مخاطراً بحياته وشبابه . والآن وقد جمع بعض الثروة فقد آن الوقت ليعود فلاحا . لقد حصل على ما يكفيه فلماذا يخاطر بحياته ويفنى نفسه ، ويضيع سنى الحياة القصيرة للاستزادة من المال[1] ؟ .

وكثيراً ما سئل هذا السؤال فى الجماعات التى غلب عليها حب الدولار . ولكن هؤلاء التجار اليونانيين القدماء كانوا قد واجهوا هذا السؤال لأول مرة . ونرى فى تساؤلهم ، نحن الذين نظن أننا نعرف الجواب ، مهارة طريفة أخاذة . ويقول ثيوجنيس مراراً وتكراراً ، إن الشىء الغريب فى النقود هو أنك لا تملك أن تقنع بما حصلت عليه منها . وهنا تختلف النقود عن أى شىء تشتريه بها : الطعام والملابس ، والمنازل وفوق كل ذلك النبيذ — لهذا كله حدود ، ولكن المال لا حد له ، ولا يحاكيه فى ذلك إلا الحكمة .

فثم قوتان تظل تحاربهما روح الإنسان دون جدوى ،

---

(١) هيزويد Erga ٦١٨ ، ٦٨٦ ، ثيوجونيس ١٢٠٢ (أخطار التجارة) — هيرودوت ٣ — ١٠٦ (« إن أعز الأشياء تأتي من أقصى الأرض » . فهو « ولا عقل اقتصادى له » لم ينقطع عن التساؤل) . فيما يخص تأثير الأزمة فى الزراعة ، أنظر هيرودوت ٥ — ٢٩ . (ولما أن استدعى الباريون ليعالجوا الأزمة السياسية والاقتصادية ، التى ربكت ميليتوس لمدة جيلين ، فحصوا كل الضياع فرأوا أن قليلها هو المعتنى بزراعته . وواضح من البيان أنه مازال باقيا عدد من الملاك غير قليل) اجزينفون .Oec — ١٢ — ٢٠ (« عين السيد » — صديق كيروس بعطى الملاحظة لونا فارسيا — ولكن الأمر كان صحيحا مع ذلك) . لم تنته فكرة كون امتلاك الأراضى أكثر أنواع الملك احتراما إلا بمشقة عند القدماء، كما انتهت عندنا نحن الآن. أنظر اجزينفون (.Oec فى مواضع متفرقة (مثل ٤ — ٤) ، أنظر السياسة ١٢٧٨ ا ٢٥ . (إذا كنت فى طيبة وقضيت عشر سنوات بدون «عمل» ، بهذا فقط تكتسب احترام الناس) . ثم الفقرة المروفة لشيشرون . De Off ١ — ٤٢ ، الذى يوصى فيها تجار الجملة أن يشتروا الأراضى «ومركزا» ، — وهى نصيحة كثيرا ما يعمل بها حتى هؤلاء الذين لا يعرفون الرجل الجديد novus homo الذى تبناها . وطبعاً أعار أفلاطون وأرسطو هذه النصيحة اهتماما خاصا ، شأن الكثير من الأفكار المحافظة الأخرى .

الثروة والمعرفة ، إذ كلتا يدت مخازنك ملأى بها ؟

وسوس لك الطمع أن تصيب ثانية » .

فيا أحكم الرجال انظر إلى دخيلة نفسك : إنك عبد لإرادة ملكة المعرفة

مرها أن تبتعد ! إنك لتعرف من كل قلبك

أنك لا زلت مغرما بها(١) .

ما من أحد سوى اليونانى استطاع أن يجمع الحكمة والثروة بهذا الشكل فى مثل ذلك الوقت . ولن نجد تلك النغمة فى « كاتو » العجوز رغم أنه أديب وحكيم خبير بأمور الدنيا . ولن تجدها كذلك فى عاموس ولا فى هوشع، إلا أن السائح قد يسمع ذلك الآن فى إحدى قرى البلوبونيز على لسان مهاجر عائد متذمر . إنها تحمل طابع الروح اليونانى الكامل : طريقتها الهادئة فى التفكير، «وقسوتها الواقعية»، وتطلعها إلى الكمال . وهذه العبارة الأخيرة قول فنان ، ولكنها أبين دلالة من أى تعبير آخر ، لأن

---

(١) Theogn. ١١٥٧ وإنى أورد هنا الأبيات فى لغتها الأصلية .

المال والحكمة فى عراك أبدى مع البشر ،

Πλοῦτος καὶ σοφίη θνητοῖς ἀμαχώτατον αἰεί,

يود المال لو ملأ عليك نفسك ،

οὔτε γὰρ ἂν πλούτου θυμὸν ὑπερκορέσαις·

كما أن أعقل الناس لا يترك الحكمة ،

ὡς δ᾽ αὔτως σοφίην ὁ σοφώτατος οὐκ ἀποφεύγει,

بل يحبها ، إن روحه لا يمكن أن تخلص من ذلك الحب .

ἀλλ᾽ ἔραται, θυμὸν δ᾽ οὐ δύναται τελέσαι.

وقد ترددت قصداً بين لفظى « الحكمة » و « المعرفة » ، لأن هؤلاء اليونان القدماء الذين عاشوا قبل عصر الجامعات ودوائر المعارف لم يعرفوا التفرقة بينهما . وبعد مرور قرن طلع هيراقليتس على الدنيا بهذا الكلام : « يظل الرجل يتعلم ، ولكنه مع ذلك يظل أحمقاً » ، فعجب الناس من قوله .

ثيوجنيس لم يكن مبشراً أو فيلسوفا بل كان فنانا هادئا حائراً[1] .

ولكن وجود الروح التجارية فعلت أكثر من مجرد جعل الناس يفكرون ، جعلتهم يقاسون الآلام ، وجعلتهم يتوجهون إلى الآلهة العلا لتنصفهم . فسادة المدينة الجدد ، أو الارستقراطيون المستحدثون ، الذين استطاعوا بقوة أموالهم ، وعبيدهم الذين « اشتروهم بالفضة » ، أن يسيطروا على أهل القرى القدامى وعلى تقاليدهم ، هؤلاء السادة لم يعرفوا رحمة ولا عدلا ، خلافاً لقضاتهم القدامى الذين كانوا يشبهون الآلهة . لقد كان الذهب والفضة فى بيوتهم ولكن ، كما قال هيزويد العجوز ، لم يكن فى قلوبهم إلا الحديد . هذا وإن رثاءه البديع معروف لدى كثير من القراء الإنجليز . فلنعد إذن الى أضعف ما يقابله من مراثى الشعراء الذين أتوا ، على خلاف الشاعر البيوشى القديم ، ليقيموا فى المدينة أقرب ما يكونوا إلى مقعد الظلم .

لم يبق بيننا ياصديقى الآن من القوى الرحيمة سوى الهة الأمل الطيبة ،
فكل الآلهة الأخرى قد نزحت إلى جبل أولمب العالى .
نزحت ذات الطبع الحلو ، والهة الإيمان الملزمة تعاليمها ، والهة الرحمة
التى تحيل الحياة مستساغة ، ياصديقى ا نزحوا وخلفونانحن وراءهم ،
ولم يعد الرجال يعاملون بعضهم بعضاً بالعدل ، أو يحفظون وعودهم
لقد نأت الآلهة الخالدة بعيدة جداً ، فلا يستثير غضبها أحد .
والصالحون الأخيار من الناس قد ماتوا ودفنوا ، ولم يعد أحدمن الرجال
يشعر بالجلال والرهبة لحكمة آبائنا وقوانين مدينتنا المنظمة .

(١) إن السكر هو أبسط وأوضح أنواع الإغراء فى شعب (أو لطبقة منه) حديث النعمة . لم يكن اليونان سكيرين ، ولكن وردالكثير عن الخمر فى ثيوجنيس وأرخلوخوس ، ويسميه الجنود المواطنون القدماء « درع الصدر » . فيقول أحد الماجنين فى جمع « إنك لتشعر بأنك أكثر نشاطاً أبداً إذا ماارتديت درع صدرك » . (أنظر ثيوجنيس ٨٨٢ إلى ٨٨٤ ثم ٤١٣ ،لاحظ أن حتى هذا النبيذلم يكن غيرمخلوط). قارن.Arch. fr ٢، ٤، (الخمر فى المعسكر وعلى ظهر السفن) ،ثم فى مواضع متفرقةمن هوشع Hoesa وعاموس Amos، (مثل هوشع ٣ — ١) . أما الرومان فكانوا فى تلك المرحلة من التقدم على أكبر درجة من الخشونة . ويقال أن حكامهم كانوا يضعون جرارا مليئة بالنبيذ فى أركان الطريق يرشفون منها فى روحاتهم وغدواتهم أنظر فررو الجزء الأول ص ٢٣ فى كتابه Greatness and Decline, of Rome(E.T.).

هكذا يغنى أحد من رأوا قيام «حقوق الملكية» ، وجيل رجال الأعمال. وهالك صيحة أخرى صدرت عن واحد ممن جرفهم تيار الثروة الجديدة، وهو ينظر إلى الوراء كما ينظر كثير من الأوروبيين من نيويورك إلى القرية المهجورة التى أخرج منها مرغماً :

فى السنين التى أدليت فيها بدلوى فى نهر القرية الصافى .
ما كان أعذب وألذ مذاق المياه فى ذلك الوقت .
أما الآن فقد فاضت عليه الأمطار ، وبطمها لوثته الجداول المنحدرة من الجبال فلا بد لى أن أشرب من نبع آخر، من نهر أكبر منه وأعظم .

هذه استعارة نموذجية ، فإننا نتكلم عن المعيشة تحت سماء غريبة ، ولكن اليونان الذين قامت مدنهم أو قراهم حول نبع ماء بجانب پايرين أو كستاليا أو ديركا أو كالليرو يتكلمون عن « شرب مياه غريبة »[1] .

---

(١) ثيوجنيس ١١٣٥ ، ٩٥٩ (ربما تكون القصيدتان لشاعر واحد ولكنى لا أظن ذلك) . أنظر هيرودوت ٢ — ١٨ ، يوربيدس : Med. ٦٩ وقد ذكرت هنا الشعر الثانى لنص هيللر Hiller .

طالما شربت من العين ماء أسوداً ،

Ἔστε μὲν αὐτὸς ἔπινον ἀπὸ κρήνες μελανύδρου,

كان يبدو لى أنه ماء عذب وحسن

ἡδύ τί μοι δόκεεν καὶ καλὸν ἔμμεν ὕδωρ·

والآن وقد صار عكراً ، ماء اختلط بالطين ،

νῦν δ' ἤδη τεθόλωται, ὕδωρ δ'ἀναμίσγεται ἰλυΐ,

سأشرب من نبع آخر أو من نهر .

ἄλλης δὴ κρήνης πίομαι ἢ ποταμοῦ.

وعين الماء « مظلمة » لأنك كما فى Peiréne تراها مغطاة ليحجزوا الشمس عنها ، وليجعلوا منها مكانا ظليلا للراحة . وربما يحاول روائى حديث أن يضيف إلى ذلك تخيله وجود تبر فى الطين. ولكن الشاعر الكلاسيكى لايتخيل ذلك بل يكتفى بإعادة واحدة فى كلمته الأخيرة عن خبيء معناه : لأن الناس فى اليونان لا يشربون من الأنهار ، وإن فعلو شربوا طينا فى الشتاء، وظلوا عطاشاً فى الصيف . وفيما يخص أول جلب العبيد « المشترين بالفضه فى هـذه الفترة » أنظر الفقره الرئيسية فى أثينيوس ٢٦٥ ب، وفيما يتعلق بسطور هيزويد الرائعة ، أنظر Erga ١٧٤، ثم انظر موري فى كتابه Greek Epic ص ٧٩ (الطبعة الثانية ص ١٠٢) ، وأنا أذهب الى ما ذهب إليه جلوتز بإرجاعهم الى هذا العصر .

لقد مات الخيرون واندثروا .. ولم يكن هناك خير أو رحمة (فالإثنان ما زالا مدلولين لشىء واحد) عند الناس . لم يبق شىء ، كما يخبرنا هيزويد ، إلا الحياء ، هذا المعنى المبهم من إجلال الآلهة واحترام البشر ، والخجل من من الخطأ أمام الأرض والسماء ، الذى هو آخر ومضات الخير فى قلوب الشريرين من البشر . ولم يكن هناك تراث منه لأثينا القرن الخامس ، فهذا الخجل كان أبهم وأضأل من أن يعتبر جزءاً من الكيان السياسى . إن هذا الخجل الذى يردع الناس من ارتكاب معظم الشرور ، يختلف معناه الوضعى من جيل إلى جيل . إن الخجل فى عهد الإلياذة وفى عهد الهجرة كان أبسط وأقرب إلى الوحشية منه فى عهد ثيوجنيس ، الذى كان يبدو بلا معنى ومن طراز قديم بالنسبة لعهد الحروب البلوبونيزية . فجيل الهجرة يشعر بالخجل إذا لم يرعوا آخر بقايا العادات القبليـة . أما معاصرى ثيوجنيس فيخجلهم خروجهم على قانون مدينتهم . وبالنسبـة لتوكيديدس فالخجل من الخطيئة هو آخر مايحمى ويؤمن نظاماً خلقياً كاملا ، شخصياً كان أوسياسياً . وهو الأساس الذى بنى عليه بركليس مرثيته . إلا أن الأسس لا ترى مادام البناء قائمـــاً . وفقط عند ما انتهى الأمر إلى محنة أكبر من تلك التى مر بها ثيوجنيس ، جعل توكيديدس ، فى أكثر فصول كتابه مرارة ، أحد المتكلمين يفكر فى الخجل ليسخر منه [١] .

ولكن كان لأزمة القرن السابع تأثيرها الإيجابى فى القرن الخامس ، وهذا هو الذى حتم علينا أن نصفها ، لأن الآلهة لم تنزح جميعها إلى جبل أولمب ، بل ظل أحدها يرعى الناس فى اضطرابهم فى المدن ، ويرشدهم إلى طريق الهدى والسلام ، فعندما ادلهمت الأمور وازدادت حلكة ،بدأ وحى دلفى الكلام .

---

(١) أنظر ٥ — ١١١ — ٣ τὴν πλεῖστα διαφθείρουσαν αἰσχύνην ἀνθρώπους : وقد قصد بهذه الجملة تذكير القارئ بما فى ١ — ١٢٢ — ٤ ، وهو شكل آخر يختلف عنه كل الاختلاف . تتغير عيسيس فى معناها الوضعى تغير Αἰδώς . وفيما يتعلق بأصل المعنى المعروف فى أسخيلوس وهيرودوت (رغم بطء طواحين الله إلا أنها تطحن جيدا) أنظر ثيوجنيس ٦٥٩ .

إننا لم نعرف أبولون إلا فى أيام اضمحلاله عندما ضحى بسلطانه لمناصرته الغزاة الفرس وانحيازه إلى جانبهم . وقد كان ذلك بعد أن أنشأ ما يمكن أن نسميه كنيسة . وفى القرن السابع لم تكن دلف مركز كنيسة، ولكنها كانت مركز رسالة ، وهى رسالة اتجهت نحوها اليونان جميعها لتستمع إليها ، لأن أخبارها كانت بسيطة وطيبة — بسيطة جداً ومعقولة جداً حتى أنه لم يجرؤ على الجهر والمناداة بها غير الوحى اليونانى — ألا وهى واجب ضبط النفس . وهى تتلخص فى قولين كل واحد منهما فى كلمتين : « اعرف نفسك » ، « وكن معتدلا » . فمعرفة النفس التى نصح بها أبولون زائريه وكتبت بخط عريض على مدخل معبده ، ليست هى تحليل النفس الدقيق الذى جعل منه سقراط أساساً لتعاليمه الفلسفية ، مخطئاً فهم الآلهة ، كما كانت عادته . بل كانت درساً أسهل وأوضح ، وليست سوى ذلك الدرس الذى علمه المصريون لضيوفهم عندما كانوا يحضرون هيكلا عظميا فى مآدبهم وحفلاتهم « اعلم أنك مخلوق ضعيف زائل . وهذا العالم لقد جئته عارياً، وستتركه عارياً . فما فائدة الثروة الكبيرة أو المجد الطائل ، أو الفرح الزائد ، أو الكثرة من أى شىء ؟ كن معتدلا » . فيتساءل العابد ، ولكن أنا لى أن أكون معتدلا والناس من حولى فى ثورة وغضب يتسابقون ؟ فرد الإله قائلا ، « باللطف والرقة » ، يقول ذلك بكلمة لا يمكن أن توفيها الترجمة حقها ، بأن تضبط نفسك وتظن بالناس خيراً لا شراً ، وأن تنمى فى نفسك أفكار وعادات عقلية « تنجى وتنقذ » ، بدل الأفكار المثيرة التى تفسد » . فهذا هو معنى اللطف والرقة أو ضبط النفس (سوفروسينى σωφροσύνη) التى صارت منذ ذلك الوقت إحدى السمات العظمى التى تتسم بها الروح اليونانية[١] .

وعلى ذلك فالشكل الذى عرفناها عليه لا يرجع إلى أبعد من القرن السابع، وكان من اختراع أبولون . لقد كانت دعوة دلفى ديانة جديدة لا شك ،

---

(١) أنظر مورى Gr . Epic ص ٢٧ — ٢٨ (الطبعة الثانية ص ٤٨) ، هيرودوت ٢ — ٧٨ (الولائم المصرية) ، أفلاطون . Charm ١٦٤ .

مثل دعوة عاموس وأشعيا ، وكانت مثل دعوتهم ودعوة القديس فرانسيس ، تتصل باسم قديم — لأن المعلمين الدينيين العظام ، مثل كبار رجال السياسة ، لا يبنون مطلقا على أرض جديدة ، ولكن أبو لون هومر الآله ذا الكنانة الفضية والسهام الوبائية كان بعيداً عن أبولون الهاتف ، بعد « ياهوا جايل » عن « ياهوا أشعيا » . فهى ديانة قد ظهرت على حد علمنا ، من ضرورات العصر ، أما قصتها — لأن لها قصة — فبسيطة جداً . فأبولون هو ابن زيوس ، وهو الوسيط المعين بين الآله الأكبر والإنسان الضعيف عن طريق موحاه فى دلفى (سرة الأرض) . ولكن ما من شىء فى القصة ولا فى ظروف دلفى المادية ، يفسر لنا ازدهار الموحى السريع حتى صار طوال أجيال عديدة أكبر قوة روحية فى العالم اليونانى . وليس قوة روحية فقط ، بل قوة زمنية أيضاً ، (لأن القوتين لم تنفصلا فى عقل الإنسان) . وكان الناس والملوك يذهبون لأبولون كما يذهبون للبابا يسألونه النصح ، وهو الذى شجع هذا الاندفاع العظيم ووجهه إلى التوسع الاستعمارى ، وهو اندفاع ، إن كان يختلف بعض الشىء فى الوسيلة والمظهر ، فإنه يشبه إلى حد ما الحروب الصليبية . وزيادة على ذلك فإن أبولون ، كما تؤكد الروايات ، كان أولا وقبل كل شىء يساعد بعض الولايات اليونانية « المتناهية الضعف » ، على استعادة نشاطها وقوتها ، لا بالنصح وإلقاء المواعظ فحسب ، بل بما يقدمه من اقتراحات مفصلة ونظم معينة . وقد كان فى دلفى فى القرن الخامس مراوغون أو متكلمون ماهرون ، وهم أولاد ، غير أكفاء مهملون ، لرجال لم يكونوا رغم شعارهم ، ناقلين عن غيرهم ، ولكنهم كانوا مبتدعين . لقد انقرضت حتى أسماء هؤلاء الأنبياء الأوائل وقنعوا بأن ينسبوا عملهم إلى أبولون كما اكتفى الشعراء المنشدون بأن ينسبوا أشعارهم إلى هومر . ولكن لا بد أن كان هناك أنبياء يوحى إليهم مثل أنبياء اسرائيل . وقد خلدت أعمالهم على الرغم من الكهنة الذين خلفوهم : « لقد أضاءت شعلة روحهم الحياة الدينية كلها عنـــد الهيلانيين ، وبعثت فيها الحرارة » .

وما من اسم عظيم فى أزهى عصور اليونان إلا ويظهر فيه تأثير أولئك الأنبياء ، إلا أن بندار وسوفوكليس ، أسخيلوس وهيرودوت ، توكيديدس وإوريبيدس ، أفلاطون وأرسطو ، (إذا كونا منهم أزواجا على وجه التقريب)، قد تركوا هذا التأثير يعمل بالشكل الذى يتلاءم ونبوغ كل منهم . إن البون واسع بين « كن معتدلا » ، وبين قول أرسطو « الفضيلة وسط » ، وبين تقديس أفلاطون لأبولون واتخاذه إلها لجمهوريته الجديدة . ولكن فكرة الطبع المعتدل المنقذ هى العامل المشترك بينها . ويمكننا أن نشعر بها أيضاً فى مرثية بركليس رغم كل ما فيها من مبالغات . وبعد خروج بركليس من القصة ، حاول توكيديدس أن يلخص عمله فى جملة واحدة ، هذا الذى خطر بباله كان كأنه نسمة هبت من ناحية دلفى القديم : « حين كانت له السلطة العليا فى المدينة وقت السلم ، ساسها باعتدال ، وأحاطها بسياج السلام والطمأنينة ، وبذا وصلت فى عهده إلى أقصى قوتها »[1] .

ولكن حان الوقت لأن نمضى إلى عمل أبولون المباشر فى إنشاء مدينة القرن الخامس أى عمله كمشرع ، لأن الأنبياء الذين « يتكلمون » فى دلفى مثل أنبياء إسرائيل ، يسبقون ليمهدوا السبيل للقانون المكتوب[2] .

---

(١) توكيديدس ٢ — ٦٥ — ٥ إن كلمة μετρίως معناها هنا « معتدل » أو « مناسب » أو « لائق » . وكلا التعبيرين يذكرانا بطريقة دلفى فى النظر إلى الأشياء . وفيما يخص استعمال أفلاطون أبولون ، (الأمر الذى يظنه كثيرون من القراء المسيحيين شيئا غريبا) أنظر الجمهورية ٤٢٧ . فلا يمكن حتى « للمدينة التى فى السماء » أن تعمل بدون ما لأبولون من تأثير منقذ . وفيما يتعلق بسوفوكليس (وهو أقرب إلى روح القرن السابع) أنظر O.T. ص ٨٦٣ وما بعدها . كلمة νοσεῖν (يمرض) هى الكلمة اليونانية المعتادة للتعبير عن الاضطراب الداخلى فى المدينة . وليست أسباب المرض الجسمانى عند قوم ليس لديهم دراية بعلم الطب بأقل غموضاً ، بل غالبا ما تكون أشد غموضاً من الاضطراب الاجتماعى .

(٢) إن كلمة نبى « بروفيتيس προφήτης » تعنى بالتأكيد « الرجل الذى يجاهر بما عنده » ، لا الذى يتنبأ بالغيب . وفيما يخص أنبياء دلف أنظر ڤيلاموڤتز .Oerstie, Introd to Choephoroe ، وخصوصاً صفحات ١٣٣ إلى ١٣٤ . ولتقدير مالهم من أثر ، أنظر الفصل الذى يتناول وحدة اليونان فى كتاب كورتيوس .History of Greece E.T الجزء الثانى ، الفصل الأول ، (ولكنه ليس حديثا من حيث تفاصيله) . وأحسن « أثر » يدل على تأثير دلف الاستعمارى هو النشيد البيثى الرابع فى بندار . أنظر أيضاً هيرودوت ٥ — ٤٣ .

الفصل الخامس

تطور حق المواطن

القانون أو قاعدة المعاملة العادلة

المساواة (ἰσονομία)

Ἐλεύθεροι γὰρ ἐόντες, οὐ πάντα ἐλεύθεροί εἰσι· ἔπεστι γάρ σφι δεσπότης νόμος. (Herodolus, VII—104)

رغم أنهم أحرار فإن حريتهم ليست مطلقة . لأن عليهم الآن سيد هو القانون . (هيرودوت ٧ — ١٠٤) .

لن أبغض الحكومة بعد الآن ، ولكنى سأطيع أوامرها برغبة صادقة ، فقد تأكدت أن تلك الأوامر إنما وضعت لخيرنا جميعا . ولن أعد الشرطى بعد الآن ، عدواً بل سأعتبره صديقاً .

Yiddish - Eng. Conversation Manual ص ١٩٦ الذى جمع لمناسبة الجمعية الروسية اليهودية) .

كما رأينا ، فغالبا ما يرجع انتعاش الولايات، مما أحدثته الأزمة الاقتصادية فى القرن السابع ، إلى تأثير موحى دلفى . فقد صار مذهب أبولون الإنسانى فى ضبط النفس والاعتدال جزءاً لا يتجزء من الحياة السياسية فى اليونان . ولكن يجب أن نحذر المغالاة فى سرعة ظهور أثر هذا المذهب . فإن الأهواء والانفعالات النفسية المريرة لا تهدأ بسهولة ، إذا ما أثارها الظلم والألم . وربما كان من الإسراف أن نتوقع هدوءها فى اليونان بسحر عبارة واحدة . وزيادة على ذلك فإن أضمن أنواع العلاج للهيئة السياسية أيا كانت ليس بأسرعها تأثيرا . فأبولون لم يثر هذا الشعور بل كان فى وسعه التمهل .

وهكذا كان التغلب على الفوضى بطيئاً وئيداً فى أغلب الدول اليونانية . وفى أنحاء كثيرة كان الإحساس بالمرارة أكبر من أن تؤثر فيه رسالة أبولون . وقد قامت فترة انتقال بين اضطرابات القرن السابع وعهد المشرعين الذى تلاها ، فيها أعدت اليونان نفسها لملاءمة الظروف الاقتصادية الجديدة ، وهيأت فكرها لتعاليم دلفى الجديدة . وتمتاز هذه الفترة بظهور الحكم الفردى الذى يعرف بحكم « الطغاة » .

يعد حكم الطغاه هذا مرحلة فى التطور الذى نحن بصدد تتبعه، أى فى نمو العوامل والمؤثرات التى بلغت ذروتها فى الحياة السياسية فى أثينا فى القرن الخامس . وكما يخبرنا هيرودوت وتوكيديدس ، كل بطريقته الخاصة ، فهؤلاء الطغاة « لم يعملوا شيئا يستحق الذكر » . فهم لم يقوموا بأى مساعدة خاصة للتقدم الروحى فى بلاد اليونان : فلم يعنوا بتقوية الشعور المشترك العام للجماعة ، ولا بتقوية حرية الفرد . وفى الأمور المادية أيضا ، رغم مشروعاتهم العظيمة اعتبروا عبئاً ثقيلا . ويقول هيرودوت الذى يعرف روح أهل البلد الذى اختاره موطناً له ، « لم يكن الأثينيون تحت حكم الطغاة متفوقين فى الحرب على أى دولة من جيرانهم ، ولكنهم لما تحرروا من طغاتهم ،تجاوز تفوقهم الحربى كل الدول . يدل ذلك إذن على أن الأثينيين كانوا يتصفون بالجبن فى تصرفاتهم طالما كان الظلم واقعاً عليهم ، ذلك لأنهم كانوا يعملون من أجل سيد عليهم ، لكن لما تحرروا أصبح كل فرد متحمسا ليعمل لنفسه[1] » .

وما كنا لنتجاهل هؤلاء الطغاة كلية وقد لعبوا دوراً فى تطور قصتنا . فهم الذين وضعوا أمام أعين اليونانيين بأجلى صورة حاجتهم إلى قانون مكتوب ، وهم الذين استحثوهم بذلك على تطبيق تعاليم « دلفى » العامة الغامضة ، وتدوينها على نحو ثابت .

---

(١) هيرودوت ٥ — ٧٨ ، ثم توكيديدس ١ — ١٧ . إن البيان المختلف تماماً ، الذى ذكره إيزوكراتيس فى (Paneg. ٧٥ — ٨٤) ، يجب أن يحمل على محمل غير جدى. Cum grano .

ومن السهل تفسير قيام الطغاة . فتزايد روح التذمر في الدول اليونانية المختلفة لا بد أن يؤدي عاجلا أو آجلا إلى ثورة عامة . ولكن لم يكن المظلومين والمتألمين قادة طبيعيين ، وكانت الأزمة فرصة ذهبية للرجال من ذوي الحيوية والكفاية أن يحتضنوا المصلحة العامة ، ويقودوا أحزابهم إلى النصر . فإذا ما سيطروا على الجماهير ، وقبضوا بأيديهم على زمام السلطة ، لم يكن من الصعب عليهم أن يحتفظوا بمراكزهم ، ويثبتوها من الجهة القانونية ، بل ويسلموها إلى أولادهم من بعدهم . وقد قامت في القرنين السابع والسادس مثل هذه الحكومات الفردية في كثير من دول اليونان وآسيا الصغرى مثل إفسوس وميلتوس وميتلين وساموس وكورنث وسيكيون وميجارا وابيدورس . وكان لأثينا أيضاً طغاتها، وإن كان ذلك قد جاء في مرحلة من تطورها تختلف قليلا عن غيرها كما سنرى .

وكما لاحظ أرسطو فأغلب « حكومات » الطغاة هذه كانت « قصيرة الأمد للغاية » . فأطول حكم كان حكم اورتاجوراس وخلفائه في سيكيون إذ ظلت حكومتهم قائمة زهاء قرن . ويعزى بقاؤهم كما علمنا إلى اعتدالهم الفريد في نوعه ! فالطاغية العادي ، خصوصاً في الجيل الثاني ، استحال عليه مقاومة اغراء الحكم ، وغالبا ما كان يستسلم إليه بأقصى وأعنف شكل . وقد اعتقد اليونانيون أنه من الصعب أن ينتظر من رجل تحرر تماما من جميع القيود الطائفية المعتادة ، تصرفا غير ذلك . وفي هيرودوت يسأل أحد المتكلمين ، وكان لا شك معبراً عن وجهة نظر المؤرخ ، فيقول « حقاً ، كيف يتسنى لحكومة فردية كمال النظام على حين كان يسمح لرجل واحد أن يعمل ما يشتهي دون أن يسأل عما يفعل ؟ وحتى لو منح أفضل الرجال مثل هذه السلطة فإنه سيغير اتجاه تفكيره . فإن الميزات التي يتمتع بها في منصبه تدفع به إلى العتو ، وأما الحسد فراسخ في نفسه منذ ولادته رسوخه في نفوس سائر الناس . وبهاتين الصفتين المتأصلتين في نفسه يصبح مليئاً بكل الشرور . فالعتو يدفعه إلى ارتكاب أعمال طغيان ، كما يدفعه الحسد إلى

الاشتطاط. وقد ينتظر الإنسان من رجل جمع فى يده قوة السلطان، أن يكون خالصاً من الحسد، إذ أنه يملك كل المزايا التى يتسنى لإنسان أن يحصل عليها، ولكنه هو نفسه ذليل قائم على العكس بتصرفاته إزاء الشعب. فهو يحسد أفضل الرجال الذين يعيشون فى ظل حكمه، ويسر بشر الناس وأسوئهم. وهو يسارع دائماً إلى سماع الوشايات، كما أنه أكثر الناس تناقضاً فى أعماله. فإذا ما أبديت له احتراما معتدلا ثار وغضب، لاعتقاده بأنه لم يحترم بما فيه الكفاية، وإذا غالى أحد فى احترامه اعتبر هذا التملق جارحا له ». وليست هذه اتهامات محددة، وقد يكون هـذا القول منسجما مع الإدارة الحسنة الناجحة. فالحاكم قد يكون متعجرفا، وسريع التأثر والتقلب فى أهوائه الشخصية، ولكنه يكون رغم ذلك نشيطا بعيد النظر. إن نغمة هذه الشكوى اجتماعية أكثر منها سياسية. وهى ترينا حياة النوادى فى أسوأ صورها، وذلك ما يراه الكثيرون فى دوائر أخرى. وتلقى ضوءاً قوياً على روح الدناءة الوضيعة، الجاثمة دائماً فى الحنايا فى كل الجماعات الصغيرة. فما من تربة أصلح لها من تلك التى هيأتها لها ظروف الحياة اليونانية. وقد انتصرت اليونان وحدها على هذه الإغراءات، واحتفظت بالنقاء لمدنها، بأن ملأت تفكير الرجال، وشغلت أيديهم، بأعمال غير شخصية كبيرة[1].

ولكن المتكلم فى هيرودوت لم يكمل اتهامه بعد فيقول: « وأحب أن أتابع القول فأذكر أهم شىء، فالطاغية يغير الحقوق والعادات التى آلت إلينا عن أسلافنا، ويغتصب النساء ويقتل الرجال دون محاكمة ». فالطاغية بمعنى آخر لم يعبأ بالحقوق القديمة فى حياة اليونان، ولا بالقواعد التى وضعتها المدينة، والسوابق التى نشأت تدريجياً حول تلك القواعد. لقد وطئها دون ما فكر أو تمييز، وانتهك حرمة كل ما هو مقدس، وأصاب الرجال إصابة بالغة فى أقدس مشاعرهم.

ومع ذلك فإن القوانين التى انتهكوا حرمتها لم تكن قوانين يمكن أن

(١) هيرودوت ٣ — ٨٠، أرسطو السياسية ١٣١٥ ب ١٣، ٣٨.

يؤاخذوا من أجلها . إن كل الناس يعرفونها ولكنك لن تجدها مكتوبة في أي مكان . فكل شراحها القدماء قد ماتوا ، وكلمات الوحي لم تكن واضحة وضوحاً كافياً لتذكر في السوق العامة . وأصبح العصر يتطلب شيئاً أدوم ، وأكثر تحديدا ، سلطة غير فردية ، حنكتها السنون ، ولها من السلطان والقوة ، ما يمكن المواطنين من الالتجاء إليها في ثقة واعتزاز في أوقات المحن . ويقول أرسطو « القانون له قوة الإلزام ، وهو في نفس الوقت أمر حكيم ناجم عن الحزم والتعقل . وحيثما نشتكى من أشخاص يعارضون رغباتنا وميولنا ، حتى لو كانت معارضتهم على حق ، فإننا لا نشعر بأى غضاضة عندما يجبرنا القانون على انتهاج الصواب » . فكل ما كانت الدولة اليونانية بحاجة إليه في ذلك الوقت كمحرك وضمان ، هو لوح قوانين مكتوب[١] .

وهكذا نكون قد وصلنا إلى ما بدا لليونانيين في القرن الخامس ، إذا ما استرجعوا الماضي ، أنه العصر الغامض الذى وضعت فيه القوانين . هذا وقد انتشر فن الكتابة في جميع أنحاء العالم اليوناني في القرن السابع . ومن حظ اليونان ، والعالم أيضاً أن الحاجة والظروف خلقت الرجال . فما قام به سولون لأثينا ، قام به ليكورج الغامض لاسبرطة ، وقام به الكثيرون غيرهما من المشرعين، الذين لا نعرف من أسمائهم إلا القليل ، للمدن اليونانية الأخرى في الشرق والغرب . وكانت القوانين الأساسية التى أصدروها في معظم بلاد اليونان أساساً محكما وطيداً لطريقة الحكم المشهورة المعروفة في القرن الخامس[٢] .

من الصعب علينا أن نتعرف أى دور لعبته القوانين « في الحياة الأثينية

---

(١) أرسطو .Eth ١١٨٠ ا ٢١ .

(٢) لا زال ليكورج شخصية يحيطها الغموض، كما كان بالنسبة لتوكيديدس الذى كان يحاول جاهدا أن يتجنب ذكر اسمه . وقد أصبح من المؤكد الآن أن ما قام به من عمل، لم يتم في أوائل التاريخ الاسبرطى ، بل في نهاية فترة من الاضطرابات طويلة ، كما يقترح توكيديدس (١ — ١٨ — ١) .

فى القرن الخامس . فلدينا نحن دستورنا المكتوب وغير المكتوب ، ومجموعة النظم للقانون الأساسى الدائمة التغير ، ولكنها بعيدة عن حياتنا اليومية ونحن أنفسنا لا ننفذها ، بل ولا نعرفها . فقد أسلمنا الاهتمام بها إلى الآخرين – للنواب والخبراء ومن يمثلهم . وبيننا وبين تنفيذ القانون ، يقوم رجال الشرطة والموظفون ، ويقوم بيننا وبين التشريع . البرلمان والحكومة . ولم يكن فى أثينا مثل هذا الوضع ، أى « حكومة » منفصلة عن الشعب .

وفى أسخيلوس تسأل الملكة الوالدة لبلاد الفرس « من هو السيد الراعى لجماعتهم ؟ » أى جماعة هؤلاء الغربيين الذين يحاربهم ابنها اجزرسيس . ويأتى الرد سريعاً موجهاً ، لا إلى البلاط الفارسى ، وإنما إلى الأثينيين من النظارة فى المسرح على سفح الأكروبول : « إنهم ليسوا عبيداً ، وإنهم لا يحنون الهامات لحكم أى حاكم » . وإننا لنكاد نسمع هتافهم ! وبعد خمسين سنة ، تكاد ترد فى يوريبيدس نفس الكلمات ، على لسان ثيسيس الملك ، البطل المثالى فى أثينا ، وذلك عند تأنيبه مبعوث أحد الحكام المستبدين :

يا سيدى الغريب مهلا ! لقد أسأت البدء
فى البحث عن سيد هنا . فلا سيطرة لشخص ما
على هذه الأرض . إنها مدينة وحرة .
والشعب كله سنة بعد سنة سواء فى الخدمة – هو ملكنا .
فليس هناك « حكومة » فى أثينا ، فالناس هم « الحكومة »[1] .

ولكن وإن لم يكن للناس سيد ، فإن الأمر لم يكن فوضى فيما بينهم . فالأثينى فى القرن الخامس لم يكن يعرف فى حياته الخاصة ، ولا فى حياة الهيئة التى ينتمى إليها — معنى أن يعيش الإنسان دون رقابة . فعلى الرغم من كل الحرية التى يتمتع بها ، فالطاعة كانت قانون وجوده . فالسيد الذى

---

(١) أسخيلوس ، الفرس ٢٤١ — ٢٤٢ ، يوريبيدس Suppl ٤٠٣ وما بعدها .
(ترجمة مورى) .

اعترف به ، وكان على اتصال دائم به ، بل على اتصال يومى ، لم يكن بشراً مثله ، وإنما كان قوانين الدستور ، التى خطت على أعمدة من الحجر حتى تكون ماثلة دائماً أمام ناظريه . وأطاع أوامرها بإرادته واختياره ، لأنها تمثل عمل العقل خلوا من نقائص هؤلاء البشر ونزواتهم . فصوتها دائماً هو هو ، وأوامرها عادلة . فالقوانين التى تكتب على حجر ، وتتوارث من الماضى لا يمكن أن تحترم أشخاصا :

فبالقوانين المكتوبة يكون أصغر رعايا الدولة شأنا ،
متأكداً من مساواته مع أى عظيم أمام العدالة .

وهو ما يقوله ثيسيس فى « يوريبيدس » . وهكذا رأى الأثينيون ، أنه من السهل أن يعيشوا معا ، فى عدل وأمان فى ظل قوانين سولون العادلة . ويتساءل هيرودوت ، « ألم يكن حتى اسمها هذا جميلا — النزاهة » . ويمكن أن نفهم الآن لماذا لم يكن التحذلق ، ولكنها العادة وإخلاص العمر كله ، الذى جعل سقراط يرفض فى سخط رأى أصدقائه ، بالهرب من السجن . فما من رجل يرجحه فى طلاقة التفكير ، ولكنه كالاسبرطيين فى ثيرموبيل « لم يكن حراً حرية مطلقة » ، لأنه « كان يعلوه سيد هو القانون[1] » .

---

(١) يوريبيدس .Suppl ص ٤٣٣ وما بعدها ، ثم هيرودوت ٣ — ٨٠ و ٧ — ١٠٤ ، أنظر ٥ — ٧٨ و ١ — ٢٩ ، ثم أفلاطون ، Crito (أقريطون) ٥٠ . أنظر ڤيلاموڤيتز ، Aus Kydathen ص ٤٧ وما بعدها ، ثم .A. A ١ — ٤٥ . وقد تناول أفلاطون وأرسطو ثانية مطلب « الملك الفيلسوف الذى لا يرجى تحقيقه . أما الفوضويون المحدثون ، فقد اخترعوا ثانية « قوانين غير مسطورة » . وكان ثيسيس يعرف خيراً منهم ، أن « العدل » كان الأساس الذى قامت عليه الحكومة الذاتية الأثينيه . ومن هنا كانت هى ، صيحة حرب طبيعية بالنسبة لذلك الحزب المعارض للتوسع فى الحكم الشعبى . وهو حزب « الأوليجارشيين » ، أو الأرستقراطيين الذى أشير إليه فى ص ٩٠ . فلو استتب « العدل » فما حاجتنا للحكومة الذاتية أو للامبراطورية ؟ أنظر توكيديدس ٨ — ٩٧ (ὀλιγαρχία ἰσόνομος) فى ٤١١ ، ثم ٣ — ٦٢ — ٣ بيوتيا (التى حصلنا بشأنها ، على البيان الكامل الوحيد الذى يبين بالتفصيل سير قانون الأقلية (ὀλιγαρχία ἰσόνομος) ، (أنظر ص ١٦٧ فيما يلى) ، ثم ٨ — ٤٨ — ٦ حيث يبين فرينيخوس ، كيف أن مثل هذه الأوليجارشية لا يحتمل أن تكفل حقا ، « عدلا » لكل أقسام السكان .

ولم نعرف إلا شخصية واحدة من شخصيات واضعى هذه القوانين المكتوبة ، تلك هى شخصية أحكم هؤلاء الأشخاص ، وأكثرهم نجاحا ، ذلك هو سولون الأثينى . أما الآخرون فليسوا إلا أشباح « رجال حكماء » . ولكن لدينا ما يكفى للكشف عن الخطوط الأساسية العامة لأعمالهم ، ولبيان روحهم الخاصة . فالأقوال الحكيمة التى بقيت بعدهم، على أنها جاءت من بين شفاه « السبعة الحكماء » ، تحمل دلائل تأثير أبولون الشافى . فهم لم يطلبوا الى إله أن يتبنى أعمالهم ، كما فعل اليهود ، ولكنهم واصلوا هذه الأفعال بروح ترضى الإله الذى يعبدونه . فأقوال مثل « من العسير أن تكون طيبا » و « لا تقل عن أى انسان أنه سعيد إلا بعد انتهاء حياته » ؛ وكثير غيرهما ، مما نعرف أنها كانت شائعة وصادرة عن حكماء أثينا فى القرن الخامس ، لتشهد بتأثير تلك الحكمة اللطيفة اللينة الساحرة التى كانت تصدر عن موحى دلفى. فتعاليمها اللطيفة البسيطة تطرقت بعمق إلى قلوب اليونانيين ، إذ كانت طبيعتهم مستعدة لتقبلها[1] .

وهناك خاصية واحدة يمكن أن نتتبعها فى أعمال هؤلاء المشرعين جميعاً — وهى محاولة إعادة وحدة الدولة ، بتحديد استغلال الثروة . فقد كان استكشاف الذهب والفضة المفاجىء ، أو على الأصح ما يمكن شراؤه بالذهب والفضة ، هو الذى أغرى الأرستقراطيين بأن يكونوا ظالمين . وكان الحكماء من السداد بحيث أنهم رأوا أن أحسن الطرق لعلاج تلك

---

(١) مثلا هيرودوت ١ — ٣٠ (سولون وكريسوس) . ومن المؤكد أن هذه القصة لا تسجل طبعاً ، حقيقة ما قاله (سولون لكريسوس) ، الذى يحتمل ألا يكون قد رآه مطلقاً ، ولكنها سجلت « ما كان يجب عليه أن يقوله » . وفى الكتاب الأول وحده عدة قصص أدبية أخرى، تنتمى إلى تلك الدائرة ، مثل « أريون والقراصنة ، أو مصادر الفن غير المنتظرة » (الفصل ٢٣ إلى ٢٤) ، ومثل « قبر نيتوكريس أو كيف تغرى الذرية » ، (فصل ١٨٧) ، « وكانداولس وجيجس ، أو الأشياء التى يحسن بالمرء الاحتفاظ بها لنفسه ، (σκοπέειν τινὰ τὰ ἑωυτοῦ) ، الفصل الثامن) ، لاحظ السرور الناس الذى ينتج عن إحباط أعمال ضاربى العملة (كما فى قصة رامبسينيتوس) ، قارن أفلاطون « بروتا جوراس ٣٠٤:٣ .

العلة ، هو القضاء على ذلك الإغراء بقدر الإمكان . ولهذا السبب نراهم لم يفرضوا الاعتدال وحده فحسب ، بل الرزانة فى السلوك ، والبساطة فى المظهر الخارجى ، وقد ذهبوا فى التشريع ضد الترف إلى أبعد ما توصلهم إليه جرأتهم ، وتسمح به روح زملائهم القرويين . فبينما فرض ليكورج على كل الاسبرطيين ، زيا واحدا وحدد قائمة أكلهم اليومية ، وكيف يأكلونها ، لم يذهب سولون إلى أبعد من تحديده جهاز الفتاة الأثينية بثلاثة أكسية ، ومنع استئجار النادبات فى المآتم ، وبألا يدفن مع الميت أكثر من ثلاث حلل . إلا أن الغرض من كلتا الحالتين واحد ، وهو التخلص من عدم توازن الثروات فى الدولة ، لا بمجرد وضع القوانين العادلة ، ولكن بجعل الأغنياء يظهرون بقدر الإمكان بمظهر الفقراء . فالرجال يجب أن يشعروا بأنهم مواطنون ليس إلا ، لا نبلاء ولا تابعين لأحد . وقد كان ذلك هو العلامة الظاهرة الملموسة للديموقراطية المقبلة . لقد كان سولون من الحكمة ، بأن كشف قبل أرسطو بقرنين ونصف قرن ، أن تكوين العادات الطيبة فى الناس ، أهم من وضع القوانين العادلة لهم[١] .

لقد وصلنا إلى نقطة فى بحثنا ، يمكن أن نركز اهتمامنا فيها على أثينا . لقد كنا إلى الآن نحاول أن نفهم ما فى المرئية من العناصر المعتبرة يونانية خالصة . فابتداء من سولون ينصب كل تعليقنا على ما هو أثينى قبل كل شيء . إذ منذ ذلك الوقت تخلف أهم منافسى أثينا ونظرائها تدريجيا عن الميدان . فى اليونان كلها ظهر مشرعون ، ولكن سولون هو واضع أفضل الأسس .

---

(١) سولون فى بلوتارخوس ٢١ . إن أحسن ما ذكر عن سولون هو ما أورده فلاموفيتز ، إذ قد ربط بين تاريخه وشخصيته فى A.A. الجزء الثانى ص ٥٩ وما بعدها . أنظر التفصيل فى كتاب Gilliard, quelques réformes de Solon (لوزان ١٩٠٧) ، الذى أعاد طبع الأشعار بطريقة ملائمة . وقارن بتشريعات سولون فيما يخص المصروفات ، إدخال محمود المصلح الطربوش وتعميمه بين رعاياه العثمانيين . وكل من راقب الجموع المزدحمة على غلطة Galata ، أو حضر الصلاة فى جامع تركى ، لابد أن يكون قد عجب من تأثيره ، الذى يسوى بين الناس جميعاً .

وزيادة على ذلك فعند هذه النقطة عينها من التطور ، رفضت اسبرطة ذلك الرفض الكبير ، الذى جعلها تنحدر تدريجيا إلى دورها المعروف فى القرن الخامس ، وهو تزعم الرجعية . فلم يكن لديها الشجاعة أن تطبق قانونها الجديد على كل السكان الذين يعيشون فى حدودها . لقد أقامت العدالة ، أقامتها للمواطنين الاسبرطيين فحسب ، وعلى ذلك فشرعها بدلا من أن « ينشر درعه القوى على الطرفين المتنازعين » ، كما فعل سولون ، قوى فريقا على حساب الآخر ، وأوجد تفرقة دائمة بين المواطنين والتابعين ، أو بمعنى آخر بين الحاكمين والمحكومين . وهذا بطبيعة الحال يفسر ذلك التقشف المسرف العجيب فى قوانين اسبرطة . فلم تكن بساطتها هى تلك البساطة الرزينة ، التى ترمى إلى التقريب بين الغنى والفقير فى ظل نظام مشترك من الحياة ، بل اتخذت ذلك النظام الموحد الذى نراه فى حياة الثكنات القاسية ، لأمة من الجنود معسكرة باستمرار ، كأقلية وسط أعداء ألداء لا سبيل إلى استرضائهم . فليس هنا أى مجال لذلك الاعتدال اللطيف الذى ينـــادى به أبولون ، فقد أولت « سفروسينى » لا على أنها المزاج المنقذ الذى قال به سولون ، بل على أنها نظام شديد غير إنسانى ، لا يمكن لأى جنس من البشر أن يخلص له من قلبه . ولم يمتثل الاسبرطيون لهذا النظام ، إلا لعدم سنوح الفرصة لهم ، لانتهاك حرمته . وفى « القوانين » يقول اسبرطى لأرسطو ، « عندما يكون أثينى طيبا صالحا ، فإنه يكون طيبا منتهى الطيبة والصلاح ... قد شاءت العناية أن يكون الأثينيون وحدهم ، هم الطيبون بطبيعتهم عن حق وإخلاص ، من غير إرغام وإجبار » . ويقول أحد الأثينيين (كما ورد فى توكيديدس) إلى الاسبرطيين المجتمعين ، « أما قوانينكم فليس لأى مدينة غير اسبرطة نفع فيها ، وإذا كان أحدكم خارج اسبرطة فأنتم أنفسكم لا تراعون هذه القوانين ، بل أنتم لا تراعون كذلك قوانين اليونانيين العاديين » . ولا ريب فى هذا ، لأن الحياة فى عرف المعسكرات أو الدير ، (إذا أسأنا استعمال هذه الكلمة

الحلوة) لا تتيح الفرص التى تهيىء الرجال لمواجهة صروف الزمان وتقلباته [١] .

فلنبحث إذن طبيعة القوانين التى أوصى سولون « الأثينيين بطاعتها » . ويجب أن نذكر أن قوانين اسبرطة كانت مخالفة تماما ، فقد كان بين ليكورج وسولون، كثير من المشرعين الهيلينيين ، الذين تقاربت قوانينهم إلى حد كبير من مستوى قانون الأثينيين[٢] .

ما معنى المعاملة العادلة ؟ إن دستور أثينا لأرسطو ، الذى اتخذ كاتبه (مهما تكن شخصيته) من أشعار سولون هاديا له ، خص ثلاثة من أعمال سولون بأنها ذات أثر بعيد . « وأول الثلاثة وأهمها ، أنه حرم على الرجال أن يقترضوا بضمان أشخاصهم . والثانى ، أنه سمح لأى فرد أن يطالب القضاء بإنصاف من ظلموا إذا أراد ذلك . والثالث ، الاستئناف أمام محكمة الشعب . وهذا الأمر هو الذى ، كما يقولون ، أعطى الناس أكبر سلطة حصلوا عليها . إذ ما دام الشعب قد أصبح صاحب السلطة فى الأحكام ، فقد غدا صاحب السلطة فى الدستور » . ولنتناول إذن هذه النقط الثلاث بالترتيب[٣] .

حين دعى سولون ليضع لأثينا قانونا ، لم يجد نفسه فى أرض بكر ، أو حراً فى وضع دستور جديد من عنده . لقد كان أول واجب عليه ، أن

---

(١) توكيديدس ١ — ٧٧ — ٦ ، وأفلاطون — القوانين ٦٤٢ C. (أنظر التذييل) .

(٢) خير هذه الدساتير المعروفة هو دستور جورتين فى كريت ، الذى اكتشف عام ١٨٨٤ ، ويرجع تاريخ بعض أجزائه إلى القرن السابع ، ولكن قد تم وضعه فى صورته الأخيرة، فى النصف الأول من القرن الخامس . وفيما يخص المشرعين الآخرين مثل زاليكوس وخارونداس وفيدون ، أنظر (ماير) فى تاريخه الجزء الثانى فقرة ٣٦٠ والمراجع . وربما نشأت الحركة الدستورية فى أيونيا ، كما نشأ الشعر اليونانى والفلسفة اليونانية ، ولكن كل ما تبقى من أصلها الأيونى ، عمود من الحجر مكسور من خيوس . ولا يثبت هذا العمود آثار دستور مكتوب فحسب ، بل يثبت كذلك قانون محكمة شعبية ، أنظر ڤيلاموڤيتز ص ٦٤ — ٧١ (Nord - Ionische Steine) ، ثم (Staat und Gesellschaft) لنفس المؤلف ص ٧٨ (الطبعة الثانية ص ٨١) .

(٣) Ath. Pol. ٩ — ١ .

يخلص أثينا من الفقر والفوضى ، اللذين هوت إليهما أثناء المحنة التى أحاقت بالمزارعين . فقد كان الفقراء يطالبون ، كما هى العادة فى اليونان كلها ، كلما حلت بهم الأزمات ، بتقسيم الأراضى من جديد على أساس المساواة . وكان الأغنياء أصحاب الأملاك يعانون كثيراً من محاولة زرع أراضيهم بواسطة عبيد الديون . وهكذا كانوا متهيئين لقبول تغيير جديد ، ورأى سولون نفسه أمام حالة تستوجب علاجاً حاسما ، فألغى دفعة واحدة جميع ديون الفلاحين بإعلانه ما عرف فى التاريخ، فى لغة Pilgrim's Progress « برفع الأعباء » . ثم اتجه بعدذلك إلى تحرير الأثينيين الذين بيعوا رقيقاً فى الخارج، مستغلا كل مال عام أو خاص ، استطاع الحصول عليه لهذا الغرض ، واعتبر تنازل الرجل عن حريته نظير نقود ، عملا باطلا غير قانونى . وقد أعيدت إلى الفلاحين ملكية الأرض التى ورثوها عن أسلافهم ، (رغم أن التقاليد القديمة ، التى تقضى بعدم انتقال الملكية من شخص إلى آخر ، كان قد انتهى أمرها بطبيعة الحال) ، وسنت عدة قوانين عملية لتحسين حال الزراعة . وعادت أتيكا تسير فى طريقها ثانية كبلد أدله زراع مالكين ، وإن كان ذلك لم يخل من مصاعب كثيرة . إن الرجال الذين أقامهم سولون على أقدامهم كانوا أسلاف الفلاحين الذين نقابلهم فى أرسطوفانيز، والذين عارضوا بقوة ترك كرومهم وزيتونهم تحت رحمة البلوبونيزيين . لقد جعلوا بلدهم مشهوراً ، بكونه أحسن أرض زراعية فى اليونان ، رغم فقر تربته [١].

---

(١) سولون القطعة ٣٢ . بلوتارخوس — سولون ٢٣ (عن الينابيع وزراعة الزيتون وخليات النحل) ، ثم (Hellenica Oxyrhynchia) ١٢ — ٤ (زراعة أتيكا) . لقد كان تحرير مواطن من العبودية يعد عملا ينطوى على التقوى . إن أسماء مثل ليساندروس (Λύσανδρος) وكثير غيرها، مما يبتدىء بالمقطع ليسى(— Λυσι) تثبت تلك العادة، جلوتز Solidarité ص ٣٢٩ وما بعدها، الذى اتبع رأى جروت، قد نقض، على ما أظن ، القول (القائم على عدم الدقة فى قراءة أرسطو فى السياسة ١٢٦٥ ب ١٧) بأن سولون قد حدد مقدار الأرض التى يمكن للفرد تملكها ، كما هو الحال فعلا فى بعض مقاطعات سويسرا . فقد كان وضع قيود جديدة على الاتجار فى الأراضى ، أو فى أى شىء آخر مخالفا لآرائه . أما أن يفرض قيوداً على القروض فأمر محتم، ولكن ذلك قد أدى إلى متاعب كما سنرى، مثل ما أدى =

أما العملان الآخران اللذان أنجزهما سولون ، فيتصلان بالإدارة القضائية لا السياسية . فسولون ، كما رأينا ، لم يكن المؤسس لديموقراطية القرن الخامس ، لأنه أشرك الناس فى السياسة العامة ، بل لأنه كفل لهم العدالة فى المعاملة أو المساواة . فإذا كنا نفكر فى أثينـــا كأنها مرتبطة بالديموقراطية أكثر من ارتباطها بالعدالة ، فإنما مرجع ذلك إلى أننا أصبحنا بمرور السنين ، ننظر إلى إجراء العدالة بين الرجل والرجل فى المحاكم ، على أنه أمر طبيعى . ولكنه لم يكن كذلك فى أثينا عند مجىء سولون . وكان يجب إجراء تغييرين كبيرين ، حتى يطمأن كل شخص أثينى إلى المعاملة العادلة . فيجب على المدينة أن تتدخل نهائياً كما رأيناها تبدأ ذلك فى إليس (Elis) ، لتحرر أعضائها من طغيان ولايات أدنى من ذلك وأقل ، كما يجب أن يتسم سلطانها بقوة عادلة غير محابية ، لا سلطة طبقة أو فريق ، بل سلطة الشعب.

هاتان هما الفكرتان الرئيسيتان ، اللتان أدمجهما سولون فى نظام حكومة أثينا ، مقتدياً فى ذلك بوجه عام بسلفه دراكون . وقد أباح « لكل من يشاء » ، أن يرفع دعوى ضد أى اعتداء جنائى ، باستثناء بعض الجرائم المعينة الخاصة مثل جرائم قتل الوالدين . ولكى نفهم معنى ذلك ، يجب علينا أن نباعد بين أنفسنا وبين التفكير فى نظام الدولة الحديثة ، من شرطة ووزراء للعدل ، وأن نتصور أنفسنا فى عالم يلقن فيه الرجال ببطء ، كيف يرتضون سلطة أوسع من سلطة البيت أو القبيلة . وقد سئل سولون مرة عن أحسن مدينة آمنة محفورة فأجاب قائلا ، « المدينة التى فيها يتعقب كل الأفراد —

= إلغاء الحبس عندنا من أجل الدين ، الذى دافع عنه ديكنز . وقد أدى إلغاؤه إلى فضائح الإفلاس فى عصرنا الحاضر . والحق أن الاستعباد من أجل الدين لم يكن قد استؤصل نهائيا من الحياة الأثينية ، وقد عاد ثانية هو نفسه ، أو شىء مماثل له بما بعد . فمثلا فى Menander's Hero ، نسمع أن راعيا من المحررين اقترض نقوداً فى سنة ضنك ولم يستطع سدادها ، ومات تاركا أبناءه الأحرار المولد ليسددوا دينه . فهؤلاء يعيشون فى منزل الدائن مع عبيده المعترف بهم ، ويوصفون بأنهم « عبيد على شكل ما » (Hero ٢٠ وما بعده طبعة Teubner) . والواقع أن الاستدانة كانت موجودة قبل العهد السولونى وبعده ، ولكن ازداد انتشارها عقب استعمال النقود .

من عانى الضيم أو من لم يعانيه على حد سواء — الظلم ويعاقبون عليه » . وهدفه أن يجعل كل أثينى يشعر بمسئوليته إزاء توزيع العدالة ، ويعمل من أجل ذلك — يشعر بأنها واجب عليه ، لا كفرد إزاء صديق فى ضيق ، وإنما كمواطن فى مدينة حرة . ففى الدولة التى فيها يتوخى الرجال إقامة العدالة — فيها وحدها تصان أبداً الحرية الفردية . ويمكن أن نتتبع نجاح مجهود سولون، فى التقدم السريع المضطرد لنظام القانون الجنائى الأثينى ، حتى الأيام التى عرفناه فيها كاملا — أى إلى عصر خطباء القرن الرابع [١] .

وليس هنا موضع مناقشة هذا النظام بالتفصيل. ولكن الجدير بالملاحظة أن نواحيه التى يرجح، أنها ترجع إلى عهد سولون ، والتى كانت أول ما طبق بأعظم تفصيل — هى التى كفلت حماية الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة . ومن المحتمل حقيقة أن بدأ سولون بأن أباح لأى فرد إقامة دعوى جنائية ، فى الحالات التى يكون فيها الأشخاص الذين وقع عليهم الضر غير أكفاء شرعاً ، أو غير قادرين فعلا . على أن يكفلوا العدالة لأنفسهم ، ولا يستطيعون أن يحصلوا من عائلاتهم على وسائل التعضيد اللازمة . ويقول بلوتارخوس ، لقد سمح سولون لأى مواطن أن يقف إلى جانب ضحية الظلم لينصف الضعيف . وقضايا الإهمال (κακώσεως γραφαί) كانت منطقياً أول ما بدئ به . وهذه الإجراءات العامة التى بها وضعت الحكومة تحت رعايتها ، الآباء الفقراء ، أو المسنين واليتامى القاصرين والوارثات ، كانت تحاط دائما بجو من العالم القديم . فكان مقيم الدعوى يتجه إلى الأركون، وكان الرئيس الأعلى فى أيام المدينة الأولى . وميزت هذه الدعوى بنوع خاص ،فإجراءاتها كانت على الخصوص سهلة سريعة . فكانت تطرح القضية للمناقشة فى خلال خمسة أيام، وهى الدعاوى الوحيدة التى لا خطر فيها على المدعين.

---

(١) Ath. Pol. ٩ ، ثم بلوتارخوس ، سولون ١٨. إن الدعاوى الجنائية التى تضطلم بها الدولة بهذا الشكل عن طريق « كل من يرغب » ، تعرف باسم القضايا المكتوبة (γραφαί) ، لأنها كانت أول مادون من نوعها ، بعكس (δίκαι) أو القضايا المدنية من نوع المنازعات ،التى رأينا ديوكس يفصل فيها . (أنظر التذييل) .

فما من رسوم تدفع ، ولا خوف من غرامة على إقامة دعوى تافهة، ولا حتى وقت محدود للدفاع . وفقد الحقوق السياسية كان العقاب فى حالة الإدانة . وبدلا من أن يكون الأمر اغتصاباً عنيفاً، وإجراء ثوريا ضدحقوق العائلة ، فالقدرة على التدخل، والاقتصاص للخطأ، الذى ارتكب ضد الآخرين ساعدت فى البداية على حماية الأسرة وسد ثغرة فى حقوقها » . ولا شك أن ذلك هو ما حاول سولون إظهاره للرجعيين فى ذلك الوقت ، ولكن من المحتمل أنه كان بعيد النظر ليدرك من البداية ،النتائج المترتبة على جعل المدينة حامية لمن لا حول له ولا قوة . لأنه كان يعمل ما يحاول أن يقوم به الآن كثير من المصلحين الاجتماعيين ، سواء كانوا حكماء أو غير حكماء فيما يتبعون من طرق ، فقد كان يربط الدولة بمعانى الشفقة والرأفة فضلا عن معانى القوة . وما من عمل من أعماله أثبت وأرسخ من هذا . لقد نجح فى إقامة تقليد دائم من الرحمة والشفقة والكرم، بدا لأثينى القرن الخامس، من أقدم مفاخر أثينا الطبيعية . ولم يكن سوفوكليس فى أوديب كولونيس (Oedipus Coloneus) ولا يوربيدس فى « توسلاته » ، وحدهما هما اللذان رافقهما ذلك وبجداه ، بل ارتضاه كذلك وبجده توكيديدس العتيد . ولولا سولون لما سطرت أفظع فقرات مرثية بركليس التهكمية ، « إنا فى عملنا الخير نجرى على عكس البشر كله على خط مستقيم ، فنحن نحتفظ بأصدقائنا لا بقبول ما يقدمونه لنا من خير ، ولكن بأن نعمل الخير لهم[1] » .

ولكن لا فائدة من إحضار المذنبين أمام كرسى القضاء إذا كان النبيل ربيب زيوس ما زال متربعاً على ذلك الكرسى يصدر « أحكاماً عوجاء » ، فثالث أعمال سولون وأعظمها هو « جعل الشعب مصدراً لأحكامه » . وقد وصلنا إلى ذلك منذ عهد مبكر فى تاريخنا بإنشاء نظام المحلفين . ولكن

---

(١) Solidarité ص ٣٧١ — ٣٧٢ ، وقد فصل فى دارمبرج مقال (κακώσεως γραφή)، ثم توكيديدس ١ — ٢ — ٦، ثم ٢ — ٤٠ — ٤، ثم Isaeus ٣ — ٤٦ ، مقدمة مورى فى يوربيدس ٢٦ .

اليونانيين لم يهتموا بتحكيم هيئة صغيرة من الممثلين كتلك ، إذا استطاعوا تجنبها . فإذا كان على الشعب أن يصدر الحكم فيجب أن يحضر الجلسة الناس بهيئتهم الكاملة ، أو على الأقل جزء كبير منهم . وطبيعى أن ليس لديهم الوقت أو الخبرة ليقوموا بذلك يومياً ، أو فى كل قضية . ولذا لابد أن تترك الإدارة العادية للموظفين الذين أصبح أمامهم الآن قانون مكتوب يطبقونه ، لا تقليد غير مسطور يفسرونه . ولكن فى القضايا والأحوال غير العادية ، حيث يكون القانون غير واضح ، أو حيث يكون القرار موضع خلاف شديد ، أجاز سولون استئناف الدعوى أمام محكمة كبرى ، تتكون من عدة آلاف من المواطنين — أى شبه محكمة كبرى من الشعب تعقد فى العراء على مقربة من السوق العامة — ولم تعرف اختصاصات هذه الهيئة ولا طريقة تأليفها ، وأطلق عليها اسم هليبا (Heliaea) ، إذ لم نعرف الكثير عن القضاء العام إلا بعد أن قسمت هذه الهليبا إلى عدة محاكم ، تتكون من عدة مئات بدلا من آلاف من القضاة ، وهو ما نجده فى عهد بركليس . ولا نعرف من الذى كان يقرر نوع القضايا التى تعرض عليها . ولكن سولون قد شرع شرطاً واحداً يحتم ، أنه فى حالة الاختلاف فللشعب السلطة العليا على حكامه . وقد أوجب سولون على كل حاكم يعتزل منصبه ، أن يقدم تقريراً عما قام به ، إلى المحكمة العامة للشعب . فالقاضى وأمامه هذه التحقيقات ، قِبَل زمرة من الناخبين الغيورين المفطورين على كثرة السؤال ، ما كان محتملا أن يرتكب عمداً ما يغضب الشعب ، إنما الخطر كله كان فى الجهة الأخرى . وبالرغم من أن الجمعية العامة لم تدرك بعد سلطتها ، فقد زج سولون بأثينا فى غمار الديموقراطية خيراً أو شراً[١] .

كانت هذه القوانين أكثر قوانين سولون خطرا وأعظمها شأنا .

---

(١) المراجع بخصوص Heliaea فى الجزء الثانى من كتاب بوزولت Griechische Geschichte (الطبعة الثانية) ص٢٨٣ وما بعدها . واشتقاق ڤيلاموڤيتز الأخاذ لـ ἡλιαία ، « مكان الاجتماع الشمسى » ، لسوء الحظ ، لم يلق تعضيدا .

ولكن هناك قوانين غيرها كثيرة أقل أهميـة ، هدفت كلها إلى تحقيق الغرضين ذاتهما : تحرير الفرد من الروابط الصغرى ، وتوثيق اتصاله بالمدينة . وربما كان أهمها سن قانون الحرية . فمنذ ذلك الوقت سمح للأثينيين أن يتركوا ثرواتهم حيث شاءوا داخل القبيلة أو خارجها ، إذا لم يوهبوا وارثا شرعيا من الذكور » : والاستثناء كان ، بالتأكيد ، أهم عمليا من القاعدة ، ولكن لم يكن الأمر كذلك من حيث المبدأ . فالحرية الموهوبة بوصية حتى فى هذا الشكل المخفف ، كانت شيئاً جديداً فى العالم اليونانى . ويمكن أن نرقب اندفاع انتشارها من أثينا السولونية إلى أقصى بلاد اليونان[١] .

بقيت ناحية واحدة من أعمال سولون تستحق التنويه والتوكيد ، لأنها تومىء إلى المستقبل . فبلوتارخوس يقول لنا ، إن سولون يسر الحصول على حق الرعوية الأثينية للأجانب الراغبين فى استيطان البلاد مع عائلاتهم ، ليقوموا ببعض الحرف اليدوية . وتشجيع الهجرة أمر غير عادى فى الجماعات الناشئة فى العالم الحديث . وقد اعتدنا الدول التى تعلن فى الجرائد « عن مراكز خالية » ، كما يعلن أصحاب الأعمال الذين يطلبون عمالا جدداً . ولكن الدول اليونانية لم تكن قد تدربت أجيالا طوالا ، حتى تنظر إلى الأجنبى من حيث هو مجرد عامل . فقد كانوا فى طبيعتهم هيئات مختارة ، لا تقبل اشتراك غيرها معها ، ومقسمة بدقة إلى دوائر أصغر فأصغر ، ومختارة اختياراً أدق ، لا مكان فيها لأجنبى . وعلى ذلك فسياسة سولون تومىء إلى ابتداء تغير بعيد المدى . فمنذ الآن لم يعد الوافدون الجدد يحتقرون ، كما كان الحال من قبل ، ويعدون « أفاقين لا وطن لهم ولا بيت أو أرض » ، بل رحب بهم اليونانيون كزملاء نافعين ومساعدين فى أعمال الجماعة . أو بمعنى آخر أصبحت أثينا على استعداد لقبول دم جديد ، غير ناظرة إلا

---

(١) جلوتز Solidarité ص ٣٤٢ — ٣٤٥ . قارن العكس ص ٣٥٩ وما بعدها ، فيما يخص واجبات الأبناء فى نظام سولون . تعتبر قواعد أفلاطون الخاصة بالوصية (القوانين ٩٢٢ وما بعدها) مقياساً مناسباً لقدم أسلوبه .

إلى الكفاية والمقدرة ، بصرف النظر عن مسائل الدين والقومية . وسنرى ثمرة هذه السياسة فى التقدم المزدوج فى الأجيال القليلة القادمة ، فى ازدهار التجارة والصناعة ، التى مارسها هؤلاء المهاجرون الذين لا أرض لهم ، جنباً إلى جنب مع الزراعة . ثم فى تدرج تراخى الروابط ، التى لا زالت تربط الأثينى المولد بقبيلته وإقليمه المحلى . وفى كلا هذين الاتجاهين كانت سياسة سولون الحذرة ، والجريئة أيضاً ، قد مهدت « لكليستين الثورى القدير » ..

الفصل السادس

تطور حق المدينة

الحكومة الذاتية أو حكم الشعب

الديمقراطية (δημοκρατία)

تظهر الوظيفة الرجال — مثل يونانى . .Ἀρχὴ ἄνδρα δείξει

Ἀμήχανον δὲ παντὸς ἀνδρὸς ἐκμαθεῖν
ψυχήν τε καὶ φρόνημα καὶ γνώμην, πρὶν ἂν
ἀρχαῖς τε καὶ νόμοισιν ἐντριβὴς φανῇ.

ما من وسيلة بها تعرف الرجل ،
روحه وعقله وإرادته ،
إلا بعد أن يعجم عوده ،
فيعمل حاكما أو مشرعا .

سوفوكليس ، أنتيجون ١٧٥ — ١٧٧ . (عن ترجمة هوايتلو) .

من أسباب دهشة الراديكاليين المتهورين الدائمة ، أن تسمح الجماعات ذات الحرية الواسعة بقيام طبقة ممتازة ، بالحكم والسيطرة . فما يبدو لهم طبيعيا ، أنه إذا ما وضعت السلطة فى يد الجماهير ، فإنهم سيسارعون إلى استغلالها ، وخاصة إذا كان ذلك فى مصلحتهم إلى حد كبير . وأما أن يعطى رجل لايزيد مكسبه على ثلاثين شلنا فى الأسبوع ، صوته كمحافظ ، ويخضع لادعاءات أرستقراطية وراثية ، فأمر يفوق حد فهمهم . فمنطقيا تبدو وجهة النظر هذه معقولة للغاية ، ويبدو أن أثينا البركليسية أيدتها تأييدا قائما على الخبرة ، ولكن بالنسبة للواقع فإن كلا من نذر التاريخ ، وحقائق الطبيعة البشرية السياسية القاسية ، عارضت ذلك . فالتاريخ يقول — كما أدرك

ذلك الشخص « المتقدم » عن خبرة وتجربة — إن أمام الشعوب ، مهما كانت مواهبها السياسية ، أجيالا طويلة تقضيها فى التعلم ، لا بالمناقشة ولكن بالخبرة القاسية ، قبل أن تقتنع بتحمل عبء حكم بلادها . وقد كان الأثينيون ميالين إلى السياسة ، وموهوبين فيها كأى جماعة أخرى فى التاريخ ، ومع ذلك فقد ترددوا فى قبول الحكم الذاتى ، وتلكؤوا فيه . وقد أتى ذلك الحكم الذاتى متأخرا ، ومن غير ما تفكير أو تمعن غالبا ، فى تطور نظام دولتهم السياسى . فلو كانوا يستطيعون أن يحيوا الحياة السعيدة الهادئة ، فى ظل أى شكل آخر من أشكال الحكومات ، لوجهوا نشاطهم إلى مجرى آخر ، مثلهم فى ذلك مثل « الناخبين الصامتين من الطبقة الوسطى » فى أيامنا هذه ، أو مثل مواطنيهم السهلى الانقياد الذين يعيشون على ساحل آسيا الصغرى . ولقد عرف ذلك دائما المراقبون السياسيون المتيقظون ، الذين لم تعمهم الكلمات الخلابة ، ولا روعة أثينا فى القرن الخامس . فقد ازدهرت رودس ، شأن البندقية ، حتى أصبحت أعظم ميناء فى بحرها ، من غير أن تتخذ لها مع ذلك حكومة ديمقراطية . فأمراؤها التجار ، كما يقول عنهم سترابون ، « كانوا يرعون الشعب ، دون أن يكونوا ديمقراطيين ، أى أنهم كانوا يمدونهم بالطعام ، ويهيئون لهم الملاعب . ويقول أرسطو ، « إن شعب تاراس جدير بأن يتخذ مثلا يحتذى ، فهم يجعلون الفقراء فى حالة نفسية جيدة ، بإشراكهم فى الاستفادة من أملاكهم ، وعلاوة على ذلك ، فهم يقسمون كل مناصبهم قسمين ، قسم يشغل بالانتخاب ، والآخر بالاقتراع ، وذلك كى يضمن لهم القسم الأول أداة حسنة ، ويتيح الثانى إشتراك الشعب فيهـــا » . وليس الترنتيون الوحيدون الذين جعلوا من الموظفين دمى يستغلونهم فى أغراضهم الخاصة . فذلك أمر قديم نعرفه منذ عهد بيزستراتوس ، وحديث حداثة الاجتماعات الانتخابية التى عهدناها بالأمس . والذين يلجأون إلى هذا الأمر يؤيدهم عامل ، كثيرا ما ينساه المفكرون السياسيون ، وذلك وطأة الكسل البشرى . وخير للمثالى أن يترك برهة آراء جروت ومازينى ، وأن يقاب

صفحات عدد من الأعداد الانتخابية التى تصدرها جريدة «بانش» ، وسيرى نفسه بعد ذلك فى وضع يمكنه من تتبع ما اعتور تقدم الأثينيين من صعود وهبوط ، من النزاهة إلى الحكومه الذاتية (١) .

عند ما أتم سولون قوانينه غادر البلاد ، ولبث فى الخارج عشر سنوات ، حتى يتيح لدستوره فرصة حسنة ، ليجرب خير تجربة . ولما عاد كان كل شىء قد اختلط مرة أخرى ، وكان السبب اقتصادياً كالمعتاد . أما النواحى الأخرى لنظامه ، فقد ظلت ثابتة ، ولم يسمع أى شكوى من ظلم أو زيغ . فالسلطة القضائية الجديدة لم تكن نافذة فقط ، بل امتدت دائرة نفوذها ، واقتنع المحافظون بالتحلل من التشدد فى رعاية الروابط العائلية . إلا أن القرويين لم يكونوا سعداء ولا مطمئنين . فالفلاحون وإن كانوا قد رجعوا ثانية إلى ممتلكاتهم ، واستمعوا إلى النصائح الطيبة التى وجهت إليهم بشأن إدارة كرومهم وأشجار زيتونهم ، كان ينقصهم المال لتدبير أحوالهم ، وللمضى فى أعمالهم . ولم يكن فى مقدورهم أن يلجأوا إلى الاستدانة . وكان الصناع وصغار التجار . الذين ارتبطت مصالحهم بهم ، كانوا أيضاً يجأرون بالشكوى ، ولم تكن شكواهم موجهة ضد سولون وقوانينه ، بل ضد حكام المدينة الذين يطبقون تلك القوانين . فلم يعد يشترط أن يكون الرؤساء أو الحكام (الأراكنة ἄρχοντες) من النبلاء . . « فالمسنون » من رجال السوق العامة ، الذين ورد ذكرهم فى هومر ، ترقوا بالتدريج ، حتى صاروا عدداً ثابتاً من الموظفين فى الدولة ، يعينون فى مناصبهم لمدة سنة . وقد ذهب سولون إلى أبعد من ذلك بأن ترك مناصب الأراكنة التسعة ، مفتوحة للأثرياء ، من غير نظر إلى عراقة أصلهم . وسمح لمواطنيهم بحق انتخابهم ، على أن يكون التصويت بالقبائل . ومع ذلك فقد ظل الفقراء يشكون كثرة عدد ممثلى الأرستقراطيين فى مراكز الحكم . لكنهم توصلوا بعد سنوات قليلة ، إلى تسوية ضمنوا بها وجود عشر مناصب : خمسة منها

---

(١) أرسطو ، السياسة ١٣٢٠ ب ٩ ؛ ثم سترابون ٦٥٢ عند الآخر .

للأرستقراطيين ، وثلاثة للفلاحين ، واثنين للصناع . ولكن الداء كان أعمق من أن يستأصله مثل هذا التوازن العبقرى . فزاد التذمر استفحالا ، حتى انتهى الأمر بتقسيم الدولة ثلاثة أحزاب متعادية ، كل مستعد للنضال من أجل مصالحه الإقليمية والاقتصادية . فكان هناك السكان الأغنياء الذين يسكنون أثينا ، ورجال السهول ذوى المصالح المرتبطة بها ، ثم رجال الساحل ، وهم السكان الذين يعيشون فى القرى جنوب شرق أتيكا ، فيما وراء هيميتس إلى سينيوم . وأخيراً رجال الجبال ، وهم أفقر الفلاحين ، والرعاة الحطابون والفحامون فى الأقاليم الجدباء التى فى شمال أتيكا . ويبدا ابرهة أن ثيسيس قد حاول أكثر مما يستطاع ، عند ما عمل على إيجاد شعب موحد من أقاليم أكثر إتساعاً من رقعة أى دولة يونانية . ولكن لحسن حظ أثينا أن « ظهر رجل فى إسرائيل » . فالجبليون على رأسهم زعيمهم بيزستراتوس ، الذى لم يكن صديق الفقراء فحسب ، بل كان جنديا ممتازاً أيضا ، كما كان لديه ثروة كبيرة ، وكان متصلا بكثير من ذوى النفوذ. وقد نجح بصعوبة ، فى أن يجعل حزبه أقوى الأحزاب فى الدولة ، كما نجح من قبل فى جعل نفسه رئيساً له . واتخذ لنفسه حرساً خاصا ، كما فعل ديوسس ، ثم استولى على الأكروبول ، وغدا السيد المطلق فى المدينة[١] .

ولما أن قبض على زمام السلطة ، « باشرها بشكل دستورى أكثر منه استبدادى » . أى أنه احترم الأوضاع الدستورية ، ولم يأت بتغييرات دائمة فيما يخص العدالة . أما فيما يخص السياسة ، فقد سمح بأن تستمر النظم القديمة فى عملها تحت إشرافه وقيادته . فظل المجلس قائما ، كما ظل الموظفون ينتخبون سنويا . ولكن « الطاغية » بخطته الحكيمة فى السياسة الخارجية ، وعلاقته فيما وراء البحار ، كان هو الذى يحرك الأمور ، ويديرها كلها بنفسه . فإذا كانت أثينا قد غدت فى أواخر القرن السادس ، عاملا مهما فى السياسة الدولية ، ومدت نفوذها إلى الهيلسبونت ، وجلبت الثروة من مناجم الذهب

(١) Ath. Pol. ٧ ، ١٣ ، ١٤ .

فى تراقيا ، ثم صارت مركز المعماريين والشعراء والمثالين ، فإنها تدين بكل هذا إلى طاغيتها وأبنائه[١] .

وكانت أكثر أعمال بيزستراتوس بقاء ، معالجته للمشاكل الاقتصادية ، فقد بادر بحلها حلا نهائياً ، وذلك بأن قدم مالا من ثروته الخاصة للفقراء من الملاك ، ومعظمهم طبعا من المؤيدين له فى سياسته . فلما أصبح لديهم رصيد يكفيهم السنين العجاف ، أو يعتمدون عليه حتى تثمر أشجارهم ، انقضت مشاكلهم ، وزالت متاعبهم ، ولم يعد أثر لمشكلة الأرض فى أتيكا ، إلى أن أتى الاسبرطيون ، وخربوا الأرض الزراعية بعد ذلك بمائة وخمسين سنة. « لقد عاش الفلاح الآتيكى هادئا راضيا تحت كرمه وتحت أشجار التين ، ينظر بتبجيل إلى هبة آلهته ، أشجار الزيتون ، تلك الأشجار التى أخذت الدولة تعنى بها ، كما كانت من قديم ، حتى تزايد عاما بعد عام ، إنتاج أهم أشجار اليونان . ويرجع الفضل الأكبر لهذه النتيجة إلى استتباب الأمن . فلم يكن هناك عدو أجنبى ، يقضى على الأشجار ببلطته ، وإنما سلم مستتب داخل البلاد ، وعدالة موفورة ، سهلة المنال . نعم لقد فرض ٥٪ ضريبة على منتجاته ، تنبيها له بأن هناك سيد فى البلاد . ولكن كان يمكن الفلاح أن يذهب للانتخاب كل عام ، وإلى الجمعية العمومية كل شهر . فظاهر الحكومة الذاتية كانت باقية فى مجلس الكورة ، وفى المجلس العام فى العاصمة ، وهكذا كان لا يبالى بإعطاء صوته لمرشح الحكومة » . ولم يكن الإنسان فى حاجة لأن يسير فى أتيكا خلال عام ١٩٠٩ ، ويناقش دكتاتورية الحلف الحربى المقنعة عند العيون والآبار ، وفى القوارب الشراعية ، وعلى موائد الخبز والزيتون فى المقاهى بالقرى ، ليدرك كيف أن هؤلاء القرويين ارتضوا حكم بيزاستراتوس . فالإنسان يمكنه أن يتصور ذلك من المحادثات التى تقوم حول الديمقراطية فى موطنه هو ، وفى البلدان القريبة منه ، حتى

---

(١) Ath. Pol. ١٤ — ٣ ، ١٥ — ٢ ، ١٨ — ١ ، ثم هيرودوت ١ — ٥٩ ، ٦٤ .

أن أمجاد الحكومة الذاتية لم تقض على ذكراه كلية ، وظل الفلاحون طويلا ، يعدون عهد پيزستراتوس عهداً ذهبياً[1] .

ومات پزاستراتوس ، ولم يتمكن أولاده من حكم الشعب بمثل مهارة أبيهم . وقد أدت معركة شخصية إلى مقتل هيپارخوس ، وسممت عقل أخيه الأكبر هيپياس ، ولم يكن هارموديوس وأرستوجيتون المتهمان فيها ، شهداء فى سبيل الحرية كما صورتهما الخرافة فيما بعد ، فقد كان ينتميان لعصابة الطغاة ، ولم يكونا حتى ديمقراطيين . ولكن عملهما أدى إلى طرد الطغاة ، وكان ذلك نتيجة سلسلة حوادث سيئة غير متوقعة . فهيپياس ، ككل يونانى ، قد سئم حكم أناس لا يرتاح إليهم . فلما أرسلت اسبرطة قوة ضده ، بناء على ما أوحى به دلف ، كان فى إمكانه الاعتصام بالأكروبول ، ولكنه أراد أن يفاجىء كلا الطرفين ، بتسليم قوته والانسحاب إلى سيجيوم[2] .

لقد أصبحت أثينا حرة الآن . ولكن من سيحكمها — النبلاء أم الشعب ، السهليون أم الجبليون ؟ قام كليستنيز الألكمايونيدى زعيم حزب الشعب ، الذى يعتبر المسئول عما أوحت به دلف ضد هيپياس ، يطالب بالسلطة . ولكن إزاجوراس ، رئيس حزب السهل ، الذى كانت له باسبرطه صلات ، كان أقوى منه ، إلا أن إزاجوراس لم يكن پيزستراتوس . فهو لم يفهم طباع الشعب الناهض الذى حاول حكمه ، وارتكب غلطة قاضية ، كانت كافية لحسن الحظ ، لأن تدفع أثينا أخيراً إلى اعتناق المذهب الديمقراطى . فقد طلب جيشاً اسبرطياً يشد به أزره ، وعمل على إبقاء نظامه فى الحكم ،

---

(١) ڤيلاموڤيتز .A. A الجزء الثانى ص ٧٠ ، ثم .Ath. Pol ١٦ — ٤ (الذى يقول بأن الضريبة قدرها ١٠ فى المائة ، ولكن انظر توكيديدس ٦ — ٥٤ — ٥) . وقد جعل پيزستراتوس نفسه محبوبا من الشعب ، وذلك بأن أعفى الفلاحين من ضريبته ، إذا ما كانوا أفقر من أن يدفعوها . (انظر التذييل) .

(٢) هيرودوت ٥ — ٦٤ إلى ٦٥ .

بأن ألغى مجلس الشعب ، ونفى ٧٠٠ أسرة ، فأثار ذلك غضب الشعب . لقد تعود الشعب أن يحكمه النبلاء ، ولكن أن يرى فرقة من جنود اسبرطة الذين تعسكر فى الأكروبول ، بين مقصورات وتماثيل أقامها بيزستراتوس ، كان أكثر مما يحتمل تحمله . فأهاب كليستنيز وأعضاء المجلس بالشعب ، أن يهب إلى حمل السلاح ، وحاصروا الصخرة ، فمكثوا يومين بلياليها يرقبون كل مخرج . وفى اليوم الثالث استسلم الأجانب ، ولم تنس أثينا أبداً منظرهم وهم يهبطون المنحدر . وبعد ذلك بقرون — نجد جماعة المنشدين فى إحدى روايات أرسطوفانيز يطربون عند تذكر ذلك المنظر.

كيف ، مع كل تلك النيران الوهاجة العالية ،

حلت بالاسبرطى العجوز هزيمته .

وفى تقهقره بشكل مزرى ،

ترك رمحـــه وترسه معى ،

ثم انسل ولبس عليه سوى قميصه الخلق الوحيد ،

ولا يدرى أحد كم تراكم عليه من قذارات على مر الزمن ،

ثم وهو موصوم ومدنس

وذو لحية كثة شعثاء ،

مضى وتركنا أحراراً[١] .

أصبح كليستنيز الآن سيد الموقف ، وقد كان رئيس حزب الشعب ، كما أصبحت تشد أزره روح الاستقلال القومى الغنيد ، فشعرت أثينا فى تلك اللحظة بأنها أمة موحدة . وقد وطد كليستنيز العزم على أن يحفظ لها هذه الوحدة . فلم يرض أن يباشر السلطة العليا كما رفض سولون من قبله ، وفضل أن يواصل عمل سولون ، بأن يتم فى محيط الحكومة التنفيذية ، ما قام به سولون فى محيط العدالة . ولقد كانت أثينا نصف ديمقراطية ،

---

(١) Ar. Lys. ص ٢٧٥ ثم Ath. Pol. ٢٠ ، وهو كما يقول فيلاموفيتز يورد الحوادث فى ترتيب أحسن من هيرودوت ٥ — ٧٢ .

تجعلها ديمقراطية خالصة ، اسما وفعلا . فالدستور السياسى الذى ازدهرت به أثينا فى القرن الخامس ، كان فى جملته وفى أساسه من عمل كليستنيز ، إلا إذا استثنينا بعض التطورات التى كان لا بد منها . وهذا هو الوقت إذن ، الذى نقف عنده لنبحث هذا الدستور فى جملته .

تنقسم أعمال كليستنيز إلى قسمين ، فهو قد أعاد تنظيم كل من الحكومة المحلية ، والحكومة المركزية فى أثينا . وسنعرض لهذين القسمين كل على حدة ، متذكرين دائماً فى كل منهما السؤالين اللذين افترضتهما مرثية بركليس: ما مقدار السلطة التى وضعت فى يد المواطن العادى فعلا ، وما مدى التضحيات من الوقت والفكر التى يقتضيها واجبه نحو الجماعة العامة ؟ . فقد كان من فخر بركليس أن استطاع مواطنيه الجمع بين جميع مسئولياتهم ، الخاصة والعامة ، حتى أنهم كانوا أكثر العمال السياسيين نشاطا وحركة ، وفى نفس الوقت ، أكثر معاصريهم تنوعا من حيث الميول والمشاغل (مما نعتبره اليوم مستحيلا) .

ولنبحث أولا الحكومة المحلية فى أثينا ، فهى المجال الذى قام فيه كليستنيز بأكثر أعماله جرأة ، ويمثل نواحى مهمة عديدة . إن نظام هذه الحكومة المحلية ، لم يتضح لنا نسبيا ، إلا فى السنين الأخيرة فقط ، ويرجع ذلك إلى اكتشاف « دستور أثينا » ، وإلى دقة الباحثين والعلماء ، أكثر مما يرجع إلى وفرة النصوص : لأن تلك الحكومات المحلية الصغيرة لم يكن لديها الوفير من المال لتنفقه على قطع الأحجار . إن النظام الذى نحن بصدد وصفه كان نافذاً كله فى عصر بركليس ، ولكن الناس كانوا يعدونه أمراً عاديا مفروغا منه ، ولم يتكلم عنه كبار الكتاب إلا قليلا . وكان توكيديديس ميالا إلى إغفاله كلية . كما لا يمكن لأى كان ، أن يستنتج من المرثية أنه قد وجد على الإطلاق ، لو لم يكن قد ذكر عرضا فى الفصل التمهيدى ، أن رماد كل ميت من الجنود وضع فى تاووس « قبيلته » .

كانت المشاكل الخاصة بالحكومة المحلية ، إذا لم تكن قاصرة على أتيكا ، فعلى الأقل كانت فيها أعقد بكثير منها فى أى جهة أخرى . ويعزى ذلك إلى أمرين : اتساع مساحة الأرض ، وإلى كون الناس ، حتى بعد الوحدة السياسية ، قد استمروا يعيشون فى القرى . والصعوبات التى واجهت كليستنيز اثنتان : أولاتهما كيف يمكن الجمع بين إدارة محلية ناجعة ، وبين حكومة مركزية قوية . وثانيتهما ، كيف يمكن التوفيق فى الريف ، بين مطالب العائلة ، وبين المصلحة المحلية .

ولنبحث الثانية أولا . لأنها أقدم المشكلتين :.

لقد رأينا أن من بين تلك الولاءات الصغرى ، التى عاقت تقدم الدولة المدينة فى العصور الوسطى ، اثنين بارزين تماما . فالنبيل الذى من نسل زيوس ، لم يكن وطنيا بمعنى الكلمة ، نظراً لما عليه من واجبات نحو قبيلته . وكذلك القروى الفقير ، لم يكن وطنياً أيضاً ، وفى الواقع لم يكن وطنيا قط — نظراً لواجباته نحو جاره . فمن الغريب حقا أن كان القروى الجاهل ، كما حدث فى بلاد أخرى ، هو الآخر متمسكا بأكثر الفكرتين تقدما . وترجع رابطة الدم فى القبيلة إلى عهد البداوة ، بينما كان الرباط المحلى الذى يربط المواطن بشارع القرية حديثا بالنسبة له . ولكن الاثنين كانا مبدأين قويين ومتأصلين ، تصارعا بعنف من أجل السيادة فى حكومة أتيكا المحلية .

فلنقارن بين عملهما . لنفرض أن ثيسيس ، أو أى حاكم كبير غيره على رأس الحكومة المركزية ، أراد الحصول على نقود لبناء السفن ، ليجلب بها أريادنى من كريت . إنه يمكنه أن يعمل أحد أمرين ، فيستطيع أن يطلب من رئيس العشيرة أو القبيلة أن يجمع نقودا للسفن من أهل عشيرته ، الذين قد يكونون قاطنين فى أنحاء مختلفة من أتيكا ، أو يستطيع أن يبعث إلى القرى المحيطة ، ويلقى المسئولية على بعض الرؤساء من رجاله ، أو ممن يختارهم القرويون .

أما من حيث وجهة نظر ثيسيس ، فمن الواضح ، أن الطريقة الثانية أنسب الطريقتين ، فهو يعرف تماما مع من يتعامل فى كل حالة ، ويتأكد من أن كل قرية قد أدت ما عليها . وبالتالى كلما نشرت الحكومة المركزية نفوذها ، كلما ازداد المبدأ المحلى رسوخا ، واعتاد الرجال أن ينظروا إلى أنفسهم لا كأبناء عشيرة ، ولكن كأعضاء فى كورة واحدة . وهذه الكور الأولى ، كانت تقوم بتنظيم أعمالها ، عن طريق مجالس تهتم بأمور الكورة ومصالحها ، مثل إنشاء الطرق وحفر الآبار ، أو بالأعمال التى تفرضها عليهم الحكومة المركزية (وكانت لا شك مالية بصفة عامة) . وقد كان رئيس مجلس الكورة ، أو رئيس القرية شخصية مهمة ، إذ كان يعالج شئون القرية المالية ، وينظر فى أمر الحصول على الأموال اللازمة ، ويطلق عليه لقب ناوكراروس ، أو صانع السفن ، لأن المال كان يطلب للسفن عادة . وكانت الأساطيل تتطلب أموالا كثيرة، وبذا كانت ترهق الحكومة المركزية، وتتطلب منها أموالا أكثر مما تتطلبه الجيوش ، إذ كان إعداد السفن يفوق تكاليف الحصول على الرماح والدروع . ومن ذلك عرفت الكورة فى أتيكا بمنطقة سفن أى ناوكرارى ، نسبة لأهم واجب قومى عليها . وكان على الكورة أن تجهز سفينة واحدة ، وتعد بحارا واحدا لكل وحدة من وحدات الأسطول . وبما أن السفن إذ ذاك ، كانت ذات خمسين مجدافا ، فقد وجب أن يكون هناك نحو خمسين كورة[1].

---

(١) Ath. pol. ٨ — ٣ ثم ، جلوتز Études ص ٢٤٣ ومابعدها، (وهوالذى يأخذ كلمة Ναύκραροι من الأوديسة ٨ — ٣٩١ بمعنى ربابنة السفن) ، ثم ڤيلاموڤيتز A.A. الجزء الأول ص ٩٦،ثم كاڤيناك Études sur l'histoire financière d'Athènes au ve siècle طبعة (١٩٠٨ ص ٧) ثم المراجع فى دارمبرج وساجليومقال (Naukraria)، وكان العدد الصحيح للناوكرارى ٤٨ ربانا ، وربما تكون الحكومة المركزية هى التي عينت الرجلين الزائدين . أنظر يوربيدس . Suppl ٦٥٧ — ٦٥٨ ، وملاحظة مورى فى نص أكسفورد حيث يذكر أنه كان لثيسيس ، مثل ما كان للوك مقدونيا ، فصائل من المحاربين خلاف جيشه الإقليمى. ويمكن أن يعادل « صناع السفن » الأتيكيين كلمة Αεϊναῦται أى (الملاحين الخلص : إلا إذا كانت هذه الكلمة تمت ، كما يظن البعض إلى كلمة ναίω فى ميليتوس وخالكيس، أنظر المراجع فى كتاب وهلم Beiträge zur griechischen Inschriftenkunde ص ١٢٣! (وهو كتاب يراه ، مفيداً تماماً الطالب المتمهل ، الذى يعرف كيف يستعمل فهرساً) .

إلا أن عدد خمسين كان كبيرا ، كما كانت بعض مناطق السفن بعيدة جدا ، فكان ثمة خطر ظاهر ، وهو أن ينقطع اتصال هذه الكور بالحكومة المركزية . وقد كانوا يتفادون ذلك فى أتيكا قديما بطريقتين . الأولى ، بإدماج التقسيم القائم على أساس مناطق السفن ، فى التقسيم القديم القائم على أساس القبيلة والعشيرة الذى سنعود إليه سريعا . والثانية ، بمنح رؤساء الكور أنفسهم ، مراكز فى الحكومة المركزية . وبخلاف كثيرين من « السكان المجاورين » كانوا يدعون إلى أثينا لحضور « مجلس » قومى ، ويجلسون فى مكان الرؤساء (πρυτανεῖον) ، تحت رئاسة أحد « موظفى » المدينة أو « حكامها » . ولما كان عدد ثمانى وأربعين كبيرا ، بالنسبة للسرعة اللازمة لإنجاز العمل الذى يعرض عليهم ، فقد كانوا ينجزون الكثير منه ، فى لجنة صغيرة مكونة من أربعة أشخاص منهم ، يعرفون « برؤساء صانعى السفن » . وقد نسيت تماما فيما بعد العلاقة الصحيحة ، التى كانت بين واجباتهم ، وبين واجبات حكام المدينة ، وصارت موضع جدال بين كتاب القرن الخامس . ويتكلم هيرودوت عن رؤساء صانعى السفن ، كأنهم كانوا « يحكمون أثينا » فى القرن السابع ، ولكن توكيديدس الذى أحب المركزية ، صححه فى ذلك ، وجعل لسكان المدينة المكان الأول[1] .

ولنرجع الآن إلى أقدم التقاسيم ، وأقلها صلاحية من الوجهة العملية ، وهو التقسيم القائم على علاقات الدم .

---

(١) هيرودوت — ٥ — ٧١ ، توكيديدس ١ — ١٢٦ . لهيرودوت أسبابه الخاصة فى أن يفصل بين الحاكم الأول فى ذلك الوقت وبين تلك الحادثة . فيما يخص احضار الرؤساء الى أثينا من « مجالسهم » المحلية أنظر توكيديدس ٢ — ١٥ (ἐν Βουλευτήριον ἀποδείξας καὶ πρυτανεῖον وهو ١٠ يوحى للمرء أن يستنتج بسرعة أن « ثيسيس » قد ألغى كاية ، الحكومات المحلية فى أتيكا) وربما كانت هناك أمثلة لمجلس رؤساء القرية هذا فى مدن دول أخرى . وانظر المراجع فى ماير . Gesch الجزء الثانى فقرة ٢٣٣ ملاحظة ، وهو يوافق على أن الرؤساء (πρυτάνεις) كانوا يكونون لجنة دائمة للأغراض العامة ، كما كان خلفاؤهم فى القرن الخامس .

لما دخل المهاجرون أتيكا ، واتصلوا بسكانها الأصليين ، جلبوا معهم نظام تقسيمهم . وكما رأينا ، فقد كانوا مقسمين إلى أسرات و « أخوات » و « قبائل » ، وكان أعضاء كل من هذه الجماعات ، يشعرون باتحادهم مع زملائهم برابطة من الدم ، مثل رجال عشائر الهايلاند باسكتلندا . وقد استمر هذا النظام طوال العهد الارستقراطي ، وظل محتفظا بقوته وتناسبه حتى عصر كليستنيز ، (مثل كثير من النظم اليونانية) . سل أحد معاصرى كليستنيز كيف كانت أتيكا مقسمة فى هذا الوقت ، فسيرد عليك من كتاب « رجال السياسة السنوى » فى عصره قائلا : « أتيكا مقسمة إلى أربعة قبائل واثنى عشرة أخوة ، وثلاثمائة وستين أسرة (وبما أنهم لم يعودوا كما كانوا، مجتمعين حول موقد عائلى واحد ، فيحسن بنا أن نسميهم عشائر من الآن) ، ثم ١٠٨٠٠ مواطن (أى أن المفروض أن تتكون كل عشيرة من ثلاثين من الذكور الراشدين) . فإذا ماألححت عليه أضاف قائلا ، إن أتيكا مكونة أيضا من ثمانية وأربعين كورة ، واثنى عشر ثلثا ، وسمى كذلك ، لأن ثلاثة منهم ، تكون قبيلة واحدة .

وسرعان ما يرد على ذهنك سؤال معين . ماذا حدث للتقسيم بين النبلاء والشعب ، أو بين المدينة والقرية ، الذى كثيراً ما سمعنا عنه ؟ هل الفلاحون الفقراء فى القرى ، وهم فى معظم الأحيان الباقون من نسل السكان الأقدمين، قد احتفظوا لأنفسهم ، بالحقوق والامتيازات « القبلية » جنباً إلى جنب مع أرستقراطية المولد التى نشأت بين أغنياء المهاجرين ، وتمسكوا بها طوال العهد الوسيط ؟ وهذا يثير مشكلة من أكثر المشاكل ، التى أثارت جدلا ، فى تاريخ أتيكا القديم . ولكن ، باختصار ، يبدو أن الجواب ، هو أنهم أكتسبوا حقوقا لاامتيازات، وحافظوا عليها . ففى آخر العهد الوسيط عندما ابتدأت أدلتنا الأولى القليلة فى الظهور ، رأينا أن الأخوة لم تعد تتكون من « الأخوات » كما يدل على ذلك اسمها ، ولكنها كانت مكونة مما يسميه فيلا موفيتز أعضاء الطبقتين الأولى والثانية . وعرف أعضاء الطبقة الأولى ،

الذين ينتخب من بينهم وحدهم رؤساء وكهنة القبيلة، باسم جينيتاى (γεννῆται) أى (رجال العشيرة) أو أوموجالاكتس (ὁμογάλακτες) أى (أبناء دم واحد)، أما أفراد الطبقة الثانية فعرفوا باسم أورجيونس ὀργεῶνες أى (العابدين). ويبدو من ذلك أن النبلاء، رغم ازدياد قوتهم، لن يتمكنوا من منع الناس أو إبعادهم عن نظام القبائل والأخوات، إلا أنهم نجحوا فى أن يضعوهم فى هذه الناحية فى وضع أقل شأنا، وأن يمنعوهم أو يبعدوهم عن العائلات أو العشائر. وكما تدل عليه أسماء بعض العشائر الخاصة، وما هى عليه من نظام منسق، فيحتمل أنهم أعادوا بناء النظام كله، حتى يناسب ادعاءاتهم. فالأثينى الفقير مثل زميله الغنى من رجال قبيلته، كان أثينيا دائما، وما من شىء يستطيع أن يغير ذلك. فقد كان ابن زيوس وأبولون، ولكنه لم يكن ينتمى إلى إحدى «العائلات الطيبة» التى نسلت من جد نبيل، لذلك أخذ فى إغفال أصله الوضيع تدريجيا. وبينما ارتفعت أسرة جاره النبيل إلى عشيرة، وارتفع النبيل نفسه إلى عضو فى العشيرة، فإن هذا القروى الفقير فقد نسبه، أو لم يكن ليتذكره إلا فى خلوته، عندما يفكر فى أجداده الراحلين. فقد تعلم فى اجتماعات الأخوة أن يشعر بأنه عضو نخرى ليس إلا. ولكنه حافظ على مركزه، وكان من الخير أن يفعل ذلك، لأن مركزه هـذا أوجد سابقة نافعة لسياسة كليستنيز[1].

فما هو محور هذا النظام، القائم على أساس القبائل والأخوات وألحقت بنهايته العشيرة؟ وماذا حدث فى اجتماع الأخوة؟.

---

(١) انظر فرانكوت، Polis ص ١٠ وما بعدها، ثم الجز الثانى من ماير الفقرة ٢٠٤، (إذ يوضح راديكاليه هؤلاء الأرستقراطيين الأول فى كل أنحاء اليونان، فى إنشاء قبائل وعشائر متناسقة). ڤيلا موڤيتز .A. A الجزء الثانى ص٢٧٢ ومابعدها. كان تاريخ أتيكا القديم غامضاً بالنسبة للأثينيين فى القرن الخامس، غموضه بالنسبة لنا أيضا، إلا أنه كان من السهل عليهم التسليم بالأسماء التى لا تفسر شيئاً. انظر هيرودوت ٨ـ ٤٤. ὁμογάλακτες، أرسطو فى السياسة، ١٢٥٢ ب ١٨، الذى يبدو أنه أخطأ فهم هـذا التطور. ولما كان متشبعا «بالأولوية المنطقية»، لوجود المدينة، لم يكن ليهتم بمراحل نموها وترقيها.

كان أول ما حدث ، كما يقع فى مجلس العموم الآن ، الصلاة أو باللغة الرسمية « ὄργια » ، ولكنها كانت أهم شىء أيضاً . « فأول أغراض الجماعات فى بلاد اليونان ، أيا كانت » ، (لأن ذلك يصدق على اجتماعات الصناع والتجار) « الاحتفال بالعبادة العامة » . إلا أنه كان لكل جماعة ، بالطبع ، إلهها أو بطلها . وزيوس الأخوة وأثينا أيضاً (Ζεὺς φράτριος καὶ Ἀθηνᾶ φρατρία) كانا القديسين الحاميين فى اجتماع الأخوات ، وسمى يوم القديسين السنوى ، « عيد الآباء أجمعين » ، الذى أحياه ، على المياه ، الأثينيون مع أولاد عمهم المزعومين — الأيونيين . وبالطبع كان لبعض الأخوات الأخرى قديسها أيضاً[1] .

ماذا كانوا يفعلون بعد ذلك ؟ يبدو ألا شىء ، أكثر من أكل القرابين . وكثير من الجماعات الإنجليزية ، قضت عمراً طويلا مكتفية بالأكل فقط ، حتى بدون صلاة الشكر التى تقال قبل الطعام عند الأخوة اليونانية . كما كان هناك « أعمال عامة » يؤدونها بعد الغذاء . فقد كان لكثير من الأخوات أرض وأملاك يديرونها . ولدينا نص خاص بإجراءات أخوات الديموتيونيداى Demotionidae (وكان ديموتيون Demotion قديسها الحامى) . وهذا النص ألقى ضوءاً ضافيا ، على الاجتماعات الأخوية ، بفضل مهارة العلامة ڤيلا موڤيتز . فالعمل الرئيسى الذى كانت تقوم به الأخوات فى هذا العهد ، (وتاريخ النص هو القرن الرابع ، أى بعد كليستنيز بوقت طويل) هو تعديل قوانينهم ، وخاصة فيما يتناول منها قبول الأعضاء أو إخراجهم . وبالمقارنة بين نظامهم وبين ما نعرفه من نظام الأخوات

(١) هيرودوت ١ — ١٤٧ ، ثم فرانكوت ص ٢٤ إلى ٢٥ Ἀπατόρια = ὁμοπατ(ό)ρια (Schol. Ar. Ach. ١٤٦) ، ولكن الجدير بالملاحظة أن معنى هذا قد نسى حوالى القرن الخامس ، حتى أن الاشتقاق الرسمى له كان عن كلمة (Ἀπάτη أى غش) . وقد حيكت لهذا خرافة تعلله . وكان موعد هذا العيد فى الخريف ، فإذا تصادف وجود حرب فى الصيف ، أقيمت معه الجنازة الحكومية . وهكذا كانت المراثى تلقى فى « يوم كل الأرواح » .

الأخرى ، نرى أن الأخوة فى أتيكا ، على أية حال ، قد تركت لها الحرية فى أن تضع قوانينها وتعدلها ، مثل الجماعات الأخرى التى سبق أن اعترفت بها الحكومة رسميا . فمباشرة ديموتيون لم يواجهوا ، مثل كراهية الرومانيين للجماعات السرية ، تلك الكراهية التى جعلت من اجتماع المسيحيين الأول خروجا على القوانين . لقد كان لدى أثينا طرق أكثر مدنية وأنجع فى مقاومة الولاءات الصغرى[1] .

كيف انتشرت تلك العشائر والأخوات فى البلاد ؟ بالرغم من أن العضوية فيها كانت قائمة على الدم ، لا على الموقع الجغرافى ، فغالبا ما وجد أعضاء القبيلة والأخوات فى مناطق واحدة . ويتلخص الفرق بين التقسيم

---

(١) أنظر ڤيلاموڤيتز .A.A الجزء الثانى ص ٢٥٩ — ٢٧٩ ، فيما يتعلق بالديموتيونيداى. ثم انظر الفقرة البليغة فى كتاب رينان Origines du Christianisme الجزء الثانى ص ٣٥٥ — ٣٥٧ ، وهى تستحق أن نقتبس منها هنا شىء من التفصيل ، لما لها من صلة بمشا كل نفسية مشابهة لمثيلاتها فى العصر الحديث . « كان أهم أهداف قيصر وأغسطس منع تكوين جماعات جديدة ، وحل ما كان موجوداً منها من قبل ... فلم يصرح لها بالاجتماع أكثر من مرة فى الشهر ، ولم يكن يسمح لها بنشاط إلا لمناسبة دفن أحد أعضائها ، كما لم يكن مسموحاً لها بأن توسع نشاطها مهما كانت الأسباب . إن الإمبراطورية كانت تحاول يائسة القيام بواجب مستحيل الأداء . فلما تدين به من إجلال لفكرة متطرفة عن الدولة ، كانت تحاول أن تعزل الفرد وأن تفصم كل الروابط الخلقية التي تربط الرجل بالرجل ، وأن تقضى على رغبة الفقراء الشرعية ، رغبة التكتل فى ركن صغير لهم يدفئون بعضهم البعض . هذا ، وكانت المدينة فى اليونان القديمة شديدة الطغيان والتحكم ، ولكن فى مقابل طلباتها المضايقة للأفراد ، كانت تغدق عليهم السرور والنور والفخار حتى أنه لم يخطر ببال أحد أن يشكو . فكان الرجال يقابلون الموت فى سبيلها راضين ، وكانوا يخضعون دون أى اعتراض لتقلباتها الظالمة . أما الإمبراطورية الرومانية فكانت أكبر من أن تكون أمة ، وكانت تهب الناس كلهم امتيازات مادية كثيرة ، ولكنها لم تعطهم شيئا يحبونه. كانت الكآبة التى لا تحتمل ، والتي تلازم مثل تلك الحياة، أشد على النفس من الموت . وهكذا فرغم كل محاولات السياسيين ، أظهرت « الجمعيات » نشاطاً عظيما ... وترينا النصوص أن تلك الجماعات كانت مكونة من العبيد، والجنود السابقين ، والمواطنين الفقراء . وكانت المساواة المطلقة قائمة بين الأحرار ، والمحررين ، والعبد . وكان كثير من النساء أعضاء فى هذه الجماعات ، ورغم آلاف المضايقات الطفيفة ، وأحياناً رغم أقصى العقوبات ، كان الرجال يرغبون فى عضوية تلك الجماعات حيث يعيشون فى جو تحدوه الأخوة الجذلة ، ويلقون المساعدة المتبادلة والتشجيع ، ويعقدون الروابط التى لا انفصام لها . وهذا هو السبب فى أن بدت المسيحية فى روما ، لمدة طويلة ، وكأنها نادٍ لدفن الموتى ، ولهذا السبب أيضاً كانت محاريب المسيحية الأولى مقابر الشهداء » .

القبلى والإقليمى فى : أن الخريطة التى تبين كور أتيكا ، تقسم إلى ثمانية وأربعين دائرة ثابتة الحدود ، بينما الخريطة التى تبين القبائل ، قد تختلف طبعاً اختلافا طفيفا من سنة لأخرى ، تظهر عدد النقط ملونة بإثنى عشر لونا مختلفا ، تبين « الأخوات » المتعددة ، أى حيث يوجد أكبر عدد منهم ومن أعضاء العشائر[١] .

هذا إذن كان الوضع ، عند ما اندمج هذان النظامان المنسقان قبل عصر سولون . ولم يكن من الصعب إدماجهما ، لأن القبائل كانت كبيرة إلى حد أن صارت تعد من الوجهة العملية أقساماً إقليمية . وفيما عدا الأراضى التى على الحدود ، لم يكن من السهل على الرجال ، فى تلك العصور الزراعية الأولى ، أن ينقلوا مساكنهم إلى منطقة قبلية أخرى . فإذا ما نظرنا إلى الأربع قبائل على أنها إقليمية ، أصبح من السهل التوفيق بينها وبين الكور الثمانى والأربعين . وكل ما نحتاجه بعد ذلك ، هو الحلقة الوسطى ، التى تعادل فى الجانب الإقليمى ، الثلاث أخوات فى كل قبيلة ، وتم هذا بتقسيم كل قبيلة إلى ثلاث مناطق أو أثلاث . ولا يمكن أن تكون هذه الأثلاث نفس الأخوات ، لأن الثلث إنما يتكون من أراض ، والأخوة من أشخاص ، ولكنها متقاربة جداً ، حتى أن الكتاب المتأخرين استطاعوا القول بأنها شىء واحد[٢] .

ولقد تضافرت القبائل والكور معا ، لمدة قرن على الأقل ، (وربما كانت المدة أطول من ذلك بكثير) قبل عهد كليستنيز . فبينما الكورة قد

---

(١) فرانكوت ص ٢٩ .

(٢) إن النقطة المحيرة فى الفرق بين التقدير بالأرض أو بالأشخاص — تلك النقطة التى أغفلها جامع أرسطو (القطعة السادسة من .Ath. Pol) قد ظهرت حديثاً فى مناقشة ضرائب الأرض الجديدة . فهل تفرض الضرائب على قطعة أرض كانت قيمتها قد انخفضت ثم ارتفعت ثانية بعد أن تغير أصحابها فى تلك الأثناء ؟ أى هل يجب أن تفكر الدولة على أساس الأشخاص أم الأرض ؟ أنظر Parliamentary Debates ٥ يولية عام ١٩٠٩ .

أرسلت صناع سفنها إلى المدينة ، فإن الموظفين الآخرين والحكام كانوا ينتخبون ، على أية حال منذ عهد سولون ، بطريقة إعطاء الناس أصواتهم بحسب القبائل ، رغم أن اختيارهم كان بالتأكيد ، مقصورا على مرشحين ممن لهم مركز خاص . وكانت إحدى بدع سولون المبتكرة ، التى كان لا بد منها إزاء تقدم الصناعة والتجارة ، تقدير المركز حسب الثورة ، لا حسب الأصل والمولد ، وهذا تغيير ساعد كليستنيز كثيراً ، فى نضاله ضد الشعور الأسرى .

هذا هو النظام ، الذى كان سائدا فى القرن السادس ، فى أوقات الاضطراب التى سبقت عهد كليستنيز ، وكان أساس هذه الاضطرابات ، كما رأينا ، اقتصادياً ، ولكنها اتخذت شكل نزع جزء من أجزاء أتيكا من الآخر ، أو بعبارة أخرى ، اتخذت شكل نزاع بين قبيلة وقبيلة ، أو بين عشيرة وعشيرة . وقد كان على رءوس الحركات فى السنين السابقة زعماء العشائر . بيزستراتوس البراوورونى ، وميجاكليس الألكمايونيدى ، وميلتيباديس الفليادى ، وأيزاجوراس عابد « زيوس الكارى » ، ويبدو أنه كان قديسا بيوتى الأصل . وكان كليستنيز نفسه الكمايونيديا ، ولكنه كان أثينيا قبل كل شىء . وقد صمم على تحطيم الأبعال (Baals) ، أى المعبودات المحلية التى ألهت مواطنيه ، وأن يجعل منهم أثينيين مثله ، قبل كل شىء آخر .

وكان كليستنيز ثورياً إلا أنه عرف أيضاً ، كيف ينشىء ويبنى . وكان الوقت صالحا لأعمال حاسمة عنيفة ، فاجتث أولا أصول الشر ، أى القبائل الأربع القديمة ، حتى اختفت نهائياهى وكل ما يتصل بها : فروعها وأديانها ، من السياسة الأثينية . وبقيت أسماؤها ، خلال أجيال قليلة معروفة للأثينيين ، دون أن تكون لديهم أية فكرة عما تعنيه ، ولم يصل العلماء بعد إلى الكشف

عنها . لقد أبدل بها محطموها غيرها بمنتهى المهارة ، حتى أن أحداً لم يتمكن من أن يكتب عنها شيئاً ، ولا حتى رثاء[١] .

وقد قضى أيضاً على الكور ، فاختفى اسم منطقة السفينة من قاموس المصطلحات الأثينية ، إذ أنه هدف الى وضع الأسطول والقوة الحربية بصفة عامة ، فى أيدى الحكومة المركزية . ولا يمكن لإنسان أن يعرف ، عن طريق توكيديدس ، أنها كانت غير ذلك[٢] .

هذا كل ما حطمه ، فلم يمس « الأخوات » ولم يتدخل بالطبع ، فى الآداب المتأصلة فى العائلة . وبالقضاء على القبائل التى تربط الأخوات بالحكومه المركزية ، أصبحت تلك الأخوات معلقة فى الهواء . ولما لم يكن لها عمل هام تعمله ، كان من العبث مهاجمتها ، فتجاهلها كان أكثر إمعانا فى إضعاف تأثيرها فى حياة الرجال . فكل أثينى كان لا يزال ينتمى إلى أخوة ، كما هو مفروض فى كل انجليزى أن يتبع كنيسة انجلترا . فلا يغدو مواطنا ، حتى يبلغ الثامنة عشر ، ولكنه يقيد عضوا فى الأخوة فى عيد « جميع الآباء » ، وذلك فى أول فرصة بعد مولده . ويقدم للأخوات ثانية فى سن البلوغ ، أى قبل أن يبلغ سن الرشد بسنتين ، وهو نفس الوضع بالنسبة للشبان الإنجليز ، فغالبا ما يثبتون قبيل أن يبلغوا سن الرشد . ثم يمثل أمام « الأخوات » مرة أخرى ليقدم ، « ضحية الزواج » حتى يحيط « الأخوات » علما بحفلة زواجه العائلية . كل هذه الملاحظات الصغيرة كانت جزءا من حياة الأثينيين فى القرن الخامس . وكما يقول

---

(١) الأسماء الغريبة هى Hopletes, Geleontes, Argadeis, Aigikoreis. وقد قامت حولها شتى النظريات ، مثلا ، إنها تشبه تقسيم طبقات الشعب المصرى . ويلاحظ ڤيلاموڤيتز (aus Kydathen ص ١٢٢ — ١٢٣) أن الاسمين الأخيرين « يبدوان كأنما يدلان على معنى ، وربما دلا على ذلك فى فترة ما ، ورغم ذلك فمن ذا الذى يضمن أنهما يعنيان معنى أكثر من كلمة (Hogfellows) و (Boarites) (هيرودوت ٥ — ٦٨) أو (Schnuk Puckelig و Schimmelsumpf Erbsenscheucher Schnuck Puckelig ؟ » .

(٢) نحن نعرف فعلا اسم منطقة سفن واحدة وهى κωλιάς .

هيرودوت ، فالرجل الأثينى الدم ، يمتاز بالمحافظة على « أيام جميع الآباء » .
ولكن ما هى علاقته بالمدينة الدولة ؟ هى علاقة فنية بحتة ، فعند ما يغدو الأثيني أخا ، يصبح على صلة بجديه القوميين ، زيوس وأبولون . ولم يول أثيني القرن الخامس ، هذه العلاقة كبير احترام ، بل كان جل احترامه لأثينا . وفى أوقات وحدته وانفراده ، عند ما يخلع عنه ثوب « مدنيته » ، كان يتجه باحترامه وعبادته ، إلى آلهة عشيرته أو تديسيها . إلا أن الدستور كان يحتم عليه إذا ما انتخب لوظيفة ، أن يؤكد لناخبيه فى الاختبار الشفوى ، قبل مباشرة واجباته ، أنه يجل جديه القوميين ويحترمهما ، وكان ذلك مجرد شكليات أبقى عليها كليستنيز . كما كانت الصلة الوحيدة التى تربط المدينة الناهضة ، بعقائد الأخوة القديمة[1].

أما بالنسبة للاعتبارات الأخرى ، فقد فصلت الدولة عن « الكنيسة » الآن ، ولعل من الأصوب أن نقول ، أنه بالانفصال عن الدولة ، غدت ديانة الأخوات أشبه بما نسميه « الكنيسة » ، إذا كان الأثينى قد حاول ، كما حاولنا ، منذ عهد المسيحية المنظم ، التمييز بين دائرة النظام السياسى ، ودائرة النظام الدينى ، وأن نخلص لكليهما معا . ولكن كان ذلك دون ميوله ، وحتى إذا لم يكن كذلك ، فلم يكن هناك هيئة أخرى فى أثينا خارج محيط الأسرة الضيق ، يمكن أن تسترعى اهتمامه . ومن المؤكد أن ديانة الأخوات لم يكن لها القوة ، ولا التأثير لنقف إلى جانب عبادة أثينا . ولذا فإن لم تكن قد ألغيت فنيا ، فى عهد كليستنيز ، فسرعان ما انتهت إلى ذلك عمليا . وقد ظل أثينيو القرن الخامس يحتفظون بالأپاتوريا (Apaturia) وإن كانوا قد نسوا ما يعنيه اسمها . وبمرور الزمن ، بدأ الرجال يتساءلون ، هل هناك ما يستأهل مشقة الانضمام إلى الأخوات ؟ وما فائدة ذلك ؟ فقواعد القبول أخذت تتراخى ، وهنا أيضا نجد أن كليستنيز هو الذى دق الإسفين ، حتى أمكن كل فرد الالتحاق بها دون تفرقة بين الأعضاء :

---

(١) هيرودوت ، ١ — ١٤٧ .

فأثينا أصبحت الآن ديمقراطية للغاية ، حتى أنه قد يلقى الإنسان عبداً معتقاً ، بين أفراد الأخوات . ومهما كان من شيء ، فإن الخطب والاحتفالات قد مرت بسلام ، فما الذى أدت إليه ؟ فيما يخص المدينة لم تؤد إلى شيء ما ، فقد كان الطريق أمامها مسدوداً ، لم يواصل الناس المسير فيه إلا قليلا ، لأنه كان ينتهى بهم إلى الدولة[1] .

لقد رأينا كليستنيز ، إلى الآن ، هداما ، فما الذى أنشأه بدلا من القبائل ومناطق السفن ؟

كان أول ما قام به أن أنشأ قبائل جديدة ، إذ لا يمكن للأثينى أن يتصور أثينا بلا قبائل ، بقدر ما يستحيل علينا نحن أن نتصور مقاطعة بدون عمدة ، أو مجلس محلى . والواقع أنها كانت « قبائل » بالاسم فقط ، إذ كانت قائمة على أساس إقليمى . لقد كانت ولايات حقيقية ، أو دوائر انتخابية . ولكن كى يجعل لها صبغة دينية ، سميت كل واحدة منها ، باسم بطل معروف ، اختاره موحى دلف ، من بين قائمة قدمت إليه ، تحوى مائة اسم[2] .

لقد كانت القبائل القديمة هى الأخرى إقليمية فعلا . ولكن ما فعله كليستنيز ، كان أكثر من تعديل خطوط حدودها تعديلا طفيفا . لقد التجأ

---

(١) فرانكوت Polis ص ٨٠ ، ثم انظر أرسطو Pax ص ٤١٦ وما بعدها . أنظر Ferguson, Classical Philology طبعة ١٩١٠ ص ٢٥٧ وما بعدها و Hellenistic Athens طبعة ١٩١١ ص ٢٣٠ ، الذى بين كيف عادت « اتحادات العائلة الأصلية » : الأخوات ... الخ ، إلى مكانتها البارزة ، فى حياة الأثينيين ، « عندما كفت السياسة عن احتكار نشاطهم ، بعد أن ساد الحكم المقدونى » .

(٢) لا يزال فى الدستور الأثينى مثل أكثر غرابة من هذا النوع ، إذ كان لكل سنة من سنى الخدمة العسكرية ، الاثنين والأربعين ، أى من الثامنة عشرة إلى الستين ، بطلها المسيطر . وكانت تدعى الفرق حسب نظامها ، ابتداء من « موسى إلى سليون » . Ath. Pol. I ٥٣ — ٤ و ٧) . وكان اليونان مغرمين بشكل عجيب بهذه الشارات البهيجة ، ولا يمكن إلا أن نجعل لها نحن مكانا فى أسماء شوارعنا . ولم يفكر أحد فى أن حل أسطول بواخر مجلس مقاطعة لندن » ، عمل فيه عقوق لهؤلاء الرجال العظماء من الانجليز الذين تحمل هذه البواخر أسماءهم .

إلى حيلة بارعة ، هى تقسيم كل قبيلة إلى ثلاثة أقسام تقع فى أجزاء (البلاد) المختلفة الثلاث. وقد مكنه هذا من الاستفادة من الأثلاث القديمة اسميا ، إن لم يكن فعليا . فتكونت كل قبيلة من ثلاثة أثلاث ، أو ثلاث وحدات إقليمية منفصلة ، يقع أحدها فى المدينة أو قريبا منها ، والثانى داخل البلاد ، والثالث على الساحل . وذلك كما لو قسمت كل دائرة انتخابية فى انجلترا إلى ثلاثة أقسام ، جزء فى لندن ، وآخر فى الأراضى المزرعة الوسطى ، والثالث فى الشمال الصناعى . وهذا كان علاجه الناجع البارع ، للنزاع الإقليمى ، الذى ساد السنين الماضية . (فهل ينجح ذلك فى بلاد ، غير بلاد اليونان الراديكالية ؟) . ويمكننا أن نحدد إجمالا مما تكون منه تلك المناطق الثلاث . فمنطقة المدينة شملت الطرف الجنوبى لسهل أثينا من ليكابيتوس إلى البحر ، ثم من جبل كوربدالوس إلى هيمتوس . أما منطقة الساحل فقد ضمت كل سهل إيلوزيس حتى كيتايرون ، ثم سارت حول الساحل فى شقة ضيقة (تعترضها بيرايوس) إلى أوروبوس فى الشمال . والباقى ، يضمه القسم « الداخلى » — أى داخل جنوب شرقى أتيكا حتى لاوريون ، وهو جزء كبير من سهل أثينا ، ومعظم المنطقة الجبلية فى بارنيز وبنتيكوس . وقد يبدو هذا التقسيم منطبقا على التقسيم القديم « السهل » ، « والشاطىء » ، « والجبل » ، إلا أن البحث التفصيلى ، قد أظهر أن هذه الصلة مجرد مظهر غير تام . لقد بذل كليستنيز جهده ، ليتجنب كل ما قد يثير المجادلات القديمة[1] .

سنترك مؤقتا الدور الذى قامت به تلك القبائل والأثلاث الجديدة مع أقسامها الصغيرة المركزية ، مادمنا سنبدأ بمناقشة الإدارة المحلية .

---

(١) ڤيلاموڤتز .A.A الجزء الثانى ص ١٤٨ — ١٦٨ الذى يبين أن الأثلاث لم « تسيطر » مطلقاً على عقول العامة ، ولم تنتج « أبطالا » ، ولا ذكريات عاطفية خاصة بها ، فقد كانت الأثلاث مجرد مسألة عملية .Ath. Pol ، ٢١ ، وهيرودوت ٥ — ٦٩ (وهما الوضعين الكلاسيكيين اللذين ذكر فيهما عمل كليستنيز) .

من الواضح أن القبائل ، وحتى الأثلاث ، كانت كبيرة إلى حد لا تستطيع معه الاضطلاع بواجبات مجالس الكورة . فقد كان المطلوب شيئاً أصغر ، ليحل محل مناطق السفن القديمة ، فجاء كليستنيز بنظام الديم (demes) أو « الشعوب » التى كونت القرية ، أو وحدة الإدارة المحلية ، طوال العصر العظيم فى التاريخ الأثينى . فقسم البلاد من جديد إلى ما يزيد على مائة « ديم » — ولا نعرف بالضبط كم كان عددها — قسمت على وجه التقريب إلى عشرة أقسام ، حتى تكون جزءاً من القبائل العشرة . وكانت هذه الديم من حيث هى مناطق إدارية ، ابتكارا جديدا ، ولكن كان لابد وأن تعطى قداسة دينية ، شأن القبائل من قبل . فزودت كل ديم « ببطل مؤسس » ، مما أضفى عليها ظلا من القديم . وأحيانا كان هذا البطل جدا لعشيرة محلية ، حور ليلائم الوضع الجديد ، وأحيانا كان شيئاً جديدا تماماً . وفى الحالة الأخيرة كثيرا ما كان يفشل التشخيص ، حتى رأينا بعض الديم بمجد بطلا مجهولا ، أى لا اسم له . وأقوى دليل على ذلك أسماء الديم نفسها . فمثلا پيرايوس وإلوسيس ، ورامنوس لا تخرج عن أسماء أمكنة . ورامنوس تعنى « شوكة » ، وعلى خلاف جلاستنبرى لم تتخذ لها قديسا . وفى بعض الحالات الأخرى ، حيث كان البطل موجودا ، سميت الديم باسمه ، وتجمعت حوله عواطف أهلها[1] .

هذه الديم الجديدة ، كانت أساس نظام الإدارة فى دولة أثينا ، فى القرن الخامس فكان كل أثينى ينتمى إلى ديم ، ويعرف رسميا باسم « الديم »

---

(١) ڤيلاموڤيتز الجزء الثانى ص ١٤٩ — ١٥١ . فهو يقرأ أكثر الفقرات التى جاءت فى هيرودوت (٥ — ٦٩) ، وتعتبر موضع مناقشة ، δέκα[χα] δὲ καὶ τοὺς δήμους κατένειμεν ἐς τὰς φυλάς. فإذا كان هيرودوت قد قال حقا ، إنها كانت مائة ديم تماماً ، يكون قد أخطأ . يقول Ath. Pol. ، ٢١ — ٥ إن الديم ، كانت تسمى بأسماء الأبطال ، عندما لا يتوفر لها أسماء أمكنة وهذا عكس ما قد يكون من المحتمل أنه حدث فعلا . إن كلمة « ديم » أو شعب ، لم تكن طبعاً شيئاً مستحدثا فى أتيكا ، أكثر مما كانت كلمة « اتحاد » فى إنجلترا ، قبل إصلاح قانون الفقراء فى عام ١٨٣٤ ، بل الذى أنشئ جديدا ، هى الديم من حيث هى منطقة إدارية .

الذى ينتمى إليه . لقد أراد كليستنيز أن يجعل من الرجل إذا ما فكر أو تكلم عن قومه ، أى عن أضيق دائرة فى حياته — فليكن هذا التفكير أو التحدث عن ديمه . وجعل من يضمهم ديم واحد أعضاء فيه ينتسبون إليه ، حتى يمنع تناديهم بعضهم البعض بأسماء آبائهم ، وبذلك يقضى على المدنيين الجدد . ولهذا كان الأثينيون يذكرون « الديم » عند ما يتعرفون بعضهم على بعض . وفى الحقيقة إن ماحاوله كليستنيز هو تغيير شكل لقب الأثنى . فقبل عصره كان الأثينيون يميزون بعضهم البعض بآبائهم ، ككثيرين من الناس ، كما فى ويلز واسكتلندا مثلا . فهيرودوت يميز مثلا ، بين ميلتيادس بن كيبسيلوس ، « وميلتيادس بن كيمون » . ولكن كليستنيز حاول أن يغير جون جونز ، وإدوارد إدواردز ، إلى جون مو نتجمرى ، وإدوارد رادنر ، وبذلك يقضى نهائيا على أى شعور بالاشتراك فى النسب أو العشيرة . ولكنه لم ينجح إلا نجاحا جزئيا . فهيرودوت بوجه عام ، وتوكيديدس دائما (الذى لم يرض بأى فاصل بين أثينا والفرد) . تجاهلا دائما هذا الوضع الجديد . ونحن نميز توكيديدس نفسه عن سميه الأقل منه شهرة ، بذكر ملسياس « Melesias » والد الأخير . ولكن على مر الزمن اعتاد الرجال ذلك ، فبعد كليستنيز بمائة عام ، عندما ظهر سياسيان عظيمان يسميان ثرازيبولوس « Thrasybulus » ، كانت التفرقة بينهما عن طريق « قومهما » فى استيريا وكوليتيس . وكان كل انسان يعرف بالطبع ديم ديموستنيز ، بايانيا « Paeania » وهى خلف هيمتوس . وربما كانت الرواية الهزلية ، أحسن دليل على ذلك . فى أرسطو فانيز ، كانت أشخاص رواياته تقدم بعضها إلى بعض ، باسم الديم الذى تنتمى إليه . (وفى السحب) عند ما ضرب استربسيادس ابنه ، استغاث « بجيرانه وأقاربه وأهل ديمه[1] » .

---

(١) فيلاموفيتز .A.A الجزء الثانى ص ١٦٩ وما بعدها ، ثم .Ath. Pol ، ٢١ — ٤ ، ثم أرسطوفانيز السحب ١٣٢٢ و ١٣٤ ، ثم .Ach ، ١٠٢٨.٤٠٦ ، ثم السلام ١٩٠ ، ثم .Lys ، ٨٥٢ ، وكذلك .Thesm ، ٨٩٨ .

وهكذا استمسكت الديم بما لها من نفوذ ، وحافظت عليه ، وعملت على زيادته ، ولكن ذلك لم يكن إلا لأن كليستنيز قد أدخل ما يبدو لنا تعديلا بارعا ، فقد جعل عضوية الديم وراثية . فإذا اعتبرت أسرة تابعة لكوليتيس ، ظلت تابعة لكوليتيس دائما ، حتى لو ذهبت لتقيم فى استيريا . والرجل الديمى الذى يعيش بعيدا عن « قومه » ، يعد « غريبا مقيما » ، وليس له فى الديم ، أى دور يقوم به فى الأعمال العامة ، بل يعتبر كعبد محرر ، أو « مواطن إيطالى بدون حق انتخاب » « Civis sine suffragio » ، أى مجرد « مقيم » هناك . لقد كان ذلك عجيبا . ويمكن أن يكون كليستنيز قد اتخذه فقط على اعتقاد بأن نظام الديم سيعدل فى فترات معينة . ولكن كان على أثينا فى القرن الخامس ، أن تفكر فى أشياء أخرى ، ولهذا ولأسباب أخرى ، طبق نظام الديم ، مثل نظمنا المحلية ، بنجاح متفاوت فى جهات البلاد المختلفة[1] .

ما الذى فعلته تلك الديم ؟

من جهة الشئون المحلية ، كانت سلطتها تماثل تقريبا ، سلطة مناطق السفن القديمة . « فالعمدة أو الديمارخوس » (الاسم والطراز وهو طراز ضخم ثرى ، ظل مستعملا فى الدولة الحديثة) ، قام بواجبات صانع السفن القديم . فكان يرأس مجلس أعضاء الديم الذى ينظر فى الشئون المحلية ، ويراقب جباية المكوس ، وإذا لزم الأمر ، راقب الضرائب أيضاً . وبقدر ما يكشفه لنا النصوص القليلة ، التى خلفها لنا حرصهم واقتصادهم ، نتبين

---

(١) Ath. Pol. ، ٦٣ : « لما فسدت الديم » . تبدو لنا الديم الوراثية أمرا غريبا ، لأننا إنما تعودنا فقط النظر إلى تلك الروابط المحلية كأمر تافه . ومع ذلك فإن إحلال الأهلية المحلية ، محل أهلية المولد للحصول على « حرية » بلدة إنجليزية ، يرجع فقط إلى عام ١٨٣٥ . ولا تزال بعضوية السبع عشرة كورة فى سيينا (Siena) وراثية ، مع أن تلك الكور صغيرة جدا ، لدرجة أن العائلات دائمة التنقل ، من واحدة إلى الأخرى . فإذا رفرفت أعلام الكورة على البيوت ، يوم السباق الكبير ، فى الميدان ، فهؤلاء المهاجرون يجعلون أنفسهم ملحوظين للغاية ، بتعليق أعلامهم الوراثية وسط شوارع زاخرة بمنافسيهم .

أن شئون الكورة فى أتيكا فى القرن الخامس ، تكونت من خمسة أمور ، الانتخاب السنوى للموظفين والقسس وامتحانهم ، ثم إدارة أراضى الكورة، أو « جلب » (glebe) ، ثم الشئون المقدسة (مثل المحافظة على الأضرحة والاحتفالات ... الخ) ، وتكريم الخيرين المحسنين (وطبعا كانت تسجل هذه الأعمال دائما على الصخور) ، ثم القضاء . وهذا الأخير قسم جديد ، عادت شئونه إلى الديم من عهد مركز ديوسس القضائى فى المدينة . ولكن كانت السلطة القضائية للمحلفين العموميين (أو هليا Heliaea) فى الديم ضئيلة ، واختصاصهم كان مقصورا على الفصل فى الحالات المحلية وحدها ، وذلك فقط عندما تعرض عليهم، وواضح أن هذه المحاكم لم تقم بعملها كما ينبغى، فبعد خمسين سنة اتبعت الحكومة المركزية سابقة من عهد بيزستراتوس ، بأن أرسلت قضاة خبراء يطوفون بالديم ليواجهوا هذا النقص[١] .

ولكن كان أهم من واجبات الديم المحلية ، المركز الذى شغلته فى النظام المركزى ، إذ هو الذى أتاح لها مكانا دائما، فى « حياة المواطنين الأثينيين » .

فأولا : احتفظت الديم بسجلات « المدينة » ، فلم تكن الدولة تعرف الفرد إلا عن طريق الديم الذى ينتمى إليه . فالأثينى منذ أن يولد إلى سن

---

(١) موسوعة Pauly مقال Δῆμοι فهو يحتوى على قائمة كاملة للديم المعروفة . الدعارخ لأغياء Sundwall, Epigraphische Beiträge zur sozialpollitischen Geschichte Athens ص ٥٧ . (هذا الكاتب الفلندى قد تعمق كثيرا فى بحث كيان نظام أثينا الإدارى ، وتستقصى الخرافة ، التى نشأت من عهد أرسطو ، وتقول بأن أثينا كانت فى أيدى الخطباء الشعبيين طيلة القرن الخامس أو الرابع : إن نسبة كبيرة من أسماء الموظفين الرسميين ، كانت تنتمى إلى الأسر الميسورة ، التى لم تظهر أقل ميل « لأن تعتزل الحياة العامة » . وذلك يلقى ضوءا هاما ، على موضوع النزاع القديم ، من حيث تأثير أفلاطون وايزوكراتيس على معاصريهم . ومن الواضح أن قليلا من الأثينيين قد اتبعوا أفلاطون فى يأسهم من الجمهورية، وانزووا فى حياتهم الخاصة انتظارا لعصر أكثر كمالا) . قضاة الدوائر : Ath. Pol. ١٦، — ٥ — ٢٦ — ٣ — ٥٣ — ١ . وقد كانوا أصلا ثلاثين ، ولكن عندما جعل الطغاة الثلاثين ، من العدد ثلاثين عددا نحسا ، زيد عدد القضاة ، إلى أربعين . وقد كان اليونان ، حتى فى أخص أعمالهم العملية ميالين إلى الأخذ بالخرافات بشكل صبيانى . وفيما يخص الدعارك، أو آلهة القرية ، أنظر الملاحظة القاسية فى السحب ٣٧ . ثم انظر أيضاً B. S. A. ، ٢٤ ، (١٩٢٠ — ١٩٢١) ص ١٥٧ .

الثامنة عشر، لا يكون شيئا بالنسبة لأثينا، قد يكون «أخا»، ولكنه لم يغد بعد «مواطنا»، ولا حتى شبه مواطن. وما أن يصل الثامنة عشرة، يقيد فى سجل ديمه، كما دون اسم أبيه من قبل، وحينئذ يتمتع بامتيازات المدينة، مثل الحصول على مكان فى «الجمعية الرئيسية»، أو الإكليزيا، ويدعى للقيام بالواجبات التى تتطلبها منه، مثل الخدمة العسكرية.

ثانيا: إذا احتاجوا إلى ضرائب مباشرة — وذلك عند الشدائد والأزمات فقط — كانت الديم تجبيها، فهى كجباة الضرائب المحليين عندنا، كانت أكثر اتصالا من الحكومة المركزية، بالأغنياء من أعضائها. وبهذا فالديم إنما اضطلعت بواجبات مناطق السفن القديمة[1].

ولكن كانت أهم أعمال الديم، مراعاة مد الحكومة المركزية بالرجال، للقيام بالأعمال العامة. وغالبا ما نسمع أن الديمقراطية اليونانية اختلفت عن الديمقراطية الحديثة، من حيث أنها لم تأخذ بمبدأ التمثيل. وهذا بلا شك خطأ فاحش، لم يكن ليقبله أحد اللهم إلا للفكرة الخاطئة، (التى روجها كثيرون من مفكرى القرن التاسع عشر)، وهى أن العمل العام الوحيد الذى تقتضيه الديمقراطية من مواطنيها، هو التصويت سواء كان داخل البرلمان أو بخصوصه. إن اليونانيين لم يكونوا قصيرى النظر إلى هذا الحد، فقد عرفوا أن الحكومة لا تتكون من حقوق، بصرف النظر عما إذا كانت هذه الحقوق تمارس أم لا، ولكنها تتكون من شىء عملى أكثر من ذلك بكثير. فالحاكم هاويا، (كما فى اليونان)، أو محترفا (كما هو عندنا غالبا)، رجل له عمل يقوم به، هو رجل لا يشغله كثيرا مباشرة الحقوق، أكثر مما تشغله تأدية العمل العام (رغم أنه لا يعمل إلا ماله حق فى عمله). ولذا كما يخبرنا ثيسيس «

---

(١) كان الأثينيون فى القرن الرابع، كما نعلم من الخطباء، يخفون أحياناً ثرواتهم تهربا من الضرائب. وإننا حسب تقاليدنا التى تقضى بأن «نعمل ما نشاء بما نملك» نكره أكثر منهم «تفتيش» جباة الضرائب الرسميين المحليين. ومن الجدير بالملاحظة أن الضريبة الإضافية على الدخل الكبير، وهى ضريبة كان اليونان يجمعونها بالتأكيد عن طريق الجباة المحليين، كان يجب أن يوكل أمرها بعناية إلى طبقة من الموظفين المركزيين.

ليست الإكليزيا ، سواء كانت اجتماعاتها شهرية أو أسبوعية ، هى التى خلقت من أثينا دولة ديمقراطية . كما أنه ، ليس حق الانتخاب للكبار ، ولا طلب حق الاستفتاء العام ، هو الذى سيجعل من انجلترا دولة ديمقراطية . فلا معنى للديمقراطية مطلقا ، ما لم يكن قوامها تعاونا جديا مستمرا ، بين عدد كبير من المواطنين ، فى القيام بأعمال الحكومة الحقة . وما من حكومة تكونت من مواطنين ، توفر لهم جميعا الفراغ ، أو الرغبة ، أو المعرفة اللازمة للقيام بالأعمال العامة . إن دولة المدينة اليونانية تختلف عن ديمقراطياتنا الحديثة ، فى أنها تدرج عددا كبيرا من ممثلى الشعب ، وليس جميعهم ، فى الأعمال العامة. بينما حسب دستورنا ، رغم ماهو عليه من ديمقراطية ، فإن الأقلية هى التى تعمل للأكثرية ، أما فى اليونان فالأغلبية هى التى تعمل بنفسها . وكما تقول المرثية ، « نحن نسمى دستورنا ديمقراطيا ، لأن الأعمال ليست فى يد الأقلية ، بل فى يد الأكثرية » . أو إذا اقتبسنا من هيرودوت التناقض الذى ورد فى نهاية مدحه الديمقراطية ، « فى الأغلبية يوجد كل شيء » . وكانت أثينا فى القرن الخامس تعلم كل العلم أن ذلك تناقضا ، وأنه من المستحيل فى هذا العالم غير الكامل ، أن يحصل الإنسان على نصيب عادل من السلطة ، ليس فقط للأقليات المنظمة ، مثل الشبان « الأرستقراطيين » فى سيراكوز ، ولكن للأقلية فى نفس الرجل ، (عندما يكون هذا أقلية) ، أى « ذلك الجزء الضئيل منه ، الذى يهتم بوطنه » .

ولكن اليونانيين كانوا قوما عمليين ، ولم يشتغلوا بعد بما وراء الطبيعة فى السياسة ، وقد وضعت نظم كليستينز ، مثل بعض تشريعاتنا الاجتماعية الحديثة ، بشكل يدفع إلى مجال السياسة أكثر ما يمكن أن تجتذبه ، على نحو مناسب ، من عبقرية أثينى عصره السياسية ونشاطهم[١] .

(١) توكيديدس ٢ — ٣٧ — ١ ، هيرودوت ٣ — ٨ عند الآخر . ثم انظر توكيديدس ٦ — ٣٩ — ١ . فيما يخص قياساً حديثاً اتخذ للغرض نفسه ، الذى كان أمام كليستنيز ، قارن (ولنأخذ مثلا واحدا لانزاع فيه) « المادة الخاصة بالجناة الذين تحت المراقبة » . لم يكن الضباط الذين تحت الاختبار يأخذون أجرا عادة ، فهل يتغير المبدأ عندما تدفع لهم نفقاتهم ، أو حتى إذا ما دفعت لهم أجور ضئيلة ؟ إن الفرق بين الهاوى والمحترف هو ، بعد =

ولنلق نظرة على الحكومة المركزية فى أثينا القرن الخامس ، لنرى كيف كانت تسير . إن النظام الذى سنصفه ، أقام كليستنيز مقوماته الأساسية ، كما أضاف بركليس وغيره بعض التعديلات الضرورية والمنطقية . وعلى ذلك فسنحذف من عمله تلك النواحى ، التى ثبت أن أهميتها كانت مجرد أهمية زمنية ، مثل معاملته الأريوباج ، لأن ذلك لا يتفق وغرضنا ، وهو فهم الأثينى فى عصر الرتبة ، وسنركز اهتمامنا على مقوماته الأساسية ، ولو تمعناه فسنراه يرتكز على فكرتين بسيطتين : أولا ، الشعب هو صاحب السيادة ، فى ظل قوانينه ، وإرادة الشعب ، سواء عبر عنها فى المجلس ، أو فى المحكمة ، هى العليا بعد القانون ، وليست مسئولة أمام أحد . ثانيا : لما كان لدى الناس كثير من العمل غير القيام بالحكم ، فيجب أن يقوم بالحكم إذن ممثلون ، كثير عددهم بقدر ما يمكن أن يستطاع فى شكل مناسب ، يخضعون فى فترات معينة لتأييد مجلس الشعب ، وتعديلاته . فالحكومة

= كل شىء ، كما يعلم لاعبوا الكريكيت عندنا ، مسألة درجات فقط . لاحظ المثل اليونانى فى الحكم على رجل ما ، ἀρχὴ ἄνδρα δείξει ، أى «انتظر حتى يصير حاكما» . ويشبه هذا المثل ، القول المعروف فى «مدارسنا العامة» ، «انتظر حتى يصير رئيساً» (ألفة) . وكل فرد تقريباً له فرصة أن يكون رئيساً ، وفيها «يتمنى له إظهار العنصر الذى يتكون منه» . وقد تكرر ذلك فى سوفوكليس ، أنتيجون ١٧٥ — ١٧٧ ، وذكر ذلك أيضاً فى أول هذا الفصل ، حيث كان يفكر الشاعر فى أثينا على أيامه ، كما يقول Jebb .

١٩١٤ . أتركت هذه الملاحظة والفقرة التى فى النص كما كتبت قبل أن أكون موظفا حكوميا محترفا . ولكننى أشعر بأنى ملزم أن أذكر الآتى ، من كتيب غفل من اسم كاتبه ، فى نقد لطيف ، قيل عن مبدأ التمثيل المذكور فيما سبق ، « إن التمثيل يستعمل ، لتغطية شيئين مختلفين تماماً ، يؤدى الخلط بينهما إلى إشاعة الغموض ، فى مناقشة الموضوعات السياسية . فالرجال يقال عنهم « ممثلين » فى المحاكم بإبداء الرأى ، ويقال إن الحكومة ممثلة بالسفراء . وفى هذه الحالات يكون الممثلون وسائل اتصال أساساً . وعادة لا يمكن أن يقرروا أمراً ، إلا بعد الرجوع إلى رؤسائهم . وقد جعل إدوارد الأول من البرلمان الإنجليزى حقيقة ، لما اشترط أن « يحمل » النواب المجتمعين فيه « ... فى أشخاصهم سلطة الناخبين الذين انتخبوهم كاملة ... » ، وبذلك حول إدوارد الأول البرلمان إلى أداة عملية للحكم ، وأمكنها بالتدرج أن تأخذ سلطات الحكم التى كانت للملك نفسه ، وصارت مسئولة أمام هيئة من الناخبين ، اتسعت مع الزمن حتى شملت جزءا كبيرا من سكان انجلترا الذكور» . لم يكن هذا النوع من التمثيل معروفاً عند الأثينيين طبعاً كما يدل على ذلك فشل البرلمان الديلى . أنظر ص ١٨٨ فيما يلى .

الذاتية الكاملة ، كانت المثل الأعلى . وقد أدرك الأثينيون (إذا طبقنا قول لنكولن المشهور) إنه من الممكن أن تجعل بعض الناس يحكمون الوقت كله ، وكل الناس بعض الوقت ، ولكن لن يمكنك أن تجعل الشعب كله يحكم طول الوقت .

وتتكون الحكومة من ثلاث سلطات ، السلطة التشريعية ، والسلطة الإدارية ، والسلطة القضائية . إلا أن ذلك لا ينطبق تماما على أثينا ، فمنذ عصر سولون كانت « قوانينها » كاملة ، ولم يكن مفروضا أن تحتاج لعمل قوانين جديدة . ولم تلتجئ إلى ذلك ، إلا فى حذر بالغ ، شأن الأمريكيين فى تغييرهم دستورهم . فبرلمانها إنما كان يجتمع ، كما نقول بلغتنا الإنجليزية ، لا ليوافق على قوانين ، بل ليناقش أمور السياسة . ولكن هذه المناقشات لم تكن مجرد مناظرات أكاديمية ، بل كانت تنتهى بالتصويت الذى يتجسم فى قرار . وهذه القرارات ، لتوازى حقا قراراتنا ، وذلك بالنسبة لحياة اليونان التى كانت أبسط وأكثر استقرارا من حياتنا[1] .

ولنبدأ بالجانب القضائى ، لأننا سبق أن رأينا تنفيذه فى عهد سولون . دعم كليستنيز حكم الشعب ، إن لم يكن قد وسع مداه ، فى هيئات المحلفين الكبيرة أو كما يسميها الانجليز « المحاكم » . وهى هيئات أقيمت ، كما رأينا ، على أساس فكرة تكليف الشعب بالقيام بدور القاضى . والذى يجب أن نوليه اهتماما هنا ، هو كيف اختار كليستنيز قضاته . لقد كان القضاة يعيشون متفرقين فى البلاد مثل قضاتنا . وكانت « الديم » السلطة الطبيعية التى تجمعهم . فنص كليستنيز على أن تقدم الديم فيما بينها ٦٠٠٠ قاضيا ، (٦٠٠ من كل قبيلة) إلى السلطات المركزية ، التى يجب عليها بدورها أن تقترع على من يقوم بالعمل من بينهم . وبما أن عدد سكان الديم المختلفة ، تتفاوت كل التفاوت ، فقد اتخذت طريقة التمثيل النسبى بينهم . ولكن كيف تحصل الديم على مرشحيها ؟ كانوا ينتخبونهم ، مختارين بلا شك ، كل من عرف فيهم الاستعداد

---

(١) ثوكيديدس ، ٣ — ٣٨ ، ثم انظر جلوتز Cité ص ١٩٣ — ١٩٥ .

والتحمس للعمل ، إذا ما كان هناك مكان لهم . ولما تزايد عمل المحاكم ، وكثر اجتماع القضاء ، أصبح من العسير أن نجد الرجال ، الذين لديهم من الوقت ما يتسع لذلك . وقد تغلب بركليس على هذه الصعوبة بأن دفع لكل قاض أجرا يوميا مناسبا نظير خدماته . وكانوا ينتخبون للعمل لمدة سنة . وعلى ذلك ففي صباح كل يوم فى السنة ، عدا أيام الأعياد العديدة ، (وكانت أكثر من غيرها فى أى جهة أخرى فى اليونان ، لدرجة أثارت شكوى الأجانب من أصحاب القضايا) ، يهبط هؤلاء الستة آلاف قاض أثينا ، إذا كانوا يقيمون فى القرى ، ويتقدمون أنفسهم إلى معبد ثيسيس قاضيهم القديم — إلا إذا تصادف وكان البرلمان منعقدا فى ذلك اليوم ، فكانوا يدعون إليه بدلا من المعبد — وهناك يخطرون بما إذا كان فى المحاكم عمل لهم : فإذا كان ذلك ، أجريت القرعة ، ثم يذهبون إلى المحكمة جماعات كل قوامها مائة شخص ، لينظروا قضايا من كل أنحاء الإمبراطورية الأثينية . وهم على ثقة من أنهم سيتمكنون من أن ينالوا وجباتهم فى هذا اليوم ، إلا إذا حالفهم سوء الحظ الزائد . وعلى قدر ما نعرف ، فقد كانوا يقومون بالعمل على خير وجه . ورغم التذمر والشكاوى من أمور أخرى ، لم تصل إلينا أية شكاوى فى القضايا الفردية خاصة بالرشوة أو الظلم . ولم تتألف محكمة من أقل من ٢٠١ محلفا . وكما لاحظ أحد هؤلاء المتذمرين ، ففى كثرة العدد مأمن من الرشوة[١] .

والآن فلننتقل إلى الإدارة . لم يكن بأثينا موظفون دائمون ، على الأقل فى الوظائف الكبرى ، وباستثناء الضباط العسكريين وأعضاء المجلس ،

---

(١) Pauly مقال Δῆμοι ، ثم ڤيلاموڤيتز .A. A الجزء الثانى ص٩٦ هامش ، صندول (Sundwall) ٦٩ ، والأوليجارشى المجوز ٣ ، ٧ ، Ath. Pol. — ٦٣ ، ثم أرسطو فانيز Wasps ٣٠٤ ، حيث تقول الجماعة (الكورس) ، (« إذا لم تنعقد المحاكم فكيف نحصل على الفطور ؟ » . إنهم لا يفكرون فى أن يضيع عليهم طريق القرعة ، وواضح تفاهة الخسارة) . ونقلا عن ديودور (١٣ — ٦٤ — ٦) ، فإن أول مثل لرشوة المحلفين الأثينيين يرجع لعام ٤٠٩ . ومن الممكن أن يكون عدد الستة آلاف ، وهو رقم القرن الخامس ، كان أكبر من العدد الذى حدده كايستنيز : أنظر Wasps ٦٦١ وما بعدها .

لا يمكن لأى رجل أن يشغل الوظيفة نفسها مرتين . وكان بها بوليس محترف ، وكتبة ومنادون عموميون . ولكن كان يؤدى العمل العام الهام كله ، عدد من الهاوين ، يخلف بعضهم بعضا بسرعة كبيرة . والهدف من ذلك ، كما يخبرنا بركليس ، هو أن ذوى الذكاء السريع ، أكبر قيمة من ذوى الخبرة بالأعمال الرتيبة ، وأحسن السياسيين هم الذين كما يقول توكيديدس عن ثيمستوكليس ، هم أحسن الناس « ارتجالا للسياسة » عند الأزمات والشدائد . وهؤلاء الموظفون « الهواة » كانوا يشغلون الوظيفة لمدة سنة . وعلى أية حال ، فإنهم لم ينفردوا فى القرن الخامس بالوظيفة ، بل كانوا دائما أعضاء فى لجنة ، وذلك لكى يعاونوا ، ويراقبوا بعضهم البعض . وكان بعضهم ينتخب بالقرعة كالقضاة ، من قائمة تحوى أسماء مختارة من المرشحين ، فالحكام التسعة مثلا كانوا ينتخبون (بعد عام ٤٨٧) من بين ٥٠٠ مرشحا يختارهم الديم . أما الآخرون ، الذين اقتضت وظائفهم خبرة ومعرفة خاصة ، فكانوا ينتخبون فى المجلس برفع الأيدى . أما الموظفون الذين تضمنت وظائفهم « أمور الحياة والموت للناس » ، كما يعبر أحد المتذمرين ، أى رجال الحرب والمالية ، فقد كانوا ينتخبون دائما . فلم يكن الموظفون يعينون ، كما هو غالبا عندنا اليوم ، يعينهم بعض الموظفين الآخرين ، أو تعينهم « الحكومة » ، إذ كما سمعنا ثيسيس يقول ، لم تقم فى أثينا « حكومة » بالمعنى الصحيح للكلمة :

إن الشعب كله سنة بعد سنة ، وقد تساوى

فى الخدمة ، هو ملكنا[1] .

ولكن كان لا بد من وجود سلطة مركزية دائمة . فالسفراء الأجانب الذين يأتون أثينا ، لا بد وأن يجدوا شخصا « تكون فى يده أختام السلطة » . فحتى فى فصل العطلة ، عندما تهجر (هويت هول) ، فإن بعض السكرتاريين العموميين الدائمين ، يظلون قائمين بالعمل فى وزارة الخارجية . فمن الذى

---

(١) توكيديدس ، ١ — ١٣٨ ، ٣ ، Ath. Pol. ، ٢٢ — ٥ ، الأوليجارشى المجوز ، ١ — ٣ ، يوريبيدس .Suppl ٤٠٦ .

كان يستبق الآلة الحكومية فى أثينا ؟ من المؤكد أنها لم تترك فى أيدى الكتبة من العبيد .

إن القوة الدائمة الحقيقية التى كانت تحرك الآلة ، وتدفعها إلى العمل ، هى تلك التى عرفت « بالمجلس » ، وهو هيئة أنشأها سولون ، وأصلحها كليستنيز لتحل محل مجلس صناع السفن القديم ، ومعه لجنة الرؤساء للأغراض العامة . وكان المجلس مكونا من ٥٠٠ عضو (٥٠ من كل قبيلة) ، تنتخبهم الديم بالقرعة ، مثل القضاة ، من بين مرشحين مختارين ، وذلك بطريقة نسبية . وهذه الانتخابات الكورية السنوية لمرشحى المجلس ، كانت أهم حوادث العام السياسى المثيرة فى أثينا ، لأن الطابع السياسى للمجلس كان العامل الحاسم فى سياسة الدولة ، بصفة عامة . فكان مسموحا لكل مواطن أن يرشح نفسه ، على شرط ألا يكون قد خدم مرتين كعضو فى المجلس ، ولذلك كانت نسبة كبيرة من المواطنين تأخذ طريقها إلى المجلس بالمناوبة(١) .

وكان عمل هذا « المجلس » مزدوجا ، فكانت عليه عدة واجبات تنفيذية خاصة به يقوم بها ، خاضعا لموافقة الشعب ، كأى لجنة أخرى من الموظفين .

---

(١) Ath. Pol. ، ٦٢ — ٣ (لم يكن هناك إعادة انتخاب ثانية) . عرفت أخارناى أكبر الديم كلها ، (أنظر توكيديدس ، ٢ ، ١٩ ، ٢) بأنها قدمت ٢٢ من شيوخ قبيلتها (Oeneis) البالغ عددهم ٥٠ . وكانت بعض الديم الصغيرة ترسل واحدا (كما نرى فى حالة بيوتارخس فى دستور بيوتيا ، الذى عثر عليه حديثا) وبتقدير عدد المواطنين بأربعين ألفا ، كان يؤخذ عن كل ثمانين فردا ، عضو فى الجمعية فى أى وقت معين . وبتقدير ٣٠ سنة لكل جيل ، نجد أن كل اثنين من خمسة أشخاص يصلان إلى هذا المنصب ، ولكن يجب أن نحسب حسابا لإعادة الانتخاب . وليس لدينا وسائل لنعرف إلى أى حد كان المرشحون يزيدون على الأماكن ، أو إلى أى مدى كانت القرعة صادقة . وفيما يخص انتخابات الديم للمرشحين أعضاء فى المجلس ، أنظر ڤيلاموڤيتز A.A. الجزء الثانى ص ١١١ هامش . أما فيما يخص بالقرعة فانظر « هدلام » فى كتاب الانتخاب بالقرعة فى أثينا (كمبردج ١٨٩١) (Election by lot at Athens) . وهو كتاب لا زال جديرا بالرجوع إليه — لما فيه من نظرة نافذة عملية إلى تفاصيل العمل الحكومى فى أثينا . وهو يؤكد أهمية القرعة فى ضمان دورة الوظائف . أنظر خاصة ص ٤٩ — ٥١ . ثم راجع أيضا بيانه الواضح عن مجرى العمل بالنظام القضائى ص ١٤٥ — ١٥٣ . وانظر أيضا جلوتز Cité ص ٢٤٨ . (أنظر التذييل) .

ومن ناحية أخرى كان يقوم أيضا ، بوظيفة ممثل دائم ، أو « لجنة الأغراض العامة » المجلس . وبقيامه بمثل هذا الدور ، الذى هو أهم وظائفه الخاصة به ، يكون من الوجهة النظرية مجرد قسم من الشعب ، أو مرآة له ، فالمستشار ، كالناخب فى المجلس ، لم يكن مطالبا كأى موظف آخر بتقديم تقرير عن أعماله . وكان المجلس يناقش ويشكل كل الأعمال التى ستعرض على الشعب صاحب السلطان ، ثم يبعث بجدول الأعمال فى هيئة بروبولفيانا (προβουλεύματα) ، أو محضر جلسة . ولا يمكن أن يمر قرار إلا بعد عرضه المناقشة ، أو بلغة أثينا الرسمية ، « ما لم يبد صالحا للمجلس والشعب » . وكان المجلس يجتمع يوميا ، بين الجلسة والجلسة ، للنظر فى الأعمال العادية نيابة عن جمعية الشعب صاحب السيادة . فإذا أراد أحد أن يتصل بمجلس الشعب ، سفيرا أجنبيا كان أو مواطنا عاديا ، لشىء يريد إدراجه فى الجلسة التالية ، وجب عليه أن يذهب إلى أعضاء المجلس . ومن أجل ذلك كان المجلس مقسما عشرة أقسام فرعية ، لكل قبيلة لجنة ، وتقوم كل لجنة بالعمل لمدة عشر سنة . وكان أعضاء هذه اللجان الفرعية يسمون بالاسم القديم بريتانيس (πρυτάνεις) ، أى الرؤساء ، وسميت فترة عمل اللجنة بالبريتانى « Prytany » . وكان على ثلث تلك اللجنة الفرعية الانعقاد بصفة دائمة لمباشرة العمل . ومن بين أعضاء هذا الثلث ، كان ينتخب بالقرعة يوميا ، واحد ليتولى منصب الرئيس « إبستاتيس » (ἐπιστάτης) فى المجلس أو الجلسة . وفى أثناء يومه الواحد ، (إذ لم يكن مسموحا بإعادة انتخابه) يكون فى حوزته مفاتيح القلعة ، والمحفوظات العامة وخاتم الدولة . وهكذا يكون رئيس البلد الأعلى لمدة ٢٤ ساعة . وكان حضور اللجنة الفرعية كلها ، وعددها ٥٠ عضوا ، عند كل اجتماع المجلس ، أمرا ضروريا . أما اجتماع بقى أعضاء المجلس ، فقد كان اختياريا ، فيما عدا ممثل واحد ، ينتخب بالاقتراع ، عن كل قبيلة من القبائل التسع . وقد كان هذا شرطا لضمان ألا يكون هناك سيطرة للمصالح القبلية ، حتى فى طريقة النظام القبلى « بالأثلاث » .

وكان المجلس أيضا عدد كبير من الوظائف التنفيذية ، أخذ بعضها من مجلس الحكام القديم ، الذى كان يجتمع فى الأريوپاج . فكان مثلا يدير الأمور المالية التى شملت — بعد عام ٤٥٣ ، المالية الإمبراطورية ، إلى جانب المالية الأهلية . كما كان يقوم بكل الترتيبات لانتخاب الموظفين ، أو الاقتراع عليهم ، وبمراقبة كل الموظفين المدنيين ، أثناء قيامهم بواجباتهم . ونحن لانعرف كم مرة اجتمع فيه المجلس بهيئته الكاملة فى مكان الاجتماع ، بخلاف اجتماع هيئته الفرعية اليومى . ولكن كان عمله كثيرا بما فيه الكفاية ، حتى أنه كان يستبقى أعضاءه فى عمل مستمر طوال عامهم ، مما اضطر بركليس إلى منحهم أجرا على عملهم ، علاوة على الغذاء العام فى مكان غرفة المجلس الجديدة ، أو (المنزل المستدير) كما كان يسمى وقتئذ ، والذى كان للرؤساء الحق فيه تبعا لعرف قديم(١).

رأينا كيف كان الشعب صاحب السيادة ، يحكم ويدير الأمور بوضع السلطة فى يد ممثليه . فلنراقب الآن الشعب كله ديموس (Demos) فى اجتماعه العام فى الإكليزيا على تل بنكس (Pnyx) ، «ليقرر أويناقش بنفسه باهتمام كل مايتعلق بأمور السياسة» ، «لامعتقدا أن الأقوال تتعارض مع الأعمال ، بل أن الأعمال مقضى عليها بالفشل ، إذا اضطلعنا بها دون مناقشة» ، كما يقول بركليس . وهذه الأعمال لم تكن مجرد أعمال خطيرة فى ميدان القتال فحسب ،

(١) Ath. Pol. ، ٤٣ ، ٢ وما بعدها ، ثم دارمبرج مقال Βουλή مع المراجع ؛ ڤيلاموڤيتز .A.A ، الجزء الثانى ص ٩٥ر١٠٦ . ثم البيت المستدير : أفلاطون ، الدفاع ٣٢ ، مع بيان سلوك سقراط «كرئيس» ، وهى الوظيفة الوحيدة التى شغلها من وظائف الدولة . وتكون السنة الأثينية القديمة من ١٢ شهرا قمريا (٣٥٤ يوما) ، بزيادة شهر كل ثلاث سنوات من كل ثمانى . ولذا فاتباع كليستنيز الطريقة العشرية لتقسيم السنة ، (باعتبار عدد أيامها ٣٦٠ يوما) إلى عشرة بريتانيات تتضمن «ترك القمر كمقياس للوقت» . Staat und Gesellschaft ص ٩٨ ، الطبعة الثانية ص ١٠٢ . إن «مراقبة» المالية ، وهى عكس إدارتها ، كانت بالطبع من اختصاص المجلس ومستشاريه . وكان الحكام يعتبرون مسئولين لا عن مقترحاتهم فحسب ، بل أيضا عن نفقات ما تتطلبه هذه المقترحات . أنظر (هدلام) السالف الذكر ص ١١٢ وما بعدها .

وإنما هي أيضا القرارات، التي يتخذها المجلس، أو بعبارة توكيديدس، التي تحولت من « أقوال » ، إلى « أفعال » .

لقد أقام القرن التاسع عشر وزنا كبيرا « لصوت الشعب » ، كما لو كان في مقدور الناس أن يصيحوا معا دون أن يصموا آذان بعضهم بعضا . وعند ما تبينوا أنه في ظل الظروف الحديثة ، لا يمكن للأمم أن تجتمع في مجلس واحد ، قدسوا انتخاب الممثلين ، ليقوموا بالحكم نيابة عنهم . وهكذا تحول الاهتمام والتقدير من الشعب إلى البرلمانات . وفي عجب بالغ ، تبين للقرن العشرين ، أن قد بولغ في تقدير البرلمانات ، فمهما أجادت المعارضة واشتد صياحها ، فستجد عسيرا عليها أن تسيطر . وربما كان في استطاعة الديمقراطيين في عصرنا الحاضر ، أن يوفروا على أنفسهم الوقوف على هذه الحقيقة المرة ، إذا هم أصغوا إلى العلماء النفسانيين . فإدارة الأمور العامة ، تشبه إلى حد بعيد إدارة الأمور الخاصة ؛ والناس لا يقوون على إنجاز العمل ، وهم قبائل وجحافل . إن الجماعات الكبيرة ، كالصغيرة تماما ، إلا أنها أكثر متاعب . فما من شخص يحب أن يجلس الساعات مصغيا إلى كلام الآخرين ، ولن تكون الحالة أكثر احتمالا إذا وجد مئات آخرون يصغون مثله . ولذا فإن جو السأم والملل يظهر بشكل واضح، في معظم البرلمانات الحديثة ، كما يبدو في جميع اللجان الكبيرة منظر أناس يناضلون مستيئسين وراء المحال ، يعملون على ألا يضيعوا شيئاً من وقتهم الخاص ، ومع ذلك يحرصون على أن يتابعوا مخلصين ، موضوع المناقشة . ومن هنا كان الميل المتزايد إلى تركيز السلطة الحقيقية ، والعمل الحقيقي في أكثر الجهات ملاءمة للعمل — أي في أيدي مجالس الوزراء ، وفي اللجان و « الموظفين »[١] .

---

(١) لازلنا ندون كتاب عن « سيكولوجية العمل في اللجان » ، ولكن العدد الصحيح لمناقشة مسألة معقدة من المسائل الخاصة بالأعمال ، يلم نحو ستة أشخاص ، « لأن هذا العدد من الرجال يمكنهم أن يجلسوا حول مائدة صغيرة ، يتحدثون في غير كلفة ، وفي غير إسراف في الألفاظ أو إظهار أي ادعاء ، وينتج عن تلك الجلسة نوع مفيد في وجهات النظر ، وفي ظرف =

وقد أدرك الناس نفس هذه الصعوبات فى الإكليزيا ، ولهذا ، كما رأينا لم تجر الأعمال المعتادة هناك . وفى بعض البلدان لا يجتمع البرلمان بشكل منتظم مطلقاً ، بل يدعى للانعقاد، من وقت لآخر، لاجتماع طارىء، عندما تستدعى

= معالجة موضوع مطروح على بساط البحث، ويكونون سريعين فى إنجاز العمل الذى هم بصدده » Eliot. University Administration ص٦٤ — ٦٥ . (قارن آخر التجارب فى نظام حكومتنا وهى مداولة الزعماء السرية — ١٩٢٤ . كما أن مجلس عصبة الأمم بقبوله ، أولا أربعة أعضاء ، ثم ستة أعضاء ، يقال أنهم ممثلين للدول الصغرى ، قد غدا ، أو سيغدو فى النهاية ، إلى حد ما ، كبيرا جدا). ولذا كانت اللجان الصغيرة فى أثينا ، المكونة عادة من عشرة أشخاص ، أكثر نفعا من المجلس . وإذا كانت الموضوعات المعقدة يكتفى فيها بتقارير عنها ولا نناقش ، كما هى الحال فى الإكليزيا ، كان العدد المضبوط للهيئة أمرا غير ذى بال ، فيحضر من يعنيه الأمر، ويتخلف من عداه . وكان اليونان يعرفون تماما عيب اشتراك « شعب بأسره فى المناقشة » . وقد كانت حجة الأقلية الأوليجارشية دائما هى « كيف يتسنى للدهماء أن يحكموا ؟ ويقول المتكلم فى مناظرة هيرودوت (٣ ، ٨١) « لماذا ؟ إنها تندفع فى رعونة وتهور فى الأمور ، كما يندفع سيل شتوى جتاحا كل شىء أمامه . إن ذلك غباء وتهور ، ولا فائدة ترجى منه » . ولذا فقد استغنت الأوليجارشيات عن الاجتماعات العامة ، وقامت بالحكم عن طريق المجالس وحدها . أنظر الدستور الطريف الذى اقترح لأثينا فى عام ٤١١ فى Ath. Pol. ٣٠، . فهو لم ينص على جمعية عامة ، وإنما استعاض عنها بتقسيم هيئة المواطنين إلى أربعة مجالس ، يحكم كل مجلس لمدة سنة كل أربع سنوات . وهكذا (حسب الرأى الحديث) نجد أن ثلاثة أرباع مجموع المواطنين ، محرومين من امتيازتهم . وبما أن هذا المشرع لم يكن يفكر فى « حقوق » ، وإنما كان كل همه العمل ، فقد أضاف شرطا ، ذلك أنه إذا رغب المجلس ، فيمكن لأى عضو من أعضائه ، إحضار مواطن ، مثل بركليس أوثيميستوكليس ، ممن يحرصون على الانتفاع بخدماتهم ، ليشترك فى المناقشات . إن الحكم سنة كل أربع سنوات يبدو كأنه ضريبة جسيمة على الزمن . وكان المفروض أن يجتمع المجلس يوما واحدا كل خمسة أيام ، وليس للأعضاء أجر ، ومن يحضر منهم متأخرا يغرم دراخمة . وكان الأمر شبيها بذلك فى الاتحاد البيوتى فى آخر القرن الخامس ، إذ كانت كل الأعمال المركزية والمحلية تتولاها لجان . وبالنسبة للشئون المحلية ، كانت هيئة المواطنين تقسم أربع لجان كبيرة بالترتيب ، وكان هذا تدبيرا ضروريا ، طالما لم يدفع الأوليجرشيون أجرا لخدامهم العموميين . كانت الأمور الهامة تقرر فى جلسة تجمع الأقسام الأربعة. كذلك كان مجلس الاتحاد المركزى مقسما بالمثل . وكان مكونا من ٦٦٠ عضوا ، أى مقسما أربع لجان ، عدد كل منها ١٦٥ عضوا أى ١٥ عضوا من كل من الإحدى عشرة مقاطعة ، أو منطقة تحالف اتحاديه . وفى كل واحدة من تلك المقاطعات ، كان الـ ١٥ عضوا موزعين بطريقة من طرق التمثيل النسبى بين المدن المختلفة ، أنظر توكيديدس ٥ ، ٣٨ ، Hellenica Oxyrhynchia الجزء الحادى عشر ص ٢ وما بعدها ، وقد وضحها جلوتز فى Bulletin de Correspondance Hellénique الجزء ٣٢ ص ٢٧١ وما بعدها . أنظر فيلاموفيتز Staat und Gesellschaft ص ١٢٩ ، والطبعة الثانية ص ١٣٢ إلى ١٣٤ .

الضرورة ذلك . أما فى أثينا ، فكانت الإكليزيا تجتمع فى دورات منتظمة ، عشر مرات فى العام (مرة كل بريتانى) . ورغم أن عدد مرات انعقادها غير العادى ، قد ازداد تدريجيا فى القرن الخامس ، إلى ثلاث أو أربع مرات كل بريتانى ، فحتى هذا لم يعن أكثر من مرة كل عشرة أيام . إلا أن الإكليزيا كانت تجتمع فى ظروف أحسن من برلماناتنا الحديثة ، وذلك يرجع إلى جو غرف برلماناتنا الخانق ، كما يرجع إلى طبيعة العمل الذى يؤدى فيها ، مما يضنى مشرعينا ، فيعودون إلى بيوتهم متعبين ، بعد ساعات قليلة من العمل . أما المجلس الأثينى ، فكان يجتمع فى الهواء الطلق ، وبالرغم من هذا كله لم يكن اجتماعهم مضنيا جثمانيا . فخطباء أثينا لم يرغموا ضحاياهم ، على الاستماع إليهم واقفين ، كما فى الاجتماعات التى تعقد فى حدائقنا ، وفى أركان الشوارع . فالأثينيون ، بخلاف الرومان ، يأتون إلى مجالس الشعب كى يفكروا ، لا ليتثاءبوا ، وما من شخص (عدا من كان سقراطا) يستطيع إمعان التفكير ساعات ، وهو واقف على قدميه . وفى صباح الاجتماع ، يأتى الأعضاء بعد الشروق مباشرة ، تاركين منازلهم فى القرى ، أو فى سلاميس عبر المياه ، قبل أن يضئ لهم النهار بما يكفى من النور ، ليضعوا ملابسهم . وإذا ما بلغوا تل پنكس (Pnyx) سالمين ، جلسوا كما يهوون ، بين أصدقائهم ومعارفهم . فالشعب وهو منعقد على هيئة المجلس ، لا يميز فى سلطته العليا بين قبائل ، ولا أثلاث ، أو أية أقسام صغيرة من أقسامه . وهناك يجلسون على مضض ، وفى ملل ، أو يفكرون فى زيتوناتهم ، أو يكتبون إلى أصدقائهم الغائبين ، متمنين لو أنهم توقفوا فى أثناء الطريق ، ليتناولوا قدحا من الشراب الممزوج ، بل يتحسرون على الأكلة المشبعة التى لن ينعموا بها حتى الغد ، (لأنهم سيعودون إلى منازلهم فى وقت متأخر تماما فلا يمكنهم تناول عشاء يستحق الأكل) ، ويظلون كذلك حتى يتوافد سكان المدينة الكسالى ، من أثينا وپيريه . وأخيرا ، وبعد أن يحضر الجميع ، يرى المستشارون الذين لا يرعون المواعيد ، يشقون طريقهم

مسرعين وسط الجماهير . وفى النهاية ، حين لا يبقى فى جعبة القروى لعنة ، إلا وقد استمطرها ، تبدأ الصلاة إيذانا ببدء العمل[1] .

وليس معنى هذا ، أننا ننتظر أن نجد مجلسا كامل العـدد ، اللهم إلا فى حالة لهـا أهمية خاصة . ولم يكن هذا أمرا ضروريا ، ما دام الشعب كله ممثـلا تمثيلا معقولا . فهذا ، قبل كل شىء ، هو السبب الرئيسى لوجود البرلمان . وبما أن الأمر يخص الشعب ، بقدر ما يخص الأشياء ، فسيظل البرلمان دائما ضروريا مهما يكن الحكم أمرا « فنيا » ، له من يختص به . وليس من واجب عضو المجلس الوطنى أن يعرف كثيرا عن الأشياء (رغم أن تلك المعرفة لن تكون عديمة الفائدة) ، كمعرفته بالناس ، وأن يجعل الناس الذين يدبرون الأمر ، على علم بما يعرفه هو . وقد كان الخطر فى أثينا طبعاً وهو ما يمكن أن نراه من الحذر ، الذى روعى عند تكوين المجلس ، هو أن يطغى صوت سكان المدينة ، على أصوات أعضاء المناطق البعيدة . ولا يمكن أن نحدد « متوسط » نسبة عدد الأعضاء الذين يحضرون الاجتماع ، ولكن الوثيقة الوحيدة التى نملكها عن تقسيم فعلى ، تبين أن عـدد المؤيدين كان ٣٤٦١ ، مقابل ١٥٥ معارضين . فمجموع الأصوات كان إذن ٣٦١٦ صوتا ،

---

(١) أرسطو فى السياسة ، ١٢٧٥ ب ٨ (برلمانات الطوارئ) ، ثم أرسطو — لاكليزيا ٣٣١ وما بعدها ، ثم ٢٨٩ وما بعدها ، (التبكير فى النهوض من النوم يوم اجتماع المجلس) ، ثم .Ach ، ٢٠ (الوصول مبكرا إلى البنكس Pnyx) ، ثم .Lys ، ٥٩ (المبورمن سلاميس) ، ثم الإكليزيا ٨٥ (الصلاة) ، ثم ثيوفراستوس ، Jebb ، ص ٨٦ (شراب القرويين) . وكانت ، كل برلمانات اليونان تعقد والأعضاء جلوسا حتى عند الاسبرطيين (توكيديدس ١ — ٨٧ — ٢ ἀναστήτω) . « إن مجلس العموم هو المكان الذى لا يمكن لرجل ، أن يعمل فيه أو يستريح » ، كما قال أحد رجال السياسة المعروفين أخيرا — ١٩٢١ . أنظر الفقرة التالية من Der Weltkrieg (المجلد الثانى ، ص ٢٢٧) لمؤلفه كارل هلفريك (Karl Helfferich) ، ويعتبر صاحب أكبر رأس منظم فى ألمانيا أثناء الحرب ، التى شغل فيها منصب وزير المالية والداخلية ، كما كان نائب المستشار : « ربما كنت بعض الأحيان موجزا وحادا فى كلامى فى الرايشستاغ ، ولكن ذلك عموما كان التعبير عن ثورتى النفسية ، التى حاولت كبتها بصعوبة ، على ما ضاع من وقت وكفاية فى تلك المناظرات العقيمة ، على حين كانت هناك فى الانتظار ، أعمال أخرى عاجلة ، وعلى جانب عظيم من الأهمية ، وأصيبت من جراء ذلك بأضرار » .

وهو عدد صغير جداً بالنسبة إلى هيئة الناخبين . ولم يكن هناك حاجة إلى توافر عدد قانونى ، للسير فى الأعمال العادية ، أما إذا قدم اقتراح ، بقرار يؤثر على فرد واحد من الأعضاء (νόμος ἐπ' ἀνδρί)فكان يجب أن يكون عدد الحضور ٦٠٠٠ عضوا . وربما كان لابد وأن تتوفر أغلبية من من ٦٠٠٠ صوتا ، فى حالات النفى الإدارى الشاذة ، لإمكان إصدار قرار بهذه العقوبة . ولكن من المؤكد أن متوسط عدد الحضور ، كان أقل من هذا بكثير . ففى خلال سنى حرب البلوبونيز الأخيرة ، كان مستحيلا جمع ٥٠٠٠ عضوا مهما بلغت أهمية الموضوع . وبعد انتهاء الحرب ، أصبح من العسير الحصول على العدد القانونى الكافى للانعقاد ، حتى أنهم خصصوا مرتبات للحضور . وقد زيدت مرتبات الأعضاء مرات عديدة ، (وربما كان سبب ذلك تدهور العملة وانخفاض قيمتها) فى أثناء القرن الرابع ، حتى وصل الأجر إلى درخمة ونصف (حوالى أجر يومى عادى) لعشر اجتماعات عادية ، ودرخمة واحدة لكل اجتماع غير عادى ، ولم يكن يسمح بالحضور لأى فرد إلا إذا بلغ العشرين من عمره [١] .

---

(١) توكيديدس ٨ — ٧٢ — ١ . فيما يخص النفى الإدارى أنظر مقال كاركوبينو المستوعب فى Mélanges d'histoire ancienne (باريس ١٩٠٩) ، ثم نقد كاننجهام فى Classical Review فبراير ١٩١١ . ولا يزال موضوع بحث : ما إذا كان مطلوبا ٦٠٠٠ صوتا لعقد الجلسة انعقادا قانونيا ، أو للحصول على الأغلبية ، لتقرير النفى . أنظر Mélanges ص ١٥٠ وما بعدها ، وأيضا ص ١٤٥ — ١٤٦ ، وذلك بخصوص الأوستراكات الأربع الباقية ، التى كان يكتب عليها اسم رجل السياسة المتهم . وكلها كانت تختلف فى الشكل والحجم . ولم تكن الدولة هى التى تقدمها للصوت ، بل كان المصوت يعدها ويعاؤها ، على مهل مقدما . وعلى ذلك رغم أن التصويت كان سريا ، إلا أن المصوت الأمى ، كان يمكنه الحصول على مساعدة جيرانه . ويتضح ذلك من قصة بلوتارخوس ، عن رجل قروى أراد أن يقيد صوته ضد أرستيديس ، لأنه سئم تسمية الناس له بالعادل . (بلوتارخوس — أرستيديس ٧) . إن تسليم الأثينيين بنظام النفى الإدارى يظهر ، كيف كان أمرا عاديا عندهم ، وضع الدولة أولا ، أما الأشخاص فلا مكان لهم . وكان الرجل ينفى لا لجريرة اقترفها ، وإنما لأن جانبا كبيرا من زملائه المواطنين ظنوا أنه من الخير إبعاده ، وليس فينا اليوم من يمارس مثل هذه السلطة ، حتى ولا نظار المدارس . أنظر توكيديدس ٨ — ٧٣ — ٣ .

هذا وقد أتاح لنا «دستور أثينا» لمحة أنارت نظام العمل البرلمانى. كان المجلس يضع جـــدول الأعمال، ثم يوزع بعد أن يرسل إخطارا بموعد الاجتماع. ولا يمكن أن يعرض للبحث موضوع ما لم يكن مدرجا فى جدول الأعمال، ولكن للجمعية الحق فى اختيار ترتيب مناقشة الأمور المعروضة، وبذا أمكن منع المجلس من تقييد المناقشة، بوضع الموضوعات المحرجة فى نهاية كشف طويل. وكانت الأعمال العامـــة ترتب ثلاثة أقسام، الموضوعات «المقدسة» و«الدنيوية» و«الشئون الخارجية». ويبدأ العمل بعد شروق الشمس، وقد يستمر إلى الغسق. ولكن مما لا شك فيه، أن الملل كان يزداد باطراد، فيما بعد الظهر، ومن هنا اتخذت خطوات تكفل إنهاء جزء معقول من العمل. (وشاهدنا على ذلك يرجع إلى ما بعد تاريخ إدخال مبدأ المرتبات المالية). فنسمع عن شرط (لم يكن يعمل به فى كل اجتماع) يتطلب وجوب دراسة تسع نقط من جدول الأعمال على الأقل، ثلاث من كل نوع من أنواع الموضوعات الثلاثة [١].

ماذا كانت روح هذه الجمعية؟ كانت، كما قال نيتشه، أشبه بروح النظارة فى المسرح. ففى كلتا الحالتين يتجه الناس إليها (كما فى Ober-Ammergau) بشعور «الصباح الباكر السليم»، وكلهم استعداد للإصغاء بانتباه، «وللحكم بالعدل»، وقد سما وصفا إدراكهم الحسى، لعظمة الموقف، وجلال المنظر. وكثير من هؤلاء الحاضرين، إن لم يكن معظمهم، كانوا أعضاء فى المجلس من قبل، عرفوا طبيعة الأعمال فيه، وتفاصيلها الضرورية. ففى الظروف العادية، عندما لا يوجد شيء هام، كانت تجرى الأعمال بشكل مرضى، فى حدود القانون، رغم ما قد يصحبها من بعض الحـــديث العابث، فاليونانيون هم اليونانيون. أما فى الظروف غير العادية، عندما تكون الأمور المعروضة للمناقشة شاملة لمبادىء عامة، أو مثيرة للشعور، فإن الأمور تأخذ وجها

---

(١) Ath. Pol. ٤٣، ٤ — ٦، ڤيلاموڤيتز .A.A، الجزء الثانى ص ٢٥٢ وما بعدها، وانظر مقال Ekklesia فى موسوعة باولى Pauly، ويحتوى على قائمة التقسيم ص ٢١٧٠.

آخرا . فينسحب رجال الأعمال ، ويبرز المدرسون ورجال الكلام، وتهرع أثينا كلها إلى المجلس لتستمع وتصغى ، كما يحدث فى البرلمان الحديث عندما تعرض مناقشة هامة . فسائل المبادئ والأخلاق تؤثر فى مسئولية كل مواطن ، وتقتضيه أن يعمل ، لامن حيث هو خبير ، ولكن من حيث هو رجل عادى . ولابد أن قامت مناظرات مثيرة ، على (تل البرلمان) ، إبان الحرب الفارسية وبعدها ، ولكن لم يسجلها لنا أى مؤرخ ، اللهم إلا بعض أجزاء من فصاحتها ، وصلت إلى إيدينا . ونستطيع أن نحكم على خصائصها من توكيد يدس ، الذى لخص لنا ، أغراض كثير من المناقشات التى جرت فى موضوع الحرب البلوبونيزية . ولكن أحسن بياناته كان يتصل بالعهد الذى فيه شبت أثينا عن مثاليتها ، ويصور لنا الأخطار الناتجة عن هـذه المناسبات الشعبية الكبرى ، أكثر مما يبين لنا جلال قدرها . فنرى شعبا مثاراً ، نسى تعقله الذى كان سند دستوره ، فأطلق العنان لتفكيره الجامح النفاذ ، جاعلا من الجلسة المعدة للقيام بأعمال هامة لها خطرها ، مسرحا للجدل والسفسطة . إن مثل هـذه الفرص ، أتاحت المجال لظهور طراز جديد من الرجال العموميين ، الذين لم ينالوا حظا من ممارسة المسئولية فى مكاتب العمل بالدولة ، فخيرهم كان من المفكرين أو الأخلاقيين ، وغالبا ما اقتصروا على البرلمانيين المثقفين الممتازين ، الذين نعرفهم حق المعرفة من جرائدنا . فالإكليزيا ، كما نعرفها من أرسطوفانيز ومسرح ديونيسس كذلك ، كان لها ناسها المترددون عليها ، الذين برزوا وجمعوا حولهم لفيفاً من الأصدقاء والأعداء ، وذلك بنقدهم اللاذع ، وطريقتهم الشيقة الحاضرة فى توجيهه ، حتى أن الوزراء المنهمكين فى أعمالهم ، والذين ربما قد تناسوا قليلا ناخبيهم ، كانوا إذا ما أتوا إلى المجلس ، يرون أنهم فقدوا فى الأسبوع أو الأسبوعين الأخيرين تأييد مواطنيهم لهم ، وأن الرجال قد أخـذوا يتكتلون أحزابا تحت قيادة بعض « حراس الشعب » ، أصحاب القـدرة على الكلام اللاذع ، فيبتدئ ذلك الصراع الطويل الذى نعرفه حق المعرفة

بين رجال الأعمال ورجال الكلام ، لينتهى بهذا التحدى « إذهب واعمل هذا العمل بنفسك » . وأحيانا قد يقبل عضو البرلمان التحدى ، كما يفعل النقاد الآخرون والصحفيون فيما بعد ، ويضع بذلك الوزير فى مركز مخجل [١] .

ولم يكن نيكياس فى هذه الظروف المعروفه ، مثل بركليس ، موظفا حكوميا ، أى وزيراً مدنياً طيلة حياته ، ولكنه كان عسكرياً . والعسكرية كانت جزءاً ضرورياً من « العمل العام » ، لا يقل عن ضرورة تفتيش الأسواق العامة ، أو إنجاز الحسابات الحكومية . فلا بد لنا من أن نعرف إذن ، كيف نجح الأثينيون فى جعل الطرق المتبعة فى إدارتهم ، ملائمة لهذه الواجبات القاسية ، فنحن لم نتعود أن نعد أعمال القيادة البرية أو البحرية ، من أعمال الهواة غير المحترفين .

كان لأثينا بلا شك جيشها المجند إجبارياً ، وفى مراثون ، كما نعلم ، خرجت للحرب فى قبائل ، بقيادة قواد وضباط من القبائل ، ينتخبهم رجال من تلك القبائل نفسها . إن عبارة الضباط المنتخبين تبدو شيئا غريباً لنا ، ولكن هل كان هناك غيرهم يمكن أن ينتخبهم ؟ لقد كان إذعانا للكفاية ، أن يعين الملاحين أو الضباط رؤساؤهم ، بدلا من أن يختارهم أيضا الدهماء . ولكن بعد أن

(١) مؤلفات نيتشه الجزء ١٧ ص ٣٠٣ . خلق ظهور السفسطائيين جوا بين الناس ، يشبه جو جماعات المناظرة ، (كما شكى ذلك كليون) بدلا من الوضع القديم الذى كان واقعياً بسيطاً . وكان كليون نفسه ، كما يصفه توكيديدس ، فى طريقته الخشنة ، أسوأ السفسطائيين جميعاً . إن أحسن المناقشات البرلمانية فى توكيديدس هى ٣ — ٣٧ — ٤٨ (الفصل الثامن والثلاثين الخاص بالسفسطائيين) ثم ٦ — ٩ — ٢٣ . أنظر أيضاً بلوتارخوس — الفرس ١١ ، لما يتعلق بمناقشة استعمال أموال الجزية بعد السلم مع الفرس ، ثم انظر كذلك الإكليزيا أو بالأحرى الهيليبا فى يوريبيدس ، .Or ، ٨٦٦ وما بعدها ، ثم الدور الذى لعبه الرجل القروى (٩١٧ وما بعدها) ، توكيديدس ٤ — ٢٨ — ١ (النقاد أنظار الوزراء) . لقد كان كليون نموذجاً « لحامى الحقوق الشعبية » ، وقد كان يقوم بخدمة أى فرد « مثل بعض الناشرين الحديثين » ، وحتى فى أدنى المناطق ، كان ينتظر منه أن يساعد النساء ربات البيوت للحصول على الأجر المستحق لهن (أرسطوفانيز ، الضفادع ٥٦٩) . وفى جماعة صغيرة مثل جماعات المدن اليونانية ، لم يكن ضرورياً أن يهتم البرلمان بواجبه ، كمعبر عن ضمير الشعب ، ولا على أن يحافظ عليه حياً .

أصبح لهم إمبراطورية يحكمونها ، لم يعد هذا النظام القبلى عملياً ، إذ كان على قوادهم ألا يبقوا فى البلاد . فلم تقتصر الحاجة إليهم على الغزوات الصيفية ، أو لتوزيع الحراس حول الأسوار ، بل كانوا يدعون للخدمة فى الخارج ، التى كانت تستغرق أحياناً العام كله : فى الأساطيل أو مع الحاميات، فى أماكن مختلفة من العالم اليونانى . ويقول بركليس مفتخرا ، « ما قابلنا عدوا مطلقا ونحن بكامل عدتنا ، فنصفنا فى البر والآخر فى البحر ، فقد أرسل جنودنا للخدمة فى جهات كثيرة متفرقة » . وهكذا خرجت بالضرورة ، قيادة فرق القبائل من أيديهم ، إلى ضباط أقل منهم درجة ، عينوهم هم . وقد انتهت الحرب القبلية بالنسبة للقواد ، دون سائر كبار الموظفين الأثينيين ، إذ أبيح انتخابهم من هيئة الشعب كله ، لأن عملا هذه أهميته ، عملا يتضمن مسألة حياة أو فناء تمس الشعب كله ، يجب أن يكون الاعتبار الأول فيه ، اختيار الرجل الأحسن . وكما لاحظ الأوليجارشى العجوز (وعلى شفتيه ابتسامته التهكمية) ، « إن الشعب يعلم حق العلم أنه يربح كثيرا إذا حرم من هذه المناصب ، تاركا شغلها لأقدر الرجال وأكفأهم » . وأهم المؤهلات الخاصة التى يجب توافرها فى القائد المنتخب ، معروفة ومقدرة حق قدرها . ورغم أنهم كانوا لا يزالون عشرة ، وكانوا من الوجهة النظرية ، سواء ، فقد كانوا يرسلون إلى الخارج ، أو يظلون داخل البلاد حسب العمل الذى كان عليهم إنجازه ، وحسب تقدير الناس لكفاءتهم . فالرجل الأمين العاقل ، الموثوق فيه ، يرسل للخارج للخدمات البعيدة حيث يحارب ، أو يفاوض ، بقليل من التعليمات ، من أجل وطنه . أما أكفأ العشرة ، فكانوا يستبقون فى البلاد ، ليساعدوا على توجيه السياسة الخارجية ، وليكونوا على استعداد لتنفيذها . وقد تحرر القواد العشرة (دون سائر الموظفين الأثينيين) ، بقدر ما ، من سلطة المجلس ، وغالباً ما كانوا يضطرون إلى القيام بأعمال بعيدة عنه ، دون استشارته . وبما أن إعادة انتخابهم كانت أمراً جائزاً ، فقد كان ممكنا أن يعفوا من تجربة الامتحان القاسية . فهم دون سائر خدم الشعب ، أعطوا وحدهم سلطة كاملة ، وسمح لهم لفترة ، أن

يكونوا «حكاما مطلقين» . ولكن الويل لهم إذا ما رجعوا إلى الوطن مهزومين !

وعلى هـذا فقد كان الموظفون العسكريون ، أى الرجال الذين قادوا الشعب ، فى أوقات الحرج والشدة ، «كانوا هم حقيقة أقوى الرجال فى الدولة ، فى السلم والحرب على حد سواء . وقد سيطر بركليس على جمعية الشعب ، ووجه سياسة أثينا الخارجية لأكثر من جيل ، وذلك بصفته قائداً ، لا بصفته رئيس وزراء ، أو « رئيس المجلس» . وهو وإن كان قد ذهب أحياناً إلى الخارج ، على رأس حملة من الحملات ، إلا أنه يكاد أن يكون قد أقام بأثينا ، طيلة سنى حكمه الثلاثين ، على صلة وثيقة بالبرلمان ، وعلى علم تام بنظمه . وما من شيء يمكن أن يزيد وضوحا ما استنتجناه من قبل ، عندما قرأنا وصف أسخيلوس ، ما كان للحرب من مكانة كبيرة ، فى حياة المواطن اليونانى ، وفى تفكيره [1].

لقد تكلمنا عن الديمقراطية ، ولم يبق إلا شيء واحد قبل أن نختتم هذا العرض الطويل ، وذلك أن نرى كم كان عدد الناس اللازمين لإنجاز هذه الأعمال .

تقتضى الديمقراطية تعاون عـدد كبير من المواطنين على تأدية أعمال الحكومة ، وهذا يعنى أن ما يقدمونه للحكومة ، لا يقتصر على الضرائب فقط ، إنما هم يمنحونها أيضاً الوقت والفكر . فتبرع أغنياء الأثينيين بالمال

(١) توكيديدس ٢ — ٥٩ — ٣ ، الأوليجارشى العجوز ١ — ٣ ، ثم إجزينوفون Mem. ، ٣ — ٤ — ١ ، ثم ماير ، الجزء الثالث الفقرة ٢٠١ مع المراجع . ثم ڤيلاموڤيتز A.A. ، ٢ ، ص ١٠٧ وما بعدها ؛ مسئولية القائد ، أسخيلوس ، الفرس ٢١٣ ، ثم انظر رسالة نيكياس . توكيديدس ٧ — ١١ — ٤٨ — ٣ ، ٨ — ١ — ١ . يمكن القائد أن يمنع اجتماع الإكليزيا (كما فعل بركليس عام ٤٣١ ، توكيديدس ٢ — ٢٢ — ١) بأن يستدعى الجيش ، (أى أنه فى هذه الحالة يرسل المواطنين إلى الحراسة) . اللازمون العسكريون : . Lys ، ٢١ — ١٠ ، النوتى أى اللازم البحرى : اللازمون فى الجيش ، كما لاحظ ڤيلاموڤيتز (Aus Kydathen ، ص ٧٩) ظلوا وقتاً طويلا يوضعون فى مراكز ثانوية . وليس ذلك بغريب بالنسبة لجيش معد على القواعد التى ذكرتها المرثية . وما من دولة كانت أكثر تحرراً من نفوذ «الطبقة العسكرية» .

للسفن أو لفرق المنشدين ، أو للمغنين ، أو لإقامة التماثيل العامـة ، وقدم الفقراء (وأغلب الأثينيين فقراء) عائل أراملهم أى أنفسهم . فما أثقل ذلك العبء الذى فرضته عليهم مدينتهم ؟ (١)

لقد كان عبئا حقا من كل الوجوه ، حتى أنه كان عنصراً مهما فى حياتهم . فالمقابلة بين النشاط العام والنشاط الخاص ، أمر معروف كل المعرفة فى كل ما يكتب عن الديمقراطية . ويعنى العمل بالنسبة لنا دائما ، عملنا المهنى الذى نحترفه ، اللهم إلا إذا ذكرنا العكس . أما العمل فى أثينا فيحتمل أن يعنى كليهما ، عملك الخاص ، والعمل للدولة ، إلا إذا حددت ما تعنيه .

كانت شئون الإحصاء فى العهد القـديم ضعيفـة ركيـكة ، ولـكن إنه لجـدير ، أن نحاول تقديم بعض الأرقام المحدودة ، لنرى كيف كانت تدار هذه الآلة الديموقراطية .فقد زودنا « دستور أثينا » ، فيما بعد ، ببعض الأدلة المناسبة ، للاستفادة منها هنا . (٢)

إن كافينياك « Cavaignac وهو أحد الـكتاب المتأخرين ، الذين تناولوا عدد السكان فى أثينا فى القرن الخامس ، قدر لنا التقدير التالى عن عام ٤٣١ ، وهو العام الذى اشتعلت فيها حرب البلوبونيز :

٢٥ — ٣٠ الف جنود الأسلحة الثقيلة (وتحتوى على الطبقات الثلاث الأولى التى وردت فى إحصاء سولون) .

٢٠ الف جنود الأسلحة الخفيفة وفرق المجدفين (من الطبقة الرابعة) .

٤٥ — ٥٠ الف المجموع .

ضمن كافينياك هـذا التقدير الجاليات أو المقيمين فى الخارج ، فى البـلاد

---

(١) ربما كانت كلمة Λειτουργία مشتقة من λεώς (أى الناس) . وعلى ذلك فكلمة λειτουργός تعنى تماماً ما تعنيه δημιοργός : إنما الاختلاف أنه دفع نقدا .

(٢) Ath. Pol. ، ٢٤ ، ونوقش فى فيلاموفيتز A.A. ، الجزء الثانى ص ٢٠١ إلى ٢١١ .

التى تم الاستيلاء عليها ، فى الجهات المختلفة من الإمبراطورية الأثينية ، وكانوا من الطبقات الفقيرة ، ويقدرون بستـــة آلاف إلى عشرة آلاف . فإذا أخرجناهم من حسابنا ، رأينا أن عدد المقيمين من الرجال ، ينخفض إلى ٤٤ ألف (الحد الأقصى) و ٣٥ ألف (الحد الأدنى).[1]

من هذا العدد من الرجال يقـدر ڤيلاموڤيتز أن ٧٥٠٠ (أى أكثر من رجل واحد فى كل ست رجال) كانوا يستخدمون فى أية لحظة ، فى القيام بواجبات الدولة اليومية المنتظمة على النحو التالى : ١٥٠٠ يعملون كموظفين مدنيين و ٦٠٠٠ كجنود ، وبحارة ، وشرطة . وهذا العدد لا يشمل الـ ٦٠٠٠ قاضيا الذين كان يمكن أن يطلبوا للعمل ، فى أى يوم من أيام السنة التى انتخبوا للعمل فيها . فإذا أضفنا هؤلاء ، ارتفعت النسبة إلى واحد من كل أربعة أشخاص ، أو حتى إلى واحد من كل ثلاثة أشخاص .

إن هذه الأرقام لتسترعى الانتباه ، فيحسن بنا أن ندرسها بالتفصيل .

يقول دستور أثينا « إن أكثر من ٢٠ الف رجل ، كانوا يأكلون « الخبز العام » ، أى أنهم كانوا يأخذون أجراً من الدولة ، بوصفهم قضاة ،

(١) كاڤينياك Études sur l'histoire financière d'Athènes au Vsiécle ص١٦١ وما بعدها . أما ڤيلاموڤيتز الذى أنحو نحوه فى التفصيلات ، فيميل إلى اعتباره أكثر من ذلك ، أما العدد الذى قدره ماير فى Forschungen الجزء الثانى ص ١٧٩ فهو ٥٥٠٠٠ ، وليس من بينهم الـكليروشين . إلا أن ثلاثة آخرين ، من الـكتاب الحديثين : دلبروك Delbrück ، فوكاس Fawcus (J.H.S. عام ١٩٠٩) ، ثم جيرنت Gernet فى Mélanges d'histoire ancienne ١٩٠٩ (ص ٢٨٣) يذهبون مذهب بيلوخ Beloch فى كتـابه Griechische Geschichte الطبعة الأولى ، الجزء الأول ص ٤٠٤ ، اللاحظة الأولى فى تخفيض هذا العدد إلى ما بين ٣٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ . فاضرب ذلك فى أربع فيـكون مجموع السكان ، رجالا ونساء وأطفالا . وقد قامت تلك المناقشة على أساس عدد المحاربين الذى ذكره توكيديدس (٢ — ١٣) . ولا يوجد ثمـة بينة قوية أخرى تذكر ، إلا أن عددى ٢٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ τρισμύριοι ، δισμύριοι إن هى إلا تعبيرات عامة ، تكاد تجرى مجرى الأمثال ، عن جملة عدد المواطنين : مثل هيرودوت ٥ — ٩٧ ، وأرسطو ، الإكليزيا ١١٣٢ ؛ Dem ٢٥ — ٥١ ، وأفلاطون Symp. ١٧٥ E .

أو أعضاء مجلس ، أو كانوا يعيشون على حساب الدولة ، كموظفين عموميين أو أفراد لهم نفعهم[١].

وهؤلاء العشرين الفا ، يجرى تقسيمهم إذن كالتالى :

أولا : ٦٠٠٠ قاضيا .

١٦٠٠ (رماة نبل) قواسون .

١٢٠٠ فرسان [ومنهم ٢٠٠ فارسا من حملة الأقواس ، أنظر توكيديدس ، ٢ — ١٣ — ٧]

٥٠٠ أعضاء مجلس .

٥٠٠ حراس السفن .

---

(١) أنظر ڤيلاموڤيتز .A. A ، الجزء الأول ص ١٩٦ الملاحظة ، ٢٠ . ويجب أن نتذكر أن سقراطا قد اقترح ، أن له الحق فى طلب مثل هذا الاتفاق . أفلاطون .Apol ، ٣٦ — ٣٧ . إن الأجر المنتظم الذى يدفع نظير القيام بعمل الدولة ، كما قرر ذلك بركليس المحلفين وأعضاء المجالس ، لا يعتبر « رشوة » ولكنه تقدم كبير (يشابه الضريبة المحددة ، التى فرضها الملك داريوس ، بدلا من الابتزاز أو الإحسان) يفوق الطريقة الشرقية القديمة ، أى الهبة (البقشيش) ، والاختلاس؟ أو الطريقة الغربية الحديثة ، أى المصروفات السرية « إن العامل جدير بأجره » : وقد بلغ الأثينيون من التعقل أنهم لم يخجلوا من قبوله . وأثر إدخال طريقة دفع الأجور هذه ، لم يكن إغراء العناصر الفقيرة بالدخول فى الحياة العامة ، بقدر ما كان تعويضاً لمتوسطى الثروة عن وقتهم وجهودهم (سندوول ص ١٨) . ولكن « الطريقة الشرقية القديمة « بقيت فى أثينا ، كما هى قائمة إلى الآن بيننا ، ولكنها أكثر انتشاراً بالنسبة للأعمال التى يقوم بها الخدم ومن فى مستواهم . ويمكن أن يرى الإنسان « مفتشى الأسواق » ، يحملون ما دفع لهم فى أكياس من الورق . وكما يقول ڤيلاموڤيتز إن عبارة « καρποῦσθαι τὴν ἀρχήν » (أن تجعل وظيفتك تؤتى ثمارها) تعبير جميل ، فالإنسان لا يأخذه القلق ، إلا إذا كان الأمر يتعلق بالنقود » . وقد ذكرت الطريقتان معا فى الأوليجارشى المجوز ١ — ٣ : « الناس يتهافتون على الوظائف التى تدر أجراً ، أو تجلب عونا للناس الذين فى البيت » ، (أى أكياس الورق) . وبالطبع عارض هو وغيره من الأغنياء الآخرين فى دفع الدولة لهذا الأجر ، إلا أن هذا يرجع إلى أنه كان يعارض نظام الحكومة الشعبية على الإطلاق . وكما يقول هو فى عباراته الافتتاحية ، إن هذا كله إنما يقوم معا وينهار معا . فالمبدأ الأوليجارشى هو « الضريبة الاختيارية والخدمات الشخصية ، التي تقدم دون أجر » τοῖς σώμασιν καὶ τοῖς χρήμασιν λητουργεῖν ، Ath. Pol. ٢٩ — ٥ .

٥٠ حراس الأكروبول .

٧٠٠ موظفون عموميون فى المدينة .

٣٠٠ موظفون فى الإمبراطورية(١)

١٠٨٥٠ المجموع التقريبى .

وواضح أن هؤلاء اعتبروا موظفين مدنيين ، لأن الرجال المسلحين منهم شرطة كانوا أو رديفا ، ليسوا فى الخدمة العاملة (٢) .

---

(١) العدد غير واضح فى المخطوط . ويقدره ڤيلاموڤيتز « ببضع مئات » .

(٢) يجب ألا نخلط بين فرق حاملى الأقواس العاملة من المواطنين ، وبين كتيبة عبيد الدولة من السيثيين، التى كانت تقوم بعمل البوليس فى أثينا ابتداء من عام ٤٧٠ (.Andoc ، ٣ — ٥) ، وتسكن الخيام على الأريوباج . وكانوا يقومون بعمل البوليس أو الحجابة فى الإكليزيا ، حيث لابد وأن كان يبدو منظرهم غريبا نابيا ، وهم فى زيهم الوطنى (أرسطو .Ach ، ٥٤ و .Lys ، ١٨٤و .Thesm ، ٩٢٣وما بعدها، ڤيلاموڤيتز والجزء الثانى ص ٢٠٢ و٣٣٤ ثم .Staat und Ges ، ١٠٣ ، الطبعة الثانية ص ١٠٩) . أما حرس الأكروبول فكانوا من المواطنين حاملى الأقواس . ويتحدث نص من القرن الخامس بشأن ترميم حائط الأكروبول (ديتنبرجر ، ١٦) ، عن ثلاثة حراس من القواسة ، من القبيلة القائمة بالحراسة فى المجلس (Πρυτανευούσης) .وربما كان هناك أكثر من ثلاثة (أنظر ملاحظة ديتنبرجر) ، ولكن من المحتمل أن النقود المتجمعة من الجزية لم تكن قد وضعت هناك بعد ، إن الـ ١٢٠٠ فارسا ، (التى تقابل عندنا سلاح الفرسان) كانت تضم قواسة من الفرسان (توكيديدس ، ٢ — ١٣ — ٨) . وفى حالة قيام هؤلاء القواسة الفرسان (المقابلين « للفرسان ») بالخدمة، كان على الدولة تكاليف علف الخيل وصيانتها . وكان أحد واجبات المجلس الإشراف على الخيل العامة (.Ath. Pol ، ٤٩) . وهكذا وجد فريقان من الخيالة ، فريق يركب خيل الدولة، وفريق آخر يملك خيله الخاصة به ، أى أن فريقا من الفرسان كان ديمقراطيا ، والآخر أرستقراطيا .ويظهر الفرق بينهما مماهو محفور على إفريز البارثنون ،حيث نرى أن من بين كل سبعة صفوف من الفرسان ، ستة يلبسون زيا رسميا ، يختلف فى كل صف (أى فرقة) عن الآخر . أما هؤلاء الذين يتشحون بزى ملكى ، فهم الفرسان من الشبان الأغنياء ، كما يخبرنا أرسطوفانيز (أنظر ص ١٤١ من Keil, Anonymus Argentinensis) . ورغم تمثيلهم على هذا الإفريز ، وصورهم الجميلة على الأوانى ، فإن الفارس الأثينى لايبدو ذا مهارة خاصة . وقد صور ذلك إجزينوفون فى تعبير ردىء ، فى رسالته عن « واجبات قائد الفرسان » ، أنظر مثلا الفصل الأول ، الفقرة ١٧ ،إذ يقول «يجب أن نحث الأعضاء الصغار فى الكتيبة ، على أن يتعلموا بأنفسهم فنّ الوثب على ظهور الجياد »... الخ ... الخ . (أنظر ڤيلاموڤيتز Aus Kydathen ص ٢٤ ، وملاحظة ٤٥ ، وهو يرى أن الأمور لم تكن سيئة إلى هذا الحد =

وبعد هذا يلى ، وذلك فى فقره مضغمة ، قوة الجيش العاملة وقت السلم » :

٢٥٠٠		جيش (وحدات أسلحة ثقيلة) .
٣٥٠٠	تقريبا	البحرية (سفن حراسة وسفن ضرائب) .
٦٠٠٠		المجموع .

ثم أخيراً يأتى الأفراد الذين يمكن الانتفاع بهم ، وصغار الموظفين (مثل السجانين) وسواهم (من غير العبيد) ، الذين يعيشون على الخزينة العامة ، ويشملون كما نرى من الفقرة الختامية من المرثية «الأيتام» ، من أبناء الرجال الذين ماتوا فى خدمة الدولة ويبلغ عددهم حوالى :

٣١٥٠	
٢٠٠٠٠	مجموع الأقسام الثلاثة .

والمجاميع متفرقة هى :

٢٠٠٠٠	الأشخاص الذين تعولهم الدولة.
١٧٠٠٠	الرجال الذين تعولهم الدولة للخدمة العامة .

ويمكن أن تقسم الفئة الأخيرة كما يأتى:

٧٦٥٠ تقريبا	موظفون [1] (ومنهم المجلس والمحلفون : وقليلون من صغار الموظفين الأحرار) .
٩٣٥٠	القوات المسلحة (فى الجيش والبحرية وإحتياطى الفرسان والشرطة) .

= فى القرن الخامس ، ثم دا كينز (Dakyns) فى مقدمته لترجمة مؤلف اجزينوفون) . كان الإسكندر الأكبر أول قائد يونانى عظيم للفرسان . ويجب أن نتذكر أن اليونان ، كانوا يمتطون الخيل بدون سروج ، ولا ركب . وإنه لمن الصعب أن نتخيل هجوما ناجحا لفرسان من الرماحة ، يمتطون خيولهم من غير ركب . (أنظر التذييل) .

(١) أنظر ڤيلاموڤيتز .A.A ، الجزء الثانى ص ٢٠٢ إلى ٢٠٤ ، فيما يخص تفاصيل الواجبات المتنوعة ، لهذه الوظائف المدنية .

ولكن هذه الأعداد وحدها ، لا يمكن أن تمثل سير العمل فى الجماعة الأثينية تمثيلا صادقا ، فرغم أنه كان يمكن تجنيد واحدا من كل ستة مواطنين فى أثينا كموظفين مدنيين ، نجد زيادة على العبيد ، الذين يجب أن نتركهم الآن جانبا ، عددا كبيرا من الشبان يساهمون فى زيادة موارد الدولة ، وكانوا معفون من هذه الضريبة إذذاك . وهؤلاء هم المقيمون الأجانب أو الغرباء (ميتيكوى μέτοικοι) الذين وإن كانوا غير مواطنين ، إلا أنهم كونوا من كل الوجوه الأخرى ، اقتصاديا ويمكن أن نقول عاطفيا كذلك ، جزءا لا يتجزأ من الدولة الأثينية ، فهم وحدهم دون أى « أصدقاء » أو « حلفاء » من الخارج ، « كانوا الأحرار الوحيدين ، الذين وقفوا مع الأثينين فى بناء إمبراطوريتهم » ، وذلك كما ذكرهم نيكياس ، ساعة المحاكمة . وإنهم لأحرياء أن يكونوا جزءا من النظارة ، الذين استمعوا إلى المرثية وذلك كحق لهم ، لا كميزة يمنحونها[١] .

وبالرغم من أن الغرباء كانوا يعفون من بعض الواجبات المدنية التى على المواطن ، إلا أنهم إذا ما طلبوا للجندية ، كانوا يأخذون مكانهم فى الجيش ويحاربون من أجل أثينا فى الميدان ، كأى مواطن من مواطنيها . ولابد أن بعضهم (ممن ليسوا مدرجين فى البيان الآنف الذكر) ، لا بد أن عملوا كمجدفين فى الوحدات القائمة . ويقدر عدد الشبان الغرباء بحوالى ٢٤ ألفاً ، من بينهم ٨ آلاف يمكنهم ثراؤهم من أن يحاربوا فى الفرق الثقيلة السلاح ، أما الباقون فيعملون مجدفين ، أو فى فرق السلاح الخفيفة . ولكن لم يشترك أحد من هؤلاء الأغنياء فى فرق الجيش الدائمة[٢] .

---

(١) توكيديدس ٢ — ٣٦ — ٤ ثم ٧ — ٦٣ — ٣ إلى ٤ . وفيما يخص الدور الذى يقومون به فى الموكب « اليانائينى » ، الذى يمثل أحيانا على أنه مذل ، أنظر هيدلام فى J. H.S. عام ١٩٠٦ ص ٢٦٨ وما بعدها ، ثم أسخيلوس .Eum ، ١٠٢٨ إلى ١٠٣١ ، (الذى يذكر استعمال كلمة εὔφρων بدلا من φίλος راجع ما سبق ص ١١٠) . كان الأجانب فى زيهم العسكرى الأحمر ، يحملون آنية قربان ملأى بالكعك ، وتحمل زوجاتهم جرارا ، وبناتهم مظلات .

(٢) لقد تعقدت مسألة السكان الأجانب ، بسبب تعارض فقرتين فى توكيديدس تعارضاً بيناً (٢ — ١٣ — ٧ ، ٢ — ٣١ — ١) . ويتبع تقديرى الكلى ماذهب إليه كلارك فى =

وجدير بنا أن نعود ونختم كلامنا ، بالتعقيب على الـكلمات العظيمة ، التى وجهها نيكياس إلى « الأجانب » فى جيشه ، أمام سيراكوز . فهذه الكلمات تلقى ضوءا على طبيعة الجماعة الأثينية وروحها . فيقول « أيها الغرباء ، إنكم جميعاً أثينيون ، وبمعرفتكم لغتنا واتخاذكم أسلوبنا ، نلتم إعجاب اليونان » . فمعيشتهم فى ظلال الأكروپول ، أو حتى فى پيريه ، جعلتهم يشاركون أثينا روحها . وكان بركليس يضرب على هذا الوتر حين يقول : « إنا لا نلجأ إلى إبعاد الناس ، أو نفيهم ، كما تفعل اسبرطة ، ولا نتدخل فى شئون ضيوفنا » . ثم يقول ثانية ، « لقد غدت أثينا مدرسة اليونان » .

كل هذا يبدو طبيعيا جدا للخلف المعجب ، ولـكن إنها أثينا ، وكليستنيز بنوع خاص ، هو الذى أخرجها كذلك . فهذا يدل على القضاء على الفكرة القبلية القديمة الخاصة ، قضاء لا رجعة بعده فى أثينا . تلك الفكرة التى تقول بأن الدولة ليست إلا جماعة قبائل . ويدل على الاعتراف بمبدأ أكثر قيمة من مبدأ التجارة الحرة ، وهو الاعتراف بمبدأ الاختلاط الحر بين الرجال من مختلف الشعوب ، وهو مبدأ صعب صيانته فى مجتمع قديم متشكك . وقد كانت أثينا قريرة بأن ترى غرباءها ، وتشجع نزوحهم إليها ، لا لمجرد الثروة التى يجلبونها معهم ، بل لتجعلهم جزءا من جماعتها . وفى الحقيقة ، حين أنشأ كليستنيز القبائل الجديدة ، انتهز هذه الفرصة الطيبة ، وأدخل كثيرا من الغرباء ضمن المواطنين .

= Les Méléques athéniens ص ٣٧٣ . فتقديره لعدد الجيش يقارب ما ذهب إليه فرانكوت L'Industrie dans La Grèce antique الجزء الأول ص ١٧٣ وما بعدها ، ولـكنه على أية حال لا يدخل فى حسابه طائفة المجدفين من العبيد المحررين (أنظر توكيديدس ١ — ١٤٣ — ١ ثم ٧ — ٦٣ — ٣) . أما تقديره للأسطول فيقارب ما قدره ماير، Forschungen الجزء الثانى ص ١٤٩ وما بعدها ، الذى يقدر عدد جيشهم دون ذلك بكثير . أنظر كذلك ص ١١٦ فيما يلى . فإذا ضربنا عدد المحاربين فى أربعة كالمعتاد حصلنا على عدد السكان الـكلى . أما العبيد فسنبحث أمرهم فيما بعد . وقد كان عددهم الـكلى فى جميع العصور بين ٧٥ ألفا (وهذا أقل عدد قدره لهم فرانكوت) و ١٥٠٠٠٠ (وهو أكبر عدد قدره لهم ماير) . وهذا يعطينا مجموع عدد سكان أتيكا ، الأحرار منهم والعبيد ، ويبلغ حسب أكبر تقدير ٤٢٥ ألفا ، أو ٣١٠ ألفا حسب أقل تقدير .

فمن طبيعة الوضع ، كان هذا أمراً صعب التكرار ، إلا أن ثيميستوكليس ، الذى ورث أفكاره ، وعرف كيف يطبقها فى مجال أوسع ، بذل ما فى وسعه لتشجيع الغرباء ، بأن حررهم من الأعباء . واتبعت هذه السياسة طوال القرنين الخامس والرابع ، إذ كانت أثينا بحاجة إلى غربائها سواء كانوا أحرارا أم عبيدا ،(وكثير من هؤلاء الأغراب بدأوا حياتهم كعبيد) ليمكنوها من القيام بعبء مسئولياتها الثقيلة ، وليمدوها بمصادر للرجال والحاجات ، فى العمل ورأس المال ، التى بدونها تكون مثلها العليا أحلاما فارغة . وقد تمكنت كثير من الجماعات من « مواصلة العمل » بفضل المهاجرين إليها ، ولكن لم يحدث أن اتسعت الضيافة بهذا الشكل الحكيم ، إذ لم يسبق أن كان العمل الذى تطلبته الدولة من مواطنيها ، مرهقا ومهما إلى هذا الحد . فإذا ما دعى مواطن من كل أربعة للخدمات العامة ، كان الناس على حق إذن فى أن يقيموا وزنا ، لكل ما يرد زيادة عليهم عقلا كان أو يدا . وحتى العبيد ، كما سنرى ، نالوا حظهم من هذا الترحيب السياسى[1] .

---

(١) أرسطو ، السياسة ١٢٧٥ ب ٣٦ ، Κλεισθένης ... πολλοὺς ἐφυλέτευσε ξένους καὶ δούλους μετοίκους — والطبقتان وهما الأجانب العاديون ، والعبيد المحررون ، الذين أصبحوا « متك » بعد تحريرهم ؛ وهذا هو السبب الذى من أجله لم نسمع عن محررين فى أثينا . أنظر ديودور ١١ — ٤٣ — ٣ ، إن إعادة تنظيم القبائل الذى قام به كليستنيز لم يتكرر ثانية . وبذلك لم تسنح فرصة ثانية بعد هذا ، لتحرير الأجانب فى مجموعهم . ولكنهم كانوا متمتعين بكامل حقوق الحكومة المحلية ، فى الديم التى يقيمون بها . وبهذه الطريقة ، فقد يكون الكثير منهم قد تسلل الى سجل المواطنين فى أوائل القرن الخامس . وعلى أية حال ، لقد أصبح ذلك مستحيلا بعد أن صدر قانون فى عام ٤٥١ يقضى بقصر حقوق المواطنين على « المولودين من أب وأم أثينيين » . ولما نفذ ذلك بأثر رجعى ، فى مناسبة توزيع هدية من القمح ، قدمها ملك مصر ، أبعد من السجل خمسة آلاف اسما : بلوتارخوس ، بركليس ٣٧ الذى فصله مولر ص ٨١٥ — ٨٢٠ (وذكر فى ص ٣٣٩ فيما بعد) . ومن الخطأ أن نأخذ هذا الإجراء المفرد ، على أنه تبديل فى موقف الأثينيين إزاء « الغرباء » . أنظر ص ٣٨٠ وما بعدها فيما يلى . وهناك حقيقة واحدة صغيرة تظهر مدى الانقلاب العجيب الذى يتضمنه موقف الأثينيين من الغرباء . فيقول Ath. Pol. ، ٥٨ — ٢ . « إن ما يباشره الحاكم الأعلى من واجبات (أى كقاضى وحكم . الخ) للمواطنين ، كان يتولاها =

الفصل السابع

تطور حقوق المواطن

الحرية أو قاعدة الإمبراطورية

الحرية ἐλευθερία

Μόνοι οὐ τοῦ ξυμφέροντος μᾶλλον λογισμῷ ἢ τῆς ἐλευθερίας τῷ πιστῷ ἀδεῶς τινὰ ὠφελοῦμεν. — Pericles.

إننا الوحيدون الذين نهب الخير ، لا لنفع نطلبه ، ولكن للثقة المطلقة في الحرية — بركليس .

إنهم يستطيعون أن يجدوا الاستعباد في كل مكان ، إنه العشب البرى الذى ينبت فى كل تربة . . . . أما الحرية فلن يجدوها إلا لديك ، إنها السلعة القيمة التى كان لك احتكارها — بيرك فى On Conciliation with America.

لقد تتبعنا أثينا فى سيرها إلى الديمقراطية ، ولكن ثم حلقة أخيرة مهمة ، بقى علينا أن نخطوها قبل أن يكمل تعليقنا . يجب أن نعرف أثينا الإمبراطورية . فأثينا التى تحدثت عنها المرثية لم تكن دولة مدينة عادية ،

= البولمارخوس تجاه الملك ، أى القائد الأعلى للمدينة من أيامها الأولى . ولم يتول القضاء إزاء الغرباء فى تلك الأيام ، إنما كان يطاردهم . أنظر Phillipson, The International Law and Custom of ancient Greece (فى جزئين ، لندن ١٩١١ ، ويحوى مراجع أيضا)، ص ١٧١ و١٩٩ ، وكذلك نص فاسيليس Phaselis المذكور به . وهذا النص مذكور أيضا فى الطبعة الثانية من كتاب Hicks & Hill, Greek Historical Inscriptions الطبعة الثانية رقم ٣٦ . ويجب ألا ننسى أنه كان من بين الغرباء ، هيرودوت الهاليكارناسى الذى عاش فى أثينا من حوالى ٤٦٠ إلى ٤٤٣ .

كبلاتيا أو كورسيرا ، إنما كانت عاصمة ، بل سيدة ، لقرابة ٢٥٠ جماعة تابعة لها .

كانت معركة مراثون ، كما يقول توكيديدس ، الحدث المهم الأول بعد طرد الطغاة ، واستقرار دستور كليستنيز . وواصل توكيديدس قوله : « بعد ذلك بعشر سنوات ، أى بعد كليستنيز بجيل كامل ، أتى البربرى بأسطوله ليستعبد اليونان . وفى ساعة الخطر القومى هذه ، اضطلعت لاسديمونيا ، وكانت إذ ذاك أقوى دولة برية ، بقيادة جيوش اليونان المتحدة ، وذهب الأثينيون ، الذين قرروا هدم منازلهم ، وترك مدينتهم عند اقتراب الفرس ، ذهبوا إلى السفن وصاروا ملاحين . وصد الاتحاد الغزاة . ولكن لم يمض على ذلك طويل وقت ، حتى انقسموا هم وسائر اليونانيين الذين تخلصوا من نير الفرس قسمين . قسم من حول أثينا ، والآخر حول لاسديمونيا ، إذ برهنت هاتان الدولتان على تفوقهما ، وكانت قوة إحداهما فى البر ، والثانية فى البحر »[1] .

لو تمعنا هذه الفقرة المختصرة ، لتبين لنا أنها مقدمة كاملة وافية لتاريخ الإمبراطورية الأثينية . إنها تصور لنا ، قصة تغير مادى كبير ، بل وتطور روحى أعظم ، طرأ على شئون اليونان .

لما أرسل الأثينيون ٢٠ سفينة لمساعدة أقاربهم الأيونيين فى ثورتهم ، وأثار ذلك دارا ، ودفعه لإرسال حملة تأديبية ، كانت الدويلات اليونانية ما زالت تبدو لنفسها وللعالم من حولها ، صغيرة كل الصغر ، قليلة الأهمية إذا ماقورنت بإمبراطوريات الشرق . ولم يكن كهنة دلفى المداهنون ، هم الذين أجلوا ويجلون وحدهم العواهل العظام ، أمثال كريسوس وقمبيز ، بل شاركهم ذلك ، المواطن اليونانى العادى . ولم تكن اليونان لتأمل مطلقا ، أن تكون فى يوم من الأيام على درجة من القوة أو الغنى أو الفن ، أو من التهذيب

---

(١) توكيديدس ١٠ — ١٨ .

والحضارة ما بلغة ، وما كان عليه هؤلاء السادة أصحاب الملايين من النقود والأتباع . ويمكن أن نرى كل ذلك منعكسا فى صفحات هيرودوت ، فهو وإن كان يكتب إلى أناس ثبت لهم تماما ، أن أمجاد إكزرسيس، وحكمة مصر ، كانتا « برقا خلبا ، وسحابا كهاما » ، لـكنهم على الرغم من ذلك ، أحبوا أن يستزيدوا النبأ عنهما للسبب عينه . ولـكن الأمر كان يقتضى جرأة حقيقية من أمثال سولون ، الذى لم يكن إلا قرويا نزل المدينة ، حتى لا يؤخذ بالـكنوز التى يستطيع كريسوس أن يريها له . لقد بهرت هذه الثروة وتلك الـكنوز أهل القرن السادس، إلا أنهم لم يدركوا ما تنطوى عليه ، إنما عرفه أحفادهم ، عرفوا أن المال كما أحب بركليس أن يعبر عنه ، « لا يملك الرجال ، ولـكن الرجال هم الذين يملـكون المال »[1] .

---

(١) توكيديدس ١ — ١٤٣ — ٥ . لا شك أنها جملة من جمل بركليس نفسه ، أعادها نيكياس فى خطابه الأخير أمام سيراكوز فى سخرية محزنة (٧ — ٧٧ — ٧) . وقد سمعها سوفوكليس أيضا يقولها (أنظر O.T ، ٥٦ — ٥٧) ، هيرودوت ١ — ٥٠ ، حيث يمكننا الإنصات إلى صوت كاهن دلفى الجليل ، فى سرده الأدلة على تقوى الملك العظيم . وقد كان هيرودوت على استعداد أن يعزو إلى مصر شرف كونها أصل كل شىء ، بشريا كان أم دينيا (مثل ٢ — ٥٠) : إلا أنه لم يكن هناك ما يزعزع عقيدته فى أهل وطنه ، حتى ولا بإرجاع أصل أسلافه إلى القردة . والنقطة الجوهرية هى ماذا عسى أن يصنع الشعب المختار ، بما كان يملـكه ، سواء كان قد حصل عليه من الداخل أو أتى به من الخارج ، من Prometheus أو Cadmus ؟ أنظر التوسع فى هذه النقطة فى ماير Anthropology and the Classics على سبيل المثال ص ١٥١ . « كانت معالجة هيرودوت للحضارة الهيلينية ، تناقض طريقة معالجته للحضارات المصرية والأجنبية ... ففى اليونان وحدها نرى سيطرة الرجل على الطبيعة وليس مرجع ذلك لـكون الطبيعة أضعف هنا ، ولـكن لأن الرجل اليونانى كان من القوة بحيث يستطيع أن يسيطر عليها » . وقد اعتقد هيرودوت فى إمكان « نقل الحضارة » ، ومن هنا نادى « بفكرة اطراد الحضارة » . ولا يعتبر داروين رائدا فى هذا المجال : فهو إنما علم فقط أساتذتنا دقة الملاحظة . « لم يكن عند اليونان لفظ يعبر عن التقدم » . لا ، فالـكلمات التى استعملوها (على سبيل المثال μετέμαθον μετέβαλον) لم تكن مضللة إلى هذا الحد . أنظر هيرودوت ١ — ٥٧ — ٢ — ١٧٠ . ولم يكن عند اليونان فى القرن الخامس شىء مما كان يخشاه اليهود بعد النفى ، من الاندماج بالعناصر الأجنبية . ولا زال هذا النزاع قائما فى اليهودية ، أنظر كتاب المقالات الممتازة الذى وضعه أشاد حايم (وهو « واحد من العامة » ، اتخذ كاسم تنكرى للدكتور آشر جينزبيرج) ، وخاصة المقالة التى عنوانها ، « التقليد والاندماج » ، (وقد ترجمها عن الأصل العبرى ليون =

هذا التغيير يرجع إلى الحروب الفارسية ، ولا سيما إلى الانتصار على الأرمادا، فى سلاميس . فاليونانيون لم يهزموا الفرس مصادفة ، كما لم يرجع انتصارهم عليهم للحظ أو المعجزة . وقد أبرز ذلك توكيديدس، ورجال القرن الخامس . لم يكن ذلك مصادفة، لأنه حدث مرات عديدة فى خمس أو ست مواقع كبيرة ، فى البر والبحر ، فى اليونان وآسيا وصقلية . ولم يكن معجزة لأن الآلهة وقفت جانبا ، ولم تساهم فى شيء . لقد اجتهد أبولون كثيرا فى أن يبرىء نفسه وزملاءه الأولمبيين من موقف الحياد المخجل الذى اتخذوه ، وذلك بتحوير أقواله ووحيه بعد وقوع الحادثة ، ولكنه فشل . لقد أتى ذلك على ما كان له من تأثير قومى ، بل قضى على سيطرة المعتقدات الخارقة على شئون اليونان القومية . إن الرجال لا الآلهة ، هم الذين كسبوا مراثون وسلاميس ، بل والرجال أيضاً ، لا الآلهة ، هم الذين أقاموا الإمبراطورية الأثينية ودعموها . ذلك هو ما قاله بركليس ، بكل ما استطاعه من قوة ، مراعيا أنه يتحدث فى « كنيسة » ، إذا جاز هذا التعبير . حقيقة لقد قرن بالفلاسفة الأجانب ، واتهم بالهرطقة ، ولكنه ما كان ليختار للحديث فى أكثر الاحتفالات خطرا ، وأجلها شأنا ، فى السنة الأثينية ، لو كان الناس يحفلون بكونه هرطيقا ، لقد كانت تقوى سوفوكليس، على الأقل، فوق الشبهات ، ولكن بنفس هذه الروح المتحدية ، ترنم منشديه فى « أنتيجون » . حقا لقد كان فى اليونان جماعات منعزلة ، رجال لم يدركوا بعد أن سلطة الآلهة القدامى ، قد تقوضت ودالت دولتها ، ولكن درس سلاميس كان درسا حاسما ، بالنسبة للجماعات المتقدمة

= سيمون ، فيلادلفيا ١٩١٢ ص ١٠٧ وما بعدها) . وينادى الكاتب بقوة ، بنفس المذهب الذى نادى به هيرودوت ، أنظر طابع المنظر الفارسى فى أخارنيا (Acharnians) (ص ٦٤ وما بعدها) رغم أن الأثينيين جميعهم ، قد عرفوا مقدار زيف العظمة الفارسية . وعلى العكس تغيرت أيضا فكرة الفارسيين والمصريين عن اليونان فقد اعتادوا أن يروا فيهم مخاطرين غلاظا ، يفضلون قليلا البزيديين Pisidians ، وغيرهم من القبائل الجبلية . أما الآن فقد أصبحوا فى نظرهم أناسا لهم احترامهم ، بل وأصبحوا موضع تقديرهم .

المسيطرة ، فانتصار اليونان لم يكن رحمة نزلت من السماء ، بل هو تطور منطق طبيعي[1] .

من المستحيل أن نصف ما انطوى عليه تغيير كهذا ، فما من تعبير أو تشبيه ، يمكنه أن يصور تصويراً صحيحاً الفرق بين الدويلات القومية الصغيرة المتاخمة للإمبراطورية الفارسية ، وهو ما بدا عليه اليونانيون لداريوس ولأنفسهم، آخر القرن السادس ، وبين رواد الحضارة ، لا حضارة أوروبا أو الغرب ، بل حضارة البشرية جمعاء . إنه الفارق ، بل أكثر من ذلك بكثير ، بين ما كانت عليه اليابان الحديثة في نظر رجل روسي غير متعلم ، قبل الحرب الروسية اليابانية وبين ما تعنيه اليونان لنا . فاليونان في القرن السادس، لم تكن دولة ذات شخصية ثابتة وتقاليد خاصة ، شأن إحدى

---

(١) توكيديدس ٢ — ٤٣ — ١ ، ἄνδρες αὐτὰ ἐκτήσαντο أنظر ١ — ٧٦ — ٣ — وكذلك ١ — ٧٣ — ١ οὐκ ἀπεικότως ἔχομεν ἃ κεκτήμεθα في أسخيلوس ، الفرس ، ٢٣٥ وما بعدها . ثم انظر وجهة النظر نفسها ، تعالج بطريقة مخالفة تماما ٥ — ١٠٥ . إن الأشخاص المثقفين في القرن الخامس ، لم يأخذوا ، «الوحي» مأخذا جديا ، كما يتضح لنا ذلك من هيرودوت ، رغم أن اليونان كانوا أكثر استعدادا منا ، إلى التعرض لنوبات جائرة من الاعتقاد بالخرافات . ولكنهم مضوا يستشيرونه ، لأنهم كما هو الحال معنا ، فيما يختص بالنبوءات الحديثة ، كانوا يرون أنه من الخير أن يجعلوه في صفهم . ولذا حاولوا بقدر الإمكان ، تسهيل الأمر على أبولون ، فبدلا من أن يسألوه « هل سأذهب إلى الحرب ؟ » كانوا يوجهون هذا السؤال بصفة أخرى ، فيقولون ألا تظن أنه من الواجب على أن أذهب إلى الحرب ؟ » والجواب بدون شك يكون على قدر المطاء . أنظر توكيديدس ٢ — ٢٥ — ١ ، ٣ — ٩٢ — ٥ (وثم جواب وإن لم يحفل توكيديدس إطلاقا بالإشارة إليه وتوضيحه ، إلا أنه ثبت أنه خاطىء كل الخطأ) . وطبعا إلى أن تنقشع فكرة تدخل العناية الإلهية ، كان من المستحيل أن يفكر الإنسان في السياسة تفكيرا هادئا ، فضلا عن استحالة قيامه بتدوين التاريخ . ومن أجل ذلك نجد توكيديدس يصر إصرارا مستمرا ، على معرفة علم النفس ، وضرورة فهم رجال السياسة طبيعة البشر ، أنظر ١ — ١٤٠ — ١ وكذلك ٢ — ٥٩ — ٣ — وخاصة ٣ — ٤٥ ، حيث نرى كما يبين كورنفورد في Thucydides Mythistoricus أن الثولوجي تطورت إلى علم النفس . فالعلم ، مثل الشيطان ، يمكنه أن يقتبس من الوحي ما يحقق أغراضه . ويوضح فيلاموفيتز .A. A ، المجلد الثاني ص ٦٤ هامش ، أن زيوس لم يعبد كإله الحرية (Ἐλευθέριος) في أثينا ، إلا بعد عام ٤٨٠ . ولكن هذا اللقب الجديد لم يكن ليزيد كما يبدو ، في انتشار عبادته .

الدول الصغيرة فى وقتنا الحاضر ، الدانمرك أو سويسرا مثلا ، بل كانت لا تزال فى دور التكوين ، تلتهم بقوة العناصر الأجنبية ، وكانت معرضة ، وهو ما يمكن أن نرى مثلا له فى أيونيا ، لأن تبتلعها كلها ، كيانا وروحا ، أية دولة أقوى منها تعترض طريقها . فهى لم تكن قد شعرت بكيانها بعد ، أو كما يعبر الفلاسفة ، هى لم تدرك بعد شعورها الذاتى ، وكما يقول الوعاظ ، لم تولد بعد « ميلادها الثانى » . لقد أيقظتها الحروب الفارسية ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت اليونان التى نعرفها . وبما أن القوة التى أيقظتها ودفعتها إلى حياة جديدة ، لم تكن قوة عقلية أو أدبية أو فنية ، بل كانت قوة سياسية، فقد كانت مثلها العليا فى تسيير حياتها الجديدة ، سياسية أيضاً . وما عدا ذلك فليس بذى أهمية . قد تكون فى مصر أهرامات ، وفى بابل حدائق معلقة ، وقد يخرج الميديون للنزهة حاملين المظلات ، وقد يرتدى المصريون الكتان الأبيض كل يوم ، فكل هذه ليست إلا مظاهر الحياة الخارجية وزخرفها . المهم أن غدت اليونان حرة قوية تستطيع السيطرة على العالم ، كأنها عملاق هائل ، وأن شق أهلها طريقهم إلى كل بحر وكل أرض دون أن يتركوا أهرامات ، أو معابد ، أو دواوين شعر ، وكتب قصص ، بل خلقوا ذكريات أعمالهم كرجال من جنس حاكم مسيطر .

وأثينا هى التى نلمس فيها هذا التغيير بشكل واضح . فهى التى جاهدت أكثر من سواها ، فى سبيل الوصول إليه . فبينما تخلفت اسبرطة فى شبه جزيرتها الحصينة ، عانت أثينا وطيس هجوم البرابرة . وفى مراثون اكتشفت فى دهشة بالغة أن الرمح والمجن ، يمكن أن تقهر القوس ، حتى لو تفوق العدو عدداً . وبعد عشر سنوات حين كان التفاوت عظيما ، والظروف غير مواتية ، جسرت على مواجهة محنتى البر والبحر . فترك مواطنوها منازلهم وأمكنتهم المقدسة ، ووقفوا على صخور سلاميس ينظرون إلى النار تلتهم حرم بيزستراتوس على الأكروبول ، وتأتى على السقالة المقامة حول معبد أثينا الجديد. وعندما عادوا منتصرين إلى مدينتهم المخربة ،

إنما كان ذلك إلى حياة جديدة ، ومثل عليا جديدة . لقد رأوا كتل أحجار مشروعات العام الماضى ، والتى لم يفرغ العمل بها بعد ، مبعثرة على الأكروبول ، فلم يشرعوا فى العمل فيها ، بل أدخلوها فى بناء السور ، ودفنوا معها ضعفهم ومخاوفهم القديمة ، حتى يستطيعوا أن يسخروا منها كل يوم، عند مرورهم بها . لقد كانت تلك الأحجار معالم فى طريق حياتهم القديمة ، وما من شىء « يشرح القلب ، ويسر العين » ، كأن يتطلع المرء ، ويسترجع شيئا من ماض شاق . فلما أن انتهوا من تحصيناتهم فى الأكروبول وفى سور المدينة ، وفى بيريه ، واطمأنوا على المدينة والثغر ، أطلقوا أيديهم فى تجميل قلعتهم المهدمة ، بروح من حياتهم الجديدة . لقد أصبح لهم إذ ذاك إمبراطورية جديرة بعاصمة جميلة ، وفى إمكانهم أن يوحوا إلى فنانيهم ، ليخلقوا لهم هذه العاصمة المنشودة[1] .

لم يكن ممكنا أن تظل قوى عام ٤٨٠ ق . م المتحالفة وحدة واحدة . ففى حرارة النزاع ، عندما تحطمت حدود الوطنية العتيقة القاصرة على حدود المدينة ، ورأى اليونانيون فى دهشة ، أنفسهم يحاربون لاضد جيرانهم بل إلى جانبهم ، فى تلك اللحظة تطلعوا إلى أن يجعلوا من اليونان دولة واحدة ، ومن حول نيران معسكراتهم تجاذبوا الحديث : « إنها بالتأكيد تملك كل المقومات التى تجعل منها أمة واحدة . فماذا بينك وبينى ؟ دم واحد يجرى فى عروقنا ، دم زيوس وأبينا هلين (Hellen) . ونتكلم لغة واحدة ، وإلا لما أمكننا أن نتسامر ، ولو بصعوبة ، حول هذه النار ، ونعبد الآلهة نفسها ، وهو ما نتذاكره عندما نذهب إلى دلف وأوليمبيا ، ونشترك فى أكثر العادات ،

---

(١) توكيديدس ١ — ٦٩ — ٥ و ٧٣ و ٧٤ (يقابل بين سلوك الأثينيين والاسبرطيين فى الحرب الفارسية ، وما ترتب على ذلك من اختلاف من الوجهة النفسية بالنسبة للفريقين) . إن مراثون (مهما بلغ التفاوت فى العدد) لم تكن « ذروة الرحمة » أكثر مما كانت بلاسى (Plassy) . وإن كتل أحجار المعبد الذى لم يتم قبل الحرب الفارسية ، لا تزال فى سور الأكروبول واضحة للمارة .

ونفهم طرق بعضنا البعض . فلنكون دولة واحدة إذا ما انتهينا من هؤلاء البرابرة » [١] .

ولكن سرعان ما تقوضت تلك الأحلام ؛ لأن ما فرقته القرون لا يمكن أن يجمع شمله صيفى قتال . لقد كان هناك خلاف ، حتى إبان المعارك ،رغم أن الرجال حاولوا الاستخفاف به فى ذلك الوقت . ولكن عندما انتهت الحرب ، وحان وقت إعادة التنظيم ، تجلت كل الخلافات القديمة ، واختفت الوحدة اليونانية البانهيلينية فى طى النسيان .

ولكن أمور اليونان ما كانت لتعود ثانية ، إلى ما كانت عليه قبل المحنة . فقد تعلم اليونانيون وأيقنوا ، أن حب الوطن وإن كان يستثير الشجاعة فى قلوب الرجال ، إلا أن التنظيم وحده هو الذى يجعل منهم أقوياء ولكن لما كانت بلدان آسيا الصغرى المحررة ، لا تزال فعليا جزءا من الإمبراطورية الفارسية ، ويحتمل أن يطالبها أحد الستاربة فى يوم ما ، بدفع الجزية ، فكان لا بد من توفر طريقة إجماعية للدفاع . ولم يكن لدى اسبرطة الرجال ولا المال ،لمواجهة هذه الضرورة ، ولذا انسحبت من مركز تعد فيه قواها البرية المشهورة قليلة الجدوى لها ، تاركة الميدان لهؤلاء البحارة الأثينيين الجدد . وبعد مرور خمسة أعوام ، وقبل أن تدرك العقلية الاسبرطية الجامدة ، ماذا يجرى هناك ، كان قد نظم بصفة مؤقتة « حلف الأثينيين » ، وأصبحت أول محاولة تقدمية عظيمة ، لتكوين دولة من مدن كثيرة حقيقة واقعة [٢] .

---

(١) هيرودوت ٨ — ١٤٤ ، ثم بلو تارخوس ، أرستيدس ٢١ (تفاصيل حلف دائم مقترح : أنكرت صحتها ولكن لماذا؟) .

(٢) إن فارس التى لم تنس شيئا تعلمته ، طلبت بكل هدوء جزيتها القديمة من المدن اليونانية عام ٤١٢ (توكيديدس ٨ — ٥ — ٥) ، وذلك بعد ٦٨ سنة من موقعة سلاميس . إن الفكر الاسبرطى كان يتغير ببطء شديد كما عرف ذلك ألكيبيادس . ويجب أن يرهبوا إرهابا شديدا حتى يقبلوا فكرة جديدة ، (أنظر مذهب استثارة الحس المرتجلة فى توكيديدس ٦ — ٩٠) .

كانت الإمبراطورية الأثينية كغيرها من الأمور العظيمة وليدة الحاجة، ولم يكن منشوؤها يعلمون تماما ماذا كانوا يفعلون. وكانت نواتها، تحالف أبرم بين الأثينيين والأيونيين، وفق الشروط التقليدية المعهودة. «فى السنة الثالثة بعد موقعة سلاميس البحرية، وعندما كان «ثيميستوكليس حاكما أعلى أقسم أرستيدس» (قائد القوات الأثينية) «للأيونيين أن يكون أصدقاؤهم لهم أصدقاء، وأعداؤهم لهم أعداء. وليتقيدوا بقولهم، ألقوا بكتل من الرصاص إلى البحر». كم يبدو ذلك ساذجا! ولكن دعنا نرى ماينطوى عليه ذلك، ولنفكر فى منطق هذا الموقف [1].

فماذا كان غرض هذا الحلف؟ لم يكن مجرد الاستعداد لطرد الفرس، إذا عاودوا الهجوم، فذلك كان أتفه من أن يكون هدفا للرجال الذين أطاحوا منذ هنيهة بالفرس، وجعلوهم يولون الإدبار فى سلاميس وميكالى. إن شعار الحلف لم يكن الدفاع بل الحرية. لقد أرادوا أن يدفعوا بالحرب إلى أرض العدو، ليثأروا ويعوضوا ما لحقهم من ضرر بالنهب والتخريب (وإذا استعرنا أحد التعابير المعتادة لكتاب المقالات الأثينية اليوم) ليكملوا تحرير إخوانهم المستعبدين. لقد كانوا على استعداد، بل مشوقين لأن يقادوا إلى الهجوم [2].

ولكن الحرب تتطلب نفقات كثيرة، فالجنود لا تستطيع أن تعيش على النهب وحده ولا سيما إن كان عملهم «التحرير». ثم إذا كان نصف الحلفاء جزريين، وكان البحر مجال الأعمال الحربية، فالحاجة إلى السفن تغدو ماسة، فكيف تواجه هاتان الضرورتان الماستان؟

---

(١) Ath. Pol. ٢٣، ٥ — ، كاڤينياك ص ٣٧.

(٢) توكيديدس ١ — ٩٦ ὧν πρόσχημα γὰρ ἦν ἀμυνασθαι ἔπαθον δῃοῦντας τὴν βασιλέως χώραν. كانت قبرص بالنسبة لذلك الجيل من اليونانيين، كما هى عليه كريت بالنسبة لهذا الجيل.

قليل من أعضاء الحلف الجديد كان لديهم سفن يقدمونها . وكثيرهم فقدوا أساطيلهم مرتين فى العشرين سنة الأخيرة . فقدوها مرة فى الثورة « الأيونية المشئومة » ، ثم ثانية بعد أن اضطروا إلى قتال أقاربهم فى سلاميس وميكالى . ولم يكن من السهل عليهم بناء سفن جديدة ، فهم ليسوا كالفينيقيين من ورائهم غابات لبنان . أضف إلى ذلك أن سفنا كالتى كانت لديهم ، لم تكن كبيرة الفائدة ، إذ أدخل الأثينيون تحسينات على تسليح وبناء السفن ذات الثلاث طبقات ، ولم يكونوا هم قد جاروهم فى ذلك . وعلى هذا فإن الحلفاء ، باستثناء الجزر الكبيرة : ساموس ولسبوس وخيوس ، التى كان لها تقاليدها البحرية ، نزلوا عن فكرة مد الحلف بالسفن إلى تقديم شىء آخر بدلا من نصيبهم منها فى هذا المشروع[1] .

كما لم يكونوا راغبين فى تقديم خدماتهم الشخصية على مراكب الحلفاء الآخرين ، ولا حتى أن يعملوا إلى جانبهم فى الميدان ، إذا أردنا الحقيقة . فهم لم يهزموا الفرس قط فى حرب سواء ، كما هزمهم اليونانيون عبر البحار فارتميزيوم وميكالى ، تثيران عندهم ذكريات مخالفة تماما . وفى معركة لادى ، التى كان ممكنا أن تكون سلاميس لهم ، لم يظهر بينهم ثيميستوكليس ليقضى على أحقادهم ، وحاجتهم إلى النظام . وبالمثل لم يكن الأثينيون راغبين كثيرا فى الضغط عليهم لينزلوا إلى الميدان . لقد فضلوا أعوانا أكثر دربة وتعودا على مصاعب الخدمة البحرية ونظمها[2] .

وقد كانت هناك طريقة طبيعية واحدة لتسوية هذه الخلافات . فعلى الحلفاء الصغار دفع التكاليف ، بينما تقوم أثينا والجزر الكبيرة بالعمل . هذه هى الخطة التى اتبعت ، حسب اقتراح أرستيدس ، لتسوية حاجات

(١) التفاصيل فى كافيناك ص ٣٨ — ٤١ ، أنظر توكيديدس ١ — ١٤ — ٣ . كان النوع الجديد من المراكب ذات الثلاث طبقات يحتوى على ١٧٠ مجدافا . أما النوع القديم فربما يحتوى على مجاديف أقل (وهو نفسه يعتبر تحسينا كبيرا بالنسبة للنوع الذى يحتوى على ٥٠ مجدافا) .

(٢) هيرودوت ٦ — ١٢ .

المعركة الأولى العاجلة . وبما أن جزيرة ديلوس كانت قد اختيرت لاجتماع قوات الحلفاء ، فإن معبد أبولون كان مصرفا مناسبا ، ودفعت فيه أولى الحصص . أرضت هذه الخطة الطرفين ، وصمموا على تنظيمها فعهد إلى أرستيدس « العادل » ، تحديد الأنصبة الواجب دفعها . « وقد كان ذلك عملا طويلا يستدعي سياحات طويلة » ، كما يتطلب حزما كبيرا ، أكثر مما يتطلبه من عدالة (إلا إذا غير اليونانيون طبيعتهم تغييرا كليا) . كما يستدعي أيضا استعلامات عديدة صعبة ، في حالة عدم توفر سوابق ، لأن المدن التي كانت جزءا من الإمبراطورية الفارسية لمدة طويلة ، هي وحدها التي كان لها إحصاء للثروة ، يمكن لأرستيدس الاعتماد عليه » . ولكن لم يأت عام ٤٧٠ حتى كان العمل قد انتهى . وحدد المبلغ اللازم لأعمال الحلف الحربية سنويا بـ ٤٦٠ تالنت · وقسمه أرستيدس على أساس نسبي بين أعضاء الحلف الذين يبلغ عددهم مائتين ، أو ما يقرب من ذلك · وقد تمسكوا بهذا التقسيم على أنه وثيقة العضوية ، حتى انقلب كليون رجلا من رجال المال عام ٤٢٥[1] .

وهكذا انساق الحلفاء إلى مركزية مالية دون أن يفطنوا إلى ذلك ،

---

(١) Ath. Pol. ، ٢٣ — τοὺς πρώτους φόρους يجب ألا تخلط الجزيات المؤقتة لعام ٤٧٨ بـ ὁ πρῶτος φόρος ταχθείς لتوكيديدس ١ — ٩٦ — ٢ ، كافينياك من ٤٢ — ٤٣ ، هيرودوت ٦ — ٤٢ (التعداد الأيوني) ، ثم توكيديدس ٥ — ١٨ — ٥ . وقد قام المجلس الأثيني فيما بعد بتقديرات قيم العقارات لتعديل ضرائبها ، حتى تلائم الظروف التي تتغير ، كل عيد باناثيني (Panathenaic festival) (أي كل أربع سنوات) ، وأقرت ذلك هيئة المحلفين ، (الأوليجارشي العجوز ٣ — ٥) . أما في الحالات المختلف عليها ، وخاصة عندما تكون مبالغ كبيرة معرضة للضياع ، فكانت تعقد محكمة كبيرة قوامها ١٥٠١ قاضيا ، أنظر وهلم Urkunden des attischen Reiches الذي بعد أن أكمل جزءا مهشما ، أبان أن النص ، ٢٦٦ في I. G. المذكور في الفصل الأول ، الفقرة ٧٦ في كتاب هيل Sources for Greek History ، الذي يتضمن قائمة الأنصبة لعامي ٤٢٧ — ٤٢٦ يقرأ على النحو التالي : πόλες ἅς ἑ βολὲ καὶ οἱ πεντακόσιοι καὶ χίλιοι ἔταχσαν. (أنظر التذييل) .

وأسسوا أول ديوان مالى للإمبراطورية اليونانية . وكان لهذه المركزية طابعا مميزا خداعا ، إذ لم يعاون الشركاء البارزين المسيطرين عليها بدفع مليم واحد من المصروفات ، وخاصة أثينا ، التى قامت بمعظم الأعمال وتحملت المسئولية الكبرى .

من الذى كان يشرف على صرف هذه الأموال؟ هم، من الوجهة الرسمية، وبطبيعة الحال ، الحلفاء أنفسهم . ولهذا الغرض انتخبوا ممثلين لبرلمان يعقد فى ديلوس ، كان له ، كالإكليزيا أو أى مجلس آخر ، حق مناقشة الشئون السياسية كافة ، واتخاذ قرارات فيها . وعمليا لم يكن لمداولاته أية أهمية تذكر ، لأن ضباطه المنفذين ، وهم القواد الأثينيين ، كانوا مسئولين أمام شعبهم صاحب السيادة . فإذا اختلفت السلطتان فى قرار ما ، توقفت الأعمال تماما، ولم يكن على البرلمان الإمبراطورى، إلا التصديق على قرارات الأثينيين وإذا أراد أن يكون متحمسا ، استعجل القرارات . وزيادة على ذلك ، فقد كانت الأموال نفسها بين يدى موظفين أثينيين . فواضح أن الحلفاء كلهم لا يمكن أن يديروها سويا . وإذا اكتفى بخازن واحد لإدارتها ، فإنه يكون عرضة للشبهات ، بينما كان وضع الأمر فى يد لجنة من عشرة خازنين مبالغة فى الحذر . وقد كان أعضاء اللجنة يحملون لقبا امبراطوريا هو « خزنة اليونانيين » ، وإن كانوا أثينيي الجنسية ، ينتخبهم الشعب الأثينى[1] .

وثم ناحية أخرى أضاف فيها التركيز آثارا أدوم ، وإن كانت أبطأ تقدما ، وتلك هى ناحية التعامل القانونى والتجارى .

وإذا أردنا الناحية الفنية ، فما من صلة لحلف ذى أغراض عسكرية ، بالتجارة أو بإقامة العدل . فالعلاقات التجارية والقانونية ، لا يمكن أن تقوم إلا عن طريق اتفاقات منفصلة بين دولتين ، من أجل هذه الأغراض ،

---

(١) συνέδριον ، ديودور ١١ — ٧٠ — ٤ ، وبلوتارخوس ، أرسطو ٢٥ ، (اقترح أهل ساموس نقل الأموال إلى أثينا فى ٤٥٤ — ٤٥٣) . وكان « سوفوكليس الكولونى » أمين الخزانة عام ٤٤٣ .

فتقاليد المدينة الدولة ، تقضى بأن تعيش كل جماعة منعزلة تماما عن جاراتها . وحتى فى أيونيا ، فقد كان إلى ما قبل مارثون بعام أو عامين ، أن دعا حاكم فارسى ممثلين من المدن ، وأغرى الأيونيين بعقد معاهدات بين بعضهم بعضا ، وبإقامة العدل فيما بينهم ، بدلا من أن يفصلوا فى كل شىء على أساس الأخذ بالثأر . فالعين بالعين ، والثور بالثور ، وإغراق مركب بمثله ، كانت التقاليد الأخلاقية التى أسلمها الأجيال ، لتحتذى فى أمور دولية[1] .

ولكن أثينا ، أنشأت إلى جانب المحالفة العسكرية الجديدة شبكة من المعاهدات التجارية ، بينها وبين كل عضو من أعضاء الحلف . وقد كان ذلك لها ميسورا ، لا لمجرد مالها من الصيت المكتسب حديثاً ، ولكن لما عرفت به قوانين سولون ونظمه ، التى أظلتها ، من دقة وكمال . وقد كانت هذه القوانين والنظم نقطة ابتداء طبيعية لتحقيق الوحدة . ولما كان هناك عشرات أو مئات من القوانين والعادات ، والإجراءات المختلفة ، متبعة بين حلفائها ، فخطوة كهذه لا يمكن إلا أن تعد أمرا موفقا .

وهكذا كان الوقت مواتيا للعمل المشترك فى عدة مرافق للحياة ، وذلك كما كان الوضع فى ألمانيا حوالى ١٨٦٠ .

وكانت هذه المعاهدات التجارية تختلف كثيراً فى تفاصيلها ، حسب موارد الطرف الآخر أو ميوله ، وحسب التاريخ الذى عقدت فيه . ولكن كانت هناك خواص معينة مشتركة فيها جميعا . وبالتأليف بين الدلائل المتفرقة التى لدينا ، يمكن أن نتتبع كيف كانت الشريكة المسيطرة « أثينا » ، تعتدى على سيادة زملائها تدريجيا ، حتى « حكمت المدن كلها ، بقوانين واحدة » ، كما قال إيزوقراتس[2] .

---

(١) هيرودوت ٦ — ٤٢ (ἄγειν καὶ φέρειν الهومرية) .

(٢) إيزوقراتس .Pan ، ١٠٤ ، هناك معاهدة تعامل ، أو معاهدة لتسليم المجرمين كانت تسمى ξυμβολή وعرضت قضية لها صلة بأحدها δίκη ἀπὸ ξυμβόλων من كلمة ξύμβολα أى « رموزا » أوبطاقات . وقد كانت تنزع فيما قبل ، وتتبادل بين =

ولنبدأ بناحية القضاء المدنى . كان شعار التحالف الحرية . ولم تكن مهمة أثينا تطهير شواطىء البحر من الفرس فقط ، بل تطهير البحر نفسه من القرصان ، وعمال السوء . فذلك هو الواجب الذى كان يقع ، منذ زمن سحيق ، على القوة الرئيسية فى أيجينيا ما لم تكن هذه القوة أو الدولة نفسها كبوليكرانس ، تمارس القرصنة . وهكذا لم نعمل أثينا على التحرر من البرابرة فقط ، بل عملت أيضاً من أجل حرية التعامل ، وحرية التجارة . وكان من صالح المتحالفين أن يشجعوها على ذلك . وحراسة بحر إيجه وتطهيره بسفنها ذات الثلاث طبقات ، لم تكن غير الخطوة الأولى . وإنه لتسلسل طبيعى أن تزيد أثينا فى راحة التجار ، بأن تبسط لهم إجراءات التخاصم والتنازع فى الأعمال التجارية . ومن هنا تمكنت أثينا من إدخال شرط فى معاهداتها يقضى ، بأن كل نزاع يتعلق بعقود تجارية أبرمت فى أثينا ، يجب أن ينظر فيه حسب قانون أثينا ، أمام قضاة أثينيين . وبذلك بوعد بين المدعى ، وبين محكمته الوطنية . وقد وافقت خيوس على ذلك عام ٤٦٦ ق . م ، وكانت من أكثر الحلفاء استقلالا . كذلك أذعنت الدويلات الصغرى لاعتداء أثينا على كثير من سيادتها القضائية. وفى حالات الثورة والاضطراب ، حيث تسنح الفرص لتطهير تام ، فإنهم يصبحون وإذا كل شىء قد انتهى . وقد وضعت خطة عامة ، اشترط فيها رفع كل نزاع على أكثر من مبلغ معين إلى العاصمة[1] .

—— = تمثل الدولتين ، كما كان الحال ، فى مرحلة سابقة من مراحل التعامل الدولى بين « الأصدقاء الضيوف » من الأفراد : أنظر يوريبيدس .Med ، ٦١٣ ، ثم دارمبرج مقال أفسوس (Ephesis) وملاحظتى ٦٤ و ٦٥ . وقد كان لأثينا بالطبع مثل هذه المعاهدات فى القرن الخامس مع دول ليست فى حلفها ، أنظر Antiphon ، ٥ — ٧٨ ، وهى على وجه العموم ، تنص على أن المعتدى ، يجب أن يحاكم أمام أهل وطنه (مثل ما كان عليه الأجانب فى تركيا حتى أواخر الإمبراطورية العثمانية) . (أنظر التذييل) .

(١) أنظر ما يلى الجزء ٣ الفقرة ٢٧٨ ، والحاشية الدقيقة . أما فيما يتعلق بالحد المالى فانظر كذلك .I. G ، ١ — ٢٩ السطر الأخير . أنظر Hicks and Hills رقم ٣٦ (معاهدة مع فاسيليس « على أسس الشروط نفسها التى عقدت بها المعاهدة مع =

أما فى دائرة الأمور الجنائية ، فقد كان سير عملية التوحيد أبطأ من ذلك ، لأن الاستمساك بالسيادة كان هنا أرسخ وأكثر تأصلا ، حتى أصغر الجزر ، كانت تصر على أن تحاكم القاتلين من رجالها . ذلك بينما كانت أثينا تزداد تلهفا على التدخل ، لأنها احتاجت إلى السيطرة لتحمى أنصارها ، وتقضى على الخارجين عليها . ولا يمكن أن نتتبع التطور بالتفصيل . ويبدو أن بدئ بالتدخل فى الحالات التى تتضمن فقدان الحقوق المدنية . وفى هذه الحالة دعيت أثينا إلى التدخل ، كما دعيت فيما بعد روما ، وكثير من ذوى السلطان والمطامع ، ليكونوا حماة الأقلية عندما يحتدم النزاع الحزبى ويشتد . ومن هنا تدخلت أثينا فى إريثراى (Erythrae) فى المدة بين ٤٥٥ — ٤٥٠ ، لحماية « الديموقراطيين » ضد الحزب الموالى للفرس . واستغلت هذه الفرصة ، وأعطت المدينة دستوراً جديداً نفذته ودافعت عنه حامية من قبلها ، عسكرت فى القلعة . وقد كان على الحكومة الجديدة أن تقسم ألا تنقض حكما بالنفى ، صدر ضد « هؤلاء الذين هربوا إلى الفرس » ، دون الحصول على رضاء الشعب ، لا الشعب الإريثرى وحده ، بل والأثينى أيضاً . وحرم عليهم بمواد مشابهة « طرد أحد من الذين لم يغادروا المدينة » . وبعبارة أخرى حافظت أثينا على الحالة الراهنة ، لا بحاميتها فحسب ، بل حافظت عليها كذلك بقضائها المدنى . وقد أكدت قبضتها المزدوجة ، بذكر « المشرفين » إلى جنب قائد الحامية . وهؤلاء المشرفون موظفون مدنيون إمبراطوريون ؛ عينتهم الحكومة الرئيسية للإشراف والتبليغ عن الحالة فى المدن ، إلا أن مرتباتهم كان يدفعها الحلفاء . وهذا يكشف لنا ، كم كان سهلا على أثينا بتفوقها الحربى ، التسلل من مركز إلى آخر . وحوالى ٤٦٠ نجد أثينا تتفضل وتسمح لشعب خالسيس أن يوقع العقوبات حسب قوانين خالسيس الخاصة بها ، كما يفعل الأثينيون

= خيوس » . وكانت عقود العمل تسمى ξυμβόλαια كما كانت تسمى القضايا ، التى تنشأ عنها ξυμβολαῖαι δίκαι (توكيديدس ١ — ٧٧) للتمييز بينها وبين δίκαι ἀπὸ ξυμβόλων.

فى أثينا ، إلا فى الأحوال التى تستدعى النفى ، أو الإعدام ، أو فقدان الحقوق المدنية ». ونقرأ إبان حملة صقلية ، فى خطبة ألقيت فى محكمة ، أنه «غير مسموح لأية مدينة متحالفة أن تحكم بالإعدام على أى شخص ، دون موافقة الأثينيين »[١] .

وثم نقطة أخرى جديرة بالذكر ، ذلك أن الامتيازات التى شملت المواطنين الأثينيين بحق المعاهدة ، شملت كذلك « الأجانب المقيمين » فى أثينا ، أى أولئك الأثينيي الجنسية ، الذين كادوا أن يكونوا مواطنين فى كل شيء إلا فى الاسم . وهكذا شملت أثينا بحمايتها ، الرجال من كل الأجناس ، ومختلف اللغات . وقد يلقى الإنسان فى أى ميناء من موانىء البحر المتوسط ، كما يلقى اليوم المالطى والقبرصى وغيرهما من الرعايا البريطانيين ، أناسا كل ما يفخرون به ، وأحيانا أسلم ما يعتذرون به (وهو ما يخشى منه) عن ارتكاب جرائمهم ؛ هو صلتهم بملكة البحار[٢] .

وهكذا جعلت أثينا من نفسها تدريجيا ، سواء رضى أتباعها ، أم لم يرضوا ، «مدرسة لليونان» . سارت هذه العملية بالتدريج ، وفرضت أثينا سلطانها فى حكمة وأناة ، حتى أنه لم يكن سهلا على حلفائها أن يجدوا ما يشكون منه . نعم كان هناك الكثير من التذمر ، وبخاصة لما اكتظت

---

(١) Hicks and Hill ، رقم ٣٢ (إريتريا) ، ثم ٤٠ (خالكيس ، حيث لا يرد ذكر لأى تشريع مدنى ، فقد انظم من قبل) . فيما يخص المراقبين أو الأساقفة الإمبراطوريين (ἐπίσκοποι) أنظر ڤيلاموڤتز Aus Kydathen ، ص ٧٥ ، وهو يظن أنهم لم يعينوا فى مدن خاصة ، ولكن فى أسقفيات . وذكروا كأراكنة (رؤساء ἄρχοντες) فى توكيديدس ، ١ — ١١٥ — ٥ (أنظر ملاحظة كلاسن Classen) : وهكذا كانو يعملون فى لجان لافرادى . ولو كنا نعرف قدرا أكثر من ذلك عنهم لأمكننا تقدير عدد المدنيين الإمبراطوريين على نحو أدق (أنظر ص ٢٠٣ — ٢٠٤ فيما سبق) . أنتيفون ، ٥ — ٤٧ (حالات القتل) . بداية اتفاق مثالى عن القضاء : أرسطو فانيز ، الطيور ، ١٠٣٥ . وقد حدده بنفس التاريخ ، الذى ذكره أنتيفون فى خطابه .

(٢) قرار خالكيس فى (Hicks and Hill ، رقم ٤٠ ، سطر ٥٣) . أنظر ڤيلاموڤيتز Aus Kydathen ، ص ٣٦ ، ثم هيرميس ، الجزء ٢٢ ، ص ٢٤٩ . وعلى أية حال ، ليس هناك مثل لدخول أثينا حربا لتثأر لرعاياها الأثينيين ، لأضرار لحقت بهم ، من جراء عدم دفع ديون تجارية .

المحاكم بالقضايا ، وصادف ذلك عدة احتفالات زادت من تأخير الأمر ، وتعطيل القضايا . ولكننا لم نسمع إلا القليل من التشكى الفعلى ، أو لم نسمع شيئا ، فقد أحسنت المحاكم الأثينية القيام بعملها . فتوفر قانون معقول يعمل بمقتضاه ، كان ميزة كبيرة لا يمكن أن تغفل أو يستهان بها . بل إن الأمر يستحق أن يقضى المرء أسبوعين فى العاصمة ، ليرى بأى حرص كانت تنفق الأموال الإمبراطورية فى الأكروبول . وهكذا جذبت المحاكم المتفرجين ، وأثبت البارثنون ببهوه الفسيح ، أنه أصلح إعلان للدعاية . ورأى أصحاب العربات وأصحاب الفنادق والنزل ، أن عملهم أجدى من قيامهم بالعمل فى المحاكم ، وما يتطلبه من إصغاء مضنى نظير أجر يومى . وليس بمستغرب بوجه عام ، أن كان فى إمكان الأثينيين أن يفاخروا بنزاهة أحكامهم ، أمام أية جمعية معادية ، بلا خوف من اعتراض . والحقيقة أنهم اعتادوا أحوال القضاء سريعا ، حتى أنهم ليتشحوا بشعار القاضى ، حتى حيث لا يكون ذلك لائقا . قال متكلم فى إحدى المناقشات الشائكة التى دارت بشأن السياسة متوسلا : « تذكروا أنكم لستم فى محكمة تفكرون فيما يستحقه ، من عقاب ، نفر من الناس ، بل أنتم فى برلمان لتكشفوا عن خير سبيل لأنفسكم » . وقد توسل يوريبيدس من أجل مساعدة أثينية ، مذكرا بنفس الشىء ، عندما ألقى عليه ثيسيس خطابا طويلا من منصة القضاء : لقد اضطلعت أثينا بكل واجباتها بشكل جدى على النحو الذى كانت تأخذ به كل شىء ، وبذلت أقصى ما تستطيعه لتتوخى العدل فى أحكامها مهما بلغ الأمر من تعقيد ، وذلك فى دنيا لم تبلغ الكمال بعد ، ولم يكن أساتذة الخطابة قد ظهروا بعد ليعكروا صفاء عقلية المدنيين العاديين بحيلهم العقلية التى تشبه حيل القردة[1] .

وهكذا اعترف بأثينا كدولة نموذجية ، وكانت اليونان على استعداد

---

(١) الأوليجارشى العجوز ، ١ — ١٧ ، الآخر . (حيث تعنى كلمة ξεῦγος حيوانات لجر العربات أى المعادل اليونانى لخيل العربات) ، توكيديدس ، ١ — ٧٧ ثم ٣ — ٤٤ — ٤ ، ثم يوريبيدس ، .Suppl ، ٢٥٣ ، ٣٤١ — ٣٤٢ ، ٥٧٥ .

للاتباع خطواتها ، وتقليدها فى كل صغيرة وكبيرة . ويمكن أن نرى ذلك فى سرعة انتشار الموازين والمكاييل ، والعملة الأثينية ، أو النظم التى عدلت حتى تتمشى معها . وأخذت أثينا فى توحيد العملة اليونانية ، كما كانت توحد كذلك القانون اليونانى . وبالطبع لم ترغم حلفاءها على تداول النقود الأتيكية وحدها ، أو النقود المسكوكة على أساس المعيار الأتيكى ، ولكن كان طبيعيا أن تفضل أن تدفع جميع الأنصبة بها . وكانت هناك طرق غير مباشرة تستطيع التعامل بها ، فمثلا كانت مجرد مجاملة لأبولون ، وفيما بعد الإلهة أثينا ، أن تدفع إليهما النقود التى يفضلانها . ولما كانت النقود الأثينية دائماً موضع الثقة ، من حيث تمام وزنها ، ولأن الشكل الذى تحمله ، وهو البومة المشهورة ، كان غريبا شاذا ، حتى ليعرفه الإنسان من أول وهلة ، فلم تكن هناك فى الحقيقة حاجة للإرغام ، الذى قد يكون ضد مبدأ حرية التعامل . إن القدوة لتفضل القانون . فقد أخذت الفضة الأتيكية تعم وتتداول ، لا بين أعضاء الحلف وحدهم ، بل فى كل أنحاء اليونان ، وفى المناطق البربرية البعيدة . هذا ولما خبأ جليبوس ، بعض أسلاب الدولة الأسبرطية ، بين قراميد سقف بيته ، بعد موقعه إيجوسبوتاموس (Aegospotami) لم يقل الرجل الذى بلغ عنه ، أكثر من أن « البومة فى بيت الخزاف » . والحق أنه بقدر ما كان الأسبرطيون يكرهون الأجانب ، ولا سيما الأثينيين ، بقدر ما انتثرت أعشاش للبوم كهذه ، فى أنحاء مدينتهم .[1]

---

(١) أرسطوفانيز ، الطيور ، ١٠٤٠ (الموازين والمكاييل) . وقد أوضح كاڤينياك ، ص ١٧٧ وما بعدها ، أنه لم يكن هناك إلزام بدفع الجزية بنقود أتيكية ، حتى عام ٤١٤ ، أى عندما حاولوا ذلك (بعد ضياع مناجم تراقيا) ولم يفلحوا ؛ أنظر ، .I.G ، ١٢ — ٥ — ٤٨٠ . ولم يوجد ذهب أثينى حتى عام ٤٠٦ (أرسطوفانيز ، الضفادع ، ٧٢٠) ، وعلى ذلك كانت النقود من الإلكتروم (أى من الذهب الأصفر الباهت) المضروبة فى لامبساكوس وسيزيكوس ، هى المتداولة باستمرار . أنظر ڤيلاموڤيتز ، Aus Kydathen ص ٣٠ ، فيما يتصل بالسبب الذى من أجله ظلت البومة الأتيكية فى القرن السادس ، وهى المرسومة على غلاف الطبعة الإنجليزية لهذا الكتاب ، « ظلت دون أن يمسها فن فيدياس » . وأى إنسان يعيش فى بلد يتداول فيه أنواع كثيرة من النقود (برغم أنه ما من بلد حديث ، حتى ولا ألمانيا قبل توحيد جماركها ، يمكن أن =

وهكذا ، كما أراد بركليس ، أخذ النفوذ الأثيني يمتد إلى ما وراء بحر إيجه ، وحدود الإمبراطورية . وكان تجارها ينتقلون شرقا وغربا ، فى كل بحر وفى كل أرض ، بحثا عن البضائع ، فى مناجم الحديد فى إلبا ، أو مع القوافل فى غزة وبرقة ، ويدفعون ثمنها نقوداً أو خزفا . فذلك أيضا كان جزءاً من رسالة الإمبراطورية : الاختلاط الحر مع كافة بنى الإنسان ، وتقديم خير ما عندها إلى الرجال ، وإلى الشعوب ، فنشأت صداقات وأبرمت معاهدات مع اليونانيين ، بل ومع البرابرة أيضاً ، دون أى تفكير فى الفرس ، أو الهدف الأصلى للحلف . نعم ظلت الحرب الفارسية قائمة مدى ثلاثين عاما ، على نحو متقلب ، وبنجاح متفاوت . ولما عقد الصلح عام ٤٤٨ كانت قبرص لا تزال « مستعبدة » . ولكن خلال جيل واحد كان قد تغير مدلول الحرية ، حتى لم ير بركليس نفسه ، غضاضة فى عقد إتفاق مع العدو القومى ، ولا فى أن يتسلم باسم الحلف الضريبة من الكاريين واللكيانيين ، ليضيفها إلى خزانته . لقد أصبحت أثينا الآن إمبراطورية كفارس وآشور ، ولم تخجل من أن تأخذ الجزية ممن دونها من الدول . والحق أنها كانت فى حاجة إليها للقيام بالأعمال التى كان عليها تنفيذها . وصمم بركليس كما فعل دارا ، الحصول على هذه الأموال والاحتفاظ بها . وفى عام ٤٥٤ عند ما أوشك أن يتحطم الأسطول الأثينى كله فى مصر ، وتعرض بحر إيجه إلى حين ، للقراصنة والفينيقيين ، رؤى من الحكمة نقل أموال الحلفاء من

= يقارن فى ذلك باليونان القديمة) سيقدر مزايا وزن معين ، وشكل نقدى سهل التمييز . ويجلس صرافو النقود على أرصفة الموانى الشرقية ، شأنهم الآن . وكثيرون من السائحين الجدد يشعرون بميل إلى أن يقلبوا لهم موائدهم . ويوجد الآن بعض أمثلة طريفة مشابهة ، ولا زال ريال ماريا تريزا المؤرخ بعام ١٧٦٦ ، يضرب للاستعمال فى الحبشة وبلاد العرب . قارن الدويلات الوطنية فى الهند ، حيث كانت تستعمل طوابع البريد ، والنقود المحلية والإمبراطورية ، كلها جنبا إلى جنب . (ولما كانت السكك الحديدية إمبراطورية ، فقد أوجد فى المحطة عادة صندوق خطابات إمبراطورى) ، وقد كان توحيد المعيار يتقدم تدريجيا بدون إرغام . كذلك الحال بالطبع فيما يخص اللغات الثانوية ، مع أنه ، من حسن الحظ ، أنه أسهل على الإنسان أن يتكلم لغتين ، من أن يستعمل نقدين . اليوم فى اسبرطة : بلوتارخوس فى ليساندروس ، ١٦ ، أفلاطون ، .Alc ، E ١٢٢ («هوراس vestigia nulla retrorsum») . (أنظر التذييل) .

ديلوس إلى أثينا . ولم يكن يعنى هذا فى الظاهر أكثر من تغيير صاحب الخزينة ، الإلهة أثينا تأخذ مكان أبولون . ولكن فى الحقيقة كان معناه أن يبعد المال كلية ، عن رقابة مجلس الحلفاء ، وأن يرى كل إنسان ويشعر بما سبق أن جال بنفوسهم منذ زمن بعيد ، أن تلك الأموال ليست إلا أموال أثينا ، يمكنها أن تفعل بها ما تشاء . وما زال العالم يثنى عليها ويباركها ، من أجل ما أتته من أعمال بها[1] .

وعند ما عقد الصلح مع الفرس عام ٤٤٨ ، كان هناك فعلا حزب « الأثينيين الصغار » الذى ألح فى ضرورة حل التحالف ورد الأموال إلى أصحابها ، فليس لأثينا حق ما ، فى انفاق هذه النقود على نفسها ، « كالمرأة المغرورة التى تزين نفسها بالجوهرات » . ولكن أحداً لم يعبأ باحتجاجاتهم . برنى زعيمهم من أجل ما تثيره أمانته من متاعب ، فالحقائق الناصعة كانت قوية للغاية . فلم يكن فى إمكان أثينا التراجع ، كما قد لا يستطيع معظم الإنجليز أن يتصوروا إمكان مغادرتهم الهند . لقد استيقظت لتجد نفسها إمبراطورية ، فأصرت على القيام بدورها . وعلى هذا شرع بركليس فى وضع أول نظام إمبراطورى ، وقسم الإمبراطورية إلى مقاطعات ، حتى يكون الوضع أنسب لجبى الجزية . ومنذ عام ٤٤٣ كانت كشوف دفع الجزية فى أثينا ، تدون الأسماء بانتظام ، تحت خمسة أقسام ، ضرائب من أيونيا ، وهلسبونت ، وتراقيا ، وكاريا ، ومن الجزر . أما الضرائب التى كانت

---

(١) إن القبور الإتروسكية ملأى بالأوانى الأثينية ، التى ترجع إلى القرن الخامس . قد غيرت غزة فى عهد سمسون (وذكرها هيرودوت باسم Cadytis) معيار نقودها ، حتى يتلاءم ومعيار نقود أثينا . (ما ير الجزء الثالث ، الفقرة ، ٨٥) . المحالفات الإمبراطورية الإضافية : سجستا عام ٤٥٤ ، وريجيوم وليونتينى فى عامى ٤٣٣ إلى ٤٣٢ (هكس وهيل رقا ٥١ و ٥٢) ، وربما كانت نابولى فى عام ٤٣٨ . العلاقات مع البرابرة : الرئيس الإيطالى ، توكيديدس ٧٢ — ٣٣ (« قنصل » أثينى) ؛ رئيس صقلى ، ٧ — ١ — ٤ ، أمير من تراقيا أعطى حق المواطن الأثينى ، ٣ — ٣٩ — ٥ . داخل الإمبراطورية نفسها : أنظر فى ذلك « قائمة الأنصبة » فى هيل ، Sources مثل Λύκιοι καὶ συντελεῖς لسنة ٤٤٦ . هذه القوائم لا تورد الاشتراكات نفسها ، ولكن أوردت فقط ، « عمولة » الإلهة أثينا .

تأتى من موانىء البحر الأسود ، والتى لم تكن مذكورة فى توزيع الجزية من أول الأمر فقد كونت قسماً منفصلا . وهذه الأموال، التى عاشت عليها أثينا، ولا زالت تعيش عليها على نحو ما ، « قد يبدو استيلاؤها عليها اغتصاباً، ولكن كان شططاً التفريط فيها[1] » .

ولكن ذلك سبق للحوادث ، فرجال الجيلين الذين كونوا الإمبراطورية لم يشعروا بأى غضاضة فيما يفعلون . لقد ملك العمل حياتهم . فإذا ما استراحوا إلى مجاديفهم ، فإنما ليستشعروا لذة إنجاز الأعمال ، وليتأملوا كيف « تضافرت القوى المختلفة من أجل الخير » . وربما هذا هو الذى جعل من هذا النصف قرن القصير الأمد ، أعظم وأوفق فترة فى التاريخ . لقد كان العالم يتحرك إلى الأمام بسرعة هائلة ، جارفاً كل ما فى سبيله كالنهر القوى فى فيضانه . وما أكثر ما كان ذلك ! « الحرية ، القانون ، التقدم ، الحقيقة والجمال ، المعرفة والفضيلة ، الإنسانية والدين ، تلك أشياء سامية ، تضاربها هو مبعث معظم ما يحدث بين الجماعات البشرية من تفرق وفشل — كل هذه الأشياء بدت كلها منسجمة متسقة » ، فالرجال الذين ألهموا أعظم مثل البشر هذه ، ما كانوا ليتقاعسوا . لقد آمنوا بأن عملهم حق

---

(١) توكيديدس ،٢ — ٦٣ — ٢ (بركليس يواجه الحقائق) ، ٢ — ٦٥ — ١٣ (طريقة بركليس فى « التفكير الإمبراطورى » هى أن يفكر فى الأرقام) . وسيجد محبو توكيديدس لذة فى أن يستخلصوا عبارات بركليس فى الخطب : ἐροσται τῆς πόλεως وهى بالتأكيد إحدى جمله (أنظر توكيديدس ،٦—١٣— ١، ٢٤—٣، ثم أرسطو ، Ach، ١٤٣ ، الفرسان ، ٧٣٢ و ١٣٤١) . وجملة أخرى δόξα ἀείμνηστος καταλείπεται (مثل تعبير esse videatur لشيشيرون) ، ٢ — ٤٣ و ٢ — ٦٤ — ٥ . ويمكن أن نفهم الخطاب الأخير جيداً ، إذا أدركنا كل التلميحات التهكمية الموجهة إلى خطط بركليس وتعبيراته . بلوتارخوس ، القرس ١٢ (حجج المعارضة) . وفيما يخص قوائم الجزية المبوبة ، أنظر هيل : Sources ، ص ٤٣ ومابعدها ، وص ١٥٦ (أجزاء من نصوص البحر الأسود) وأيضاً كاڤينياك ، ٤٠ — ٤٣ ، ثم كتابه Histoire de l'Antiquité ، الجزء الثانى ، ص ١٦ ، وهذا المؤلف هو الذى أكمل إحداها تماما ، مضيفا النقص من قوائم الجهات المجاورة — فيما يخص قائمة عامى ٤٢٧ ثم ٤٢٦ ، أنظر Woodward فى B.S.A. ، العدد ١٥ ، ص ٢٤٣ ومابعدها .

وصواب ، وأنه أقيم على أسس وطيدة ، وأن الخلف هم الذين سيقدرونه .

ومع أن قوام عملهم كان حياة البشر والأمم ، إلا أنهم لم ينسوا أنهم يونانيون وأنهم فنانون . وفى نشوة المبتكر ، سواء كان ما يبدعه كلمات أو نظما ، طرحوا عن أنفسهم كل همسة ، يمكن أن تكدر عليهم سعادتهم ، أو تفسد نظام حياتهم المنسجم ، ولو لحظة قصيرة . حقا لم يكن صوابا من سوفوكليس أن يتغنى بالعدالة الخالدة فى قصة أوديب ، ثم لا يتورع بعد ذلك من أن يتخذ وظيفة رجل سيء التصرف بأموال الإمبراطورية . كما لم يكن من المنطق فى شيء أن يغرى الشعب صاحب السيادة — الجماعات الشقيقة بالدخول فى معاهدة للحرية ، ثم يعاقبها على الخروج منها ، بقدر ما لم يكن منطقيا من بيرك ، وقد تشبع بروح إمبراطورية لاحقة ، قوله عن المستعمرات الأمريكية ، « كلما تحمست لحب الحرية ، كلما صارت طاعتها أتم » . ولكن مثل هذه المتناقضات مرت دون أن يلحظها سوى قلائل من ثاقبى النظر ، لا لأن أثينا أرادت وحاولت أن تحمى الحرية ، فهذا لم يكن ليضلل مواطنيها ، بل لأنهم وهم يقومون بخدمتها « بجرأة الجنود المحاربين ، وإدراك العقلاء من الرجال ، وقدرة الرجل الناجح فى السيطرة على نفسه » ، أحسوا فى دخيلة أنفسهم أنهم أحرار سعداء ، مملوؤن ثقة ، منزهون عن الخطأ[١] .

ولم يكن عندهم الفراغ ولا الرغبة ، بقدر ما لم تتوفر للانجليز فى القرن الثامن عشر ، ليقيموا لأنفسهم نظرية إمبراطورية . لكن توكيديدس الذى

---

(١) موري ، يوربيدس ، ص ٢٣ . كان سوفوكليس الخازن الإمبراطورى عام ٤٤٣ ، أى فى نفس الوقت الذى ابتدأت تستغل فيه النقود لأغراض المدينه . أنظر ص ٤١٠ فيما يلى . إن أعضاء المدن المتحالفة الذين اتصل بهم الأثينيون خاصة ، كانوا من الطبقات الفقيرة . وقد عملوا نظير أجور طيبة ، مجدفين على المراكب ذات الثلاث طبقات ، وربما كانوا « متحمسين لأثينا تحمس فرق بلاد الراين ، والفرق الإيطالية ، لنابليون » (خطاب خاص من أرنولد توينبى) . وأعمى هذا أثينا ، عن شعور الطبقات الغنية ، التى كانت تدفع غالبية الجزية .

كتب بعد أن انقضى كل ما هو فانى من أعمالهم واندثر ، ابتكر لهم نظرية .
إنها تبدو لناقدى الأجيال الجديدة عقيمة جوفاء ككل النظريات
الإمبراطورية ، ومع ذلك فلو بعث الموتى من سيراميكوس (Cerameicus)؛
أو استطاعت نقوش مقابرهم أن تتكلم ، لأيدت ، ولو بشىء من التواضع،
تحليل مؤرخهم . « نحن حاملوا لواء الحضارة ورواد الجنس البشرى .
مؤاخاتنا والاتصال بنا، هما أسمى ما يمكن أن يوهبه إنسان . ليس الانضمام إلى
دائرة نفوذنا قيد ، بل هو ميزة . ولا يمكن لثروة الشرق كله أن تعوض
ما نقدمه من مفاخر . ولذا فيمكننا أن نعمل مغتبطين راضين ، مستغلين
الوسائل والأموال التى تتوالى علينا . واثقين أننا سنظل دائنيهم مهما حاولوا،
لأننا بمجهوداتنا ، وما قاسينا من آلام فى كثير من ميادين الطعان ، عرفنا
سر القوة البشرية ، التى هى سر السعادة . وقد حدست الشعوب الأخرى
هذا السر ، وعرفته بأسماء كثيرة ، إلا أننا وحدنا ، قد تعلمنا أن نعرفه
ونؤقلمه بمدينتنا . والحرية هى الاسم الذى نطلقه عليه ، لأنها علمتنا أن
المرء يغدو حراً بالعمل . فهل تعجب لماذا أننا « الوحيدون بين الجنس
البشرى » (وهل يمكن أن يكون هناك شعب آخر يمكنه أن يفهم ما نعنى؟)
«الذين نهب ميزاتنا لا رجاء منفعة شخصية ، ولكن لثقتنا التامة بالحرية » ؟

الفصل الثامن

المثل الأعلى لحقوق المواطن

السعادة أو قاعدة المحبة

(الســـعادة εὐδαιμονία)

ΚΗΡΥΞ. Πράσσειν σὺ πόλλ᾽ εἴωθας ἥ τε σὴ πόλις.
ΘΗΣΕΥΣ. τοιγὰρ πονοῦσα πολλὰ πόλλ᾽ εὐδαιμονεῖ.

المنادى : تعودت أنت ومدينتك على العمل الكثير .

ثيسيس : ولهذا الدأب الكثير فهى سعيدة جداً .

يوربيدس ، Supplices ، ٥٧٦ — ٥٧٧ .

Τὸ εὔδαιμον τὸ ἐλεύθερον, τὸ δὲ ἐλεύθερον τὸ εὔψυχον κρίναντες.

الحرية هى شجاعة الروح وسموها — بركليس .

وسأل ما الخير ؟ الخير أن تكون شجاعا .

Nietyzsche, Zarathustra, Vom Krieg und Kriegsvolke.

يجب أن يكون شجاعا جداً ذلك الذى يحب كثيراً .

The Happy Warrior ، وردزورث

لا يقتضى الأمر منا سوى بضع كلمات قبل أن يتكلم توكيديدس عن نفسه . لا ينتمى توكيديدس إلى الجيلين اللذين أسسا الإمبراطورية ، فقد ولد بعدهما مباشرة . ولا ترجع به ذاكرته إلى أكثر من صلح ٤٤٥ . ولذا فقد شارك من يكبرونه من معاصريه ، مثل هذا العصر العليا ، ولكن على نحو أبعد عن الفطرة . فقد أدرك مثلهم ، أنه يعيش فى عصر عظيم ، ولكنه

وقد كان أبعد منهم نظرا ، رغب فى أن يكتب تاريخ هذا العصر وأحداثه ، إذ أنه أدرك كما أدركوا هم ، كلما استلقوا يقظين يفكرون، أن هذا المجد لن يدوم ، وأن الأجيال القادمة سيسعدها أن تقرأ عنه . ولكنه لم يخطر بباله أن تكون فترة الازدهار قصيرة الأمد ، أو أنه إبان حياته القصيرة ، سيشهد خريفها ، بل ومنتصف شتائها(١) .

ومع ذلك فقد كان فى صميم الشتاء ، عند ماتهدمت أسوار المدينة وأصبح الأكروبول مأوى لحامية اسبرطة ، أن كتب مديحه المدينة فى شكل (وأى شكل يمكن أن يكون أنسب من هذا ؟) خطبة يؤبن بها من ماتوا من أبطالها النبلاء . لم تكن هذه بالتأكيد الخطبة التى ألقاها بركليس ، ولا هى حتى كما يومىء المتكلم نفسه ، من نوع الخطب المعتاد إلقائها فى مثل هذه المناسبات . فما جاء بها عن الأسلاف النبلاء قليل للغاية ، بينما فيها الكثير عن الحاضر . ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الشك فى أن توكيديدس قد سمع بطله يتكلم ، ولربما سمعه أكثر من مرة يتكلم عن الجنود الذين استشهدوا ،

(١) فيما يخص حياة توكيديدس ، أنظر مورى ، Ancient Greek Literature ، ثم (فيما يخص البراهين التفصيلية) أنظر مقدمة كلاسن لطبعته ، ثم أيضا تلك الصفحات الأربع الحافلة فى فيلاموفيتز ، أفلاطون ، الجزء الثانى ص ١٢ ــ ١٦ ، برلين ، ١٩١٩ . أما تاريخ كتابته فغير معروف . وقد كان فى عام ٤٣١ فى سن جديرة بأن تجعله يحزم أمره ، ويعزم على كتابة تاريخ الحرب ، (١ ــ ١) ، ولكنه كان مع ذلك أصغر من أن يتعلم « أسلوب » الكتابة من السفسطائيين . فإذا كان يعنى نفسه ، كما أعتقد أنا ، عندما كان يتكلم عن الشباب المتحمس المتدفق فى أثينا عام ٤٣١ ، (٢ ــ ٨) فإذن لا يمكن أن يكون قد ولد قبل عام ٤٦٠ بكثير . ويتفق هذا مع ٢ ــ ٦٥ ــ ٥ ، (إذا وضعت الفصلة بعد كلمة εἰρήνῃ ، كما فى نص أكسفورد) حيث يقصر حكمه العام على بركليس ، على النصف الأخير من حياته . إنه شديد التحفظ فيما يتعلق بنفسه : فهو لا يقول مثلا من المسئول عن نفيه (٥ ــ ٢٦ ــ ٥) ، أو أنه كاد أن يستدعى ثانية حوالى عام ٤١١ (٨ ــ ٧٠ ــ ١) : ولا يرجع موته إلى أبعد من عام ٣٩٦ ، وربما كان بعد ٣٩٩ ، وذلك إذا كان الأمر كما يعتقده كلاسن محتملا من أن ، ٨ ــ ٦٨ ــ ٢ تتضمن إشارة خفية إلى موت سقراط . وقد علم بركليس بعد الوباء ، أن الإمبراطوريات مثل الرجال تضعف وتفنى (٢ ــ ٦٤ ــ ٣ Πάντα γὰρ πέφυκε καὶ ἐλαττοῦσθαι) . ولكنه لم يعلن تلك الملاحظة فى خطبه السابقة . (أنظر التذييل) .

ويستطيع بعد سنين ، أن يسترجع بين أقدس ذكرياته ، « رنات صوته وحركات يديه » ، والصمت الرهيب المخيم على سامعيه الكثيرين ، ذلك الصمت الذى لم يكن « يقطعه إلا بكاء بعض أمهات الموتى » . ونستطيع أن نشعر عن ثقة أنه لم يعطنا مجرد خواطر بركليس الداخلية ، بل أعطانا أيضاً الكثير من أسلوبه ، مضفياً عليه لونا من تجاربه الخاصة . وعلى هذا ، يمكن أن نصغى هنا إلى روحين عظيمتين فى وقت واحد ، كما هو الأمر فى كل كتب التأويل والتفسير الرفيعة . وإذا ما عرفنا كيف نصغى ، تمكنا أحيانا من أن نسمع الإثنين سويا ، صوت بركليس ضعيفاً بعض الضعف ، واهنا بفعل مر السنين ، يعلو نبرات المؤرخ العميقة[1] .

لقد كتب الحديث ، لو أمكن ذلك أبداً ، « لا بالمداد ، وإنما بالدماء » . فما من كلمة عند توكيديدس ، ربما أكثر من أى كاتب عظيم آخر ، إلا ولها دلالتها . « فيجب أن تقرأه وتتمعنه سطراً سطراً ، حتى تتمكن من قراءة ما بين السطور بوضوح ، يماثل ما تقرأ به السطور ذاتها . وقليل من المفكرين ، من لهم آراء كثيرة مختبئة وراء ما يكتبون » . وكل فن عظيم أشبه ما يكون بشبح ، يريد أن يعبر عن أشياء أكثر مما يمكنه التفوه بها ، ويشير إلى آفاق بعيدة . وهذا صحيح فى التاريخ الذى يعالج أمور الشعوب ، كما هو صحيح فى الشعر ، أو أى فن شخصى آخر . وهذا هو السبب فى أن المرثية المكتوبة فى فجر العالم ، عن مدينة إقليمية صغيرة ، تجد دائماً صدى لها ، أينما تعيش الشعوب والأمم على سجيتها ، سواء أكانوا فى خنادق مكدن أم فى مقبرة جيتزبرج . إن بركليس وابراهام لنكولن ، لم يكونا متشابهين كل الشبه ،

(١) والاس (Wallas) ، Human Nature in Politics ، ص ٧٣ . إن المرثية التى يذكرها الأثينيون أكثر من أى شيء ، هى التى قالها بركليس عام ٤٣٩ ، فى آخر الحرب الساميئية ، عام ١٩٢١ . ڤيلاموڤيتز المشار إليه آنفاً ، يقف بجانب الرأى ، الذى سبق ذكره ، من أن المرثية قد كتبت فى آخر حياة توكيديدس — لقد كانت حقاً آخر قطعة كتبها .

ولـكن الضرورات المشتركة تخلق لغة مشتركة ، وكبار رجال السياسة ، مثل كبار الشعراء ، يتحدثون إلى بعضهم البعض ، من فوق رؤوس الأجيال . فلنقف بين الأجيال لنصغى[١] .

(٣٤) فى نفس الشتاء أقام الأثينيون ، متبعين عرف آبائهم ، الجنازة العامة الأولى لقتلى الحرب . وكان الاحتفال كما يلى : تعرض عظام الموتى لمدة ثلاثة أيام على محفات مغطاة ، ولأى شخص خلالها ، أن يضع قرابينه الشخصية . وفى اليوم الثالث توضع فى عشرة صناديق من خشب السرو ، لـكل قبيلة صندوق يضم عظام رجلها . ثم توضع هذه على عربات وتنقل إلى المقابر . وأعد فراش خال مغطى بأكفان ، للقتلى ، الذين لم يعثر على جثثهم لتحرق[٢] . ويشترك فى الموكب كل من يرغب فى ذلك ، سواء من المواطنين أو الأجانب . وتقف جماعات النساء إلى جانب القبر ، يندبن موتاهن . وتجرى حفلة الدفن ، فى مقابر الدولة الواقعة فى أجمل ضاحية من ضواحى المدينة . وكل من مات فى الحرب من الأثينيين دفن هنـــاك ، إلا ضحايا مراثون[٣] ، الذين فاقت شجاعتهم الوصف ،

---

(١) هذا الاقتباس مأخوذ عن نيتشه ، من فصله المسهب ، « ماذا أدين به للقدماء » ، (فى Götzendämmerung», Works » ، الجزء الثامن) . كثيرا مالوحظ التشابه العجيب بين خطاب لنكولن فى مدينة جيتزبرج وخطاب بركليس . وقد طبع خطاب لنكولن فى مجموعة خطبه (Lincoln's Speeches) وذلك فى سلسلة Everyman Library . وقد ترجمته من النص المذكور فى Greek Reader لڤيلاموڤيتز ، إذ أنى أفضل هذا النص ، على نص أكسفورد . إن أهم الفوارق بين النصين ، هى أن ڤيلاموڤيتز يقرأ ἥκειν بدلا من οἰκεῖν فى ٣٧ـ١ ، وفى ٤٠ ـ ٢ يقرأ ἕτεροι ἕτερα وبعد ذلك بثلاثة سطور يقرأ αὐτοί بدلا من οἱ αὐτοί ثم ἡρημένοι بدلا من ἡγησάμενοι فى ٤٢ ، رابع سطر من الآخر . وقد اتبعت تقريبا تقسيم فقرات ڤيلاموڤيتز ، والأعداد التى بين قوسين ، تدل على الفصول عند توكيديدس . وقـد أضفت بعض ملاحظات قليلة ، وبعضها يشير إلى عواصف آتية . ولم يستطع توكيديدس أن يكتم تهكمه ، حتى وبركليس يتكلم .

(٢) « فراش خاو » : قارن النصب المقام للأشخاص فى وستمنستر ، ولـكنه ، بكل أسف ، أزيح الستار عنه من غير أن يكون هناك بركليس أو لنكولن .

(٣) «هؤلاء الذين سقطوا فى مراثون» : إن الأثينيين الذين قتلوا فى بلاتيا ، دفنوا فى ميدان القتال أيضا ، (هيرودوت ، ٩ ـ ٨٥) ، ولـكن تلك المعركة لا تعتبر معركة أثينية ، بل هى معركة يونانية شاملة للجميع .

فأقيمت مراسم دفنهم فى ميدان القتال . وبعد دفن التوابيت تنتخب المدينة خطيبا معروفا بالحكمة ، وحسن تقدير الشعب ، ليقول رثاء مناسبا لهذا المقام ، وبعد ذلك ينفض الجمع . هذا هو الاحتفال التقليدى ، المأخوذ به خلال الحرب ، كلما سنحت الفرصة ، وفى جنازة أول فريق من الشهداء انتخب بركليس بن خانتيبوس للكلام . فلما حان الوقت تقدم إلى الأمام من جانب المقبرة إلى منصة عالية أقيمت خصيصاً لهذه المناسبة ، حتى يسمع الجمع صوته إلى أبعد مدى مستطاع فقال :

(٣٥) إن معظم الذين وقفوا قبلى فى هذا المكان ، أثنوا على فكرة هذا الحديث الختامى . لقدشعروا أن من اللائق أن تذكر بعض الكلمات الحزينة عن جنودنا الشهداء . ولكنى لا أشاطرهم هذا الشعور . فالأعمال تستحق لتكريمها أعمالا أخرى لا كلاما . ويبدولى أن الدفن على حساب الدولة كما تشهدون ، قديبدو كافياً. وما كان شعورنا بجدارة عدد من زملائنا المواطنين ، ليعتمد على ما يلقيه رجل منا من كلام بليغ . زيادة على ذلك ، فإنه من العسير جداً على متكلم ، أن يدعى أن كلامه قد بلغ حد الإجادة ، بينما كثير من مستمعيه ، لا يكادون يعتقدون أنه صادق فيما يقول : فالذين عرفوا هؤلاء الموتى وأحبوهم ، قد يرون فى كلماته قليلا من الإنصاف ، لذكرى هؤلاء الذين يكرمون ، بينما أولئك الذين لم يعرفوهم ، قد تدفعهم الغيرة فيتهمونى بالمبالغة ، إذا ما سمعوا عن عمل خطير فوق مقدورهم . فمن طبيعة البشر ألا يطيقوا سماع مدح غيرهم ، إلى أبعد من الحد ، الذى يشعرون فيه ، أنهم يستطيعون منافستهم فيما أتوه من جلائل الأعمال . فتخطى هذا القدر ، يثير فيهم الحقد والشك . ولكن مادامت حكمة آبائنا قد سنت هذا القانون ، فإنى أخضع له وأحاول أن أقول على قدر استطاعتى ، ما يناسب رغبات ومشاعر كل فرد فى هذا الجمع [١] .

---

(١) « عقلنا ... شاك » (سطور ١٣ الى ٢٤) . لقد أوضح Steup (الطبعة الرابعة ص ٢٢١ لكتاب كلاسن) أن فكرة هذه الفقرة لا تنسجم مع بقية الفصل . « أن =

(٣٦) وسأبدأ حديثى بأجدادنا ، فمن الإنصاف الواجب لهم ، ومن اللياقة أيضاً ، أن نؤدى إليهم فريضة الذكرى ، فى فرصة كالتى نحن بصددها . فقد سلموا إلينا تلك البلد التى سكنوها جيلا بعد جيل ، فى تتابع متصل غير متقطع ، سلموها لناحرة ، بفضل سعيهم وجهودهم . فهم إذن جديرون بمدحنا وأجدر بهذا أيضاً آباؤنا . فقد زادوا ميراث أجدادنا الأقدمين ، بتلك الإمبراطورية التى نشهدها اليوم . وقد سلموها بعد كثير من العناء والجد إلى جيلنا الحاضر . بينما نحن ، أى من فى منتصف أعمارهم منا ، قد ثبتنا قوتنا فى معظم أنحاء الإمبراطورية ، ووضعنا استقلال المدينة تاما غير منتقص فى الحرب والسلم[1] . إننى لا أرغب أن أزيد فى الكلام عن المواقع التى خضنا غمارها نحن وآباؤنا ، سواء لنشر سلطاننا فى الخارج أو لصد البرابرة ،

= تقول ما يجب أن يقال » رغم عدم تصديق المستمعين ، شيء ، « ومحاولة مراعاة شعور ورغبات كل مستمع منهم » ، شيء آخر . فهو يرى أن هذه الجملة قد أضيفت فيما بعد . إن الصعوبة التى واجهت بركليس هى جعل أفكاره «التقدمية» تتناسب والجو المحافظ الذى يسود الحفل، وهو يعالج ذلك ، مثلا بإدانته « الأسلاف » فى جلتين من الإطراء الفاتر . (أنظر إزوكراتس Panathenaicus فيما يخص الصيغة التى كان يمكنه أن يتخذها) . ولكن لما أن راجع توكيديدس مسودته ، أدرك ما يواجهه من صعوبة ، فى حمل قرائه يؤمنون بما كانت عليه الإمبراطورية الأثينية فى يوم من الأيام . ولذا أضاف مقدمة من عنده ، إلى الملاحظات الافتتاحية المختصرة ، التى ذكرها عن بركليس ، ولكن لم يخف آثار هذه الإضافة تماماً . وهكذا إذا ما قرأت واضعاً ذلك نصب عينيك ، فسترى الفصل يصبح مليئا بالمعانى . « إن ذلك إنسانى فقط » : تصوير قصير عجيب لعظمة الاعتداد بالنفس ، عند الأثينى فى القرن الخامس . إن الكتاب ذوى النظرة الحديثة ليس لهم أن يخافوا ، إيذاء شعور قرائهم بذلك.

(١) « الاستقلال التام » : إن هنا شيئاً يشبه المغالطة فى كلمة « الاستقلال » . المعنى الطبيعى لهذه الكلمة ، هو الاستقلال الاقتصادى ، فالمدينة تكون «مستقلة» عندما تنتج قمحها ونبيذها وخشبها لبناء السفن ، وكتانها للأشرعة ... الخ . ومن هذه الناحية فإن أثينا ، التى كانت مثل إنجلترا ، معتمدة فى وجودها على الإمداد الخارجى ، كانت أقل المدن استقلالا فى اليونان ، كما وضح فى الفقرة ٣٨ . ولكنها « بتماسك » إمبراطوريتها ؛ أى أنها بممارسة قوتها البحرية ، استطاعت السيطرة على تجارة الضروريات . لاحظ التفرقة بين (١) الأسلاف قبل أن « تنهض » أثينا ، (٢) الجيل الأول أو جيل مراثون ، بناة الإمبراطورية (٣) الجيل الثانى (جيل بركليس) الذى كان بالأحرى جيل تجار . ولم يذكر أن (٣) قد فقد بعض الأملاك التى آلت إليه من (٢) كما تبين ذلك قوائم الأنصبة ، فعوضوا ذلك بالتجارة .

أو اليونانيين فى الداخل ، فأنتم تعرفونها حق المعرفة[١] . ولكن بالأحرى أريد أن أتبسط فى الحديث عن الروح التى قابلنا بها تلك الشدائد ، والدستور والوسائل التى ارتفعنا بها إلى العظمة ، وأن أنتقل من هذا إلى الكلام عن الشهداء . لأننى أظن أنه من الملائم أن نتذكر خلال حفلة اليوم هذه الأمور ، ومن الملائم أيضاً أن يستمع إليها جميع الحاضرين ، من مواطنين وغرباء .

(٣٧) إن حكومتنا لم تؤخذ عن البلدان المجاورة ، ولم تقلدها[٢] : فنحن مثال لهم يحتذونه ، وليسوا هم لنا كذلك . وقد سمى دستورنا ديمقراطيا ، لأن الحكم عندنا فى أيدى الكثرة ، لا الأقلية . وتكفل قوانيننا المساواة فى العدالة للجميع ، فى خصوماتهم الخاصة . وإن الرأى العام عندنا ليرحب بكل ذى موهبة ، فى أى نوع من نواحى العمل ، ويكرمه لا لغرض خاص ، وإنما لتفوقه ليس إلا . وكما أننا نتيح الحرية للجميع فى حياتنا العامة ، فنحن أيضا نتعامل بهذه الروح مع بعضنا البعض ، فى علاقاتنا اليومية . ولا ننظر إلى جارنا شذرا ، ولا نوجه إليه كلمات غضب ، إذا ما متع نفسه بالطريقة التى يراها ، ونمسك عن تلك الأعمال الجافية الصغيرة التى ، وإن لم تترك أثرا ، فقد تكون سببا فى مضايقة من يلحظها . إن علاقاتنا الشخصية تقوم فيما بيننا على الصداقة والصراحة ، وفى أعمالنا العامة ، نخضع خضوعا مطلقا للقانون . وإنا نعترف بما للتوقير من سلطان مفيد ، ونطيع أولى الأمر فينا أيا كانوا ،

---

(١) « معروف لكم جميعاً » : وقد كان ذلك على الأرجح فى خريف عام ٤٣١ وجيش البلوبونيز قد عاد إلى بلده من أتيكا . ومن ذلك كان التعبير الغامض (الذى عدله بعض الناشرين) : « مقاومة القتال » . فقد قاوم الأثينيون ، سواء كان ذلك فى عام ٤٨٠ أو ٤٣١ الحرب ، لا العدو نفسه .

(٢) « ليس منقولا عن (حكومات) جيراننا » : هذه إشارة أو تعريض بالاسبرطيين الذين لم يكونوا على يقين فيما إذا كان دستورهم قد استمد من كريت ، أو من دلف . والفصول القليلة التالية ملأى بالنيل ، فى إشارات غامضة ، من اسبرطة بلد النظام ، حيث يخاف الرجال من الحرية والابتكار ، ومن كورنث بلد الإباحية ، حيث لا يعبأ الرجال إلا بجمع المال . وربما استطاع القليل من المستمعين أن يتذكروا أنه قبل حوالى اثنى عشر عاما ، جاء بعض المبعوثين من مدينة بربرية تسمى روما ، ليدرسوا قوانين أثينا ، وقد ضمنوا مجموعة قوانينهم الكثير منها ، (ماير الجزء الثالث ، فقرة ٢٧٠) .

ونستمسك بالقوانين ، وخاصة تلك التي تحمى المظلومين . وكذلك لا نتعدى حدود ما تمليه الآداب غير المكتوبة ، التي يجلب تجاوزها الخجل والعار .

(٣٨) وليست مدينتنا مجرد مدينة عادية ، بل ما من مدينة غيرها تقدم شتى ضروب المتع والراحة للنفس . فثم أنواع من الصراع والتضحية ، فى كل يوم من أيام السنة . وثم جمال فى منشآتنا العامة ، يشرح الصدر ويسر العين يوما بعد يوم . وزيادة على ذلك فالمدينة كبيرة متسعة وقوية ، حتى أن كل ثروة العالم تتدفق إليها ، ومن هنا لا تبدو منتجات أتيكا شيئا خاصا ببلادنا ، أكثر مما تبدو ثمار أعمال غيرنا من الشعوب الأخرى[١] .

(٣٩) وكذلك يختلف تدريبنا العسكرى عن تدريب خصومنا . وأبواب مدينتنا مفتوحة على مصراعيها للعالم ، ونحن لا نباشر النفى الإدارى ، ولا نمنع زائرينا من ملاحظة أو اكتشاف ، ما قد يكون نافعاً للعدو فيستغله لأغراضه ، لأننا لا نعتمد على تدابير التسليح المادى ، بل على روحنا العالية فى القتال[٢] .

وكذلك الحال فى التعليم ، فغيرنا يكدح منذ الطفولة ويجد فى سبيل الشجاعة وترويض النفس عليها ؛ على حين إنا ، ونحن أحرار فى معيشتنا ، نطوف فى البلاد كما نهوى ، لسنا أقل منهم فى مواجهة الأخطار ذاتها [٣] . وهاكم الشاهـــد على كلامى . عند ما يهجم الاسبرطيون على بلادنا ،

---

(١) جاء فى هذه الفقرة الإشارة الوحيدة للديانة الرسمية فى الخطبة جميعها . لاحظ كيف حشرت وسط الكلام عن الرياضة والعمارة والتجارة . فيما يخص معنى ἰδίαις فى النص ، أنظر ملاحظة ڤيلاموڤيتز .

(٢) « إن اعتمادنا لا يقوم على تدابير المتاد المادى » : يبدو أن ذلك نقضته كلمات بركليس ، ١ ـ ١٤٢ ـ ٩ : « إذا كان هناك شىء ما ، موضوعا للمهارة فهو الملاحة » ، ثم فى ٧ يقول : « لقد كنتم تقومون عمليا بالملاحة منذ الحرب الفارسية ، ومع ذلك لم تبلغوا فيها حد الاتقان الكامل بعد . كيف يتيسر لشرذمة من الفلاحين أن يتقدموا علينا فى البحار ؟ » لقد كان الأثينيون دائبى التمرن على السفن الحربية القائمة بالخدمـة بصفة دائمة ، وفى الخدمات البحرية التجارية ، (أنظر الأوليجارشى العجوز ، ١ ـ ٢٠ ، ثم توكيديدس ، ٣ ـ ١١٥ ـ ٤) .

(٣) « تقدموا مع كل ذلك » : هذا هو ما لم يكن ليسمح لهم به بركليس ، حتى رجع العدو إلى دياره ، ثم تحامل على نفسه ووقف يفسر قصده تفسيرا ضعيفاً .

لا يأتون وحدهم ، بل يصحبون كل حلفائهم ، ولكننا إذا غزونا جيراننا لا نلق فى المعتاد صعوبة تذكر ، حتى ولو فى أرض أجنبية ، للانتصار على أناس يدافعون عن أرضهم . وزيادة على ذلك ، فما من عدو التقى بنا ، ونحن فى كامل قوتنا ، إذ يقوم أسطولنا بالحراسة فى ممتلكاتنا المتفرقة ، حيث نبعث بجنودنا للقيام بالخدمة هناك . ولكن إذا ما سنحت للعدو فرصة للقاء جزء من قواتنا ، وهزموا قلائل منا ، افتخروا بأنهم قد طردوا جيشنا بأكمله . أما إذا ما هزموا هم ، قالوا إن المنتصرين كانوا فى كامل عدتهم . وفى الحق إننا إذا اخترنا أن نواجه الخطر بنفوس مطمئنة ، أكثر مما نواجهه بعد مران طويل صارم ، وأن نعتمد على رجولتنا الفطرية ، لا على شجاعة من صنع الدولة ، إذا ما اخترنا ذلك فإنما لمصلحتنا ، إذ بذلك إنما نتفادى متاعب التمرين المضنى ، لمواجهة الصعاب المستقبلة . وإذا ما وجدنا بينهم ، فنحن لا نقل شجاعة عن منافسينا الذين ثابروا على المران والتدريب . فهنا إذن كما فى أى مجال آخر ، تقدم مدينتنا مثلا عاليا جديرا بكل إعجاب .

(٤٠) إننا محبون للجمال فى غير إسراف ، ومحبون للحكمة فى غير ضعف . وليس المال عندنا مجرد أداة للعظمة الزائفة ، ولكنه فرصة لإنجاز الأعمال ، ولا نرى الفقر عاراً نخشى الاعتراف به ، ولكن العار ألا يعمل المرء شيئاً للتغلب عليه . ومواطنونا يقومون بالواجبين الخاص والعام ، ولا يسمحون أن يتعارض وإلمامهم بأمور الدولة ، انهماكهم فى أعمالهم الخاصة المتعددة . ونحن نخالف الدول الأخرى فى النظر إلى الرجل الذى يقف بعيداً عن الحياة العامة ، فهو عندنا لا يعد رجلا « هادئا » ، بل رجلا لا نفع فيه[١] . إننا نفصل بدقة ، ونناقش بأنفسنا كل أمور السياسة ،

---

(١) «لا « كهادىء » وإنما كأن لا فائدة منه» : هؤلاء هم معتزلو السياسة (Mugwumps) ، أى تلك الفئة القليلة من الأثينيين الذين كانوا لا يقومون بأية خدمة عامة . إن كلمة « هادىء » (ἀπράγμονες) هى الكلمة التى أحبوا أن يطلقوا على أنفسهم ، ويعنون بها عكس « المشتغلين » بالشئون السياسية . ولكن الأثينيين فى القرن الخامس كانوا فخورين بأن يكونوا من المشتغلين بالسياسة . (أنظر توكيديدس ، ١ـ٧٠ ، ثم فصل المقدمة المأخوذ من يوريبيدس) .

مؤمنين لا بتعارض الأقوال والأعمال ، ولكن بأن الأعمال مقضى عليها بالفشل ، إذا نفذت دون مناقشة . فقد عرفنا بأننا أكثر الناس إقداما فى العمل ، كما أننا فى الوقت نفسه أكثرهم تفكيراً ، قبل أن نقدم عليه . إن غيرنا من الرجال جريئون بجهل ، بينما يحد التفكير من اندفاعهم . ومن المؤكد أن أشجع الناس ، هم أولئك الذين لهم نظرة ثاقبة فيما يعرض لهم ، بجدا كان أو خطرا ، ورغم ذلك يخرج لمواجهته . ونحن أيضاً فى عملنا الخير على نقيض تام لباقى البشر . فنحن نحافظ على أصدقائنا لا بقبول المساعدات وإنما بتقديمها . وبذلك بإننا بطبيعة الحال أثبت فى علاقاتنا [١] ، لأننا كدائنين يهمنا توثيق العلاقات مع أصدقائنا ، بما نقدمه إليهم من صالح الخدمات . فإذا لم يستجيبوا إلينا بالحماسة عينها ، فذلك إنما لشعورهم بأن خدماتهم ليست اختيارية بل هى رد دين عليهم[٢] . إننا الوحيدون بين البشر الذين نعمل لصالح الناس ، لا لحساب مصلحة شخصية لنا ، ولكن لإيماننا الكامل بالحرية . (٤١) وفى كلمة واحدة أقول ، إن مدينتنا فى مجموعها مدرسة لليونان ، وإنه إذا ماقيس أبناؤها بغيرهم رجلا برجل ، فلن يدانيهم أحد فى استقلال الروح ، وسعة الأفق ، وتنوع المعلومات ، والاعتماد على النفس اعتمادا كاملا ، سواء فى العمل أو التفكير .

وليس هذا كلاما أجوفا ، لكنه حقيقة واقعة ، ويشهد بذلك السمو الذى بلغتنا إياه عاداتنا وأخلاقنا . وما من مدينة أخرى غيرها فى عصرنا هذا ، تخرج إلى محنتها قوية أكثر مما يخطر لإنسان ، وما من سواها فى قدرتها ، بحيث لايشعر المهاجم بذلة ومرارة عند هزيمته على يديها ، وبحيث لايحس اتباعها بخجل لمهانة تبعيتهم لها[٣]. والحق أن شواهد عظمتنا وأدلتها

(١) « ونحن ثابتون على عهودنا » : حتى أن « الأصدقاء » لا يستطيعون التحلل من ذلك القيد ، بل يصبحون رعايا .

(٢) « الوفاء بالدين » : فى بداية حرب البلوبونيز أخذ ذلك ثانية فى صورة جزية ، بلغت حوالى ٦٠٠ تلنتا سنويا .

(٣) « لا يرى رعاياها عارا ، فيما يعتبر إهانة لكونهم تابعين » . هذه هى نظرية =

بالغة ، وسيدهش لها أولادنا ، كما يدهش لها الناس جميعا اليوم . فلسنا بحاجة إلى هومر أو أى رجل آخر من رجال البيان ليشيد بنا ، لأن مثل هذا يسرنا لحظه واحدة ، ولكن الحقيقة ستفوق تصورهم لأعمالنا . فقد شق رواتنا طريقاً فى كل بحر ، وفى كل أرض ، تاركين بين كل البشر ، إما لتأديبهم أو نفعهم ، ذكريات خالدات لاستقرارهم بينهم[1] .

هذه إذن هى المدينة التى من أجلها، وخشية فقدها، مات الرجال الذين نؤبنهم ، ميتة الجندى، ومن الطبيعى أن نود، نحن الذين ظللنا بعدهم على قيد الحياة ، أن نتفانى فى خدمتها .(٤٢) وهذا فى الحقيقة ما دعانى لأن أخصص جزءا كبيرا من كلامى لهذه المدينة . فقد أردت أن أظهر أن علينا عهودا كثيرة خطيرة، أكثر من أى شعب آخر ، ليس له مثل ميراثنا ، وأن أعزز إشادتى بهؤلاء الموتى ، بأن أوضح لكم ما أتوه من أعمال . فإذا ما تغنيت بأمجاد هذه المدينة ، فإن هؤلاء الرجال وأمثالهم هم الذين عملوا لأجل هذه الأمجاد . وهم ، وقليل من بين اليونانيين ، لا تكفى الكلمات لتمجيد ما قاموا به من أعمال . فنهاية كالتى أمامنا هنا ، جديرة بأن تظهر لنا ما هى الحياة المجيدة ، من أولى مظاهر قوتها ، إلى نهاية تمام كمالها[2]. فحتى لو كان سجل ماضى حياتهم ، قد حوى هفوات وأخطاء ، فمن الإنصاف أن نقول ، إن تلك الساعة الأخيرة من

= بركليس للتسيطر الإمبراطورى : فالإمبراطورية لم تقم على أساس العدالة (كما يكون بين الأنداد) ولكن أساسها العواطف . لم تقم على أساس الحقوق التى تصان للمدن الأخرى ، ولكن على أساس ما يجب أن يشعروا به من الإخلاص المقرون بالإعجاب لأثينا ، فإذا لم يكن ذلك شعورهم ، فليس أمامه إلا استعمال القوة بدون مواربة .

(١) « متخذين من العقاب ، أو فعل الخير ذكريات خالدات لاستقرارهم » : لقد كان يفكر خاصة فى إقامة المواطنين الأثينيين بين البرابرة فى تراقيا وغيرها . ويتوقف ذكر البرابرة بالخير ، على حسن لقائهم المستعمرين عند أول وصولهم .

(٢) « ما هى الحياة الطيبة » ، هذا هو موضوع « الأخلاق » عند أرسطو ، الذى كثيرا ما يتخذ مقياسا لنظرية اليونان عن الفضيلة أو الحياة الطيبة . ولكن من المؤكد أن تتوكيديدس ، كحجة فيما يخص اليونان فى القرن الخامس ، يفضل كثيرا .

الشجاعة والتفانى ، لترجح كل هذا الماضى[1]. لقد محوا هناك الشر بالخير ، وقدموا لمدينتهم كجنود ، خدمات أكثر مما ألحقوا بها من ضرر فى حياتهم الخاصة . هناك لم تهن قلوب لإيثارها الثروة على الشرف ، فأحد لم يتخل عن المعركة أملا فى الثراء . كل هذا وضعوه جانباً ليضربوا ضربتهم من أجل المدينة ، معتبرين نشد الثأر لعزتها ، أعظم وأروع المخاطرات جميعها ، تاركين « الأمل » ، الإلهة التى يعول عليها ، لترسل لهم ما تشاء ، وواجهوا العدو عند ما اقتربوا منه معتمدين على قوة رجولتهم . وعند ما حمى وطيس الحرب ، اختاروا أن يقاسوا أخطر الشدائد وأعظمها ، على أن يفوزوا بالحياة عن طريق الاستسلام[2] . وهكذا سلمت ذكراهم من قدح البشر ، وإن حملت أجسادهم ، بدلا عنها ، طعنات العدو . وفى لحظة من الزمن إذا بهم وهم فى ذروة حياتهم ، ينتزعون من عالم ملىء ، أمام عيونهم المحتضرة ، لا بالفزع إنما بالمجد .

(٤٣) هؤلاء هم الرجال الذين يرقدون هنا ، وهذه هى المدينة التى كانت مصدر وحيهم ، ونحن الباقون بعدهم علينا أن نبتهل إلى الله ، أن يجنبنا مثل ساعاتهم المريرة هذه ، ولكن يجب أن نزدرى مقابلة العدو بروح أقل انتصاراً وغلبة ، ولنستمد قوتنا ، لا من الحجج المعادة ، فما أسمى وأنبل أن نظهر بمظهر الشجاعة فى الموقعة ، بل من منظر العمل الدائم فى حياة مدينتنا ، كما يمثل أمامنا يوما بعد يوم ، هائمين بها حبا كلما رأيناها ، واضعين نصب أعيننا أنها تدين بكل هذه العظمة ، لرجال لهم جرأة المحارب ، وإدراك الرجل الحكيم لواجبه ، وأخذ الرجل الصالح نفسه بأدائه — إلى رجال إذا ما أخفقوا فى أى محنة ، احتقروا أن يضنوا على المدينة بخدماتهم ، بل

---

(١) « ساعة الحماس الأخيرة » : قارن أمثولة العمال فى الكروم .

(٢) « لأن نقاسى أشد الصعاب ، لخير لنا من الحياة على وهن » : إنه لا يدعى ، أنهم ، كالشهداء المسيحيين ، ماتوا راضين : وإنما يقصد أنهم إنما يشعرون أنهم لن يستطيعوا أن يموتوا فى لحظة أحسن من هذه ، ولا بطريقة أفضل . إنه يصف عن تجربة شخصية ، مشاعر جندى فى فرقة الأسلحة الثقيلة ، فى اللحظات البطيئة التى تسبق بداية الاشتباك .

ضحوا بأرواحهم كأحسن قربان فى سبيلها . وهكذا وهبوا أنفسهم لصالح الدولة، فنالوا ، كل لذكراه ، ثناء لن ينسى ، ونالوا معه أكبر وأعظم المقابر، وليس هذا الذى وضعت فيه عظامهم الفانية ، وإنما هو مكان فى عقول الرجال حيث يبقى مجدهم حياً ، يدفع الناس إلى الكلام أو العمل حسب ما تقتضيه الظروف . فالأرض جميعها مقبرة للمشهورين ، ولا تنقش قصتهم فقط على صخور تقام فى أرض الوطن ، إنما تعيش فى أرجاء نائية ، دون رمز مرئى ، مندمجة بجوهر حياة الآخرين . لم يبق لكم الآن إلا أن تباروهم فيما فعلوه ، بعد أن عرفتم أن سر السعادة الحرية ، وسر الحرية قلب شجاع، لا فى الوقوف متراخين متجنبين هجوم العدو[1]. فليس الفقير أو سىء الحظ هما اللذين لهما أكبر الدواعى فى اعتبار الموت خسارة طفيفة ، إذ لا أمل لهما فى السعادة ، إنما أولئك الذين قد يقلب لهم الحظ ظهر المجن ، فيجزعون للأحداث إذا ماحلت بهم نائبة . زد على ذلك ، أن الضعف أمام المحنة أشد إيلاما للرجال ذوى الروح العالية ، من مجىء الموت المفاجىء غير المنتظر ، ساعة القوة والحماسة .

(٤٤) وعلى ذلك فلن أحزن مع أباء هؤلاء الموتى ، الذين معنا هنا ، بل أحب إلى أن أواسيهم . فهم يعلمون أنهم ولدوا فى عالم متنوع الحظوظ ، وإنه لسعيد ذلك الذى يواتيه أحسن الحظوظ — أحسن الأحزان وأفضلها، أى حزنكم أنتم اليوم ، وخير ميتة ، أى كما حل بهؤلاء ، الذين قدرت لهم الحياة والسعادة بنفس القدر[2] . وإنى على يقين من أنه ليس من السهل علىّ

(١) « لا يقف جانبا دون عمل » : هذا هو بالضبط ما اضطر الأثينيون الى عمله أثناء الغزو البلوبونيزى لأتيكا . أنظر توكيديدس ، ٢ — ٢١ — ٢ ، حيث تجد نفس الكلمة (περιορᾶν) التى استعملها الشبان ضد بركليس . والكلمة تعنى موقف المتفرج ، على حين يعمل الآخرون — وهو الامتياز القاصر على النقاد . وهذا ما كان يجيده اليونانيون فى العصور المتأخرة (العصر الرومانى مثلا) .

(٢) « قدرت بنفس المقدار » . هذا هو نفس ما قاله سولون لكرويسس فى الأمثولة المشهورة (هيرودوت ، ١ — ٣٢) .

أن أواسيكم . فأنا أعلم كم سترون فى أفراح غيركم تذكرة لما كان يوما لكم ، وكم يستشعر الرجال الحزن ، لا على فقد مالم يخبروه أبداً ، ولكن عندما ينتزع منهم ، شيء عزيز عليهم . ولكن يجب ألا تيئسوا يا من أنتم فى سن مواتية ، على أمل أن ترزقوا أطفالا آخرين . إذ سيساعدكم المواليد الجدد على نسيان ما حدث فى أسرتكم من فراغ ، وسيساعد المدينة على ملء ما حل بصفوف الصناع والجنود من نقص[١] . فما من إنسان يتسنى له بذل نصيحة عادلة مخلصة فى المجتمع ، إذا لم يكن لديه مثل أقرانه ، عائلة معرضة للخطر المحدق بالمدينة[٢] . وإليكم يا من تجاوزتم سن الشباب أقول : اعتبروا سنى السعادة الطوال الماضية ربحاً كبيرا ، إذا ما قيست بتلك الفترة القصيرة الباقية لكم ، وخففوا عن أنفسكم أحزانكم بمجد هذه النهاية . فحب المجد وحده هو الذى لا تبليه السنون ، وإنه بالمجد ، لا بالمال كما يقول بعض الناس ، تضفى البهجة والسرور على نهاية الحياة المحتومة .

(٤٥) ثم أتوجه إلى من قد يكون بينكم الآن من أطفال ومن أخوة للموتى ، والذين أتنبأ لهم بنضال شديد مع ذكرى الراحلين . فمدحهم على ألسنة الجميع ، ومهما تبلغ أعمالكم من ذروة البطولة ، فلا يا ما يحكم لكم بأنكم قد قمتم بفعال توازى أعمالهم ، بل أقل قليلا منها ، إذ بينما أمام الأحياء مقاومة الغيرة من المناضلين ، يكرم الموتى بإعجاب لا مثيل له[٣] .

---

(١) « أن يملؤوا الصفوف » . أنظر عدد السكان ص ٢٠٢ ثم صفحات ٤١٥ـ ٤١٨ . كانت أثينا تفتقد كل رجل يموت من رجالها .

(٢) « إذا لم يكن له ... عائلة فى خطر » . لا يمكن لأحد أن يكون عضوا فى المجلس ، إلا إذا كان أكبر من ٣٠ سنة ، وهى السن التى يكاد فيها أن يكون مؤكدا زواجه . وحسب قول الخطيب دينارخوس (الفقرة ٧١) ، لم يكن مسموحا لأى شخص أن يتكلم فى البرلمان القومى ما لم ينجب ولدا شرعيا .

(٣) « غيرة المتنافسين ... الخ » : إن هذا الشعور استعمله الكيبيادس (٦ـ ١٦ ـ ٥) فى أحد اقتباساته الكثيرة من تعابير بركليس ، التى كان يقتبسها ويمدها بدون خجل ، استعمله كاعتذار عن الاستدانة ، من أجل سباق الخيل .

وإذا كان لى أن أقول لأولئك اللاتى ترملن كلمة عن قدرة النساء وواجباتهن ، فسأوجز كل نصيحتى فى جملة واحدة مختصرة . سيكون مجدكن عظيما إذا لم تقللن من مزايا كن الطبيعية — فأعظمهن هى من يكون مدحها أو ذمها ، أقل ذكراً على شفاه الرجال[1] .

(٤٦) قد تكلمت هذه الكلمات ، التى كان على أن أقولها كما ينص القانون ، كما قدمت القرابين التى يجب أن تقدم ، بجانب القبور فى وقتها الملائم . وستأخذ الدولة على عاتقها من الآن رعاية أطفالهم ، حتى يصيروا رجالا . هذا هو الغار الذى تكلل به الدولة موتاها ، وهذه هى العناية التى توليها لذويهم نظير ما قاسوا من أجلها من المصائب والمحن . فحيث تكون المكافأة عظيمة ، فإن خير المواطنين ، أيضاً ، هم الذين يناضلون من أجلها.

والآن وقد انتهيتم من تحييكم ، فليذهب كل إلى سبيله .

. . . .

وقد آن لنا أيضاً أن نذهب ، فقد لبثنا فى الميدان العام أطول مما ينبغى. ولنتبع هؤلاء الثكالى ، وهم يتفرقون ذاهبين إلى منازلهم المختلفة . ولنرقبهم وهم يواصلون مجرى حياتهم العادية . فهناك مآسى تنتظرنا أعنف من تلك التى شهدناها بين قبور الجنود . فهؤلاء عاشوا سعداء وماتوا سعداء ، وهم يحاربون أعداء أثينا . ولكن ، فى النضال الذى سنرقبه ان تجلب معركته فوزا ، ولا نصره غلبة . فالمعركة التى ستخوضها أثينا الآن ، ليست ضد اللاسيديمونيين ، أو أى عدو مسلح ، ولكن ضد العدو الجاثم فى حناياها ،

---

(١) « أقل لغطا » : أى أن النساء يجب أن يُرين ولا يُسمعن . هذه كانت نظرة القرن الخامس ، لأن نساء المواطنين لم يعتبرن مواطنات ، ولا حتى مقيمات أجنبيات . وقد سمح لهن بحضور هذا الاجتماع دون أن يكون لهن الحق فى ذلك .

ضد الشهوات والأطماع التي غذتها هي نفسها[١] . فهل سترحب بها بتمامها وتجتهد في أن تمدها بما تحتاج إليه ؟ أو هل ستحاول أن تتخلص منها ، خشية أن تفسد عليها أمرها ، وتعكر صفوها ؟ أو بينما هي تبحث عن طريق وسط ، هل ستنزل هذه العلل بمجدها إلى التراب ؟

---

(١) توكيديدس ، ٥–٩١ ، ἔστι δὲ οὐ πρὸς Λακεδαιμονίους ἡμῖν ὁ ἀγών: أسخيلوس، Ag. ، ٧١٧ – ٧١٨ .

الجزء الثالث

اقتصاديات

Φιλοκαλοῦμεν μετ' εὐτελείας.

إننا محبون للجمال في غير إسراف .

الفصل الأول

الفقـــــر

Il y a deux sortes de peuples pauvres : ceux que la dureté du gouvernement a rendu tels ; et ces gens-là sont incapables de presque aucune vertu, parce que leur pauvreté fait une partie de leur servitude: les autres ne sont pauvres que parce qu'ils ont dédaigné, ou parce qu'ils n'ont pas connu, les commodités de la vie; et ceux-ci peuvent faire de grandes choses, parce que cette pauvreté fait une partie de leur liberté. — Montesquieu, Esprit des Lois, Book XX, chap. 3.

الفقراء نوعان : من جرت قسوة الحكومة الفقر عليهم ، ويكادون ألا يكونوا أهلا لأية فضيلة ، لأن فقرهم جزء من عبوديتهم ؛ ومن هم فقراء لأنهم احتقروا متع الحياة ، أو لم يألفوها أبدا ، وهؤلاء يمكنهم الإتيان بأعمال جليلة ، لأن فقرهم جزء من حريتهم .
منتسكيو ، روح القوانين ، ٢٠ — ٣ .

τῇ Ἑλλάδι πενίη μὲν αἰεί κοτε σύντροφός ἐστι.
Herodotus, VII. 102.

هيلاس والفقر كانا ربيبان أبداً . هيرودوت ، ٧ — ١٠٢ .

من أهم الحقائق عن الحياة ، أن لا حياة للبشر ، دون طعام وملبس ومأوى . ويعتبرها معظم الرجال الآن أهم الحقائق كلها ، وينفقون معظم ساعات عمرهم القصير فى محاولة معالجتها . ولم يتفق معهم اليونانيون فى ذلك . لقد كان سخفا مبينا وغباء ، كما كان جليا ، أن يكون لهذه الحقيقة ، الأولوية على الحقائق الأخرى العظيمة اللامعة ، التى تكشف عنها الحياة لمن يبحث عنها . أما هم ، فواجهوها كما واجهوا سائر حقائق الحياة ، ووضعوها فى مكانها ، إلى جانبها جنبا لجنب . كما أطلقوا على اشتغالهم بها اسما ، عرفت به منذ ذلك الوقت ، فسموها « تدبير المنزل » ، أو « الاقتصاديات » .

« إن الاقتصاد السياسى أو الاقتصاديات » ، كما يقول أكبر علمائه الانجليز ،

هو « دراسة البشرية فى نواحى الحياة العادية ، فهو يبحث تلك الناحية من العمل الفردى والاجتماعى ، التى هى أوثق اتصالا بالحصول على المطالب المادية اللازمة لسعادة الإنسان ، واستغلالها»[1] . ويؤمن على ذلك إغريق القرن الخامس مع تحفظين . فلماذا أمور الحياة العادية ؟ أو ليس العمل الذى يؤدى للدولة ، كالتدرب والقتال وتولى مناصب القضاء ، أمورا عادية كذلك ؟ ولذا فهو يريد أن يستبدل « خاصة » ، بـ « عادية» . ولكن كلمة « خاصة » تبدو لذهنه فيها مغالاة بعض الشىء . لأنه يعلم كل العلم أن الرجل الذى يشتغل بالسياسة ويتجاهل شئون تدبير المنزل ، يظل على الأقل ، سلبيا واجتماعيا ، وإن كان قد يتعرض للجوع ، وأن الناس الذين يتجاهلون العالم من حولهم ، ولا يفكرون إلا فى جدرانهم الأربع ، خليقون أن ينحطوا إلى درجة الأنانية . والتحفظ الآخر يشير إلى حرف العطف (أو) فى كلمات الافتتاح، علم « الاقتصاد السياسى أو الاقتصاديات» : فأنت تستطيع أن تدبر منزلك بنفسك ، أو تساعد على إدارة اقتصاديات المدينة ، ولكنهما ليسا شيئا واحدا . فأحدهما يتصل بالعمل الفردى من أجل السعادة الفردية، والآخر يخص العمل الاجتماعى من أجل سعادة الحياة الاجتماعية . لا شك أن هناك صلة مباشرة بينهما ، حتى ليتداخل مجال كل فى الآخر . فأنت لن تشعر بالسعادة الفردية ، كما قال بركليس للأثينيين ، فى محاضرته عن الاقتصاديات ، إذا تفككت عرى الدولة ، ولن تحس السعادة الاجتماعية كاملة ، (رغم أنك قد تحقق بعضا منها) إذا كان الأفراد يقاسون . وخير لنا أن نتبع الطريقة اليونانية المألوفة ، فنبقى على مجالى النشاط منفصلين ، أى أن نتحدث عن الاقتصاديات أولا ، من حيث هى دراسة شئون الفرد ، ثم من حيث هى دراسة شئون الدولة ، وذلك طبقا لهدفها المزدوج وهو : الحصول على المطالب المادية اللازمة لسعادة الفرد ،

---

(١) الكلمات الافتتاحية فى كتاب مارشال ، Principles of Economics .

ولسعادة الجماعة ، واستغلالها[1] .

لقد عرفنا الأثيني مواطنا ، وآن لنا أن ندرسه كرجل يكسب رزقه . فلن نفهم أثينا القرن الخامس حتى نعرف المطالب المادية التي قامت عليها سعادتها ، ونرى كم ساعدتها أو عاقتها ، من أن تعيش حياة تتفق ومثلها العليا .

ولكن يجب مراعاة أمرين خطيرين ، قبل أن نسمح لخيالنا برسم هذه الصورة بالتفصيل .

ويخص الأول منهما ذلك الفقر المتغلغل في هذه الدنيا التي سنجوس خلالها دارسين شئونها ، إلى حد لا يمكن تصديقه .

إننا نتحدث عن اليونانيين كقادة للحضارة . وبدون وعى ننسب إليهم النعم ، ووسائل الراحة المادية ، التي شببنا نحن الحديثين على أن نعتبر الحضارة تقوم عليها ، وهو ما نحاول تلقينه للأسيويين والأفريقيين . وننسى بذلك أنهم كانوا براء من الكثير من هذا ، أكثر من اليونانيين الساكنين الجبال اليوم ، أو أكثر مما كان عليه معظم الانجليز قبل الانقلاب الصناعى. من السهل أن نتناسى السكك الحديدية ، والبرق والغاز، والشاى والإعلانات والموز. ولكن يجب أن نتخلى عن أكثر من هذا. يجب أن نتصور المنازل دون مجارى، والسرر بلا ملاءات أو لوالب .والغرف في برودة الجو ، أو في حرارته العادية ، ولكنها أكثر تيارات دوائيه ، ووجبات من صنف.

(١) توكيديدس ،٢ ــ ٦٠ (أنظر سوفوكليس ،أنتيجون،١٨٧ ــ ١٩١) . كان بركليس مغرما بأن يحاضر الأثينيين فى الاقتصاديات . أنظر حبلة المحاضر (σκέψασθε δέ) فى ١ ــ ١٤٣ ــ ٥ . لقد سمحوا له بتلك الحبلة ، لأنهم كانوا يعرفون عنه « الاستقامة » (χρημάτων κρείσσων) .إن كلمة ἰδιώτης أى «مواطن محدود القدرة» ، أو « رجل مرتبط نشاطه بقدرته الخاصة» ، غدت تدريجيا تدل على نفس المعنى الذى عناه بركليس بكلمة ἀχρεῖος أو «بلافائدة» ، أو رجل «غيراجتماعى» . وهذه العبارة تقابل كلمة « أثر » (egotist) أو « مجنون بحب نفسه » (monomaniac) عندنا . ولكن بينما كان اليونان يذمون المرء لجهله كل شيء ، إلا ما يخص أهل بيته ، فنحن عادة لا نذم الناس إلا لتجاهلهم لكل إنسان إلا أنفسهم .

واحد ، تبتدئ بالبودنج وتنتهى به ، ثم مدن دون نبلاء أو أصحاب ملايين تفخر بهم . ويجب أن نعرف الوقت دون ساعات ، ونعبر الأنهار دون قناطر ، ونجوب البحار دون بوصلة ، ونربط ملابسنا (أو بالأحرى القطعتين من القماش) بدبوسين ، بدل صفين من الأزرار ، وأن نلبس أحذيتنا أو نعالنا دون جوارب ، ونستدفىء حول جرة بها رماد ، وأن ننظر المسرحيات والقضايا فى الهواء الطلق ، فى صباح شتاء بارد ، وأن ندرس الشعر دون كتب ، والجغرافيا دون خرائط . والسياسة بلا جرائد . وجملة القول يجب أن نتعلم كيف نكون متحضرين دون رغد العيش ، أو بالأحرى ، أن نألف عشرة الناس الذين يفهمون من الراحة شيئاً مختلفاً كثيراً عن السيارات ، والمقاعد ذات المساند ، الذين رغم أنهم تعودوا أن يعيشوا ببساطة وزهد ، أو بسبب أنهم عاشوا على ذلك النحو ، وجلسوا على مائدة الحياة دون انتظار « الحلو » ، عرفوا الكثير مما فى الأشياء القليلة التى نعموا بها ، أى عقولهم وأجسادهم ، والطبيعة المحيطة بهم، عرفوا ما فيها من فائدة ومن جمال ، أو خير وفضيلة . فالأدب اليونانى ، مثل الأناجيل ، « يتعارض تماماً والنظرة الحديثه القائلة بأن المهم حقاً أن تكون مرفها . فالهناء الذى وعدت به الأناجيل » ، (والذى تمتع به اليونانيون سواء كان هو بعينه أو مختلفاً بعض الشىء) ، « والرغد الذى يسرته لنا المخترعات ، والوسائل الحديثة يختلف اختلاف المثل العليا»[1] .

---

(١) بركت (Burkitt) فى Essays on Some Biblical Questions of the Day ، (كمبردج، ١٩٠٩ ص ٢٠٨ — ٩) . ليطلع القارىء على قائمة متجر يبيع بالجملة ، ثم يسأل نفسه عن عدد الأشياء والأقسام ، التى كانت ممثلة فى العصور القديمة ، ثم يتدبر مدى ما يتضمنه هذا من الاقتصاد فى التفكير . فلم يكن بأثينا حى راق أو خاص ، للطبقة الغنية ، أو على الأقل إننا لا نعرف شيئاً عن ذلك . وأناقة الملبس اليونانى يجب ألا تحجب عنا حقيقة بساطته المتناهية ، فهو لباس لا يرتفع غير درجة واحدة ، عن أبسط أنواع الملابس كافة، أى جلد الحيوان . وقد كانت الملابس الداخلية للرجال والنساء (الخيتون χιτών) ، مجرد « قطعة من القماش مستطيلة » أطول من قامة لابسها بقدم ، وأعرض مرتين أى ضعف المسافة بين مرفقيه المبسوطتين ، وتثبت بدبوس على كل من كتفيه . أما اللباس الخارجى فهو الهاتيون =

هذه البيئة اليونانية القديمة الفقيرة ، الخالية من الرفاهية ، التى تتطلب تدبيراً اقتصاديا يقظا ، فى مثل هذه التنظيمات الاجتماعية الصغيرة ، تظهر لنا بأجلى ما يكون فى أشخاص روايات « ثيوفراستوس » . وهى نماذج مأخوذة عن الحياة الأثينية فى القرن الرابع ، عندما عاش الناس فى ترف أكثر مما كان عليه أجدادهم فى القرن الخامس ، وهو ما أسف له ديموستنيز. فهنا نرى أن الأثينى يتأهب إلى عمله اليومى وقد تزاحمت عليه مخاوفه التافهة ، والهموم التى تساوره . وأكثر ما يسترعى انتباه القارىء الحديث فى الحياة التى وضحت على هذا النحو ، ما يصفه جب (Jebb) بلباقة ، بأنه « سذاجة

= (ἱμάτιον) ، وكان أطول وأعرض من اللباس الداخلى قليلا ، إلا إنه لم يكن مثبتا إطلاقا . ولذا كان من الممكن أن يلبس على أشكال شتى ، فأحيانا كان يوضع على الرأس إذا لزم الأمر . (« وكان من النادر الشاذ أن يشكل الرداء اليونانى بما يناسب جسم الشخص الذى يلبسه ، أو يطابقه تماماً » أنظر C.H. Young فى American Journal of Archaeology ، الجزء الرابع ، ص ١٦٨ ، بعد تجارب أجراها على عدة نماذج) . فالملبس إذن ، كان عملية بسيطة ، وهو ما يمكن معرفته من هومر (مثلا الإلياذة ، ٢ — ٤٢) . أنظر أبراهام فى كتابه « Greek Dress » ، (لندن ، ١٩٠٨) وهو مزود بالأشكال والصور. وسكان الشرق الأدنى مازالوا يفضلون (بحكم الجو) المعاطف بدون أكمام ، وتلبس بوضعها غير مثبتة على الظهر وتترك الأذرع حرة ، أو يلفها حول الجسم كله فى غير تضييق . ولا يلبس اليونانى لباسا للرأس إلا فى الحرب أو فى الرحلات والأسفار . أما عن عدم متانة بيوت اليونان ، فانظر كيف حفر أهل بلاتيا الجوانب المشتركة لمعظم بيوتهم فى فترة لا تتجاوز النصف الأخير من ليلة واحدة ، دون أن يدرك ذلك أحد من الشارع ، (توكيديدس ، ٢ — ٣ — ٣) ، وعلى طريقة اليابانيين ، نقلوا الأجر والأخشاب قبيل الغزو البلوبونيزى فى عام ٤٣١ ، ثم نهبه (البيوتيون) فى الحرب الدسيلية (توكيديدس ، ٢ — ١٤ ، ٧ — ٢٧ — ٥ ثم Hellenica Oxyrhynchia ، ١٢ — ٤) . فالبيوت اليونانية كانت تبنى باللبن ، وكذلك كانت معابدهم الأولى (كما لا يزال ملحوظا فى بقايا الهيرايوم فى أوليمبيا) . وهذا هو السبب فى ضرورة بناء « فراندا » ذات أعمدة (أو دهليز من الأعمدة) لوقايتهم من تقلبات الجو . وكانت المبانى العامة وحدها هى التى تبنى من كتل الأحجار الكبيرة ، أو قطع الرخام ، الأمر المألوف لنا . أما فيما يخص ما يحويه غرفة نوم غنية مريحة فى القرن الخامس فى أثينا ، فانظر قائمة الكيبيادس لأثاث غرفة النوم (هيكس وهيل رقم ٧٢ ، وأكملت بما نشر فى Austrian Jahreshefte ، الجزء السادس ، ص ٢٣٦ وما بعدها) . هذه الغرفة تضم كل شىء ، من السيور الجلدية التى تقوم مقام اللولب البدائى للحشايا ، إلى أوانى العطور على منضدة الليس ، والحصير المصنوعة من السمار ، المفروشة على الأرض . إلا أن تلك القائمة ليست بالقائمة الرائعة ، فليست هناك أية إشارة إلى أدوات الغسيل — دورة مياه — أنظر ص ٤٩ فيما سبق . (أنظر التذييل) .

صريحة » . فالأشخاص جميعهم سذج غير متكلفين للغاية ، والبعض منهم « محدود الذكاء ، صغار النفوس بشكل لا يتصور . فهم يتشاجرون مثلا على ما يعيره بعضهم البعض من « ملح الطعام ، أو ذبالة المسرجة ، أو بعض الكمون أو عصير الحصرم ، أو أكلة قربان ، أو زهر أو كعك » . وإذا ما أقيم فى منزل أحدهم احتفال عام ، وأعدوا لذلك غذاء « كانوا يخفون شيئاً من خشب الوقود والعدس والخل والملح وزيت المسارج » ، مما كان تحت تصرفهم فى مثل هذه المناسبات . وإذا فقدت إحدى نسائهم « قطعة صغيرة من ذوات الثلاث فارذنج ، نقلوا كل الأثاث والسرر والأصونة ، وأخذوا يبحثون عنها فى الستائر » . ويستعملون فى وزن مؤونة منازلهم ، مقياساً قاعه مرتفع من الداخل . وإذا ما أرسلوا معطفهم الوحيد للتنظيف، فإنهم يستعيرون معطف جارهم ويرفضون رده . وبيننا نحن أيضاً « الرجل الطماع » و « الرجل البخيل » ، وإن كانا لا ينزلان فى المعتاد إلى هذا المستوى. والفرق بين ثيوفراستوس ، وقصصنا التى نتندر بها عن أهل اسكوتلندا ، من أنهم يقترضون الكبريت ليوفروا ما عندهم ، أو يضنون بدفع مليم واحد زيادة على تكاليف برقية هامة ، الفرق فى أن شخصيات ثيوفراستوس منقولة عن الحياة ، أو تكاد تكون طبق الأصل ، دون مبالغة أو إسراف[1] .

إن موازنة بسيطة قد تعمل على زيادة توضيح تلك النقطة . فلا فائدة من أن نحاول إيجاد صلة بين مصادر أثينا ، وبين مصادر أى مجتمع من مجتمعاتنا الحديثة ، فالتفاوت كبير للغاية . ولكن ثمة شبه واحد واضح ، يرجع إلى القرون الوسطى . فلم تكن أثينا غنية كالبندقية ، ولا حتى على ثراء يقرب ثراءها ، وهى الدولة التى ظلت طوال التاريخ تشبهها كل الشبه . فقد

---

(١) ثيوفراستوس طبعة جب (Jebb) ، ١٩٠٩ ص ٤ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٥ . افترض أن القطعة ذات الثلاث « فارذنج » قد ضاعت فى غرفة النوم ، كما تدل عليه التفاصيل. قارن أمثولة ضياع القطعة الفضية (Luke ، ١٥ ــ ٨ إلى ١٠) .

بنت البندقية بما فيها من أربعين ألف شاب ، قصر القديس مرقص ، وقصر الدوج وغيرهما من آثار عظمتها التى لا تنسى . وكان ذلك من أرباح تجارتها وصناعتها . إذ لم تأخذ كأثينا ،جزية من المدن الواقعة فى دائرة نفوذها ، والتى تسيطر عليها ،وتقع على خط واحد يمتد من البحر الإدرياتيك وحول اليونان، إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى وسوريا . وسنرى فيما يلى كم دفعت أثينا غالياً ، لإخفاقها فى أن تعمل المثل ، وذلك لعجزها عن أن تضع عظمتها على أساس التجارة الثابت[١] .

فالمالية اليونانية كانت فى الحقيقة مالية محدودة ، وتكاد تكون صبيانية فى طرقها . فالدول اليونانية لم تتجاوز كثيرا ، مرتبة التلميذ الصغير الذى يرى فى كل قرش يأتيه خيراً هبط عليه من السماء ، ويصرفه بفرح عظيم دون تفكير فى الغد . فأول ، بل أوضح واجب فى الإدارة المالية فى الدولة الحديثة ، هو عرض الميزانية على البرلمان والموافقة عليها . ولا شأن للميزانية بالتأكيد ، بالأموال التى دخلت خزانة الدولة ، وصرفت فى الماضى، بل هى تختص بتقدير نفقات السنة القادمة ، وتتضمن تقدير مجموع الدخل المنتظر من كل الموارد . أما البرلمانات اليونانية فلم تعرض عليها ميزانية إطلاقا . وكل ما كانوا يفعلونه هو مناقشة الموافقة على مبالغ من المال تعرض عليها حينما تدعو الضرورة ، ويقررون فى كل حالة من أى باب أتت النقود . وقد يودعون إيراد الدولة خزانتين ، أو ثلاث أو ست خزانات مختلفة ، تديرها لجان مختلفة . وفى ديلوس حيث مكنتنا النقوش من دراسة الإدارة المالية بالتفصيل ، لا تخرج هذه الخزانات عن كونها عدة جرار ، على كل واحدة رقعة مكتوب عليها من أى مصدر جىء بما بها من نقود ، ولأى غرض خصصت . وعلى هذا النحو كانت تصرف الأمور من سنة إلى

---

(١) التفاصيل فى Cambridge Modern History ، الجزء الأول ص ٢٥٥ إلى ٢٥٧، كتبها هوراشيو براون(Horatio Brown). إذن فكلام « وورد زورث » لم يكن صحيحا كل الصحة، عند ما تحدث عن البندقية كما لو كانت قد « جعلت الشرق العظيم فى قبضة يدها » .

أخرى . ولم تبذل أية محاولة لتقدير المصروفات المحتملة سلفاً ، إذ لم يكن هناك أي خبير ، ولا سلطة دائمة للقيام بهذا . وكان الإجراء المعتاد ، هو موازنة مصاريف السنة وإيراداتها ، ثم يوزع الزائد على المواطنين (إلا إذا كانت الأموال مقدسة) . وعندما اكتشف فى لاوريون عام ٤٨٣ ، مناجم قيمة للفضة ، لاقى تيميستوكليس كثيراً من العناء فى إقناع الأثينيين ، بإنشاء أسطول بهذا الدخل ، بدلا من تقسيمه فيما بينهم بقدر عشرة درخمات لكل شخص . أما الاسبرطيون ، فكما هو متوقع ، كانوا لا يزالون أكثر بدائية فى أفكارهم . فعندما أغرتهم كورنث بدخول الحرب الكبرى مع أثينا ، وكانت حرباً قدر لها ، أن تستمر زمناً طويلا ، وأن تحتاج إلى سفن ورجال ، « لم يكن عندهم أية موارد ، خاصة كانت أو عامة » ، لسد هذه التكاليف . فخزانتهم خاوية ، وما من وسيلة لملئها . ولذا أخذوا يتكلمون كلاماً مبهما عن الحصول على مساعدة من خزينة دلف وأولمبيا ، (هذه المساعدة التى أدركوا تماما ، أن ليس لديهم الشجاعة الكافية لاستغلالها) ، وعن تكليف الكورنثيين بناء السفن اللازمة لهم . أما كورنث فلم تكن غنية إلا على نحو نسبي للغاية . وفى عهد بركليس ، المالى الذى كان يحتفظ دائما باحتياطى يعمل به ، لم يكن فى أثينا فى أى وقت أكثر من ١٠٠٠٠ تالنت (٢ مليون ، ٥٠٠ ألف جنيه ، أى حوالى ١٢ مليون جنيه قوة شرائية) ، وهو ما بدا لها ثروة محفوظة فى الأكروبول ، لا يهددها فناء . ويجب أن نتذكر أن ذلك لم يكن رأس مال كبير فحسب ، ولكن من المحتمل أنه كان أكثر من ثروات الأهالى الخاصة كلها مجتمعة . وحين أنفقتها أفلست ، لأنها لم تستطع أن تعقد قرضاً كما تفعل أصغر دولة حديثة ، به تستعين على مواصلة الحياة ، إذ لم يكن قد ظهر بعد الماليون الدوليون[1] .

---

(١) إن أفيد النصوص عن المالية القديمة هو « اقتصاديات أرسطو » ، الكتاب الثانى (وقد كتب عليه الآن ريتزلر (Riezler) تعليقا بارعاً فى Über Finanzen und Monopole im alten Griechenland ، برلين ، ١٩٠٧) . وبعض القصص التى تتحدث عن « مهارة الحصول على المال » ، ترجع بذاكرتنا إلى أيامنا المدرسية . فالتلاميذ لم يجهلوا بيع كتبهم القديمة ، ليشتروا =

كل ذلك يساعد على تذكيرنا — وهو ما ينسينا إياه دائماً الفن والأدب اليونانيان ، وتخيلاتنا الخداعة أيضاً — بأن الرواد الذين خلقوا حضارتنا الأوربية ، ملك الفقر عليهم حياتهم . وفى كل ماقدموه لنا ، وكل ما أرادوا وحاولوا عمله ، كانوا إنما يجاهدون بقوتهم البشرية الضئيلة وحدها ، فى سبيل مثاليتهم ، القوى المادية التى لم يستطيعوا السيطرة عليها ، ولا فهمها . فإذا ما اندفعنا نلومهم على ما تركوه دون إنجاز ، فلنذكر الجسارة والمرح والقدرة على الاحتمال ، تلك الصفات التى يتميز بها الفقراء ، والتى مكنتهم من متابعة هذا النضال غير المتكافىء . إذن فليس لنا أن نطالبهم بأكثر من ذلك ، وإلا فسيردون علينا بما لا يرضينا ، كما فعل الأندريانيون (Andrians) القدماء . فعندما حاصر الأثينيون جزيرتهم الصخرية . وطالبوهم بمبالغ كبيرة ، أجاب أهل الجزيرة كما يقول هيرودوت : « لقد كان الأثينيون عن جدارة ، عظماء موفقين ، وقد باركتهم وأسبغت عليهم نعماءها آلهة رحيمة . فبما أن أهل جزيرة أندروس ، مهما كانت الأحوال ، فقراء فيما يملكون من أرض ، وقد بلغوا من الفاقة أقصاها ، ولم تغادر جزيرتهم يوماً آلهتان لا خير فيهما ، الفقر والاستحالة ، بل أحبتا السكنى فيها أبدا ، وبذا فإن الأندريانيين ، وهم

= بأعانها كتبا جديدة . وقد يعطى هذا مثلا لكثير من استنتاجات المؤلف ، وهى تعتمد بالتأكيد على « دخول السفينة » . تيميستوكليس : هيرودوت ، ٧ — ١٤٤ ثم Ath. Pol. ، ٢٢ — ٧ . إن اكتشاف منجم مارونيا (Maronea) فى لاوريون قد غير كل شىء بالنسبة لأثينا . المالية الاسبرطية ، توكيديدس ، ١ — ١٤١ ، ١٢١ — ١٣ أنظر أرسطو ، السياسة ، ١٢٧١ ب ١١ : « إنهم لا يملكون نقودا فى خزائنهم ، ولا يدفعون الضرائب بسهولة ») ، ولم يكن عندهم وزراء المالية . وكانوا يلجأون إلى طرق بدائية صبيانية للاتصال بموظفيهم فى الجهات البعيدة . وفيما يتعلق بالبطاقات المدلاة من أذن الإناء (إتيكيت) عند اليونان ، من حيث أنها تقابل عمل الميزانيـة ، أنظر فرانسكوت فى ، Les Finances des cités grecques (١٩٠٩) ، ص ١٢٣ وما يليها ، الذى يبدو أنه لم يفطن إلى أن حكومة الولايات المتحدة ، كانت لاتزال وقتئذ تعمل بدون ميزانية . أنظر توكيديدس ، ٦ — ٤٦ — ٣ فيما يخص طبيعة موارد إجستا (Egesta) الظاهرة . ويبدو أن كان نظام الملك مينوس فى الأزمنة السابقة على ذلك شبيها بتلك الحالة . كما يتضح من « المخازن » المكتشفة تحت الأرض فى كنوسوس وفايستوس ، أما توكيديدس فكان ينظر دائماً إلى الثروات العامة والخاصة معا عندما يحسب الثروة الأهلية ، مثل ٦ — ٣١ — ٥ .

فى ظل هاتين الإلهتين ، لن يعطوهم شيئا » . وهذا ما قد يرد به الأثينيون علينا ، إذ كان «الفقر » و « الاستحالة » قدراً لازم أثينا من البداية إلى النهاية . فمن عظمة رجالها الخالدة ، رغم كونهم أثقب نظراً من أن يأبهوا بهما ، أنهم رفضوا بإباء أن يخضعوا عقلا وجسدا ، لهذا الاستبداد الدنىء ، الذى فرضناه على الجزء الأكبر من بنى الإنسان[1] .

---

(١) هيرودوت ، ٨ — ١١١ ثم ٧ — ١٠٢ .

الفصل الثانى

العادات والتقاليد

Οἱ μὲν γὰρ τῶν τε νόμων σοφώτεροι βούλονται φαίνεσθαι . . . ὡς ἐν ἄλλοις μείζοσιν οὐκ ἂν δηλώσαντες τὴν γνώμην . . . καὶ μὴ ἐν ᾧ ἡ πόλις βραχέα ἡσθεῖσα μεγάλα ζημιώσεται.

يسعى بعض الرجال دائماً إلى أن يكونوا راديكاليين ، فى اتجاه خطأ ، من ميادين النشاط . دعهم يستعملون عقولهم للوصول إلى غايات أسمى وأبق ، لا إلى ترضية قصيرة الأمد تدفع فيها الجماعة ثمناً غالياً .

توكيديدس ، ٣ — ٣٧ ، ٤٠ .

كان اليونانيون ، كما رأينا ، أفقر منا بكثير ، كما عاشوا حياة أبعد بساطة من حياتنا . وطبيعى أن يترتب على هذا الاختلاف الأساسى فى المحيط المادى ، وفى الممتلكات ، اختلاف فى الفكر والمشاعر والخيال . فالناس الذين يحيون حياة مختلفة ، يفكرون تفكيراً مختلفاً فى شئون الحياة عامة ، وفى أمور المال والاقتصاد خاصة . هذه النقطة الأخيرة ، أى موقف اليونانيين من الشئون الاقتصادية ، هى التى نريد أن نبحثها . ولنبدأ مناقشتنا هذه المرة مع الفلاسفة لا مع الرجل العادى .

إن المفكرين الحديثين ، كالمفكرين اليونانيين ، مغرمون بتخيل المدن الفاضلة أو « الطوبيات » . ولكن المجتمع المثالى الذى يلذ لهم أن يصوروه لنا ، يختلف عادة كل الاختلاف ، عن ذلك الذى أولع الخيال اليونانى بتصويره . فهو عالم نظيف مزين ، مرتب ، ملىء بكل وسائل الراحة التى يمكن أن يخترعها العلم الحديث . اتخذت فيه أسباب الوقاية من كل الأمراض

المعرض المرء للإصابة بها ، عالم انعدمت فيه المسافات ، قضى فيه على المرض ، أو اتخذت فيه أسباب الوقاية منه ، بحثت فيه أسباب الفقر والعوز ، وعرفت أصولها ، ضمن فيه لكل مواطن عمل دائم ، كما ضمن فيه لكل إنسان حد أدنى من الراحة ، اللهم إلا لمن لا يستحق . وما من شيء أكثر يقينا من أن معالم مجتمع كهذا ، لن تسترعي ، مهما كانت ، اهتمام أحد من مفكري اليونان القدامى ، وأن المواطن اليوناني العادي سيحس القلق ، والحنين إلى الوطن وعدم الارتياح ، إذا ما سكن هذا المجتمع . فلا مرور الزمن ، ولا ازدياد التعود على ما يحيط به ، يمكنانه من أن يلقى ماثلا أمامه ، ما اعتاده في بيته القديم ، المفتقر إلى التسلية ، أي هذا النوع من السعادة أو الغبطة (εὐδαιμονία) الذي صوره له مفكروه ، على أنه الهدف الذي يجب أن يصبوا الناس إليه في النظام الاجتماعي .

فما سبب هذ الاختلاف في وجهة النظر ؟ كما سنرى ، يرجع هذا على الأقل إلى سبب واحد اقتصادي . وإلى هذا يرجع ابتعادنا قليلا عن مجال البحث الذي اقترحناه الآن . فمفكرينا — إذا ما استعرضناهم — لم يأتوا بمثل أعلى للسعادة يفوق ما نشده اليونانيون القدماء . فهم يذهبون كما ذهب أفلاطون وأرسطو ، إلى أن هدف رجل السياسة والمفكر السياسي ، هو خلق حالة من الوعي لا وضع تنظيم ، وأن غرضهم الأسمى لا يعنى بالمادة وإنما بالروح . ولكن التغييرات والتعقيدات في الحيـــاة الحديثة أدت إلى مشاكل مادية مهمة عديدة ، حتى أنهم رأوا أنه من الصعوبة قصر اهتمامهم على هذا الغرض الأعلى . فهم على مر الساعات والأيام مضطرين إلى اتخاذ بعض الفروض العملية ، التي ارتآها المشتغلون بالنواحي الاجتماعية في الجيل الماضي غاية قصوى ، وإلى أن يرتضوا العقائد والنظريات التي تيسر حلا للصعوبات الملحة القائمة اليوم ، تاركين المشاكل الأساسية في الحياة الاجتماعية أبعد ما تكون عن الحل . فنحن نعيش في عصر تقدم اقتصادي ليس له مثيل ، فالعلم الطبيعي وكثرة الصناعات ، والنظم التي أدى إليها العلم الطبيعي جذبت ، وهو الأمر الطبيعي الوحيد ، أحسن العقول وأنشطها في عصرنا .

ومازال مفكرونا متأثرين تماماً ، بل حيارى ، بالإمكانيات التى وضعت أمامهم ، حتى أنهم لم يسترجعوا بعد ثبات نظرتهم . وهم لم ينجحوا بعد فى ترويض تفكيرهم على أن الثروة والتنظيم ليسا غايتين فى نفسهما ، وأنه من الممكن لجماعة ما ، أن تزيد من سعادتها ورفاهيتها الحقيقية ، بكل خطوة تخطوها نحو الرخاء المادى والتنظيم .

لقد عاش الفكر اليونانى فى محيط أبسط وأكثر حرية ، ولم يضطر اليونانيون إلى التعمق المضنى فى بحث مشكلة بعد أخرى ، من مشكلات التنظيم المادى ، قبل وصولهم إلى مستوى التأمل الاجتماعى الغالى . ولما أرادوا بحث المجتمع الكامل ، أو بالأحرى الحياة المثلى للكائنات البشرية فى المجتمع ، لم يكن عليهم أولا البت فى مشاكل عملية مثل : هل تدير المدينة شئون الغاز والترام ، أو تديرها جماعات خاصة من المواطنين ، أو ما يجب أن تكون عليه النسبة بين نظام الضرائب المباشرة وغير المباشرة . « فطوبياتهم » ، أى مدنهم الفاضلة ، ما كانت لتعتمد على غاز أو ترام . وبذلك تفادوا ، هم ومفكروهم ، جميع المشاغل التى يتطلبها مثل هذا الترف . فقد استطاعوا أن يضعوا جانبا ، مشاكل النظام المادى الحديث المعروفة ، لعدم تلاؤمها ، وأن يحصروا كامل انتباههم فى « أهم الأشياء التى يصادفونها فى الحياة — أى فى بنى الإنسان » . ولذا فقد أطالوا بحث بعض موضوعات مثل : كيف تكفل علاقة صحيحة بين الجنسين ، أو كيف يبلغ الفنان مكانه اللائق به فى المجتمع ، وتأثير المهنة فى أخلاق الشخص ، أو تأثير البيئة والقدوة فى الصغار . وكانوا يناقشون تلك الموضوعات بحكمة أحيانا ، ودون ترو أحيانا أخرى ، ولكن بقوة وإخلاص دائماً . وبما أن المشكلات البشرية هى وحدها التى لا تفقد جدتها أبدا ، فما زال تفكير اليونانيين فى تلك النواحى نافعاً يسترعى انتباهنا . فلو لم يتناول أفلاطون فى جمهوريته « شيوعية » الأزواج والزوجات ، وناقش بدلا عنها تأميم تجارة أيجينيا ، فمن يستطيع القول بأننا كنا سننتفع بهذا التغيير ؟

وبعبارة أدق ، لم يكن هناك طبعا ما يعرف بمشكلة التنظيم المادى . والمشاكل المختلفة من الغاز والترام ، إلى التعليم وحقوق المرأة ، كلها مشاكل بشرية متصلة بالبشر أكثر منها بالأشياء . ولن يكون للفوائد والمصروفات أهمية ما ، إذا لم يوجد من يستفيد منها وبها ، ولكن كثيراً ما يعمل الناس ، وكأنهم نسوا هذه الحقيقة الأولية كل النسيان . فلماذا يكون ذلك ؟

وهنا نصل إلى مشكلة أخرى من خصائص العصر الحديث ، أعنى منها المفكرون اليونانيون . وتلك هى اتساع العالم الحديث فى مقاييسه ومداه ، واتساع المجال الذى يجول فيه رجال الفكر الحديثين . فما بدا لأفلاطون وأرسطو من مشاكل حياة المدينة ، المحصورة بين الأسوار التى عاشوا فيها ، انتقل الآن إلى محيط أوسع وأعقد بالنسبة للمفكرين الحديثين ، هو محيط القومية والدولية . وبمعنى آخر أن هذه المشكلات لم تزد وتتسع فقط ، بل أنها بهذا قد تغيرت فى خصائصها ومميزاتها . فقد فقدت لونها ووضوحها الأول ، وغدت غامضة مبهمة مجهولة .

وهذا الغموض الذى اكتنف العالم ، الذى اضطرت أن تجول فيه أفكارهم ، هو الذى أغرى المفكرين السياسيين فى العصر الحديث ، أن يقفوا درجة دون الحقيقة ، ليفكروا فى كنه الأشياء ، بدلا من أن يعودوا بالمشكلة إلى الوراء ، ويفكروا فى شئون بنى الانسان . فعندما يناقش مدير التعليم مثلا أمور التربية ، يميل إلى أن يتجه بتفكيره إلى الأدراج والسبورات ، والأجهزة والمبانى الحديثة ، ومهايا المدرسين ، أكثر من الاتجاه إلى الأطفال والمدرسين . أو هو يفكر فى الأطفال والمدرسين ، لا من حيث هم أفراد أحياء ، بل من حيث هم جمع من المواد الآدمية ، أو كأنهم « حالات » مدونة فى صفحات المفكرة اليومية ، أو كأنهم مجاميع حسابية . ولم يكن اليونانيون ، على هذا النحو ، فى خطر من انقطاع صلتهم بدنيا الأحياء . فمناقشاتهم الاجتماعية لم تتجاوز مطلقا الحدود الطبيعية لمشاعرهم وعواطفهم . لقد كانت دائما متجددة ، وحية

وشخصية ، يحوطها أبدا الشعور بالحقيقة ، الذى ينبع من علاقة وثيقة ظاهرة بين العقل ومادة تفكيره .

وقد آن لنا أن نستنتج ما هدف إليه هذا الاستطراد . فهذا الاختلاف فى كيفية تفكير اليونانيين وتفكيرنا الحديث ، لا يعزى إلى مجرد عمق نظرة المفكرين اليونان، ولا إلى أفضلية الجمهور الذى خاطبوه ، وكتبوا له ، إنما يرجع جزئياً، إن لم يكن جوهرياً إلى حالة المجتمع الذى عاشوا فيه ، وإلى ظروف الحياة اليومية التى مكنت الفكر اليونانى من تناول مشكلات البشر بحرية ، وعلى نحو طبيعى . « فغذاء الفكر اليونانى كان على النقيض التام لغذائنا . فقد علمتنا ظروفنا ألا نرى فى أى انقلاب فى الوسائل الاقتصادية ، والنظام الاقتصادى ، أمراً بعيدا عن التصديق ، فعقولنا تفكر بانطلاق فى احتمالات كانت لتبدو لفلاسفة الأكاديمية على أنها إسراف زائد ، أما أمام الوسائل السياسية — الاجتماعية ، فيقصر دونها تفكيرنا » . فحين حلق المفكرون اليونانيون بخيالهم فيما يخص الرجل والمرأة ، لم يسعهم إلا أن يثبتوا أقدامهم فى الأرض اليونانية الصالحة . وبينما تبدو لنا اسبرطة ، وما توحى به من انقلاب فى الحياة البشرية والعادات ، أمرا بعيداً عن التصديق ، حتى رغم شواهد التاريخ ، فإن « تحرك سيارة فى الأجورا » ، هو ما كان ليبدو بعيدا عن تصور الرجال ، الذين فكروا بجرأة فى شيوعية الزوجات والأطفال.

يكاد يستحيل علينا أن نعود بخيالنا ، لنتصور ما كان عليه العالم اليونانى القديم ، هذا العالم الذى انقضى إلى الأبد ، من هدوء غريب ومحافظة ، لنتصور مجتمعاً متحضراً خلا تماما ، مما فى عالمنا اليوم من توتر وسرعة وتعقيد ، وتغير مستمر ، « وتقدم » . ومع ذلك فهذا هو ما يجب علينا ، إذا أردنا أن نضع أنفسنا فى موضع ييسر لنا فهم الأسس الاقتصادية للجماعة اليونانية . يجب أن نرجع إلى ماقبل الانقلاب الصناعى ، الذى غير حياة الناس العاديين اليومية تغييراً أعمق من أى تغيير وقع فى التاريخ ، إلى ما قبل الإنتاج على نطاق واسع ، وما قبل ظهور الآلات ، وتزايد المخترعات والعمليات الحديثة،

إلى عالم منعزل مستقر ، لم تعرف فيه المنافسة ولا البطالة بعد ، حيث لا يعمل إنسان ما ، وهو خائف قلق على أجره أو مرتبه ، إلا نادراً ، حيث تنحدر الحياة من جيل إلى جيل ، ومن قرن إلى قرن ، دون ما تغيير واضح ، أو رغبة ظاهرة فى التغيير . فالنساء اللواتى راقبهن المسيح يدرن الطواحين فى الناصرة ، كن خليفات عائلات أخرى لا حصر لها ، وسلالات عديدة من نساء منهوكات القوى قمن بنفس العمل دون كلمة تذمر ، أو أمل فى الخلاص . وإن بنتاً ذكية فى مصانع لنكشير (بفرض أنها متأكدة من دوام عملها) ، لن تتحمل مثل هذه الحياة يوماً واحدا ، دون أن توجه ذكاءها إلى التفكير فى تدبير وسيلة توفر عليها كثيرا من عناء العمل . ولكن أثينى القرن الخامس ذا الروح العالية ، المستعد لنقد كل شىء بشريا كان أو مقدساً ، جدف بذلك المجداف الخشن فى سفينة دولته ، دون أن يفكر فى نقد أو حتى إصلاح[1] .

---

(١) إنى أدين بكثير مما ذكرت فى هذه الصفحة إلى ولز (Wells) فى A Modern Utopia، ص ٩٨ ، الذى كتب أسمى الطوبيات فى العصر الحالى ، لأنه أطلق لخياله العنان فى نتائج الآلات فى كتاباته الأولى . والواقع أن رجل القرن العشرين قد انتهى تأثره بأحلام التقدم الآلى . فيجب أن نذهب إلى الهند أو تركيا أو بلاد مراكش لنرى الناس يعرفون الجرامفون والسينما ويقدرونها تماما . وسيطرة العالم على الهواء أصبحت أمراً لا يستثير العجب ، بينما الحوادث البشرية ، مثل موت إحدى الشخصيات المعروفة ، أو لحظة خطر قومى ، لا تزال تثير الشعور العام إثارة عنيفة ، كما كانت تثيره فى القديم ، والسبب فى ذلك لا يرجع إلى أن خيالنا قد جمد ، وصار لا يتأثر كما ينبغى ، ولكننا نعرف حق المعرفة ، أن هذه الاختراعات ليست لها كبير أثر فى حياتنا ، وكل اختراع منها أقل أثرا من سابقه . « فالخطوة الأولى » فى هذه النواحى ، « هى التى لها تأثيرها » . فمثلا أول مصباح زيتى أضاء الظلام ، لأكبر أثراً من أحدث مصباح كهربائى . كذلك البريد الحكومى الأول البطىء غير المنتظم ، أكبر أثرا من طابع البريد ذى القرش الواحد ، أو التليفون الرخيص . وأول مركب تجارى ذو الجلبة ، لأكبر أثرا من المراكب التجارية ذات المحركات ، أو المناطيد . وقد كان جيمس وات وجورج ستيفنسن (Stephenson) مخترعين أعظم من بولهان (Paulhan) وبليريوت (Blériot) ، كما كان بروميثيوس (Prometheus) أعظم من ستيفنسن ووات . أنظر الفصل الممتع عن « Le Nivellement des Jouissances » ، الذى كتبه d' Avenel فى مؤلفه Découvertes d'histoire sociale، باريس ، ١٩١٠ ، ص ١٢٠٠ — ١٩١٠ . وقد حال جراهام والاس تلك المسألة على نحو حاسم فى كتابه The Great Society : a psychological analysis ، لندن ، ١٩١٤ .

وعلى هذا يجب أن نعود أنفسنا ، على الحياة فى بيئة مختلفة ، وحسب مقاييس مختلفة ، ويجب أن نتخذ شعارنا الاقتصادى لا « التقدم » ، إنما « الاستقرار » . ويجب أن نتبع « العادة والعرف » لا « المودة » ، إذا كنا منتجين وتجاراً . ويجب أن نذكر أن مدينتنا عاشت قرونا فى نوع خاص من العزلة عزيز ، وذلك منذ الأيام الأولى لهجرات ما قبل التاريخ ، حتى أنها تعلمت منذ ذلك الوقت أن تفخر بأنها تكفى نفسها بنفسها ، وأن تقوم على حاجات نفسها الخاصة ، أوتسد مطالبها من الترف ، وأن تعمل كل شىء على طريقتها الخاصة ، فلها طرقها فى تشكيل أوانى الفخار وتلوينها ، وزيها فى الملابس والأحذية ، ولها مأكولاتها ومشروباتها التقليدية ، ومدرستها الخاصة فى الفن والصناعة ، كما لها لهجتها الخاصة وأسلوبها فى كتابتها ، ولها آلهتها ونظمها أيضاً . وفى الواقع ، هى فى نفسها عالم صغير . فإذا أردت الاتجار معها ، فلا تأتى لها ببضاعة العالم الكبير ، وتنتظر منها أن ترحب بها ، بل اجتهد أن تراعى مزاجها الخاص ، وترى ذوقها التقليدى . وكما لن يرى التاجر فى تركيا اليوم ، حيث بدأت تنهار حدود العزلة القديمة ، من مدينتين متشابهتين ، فدمشق عالم بعيد كل البعد عن حلب ، وسمسون تباين طرابزون ، فكذلك أثينا وطيبة ، أرجوس وكورنث ، كلها لها ذوقها ونظمها ، تتغير وتتجدد ، أو تظل على قدمها حسب تاريخها وتقاليدها . حتى اسبرطة الجامدة كان لها أوانيها ، وأحذيتها ، وحساؤها الأسود الخاص بها [1].

---

(١) إن الخزف المسمى بالخزف القورينائى Cyrenaic أصبح يعرف الآن ، باسم الفخار اللاكونى ، من الجمائر التى قامت بها المدرسة البريطانية . ومن أغرب الأمثلة على روح المحافظة عند اليونان فى الأشياء الصغيرة ، ما زال ملاحظته ممكنا على مدخل البروبيليا ، فقوائم كتف الباب كانت حسب التقاليد تصنع من الخشب ، فكان يجب أن تظل تصنع من هذه المادة القديمة : حتى فى المبانى الرخامية ، وكان يقطع الرخام ليخلى مكانا عله للخشب . وحيث قصد الفن للفن نجد اليونان يشحذون مواهبهم للعمل ، وليس لغير ذلك . فعندنا تتغير الأساليب الفنية بتغير الظروف : فالسفر بالقطار دفع كتابنا إلى إصدار المجلات ، وكتابة القصص القصيرة . أما فى اليونان فقد كانت تتغير بتغير المحيط الروحى : فما يقوله أيسخيلوس وسوفوكليس ، هو الذى يغير طابع الكورس . وهذا يجعل أساليب الفن اليونانى ، رغم =

ولكن من المؤكد أن الناس فى مدينتنا اليونانية كانوا بشراً مثلنا ، وعرضة لنفس المشاعر البشرية والضعف الإنسانى؟ ومن المؤكد كذلك أن جرى دم « الرجل الاقتصادى » فى عروقهم حقا ، وأنهم ككل الرجال الأذكياء اليوم ، رغبوا فى أن يكونوا أغنياء ؟

هذه هى الناحية التى فيها اختلف عنا اليونانيون القدماء اختلافا واضحاً كبيراً ، أو بالأحرى عن تعريف بعض زعماء القرن التاسع عشر للرجل الحديث . إن اليونانيين القدماء لم يرغبوا فى الثروة لذاتها . فقد كانوا أحكم وأكثر اتزاناً من أن يضمروا رغبة كهذه ، وشعورهم بالاتساق والتناسب هو إحدى الحقائق المهمة عن حياتهم ، التى تجلت مراراً فى فنهم وسلوكهم ونظمهم . فقد تغلبوا على شهوة الأطفال المتوحشين ، أى على شهوة «الطمع» ، وما أرادوا الثروة ، إلا إذا ما اعتقدوا أنها ضرورية للحياة وللسعادة الاجتماعية . وقد أدركوا ، وهو ما زالت تدركه بعض الشعوب الشرقية الآن ، أن « ما قيمته قرش من الراحة يساوى قرشا تماما ، فلا يستحق الحصول على هذا ، صرف ما قيمته قرشان أو أكثر ، من القلق أو من الجهود . لقد كان لهم من الفطنة ما يميزون به ، إلى أى حد ترتبط قيمة الثروة بأهمية السعادة . « فأغنى الرجال ليس أسعد من هذا الذى لا يملك إلا ما يكفى قوت يومه ، إلا إذا واتاه الحظ الحسن ، ولازمه حتى الموت فيختم حياته سعيداً . فكثير من الذين يرتعون فى الثروة تعسون ، على حين أن كثيرين ممن ليس عندهم إلا ما يكفيهم سعداء . والذى يرفل فى الثراء ومع ذلك ليس سعيداً يفوق

= جودها الظاهرى وتمسكها بالتقاليد ، طبيعية للغاية ، بينما تبدو أساليبنا الفنية ، رغم حريتنا فى الاختيار مصطنعة وغير مرضية ، لأن إنتاجنا مقيد بقواعد العرض والطلب ، ونحن على استعداد أن نجعل كل شىء وفقاً للمقتضيات ، ولذا فا أقل ما يبدو صادرا عن أنفسنا حقيقة . وفيما يخص الصراع بين العادة والمودة ، فى مظاهره المختلفة ، أنظر الفصل السابع من كتاب تارد Les Lois de L'Imitation . وكثير من الانجليز ممن لهم خبرة بالأمرين ، يرون فى « مدرستهم العامة » مهبط العادة ، وفى جامعاتهم منبع التجديد . وان أردت زيادة فى التفاصيل أنظر ص ١٥٤ وما بعدها من كتاب جلوتز Travail .

الآخر فى شيئين فقط ، بينما الآخر يفوقه فى أشياء كثيرة . . . إذ هو يتمتع بكامل حريته فى تحريك أعضائه ، ثم هو خلو من الأمراض ، وجانبه سوء الحظ ، وقد وهبه الله نعمة الأطفال الجمال ، والجسم الرشيق . وإن أضيف إلى كل هذا نهاية سعيدة لحياته ، فهذا هو الرجل الذى نبحث عنه ، ويمكن أن يسمى سعيداً عن حق ». وهكذا طبقاً للتقاليد اليونانية ، وجه الحكيم إلى صاحب الملايين كلمات لم تكن لتنسى . لقد اجتهد اليونانى القديم فى أن يكون مخلصاً لمذهب سولون . وإذا ما حكمنا عليه وفق أحد أسس المقارنة الحديثة لكان مخلصاً حقاً . فالذى دفع بهم إلى النشاط الاقتصادى ، وإلى التطور الذى علينا أن نتتبعه ، ليس مجرد طمعنا الأخرق فى المزيد ، وليس نوعا من الشره الملح الذى يخالف تماما بعضا من أعمق غرائزهم ، ولكنه الاعتقاد الراسخ بأنهم إنما يطلبون الثروة لأغراض حضارتهم . وبعبارة أخرى إن الحضارة التى لا تأبه باليخوت ولا السيارات ، وإنما تعنى جماعة مثقفة مهذبة متعددة النواحى ، محبة للعمل ، هذه الحضارة تتطلب مالا ، والمال لا ينال دون نشاط اقتصادى . وهكذا هناك حد فى نمو كل جماعة ناشئة ، عنده تدفعها حاجتها ، مهما كان ذلك رغم إرادتها ، إلى مجال البحث عن المال بكل ما فيه من مغريات ، نحو مقاييس خاطئة فى الحياة . هذا ما حدث لليونان ، وخاصة أثينا وهى فى أوج عظمتها . ولكن يحسن بنا أن نتذكر ، عندما نحس ميلا إلى لومها على طريقتها غير المستقيمة ، أن نتذكر أغراضها السامية التى من أجلها سعت وراء المال ، وتلك المحافظة الهادئة المتناسقة ، التى امتاز بها عالم التفكير السامى ، والحياة البسيطة التى كانت أثينا على وشك الخروج منها . وليس لنا مع ما نحن فيه من وسائل الترفيه الحديثة ، ومع دوافعنا التى تدفعنا إلى العمل ، أن نكون القاذفين بأول حجر[١].

---

(١) هيرودوت، ١ — ٣٢ (سولون وكريسوس) . هناك دليل على مستوى السعادة بين اليونان ، وهو ندرة الانتحار . فاليونانيون يقتلون أنفسهم فقط ، عندما يشعرون أنهم ارتكبوا فضيحة عامة مثل أجاكس أوفايدرا ، أنظر توكيديدس، ٢ — ٩٢ — ٣ . وفى ذلك أنظر Westermarck فى مؤلفه، The Origin and Development of Moral Ideas، الجزء الثانى ، ص ٢٤٧ وما بعدها.

الفصل الثالث

المدينة الناشئة : فلاحة الأرض

Τὸ δὲ πλεῖστον γένος τῶν ἀνθρώπων ἀπὸ τῆς γῆς ζῇ καὶ τῶν ἡμέρων καρπῶν.

إن معظم الناس يعتمدون فى معاشهم على الأرض والمزروعات .

أرسطو ، السياسة ، ١٢٥٦ .

وهنا نعود إلى بحثنا ، أى الرجل الأثينى فى القرن الخامس ، من حيث هو كاسب مال ، ورب بيت . وأيضا إلى بحث حالة أثينا الاقتصادية ، أو شئون تدبير بيتها فى القرن الخامس . والذى يجب أن نسأل عنه هو ، أولا ، كيف كان يعيش الأثينى فى القرن الخامس كفرد ؟ وثانيا ، كيف سدت الحكومة الأثينية حاجة نفسها ؟ وما هى الأسس الاقتصادية لحضارتها وأعمالها ؟

من السهل أن نوجه هذه الأسئلة ، ولكن الإجابة عنها ليست بهذه السهولة . فكما أنه من أجل أن نفهم السياسة التى جاءت فى « المرثية » ، كان علينا الرجوع إلى الأسس السياسية للجماعة اليونانية ، مقيمين المدينة على القبيلة ، والإمبراطورية على المدينة . كذلك لكى نفهم اقتصاديات أثينا عند ابتداء الحرب البلوبونيزية ، يجب أن نرجع إلى الأسس الاقتصادية التى قامت عليها الجماعة اليونانية ، إلى أصل وتطور « الدولة المدينة » ، وإلى مواطنيها العاديين المتواضعين العاملين ، فبذلك نبنى اقتصاديات الإمبراطورية الأثينية طبقة طبقة .

لنرجع إذن مرة أخرى إلى الوراء ، مسترشدين بتوكيديدس ، إلى بداية

الجماعة اليونانية ، إلى الأيام السابقة على استقرار اليونانيين ، على نظام الحياة في « الدولة المدينة » . فسنرى هنا في اقتصادياتهم ، بعض العناصر التي ظلت ثابتة ومستقرة ، وأخرى استطاعوا بتقدم الحضارة أن يتخلصوا منها ، أو يهذبوها ، ولكن جميعها كما سنرى ، ستثبت أن لها أهمية في بحثنا .

ترك لنا توكيديدس في أولى صفحات كتابه ، صورة تصورية حية عن حياة اليونانيين القدماء الاقتصادية ، عندما كانوا في قراهم المتناثرة ، عقب تلك الفوضى التي أحدثتها الهجرات الكبرى فيقول ، « من الواضح أنه لم يكن للدولة التي تسمى الآن هيلاس ، سكان مستقرون في العصور القديمة ، بل على العكس كانت الهجرة كثيرة الحدوث ، إذ أن القبائل المتعددة كانت تتخلى عن موطنها ، تحت ضغط تفوق المهاجرين في العدد . ولما كانوا بلا تجارة أو مواصلات مأمونة ، سواء في البحر أو في البر ، ولا يزرعون من أرضهم أكثر مما يمسك رمقهم ، يعوزهم رأس المال ، لم يزرعوا أراضيهم فاكهة قط (لأنهم لم يدروا متى يهاجمهم غازى ، فيستولى عليها كلها ، وإن هو جاء فليس عندهم أسوار تصده عنهم) ، فلم يفكروا في تغيير مساكنهم إلا قليلا ، وعلى ذلك لم يبنوا مدنا كبيرة ، ولم يبلغوا أى نوع آخر من العظمة » .

وقليل للغاية هنا ، ما يشبه ما كان عليه المجتمع الأثيني في عهد بركليس . إنها الحياة اليونانية في أبسط مظاهرها . فلم يكن هناك تجارة ولا سياحة ، ولا كروم أو زيتون ، ولا أمن ولا حتى أعمال حربية منظمة ، من حصن ثابت مستقر . ومع ذلك فظاهر هنا عامل واحد . وهو أن هؤلاء الناس أقاموا حياتهم ، إلى القدر الذي استطاعوا ، على زراعة الأرض ، ولم يعتمدوا فيها على النهب إطلاقا . لقد عاشوا على الزراعة .

هذه هي الحقيقة الوحيدة الدائمة في الاقتصاد اليوناني ، من أيامهم الأولى إلى القرن الخامس ، ولذا كان من الضروري أن نبدأ بها هنا هذا البحث ، رغم عدم التسلسل التاريخي . لقد كان هناك طرق عديدة من الممكن أن يقيم

اليونانى حياته عليها ، وإنما طريقة واحدة هى التى بدت بشكل عام ، طبيعية وتقليدية ، هى زراعة الأرض .

أجمع الكتاب اليونانيون الذين تناولوا بالبحث مشكلة المعيشة (إذ على الرغم مما يقال غالبا ، فقد أخرجت اليونان « اقتصاديين ») على هذا الأمر . فكلهم (أى الكتاب) ينصحون باحتراف الزراعة . وكما يقول إجزينوفون فى مديحه الرائع لحياة الفلاح ، مامن عمل غيره ، يملأ مخازن الأسرة ، ويجمع فى نفس الوقت ، بين كونه ساراً وصحيا ، وجديراً بالرجل الحر . ويقول أفلاطون ، إن الزراعة فن طبيعى أكثر من فن السياسة ذاته لأنها « تتعاون مع الطبيعة » ، مثل الطب والتمرينات البدنية . ويعتبر أرسطو (دون مراعاة لحياة المراعى أو الغابات ، أو فيوردات الشواطئ) الزراعة ، على النحو المتبعة عليه فى اليونان ، الحياة الطبيعية لكل البشر . ومهما يكن من شئ ، فقد كانت المهنة الحقة المناسبة لرب الأسرة اليونانية . فمنذ أن استقر أجداده من قرون خلت ، فى سهولهم ووديانهم الصغيرة المقفلة ، وانتقلوا تدريجيا — كما يصف لنا توكيديدس — من الحالة القديمة الشبيهة بحياة البدو ، إلى أوضاع كلها استقرار وثبات ، تعود هذا اليونانى أن يعد نفسه أولا عضوا فى القبيلة أو الأخوة ، ثم أبا لأسرة واحدة ، مرتبطة بقطعة محدودة من الأرض ، يستمد منها وسائل حياته . فالحضارة اليونانية على وجه ما ، حضارة مدن ، إلا أن أساسها زراعى . لقد كانت نسمات الأراضى الزراعية المكشوفة تهب على البرلمان والسوق العامة . إن التقاليد الزراعية ، هى أقوى وأثبت قوة فى الاقتصاد الاجتماعى اليونانى الموروث[١] .

ومن الضرورى أن نبرز هذا ، حتى نفهم ، إلى أى حد اختلفت أحوالهم الاقتصادية ، اختلافا أساسيا عنا . إن زراعنا وفلاحينا فى أعمالهم اليومية وعاداتهم فى تدبير منازلهم ، هم أقدر من يلمس حياة اليونانى القديم ، لا علماؤنا المعنيون

---

(١) اجزينوفون : .Oec ، ٥ ، ثم أرسطو ، السياسة ، ١٢٥٦ ا ٣٨ ، وأفلاطون : القوانين ، ٨٨٩ ، وانظر أيضا ٧٤٣ ، ثم هيزويد ، Erga ، ٦٨٣ .

فى أبراجهم العاجية ، بدراسة اليونان ، ولا سكان مدننا . واليونانى القديم ليس هنا مجرد يونانى الأيام القلقة الأولى ، ولا يونانى العصور الوسطى الهادئة ، إنما هو المواطن اليقظ المخاطر ، الذى عاش فى أثينا فى القرن الخامس «ولأوضح ما أعنى باقتباسين منفصلين كل الانفصال . كل يذكر الفقرة من «الأوديسة» حيث يصف هومر تأسيس مدينة الفوكيين : إنهم يبدأون بإقامة أسوار المدينة ، ثم يقسمون الأرض فيما بينهم . وبعد ذلك بقرون عديدة ، نجد أحد الأشخاص فى الكوميديا الأتيكية ، يشرح المطالب العامة ، فيسأل عن آخر الأنباء ، ويقول هل هناك تقسيم أرض فى مستعمرة ما ؟ إنها دائما هذه الفكرة ، فكرة تملك الأرض ! إنه آلاف الأشياء تغيرت منذ هومر ، ولكن حب اليونانيين للأرض ظل باقياً كما هو . فاذهب اليوم إلى جبال الأردنز (Ardennes) وتوغل فيها ، تجد بعضا من أبناء الأرض هؤلاء ، لا يزالون هناك . وستلق الفلاح على النمط القديم ، جاهلا كالمعتاد بكل ما يتصل بالتجارة والصناعة . وهو أرستقراطى ومحافظ على طريقته الخاصة ، يحتج على كل جديد ، مزيدا سنة بعد سنة تراث أجداده . إن الأثينى الذى عاش منذ ألنى عام ليفهمه تماما . أما اليوم فما هو إلا آخر من بقى من جنس انقرض[١] » .

لأول وهلة يبدو لنا الكاتب البلجيكى مغاليا، فإذا ما أنعمنا النظر رأينا حكمه صادقا . إذ يجب ألا نأخذ الزراعة كما يمارسها اليوم المهاجرون غير المستقرين حول «ونبج» ، فى هذه الأيام ، أيام توفر الآلات والنظام ، ولا حتى كما يمارسها الفلاحون اليوم ، أو زارعو الخضر والبقول فى بلادنا ، بل يجب أن نأخذها بالشكل الذى كانت عليه من سنين قلائل مضت ، حينما كانت أكثر المهن الاقتصادية استقراراً ومحافظة ، فالتاجر والصانع يعتمدان على حذقهما وجرأتهما ، ويمكنهما أن يحولا ويغيرا ما يتناولان .

---

(١) فرانكوت ، L'Industrie dans La Grèce antique (بروكسل ١٩٠١) ، الجزء الثانى ، ص ٥٣ .

أما الراعى والمزارع فينتظران رحمة الطبيعة ، ولا يتطلعان إلى تحسين الوسائل ، بل إلى الجو المناسب ، والآلهة الرؤوفة ، فقد تعلموا الصبر والتأمل ، والرضى عن اليوم القليل الإنتاج . وهم حصن العادات والتقاليد فى كل أمة . ولما كان اليونانيون ، رعاة وزراعا حسب التقاليد ، فقد نشأوا محافظين .

وثم سبب آخر لصعوبة فهمنا الفلاح اليونانى ، إذا نظرنا إليه بوصفنا إقتصاديين . إنه لا يريد أن يصبح غنياً . فهو يعمل فى الأرض ليقوم بأود نفسه ومن أجل مدينته ، لا أملا فى أجر عال ، أو ثروة عظيمة . لقد كان هدفه تموين منزله وإعالة أهله ، وإذا اقتضت الضرورة فإنه يعمل أيضاً على مد الجماعة بالمئونة ، فما من فكرة عنده عن جمع المال . والثروات الزراعية الكبيرة المعروفة عندنا من القرن الثامن عشر لم تعرفها اليونان ، أو إذا لم تكن تجهلها تماما ، فقد كانت أمراً شاذا ممقوتا ، حتى أنه ليخرج عن حدود الصورة العامة المألوفة . فإذا ما ملك أحد المواطنين جزءاً من أرض الجماعة ، يبدو أنه أكبر مما ينبغى ، ضج الرأى العام فى السوق العامة بالشكوى ، مطالباً بوجوب نزع هذا الجزء منه ، وإعادة تقسيمه ، . أما إذا أثرى تاجر أو صانع ، فلا يشكو من ذلك أحد ، بل قد لا يحس به أحد . وعلى أية حال فلا يبدو ثراؤه أنه يفقر غيره من الناس . فى المدينة الصغيرة حيث الأرض محدودة المساحة بشكل ظاهر ، فإن كل زيادة فى أرض المالك الكبير ، تبدو بوضوح أنها تعنى نقصا من الصغار . ولذا كان الفلاح اليونانى محقاً كل الحق ، سواء من ناحية التقاليد أو السياسة ، فى أن ينصرف عن أحلام الطموح إلى الثراء ، إلى تنمية نواحى غيرها فى طبيعته . فمنزله اللطيف ومبانى حقله القديمة ، وآلهة الحقول والينابيع القريبة المألوفة ، كل هذا إلى جانب الصفوف المنتظمة من أشجار الزيتون المعقدة ، التى زرعها أجداده ، اهتم به أكثر من الثروات التى قد يجلبها أخوه العالمى الصغير إلى البلاد ، من البحار الغربية . فهدفه الفلسفى (مهما تضاءل إدراكه له) هو أن

تتكون طبيعته منسجمة، وكل جزء فى كيانه يتعاون مع الآخر على الخير[1].

كيف كان يحصل اليونانى على ما يحتاجه فى معيشته من الأرض ؟

فى ظل الدولة المدينة المستقرة ، كانت له ثلاثة مصادر للحياة : الرعى والزراعة والفواكه . وقد سبق أن تكلمنا عن الراعى . لقد جمعت حياته فى وقت واحد بين شدة المحافظة ووفرة الانسجام ، لأنها إنما كانت حياة أجداده الأول ، كما كانت بعيدة كل البعد عن تأثير المدينة ومصالحها . فلم يربطه ، وهو فى مراعيه المرتفعة ، بعالم المدينة من تحته ، إلا رباط اقتصادى صغير ، إذ لم يكن لديه ما يكفيه من الطعام إلا إذا ملأ مخزنه من السهول . فرعاة الماعز لا يمكنهم الاعتماد على ما تنتجه ماعزهم وحده ، وهو ما يبدو ممكنا فى المراعى حيث ترعى الخيل . لقد احتاج الراعى وأسرته إلى الخبز ، كذلك إلى اللبن والجبن . وهذا هو الذى حال بينهم وبين أن يكونوا رحلا كإخوانهم السيثيين القاطنين إلى الشمال منهم . فإذا ما اضطربت الأمور نزلوا من أراضيهم المرتفعة وسرقوا ما يلزمهم . أما إذا كانت دولة المدينة قوية مهيبة الجانب ، فإنهم يتعلمون أن يبادلوها بمنتجات الألبان ، التى كانت تزداد حاجة سكان المدينة إليها بتزايد عددهم . وحتى بعد أن اندمج الراعى على هذا النحو فى اقتصاديات الدولة المدينة ، فقد ظل باقياً على حياته المنعزلة ، أى أقدم أسلوب للحياة ، وهى أيضاً كما يقول أرسطو أكسل حياة (عرفها اليونان) لأن الرعاة يجنون رزقهم من الحيوانات الأليفة دون تعب ، وبما أنه كان على قطعانهم التجول من مكان إلى مكان بحثاً عن المرعى ، فقد كانوا مضطرين إلى تتبعها ، وكأنهم يوالون مزرعة متنقلة . ولا شك أن الرعاة اليونانيين ، سواء أكانوا عبيداً أم مواطنين ، كانوا صريحين مجاملين كما هم الآن، كما كانوا كذلك يتطلعون بشوق ، إلى معرفة آخر أنباء المدينة .

---

(١) انظر إيفان موللر، Griechische Privataltertümer ، ص ٢٣٦ ، بشأن تقدم الزراعيين الأثينيين فى القرن الخامس ، هذا التقدم الذى يرجع الى زيادة عدد سكان أتيكا . ومع ذلك لم تتكون ثروات زراعية كبيرة .

فرعاة « أوديب الملك » الذين نعرفهم تماماً كرسل فى روايات أخرى ، لا زالوا يبادرون بالكلام المسافرين الحديثين بتلك الصراحة والاحترام ؛ وهو ما يعتبره الرجل الإنجليزى غالباً ، مجرد موقف من المواقف التمثيلية . ولكن كثرتهم وهم الذين يقضون شهور الصيف على مراعى الجبل المرتفعة ، كانوا بعيدين عن دائرة الحياة فى المدينة ، حتى أنهم ظلوا بعيدين عن التطور الاقتصادى الذى نحن بصدده ، بل لم يتأثروا به . فعندما تقوم الحرب فقط ، وتغدو مراعى الجدود غير مأمونة ، عندئذ ينزلون إلى السهل وينضمون إلى صفوف زملائهم كجنود مدنيين ، إذا جاز تسميتهم كذلك[1] .

أما الفواكه والفلاحة ، أى البستان والحقل ، فترتبط بعضها ببعض ويعنى بها عائلة واحدة ممثلة فى مالكها . وعلى قدر ما وصل إليه علمنا ، فإن الفلاحة قد سادت كل مكان ، إذ قضت التقاليد بضرورة أن تمون كل دولة نفسها بالحبوب . حتى حيث بدا ذلك مستحيلا ، وذلك لتزايد السكان ، كما فى أتيكا فى القرن الخامس ، فمن المحتمل أن زاد محصول القمح عن الزيت . وعلى أية حال فإن سكان القرية ، لم يشتروا من المدينة إلا القليل من الطعام . ومن المحتمل على الأقل ، أن كان ثلث القمح المستهلك فى أتيكا فى عهد بركليس من مزروعات أتيكا نفسها . ورغم انشغالهم بنواحى أخرى مهمة ، فقد كانت أرض أتيكا ، أكثر الأراضى اليونانية موالاة . والذين يعرفون ماهى عليه

---

(١) ص ٤٣ — ٤٤ فيما سبق . إنهم كانوا يعملون فى أثينا كجنود فى فرق الأسلحة الخفيفة ، لا كجدفين . وبخصوص خطاب ما زال موجودا (ربما يكون من أحد الرعاة) أنظر ص ٢٨٤ — ٢٨٥ فيما يلى ، ثم انظر مايرز ، Greek Lands ، ص ٢٦ . أما فيما يتعلق باعتماد الجبليين على سكان الوديان اقتصاديا ، فانظر إجزينوفون ، .Hell ، ٦ — ١ — ٩ وهى فقرة هامة : « بما أن تساليا أرض منبسطة تماما ، فإن كل القبائل التى حولها (أى التى على الجبال) ، تخضع لها عند ما تقوم فيها حكومة قوية ، وكلهم تقريبا من حملة المزاريق » . إن ارتباط الأفكار هنا لا يبدو واضحاً لأول وهله للقارئ من أهل الشمال . فالمؤلف يريد أن يقول ، إنه نظرا لأن تساليا سهل منبسط جداً ، أى غير ملائمة لتكتيك حرب العصابات ، ورمى المزاريق .. الخ) ، وإن الأمن مستتب تماماً بها ، فلا يمكن للجبليين إذن أن يسرقوا طعامهم ، ولابد لهم من أن يقايضوا به ، أى أنهم يجب أن يعترفوا بسيطرة حكومة الأرض الواطئة .

الآن من جدب ، سيقدرون ما بذله الفلاحون الأثينيون فى زراعتها ، رغم كثرة ما كان لديهم من أمور أخرى تتطلب عملا وتفكيراً[1] .

لمن كانت الأرض ، وبأى التزام كانوا يحصلون عليها ؟

فى الدول اليونانية العادية ، كانت كل الأراضى تقريباً فى أيدى صغار الملاك ، الذين يفلحونها بأيديهم . ولن نعنى هنا بأمر الرق الذى كان قائماً فى اسبرطة وتساليا. فقد كان ذلك ، كما رأينا، حالة شاذة نتيجة تطور ملتوقاسى. فالأغلبية المطلقة من الدول اليونانية ، مثل أثينا منذ عهد سولون ، زُرعت أراضيها بيد ملاكها الأحرار . فكانوا يعملون فى الأرض مع ذويهم ، ويقسمون أملاكهم عند موتهم بين أبنائهم . وقد كان ذلك متبعاً كقيد لزيادة عدد السكان كما فى فرنسا الآن ، وذلك على آية حال إلى أن تهيأ ، وسائل أخرى للحياة . ويكاد يكون كل مواطن فى الدولة اليونانية العادية مالكا ، سواء كان ما يملكه كبيراً أو صغيراً ، كافياً للعيش أو لا يكاد يمسك الرمق . وفى عام ٤٠٣ عندما اقترح فى أثينا، وهى الدولة التجارية الأولى، قصر حقوق المواطن على ملاك الأراضى أو المنازل ، فقد أنبئنا أن من كان يبعدهم هذا

---

(١) Hellenica Oxyrhynchia ، ١٢ — ٥ : أتيكا καθ᾽ ὑπερβολὴν ἐξήσκητο καὶ διεπεπόνητο : وأضيف إلى ذلك أنه ما من مال فائض لديهم للانفاق على البناء فى المزارع. وكل هؤلاء الفلاحين كانوا تقريبا رجالا صغارا، « Zeugites » مثل أرسطوفانيز فى Dicaeopolis . وهذا واضح من توكيديدس ، ٢ — ١٦ ، وفيما يخص دلائل أخرى أنظر Guiraud, La Propriété foncière en Grèce ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣. ووصف المؤرخ الجديد لأتيكا يشير إلى الفترة التى بين ٤٢١ — ٤١٤ ، بعد تخريب الغزوات البلوبونيزية للبلاد . ولذا فقد يبدو كما لو كانت أتيكا تنتج قمحاً أكثر من الزيت ، لأن بلدا تطغى فيه زراعة الزيتون على كل شئ آخر ، لا يمكن أن تكون مزارعها قد استعادت قوتها بتلك السرعة. ويبدو أن هذا الرأى تؤيده بعض الدلائل من القرن الرابع جاءت فى .Dem ، ٢٠ ـ ٣١ ، وكذلك تقدير ماير ، Forschungen ، الجزء الثانى ص ١٨٩ وما بعدها. ولذا فالفقرة التى وردت فى البردية ، المكتشفة فقط فى عام ١٩٠٦ ، ساعدت كثيرا بشكل تأكيد على تبرير ، أو على الأقل على تفسير سياسة بركليس التى عرضت أتيكا للتخريب . أنظر أيضاً اللاحظة التى جاءت فى ص ٥٣ فيما سبق . فيما يخص طرق الحرث والزراعة ، أنظر إيڤان موللر (Iwan Müller) ص ٢٣٧. فاليونان لم يعرفوا شيئاً عن تعاقب الدورة الزراعية ، ولذا فإن نصف أراضى القمح كانت جدباء دائماً . (أنظر التذييل) .

القانون ، لم يعد ٥٠٠٠ مواطنا . ومن المحتمل أن كان معظمهم من المستعمرين العائدين. وعلى ذلك، فحتى فى حالة الاضطراب الناجمة عن الحرب البلوبونيزية، عندما اضطربت أسس الجماعة الأثينية الاقتصادية ، فإن الرجال الذين هتفوا لـكليون ، وأبحروا إلى صقلية للنهب والسلب ، شعروا على نحو ما ، بأنهم أكثر سعادة من غيرهم ، لما ملكوه من قطعة أرض صغيرة ، مهما قلت قيمتها[1] .

فالاستئجار بالمعنى الذى نعرفه، لم يكن إذن معروفاً فعلا عند اليونانيين. ومن بين النصوص الكثيرة المحفوظة ، التى تناولت الأرض بطريقة أو بأخرى، لم نعثر إلا على ، عدد قليل جداً من العقود المعقودة بين الأفراد. وإذا كان اليونانى مستأجرا ، فلن يكون مستأجراً إلا لهيئة عامة . فهو إنما يزرع للدولة ، أو لإله ، أو لبعض الجماعات والاتحادات ، أو بمعنى آخر هو يؤدى للمالك ما يعجز المالك عن تأديته لنفسه . وقد حفظ لنا عدد كبير من هذه النصوص . وجدير بنا أن نذكر أحدها ، لنعطى فكرة عن كنه هذا النظام . وهذا النص بخصوص قطعة أرض (للرعى) من ممتلكات مدينة بيسا (Poiessa) فى جزيرة كوس ،

وهو كما يلى :

الآلهة !

أرض مدينة بيسا (Poiessa)

١ — على المستأجر أن يدفع فى العاشر من شهر باخيون ٣٠ درخمة ؛ وإذا لم يدفع فعليه أن يترك الارض .

---

(١) ڤيلاموڤيتز ، A. A. ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٧ (التعليق على Lys. ، ٣٤ : ὑπόθεσις) . إن القروى النموذجى فى الأدب اليونانى، هو على نهج الفلاح العجوز المذكور فى إلكترا (Electra) يوريبيدس ، والذى اختير من هيئة الملاك الأحرار البلوبونيزيين فى عصره. (أنظر توكيديدس، ١ — ١٤١ — ٣) . وهو مثل Trygaeus, Dicaeopolis أكثر تمثيلا للقروى من إسخوماخوس (Ischomachus) بطل إجزينوفون فى Oeconomicus . فإسخوماخوس هذا كان من أكبر الملاك ، وأحد هؤلاء القلائل من الفرسان أو أصحاب الخيل، الذين بلغوا من الغنى حدا يمكنهم من القيام بإمداد الدولة بقوة صغيرة من الفرسان . أنظر ملاحظة ؛ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ فيما سبق .

٢ — عليه أن يحضر النقود إلى پيسا .

٣ — عليه أن يسلم المنزل مسقوفا ، وفى حالة جيدة .

٤ — عليه ألا يقطع أشجار الفواكه[1] .

---

(١) Inscriptions juridiques grecques ، الجزء الأول، ص٢٠٣ (أنظر القسم كله وخاصة ص ٢٠٠) ، ثم أنظر أيضاً ديتنبرجر ، رقم ٥٣٢ ، وانظر أرقام ٥٣١ — ٥٣٦ . وأهم مؤلف لدينا يبحث فى الزراعة اليونانية هو الكتاب المسمى جيوبونيكا Geoponica وهو فى عشرين جزءا تتناول أبواب الحياة الزراعية المختلفة . وقد صنف حوالى عام ٨٠٠ ق. م. ويتكون من مجموعة من كتابات لعدة مؤلفين معظمهم يونانيين ، عاشوا فى عصور مختلفة ، وذوى تجارب متباينة . وهو ملئ بالمعلومات ، بعضها غريب شاذ ، وقائم على السحر . والاقتباس الآتى من الكتاب الثالث عشر ، الفصل ١٥ ، (عن البراغيث المنزلية). وهو شائق مثل غيره . « إذا أتيت يوما مكانا تكثر فيه البراغيث فاصرخ قائلا ، أخ ، أخ (ὤχ, ὤχ) ، فلن تقربك » . [أنظر التذييل].

الفصل الرابع

المدينة الناشئة : الصيد أو السلب

Οἱ μὲν γὰρ ἀπὸ θήρας ζῶσι, καὶ θήρας ἕτεροι ἑτέρας, οἷον οἱ μὲν ἀπὸ λῃστείας.

يعيش بعض الناس على الصيد ، وهو متعدد الأنواع : فبعضهم مثلا قراصنة .

أرسطو ، السياسة ، ١٢٥٦ .

الزراعة هي الاتجاه التقليدى لليونانيين لكسب رزق شريف . وبما أننا بصدد إقامة نظام المدينة اليونانية الاقتصادى ، على أسسه الثابتة ، كان ضروريا أن نبدأ بها . إلا أنها ليست الاتجاه الطبيعي المفضل لرجال ذوى مشاعر بشرية عادية ، البدائى منهم والمتقدم ، وبخاصة اليونانيون الذين كرهوا النشاط ذا الوتيرة الواحدة . وبذا لزم تدريبهم عليها . وهو ما استغرق أجيالا لا عد لها ، لإقناعهم فى أناة ، بالرضا عن كسب ضئيل بعرق جبينهم ، بعيشهم كفلاحين . ولكن وجد فى كل أمة رجال مخاطرون رفضوا ذلك رفضاً باتاً ، وفضلوا حياة المخاطرة بما فيها من موت مفاجىء ، أو الموت البطىء جوعاً ، على حياة جامدة تافهة أعمالها ، تفرضها عليهم الجماعة . هؤلاء الناس عاشوا على الصيد .

ففى الأيام الأولى عقب الهجرات الكبرى مباشرة ، حينما كان ما عمر من الأرض وغدا آمنا ، لا يعدو جزءا منها ، كان هناك مجال للصيد كبير ، سواء كان حيوانا أو بشراً . فالرجال كانوا يخرجون إلى الصيد فرادى وجماعات ، طامعين فى فريسة طيبة ، وكان يستوى عندهم ملء مخازنهم بلحم خنزير من الغابات ، أو بالغنم أو الماعز عبر الجبال ، أو من محصول اعتنى

برعايته قوم من جيرانهم ، أكثر منهم اقتصاداً ، وأحسن تدبيرا . فلم يكن هناك بعد حقوق أو قوانين ، أو عادات ، غير الأخلاق والآداب القبلية . وأينما يخشى المرء السرقة ، يخرج مسلحاً ، ويشعر أن له الحق فى استعمال سلاحه ، ضد أى دخيل ، لا لمجرد الدفاع عن النفس ، وإنما لأغراض أخرى تساعده عليها الظروف ، أو يدفعه إليها الفقر . وحتى فى القرن الخامس ، يروى لنا توكيديدس ، « لا تزال أنحاء كثيرة من هيلاس تتبع الأسلوب القديم ، مثل الأوزيليين اللوكرانيين ، والأيتوليين ، والأكارنانيين ، وتلك المنطقة من الأرض الأصلية . كما أن عادة حمل السلاح ، مازال مأخوذاً بها بين هؤلاء الناس ، عن عادات الصيد والاغتصاب القديمة . إذ قد اعتاد اليونانيون جميعهم ، حمل السلاح فى وقت ما ، حين كانت بيوتهم غير آمنة ، وعلاقتهم ببعضهم البعض غير مأمونة ، فلا عجب ، كما رأينا ، ألا يبالوا بزراعة الأرض إذ ذاك بأشجار الفواكه ، إذ لا يمكنك التنبؤ أبدا ، متى « لا تغير بعض قبائل الصيادين ، الذين فضلوا « العيش على جيرانهم » ، « ومتى تغير وتنزع كل هذا »[1] .

وفى التاريخ اليونانى القديم كله ، قبل أن ينفذ القانون الذى سنته المدينة ، تنفيذاً كاملا ، كنا نلتقى دائماً بهؤلاء الصيادين واللصوص . وقد كانوا الأشخاص البارزين فى الفصول الافتتاحية من تاريخ توكيديدس ، إذ أنهم

---

(١) توكيديدس ، ١ — ٥ — ٣ و ٢ — ٢ . كان الأيتوليون لا يزالون « يعيشون على حساب جيرانهم » ، فى عصر بوليب . فكانوا يعيشون « حياة كلها طمع ، تشبه حياة التوحش ، لا يرون فى أحد صديقاً لهم ، بل يعدون كل امرئ عدوا طبيعيا لهم » : بوليب ، ٤ — ٣ . وكان صيد الحيوانات البرية قليلا فى اليونان فى العصر التاريخى ، لأن نباتاتها القصيرة لا تصلح لإيوائها ، والغابات الصالحة كانت نادرة . أنظر الكتيب الذى وضعه إجزينوفون عن الصيد وهو يتناول أصلا صيد الأرانب (أما حيوانات الصيد الكبيرة فلم توجد ، إلا خارج اليونان ، أنظر الفصل ١١) ، ثم مهافى (Mahaffy) فى Progress of Hellenism in Alexander's Empire ، ص ٩ ، وبخصوص كيف استمتع إجزينوفون بالصيد الطيب ، الذى رتبه الحاكم الفارسى فى آسيا الصغرى ، أنظر أيضا ص ٦٠ ، فيما يخص المقدونى كرجل رياضى قروى (وهو على عكس اليونانى و ذلك) .

كانوا مصدر فزع دائم للمدينة القديمة غير المحصنة . ومثلا تجنبا لهم ، كانت المدن تُؤسس عادة فى مكان إلى الداخل أمين ، حتى تكون فى مأمن من هجمات لصوص البحر المفاجئة ، الذين يمكنهم أن ينقضوا من حول تلك الرأس القريبة الممتدة فى البحر ، أو ينسلون تحت ستار الليل من الجزيرة الصخرية عبر الخليج. فعن طريق البحر بنوع خاص،كان يسعى هؤلاء اللصوص القدماء بتجارتهم التى كانت تزداد ازدهارا وجرأة ، كلما ازدادت معرفتهم بالأحوال المحلية والمواصلات .ويقول توكيديدس ، «عندما غدت المواصلات بالبحر أكثر اعتيادا انقلب الهيلينيون الأول ، من الساحليين وسكان الجزر ، وبعض البرابرة أيضاً ، إلى جماعات منظمة من اللصوص وعلى رأسهم زعماؤهم الذين يقودونهم للنهب ، طورا حباً فى الكسب ، وطوراً لمساعدة تابعيهم الفقراء . فكانوا ينقضون على تلك البلدان غير المسورة إذ ذاك ، والتى لم تعد أن تكون مجرد مجموعة من القرى ، وينهبونها . والحق أن هذا كان المصدر الأساسى لكسب رزقهم ، ولم يكن يُرى فى ذلك من عيب ، بل كان فيه شىء من المجد . ويدل على هذا التمجيد الذى لا زال بعض سكان القرية يولونه لقاطع الطريق الناجح ، وكذلك السؤال الذى يمثل به الشعراء القدامى الناس وهم يسألون المسافرين فى كل مكان « هل أنتم من القراصنة ؟ » كما لو كان المسئولون لا يميلون إلى إنكار هذا السؤال ، أو أن السائل لا يميل إلى لومهم على ذلك . ومثل هذا السلب حدث براً أيضاً[١] .

ولكن عندما ازدادت قوة الدولة المدينة الناشئة ، عرفت كيف تضرب

---

(١) توكيديدس ، ١ — ٥ . كان لا يزال لتلك المهنة جلالها عندما كانت تجرى على الطرق القديمة ، فإن شخصا كروبنهود (Robin Hood) كان ما زال حتى عام ١٩١٠ حرا طليقا فى ولاية أزمير . وكان مشهورا إلى حد بعيد بين الفلاحين ، لمهارته فى تحدى بأس القانون ، ولحسن اختياره لضحاياه المديدين — ١٩٢١ . وفى ١٩١٨ — ١٩٢٠ ظهر شخص يسمى بيكاريس (Bekiaris) (قتل فى مايو أو يونيو ١٩٢٠) وقد تحدى طويلا بنجاح ، كل محاولات البوليس فى القبض عليه . واعتاد أن يضع تسعيرة للطعام فى قرى أخارنا ، ويحذر المتمدين من زيادة أثمانها على الفلاحين . وكان أحيانا يأمر الأشخاص بأن يرسلوا له على سبيل الغرامة ، المبالغ التى تزيد على السعر المحدد ، ليردها للشارى المخدوع. ولذا حماه الفلاحون جميعاً.

بيد قويه على عناصر طائفة اللصوص . فنقبت عن معاقلهم فى الجبال ، وطهرتها منهم ، وهى تلك الكهوف الجيرية المنتشرة فى جبال اليونان ، وأحيانا لا تكون إلا شقوقا غير ملحوظة فى سفح التل ، ولكنها تؤدى خلال طرق وعرة إلى أبهاء مرتفعة واسعة . هنا ، حيث عاش اللصوص القدماء ، يلهون ويتنادمون ويحفرون محاريب آلهتهم ، يلتقى الآن مواطنون هادئون من الوديان ، ورعاة مع قطعانهم فى مراعى الصيف ، يتحدثون ويتغنون وينامون ، أو حتى ، كما نعرف من الكتابة التى وجدت على الجدران ، أو على الشقف المبعثرة على الأرض ، ليعبدوا پان (Pan) أو الجنيات ، أو أية قوة أخرى مسالمة . واضطر القراصنة أيضا ، إلى ترك مخابئهم المؤسسة منذ عهد بعيد . فتلك الجزيرة الصخرية عبر الخليج بمرفأها الصغير ، المناسبة تماما للقوارب الصغيرة ، وبعينها المشهورة بصافى مياهها ، غدت قطعة أخرى من أرض المرعى الخاص بالمدينة ، لها فى الشتاء نفع عظيم ، وذلك عندما تغطى الثلوج المرتفعات . وما من حاجة للكلاب بها ، إذ أن الجزيرة كانت صغيرة للغاية ، إلى حد أنها كانت نفسها معقلا طبيعيا . وكذلك خضعت بدورها تلك الجزر الكبرى ، أو المدن الساحلية التى عاشت على السرقة وعلى إغراق المراكب . وذلك لأنه قضى على مصدر رزقهم ، كما أن «حب الكسب» كما يقول توكيديدس ، أو بعبارة أخرى إن ألم الفقر «ليدفع بالأضعف تحت سيطرة الأقوى» . ولم يقاوم سوى بعض الأفراد ذوى النفوس الجريئة ، ونزحوا إلى أمكنة نائية ، حيث لم يقو بعد قانون المدينة على ملاحقتهم(١) .

وهكذا اتسعت الهوة تدريجيا بين المخاطرين والمواطنين الشرفاء .

(١) توكيديدس ، ١ — ٨ — ٣ . أما عن رأيى الخاص فى التفسير التاريخى لهذه الفقرة من توكيديدس ، فانظر ص ٧٨ــ٧٩ فيما سبق . وفيما يتعلق ببيان عن إحدى هذه الكهوف — كهف پان (Pan) قرب ڤارى (Vari) فى أتيكا ، أنظر American Journal of Archaeology ، الجزء السابع ، ص ٢٦٣ وما بعدها ، وفيه صور للمحراب المصنوع من الحجر الغير مصقول ، والنقوش التى جاءت على الصخر .

فالصيادون القدماء الأشداء ، الذين كانوا ذات يوم مفخرة عشائرهم الصغيرة ، قد أبعدوا عن المجتمع فى المدينة الناشئة ، واعتبروا خارجين عليها.

ومع أن موضوعنا الرئيسى هنا هو المدينة وسكانها العاديون والعاملون، إلا أنه يجب أن نقف ونتمعن النظر قليلا فى أمر بعض هؤلاء المخاطرين ، لأن روح تأثيرهم وصخبهم ، ظلت ماثلة فى أثينا القرن الخامس . وسنجد كلما تقدمنا ، أن لها علاقه مهمة بموضوعنا . فقد كان هؤلاء الرجال المنبوذين ، ذوى العقول المستقلة ، أقدم وأصدق من مثل فى العالم اليونانى القديم، «الرجل الاقتصادى» ،فحيث عمل فلاح المدينة القانع ،كما رأينا، على كسب عيشه ، ذهب هذا القرصان يطلب صيدا أكبر ، فإذا ما صادف حظا كبيرا ، تمكن من أن يأكل ويلبس كملك . وقد بقيت مهنته حتى نضب معين أهم دخل لها ، الطريقة الوحيدة ، التى منحتها هذه الدنيا الأولى لفرد أو لمجموعة أفراد ، التى بها يثرى الإنسان حقيقة ، والتى بهـا يجمع المال والتابعين . كان كثير من أفرادها يخرجون للعمل وكأنهم ملوك صغار . ومن المحتمل أن يكون السؤال ، «هل أنت قرصان ؟» لم يعن « هل أنت لص ، أم أنت سائح مسالم؟ » إنما عنى حقا « هل أنت هنا لمخاطرة عامة أم خاصة ؟ » وفى كلتا الحالتين فالزائر المفاجىء غير المرغوب فيه إنما جاء « ليأخذ » . والفرق بين الحالتين ، هو أن الأولى تعنى حربا ، والثانية مجرد نهب . وأحيانا تكون الإجابة على هذا السؤال ، من الصعوبة بمكان(١) .

---

(١) أنظر الأوديسة ، ٣ — ٨٢ ، ٤ — ٣١٤ . ثم بندار، Ol. ، ١٣ — ٦٩ ، ثم هيرودوت ، ٥ — ٦٣ (εἴτε ἰδίῳ στόλῳ εἴτε δημοσίῳ) . ويمكن أن نرى من دراسة عمليات براسيداس الحربية فى مقدونيا وتراقيا دراسة دقيقة (مثلا ثوكيديدس ، ٤ — ١٢٤ وما بعدها) ، وكذلك من بحث الموقف الغامض للحملة الاسبرطية التى أرسلت لمساعدة سيروس (Cyrus) الصغير، نرى من ذلك كيف كان الحد الفاصل بين الأعمال الحربية والقرصنة ، ضئيلا جدا ، حتى فى القرن الخامس . وكذلك يصف أيضا إجزينوفون الإسكندر طاغية فيراى (Pherae) بأنه « لص لئيم فى البر والبحر » . راجع اجزينوفون ، Hell. ، ٦ — ٤ — ٣٥ . وإلى حد بعيد ، كان كذلك بوليكرات فى ساموس . فقد وضع تصميم سفينة ، ولكنها كانت معروفة لقوة البوليس البحرى الأثينى كل المعرفة ، كانت =

ما الظروف التى كان يكسب فيها القرصان عيشه ؟ من حسن الحظ أن حدثنا عنه هومر كثيرا ، مما مكننا من تتبعه فى عمله . فبدلا من المحراث والمعول ، كآلات يعتمد عليها فى إنتاجه ، كانت مركبه التى اعتبرت إذ ذاك ملكا مشتركا بين كل أفراد المخاطرة أيا كان صانعها ، وأيا كان مالكها الأول . « فارجو » كانت ملك الأرجونوت جميعا على السواء[1] .

« وهذه السفينة صغيرة . ويجب أن تكون كذلك ، لأنها ترفع كل مساء إلى الشاطىء ، حيث تستعمل منزلا للقرصان ، أو حصنا أو استحكاما . ويندر أن يقل عدد نوتيتها عن العشرين ، أو يزيد على الخمسين . وتصفها لنا الملحمة القديمة ، بأنها مركب مجوف ، أى لا سطح لها . عنبرها مكشوف ، وليس لها ما يشبه مؤخرة السفينة المعهود ، ولا بها أى غرفة من غرف السفن . فهى رغم طولها قارب ليس إلا ، إلا أنه ، عند طرفيها مصطبتان مرفوعتان لها حاجزان ، والمسافة التى تحت هاتين المصطبتين مفتوحة كسائر أجزاء السفينة ، وتكون جزءا منها . وفى « المقدمة » يقف الملاحظ ، وفى المؤخرة الربان والقائد . وهم كغيرهم لا يجدون فى المركب ما يقيهم من المطر والرياح ، ولكن ارتفاعهما النسبى يقيهما الأمواج والرذاذ . أما هيكل المركب فيشغله المجدفون ، ويجلسون على مقاعد صغيرة عرضية . وعلى طول المركب شبه ممر أو « قنطرة » ، يتيسر عليها المرور أو التنقل ، عندما تكون غير محملة بالبضائع . وهذه البضائع توضع عادة تحت مقاعد المجدفين

= سريعة ولها جوف كبير للسلب والنهب ، لدرجة لم يسبق لها مثيل . وقد قيل أن الأثينيين ، لما أن استولوا على تلك الجزيرة ، وشموا أهلها الساموسيين بوشم على نمط شكلها (أى السفينة) الغريب (هيرودوت ، ٣ — ٣٩ ، ثم بلوتارخوس ، الفرس ، ٢٦) .

(١) قد استنتجت ذلك من الإلحاح الدائم على ضرورة مراعاة قسمة عادلة للأرباح (رغم أنها غير متساوية) . إن المركب كانت تخص بالتأكيد الرجل الذى دبر المخاطرة ونفذها . وعلى ذلك فمركب الأرجو يملكها جاسون (Jason) . وقد ذهب ، كما تروى لنا قصة قديمة مؤثرة ، ليعيش فى شيخوخته ووحدته مع سفينته القديمة التى أخذ البلى يعتريها فى وقفتها على الشاطىء . (يوريبيدس ، ميديا ، ١٣٨٦ ، ثم ملحوظة مورى) . ولكن ربما كانت العادة تقضى بأن يكون لكل عضو من النوتية نصيب ضئيل من الغنائم .

فى « جوف » المركب ، أو تحت أرصفة المقدمة أو المؤخرة . وفى الوسط ثقب للسارية ، فإذا كانت الرياح مواتية ثبتت السارية فى الثقب ، وربطت الحبال فى المقدمه والمؤخرة ، وربما فى الجوانب أيضا . فالملاحة فى البحار كانت لا تزال ناشئة ، ولم تستخدم الرياح إلا إذا كانت خلفية ، أو مايقرب من ذلك . وعندما تنتهى الحاجة إلى السارية تحل وترفع من ثقبها ، وتوضع وسط المركب . وفيما يخص المؤن ، فإن البحارة يأخذون معهم فى المعتاد دقيقاً ونبيذاً ، أما الماء فكان يبحث عنه من وقت لآخر ، إذ أن التجديف يدعو إلى العطش ، ولا يمكن للنبيذ أن يقوم مقام الماء . وإذا حان موعد الحرب ينقلب المجدفون محاربين ، أو على الأقل جانب منهم . ويحاربون من فوق القلعتين ، لما لها من موقع أنسب من وسط المركب . وجملة القول لم تكن السفينة اليونانية موئلا مريحاً ، ولكن يخف أثر هذا النقص ، إذا ماذكرنا أن كل نوتيها ، يستطيعون النوم على الشاطئ كل ليلة تقريباً . فنادراً ما يكون الإقلاع ليلا ، بل ويتعرض القواد لخطر ثورة رجالهم عليهم إذا ما كلفوهم القيام بمثل هذه المهمة الشاقة غير العادية[1] .

ولكن بالرغم من متاعب هذه الحياة فهى حياة شيقة للغاية ، وأكثر إغراء من كسب الرزق بطريقة شريفة ، فى كنف رجال القبائل والجيران فى السهول الخانقة . ففيها مثيرات متواصلة ، ولذا كانت كما هى الآن ، موضع حنين دائماً لكل من مارسها مرة ، ففى كل يوم جديد ، وحول كل رأس ، يحتمل العثور على كنز مجهول . فإذا ما حصلوا على غنائم ، قسمت بروح المساواة

---

(١) عن G. d' Azambuja فى كتابه La Grèce ancienne ، باريس ١٩٠٦ — مكتب العلوم الاجتماعية ، ص ٦٦ . وهو كتاب ممتاز تتجلى فيه كل محاسن محاولة « تفسير التاريخ بعلم الاجتماع » ، كما يظهر فيه كثير من نقط ضعفها . وفيما يخص بياناً أكثر تفصيلا عن هؤلاء القراصنة الأقدمين ، أنظر Bérard, Les Phéniciens et l'Odyssée ، الجزء الثانى ، الفصل الأول ، ثم انظر أيضا الجزء الأول ، ص ٣٧٩ وما بعدها ، فيما يخص النساء المسافرات اللائى لا نصيب لهن من الراحة فى مركب على هذا النمط . ومن أجل ذلك كانت كليتمنسترا (Clytemnestra) تعير آجا ممنون وكاسندرا على جلوسهما جنبا لجنب على مقاعد المجدفين . أسخيلوس ، .Ag ، ١٤٤٢ . وفى رحلة أخرى شبيهة بتلك ، وقعت مربية إيومايوس فى قاع السفينة ودق عنقها : الأوديسة ، ١٥ — ٤٧٩ .

والديمقراطية المطلقة ، إذ لا يعاقب على القتل والسرقة فى عرف القراصنة ذا الأخلاق البسيط ، بينما اعتبرت القسمة غير العادلة أخطر الجرائم الاجتماعية. فإذا خدع أجا ممنون أخيل ، وسلب منه فتاة جميلة من السبايا ، انحلت كل أواصر هذا المجتمع البدائى ، وربما تؤلف ملحمة كالإلياذة . فطرق إنتاجهم قد تكون غريبة ، مثل طرق بعض أصحاب الملايين المسرفين الآن ، ولكن حتم العرف عليهم اتباع طرق التقسيم بدقة[1] .

ولكن إنه لمرهق على مر السنين ، وأمام ازدياد تصلب العضلات ، مزاولة التجديف أبد الحيـــاة ، أو العيش شتاء وصيفاً فى حصون الجبال . وهكذا حتى القراصنة وقطاع الطرق نزعوا بعد فترة ، إلى الاستقرار والعيش فى حياة يونانية عادية . وأحياناً إذا لم يجرؤوا على العودة إلى مدينتهم ، اتخذوا لأنفسهم موطناً جديداً ، حيث يستطيعون أن يعيشوا هادئين لا يزعجون ولا يزعجون ، دون ما سؤال . وعلى هذا النحو مثلا احتل مسينا أولا قرصان من كوماى (Cumae) فى إيطاليا . وهكذا كان أيضاً أوتوليكوس ، جد أوديسس الموقر فى شيخوخته ، والذى كانت له شهرة كما يخبرنا الشاعر ، «لتفوقه فى السرقة على البشر جميعاً ، وفى استعمال القسم : لقد علمه هيرمس نفسه كيف يكون ذلك » . ومهما يكن الأمر فإن أبطال حرب طروادة ، الذين كانوا يتلهفون على العودة إلى أوطانهم وزوجاتهم الحزينات ، بعد مخاطرة دامت عشر سنوات ، لم يفضلوا كثيراً اللصوص وقطاع الطرق. وإنا لنسأل كما سأل توكيديدس ، كيف أمكنهم أن يعيشوا طوال هذه المدة ؟ لقد عاشوا على نحو أشبه ما يكون بذلك الذى عاش عليه أغرب من حكموا أثينا ، أى جماعة الكاتاليون الكبرى ، الذين استقروا ليحكموا أتيكا ،

(١) الإلياذة ، ١ — ١٢٢ ، وما بعدها ، ثم الأوديسة ، ٩ — ٤٢ ، ١٠ — ٤٣ . اتبع قراصنة الفرنجة فى القرن السابع عشر ، كما يبين ذلك بيرارد ، نظاماً أكثر دقة فى حياتهم . فلديهم على المركب ضباط منتظمون دائمون ، لا رؤساء منتخبون ، وكان العصيان يعالج على أنه عصيان ، وكذلك فعل Sir Francis Drake .

وقاموا بالخدمة الدينية فى كنيسة القديسة مارى على الأكروپول ، بعد بضعة سنين مرحة ، قضوها فى العيش على النهب من الخيرسونيز فى تراقيا ، أمام طروادة[١] .

أخذ المخاطرون هؤلاء يتفرقون ويقلون ، ليقظة قوات الحراسة البحرية . وعندما اضطلعت أثينا بحراسة بحر إيجه فى القرن الخامس ، ولت أيامهم المجيدة . إلا أنهم كانوا يعاودون الظهور كلما سنحت لهم فرصة ، وبذا ظل الأمن الذى به تباهت أثينا ، أمنا نسبياً لا شاملا . وكان السفر فى العصر اليونانى أمراً غير مأمون أبداً ، إذا ماقيس بالعصر الحديث . وحتى فى القرن الخامس فى أثينا نفسها ، ظهر قاطع الطريق المشهور المعروف باسم «أوريستس» ، الذى كان ينقض عليك فى الطرقات المظلمة ، وأنت عائد بعد سهرة إلى منزلك . وفى البحر سرعان ما ينقلب أعداء القوة الحاكمة إلى جماعة من القرصان . وإنك لتستطيع أن ترى كم كانت هذه المهنة عادية وطبيعية ، من الخدعة الحربية التى لجأ إليها بعض الميجاريين فى مناسبة ما ، ليمكنوا الأثينيين من الدخول إلى ما وراء أسوارهم . لقد تظاهروا بأنهم من القراصنة ، وبذلك حصلوا على إذن يقضى بأن تفتح لهم الأبواب كل مساء ، ليحملوا قاربهم على عربة إلى الشاطىء ، ثم يأخذوه ثانية قبل الشروق . وبمجرد أن انتهت سيطرة أثينا ،

---

(١) توكيديدس ، ٦ — ٤ — ٥ (مسينا) ، ١ — ٢ (قومسارية حرب طروادة) ، الأوديسة ١٩ — ٣٩٥ (أوتوليكوس) . أما فيما يخص تاريخ الكتالانيين العجيب فانظر رنل رود (Rennell Rodd) ، الجزء الثانى ص ٦٦ ، وكذا ص ١٣٨ وما بعدها ، وهى قصة تعرفنا كيف حمل أحد القتلة المسنين ذوى القلوب الرحيمة ، طفلا ملكيا ، فجازوا به مخاطر لا نهاية لها ، حتى أوصلوه إلى جدته فى اسبانيا . وربما يسرهم أن يعلموا أن اللغة الاسبانية لا تزال مستعملة فى موانئ الخيرونيز الصغيرة ، وإن لم تكن نفس لغتهم ، ولا الذين يتكلمونها من سلالتهم . — ١٩٢١ . ويعلق دون ميجول دى أونامونو (Don Miguel de Unamuno) على ذلك بقوله ، « إنه من المعروف جيدا عندنا في اسبانيا ، أن لغة اسبانى القرن الخامس عشر ، لا تزال مستعملة فى موانئ الخيرونيز الصغيرة ، أما عن مآثر الكتالان فى اليونان ، فلدينا كتاب رامون مونتانر (Ramon Montaner) الذى كان نفسه واحدا من تلك الفرق . والكتاب مكتوب باللغة الكتالانية ، ويستحق الإعجاب » . وقد ترجمته إلى الإنجليزية جمعية هاكليت (Hakluyt Society) فى العددين ٤٧ ، ٥٠ .

عاودت تلك السفن نشاطها ، وناوءت القوى البحرية الصغرى حول جزائر الأرخبيل[1] .

والآن آن لنا أن نتركهم إلى ماهم فيه ، إذا ما اقتفينا آثارهم أكثر من ذلك ، جرنا على فروع الاقتصاد الأخرى . فمن سيضع الحد الحقيق الذى يقف عنده النهب ، وتبدأ الأعمال الحربية الشرعية ، وكذلك التجارة ؟ فبين السرقة والاغتصاب ، « والاستمالة السلمية للبيع » ، لفروق غاية فى الضآلة : وحتى التعبير الحديث الإغراء السلمى للشراء، أو «فتح سوق جديد» ، لهو شبيه بها أحياناً بشكل غريب . وعلى أية حال فإن كل ضروب النشاط هذه ، لتبعدنا عن موضوع هذا الفصل ، أى عن دراسة الصيادين واللصوص القدماء فى البر أو البحر . ولننتقل الآن إلى دراسة كيف تعلمت البيئة الناشئة أن تتخلص من غريزة الصيد هذه ، وتستغلها فى تحقيق أغراضها القومية — (أنظر التذييل) .

---

(١) توكيديدس، ٤ — ٦٧ — ٣، وانظر ٢ — ٩٧ — ٤ و ٦٩، ونبايخص «أورستس» أنظر الطيور، ١٤٩١ . لم يكن شخصية منعزلة، أنظر إجزينوفون، Mem. ، ٢ — ١ — ١٥.
ταῖς ὁδοῖς ἔνθα πλεῖστοι ἀδικοῦνται.

الفصل الخامس

المدينة الناشئة، الأعمال الحربية

'Αλλ', ὦ Σώκρατες, δυνατόν ἐστι καὶ ἀπὸ πολεμίων τὴν πόλιν πλουτίζειν.

Νὴ Δία σφόδρα γ', ἐάν τις αὐτῶν κρείττων ᾖ· ἥττων δὲ ὢν καὶ τὰ ὄντα προσαποβάλοι ἄν.

ولكن ياسقراط ، إنه من الممكن أن نحصل للمدينة على ثروة من أعدائنا الأجانب .

نعم بالتأكيد إذا كنت الأقوى ، ولكن إذا لم تكن كذلك، فستفقد حتى ماحصلت عليه .

اجزينوفون ، Mem. ، ٣ — ٦ — ٧ .

Ἡ πολεμικὴ φύσει κτητική πως ἔσται, ᾗ δεῖ χρῆσθαι πρός τε τὰ θηρία καὶ τῶν ἀνθρώπων ὅσοι πεφυκότες ἄρχεσθαι μὴ θέλουσιν, ὡς φύσει δίκαιον τοῦτον ὄντα τὸν πόλεμον.

إن الحرب على وجه التحديد وسيلة للكسب ، تشن على الحيوانات المتوحشة ، وعلى الأجناس الدنيا من البشر ، الذين لا يريدون أن يخضعوا لنا ، رغم أن الطبيعة قصدت بهم أن يكونوا خاضعين : وكل حرب من هذا النوع عادلة بالطبيعة .

أرسطو ، السياسة ، ١٢٥٦ .

منذ قرون عديدة كما رأينا ، أخذت الدولة المدينة الناشئة تتقدم نحو الرخاء ، فأدخلت الزراعة أو الرعي إلى الأراضي النائية ، ودعمت سلطتها على تفكير الرجال وحياتهم . فخارجها كان المخاطرون الذين لا وطن لهم ، يغيرون على البحار الضيقة ، ويسدون ممرات الجبال ، بينما في داخل حدودها الواضحة ، كان الفلاح والراعي والعامل وإلى جانبهم التاجر الصغير ، يعملون من أجل الدولة ، ويعدون أنفسهم للحكم الذاتي . وقد وصلنا الآن في بحثنا السريع لاقتصاد المدينة الناشئة ، إلى الوضع الذي عنده عُدِل عن

العزلة القديمة ، التى سادت قرونا عـــدة ، وبدأت دول اليونان تدخل فى معاملات مع جيرانها .

ويعزى هذا التغيير إلى أسباب طبيعية ، بسيطة كل البساطة . فاليونان بطبيعتها ، كما رأينا ، بلاد فقيرة لا تغل تلالها العارية ، ولا سهولها القحلة ، غذاء إلا لعدد قليل جدا من السكان . وبحسب طرق الزراعة البدائية المستعملة آنئذ ، كان لا بد وأن يأتى وقت على كل دولة مدينة ، لا تستطيع أن تنتج الأرض فيه مزيدا عن ذلك . لقد زاد سكانها حتى آخر طاقتها الطبيعية ، حتى إذا ما حدثت أقل كارثة ، كتأخر المطر أو هبوب عاصفة تتلف المحصول ، واجهت الدولة المجاعة . ويبدو أن الأمر وصل إلى هذا الحد ، فى تطور الدويلات الكبرى فى القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد . وقد تتبعنا فيما ذكرنا من قبل بعض النتائج التى أدى إليها هذا الأمر فى محيط السياسة ، أو فى حقوق المواطن . أما هنا فنحن معنيون بنتائجه الاقتصادية وحدها[1] .

عند ما يتزايد السكان على الإنتاج ، حتى لا يوجد من الطعام ما يكفى ، فهناك حلان مباشران فقط — تقليل عدد السكان ، أو الإكثار من الطعام ، أى إما أن يرسل مهاجرين إلى الخارج ، وإما أن تستورد مئونة منه ، ولنترك مسألة الهجرة جانبا ، إلى الفصل القادم ، لنعالج مسألة المؤن الجديدة .

كيف يمكن الحصول على الطعام ؟ لا يمكن أن يشترى ، إذ لا يوجد ما يشترى به ، وكذلك لا توجد منتجات أو صناعات تفيض عن الحاجة . فيجب إذن أن يصطاد ، أو يسلب أو كما يقول التعبير اليونانى ، « يغتصب أو يخطف » ، أو بعبارة أخرى يجب على المدينة أن تتبع غريزة الصيد : وأن تتعلم كيف تستغلها لما فيه مصلحتها . إنها يجب أن تتعلم كيف تقود الحرب .

---

(١) أنظر صفحات ١٢٧ وما بعدها فيما سبق .

أصبحت الحرب موضوعا مطروقا على منابرنا ، وفى صحفنا . ولكن لكى نفهم مكانها الطبيعى فى جماعة الدولة المدينة ، يجب أن ننسى كل ما سمعناه وقرأناه ، سواء عن شرورها أو قصصها . إذ لم تبد الحرب عند اليونانيين القدماء شراً أو شيئاً مبهجا، إنما كانت كما هى عند الكثيرين من قطاع الطرق فى البلقان اليوم ، مجرد شىء مثير ، وطريقة غير عادية لتمضية بضعة أسابيع من أوائل الصيف ، إنها جزء تقليدى من الاقتصاد القومى ، ومن الخدمة العامة ، التى يقوم بها الأفراد . فبين حرب اليونان والحرب الغربية الحديثة،فوارق واضحة حيوية ، وإنه لضرورى الإلمام بها لسببين ، لفهم التاريخ ، ولفهم السياسة فى عصرنا الحاضر .

فالحرب فى العالم الحديث تخدم غرضين منفصلين ، أو المفروض أنها كذلك . فأولا بما أننا نعيش فى عالم يحوى دولا متعددة ، ذات سيادة ، ليس بينها قانون ملزم ، فالحرب هى الطريقة الوحيدة الميسورة لفض الخلافات التى تقع بينها ، عند ما يعجز العقل والتريث عن حسمها . فهى الحكم الصلب الذى يلجأ إليه الرجال المهزومين مادياً ، إن لم يكونوا مهزومين روحياً ، والذى يجب أن يعتبر حكمه فاصلا ، ولو إلى حين . ولهذه الأسباب اعترف بها المفكرون ورجال السياسة منذ زمن بعيد ، ووجدوا فيها إذا استعملنا (تعبير سياسى أمريكى) « جنونا وحشيا » — إنها وسيلة سمجة لا تناسب حياتنا المتحضرة . لأن الأمم المتمدينة — أى الشعوب التى نالت الاحترام الذاتى ، الذى هو الطبيعة الثانية لكل قومية حقيقية — لا يمكن أن تعتبر الاحتكام إلى القوة ، أمراً حاسما نهائياً . فمثل هذه الشعوب لا تحارب من أجل المادة ، ولكنها تحارب من أجل المسائل المعنوية ، ولا لتفادى دفع الجزية ، وتوفير أموالها ، إنما من أجل أوطانها وحرياتها وعاداتها ، وكل ما هو عزيز عليها . فالقوة وحدها لا يمكن أن تحسم أى مسألة معنوية . فمن المعقول مثلا أن تغزى انجلترا، ولكن لا يمكن أن تملك . فالناس يعرفون عن الحرب ويرون أنها كالعاصفة « تنق الجو » . ولقد

أدرك نابليون خيراً من ذلك عند ما وصل جزيرة القديسة هيلانه ، إذ قال متألما : إن السيف لا يقر شيئاً ، أبداً ، مطلقا . قد يمكنك أن تضم إليك مقاطعة ، وتكفل ولاءها لك ، بقوة القلاع أو الحصون ، وقد تذل كبرياء شعب ما حتى ليتطلعوا للانتقام ، وقد تدفعك مرارة الاضطهاد والحقد على تسميم منبع أفكار ناشئة ، ولكن لن تضع بذلك حداً لنزاع روحى . إذ رغم أنك قد تظن أن الحرب حسمتها الطلقة الأخيرة فى سهول طروادة ، فهناك فوق الأولمب بعيدا عن قصف المدافع وقعقعة البنادق ، يزن الآلهة المتحاربين بميزانهم الخاص ، وبعد الجيل الثالث أو الرابع ستعرف قضاء رب الآلهة وحكمه .

ولكن هناك وظيفة أخرى تنسب إلى الحرب . فقد قيل لنا أن الحرب الحديثة لا يجب أن تعتبر بعد اليوم ، حربا دينية أو خلقية ، فهذه الاعتبارات يمكن أن تترك جانباً ، وإنما تعتبر حربا اقتصادية ، أكثر منها أى شيء آخر . فهى مجرد توسيع لميدان التنافس والتزاحم القومى فى الحياة الحديثة . فالأفراد الذين كانوا يساومون الأجانب فى السوق العامة ، نقلوا إلى ميدان الحرب ليستأنفوا مساومتهم ونقاشهم . فالأمم الحديثة لا تحارب من أجل زيادة فى الولايات ، إنما تحارب للكسب ، تحارب من أجل أسواق بكر ، وضياع محمية .

وهذه النظرة إلى الحرب ، إنما رأى فيها أنصارها — أى أنصار الحرب — صبغة حديثة . وقد قيل لنا أن الناس فى القرون الوسطى حاربوا من أجل الدين ، واليوم يحاربون من أجل التجارة . والواقع أنها بطبيعة الحال ، ما هى إلا حرب فى أقدم صورها العاتية الخرقاء . وهى كما أدرك أحد أنصارها الصريحين ، لا تخرج عن حالة السلب القديمة التى كان يقوم بها رؤساء القبائل أيام هومر ، وعن حالة القرصنة الحكومية التى قادها الملك بوليكراتس ، متخفية فى ثوب جديد ، لتناسب فلاسفتنا القائلين بالتنازع على البقاء . إنها حرب كما وصفها أرسطو « وسيلة للكسب والاقتناء » ،

و « نوع من أنواع الصيد ». إلا أنها قد تحولت ، دون مبالاة، ودون محاولة لإدراك العواقب ، إلى ميدان الاقتصاد الدولى الحديث المعقد إلى حد لا نهاية له . وفى ظل نظمنا المالية الحساسة القائمة على الثقة ، حيث أحدثت أزمة أو شبه أزمة فى لندن أو باريس ، صداها فى برلين ونيويورك ، فهناك على الأقل ، احتمال لوجوب مراجعة نظرية الحرب القديمة . لا شك أن الحرب لا يمكن أن تقوم الآن ، بنفس طريقة القرصنة السهلة الموثوق منها ، فقد علمتنا التجربة أنها تمس حياة وثروات الملايين من غير المحاربين ، تمس العمال ودافعى الضرائب وحملة الأسهم وربات المنازل ، كما تمس المحاربين أنفسهم تماما . وقليل فى الحياة العامة ما يفوق التسرع الخاطىء الذى يعالج المسائل الجدية كما لو كانت تعالج « الألعاب » ، يفوقه تصديعا وتحطيما للقوى المعنوية . وقد تعرض أثينى القرن الخامس لهذا الخطأ المميت ، وإن كان له أعذار مقبولة إلى حد بعيد . على هذا لجدير بنا لكى نفهم الاقتصاد فى اليونان القديمة ، وفى جرائدنا اليومية ، أن نتتبع تاريخ الدور الذى لعبته الحرب فى حياة اليونان القدماء[1] .

لنعد مرة أخرى إلى توكيديدس . ففى جملة قصيرة قوية ، يذهب بنا عبر

---

(١) فيما يخص بحثا جيدا عن الظروف الاقتصادية التى تتم فيها الأعمال الحربية الحديثة ؛ أنظر نورمان انجيل (Norman Angell) فى كتابه The Great Illusion (لندن ١٩١٠، وكثيرا من طبعاته بعد ذلك) . إن الوهم المقصود هنا ، هو الاعتقاد السائد بأن الأعمال الحربية بين الشعوب الحديثة المنظمة خير تنظيم ، يمكن أن تكون ذات فائدة اقتصادية لمن يحوز النصر . ولنعرض مذهب المؤلف فى أبسط صورة : إذا فرض أن نهب جيش الغازى بنك إنجلترا ، فإنه يخسر نظير كل جنيه يأخذه من خزانة البنك ، ألفا من الجنيهات ، نظير زعزعة الثقة العامة فيه . وبهذا أدى إلى تغيير مركز القوى ، فى جدال قديم ، تغييرا مزعجا . فصار العاطفيون هم دعاة الحرب ، بينما « انحاز الرجل العملى » إلى جانب السلم . إن من المهم على أية حال ، أن نتنبه إلى أن الآراء والدوافع ، (وخاصة الدوافع الجماعية) ، لا تزول من تلقاء نفسها ، بمجرد ما يتبين أنها غير معقولة ، أو حتى لا فائدة لها . — ١٩١٤ . إننى أترك الملاحظة السابقة والفقرة التى فى النص مع إشارتها المسترقة إلى بولندا والألزاس واللورين بدون تغيير يذكر . فقد بحثنا بأسرع مما كنت أحذر .

هذه القرون الطويلة من العزلة . ثم بإشارة مقتضبة إلى المستعمرات ، يخوض أحب موضوع إليه ، وهو تحسين المواصلات ، لا سيما فى البحر . فهو يخبرنا عن أقدم الأساطيل ، وترجع لنهاية القرن الثامن وأوائل السابع ، ويؤرخ تسلسلها حتى القرن الخامس . ثم يتطرق قائلا : « إن الأساطيل اليونانية فى العصر الذى قطعناه هى كما وصفتها . لم تمنع ضآلة قيمتها من أن تكون عنصراً بالغ الأهمية كبير القوة للذين أنشأوها ، سواء من جهة زيادة الدخل أو تملك الأراضى . فقد كانت الوسائل التى تذهب بهم إلى الجزر وتخضعها لهم ، [وخاصة الدول التى لم يكن لها من الأرض ما يكفيها]. أما الحروب البرية فلم توجد ، أو على الأقل تلك الحروب التى بها تمتلك ولايات . لقد كانت كلها مجرد منازعات على الحدود بين الجيران . أما الحملات البعيدة التى ترمى إلى الفتح ، فلم نسمع عنها بين الهيلينيين . . . . فلم يكن ما نسب من حرب هناك سوى معارك محلية بين المتنافسين[١] » .

وهنا يتجلى لنا بوضوح أغراض الحرب اليونانية القديمة وكيفيتها . فهدفها كان الحصول على « دخل وعلى أراضى » ، أو بعبارة أخرى الحصول على الأرض والمؤن . ومنهاجها بحرا ، هو الوصـــول إلى الأراضى الزراعية والاستيلاء عليها ، وطرد سكانها المقيمين فيها ، أو فرض الضرائب عليهم . أما برا ، حيث كان مستحيلا الاستيلاء على أرض عبر الجبال ، أو جمع الجزية عنوة ، فلم تخرج الحرب عن القيام بغارات على الحدود ، وحمل ما يمكن حمله .

وعند ما اكتشفت المدينة هذه الوسيلة السهلة للثراء ، ابتكرت النظام الحربى والبحرى الذى يمكنها من أن تقوم بالغزو هى بنفسها ، أو تدافع عن نفسها ضد جيرانها . وبعد ابتكار هذا النظام كان لا بد للناس ، كما نعلم ،

---

(١) توكيديدس ، ١ — ١٥ . إن الترجمة هى فى جملتها ترجمة كراولاى (Crawley ، Temple Classics) ، فيما عـدا الجملة المهمة ، التى كتبتها بحروف مائلة ، حيث أخطأ المترجم السبيل . (هى الجملة التى وضعت بين قوسين مربعين) .

من أن يتجهوا إلى تطبيقه والاستفادة منه . وفعلا كان لكل دولة يونانية تقريباً جيشها العامل المكون من مشاة مزودين بالأسلحة الثقيلة ، على استعداد لتلبية النداء عند الحاجة . وكان كثير منها — ومن بينها أثينا منذ وقت طويل — قد درب بحارة للعمل فى أساطيلها أيضاً . فمن أيام تلك الحملات المبكرة التى وصفها توكيديدس صارت الحرب ، أو بالأحرى السرقة الحكومية أمراً معترفاً به فى حياة الدولة المدينة واقتصادياتها . وكما يقول كاتب ألمانى حديث، « كان من خصائص قوة الحياة فى الدولة المدينة أن تعيش على منتجات رجال غير رجالها . وهذا الدافع لم يختف إلا بعد أن زال كل باعث له . وقد اعتبر جلاوكون ، الشاب الذكى فى مورابيليا (Memorabilia) إجزينوفون ، الحرب أول مصدر طبيعى للدخل ، « للحصول على ثروة للمدينة من أعدائها الأجانب » . لأن العادات التى نشأت عن هذه الحرب القديمة ، والتى أتت لا شك عن السلب الذى سبقها ، كفلت للمنتصر كل أملاك المغلوب . وسنرى فيما بعد كيف أن المالية اليونانية كانت تعتمد غالباً على تطبيق هذه العادات . وكلما زاد الصراع على الحياة شدة ، زاد تشابه حروب الدولة المدينة بحملات السلب والنهب . ولن نفهم مركز أثينا الامبراطورى فى القرن الخامس ، إلا إذا مثل أمامنا دائماً هذا الإغراء[١] .

ويمكن أن نتتبع كثيراً من حملات السلب هذه فى صفحات هيرودوت . وحسبنا منها هنا اثنتان : حملة برية وأخرى بحرية . أما الأولى فتخص أثينا ، وتخص واحداً من أكثر أبطالها شهرة . يقول هيرودوت إنه « بالانتصار فى مراثون زادت شهرة ميلتيادس ، على ما كان له من حسن التقدير عند الأثينيين . فطلب منهم ٧٠ مركباً وفرقاً من الجنود ومالا ، دون أن يذكر لهم أى بلد يريد غزوها ، بل قال لهم إنه سيجعلهم أغنياء إذا اتبعوه ، فسيقودهم

---

(١) ريتزلر (Riezler) فى Über Finanzen und Monopole in Griechenland ص ٦٨ — ٦٩ . فيما يخص جلاوكون ، أنظر شعار الفصل . كلمة عدو (ἐχθρός) تعنى « أجنبي » وتقابل ξένος « غريب » ، أو ضيف صديق.

إلى بلد ، يستولون منه بسهولة على كميات وافرة من الذهب . وامتلأ الأثينيون بهذه الآمال ، فأعطوه ما أراد . وقاد ميلتيادس الفرق وأبحر إلى جزيرة پاروس ، مدعياً أن أهلها قد بدأوهم العداء ، إذ أنهم أرسلوا سفينة مع الفرس إلى مراثون . هذا هو السبب الذى ادعاه . ولكن الحقيقة أنه كان يضمر لهم عداوة خاصة، لأن ليزاجوراس بن تيزياس ، وهو پارى ، قد تكلم عنه بما لا يرضيه مع هيدارنس الفارسى . ووصل بقواته إلى پاروس وحاصرها . والتجأ الپاريون إلى حصونهم ، فأرسل ميلتيادس منادياً إليهم يطالب مائة تلنت قائلا ، أنهم إذا لم يعطوه هذا المبلغ ، فلن ينسحب جيشه إلا بعد أن يبيدهم . ولم يدر بخلد الپاريين أن يعطوه شيئاً من نقود ، إنما عمدوا إلى وسائل قد تمكنهم من الدفاع عن المدينة . فى أثناء الليل ، بالإضافة إلى خطط أخرى ، علوا الأسوار فى الأماكن الأكثر تعرضاً للغزو ، حتى ارتفعوا بها إلى ضعف ارتفاعها الأول . وإلى هذا القدر من القصة يتفق اليونانيون جميعاً ، وبعد ذلك تضطرب الرواية . ويبدو أن إحدى كاهنات پاروس طلبت إلى ميلتيادس أن يفعل شيئاً أدى إلى إيذاء قدمه عند ما وثب من فوق الحائط فى الظلام . وعلى أية حال فإنه عاد إلى وطنه فى حالة سيئة ، دون أن يحصل على مال للأثينيين ، أو يخضع پاروس ، وإن كان حاصر الجزيرة ٢٦ يوماً ونهبها »[١] .

وترجع هذه القصة إلى أوائل القرن الخامس . أما الغزوة البحرية التى تعطينا عنها فكرة واضحة ، فمن النوع الذى كان يجرى باستمرار بين مدن الشاطىء والجزر ، طيلة أيام اتساع الدولة المدينة . إلا أن هذه الحادثة لها أهمية أكبر من هذا ، لأنها تلق ظلا مشئوماً على طريق بحثنا الخاص . فعند ما أبحر ميلتيادس إلى پاروس لم تكن هناك إمبراطورية أثينية ، ولكن لما أنشئت الإمبراطورية ، لم تنس هذه الطرق التى ارتآتها الدولة المدينة ، ملائمة لها كل الملاءمة .

---

(١) هيرودوت ، ٦ — ١٣٢ إلى ١٣٥ .

أما القصة الثانية فترجع إلى حرب الپلوپونيز . عندما أرسل كريسس (Croesus) إلى اسبرطة ، فى حوالى منتصف القرن السادس، طالباً العون، ولم يتلق منها شيئاً، إذ كما يروى هيرودوت ، «فى ذلك الوقت كان الاسبرطيون أنفسهم فى عراك مع رجال أرجوس ، على قطعة أرض فى جزيرة تسمى ثيريا (Thyrea) ، لأن الاسبرطيين كانوا قد استولوا على ثيريا هذه، التى من المحتمل أنها كانت من ممتلكات أرجوس . . . فتقدم أهل أرجوس إلى الأرض التى أخذت منهم . واتفق كلا الفريقين بعد مناقشة على أن يشترك ٣٠٠ رجلا من كل جانب فى معركة ، والفريق الذى يكتب له النصر يأخذ الأرض المختلف عليها » . وانتهت المعركة بأن بقى اثنان من رجال أرجوس ، ورجل واحد من اسبرطة . وظن رجلا أرجوس أنهم انتصروا ، فسارعا بالعودة إلى بلادهم ليذيعا النبأ ، تاركين هذا الاسبرطى يسلب جثث رجال أرجوس على الطريقه الهومرية ، آخذا سلاحهم إلى معسكره ، مما أدى إلى استئناف المعركة فى اليوم الثانى[1] .

وفى هذه القصة المشهورة نقطة واحدة ذات أهمية خاصة ، تومىء إلى تحول غريب فى موضوعنا . فهى تبحث فى معركة على الحدود من ذلك النوع المعروف قديما ، والذى كان يحدث بين المواطنين والمنبوذين ، وبين دولة وأخرى طيلة العصر الذى نحن بصدده ، ولكن النزاع لم يجر وفق روح القرصنة الهوجاء القديمة . لقد حدث تغيير فى النهج ، إذ أصبح القتال الآن يسير على قانون ثابت ، وصارت له آداب مرعية خاصة به ، ولم يعد صراعا متوحشاً ، كل ما فيه «عادل ، أو مشروع » ، لقد أصبح مباراة رياضية لها قوانينها . والحق أن الحرب غدت رياضة ، بقدر ما هى « وسيلة للحصول على الأسلاب » .

---

(١) هيرودوت، ١ — ٨٢ . قارن فى هذه المناسبة خطبة البيوترخوس (Boeotarch) ، توكيديدس ، ٤ — ٩٢ .

ولكن الحرب كرياضة تخرج بنا عن حدود هذا الفصل . لأنها تتصل على التحديد بالوقت الذى أصبحت فيه الطرق البدائية للسرقة غير ضرورية لحياة الدولة المدينة ، عندما تمكن الرجال من أن يكونوا « نبلاء » ، لأنهم اكتشفوا وسائل أخرى لسد حاجاتهم العاجلة . أما الآن فيجب أن ننتقل إلى العلاج الثانى للدولة الناشئة ، وهو صمام الأمان ، أى الهجرة .[1]

---

(١) أنظر التذييل .

الفصل السادس

المدينة الناشئة ، الاستعمار

Καὶ δὴ καὶ τό γε τέλος, ἂν ἐπίχυσις ὑπερβάλλουσα ἡμῖν πολιτῶν συμβαίνῃ καὶ ἀπορῶμεν, τὸ παλαιόν που ὑπάρχει μηχάνημα, ἐκπομπὴ ἀποικιῶν.

وأخيرا — إذا كان هناك فيض من المواطنين ، وحرنا فى أمرنا ، فأمامنا ذلك التدبير القديم ، وهو ارسال جالية للاستعمار . — أفلاطون ، القوانين ، ٧٤٠ .

رأينا أن الدول الناشئة فى اليونان ، واجهت فى القرنين الثامن والسابع مشكلة ازدياد عدد السكان فى صورتها الحادة . ولتخفيف هذه المشكلة وضعان بارزان — أفراد أقل ، أو مؤن كثيرة — والوضع الثانى أسهل ، وأقرب إلى الطبيعة ، ولكنه مع ذلك أقل إرضاء للنفوس . وكما قال سقراط لتلميذه الصغير «أكيد أنه فى مقدورك أن تثرى على حساب الأجانب . . . إذا كنت أنت الأقوى ، أما إذا لم تكن كذلك ، فإنك معرض لأن تفقد حتى ما هو معك الآن» . وعلى ذلك فاليونان كانت تدفع تدريجيا إلى اتخاذ أصعب أنواع العلاج ، الهجرة وهو علاج فعال . وكما يعبر عنها أفلاطون بطريقته المحافظة الرقيقة التى اتبعها فى شيخوخته : «عندما يشعر الرجال الذين لا يملكون شيئا ، وفى حاجة ماسة إلى الطعام بالميل إلى أن يتبعوا قادتهم فى هجوم على ما يملكه الأغنياء ، فهؤلاء الذين هم آفة الدولة ، يبعدهم السياسيون إلى الخارج بروح الصداقة بقدر المستطاع ، وقد اصطلحوا على تسمية هذا الإبعاد اسما حلوا ، أطلقوا عليه اسم جالية» . فبالمجهود المقصود الذى بذلته الدولة من الناحية السياسية ، بتشجيع كامل من تأثير دلفى الناجح ، انقلبت الحركات غير المنظمة فى الوطن

إلى دافع استعمارى قوى . وفى خلال هذين القرنين أحيط البحر المتوسط من اسبانيا إلى القرم ، بنطاق من المدن أنشأتها اليونان وآسيا الصغرى[١] .

وإنما ظروف نشأة الاستعمار الإغريقى هذه ، أكثر من خاصية الجنس اليونانى ، هى التى تفسر لنا الفروق العميقة المميزة لصور الاستعمار فى اليونان القديمة ، وبين أحدث صوره فى عصرنا الحاضر — بين مرسيليا القديمة مثلا ، والحى اليونانى الحديث فى نيويورك . لم تكن حملات الاستعمار اليونانى مخاطرات أفراد ، أو جماعات من الأفراد ، بل كانت خطة منظمة دقيقة ، وضعتها الحكومة لنظام الهجرة . فالمستعمرة اليونانية لم يؤسسها جماعة قلائل من الرواد ، ثم عمرت رويداً رويداً ، بوصول جماعات من المهاجرين ، يتلو بعضها بعضا . ولكنها تأسست دفعة واحدة فى شكلها الكامل وتعدادها . أسسها أفواج من الناس خرجوا من موطنهم الأصلى ، يقودهم زعيم منهم ، كما يخرج سرب من النحل على رأسه ملكته[٢].

وإذا ما أسست المستعمرة ، غدت دون شك ، مدينة كاملة تحيا حياة جديدة مستقلة ، لها علاقات قوية أو واهية ، بقدر ما تحسه من ميل ، مع المدينة الرئيسية . ووصف هذه الحياة بخصائصها المميزة لها لا يقع فى حدود بحثنا . فالجاليات اليونانية لاتهمنا ، إلا من حيث الدور الذى لعبته فيما يتصل بأثينا فى القرن الخامس . ولكن لابد من ذكر بضع كلمات هنا لمجرد إزالة ما قد يكون هناك من أوهام .

لم تكن المستعمرة اليونانية أساساً مركزاً تجارياً . فالزراعة هى الأساس الذى يقوم عليه اقتصادياتها ، كما كان الأمر فى مدن الوطن الأصلى وقد كانت المصادفات وحدها فيما بعد ، هى التى جعلت بعضاً من هذه المستعمرات

---

(١) أنظر ما سبق ص ١٣٨ ، أفلاطون ، القوانين، ٧٣٥ — ٧٣٦ ، ثم توكيديدس ١ — ١٢ — ٤ (حيث لا يذكر مستعمرات البحر الأسود ، ويؤرخ تأسيس المدن الايونية بتاريخ متأخر جدا) .

(٢) أفلاطون ، القوانين، ٧٠٨ ، الذى يقارن تزايد السكان المفرط بحالة حصار .

مدنا تجارية هامة ، كبعض مدن الوطن الأصلى . فالرجال الذين خرجوا من مدنهم إلى تلك المدن ليكونوا هيئة مواطنيها ، اتبعوا التقليد القديم ، وهو زراعة الأرض . والحق أن غالبيتهم كانوا مزارعين ، انتزعت منهم أراضيهم، وكانوا ينادون فى بلادهم بضرورة « إعادة تقسيم الأراضى » . والنصوص التى لدينا ، ترينا إعادة تقسيم الأرض هذه وهو فى دور التنفيذ ، ولكن لم يكن يطبق إلا على أراضى البرابرة . وقد جاء فى اللوائح التى وصلت إلينا وتخص إحدى مستعمرات أثينا فى تراقيا ما يأتى: « ينتخب عشرة من مقسمى الأرض ، واحدا عن كل قبيلة ، وهؤلاء يقومون بتوزيع الأرض » . واللوائح الوحيدة الأخرى التى عندنا تخص مستعمرة فى جزيرة كورزولا فى دلماشيا ، وهى تفصل الأمر تفصيلا أدق فتقول: « يعطى لكل من هؤلاء الذين كانوا أول من سكنوا الأرض ، وحصنوا المدينة ، قطعة أرض لبناء منزل داخل الدائرة المحصنة ، مع جزء من الأرض تابع للمنزل . أما من الأرض خارج المدينة ، فيجب أن يكون لكل رجل ثلاثة أرباع الفدان ، كنصيب أول له ، فضلا عن نصيبه من الأرض التى لازالت باقية تحت التقسيم . أما أفراد الجماعات التى تصل فيما بعد ، فيأخذ كل رجل منهم فدانا من الأرض الباقية تحت التقسيم . أما الوافدون بعدهم ، فقد شغلوا الأرض وحصنوا المدينة » . ثم يلى ذلك النص أسماء الرجال الأول ، الذين استعمروا الأراضى ، مرتبة حسب نظام « القبائل » فى المدينة الأصلية[1] .

هذان النصان هما كل ما بقى لنا من النصوص ، وهما يظهران لنا بالتفصيل الاهتمام والتنظيم اللذين اتبعا فى تأسيس المستعمرة اليونانية . ولكننا نعلم من هيرودوت الجهود التى كانت تبذل فى اختيار مكان صالح ، وكيف كانوا يلجأون لأبولون ، لا لمجرد أنه قوة ناجعة شافيـــة ، لها تأثيرها الخلق

---

(١) هكس وهيل رقم ٤١ ، ديتنبرجر ، رقم ٩٣٣ . لقد تأسست بريا (Brea) فى القرن الخامس ، وتأسست كورزولا (Curzola) فى القرن الرابع . أنظر على العموم ماير ، الجزء الثانى ، الفقرة ٢٨٤ ثم الملاحظة ، الذى يبين مدى ضآلة معلوماتنا المفصلة عن الاستعمار اليونانى . ولم يكن هناك ، ثمة هكليت (Hakluyt) يونانى يجمع لنا تفاصيل الرحلات القديمة .

وتعضيدها الأدبى ، ولكن كمصدر مفيد للأخبار عن الجهة التى يراد استعمارها . فيذهب الرجال إلى دلفى بمجموعة من الأسئلة عن عملهم ، وكان كل سياسى فى اليونان يعلم أهم الأسئلة التى ستوجه .

وقد ذكر كل من أفلاطون وأرسطو فى القوانين والسياسة ، أهم أسس المستعمرة النموذجية : وهى مقادير وافرة من الماء ، وأرض صالحة للقمح والزيتون والعنب ، وأخشاب للسفن ، وميناء صالح، ومكان للمدينة لا يقرب البحر كثيراً . علاوة على وطنيين مستأنسين سهلى القيادة ، يرغبون رغبة صادقة فى زراعة الأرض ، إذا ما أمنهم أسيادهم من الظلم . ولكن فلاسفة القرن الرابع ، إنما كانوا ينقلون البيانات التى وصلت إليهم من أجيال عديدة فى حياة اليونان الزراعية . أما النموذج الأصلى فنجده فى هومر على لسان أوديسيس ، حين يصف لألكينوس استراحته الأخيرة فى الخيام قبل منازلة كيكلوبس (Cyclops) ، وذلك فى جزيرة ملأى بالغابات والمراعى الناضرة ، وبالأراضى الزراعية وأرض الكروم ، وبها قطعان من الماعز لا عد لها ، فى وديانها الوعرة . ولكن هذه الجزيرة لم تعرف طوال أيامها البذر أو الحرث ، وها هى تنادى الرجال ليزرعوها[1] .

هنا يجب أن نترك المستعمرين ، إلى أن نقابلهم مرة أخرى ، عندما نخرج فى رحلة مع تاجر أثينى . وقد حان الوقت لنبدأ ناحية أخرى فى بحثنا. فالاستعمار يولد المعاملة ، والمعاملة تسلم إلى التجارة . لقد وصلنا فى الحقيقة إلى درجة فى تطور اقتصاد المدينة ، عندما غدت مستحيلة ، الحياة الاقتصادية القديمة القائمة على الاكتفاء الذاتى ، حتى رغم كون الاستعمار صمام أمان لهذه الحياة . وبمعنى أدق لقد خرجنا تماما من هذا الحد الضيق . فكيف

---

(١) الأوديسة ، ٩ — ١١٦ وما بعدها ، هيرودوت ، ٥ — ١٥٥ وما بعدها ، إجزينوفون ، Anab. ، ٦ — ٤ — ٣ وما بعدها (وقد دل هذا على أن كان لإجزينوفون عين خبير) . أفلاطون ، القوانين ، ٧٠٤ وما بعدها ، ٧٤٠ ، أرسطو ، السياسة ، ١٣٢٧ ا و ١٣٢٩ ا ٢٦ و ١٣٣٠ ا ٢٦ وما بعدها (الشعوب المسالمة) .

يصدر أبولون تعلياته البحرية ، أو كيف يعرف مستعمرونا حول أى رأس تقوم مستعمرتهم ، مالم يكن الرواد المخاطرون قد اكتشفوا من قبل المكان ، أو مالم يكن « شخصا ذو قلب ، وشاب مقدام من سادة الأمواج ، قد تحدى الفينيقيين والوطنيين وشق طريقه ، متبعا مثل الأوديسة ، فى بحار ليس لها خريطة أو تخطيط ، حتى يصل إلى الميناء التى يختارها هو ؟ وهؤلاء الرواد بعضهم قراصنة والبعض الآخر عملاء أو وسطاء « لتاجر هياب ، فى البلدان الداخلية . بل هم أحيانا جنود نظاميون ، أو مكتشفون ، أو باحثون خرجوا « لمجرد المشاهدة » . هؤلاء هم الذين خلقوا عصرا اقتصاديا جديدا للدولة المدينة ، وهم فى الوقت نفسه خُلِقوا من هذا العصر . أما الأهالى الذين راقبوا جهادهم للوصول إلى الشاطىء من مسافات بعيدة فى البحر ، وقد أحضروا كنوزهم ، أو ما عندهم إلى الشاطىء المقايضة بما يحملون ، فى مكان لقائهم المعتاد . هؤلاء الأهالى كثيراً ما عجبوا لما دفع بهؤلاء إلى السياحة ، بعيدا عن وطنهم وآلهتهم . وقد أخذ يوريبيدس، « أكثر الشعراء ميلا إلى التراجيدى » ، هذا السؤال عن شفاههم ، وأجراه على لسان زمرة من نساء أسرى ، كن يتلهفن على أن يروا وجها من وجوه أهل وطنهم .

لقد لمع الزبد ، ثم لمع ،
وعلت المجداف موجة ،
وإذا بهم إلى قلب البحر يخرجون ،
إنها عربة من الصدف جرتها رياح عاتية .
فهل لشهوة الذهب أتوا ،
أم زهوا ، ليغدو عظيما بيت لهم ؟

إنهم لم يستطيعوا جوابا ، ولم يستطعه المهاجرون أنفسهم . لقد اندفعوا وراء الأمل ، خيرا كان أم شرا ، غنما أو آلاما ، نصرا أو هزيمة ، كما اندفع رجال عصر العصابات من بعدهم .

إنه حلو الأمل ، حتى لأحزان البشر
حلو حتى أحد عنه لن يحيد ،
ممن أصاخوا ذات يوم لهذا النداء البعيد ،
أن سيجوا بين قوم عاتين ، وبين بريق
من بحار موحشة ، إن فى كل قلب لحلم :
ها ، إن فى هذا لقضاء على اليأس ،
حين يملك أحداً من البشر (١) .

---

(١) يوريبيدس، I.T. ، ٤٠٧ وما بعدها (ترجمة مورى) ؛ هيرودوت ١ — ١٩٦ (التجــار الهايبون) . ἅμα κατ' ἐμπορίαν καὶ κατὰ θεωρίαν («يجمعون بين العمل والنظرة الغامضة») هذا هو بيان الرحالة اليونانى عن نفسه : Ath. Pol. ، ١١ — ١ ، ثم أيزوكراتيس، ١٧ — ٤ ، أنظر هيرودوت، ٣ — ١٣٩، توكيديدس، ٦ — ٢٤ — ٣ . وأفلاطون الذى اعتقد أن الأسفار تضر بالناس ، لم يعترض على ترحال الباحثين العلميين ، فقد كان واحدا منهم . ولذا كانوا الوحيدين الذين يسمح لهم بالسفر الى الخارج دون أية شروط . أما المواطنون العاديون فيباح لهم الترحال بعد سن الأربعين ، ومن أجل شئون الدولة فقط ، « وعند عودتهم الى الوطن يعملون على تلقين الشباب أن نظم الدول الأخرى أقل من نظمهم» (القوانين، ٩٥١) . إن من الغريب أن أقدم المستعمرات الصقلية ، وتبدأ بناكسوس وسيراكوز ، قد تأسست حسب التأريخ المنقول عن « قصص التأسيس » ، قبل إنشاء المستعمرات فى اليونان الكبرى ببعض الوقت . مع أن اليونان الكبرى « تقع فى الطريق البحرى المؤدى الى صقلية ، (كان مارا بكورسيرا) ، وكان بها بعض مواضع تصلح لأن تكون أراضى زراعية طيبة . ولذا فإن التواريخ التى بين أيدينا ، ربما دلت أحياناً ، لا على تأسيس المستعمرة ، بل على تاريخ أول جالية تجارية (ἐμπόριον) ، وربما قد ترك بها من أول مرة فريق من الرجال أثناء الشتاء . ويؤيد هذا أن سيراكوز ، وبنوع خاص ناكسوس ، ليستا قطعا خير مكانين لإقامة جالية زراعية . فناكسوس كانت مركزا طبيعيا يتجه اليها الإنسان ، فهى تقع تحت إتنا (Etna) ، كما ترى بعد أن يدور الإنسان حول اسبارتيفنتو وسيراكوز ، أو على الأصح جزيرة أورتيجيا (Ortygia) التى تقع « بعيدا عنها » (وهى من المواقع التي يحبها التجار المارون بها ، توكيديدس ، ٦ — ٢ — ٦) ، وكان يرحب بها الناس ويتهافتون عليها لعذوبة عينها أريثوزا (Arethusa) التى تقع على بعد بضعة ياردات من الشاطىء ، عند نهاية طرفه البارز . قارن البيان المذكور فى هيرودوت ، ٤ — ١٥١ وما بعدها ، عن الطريقة التى استعمرت بها ثيرا مدينة قورينا (Cyrene) التى جاءت عن طريق المعلومات التى أدلى بها بعض صيادى الأرجوان . هؤلاء الزائرون من التجار القدماء أتوا بدون زوجات ، ولا عائلات ، ولا آلهة أو نظم .. إنهم كانوا يختلفون تماما عن حشود المستعمرين المتأخرين ، كاختلاف صائدى الحيوانات فى خليج هدسون عن الكنديين =

الفصل السابع

اقتصاديات المدينة : الصناع والعمال

إن عملك وحده ، يمكن أن يباع ، أما روحك فلا .

رسكين فى Time and Tide ، فقرة ٨١ .

كل حرفة يدوية تعد عند اليونانيين فنا ، أما عند الرومان فكل فن هو حرفة يدوية .

ماركاردت .

لقد انحصر همنا فى هذا البحث الاقتصادى حتى الآن فى اطراد التزايد . ورأينا الدول اليونانية المعتمدة على اقتصادها الزراعى البحت ، تواجهها مشكلة زيادة السكان على الإنتاج ، التى لا مناص عنها ، وما اتخذته من علاج ناجع إزاءها ، وهو الاستعمار على مدى واسع النطاق .

وتلا عملية تخفيف الضغط هذه ، التى كان لا بد منها ، فترة أهدأ امتازت بتثبيت القوى الاقتصادية ، على أسس جديدة أوسع من السابقة . وما نحن نصل إلى صبح التاريخ ، إلى الدولة المدينة التى نعرفها ، ليس فقط عن طريق مدائح أفلاطون وأرسطو التى لا تجدى، وإنما من الشعراء والمؤرخين أيضاً ، إلى الأوضاع الاقتصادية التى كانت الأسس المباشرة ، التى قامت عليها الإمبراطورية الأثينية فى القرن الخامس . ويبدو أنه من الأفضل أن نغير

= العادين ، أو كاختلاف الفيكنجز (Vikings) القدماء ، عن النورمانديين . وهم فى الواقع ليسوا مهاجرين ، وإنما مستقلين. وقد اقترح مايرز (Proceedings of Classical Association، ١٩١١، ص ٦٧) حلا آخرا لهذا المشكل . فهو يظن أن المستعمرين الأول، قد مروا باليونان الكبرى . « لأنها كانت مستوطنة بأناس من بقايا نظام أقدم ، يرجع إلى العصر الмينوى المتأخر » : ولكن ذلك كما يقول ، لا يبدو أن يكون مجرد اقتراح . — ١٩٢١ . أنظر الآن Aubrey Gwynn, The Character of Creek Colonization ، وهو المقال الذى فاز بجائزة كرومر ، والذى يجمع قدرا كبيرا من المعلومات على نحو ملائم . (أنظر التذييل) .

طريقة البحث من الطريقة المتقلبة « الديناميكية » ، إلى الطريقة الثابتة ، ونقف عند هذه المرحلة لحظة ، نستعرض الخصائص الاقتصادية فى الدولة المدينة التاريخية . ولن يكون ذلك إلا على نحو إجمالى عام ، إذ سنجمع الأدلة من ميادين واسعة مترامية . ولكن من غير بيان كهذا ، من المستحيل أن نفهم المشاكل الاقتصادية ، التى واجهت أثينا فى القرن الخامس . وسنتبع النظام الذى اقترحناه فى فصل سابق ، فنبدأ البحث باقتصاديات الفرد ، ثم بالاقتصاديات العامة . نهتم أولا بالفرد الأثينى ووسائله فى كسب عيشه ، ثم نتدرج إلى السياسة الاقتصادية للدولة الأثينية . وبهذه الطريقة سنختار عددا من العوامل المهمة ، ونضعها فى أماكنها الصحيحة ، وهى عوامل لم نذكرها بحكم الضرورة فيما أجملناه فى الصفحات السابقة .

إنا لم نعرف حتى الآن ، إلا نوعا واحداً من المكتسب اليونانى ، وهو الذى يعتمد فى حياته على الأرض ، الأم الطبيعية للبشرية جمعاء . فعلينا الآن أن نضع جانبه طوائف المكتسبين الآخرين الذين زادت أهميتهم فى عصر تثبيت الدعائم هذا . وأول هؤلاء وأهمهم ، هو الصانع أو كما نسميه الآن العامل الفنى .

وسنحتاج إلى استخدام خيالنا قبل أن نتعرف على هذا الصانع ، إذ أن الشبه قليل بين الصناعات الفنية كما نعرفها الآن ، وكما عرفها اليونانيون . فأولا ، لقد شغلت الصناعة فى اليونان ، مكانا قليل الأهمية نسبياً . أما عندنا اليوم ، فالصناعة أهم دعائم الثروة القومية . وحتى عند ما يطالب المدافعين عن الزراعة ، بوضع الأرض جنبا إلى جنب مع الصناعات ، فإنهم إنما يذكروننا بأن الأرض هى « صناعتنا الكبرى » ، أما فى اليونان فقد كانت الأرض فى المرتبة العليا دون ما جدال . ولم يفكر المواطن العادى فى أن يتجاوز بنظره أمنا الأرض لكسب قوته . فلما شقت الصناعة طريقها كوسيلة ممكنة لكسب العيش ، ظلت ثانوية بالنسبة لمركز الزراعة الرئيسى .

والوضع الطبيعى الذى تصوره اليونانيون ، هو أن تكتفى كل عائلة ريفية نفسها بنفسها . تصنع محراثها ومنجلها ، وتغزل ملابسها وتنسجها ، وتبنى منازلها وتصلحها ، وتؤلف أشعارها ، وتحضر جرعات الدواء ، إذا ألم بها مرض . وإذا اعتمدنا على إحدى مدارس المؤرخين الاقتصاديين ، كان ذلك هو ما اضطلع به اليونانيون طوال تاريخهم[١] .

وليس من شك فى أن هذه الحالة السعيدة من الاعتماد على النفس ، لم توجد قط فى الواقع . فنحن نعرف من القطع المحفوظة فى متاحفنا ، أنه حتى قاطع الصوان ، كان لا بد وأن يكون محترفا . وحسب ما تصل إليه مصادرنا ، نرى الصانع إلى جانب الفلاح فى اليونان ، وفى فلسطين أيضاً ، فلا نسمع عن Tubal-cain الحداد وحده ، بل أيضاً عن جوبال (Jubal) ، الذى كان يلعب القيثارة فى ليالى الشتاء . ولكن سيظل صحيحا على الأقل أن هؤلاء الفلاحين القدماء ، وأيضـــاً زوجاتهم وتابعيهم قاموا فى منازلهم ، وخاصة فى نطاق صناعة الملابس ، بالكثير مما نرسله عادة نحن الآن ، وحتى مما كانت ترسله اليونان فى أيامها الأخيرة ، لمختص يقوم بأدائه ، ويأخذ عليه أجراً . ففى الأصل كانت الصناعة تخصصا . فالرجل الأعرج أو الأعمى الذى لا فائدة منه للزراعة ، كان يكرس نفسه للحدادة التى تتطلب جسما قوياً ، وأذرعا مفتولة ولا ترهق الأرجل ، أما الأعمى إذا كان قد وهب الذاكرة والقدرة ، فإنه يحترف رواية الأغانى القديمة وإدخال التحسينات عليها . وهكذا صار المجتمع غنيا بأمثال هومر وهيفايستوس المحليين . وسرعان ما اقتنع الجميع بأنه من العبث ، أن يضيع

(١) أنظر ماير فى « Die Wirtschaftliche Entwickelung des Altertums » (وقد أعيد نشره فى Kleine Schriften عام ١٩٠٩) ويدرس بأمانة رودبرتوس (Rodbertus) وأتباعه المحدثين . ولا تستحق نظريتهم أن تذكر ، إلا لأنها اختلطت بمجرى الآراء المعاصرة ، فعاودت الظهور مثلا ، فى الاشتراكية وغيرها من النواحى التى تعنى بالانقلاب الصناعى . ثم إن ماير نفسه بكلامه عن « الرأسمالية » فى اليونان القديمة ، دون تحديد تام لما يعنيه قد أوحى إلى مدرسة أخرى منحرفة ، قوامها كتاب معروفون يرون فى كل ناحية من نواحى الحياة اليونانية وجها من ذلك النزاع الصناعى الحديث . (أنظر التذييل) .

وقت العائلة الثمين في عمل محراث أو آنية وسلال ، يمكن للصانع عملها بإتقان أعظم وفي وقت أقل ، أو أن يخاطروا بحياتهم الغالية دون أن يسترشدوا بنصح خبير في العقاقير والأعشاب . وهكذا مع بداية القرن السادس أصبح من المعترف به في المجتمع الأثيني ، بأنه إذا وهب رجل ملكة فنية خاصة ، فمن الطبيعي أن يستغلها لكسب عيشه . ويعطينا سولون في إحدى قصائده ، قائمة مختصرة بأسماء الذين اكتسبوا عيشهم ، عن طريق مهارتهم الفنية في عصره . فإلى جانب التاجر والزارع الفني ، الذي أصبح مشغولا بمعرفة أسرار زراعة الزيتون ، يذكر سولون صناع المعادن والنساجين والشعراء ، أو بالأخرى الرواة ، والمنجمين والأطباء . وعلى أية حال لم تكن هذه القائمة مستوعبة لكل شيء . فقد نسي على الأقل طبقتين هامتين جداً ، هما قاطعي الأحجار وصانعي الفخار ، ولكنها تحوى ما فيه الكفاية كمقدمة نافعة لبحثنا . إذ أنها تذكرنا أنا إذا أردنا أن نفهم الصناعة اليونانية ، والروح الطروب التي كانت توحي بها ، فإننا في حاجة إلى تصحيح وتوسيع فكرتنا المعروفة عن العمل ، بأن نمحو من عقولنا ميولا كثيرة هاجعة مردها إلى ضيق الاختصاص . وقبل كل شيء ترجع إلى الفروق بين الطبقات في الحياة الحديثة . فاليونانيون قديما وحديثاً ، لم يميزوا بين « المهنة » أو الحرفة ، و « الصنعة[1] » .

إننا إذا أنعمنا النظر في هذه المميزات الحديثة ، رأيناها غير حقيقية ولا معنى لها . فالفارق الحقيقي في هذا المجال ، كما عرفه أجدادنا هو ما بين الرجل في النقابة أو العشيرة ، الذي له معرفة بشيء ما محدد ، مع القدرة

---

(٢) سولون ، ١٢ — ٤١ وما بعدها . (لا يشير في باب ٤٩ ، إلى التعدين كما قيل أحيانا) . فيما يخص بجوبال (Jubal) وأخاه قايين (Tubal-cain) ، أنظر سفر التكوين ، ٤ — ٢٠ ، ثم تصوير جيوتو لهذه الجماعة الأولى في أسفل برج الأجراس (Campanile) . وقد كان بعض أصحاب المهن من الأسرى ، أمثال ديموكيدس طبيب البلاط الفارسي (هيرودوت ، ٣ — ١٢٥ ، ١٢٩) . وهكذا ، ربما كان بايبوس (Epeios) صانع الحصان الخشبي المشهور (في الإلياذة الصغرى) أسيراً من الإيبيين (وهي قبيلة انقرضت فيما بعد عندما اختلق له أصل آخر) .

المدربة على استعمالها ، وبين الرجل الذى لا يملك شيئاً من معرفة. أو بعبارة أصرح هو الفرق بين الفنان والعامل العادى . ففى تلك الأيام الأولى كان الرجال الذين يعرفون لذة الابتكار والإبداع ، سواء كان بالعقل أو باليد، يوضعون فى مرتبة « الشعراء » أو « الفنانين ». بويتاى (ποιηταί) وتخنيتاى (τεχνίται) ، ويقبلون كصناع زملاء .

إذا كنا قد جهلنا هذه الحقيقة التى لا ريب فيها ، وسمحنا لفنانينا ورسامينا ومؤلفينا وأطبائنا وميكانيكيينا أن ينكص كل منهم ، ويقتصر على « مهنته » أو « حرفته » وحدها دون غيرها ، فما ذلك إلا لأننا فقدنا السعادة القديمة التى جعلت الغاية المشتركة دائما نصب أعين الصناع . وقد استطاع نظامنا الصناعى أن يبعد اللذة والسرور من الصناعة بمهارة خبيثة كل الخبث ، حتى لنعتقد أنها مقصودة ، وبذا قضى على ينبوع الفن . فهو قد أبدل ، حيثما أمكن ذلك ، بمهارة اليد ودقتها ، آلات صماء ، وبالفكر المستقل للعقل البشرى ، نظاما لا روح فيه . وأبعد الصانع أو المنتج عن كل اتصال بالجمهور الذى يعمل له ، وأحل رابطة الدفع النقدى المضنى للقوة ، محل العلاقات الشخصية القديمة ، أو محل الإحساس بالبذل من أجل عمل مشترك . وزيادة على ذلك فقد سلبه حريته ، وأجبره على أن يعمل لسيد ليس بفنان ، وأن يعمل بسرعة ودون إتقان . لقد جعل من نساج سولون ، غازل صوف خشن مخلوط ، ومن شاعره صحفيا ، ومن كاهنه (إذا لم يكن طبيبه) دجالا . فإذا ما أردنا أن نفهم الصناعة عند اليونانيين فهما صحيحاً ، فلنرجع بأنفسنا إلى الوراء ، إلى جو أكثر حرية مثل ذلك الذى ظل يحيط منازل عمالنا الإنجليز ، حتى قرب بداية الانقلاب الصناعى. وطبيعى أن يستمتع الإنسان باستغلاله أحسن مواهبه . ولكن لم يشعر الناس قط بهذا الاستمتاع شعوراً قوياً ، ولم يبذلوا جهوداً كبيرة للحصول عليه ، بقدر ما حدث فى اليونان القديمة . وإن شئت دليلا على ذلك فاذهب وانظر رفوف متاحفنا اليونانية ، فيندر أن تجد قطعة من

صنعهم ، مهما بلغت بدائيتها ، دون أن تحمل قبس من روح الفن ، قد تكون ضعيفة أحياناً ، وأحيانا هي قوية كل القوة(١) .

ما هي الظروف التي كان يعمل في ظلها هؤلاء الصناع اليونانيون ؟ لكي نجيب على هذا السؤال سنأخذ فرعين نموذجيين من الصناعة ، أحدهما مما يؤدى خارج المنازل والثاني داخلها ، وما لدينا من معلومات عنهما يمكننا من ملاحظة سير العمل . فنترك الدباغ وصانع القيثار والجوهري والحداد وصانع الزجاج ، الذين لا نعرف عنهم شيئا كثيراً ، ونذهب لزيارة قاطع الأحجار والخزاف ، وبشيء من الحيطة والاحتراس الواجبين ، يمكن أن نفترض أن ما سنعرفه عنهما ينطبق على أعمال زملائهم الصناع ، الذين يعملون في ميادين النشاط الأخرى(٢) .

فالمعابد اليونانية والمباني العامة بكل ما فيها من الأعمال الفنية ، هي أشهر ما تبقى من آثار الصناعة اليونانية . ومن حسن الحظ ، أن لدينا الآن أدلة من النصوص ، كافية لتتبع بعض هذه الآثار ، أثناء عملية بنائها .

فالبناءون والمثالون الذين بنوا المعابد والأضرحة وزينوها ، وأقاموا

---

(١) من سوء الحظ أن الصناع اليونانيين ، لم يتحدثوا إلينا إلا بأعمالهم فقط . فلم يتركوا لنا شيئاً من أغانيهم التي كانوا بكل تأكيد يترنمون بها أثناء عملهم ، وكل ما لدينا من ذلك ثلاثة أسطر على طاحون قديم :

إطحني ياطاحون ، إطحني ،
فقد طحن بيتاكوس
الذي كان ملكا على ميتيلين الكبرى .

(Anth. Lyr. "Carmina Popularia" 46.)

(قارن أغنية حفارى الآبار فى الأعداد ، ٢١ — ١٧ إلى ١٨) . وليس أبدع من أغنية خزاف سيلان ، التي ذكرها والاس في The Great Society ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ . وهي تمثل العامل في كل مراحل وطرق عمله الذي يحبه . أنظر جلوتز ، Travail ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩ ، مع الصور الإيضاحية .

(٢) Blümner, Technologie und Terminologie der Gewerbe und Kunste der Griechen und Römern (ليبزج ، ١٨٧٥ — ١٨٨٦) ، وهو يجمع كل الدلائل عن المهن (وإن لم يذكر شيئا عن أصحابها) .

البواكى ، ومخازن الأسلحة وغيرها من المبانى العامة اليونانية ، لم يكونوا موظفين فى الدولة ، بل كانوا صناعا خصوصيين مثل سقراط ، وقتهم ملكا لهم . ففى الأيام العادية عندما تكون الدولة فى غيرما حاجة إلى خدماتهم ، كانوا يعملون فى مصانع الأحجار الخاصة بهم ، مع أربعة أو خمسة مساعدين ينقشون هذه النصوص التقليدية ، ويحفرون على شواهد القبور ، تلك المناظر الهادئة التى نعرفها جيداً من متاحفنا . ولكن إذا ما احتيج إليهم بخصوص مبنى عام كانوا يرفضون العمل فى الحكومة وقتاً ما ، ويعملون وفق اتفاق خاص تحت إدارة المراقبين الحكوميين أو وكلاء خصوصيين للأعمال العامة . وأحياناً يصبح رئيس البنائين مجرد ملاحظ أشغال ، وتدفع الدولة رأسا أجور عماله ، وإن ظل هو محتفظا بإشرافه عليهم فى عملهم . وأغلب الأحيان يظل هو مقاولا صغيراً ، يأخذ العمل على عاتقه ، ويضطلع بكل المسئوليات لإنجازه . وقد حفظت لنا بعض العقود التى صيغت على هذا النحو . وهى ترينا إلى أى قدر اهتمت المدينة بمراقبة العمل ، الذى أعطته للمقاولين . « عليه أن يعمل باستمرار . . . بعدد كاف من الصناع ، وفقاً لما تقتضيه المهنة أو العمل (κατὰ τὴν τέχνην) ، ولا يقل عددهم عن خمسة أشخاص . وإذا خالف شرطا مما ينص عليه العقد ، أو تبين أنه يؤدى عمله بإهمال ، (κακοτεχνῶν τι) فيعاقبه المراقبون ، بما يرونه مناسبا لعدم تنفيذ الشروط المكتوبة . وإذا ظهر أن أحدا من الصناع الذين يعملون معه يؤدى عمله بشكل غير مرضى ، فيجب أن يطرد من العمل ، ولا يشترك فيه بعد ذلك . فإذا لم ينفذ هذا الحكم ، عوقب هو والمقاول معا . . . وإذا أتلف المقاول أى حجر سليم أثناء العمل ، وجب أن يأتى ببديل عنه على حسابه ، دون أن يعطل العمل ، كما عليه أن ينقله — أى الحجر التالف ، خارج نطاق المعبد ، وذلك خلال خمسة أيام ، وإلا سيعد ملكا مقدسا . . . وإذا اختلف المقاولون فيما بينهم على أى شىء منصوص

عليه فى الاتفاق ، فللمراقبين الفصل فى ذلك . . . . »[1]

ومن هذا يمكن أن نرى بوضوح ، أى نوع من الرجال كان هؤلاء المقاولين القدامى ، وكيف يختلفون عن المنظم الحديث للعمال المأجورين ، الذى يسمى بنفس الاسم . كان المقاول اليونانى نفسه عاملا ، يعمل إلى جانب عماله ، ويتعرض للعقاب على سوء أعمالهم ، أو لإهماله هو . ولم يكن عنده رأس المال ، ولا العدد الكافى من العمال ، ليأخذ على عاتقه القيام بالعمل كله أو بجزء كبير منه . فهو لا يعدو أن يكون رئيس بنائين ، يعمل فى نفس العمل مع عدد ربما بلغ العشرين من رؤساء بنائين مثله ، فخورين بأنهم لوقت ما سيتخذون الأكروپول مصنعا لهم ، وبأنهم سيتركون سمة فنهم ؛ وسمات الصناع الذين دربوهم ، على أثر عظيم من آثار المدينة . ولم يكن ثمة منافسة تحول بين البناء المنافس والعمل ، ولا ثمة منافسة على مكاسب كبيرة . حقا ، لقد كان رأس مال هؤلاء المقاولين ضئيلا جداً ، كما أن مواردهم تعجز عن مواجهة أى مطلب كبير ، حتى أنه إذا شرعت مدينة فجأة فى عمل من الأعمال ، يحتاج إلى عدد كبير من العمال ، فعليها أن ترسل وكلاء عنها يستدعون المقاولين ، والعمال اللازمين من الخارج . ولا نرى أثراً لصناع مهرة عاطلين ، لا فى أثينا ولا فى غيرها ، بل الخطر هو العكس أى أن تفتقد المدن العمال اللازمين لتنفيذ المشروعات . وهكذا حين قرر أهالى أرجوس أنهم كأثينا ، فى حاجة إلى أسوار طويلة ، تمتد إلى البحر اضطروا أن يرسلوا إلى الأثينيين ، فى طلب مزيد من عمال الخشب والحجر . وكانوا

---

(١) ديتنبرجر ، رقم ٥٤٠ ، ٢ — ١١ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٤٢ ، والمبنى يمثل معهدا لزيوس فى ليباديا : وتاريخه يرجع الى ١٧٥ — ١٧١ ق . م . ولكن نفس الطريقة والتدبيرات المشابهة تظهر فى كل النصوص الباقية . أنظر ديتنبرجر ، الجزء الثانى ، ص ٥٣٧ وما بعدها (aedificationes) . فيما يخص المشرفين (ἐπιστάται) ، أنظر فرانكوت ، Industrie ، الجزء الثانى ، ص ٦٣ — ٦٤ ، وكل القسم الخاص بالأعمال العامة . وفى أثينا فى عهد بركليس ، كان عدد مشروعات المبانى ثلاثة أو أكثر ، ويحتفظ بها فى المكتب لأكثر من سنة . وربما كان يقصد من ذلك ، إلى أن تتم المبانى التى هى بشأنها .

يستطيعون إذا لزم الأمر ، أن يعهدوا بالعمل البسيط غير الفني ، إلى النساء والأطفال وخدم المنازل . أما هذه الأعمال التي تحتاج إلى مهارة بطرقها الصناعية المتوارثة ، فلم يكن ممكننا ارتجالها بمثل هذه السهولة[١].

وسيفيد هذا في تهيئة عقولنا ، لما سيرى فيه قراء العصر الحديث أبرز موضوع لنصوص المباني الأثينية ، وذلك لأننا تعلمنا من رجال اقتصادنا ، أن نعتبر مستحيلا ، أن يظهر من ثنايا النصوص ، ما يدل على أن بين البنائين عبيداً قاموا بنفس العمل ، وأخذوا نفس الأجر الذي يأخذه البناؤون الأحرار . والحقيقة أنه في مدينة تتطلع لبناء مبانى عامة هائلة — أو في مدينة كما ينبغي أن نقول ، فيها تنتشر المباني انتشاراً سريعاً — فالحاجة كانت ملحة إلى مزيد من العمال ، لسد النقص في صفوف هذه المهنة ولم يكن من السهل سد النقص من بين أفراد السكان الأحرار ، الذين يسلكون في الحياة مسالك أخرى لأن حركة التوسع أثرت إلى حد ما ، في كل نواحي الحياة تقريبا . فلا مفر إذن ، من أن يعوض هذا النقص من الخارج . ومن هنا أكملت أثينا نقص عمالها بعمال أجانب ، وذلك في القرن السادس بل وفيما بعده ، كما سنرى في القرن الخامس . وبعض هؤلاء كانوا من المقيمين الأجانب الأحرار ، الذين اجتذبتهم أثينا ، والبعض الآخر من العبيد الذين كانت دعوتهم اضطرارية ملحة . والنقطة الجديرة بالملاحظة هنا ، هي أن هاتين الطبقتين ، مهما كان وضعهما القانوني ، قد قبلتا في المهنة وكان أفرادها يعملون بنفس الشروط التي يعمل بها المواطنون . ومن مراجعة ما دفعته الدولة لبناء الإرخثيوم عام ٤٠٩ ، يتبين أن الأجور دفعت إلى ٢٧ مواطناً و ٤٠ أجنبياً من الأحرار و ١٥ عبداً . ويمكن أن نتأكد من صحة هذه الأرقام بمقابلتها بحسابين آخرين لأثينا ، خاصين ببناء معبد في إلوزيس في السنوات ٣٢٩ — ٣٢٨ ، ٣١٩ — ٣١٨ . وهاتان المجموعتان ، إذا ضمتا سوياً

---

(١) توكيديدس ، ٥ — ٨٢ — ٥ . أنظر فرانكوت ، الجزء الثاني ، ص ٣ ، فيما يخص مقاولي جمع العمال (Κήρυκες) . قارن مساعدة حيرام لسليمان ، الملوك ١ ، ٥—٦ ، ١٨ .

تبين أن هناك ٣٦ مواطناً و٣٩ مستوطناً و١٢ أجنبياً ، وعبدين ، فضلا عن ٥٧ اسماً آخرا ، من الصعب تحديد إلى أى فريق من هؤلاء تنتمى .[١]

لم يكن هؤلاء العبيد وغيرهم من غير المواطنين (بكل تأكيد كان كثير منهم من المحررين) يعملون فقط فى نفس الحرفة التى فيها يعمل المواطنون ، بل كانوا يقيمون فعلا بنفس الواجبات . فى الإرخثيوم مثلا ذكرت النصوص فرعاً واحداً من العمل، وهو تخطيط الأعمدة .يقوم بتخطيط كل عمود جماعة يتراوح عدد عمالها بين أربعة وستة ، يقودهم رئيسهم أو رئيس البنائين . وكلهم بما فيهم الرئيس يأخذون أجراً متساوياً . المواطنون وغير المواطنين ، العبيد منهم والأحرار ، بدوا وحدة ممزوجة . وفى إحدى الحالات، كان الرئيس عبداً ، وفى حالة أخرى جاء سيد ، يقوم بدور رئيس العمال،جاء بعبدين من عبيده،واستأجر عبدا آخرا لهذه المناسبة من رجل آخر. وكلهم يأخذون أجراً واحداً ، درخمة واحدة فى اليوم، أوما قدرته الشرائية حوالى أربعة شلنات ..والحقيقة كما لاحظ فرانكوت ، أن الأجر العادى لجميع طبقات العمال ، فى الإرخثيوم ، « من المهندس إلى العامل اليومى ، ومن الحر والعبد ، هو درخمة واحدة فى اليوم »[٢] .

وهذا فعلا ما يجب أن ننتظره من مجتمع يعنى بالفن حق العناية ، إذا لم تكن نظريات أرسطو وغيره ، قد أذاعت الاضطراب فى مخيلتنا . فكل الفنانين الحقيقيين ديموقراطيون روحاً ، لأن الاهتمام المشترك فى عمل حسن

---

(١) I. G. ١، ٣٢٤ — ٣٢٤، التى حللها فرانكوت ،الجزء الثانى ، ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .

(٢) فرانكوت ، الجزء الأول ، ص ٣١٦ . لم يكن للعبد الحق فى أن يحتفظ بهذه : أو بأية نقود أخرى يمكنه اكتسابها (مثلا بأن يفتح حانوتا) فسيده ومالكه يؤجره (كما يفعل مالك الأرض بأرضه) ، نظير ما يستطيع أن يحصل عليه من عمله ، ويستحوذ على دخله الذى يسمى « كراء العبيد» (ἀποφορά) . ولكن بالتجربة استطاع مثل هؤلاء العبيد أن يحتفظوا لأنفسهم بقدر طيب من مكسبهم ، على أمل أن يشتروا به يوما حريتهم . أنظر ص ٣٩٠ — ٣٩٢ فيما يلى . كان العبيد الذين يعملون « لحسابهم » يعرفون بـ χωρὶς οἰκοῦντες (Dem. ، ٤ — ٣٦) . وفيما يخص قوة الشراء ، أنظر الملاحظة ، ص ٤١٢ فيما يلى .

يطغى على كل الفوارق غير الحقيقية . فلم ير الصناع الأثينيون فى عبيدهم « آلات حية » ، كما يسميهم أرسطو ، وإنما مجرد « زملاء فى العمل » ، هم أيد إضافية زيدت إلى مصنع العائلة ، لمساعدة البنائين والخزافين ، على سد حاجيات المدينة . ولاشك أن أرسطو الذى يشبه المحامى ، كان على صواب من الوجهة الفنية ، فقد ظل العبد « شيئاً » وليس « شخصاً » ، ولم يكن فى مقدوره أن يؤكد حقه الشرعى فى الأجر الذى يكسبه . ولكننا سنرى فى فصل قادم كيف أن مركزه فى اقتصاديات المنزل ، ونشاطه اليومى فى الحياة الخاصة ، كان له أثره على مركزه الشرعى[1] .

وما زالت هذه الأعمدة المخططة فى مكانها حاملة الأروقة التى أقيمت من أجلها ، لم يسلبها الزمن جمالها ولم ينل من رشاقتها ودقة صنعها ، اللتين كستها بهما أيدى هؤلاء الغرباء والعبيد . ولنترك الأكروبول الآن لنذهب لزيارة خزاف صديق فى سراميكوس . ولن نرى هنا مصنعا بشع المنظر ، كما هو فى العصر الحديث ، فمن المحتمل أن نجده فى منزله ، مثل العامل الذى يسكن الكوخ اليوم ، ومعه أولاده وجماعة تساعده من عمال صغار آخرين . فنادرا ما كان يستعمل المنزل لشىء آخر ، حتى لم يقم ما يمنع من استعماله مصنعا ، وليس هناك من سبب يدعو إلى إضافة مصروفات أخرى على العمل ، نظير استئجار مكان آخر . فهذا المصنع أو هذه « المدرسة » (كما تعلمنا أن نقول عن المصورين الإيطاليين) . أو كما يعبر عنها الفرنسيون بدقة بقولهم « atelier patronal » (مصنعا رئيسيا) ، لم يكن قط كبيرا . وكما يقول كاتب فرنسى ، لم يزد عدد العمال عن ١٢ عاملا . وقد ترك لنا نقاشو الأوانى رسوما عدة تصور مصنع الخزاف المنزلى من الداخل ، وتوالى مراحل العمل المختلفة . فيمكن أن نرى الرئيس ، كما رأيناه فى مصنع الأحجار ، يعمل إلى جانب تلاميذه ومساعديه ، موجها ومشجعا لهم على

---

(١) « العمال الزملاء » : اجزينوفون ، Mem. ، ٢ — ٣ — ٣ ، إنها فقرة عارضة ، ومع ذلك فهى صادقة تماما ، أصدق شىء بالنسبة لهذا الموضوع .

ما يبذلونه فى سبيل الفن . كم كان نجاحهم ، فهذا ما يمكن أن يقدر ، بأنه من بين آلاف القطع التى تملأ المتاحف ، « ما من إناءين منقوشين نقشاً واحداً ».
ورغم ذلك فإن دوريس وإفرونيوس وزملاءهما الكثيرين المجهولين لم يعتبروا فى زمانهم بين الخالدين . لقد عدوا عمالا مخلصين ليس إلا ، اكتسبوا الدقة والمهارة من تمرين طويل مستمر ، حتى عرفوا ما هو العمل المتقن حقا ، وأسعدهم ما يبذلونه من مجهود جبار فى إنجازه . وما شكلوه من أوانى لم تكن للزينة ؛ ولا تحفا تستهوى الجامع — فلم يسمع اليونانيون عن جامعين ولا هواة — إنما كانت هذه أشياء للاستعمال اليومى . ولكنها ما دامت مصنوعة لاستعمال اليونانيين ، فيجب أن يخرجوها جميلة ما وسعهم، أى متقنة الشكل ، مصقولة تماما ، بديعة النقش ، وإلا عدت غير صالحة للاستعمال[1] .

لم تقم بين العمال فى هذه المصانع المتواضعة ، أية فوارق اجتماعية ، كما لم تقم بين بنائى الأكروبول . فكل يعمل قدر ما يستطيع ، ويكرم حسب عمله ، ويكافأ فى الوقت المناسب على ما أداه ، ولا بد أن كان كثير من العمال المساعدين فى أثينا فى القرن السادس ، بل وربما غالبيتهم فى القرن

---

(١) أنظر Pottier's Duris and the Painters of Greek Vases (الترجمة الإنجليزية ، ١٩٠٩) ، مع الصور ، وخاصة ص ٢٥ . وبالطبع كانت بعض فروع تلك المهن ، آلية أكثر من الأخرى . فلم يكن هناك مجال كبير ، لإظهار شخصية الصانع ، فى صنع الدروع والرماح ، وهذا الفرع هو الذى نجد فيه أكبر المصانع . ويقال أن كان يعمل فى المعتاد بمصنع ليسياس وأخيه ، ١٢٠ عاملا . ولكن يشك من الفقرة (.Lys ، ١٢ — ١٩) فيما إذا كان هؤلاء المائة والعشرون عبدا المذكورين استخدموا كلهم فى هذا . وإذا كان ذلك كذلك ، فيكون هذا المصنع أكبر ثلاثة مرات من أى مصنع يونانى آخر عرفناه . ويأتى بعده مصنع أبى ديموستنيز ويحوى ٣٣ عاملا . ولكن تاريخ كل من المصنعين ، يرجع إلى عصر كانت فيه أحسن التقاليد الصناعية اليونانية فى اضمحلال ، كما سنرى . ويبدو أن (فرانكوت ، Industrie ، الجزء الثانى ، ص ٢١) قد أبان أن هذه المصانع الكبرى لم تكن تدفع أجراً حسنا كالمصانع الصغيرة . وكان شعار الصانع فى القرن الخامس هو « مهما كان ما تعمل فاتقنه بأقصى ما تستطيع » ، كما كان شعاره فى المسائل العامة . وقد نادى بذلك سقراط أيضا (اجزينوفون ، .Mem ؛ ٢ — ٨ — ٦) . أنظر جلوتز ، Travail ، ص ٣١٩ .

التالى ، لا بد أن كانوا عبيدا أو أبناء عبيد . ونعلم أن من بينهم ، من لم يكن أثينيا ، بل ولا يونانى الأصل ، حتى من الرؤساء أنفسهم ، بل ومنهم من كان ذائع الصيت مثل بريجوس . إلا أنه لا يمكن لنا أن نتبين ، أى تمييز فى المعاملة ، لا من النقوش أو النصوص . فسواء كان فى مصنع الخزاف أو فوق قمة الأكروبول ، فالصناع ، عبيدا كانوا أو أحرارا ، أكلوا نفس الطعام ، وعملوا نفس ساعات العمل ، ولبسوا نفس ملابس العمل ، وكانوا يتفقون على خلعها ، إذا ما كانت طبيعة العمل مما تسبب الحر أو يخشى القذارة منها[1] .

ولم يكن الصانع بحاجة إلى رأس مال غير آلات عمله البسيطة ، (التى تصورها لنا نقوش الأوانى ، معلقة على الحائط ، كصورة من صور هولبين وذلك عند عدم استعمالها) . فما استعمله من أدوات نادرا ما كان غاليا ، وفى المعتاد كان يأتى بها من طلب إليه عملا . إذ كما تأخذ عربتك أو محراثك إلى النجار أو الحداد لإصلاحها ، كذلك تأخذ الجلد إلى الإسكافى ، (هذا وإذا اعتمدنا على إحدى أوانى أكسفورد) فإنك تقف على منضدته ، بينما يفصلها هو حسب قدميك . وإذا كنت مسرفا ، أو غدت زوجك وبناتك كسالى ، أو أعتقت إماءك ، أعطيت صوفك لأحد نساجى الصوف الخارجيين . فالصانع لم يكن فى الحقيقة تاجرا ولكنه كان ما يسميه

---

(١) فيما يخص المساواة فى المعاملة بين العبيد والأحرار فى المصانع أنظر جيرود (Guiraud) فى كتابه ، La Main - d'œuvre industrielle dans La Grèce ancienne ، ص ١٩٧ ، بوتير فى Duris ، ص ١٠ . إن اسم دوريس (Duris) نفسه ليس أثينيا ، رغم أنه لم يكن بربريا ، كأسماء كثيرين من الفنانين . وقد اعتدنا أن نعد رسوم الأوانى التى تمثل الأشخاص من أمثال الفخرانى والحداد وغيرهما ، عراة ، أو لا يضمون من الملابس إلا أقلها ، ليست إلا رسوما « اصطلاحية » . ولكن على إناء واحد على الأقل ، مثل لباس معلق على الحائط ، أنظر دارمبرج وساجليو ، الشكل ٢٩٦٩ ، مقال Ferrum . والحقيقة هى أنهم مثل الرجل البخيل فى ثيوفراستوس ، لا يمكنهم ولن يمكنهم أن يقتنوا إثنين . (القدماء لم يضموا ملابس ليلية) . والمصورون الآخرون وبعض كبار النقاشين الذين ينحدرون من أصل رقيق ، هم سكيثس (Scythes) وكولخوس (Colchos) وثراكس وليدوس ثم سيكانوس وسيكاوس وأمازيس ، الذى كان أول مصور أتيكى للأوانى ، وقع باسمه عليها . (موسوعة پاولى ، مقال أمازيس) .

اليونانيون (تخنتيز) ومعناها فنان ، من غير أن يعلق بهذا اللفظ شيء من صفات البوهيمية ، كما هى الحال عندنا . فلم يكن من اختصاصه شراء المواد ، إنما تشكيلها وجعلها نافعة . وقد وفر عليه ذلك ، الاحتفاظ بكميات كبيرة منها ، ووفر عليك أيضا التعقيدات التى تنشأ عن دفع أرباح متعددة مختلفة[١].

وعلى هذا فالصانع كان على صلة قريبة بالناس الذين يعمل من أجلهم ، ولم يكن محتجباً عنهم خلف جملة من الموزعين والوسطاء، شأن العامل الحديث . إنه كان يعتمد على تقدير المواطنين المباشر فى كسب رزقه ، ولذا فقد حرص على أن يكون محله فى قلب المدينة ، حتى يسهل الوصول إليه ، وحيث يمكن أن يلفت الأنظار بسهولة ، وغالباً ما كان قريباً من السوق العامة حيث يكثر مرور الجمهور . وكان لكل صناعة حيها ، فى صفوف خاصة وسط الشوارع الكثيرة المختلفة . فكما فى لندن القديمة عندما تغادر حى تشيبسايد (Cheapside) تجد نفسك فى « بكلرسبرى » (Bucklersbury) أو وود ستريت (Wood Street) أو فى « أيرن مونجر » (Ironmonger) أو ليذرلين (Leather Lane) ، كذلك فى المدينة اليونانية القديمة ،

---

(١) فيما يخص إناء الإسكافى المحفوظ فى أوكسفورد أنظر Journal of Hellenic Studies ، ١٩٠٨ ، لوحة ، ٣٠ وتعليق Beazley . وفيما يخص احتراف النساء « صناعة الصوف » ، أنظر مقالا ممتعاً كتبه تود فى Annual of the British School at Athens ، ١٩٠١—١٩٠٢ ، ص ٢٠٤ ، ثم انظر ص ٣٣٩ فيما يلى . والنساء المذكورون فى نصه ، إماء محررات ، وهن يعملن دائما ، حسب اتفاق ، لأسيادهن السابقين . إن محبي سقراط ، سيتذكرون كيف أنه نصح لأحد أصدقائه السيئ الحظ ، الذى ناء ، فى وقت عصيب بعن يعولهن ، من شقيقات وبنات أعمام وبنات إخوته ، فنصحه بأن يشغلهن بصنع الملابس ، وكيف أنه لما أخذ بنصحه « مارسن العمل أثناء وقت الغداء حتى العشاء ، وصرن منشرحات بدل أن كن كئيبات » . ولكن لا بد أن تلك التجربة الصناعية الواسعة غير العادية ، تستلزم اقتراض نقود ، لشراء ما يلزم من عدد وصوف . أنظر إجزينوفون ، Mem. ، ٢ — ٧ ، وكذلك عندما هاجر الطبيب المشهور ديموسيديس (Democedes) ، لأنه لم يقو على احتمال حدة طبع أبيه ، كافح كفاحا شديدا ، إذ لم يكن لديه آلات جراحية صالحة : وكان أفقر من أن يشتريها (هيرودوت ، ٣ — ١٣١) .

عنـــدما تغادر الأجورا إلى الأزقة المعتمة الخلفية ، يمكنك أن تدرك في أى حى أنت من الصوت أو الرائحة ، أى من رنين المطارق ، وصرير المناشير ، أو رائحة الدباغة اللاذعة . فأنت تمر بالمصانع الصغيرة المفتوحة الأبواب التى تلاصق بعضها ، وتتنافس منافسة حبيبة ، فإذا ما أحسست رغبة فى المشاهدة والتأمل ، أو أردت محادثة ، فعليك أن تدخل وتراقب صديقك الفنان فى عمله . فسقراط ، وقد احترف قطع الأحجار ، كان مغرماً بصفة خاصة ، بتمضية أوقات فراغه الكثيرة على هذا النحو . فبينما كان يستميل أصدقاءه الصناع إلى المناقشة ، ويربكهم بأسئلته المبهمة ، كان يختزن فى عقله هذه المجموعة من الصور والأمثال المفيدة ، التى نعرفها جيداً من محاورات أفلاطون . وقد أخذ أحد أصدقائه من صانعى الأحذية ، ويدعى سيمون ، على عاتقه تدوين محادثاته فى كتاب أطلق عليه « أحاديث الجلد » ، وبذا صار أول بوزول (Boswell) . فى هذه المصانع المتواضعة عرف سقراط الفائدة التى يجنيها الرجل حقيقة من « معرفة عمله » ، وأدرك ضآلة ما يعرفه السياسى العادى من السياسة بالشكل الذى تخيله اليونانيون — وهو خلق مدينة بحيث تكون عملا فنياً متقناً كعمل حذاء جيد ، أو محراث جيد ، أو إناء جيد من الزجاج . ورجال السياسة فى العصر الحديث ، بحاجة إلى دروس مشابهة فى هذه الناحية . فبينما « صانعوا الزجاج عنـــدنا ، يصلون بأساليب قوية موثوق بها إلى نتائج دقيقة ، ما زال ساستنا ، مثل صانعى الزجاج فى أثينا القديمة ، يعتمدون على مبادىء تجريبية ، ومهارة شخصية » . فمن الصعب ، كما أدرك سقراط ، أن تصل بفن الحكم إلى أحدث تطوراته[1] .

---

(١) جراهام والاس فى كتابه ، Human Nature in Politics ، ص ١١٥ . يبدو لى أن هذا الكتاب قد خط أول محاولة عملية بأن قدم للسياسة الحديثة ما قدمه سقراط للسياسة اليونانية . وذلك بأن يفسر لرجال الصناعة السياسيين عندنا طبيعة أدواتهم وطرق استعمالها . وقد سبق أن أخبرهم كثير من الكتاب بما يعملون ، وبما يجب عليهم أن يعملوه ، ولكنهم نسوا أن يذكروهم بما يعملون به ، فلا عجب أن يحدث ذلك الفشل الذى منيت به الديموقراطية الحديثة . والغريب حقا ، هو بقاؤها حتى الآن . أما بخصوص بوزول — سيمون (Boswell - Simon) فانظر ديوجينس ليرتيوس (Diogenes-Laertius) الجزء =

وعندما يجول السائح الحديث فى أثينا ، فى « زقاق الأحذية » ، وهو آخر بقايا السوق القديمة فى مدينة ذات محلات حديثة ، حيث لا يمكن لإنسان أن يمر إلا بصعوبة لكثرة الأحذية المعلقة خارج المحلات على جانبي الشارع الضيق ، بينما أصحابها داخل معاملهم الصغيرة منهمكون فى العمل يزيدون مالديهم ، فإنه سيعجب لهذا الترتيب غير العملى ، الذى جعل كل هؤلاء المتنافسين من صانعى الأحذية يعيشون بجوار بعضهم البعض . فلو كانوا يعيشون فى مدينة إنجليزية ، لكان لا بد لهم من أن ينتشروا ويتفرقوا بعضهم عن بعض ، ويعنوا بأن يتركوا مسافة مرمى حجر على الأقل بين كل محل من المحلات المتنافسة . والجواب على هذه الظاهرة ، هو طبعا أن هؤلاء الصناع القدماء ليسوا متنافسين قط ، بل هم زملاء وأعوان ، هم أعضاء فى نفس المهنة أو النقابة المحترمة ، ويملكون نفس الفن أو السر . وهناك عمل كاف للجميع . فإذا ما قاسى أحد ، فغالبا ما يكون الجمهور لحاجته إلى الصناع ، لا الصناع لحاجتهم إلى الزبائن . وفى وقت الحرب أو المجاعة ، عانى الصناع كثيراً كجميع أفراد الأمة كما قال بركليس ، ولكن فى زمن استقرار العمليات الصناعية ، لم يعانوا شيئاً فى مجموعهم كطبقة(١) .

= الثانى ص ١٢٢ . وفيما يتعلق بسقراط فى المصنع ، أنظر إجزينوفون ، Mem. ، ٣ — ١٠ ، ١١ ، إذ يمشى تباعاً إلى مصور مشهور ، ثم إلى نحات ، ثم صانع دروع . قارن أفلاطون ، Apology ، ٢٢ . كثيرا ما يظهر التصوير على الأوانى زائرين فى المصانع ، وهم العاطلين الذين يتسكعون فى السوق ويسرهم أن يبتعدوا عن الشمس ، أنظر ليسياس ، ٣٤ — ٢٠ . فيما يخص المصانع التى حول السوق فى أثينا أنظر ڤيلاموڤيتز ، Aus Kydathen ، ص ٢٠٤ وما بعدها .

(١) توكيديدس ، ٢ — ٦٠ — ٢ إلى ٣ . إن الطبقة الوحيدة العاطلة التى لم يكن لها عمل ، والتى كان على العالم اليونانى معالجة مشكلتها عمليا ، هى طبقة المرتزقة من الجنود والمجدفين الذين يسرحون ، بعد حرب طويلة ، ولكن ذلك كان إشكالا من إشكالات القرن الرابع ويرجع سببه إلى تدهور جيوش المواطنين ، وكان حقا أحد الآثار السيئة للتطور الذى نحن بصدد تتبعه . وقد حبذ أيزوكراتس غزو مقدونيا لآسيا لتأسيس مستعمرات زراعية جديدة (٥ — ١٢٠ ، أنظر ٨ — ٢٤) . وقد اتبع الإسكندر نصيحته حرفيا تقريبا ، وذهب باليونانيين يستعمرون الأرض بعيدا ، حتى كابول شرقا . ولكن وجود آلاف من اليونان خارج مدنهم ، لدليل يبين كيف أن حرب البلوبونيز والاضطرابات التى نشأت عنها ، قد عصفت باستقرار حياة دولة المدينة . أى بلاد هيلاس =

وإذا ماكانت الحياة الاقتصادية آمنة مستقرة ، استطاع الصناع أن يشعروا بأنهم زملاء ، وبما أنهم زملاء فإنهم يستطيعون التعاون على الإبقاء على الحياة مستقرة . ولكل فن أو مهنة اتحادها ، وليس نقابة أو اتحاد موظفين كالمعروف لنا ، بل هو اتحاد رجال ، فهموا بعضهم البعض ، وجمعهم المجهود اليومى ، وممارسة نفس الفن . وكلمة تياسوس (θίασος) اليونانية ، أو رابطة الزملاء ، كانت رابطة اجتماعية دينية ، ولم تكن اقتصادية ، ولم يكن أعضاؤها فى حاجة إلى « حماية مصالحهم الخاصة » ، لأن العرف ودستور الجماعة كان يحميانها بما فيه الكفاية . فإذا ما أحسوا قلقا بشأنها ، ذهبوا جميعا كمواطنين إلى المجلس . ولم يكونوا بحاجة إلى رفع الأثمان ، لأنهم ماكانوا يعملون للثروة والمال ، بل للشرف وكسب العيش ، وقد حدد الأثمان ، عرف قديم عريق فى القدم . وفى اجتماعاتهم الصغيرة المهنية الخاصة ، ماكانوا يفعلون إلا تكريم إلههم ، أو بطلهم أو مؤسس جماعتهم . فصناع المعادن يكرمون هيفا يستوس ، والأطباء أسكليبيوس ، وشعراء الملاحم والرواة هومر ، ثم « يتحدثون عن العمل ، وعن الأسرار التى علموها[١] » .

= الحقيقية القديمة التى نحاول وصفها . إن الكلمات اليونانية التى تعنى « المنافسة » (ζῆλος اسم معنى ثم ἀγών اسم ذات) ليس لها أى معنى تجارى خاص ، إنما تدل على المسابقة فى المهارة ، « فالمنافسة عند اليونان فى كل مناحى الحياة حتى فى الفن والعلم كانت تتخذ شكل صراع أو مسابقة » ، كما نعلم ذلك من القصص والنصوص . أنظر سوفوكليس ، O. T. ، ٣٨٠ — ٣٨٢ ، ثم وهلم فى Beiträge zur griechischen Inschriftenkunde ، ص ٤٠ — ٤٢ (مسابقة الخزافين) ، ثم مسابقة الأطباء فى Jahreshefte النمسوى ، الجزء الثامن ص ١٣٣ — ١٣٤ . وقد كانت توزع الجوائز فى « الصناعات اليدوية » لأحسن الآلات ، ولأحسن الكتابات الطبية ، ولأحسن جواب على سؤال معين ، ومن ذلك نرى كيف كان من السهل أن تهون تلك المنافسة الحرة ، وتنتهى الى مجرد إمتحان إجبارى . إن ذلك لا يحتاج الا الى تغيير فى الروح فقط . ولكن فى العصر الذى كتبت فيه هذه النصوص (وهى نصوص متأخرة) ، كانت المسابقات لا تزال شرفا وليست عبثاً كما يتبين ذلك من دخول تلك المسابقات ، ضباط الصحة العامة ، الذين كانت وظائفهم مدى الحياة .

(١) فيما يخص أشكال الجماعات اليونانية أنظر زيبارت (Ziebart) فى Das griechische Vereinswesen ، (ليبزج ١٨٩٦) ، الذى جمع النصوص الخاصة بها ابتداء من مدارس الفلاسفة (نواة الجامعات الأوربية) ، إلى الصياغ (كما نعلم من القرارات) وعبيد البلدية =

وأسرار المهنة التى ناقشوها كانت أسرارا حقيقية . والعالم الخارجى ، ولا سيما الدولة ، لا دخل لها بهم . فليس هناك أى نظام حكومى للصناعات الفنية ، إذ ليس هناك إساءة استعمال للصناعة ، أو على الأقل فى المجال الذى نحن بصدده . ولم يكن هناك علامات خاصة تمنحها الحكومة . وكانت المعرفة مباحة للناس جميعاً ، أو محصورة دينيا فى المهنة ، وتتوارث وتزداد من جيل إلى جيل . وهكذا نجد الصناع يكرمون ، لا لمجرد أنهم صناع أشياء جميلة رائعة ، ولكنهم يكرمون بوصفهم أعضاء فى مدرسة ، وحراسا لتقاليد الأجداد . إلا أن التقاليد وحدها كانت دائما خيالية ، لعالم اليونان الواقعى ، مثل عراف أو مشعوذ يأتى بالخوارق . وهكذا نجد كثيرا من الأفكار والمشاعر المتباعدة فى الحياة الحديثة ، قد تجمعت كلها واتحدت فى فكرة الصناعة ، أو تخنى [1] (كما يسميها اليونان) .

وهكذا ، كما لمح لنا سولون من قبـــل ، شغلت الصناعة فى اليونان

= (الذين كانوا أغنى من أن يفكروا فى إنشاء جماعة لهم ، كما يقول أرسطو) . وتوفر الآن بحث أكبر فى هذا الوضوع كتبه ف . بولاند (F. Poland) ، Geschichte des griechischen Vereinswesens (ليبزج ١٩٠٩) . ويجب أن نحذر تسمية هذه الجماعات « بالطوائف » (gilds) حسب المعنى الذى دلت عليه فى العصور الوسطى ، فهى لم تملك سلطة الرقابة على أعضائها ، أو من فى حكمهم . وكل شخص فى أثينا كان حرا فى مزاولة أية حرفة أو مهنة يختارها ، وهذا يفسر لماذا كان سهلا على العبيد ترقية مواهبهم .

(١) فيما يخص نظم الدولة أنظر جيرود (Guiraud) ، Main-d'oeuvre ، ص ١٩٨ . ويمكنه أن يعثر على قانونين فقط ، أحدهما لمدينة سيباريس الحذرة ، وهو خاص بإبعاد المصانع التى تحدث ضوضاء إلى الضواحى ، والآخر لأثينا المدينة المحبة للانسانية ، وهو خاص بفرض حكم الإعدام على كل من يستعمل ولدا من أصل حر ، فى إدارة الطواحين . أنظر دينارخوس ، ١ — ٢٣ ، حيث يظهر مما يقوله أن طحانا قد حكم عليه بالإعدام فعلا . ويظهر ذلك ، مدى شدة تأثر الرأى العام بالنسبة لذلك الأمر . ومن المؤكد أن القوانين العادية كانت تحمى العبيد من التعدى وما إلى ذلك ، وخاصة فى أثينا . أنظر جلوتز فى « Les esclaves et la peine du fouet en Grèce » (Comptes Rendus de l'Académie ، ١٩٠٨ ص ٥٧١ وما بعدها) ، الذى يعتقد ، وهو على صـواب ، بأنه لم يكن ليسمح لأحد أن يضرب العبيد ، إلا فى ظروف خاصة وليس أكثر من ٥٠ جلدة بالعصا ، وذلك مقـابل الغرامة التي قدرها خمسون درخمة ، التى هى أقصى غرامة عادية . ويظهر أن هذا التشريع خاص بأثينا ، وهى التى كانت قوانينها فى هذه الناحية ، شأنها فى كل شيء ، أكثر إنسانية من سائر المدن اليونانية .

مجالا أوسع بكثير مما اعتدنا أن نفهمه من « الصناعة » اليوم . فكل إنسان ذو مهارة خاصـــة ، أو فن ، به يعول نفسه ، سواء كان ذلك « بتأدية خدمات » ، أو « إنتاج بضائع » كان يعد صانعا ، من الشاعر الذى « ينظم القوافى الرائعة » ، والطبيب الذى يعد الدواء ، أو يجرى العمليات ، إلى دابغ الجلود ، وصانع الأحذية . والحق أن الحياة فى الدولة المدينة ، كانت ديموقراطية فلا يجب أن ندهش ، رغم أننا سنندهش عندما نرى الأطباء والمثالين والمدرسين يأخذون أجراً ، مثل البنائين والنجارين ، والجنود الخصوصيين حسب التعريفة المحدودة . فكل كان يسعى إلى حياة معتدلة ، وهو كل ما تطلعوا إليه عند الدفع . وهم يفضلون أن يأخذوا نصيبهم من « الزيادة » التى يطلبها الصانع الحديث ، بالتكريم وحسن التقـدير العام ، أو بمنح التاج الذهبي وإقامة مأدبة عامة ، إذا ما شعرت المدينـة بامتنان زائد[1].

والحق أنهم قلما كانوا يعملون من أجل الأجر ، لأن الأجر كما قال الكاتب اللندنى عن إجازته الصيفية ، يتعارض كثيرا وعاداتهم اليومية ، وكانوا يعملون كأجراء من أجل المدينة كلما مست الحاجة إليها ، لأنهم

---

(١) أما من حيث الطبيب « كفنان عملى » (χειροτέχνης) فانظر سوفوكليس Trach ، ١٠٠١ وملاحظة جب . ففى الصيدلية كما فى مصنع الخزف أحرار وعبيد . أنظر أفلاطون ، القوانين ، ٧٢٠ ، الذى يقول بأن المزاولين معالجة العبيد كانوا أكثر غلظة وقسوة فى طرقهم . وربما كان يوضع أجر الطبيب ، على أساس الأجر القانونى للعامل ، على الرغم من ارتفاع قيمة خدمات ديموسيد فى كل المدن اليونانية (هيرودوت ، ٣ — ١٣١) ، ولم يكن طبيبا عاديا ، وإنما أحد الشخصيات الاجتماعية البارزة فى عصره . (أنظر بوهل (Pohl) فى De Graecorum Medicis Publicis ص٦٨) ، وقد ارتفعت الأسعار تدريجيا بعد انتهاء القرن الخامس نتيجة انخفاض قيمة العملة ، مما هيأ الفرصة الميل الحتمى للتمييز بين نوعى العمل الأعلى والأدنى . وهذا التمييز لم يكن دائما وفق أفـكارنا . والقارىء المحب للاطلاع يمكنه أن يراجع ديتنبرجر ، رقم ٥٢٣ ، حيث يرى أن فى مدرسة فى تيوس (Teos) ، كان أستاذ الموسيقى يأخذ أجرا يبلغ ثلاث أضعاف ما يأخذه أستاذ « الرياضة البدنية » (الألعاب) . وفيما يخص تكريم الصانع ، أنظر ديتنبرجر ، المجلد الثانى ، ٥٤٤ د . لقد فضل اليونان التيجان الذهبية على الألقاب . أما بالنسبة للبناء والنحات وأنظر I. G ، ١ — ٣٢٤ ، حيث دفعت على كل حال بعض الأسعار العالية عن العمل بالقطعة .

إنما هم مواطنوها ، ودربوا على الائتمار بأوامرها . ولكن من هم كأحرار ، الذين كان عليهم أن يعملوا فى سبيل أجر يأخذونه من أنداد لهم ؟ «مثل هذا الوضع كان كفيلا بأن يضع الصانع فى مركز عبد تقريباً . إن أمله فى الحياة مخالف لذلك كل المخالفة ، فهو يريد أن يحافظ على حريته الشخصية كاملة ، وحريته فى العمل كذلك . إنه يريد أن يعمل عندما يحس ميلا إلى العمل ، وعندما تسمح له واجباته من حيث هو مواطن ، أن يوفق بين عمله وسائر المشاغل الأخرى التى تملأ حياة الرجل اليونانى ، فيشترك فى الحكومة ، ويجلس فى المحاكم ، ويشترك فى فرق الرياضة والاحتفالات ، ويقطع عمله عندما يناديه زملاؤه للذهاب معهم إلى السوق العامة ، أو مدرسة المصارعة ، أو عندما يقيم مأدبة ، زملاء له فى المهنة — كل هذه أشياء لا تتفق وعقد بأجر معلوم»[1].

إذن فليس من المستحيل أن نفهم مصدر الفكرة الزائفة التى شاعت فى أيام التدهور ، من أن اليونانى فى العصر الزاهر اعتبر العمل اليدوى عملا مهينا ، وإن كان ما زال من الصعب علينا أن نفسر كيف أن الناس لا زالوا يصدقون ذلك ، والبارثنون ماثل أمام أعينهم . إن هذا الباطل جدير بالسخرية ، وإذا لم يوجد دليل آخر ، فيمكن أن نرى ذلك بإلقاء نظرة على الأسماء التى أطلقوها على الذين مارسوا هذه الأعمال . لقد أسموهم «الفنانين اليدويين» (خيروتخناى χειροτέχναι) أو «العمال العموميين» (ديميورجوى δημιουργοί) ، وهو لقب يطلق أيضاً على

---

(١) سالفيولى (Salvioli) فى Le Capitalisme dans le monde antiqne ، باريس ١٩٠٦ ، ص ١٤٨ . وقد غيرت كلمة هنا وكلمة هناك ، إذ أن الفقرة والكتاب فى جملته ، يعالجان روما ، ولكن الكتاب زاخر باقتراح يهم الباحثين فى اليونان أيضاً . قارن اعتراض سقراط على ، دفع أجر ، ان يتكلم إلى الشعب ، أى لمن يدرس لهم ، ويعتبر مثل هذا الأمر بمثابة بيع الشخص نفسه رقيقا (إجزينوفون ، Mem. ، ١ — ٢ — ٦) . زيادة على ذلك ، فربما لم يكن يدفع إليه أجرا ، حسب الفكرة اليونانية من وجهة نظر التلميذ ، إذ المدرس المأجور أقل قابلية للشعور بأنه صديق ، « وما من فرد يمكنه أن يتعلم على يد رجل لا يشعر نحوه باهتمام» (١٠ — ٣ — ٣٩) .

الموظفين الذين يقومون بعمل يعد مهنة عامة ، لا غنى عنها ، أو « سادة اليد » (خيروناكتس χειρώνακτες) وهو اسم لا بد أن يكون قد محاه فى لحظة حسد ، أحد المشاهدين الواقفين أمام عجلة الخزاف ، أو كور الحداد . والحق أنهم كانوا يكرمون العمل اليدوى أكثر مما نفعل نحن ، الذين ابتدأنا الآن فقط أن نكتشف سر التعاون بين عمل اليد وعمل العقل . ولكنهم كانوا يصرون على ضرورة الاعتدال ، عن فطرة وغريزة أكثر منها عن خطة موضوعة ، وكانوا يرفضون كما يفعل الفنانون القيام بأى عمل زيادة عما يحتاجونه ، إذا لم يعد لهم من ورائه مسرة ولذة . وأهم من ذلك ، لقد كرهوا كل نشاط يجرى على وتيرة واحدة ، وكل عمل ينطوى على جلوس فترة طويلة جلسة غير مريحة وغير صحية ، وخاصة فى جو حار فاسد . وهذه الأعمال أى أعمال الكتبة والسكرتيريين على أنواعهم ، المحترمة عندنا ، وليست تلك التى يقوم بها عمالنا الذين يلبسون الملابس الخشنة ، هى التى اعتبروها « حقيرة » . ويقول إجزينوفون وهو يونانى نموذجى فى ميوله وأهوائه : « إنه من الصواب أن تضع المدن هذه الأعمال فى مرتبة دنيا ، لأنها تغير أجسام من يمضون وقتهم فيها ، إذ ترغمهم على أن يظلوا فى الداخل جلوسا لمدة طويلة ، حتى أنهم أحيانا ، يمضون اليوم كله إلى جانب النار » . فالفن لا يمكن أن يتأتى فى أحوال كهذه ، عنها غابت البهجة ، ولو أمكن ، لكان دون الإتيان به تحطيم ما اعتبره الإغريق دائما عملا فنيا أكبر ، تحطيم الجسم البشرى . هذا هو مبعث شعور اليونانيين تجاه « الوظائف الدنيا » . ودلالته الحقيقية أحيطت بإبهام بفضل الكتاب المتأخرين ، الذين أخذوا الأهواء الشائعة ، ووسعوا حدودها ، وغيروا معناها ، حتى كادت ألا تكون أية طريقة لكسب العيش محترمة ، من تعليم الفلسفة إلى أصغر الأعمال . ولم تبق ناحية من نواحى النشاط جديرة بالرجل الحر ، فيما عدا التأمل والسياسة والحرب . وقليل من العجب أن أخذ العلماء الذين نشأوا على

هذه النظريات ، بما اعتيد افتراضه من أن اليونانيين طعموا المن وحده وشربوا لبن الجنة[١] .

ولكن الجماعة لا يمكنها أن تمضي قدما دون دعامة من عمل ليس بالطريف يجرى على وتيرة واحدة ، فهناك أنواع من أعمال اجتماعية لا يمكن أن تصبح فنية أبدا ، ولا تغدو مبهجة إلا بصعوبة كبيرة ، حيث أقصى ما يمكن أن يرمى إليه الإنسان من ورائها ، غالبا ما يكون مجرد إرضـــاء الضمير المعتاد . ففى المنزل أعمال يجب أن تؤدى ، جرار تملأ ، وغذاء يطهى ، وملابس تصنع ، أو ترتق . وفى الخارج وتحت وهج الشمس ، كان لابد أيضا من أعمال مضنية تؤدى ، من حفر ورفع وحمل ، أعمال تثقل للغاية على رجال اعتادوا القيام بضروب أرق من النشاط المناسب . فكيف كان يؤدى هذا العمل الضرورى العادى كله فى جماعة الفنانين هذه ؟

بعض هذا ، كما سنرى لم يؤد مطلقا . فالجماعة التى لا تحب العمل المتعب ، يجب أن تقنع بنظام من المعيشة فيه كثير من عدم التناسق . وهناك بعض نواحى فى الحياة اليونانية من الحكمة ألا نطرقها . وقد بقى حتى فى أكثر دول المدينة إهمالا ، عمل كاف لأن يقوم به عدد من هؤلاء العمال ، الذين يكسبون رزقهم كما يقول أفلاطون ، « بتأجير قواهم الجسمانية » . فلنجمع

---

(١) اجزينوفون، Oec. ، ٤ — ٢ وهى الفقرة الرئيسية لاستعمال كلمة βαναυσία . كان أفلاطون على خطأ كبير مثلا ، فى أن يسخر من السفسطائيين لأخذهم أجرا على قيامهم بتدريس الفضائل ، لأنه ، كان هو نفسه فى بسطة من العيش مكنته من مزاولة التدريس دون أجر . وقد قام الفلاسفة المتأخرون ، وخاصة إذا ما شملهم نفوذ الرؤساء الرومان الأغنياء ، بتوجيه حملة شديدة إلى أقصى حد ، ضد القيام بالأعمال الدنيا . لقد اعتقدوا أن الرجل الخبير أعظم من المبتكر المبدع . فيقول أحد أصدقاء جاليو « من ذا الذى لا يعجب بزيوس الأوليمبى لفيدياس ؟ ومع ذلك من ذا الذى يهتم بأن يكون فيدياسا ؟ » قال ذلك فى تصوير أناتول فرانس البارع لتلك الجماعة (Sur La Pierre Blanche ، ص ٤٣) . وهو فى ذلك يردد صوت لوكيانوس فى Somnium ، الفصل التاسع . ونحن فعلا فى ثورة ضد هذا النوع من الغرور ، وضد النظرية الأكاديمية القديمة عن « الثقافة » التى قرنت به . والنتيجة أننا نميل إلى نسيان مقدار ما تنطوى عليه روح التحيز الغالب على القرن الخامس ، من حقيقة مستترة —

باختصار ما يمكن أن نلقاه من المعلومات عنهم[1] .

ففيما يتعلق بشئون المنزل ، أى ملء جرار المياه ، وإعداد الطعام والملابس ، قليل من الكلمات تكفى . لقد قام بها فى معظم الحالات أفراد الأسرة . فبينما يخرج الأب والأبناء إلى الحقول ، تقوم الزوجة وبناتها بالغزل والنسج والطبخ . ويقطعن ذهابا وجيئة طريقهن الصخرى إلى نبع المدينة ، حاملات جرارا ، وضعت باتزان فوق رؤوسهن . وقد أخبرنا إجزينوفون بصراحته الممتعة ، فى كتيبه الطريف عن تدبير المنزل ، أخبرنا عن موقف الزوج اليونانى والسيد ، إزاء عروسه الصغيرة . والحالة التى يكلمنا عنها ليست نموذجية ، إذ كانت البنت ابنة لوالدين غنيين ، فربيت باهتمام غير عادى ، إلا أنها أهم علميا من أن يتجاوز عنها . تأتى العروس زوجها ، «ولما تبلغ بعد خمسة عشر عاما من عمرها .وقد روقبت بدقة طول حياتها حتى أنها تكاد تكون ما رأت ، أو سمعت ، ولا حتى قالت شيئا . «ويقول زوجها» ، وبعد أن روضتها وتغلبت على حيائها وتكلمت ، قلت لها أخبرينى يازوجتى هل فكرت بعد لماذا استقبلتك فى بيتى ، ولماذا أعطاك لى أبوك ؟ لأنى أعلم وأنت أيضا يجب أن تعلمى ، أن قد كان أمامى مجال واسع للاختيار ،'' وبعد هذه المقدمة التى يحدوه فيها الأمل ، أخذ يعلمها مسئولياتها الجديدة كربة بيت وأم فى المستقبل ، منوها بنوع خاص بواجب أن تكون قدوة حسنة . فيجب عليها أن تكون قدوة لغيرها ، فى النظام وحسن الترتيب والمواظبة ، والبساطة والطاعة لإرادة سيدها . والمثابرة دون ما شكوى على الواجبات المتعبة غير المستساغة . فعليها بالاشتراك مع زوجها تقع مسئولية العمل على «زيادة سعادة البيت ورفاهيته»[2] .

---

(١) أفلاطون ، الجمهورية ، ٣٧١ .

(٢) إجزينوفون ، Oec. ، ٧ — ٥ وما بعدها ، ٣ ، ١٠ ، ثم مواضع أخرى متفرقة.
أنظر كتاب The Lady للسيدة پوتنام ، ص ٣٠٠ ، لما جاء به من مقارنة شيقة بين نموذج إجزينوفون لربة البيت ، «والسيدة صاحبة العبيد» قبل عصر تحريرهم . « فكل منهما كانت مديرة لجماعة كبيرة متعددة الألوان ، يضطرها الواجب إلى تنفيذ القانون .... ولاشك =

ومن بين واجبات ربة البيت الصغيرة ، واجب كانت له أهمية كبيرة ، وذلك هو حسن القيام على إدارة شئون العبيد . إذ فى المدن الكبرى التى أمكنها الاحتفاظ بالعمال المجلوبين من الخارج ، تمكن عدد محدود من العائلات الغنية ، من أن يحتفظ بعدد من العبيد للقيام بعمل المنزل . وعلى الزوجة فى المنزل كما هو على الصانع فى المصنع ، أن تتعلم القيام على تدريبهم . وعندما ينتهى تدريبهم كما ينبغى ، وإذا ما كانوا يعاملون برفق ولياقة ، فسيخلصون ربة المنزل وبناتها من بعض أعباء أعمالهن وأكثرها إرهاقا . وإنها لعلاقة مؤثرة للغاية تلك التى تنشأ بين ربة المنزل الطيبة وخدمها ، وهو ما نلمسه من « التراجدى » ، وشواهد القبور . وقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء العبيد الذين قضوا مدة طويلة فى المنزل ، أن شغلوا مراكز محترمة لها قيمة عظيمة فى حياة المنزل . فمؤدب الأطفال ومرافقهم الأمين (بيداجوجس) الذى يصحب أبناء الأسرة خارج المنزل ، شخصية معروفة فى الحياة اليونانية ، وكذلك المربية المخلصة العجوز التى نعرفها من « هيبوليتوس » (Hippolytus) « وميديا » (Medea) . ولكن ذلك يدفع بنا إلى ولوج موضوعات يجب أن نتركها لفصل قادم[1] .

= أن كل منهما ، إذا لم تكن مثقلة ، كانت تغتبط بأداء عمل هام ، يتصل مباشرة بما فيه خير أحب الناس إليها وسعادتهم ، ولكن لا يمكن أن تسمى إحداهما حرة . وفى حالة المرأة اليونانية نرى ذلك واضحا جدا ، فلم تكن هناك فى أيامها عاطفة تحجب هذه الحقيقة . فإن كانت قد أرغمت على القيام بحرفة مرهقة ، فما من أحد هناك موه الحقيقة ، بأن دعاها ملكة أو بتعبير أكثر تمويها دعاها ملاكا » .

(١) يوريبيدس ، .Alc ، ١٩٢ وما بعدها ، وهى فقرة مؤثرة ، صورت فى كثير من النقوش الجنائزية البارزة . ومن المحتمل أن نسبة العائلات التى تملك عبيدا فى منازلها ، لم تكن كبيرة فى المدينة اليونانية المتوسطة . فمثلا فى بلاتيا فى القرن الخامس ، نسمع أن ألافا من عبيد المنازل يشتركون فى حرب الشوارع ، وفيما عدا ذلك لم يأت لهم ذكر ، عند تحديد غير المحاربين . (توكيديدس ، ٢ — ٤ — ٢ ، ٧٠ — ٣ ، ثم انظر ٧٨ — ٤) . إلا أن الموضوع ليس مما يستطيع أن يتكلم فيه الإنسان بصفة التأكيد . ففى أثينا قديما ، كان البنات يذهبن بأنفسهن إلى البئر ، لأنه « لم يكن عند الأثينيين ، ولا عند غيرهم من اليونانيين عبيد » ، كما يقول هيرودوت (٦ — ١٣٧) . ويجعل أرسطوفانيز العبيد يقومون بدور هام فى رواياته عن الأسرة التى تقطن المدينة . ولم يكن لهم مثل هذا الدور فى رواية الأخارنيين أو =

ولنرجع الآن إلى الأعمال الشاقة التى يقوم بها الرجال ، إلى العمل الخشن العادى الذى بمثابة الأسس الضرورية ، حتى فى أبسط الجماعات . فلابد حتى فى المدينة اليونانية التى استغنت عن كثير من وسائل الراحة ، من وجود من يقوم بتمهيد الطرق وبناء الأسوار ، وقطع الأشجار ، وكذلك الأحجار ، واستخراج المعادن من سفوح التلال . كما لابد فى جماعة كل قوامها فنانون ، من وجود من يأتى للمصانع والمحاجر بالمواد ، التى يقوم عليها العمل . فبدون مساعدة العمال العموميين يكون الصناع اليونانيون عاجزين تماما عجز جماعتنا التى يزيد فيها الاختصاص الضيق . وقد أوضح بلوتارخس لنا ذلك تماما فى كلامه عن العمل فى مبانى الأكروبول . فقد عدد أولا الصناع المطلوبة خدماتهم ، « والمواد المختلفة ، مثل الحجر والنحاس والعاج والذهب والأبنوس وخشب السرو ، ثم النجارين والبنائين والنحاسين والنقاشين والخراطين وغيرهم من الصناع » . ثم ينتقل بعد ذلك طبعا إلى عمال النقل . « إن نقلها بحرا استدعى تجارا وبحارة وربابنة ، أما برا ، فقد تتطلب نقلها صانعى العجلات ، وسائقى عربات الثيران ، وعربات الخيول ، وصانعى الحبال والجلد ، وعمال الطرق ، وسباكى الحديد . وتضم كل مهنة من هذه عددا من هؤلاء العمال غير الفنيين ، مرتبين على درجات متفاوتة ، مثل الجنود تحت قيادة القائد »[1] .

ومن الصعب علينا أن ندرك ثقل وطأة عمل كهذا قبل استعمال الأدوات الرافعة ، وعجلات البخار ، وسائر الوسائل الحديثة التى توفر الراحة . وقد بقيت لنا بعض الوقائع الحية ، لتنبهنا إلى ما كان عليه هذا العمل . فيمكننا

=فى پاكس (Pax) . أنظر أيضا أرسطو ، السياسة ، ١٣٢٣ ا ٥ ، ثم أرسطو الإكليزيا ، ٥٩٣ . وقد قدر تشارلس بوث نسبة الخدم فى لندن بإحدى عشر فى المائة من مجموع سكانها (Life and Labour in London ، الجزء الأخير ، ص٨) . بداجوج : أفلاطون ، ليسياس ، ٢٢٣ (حيث اندفع إثنان من العبيد ، لما لعبت برأسيهما الخمر ، فى الكلام بلغتهم الوطنية ، أى أنهم لم يولدوا فى وسط أهل المنزل الذى يعملان فيه) .

(١) بلوتارخوس ، الفرس ، ١٢ .

أن نقرأ تفاصيل كاملة عن نقل المواد التى لزمت لإقامة أثر مهم ، فى نص من القرن الرابع من إيلوزيس . لقد تضمن العمل ثلاث مراحل، أولا تمهيد الطريق من المحجر إلى المدينة ، وكان يرصف بأحجار منحوتة مع وجود طرق جانبية على مسافات عدة . ثم عمل عربات تقوى على حمل كتل الأحجار . وأخيراً عملية النقل نفسها ، ويقوم بها عربات تجرها ثيران . ويتكلف كل زوج من الثيران ، أربع درخمات ونصف أوبل يومياً . ويستغرق النقل ثلاثة أيام ، لمسافة طولها ٣٠ ميلا . ولما كان جر الكتلة الواحدة يستلزم من ٣٠ إلى ٤٠ زوجاً من الثيران ، فبذا تتكلف الدولة لنقل كل كتلة ، من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ دراخمة . وعندما نقرأ هذا ، ثم ننظر إلى تلك الكتل الكبيرة من الأحجار ، المستعملة فى مبانى الحكومة فى أثينا ، فإننا نبدأ فى إدراك ما بذل فى بنائها من مجهود بشرى وحيوانى . وهؤلاء الرجال الذين عملوا فى هذه العربات التى تجرها الثيران ، من « الصعب أن يكونوا فى مستوى الجماعة العقلى » ، كما قال أفلاطون (وإن كان يشك فى هذا) ، ولكنهم أنجزوا عملا لا يمكن أن تخجل منه أية آلة حديثة . وما زال الطريق الذى مدوه من المحاجر ، يرى إلى الآن بخطوطه ، على منحدر بنتيلكوس . وما زال ملقى على جانبيه ، على مسافات ، فى قسمه الأعلى ، كتلا كبيرة جداً من حجر نصف مصقول ، لم يتمكنوا من نقلها إلى أبعد من ذلك[1] .

إن عملا مثل هذا ، كان غالى النفقات ، ولا يمكن أن يقوم به إلا المدن التى تملك موارد كبيرة . ولكن كان هناك كثير من العمل الشاق الذى لا بد عنه ، سواء استطاعت المدينة أن تدفع قيمته ، أم لم تستطع . فمثلا كيف تسنى لمدينة عادية بناء أسوارها وأبراجها ؟ كان ذلك بالطريقة الوحيدة.

(١) فرانكوت ، المجلد الثانى ، ص ٨٦ (من .I. G ، الجزء الأول ٨٣٤ C) . يبدو أن كان جميع الرجال المستخدمين أحرارا . أنظر أرسطوفانيز ، الضفادع ، ١٦٧ ، حيث يقترح العبد الموثوق به أن يستأجر رجل آخر غيره ، (أى ربما رجل حر) ليحمل الأمتعة الثقيلة بدلا منه . (أنظر التذييل) .

الممكنة فى تلك الظروف ، أى بالتجنيد . فكما أنهم عند إعلان الحرب ، يدعون الناس إلى حمل السلاح ، فيترك كل مواطن عمله اليومى ، ويذهب للانضمام إلى فرقته ، كذلك عندما يستلزم الأمر تشييد مبنى عام هام ، أو إجراء حفر ، كان يعلن عن ذلك ، فيهرع الناس لتقديم المساعدة كما يفعل الإنجليز عند عمل الدريس . وعلى هذا النحو تم بناء أسوار أثينا عام ٤٧٩ ، وأسوار أرجوس عام ٤١٧ ، فقد اشترك النساء والأطفال ، وخدم المنازل كلهم فى العمل . وثمة مثل أحسن من ذلك ذكره هيرودوت ، فقد اشترك سكان كنيدوس وهى مدينة يونانية فى آسيا الصغرى ، فى حفر خندق عبر البرزخ ليفصلهم عن الأرض الرئيسية ، وذلك لتحصين مدينتهم ضد هجوم فارسى وشيك . « وفى أثناء عملهم فى جمع كبير ، بدا لهم أن العمال كانوا هدفا لضرر غير مفهوم ، فمن المحتمل أن أرسلت السماء بما أصابهم فى كل أجزاء جسمهم وخاصة أعينهم ، وذلك من جراء شظايا الأحجار . ولذا أرسلوا رسالة إلى دلفى يسألونها ماذا أحاق بهم ، فأجابت الكاهنة شعراً (وذلك حسب قول الكنيديين على الأقل) : « لا تحصنوا برزخكم ، لا تواصلوا الحفر ، فلو أرادها زيوس أن تكون جزيرة ، لخلقها كذلك . »'' وهكذا أوقف الكنيديون الحفر ، وخضعوا للفرس دون مقاومة[1] .

هذه القصة اليونانية النموذجية تصور أكثر من أى من الأدلة المتراكمة الأخرى ، الموقف الذى كان اليونانيون دائماً يميلون إلى اتخاذه ، إزاء أنواع العمل الممل الغير مستساغ . وهى تفسر لنا لماذا فضل اليونانيون البقاء فى الشمس ، دون أن يكون لديهم ما يأكلونه ، على العمل فى المناجم فى جوف

(١) هيرودوت ، ١ ، ١٧٤ ، ثم انظر توكيديدس ، ١ — ٩٠ — ٣ ، ٥ — ٨٢ — ٦ (الدعوة إلى العمل) ، ثم انظر ديتنبرجر ، رقم ٥٢٩ ، فيما يخص نموذجا من هذا النوع من النداء للدولة . ومهما يكن الأمر ، فإن الجندى الذى فى قسم الأشغال ، كان معتبرا جنديا أيضا . إن قصة بناء أسوار أثينا على وجه السرعة ، عام ٤٧٩ أثناء غياب ثيمستوكليس فى اسبرطة ، التى اعتبرت عادة عمل « غير ممكن فنيا » قد بررها الآن الأثريون : أنظر كاڤيدياك ، ص ١٨ — ١٩ ، وكذلك بوزولت فى Klio ، الجزء الخامس ، ص ٢٥٥ وما بعدها .

الأرض ، ولماذا كانت هناك كذلك ، كما سنرى ، بعض الأعمال التى كافحها — كلما أمكن ، العبيد ، والمحررون والأجانب ، المقيمون . إلا أنه من المؤسف أن نترك بذلك فكرة ، أن الإغريق لم يكتشفوا ، أو لم يتذوقوا السعادة الناجمة عن العمل ، الشريف ، المنجز كما ينبغى . فمن المؤكد أن فحامى أخارناى القدماء ، الذين تفوح منهم رائحة الثوم ، قد استمتعوا كل الاستمتاع بعملهم القاسى فى غابات پارنس . ويمكنهم أن يحدثوا القراء عن أنفسهم من بين أحاديث أرسطوفانيز . ولنذهب بدلا عنهم إلى زميل لهم أقل شهرة ، وهو حطاب مثلهم ، ولكنه من دم فريجى ، ومن الرقيق أصلا . فعندما غزا الجيش البلوپونيزى أتيكا ، فى ربيع عام ٤٣١ ، وقعت أولى المناوشات فى مكان يعرف بفريچيا قرب أخارناى . وهو حى صغير لسكنى بعض الحطابين الفريچيين . ويبدو أن بعض هؤلاء الحطابين قد اشترك فى القتال ، ومات أحدهم فى المعركة ، وكان رئيس الجماعة (إذا اعتبرناه كذلك حسب قوله) . وهاك ما كتبه على شاهد قبره وهو ينبض (إن نبضت شواهد القبور يوماً) بروح رجل قوى ، لم يخجل من أصله أو عمله ، ولا من مركزه فى بلده الجديد . إنه لصوت عزيز يدوى باسم الألوف المجهولين ، الذين عاشوا وعملوا بنفس هذه الروح ، ولكنهم «لم يتركوا وراءهم ذكرى لهم» :

«هنا فى هذا القبر الجميل يرقد مانس بن أوريماس ، الذى كان خير الفريچيين فى أراضى أثينا المترامية ، قسما بزيوس لم أر أبدا أحسن منى حطابا . لقد مات فى الحرب[1]» .

---

(١) وأحسن من أوردها مصحوبة بالتعليق وهلم فى ، Beiträge zur griechischen Inschriftenkunde ، ص ٣٥ ـ ٣٧ . يعتبر الحجر تصحيحا سليما (وربما كان مقصودا) للرأى الشائع عن الأسيويين المقيمين فى أتيكا ، وقد خلده أرسطوفانيز فى « الفرسان » (أنظر يوريبيدس ، .Alc ، ٦٧٥) وهى كما يأتى :

هو أحسن الفريچيين المقيمين	Φρυγῶν ὃς ἄριστος ἐγένατ'ἐ —
فى أثينا ذات الأرض الواسعة	=ν εὐρυχόροισιν 'Αθήναις Μάν —

الفصل الثامن

اقتصاديات المدينة : تجارة التجزئة

Ἐστὶ χῶρος ἐν μέσῃ τῇ πόλι ἀποδεδεγμένος ἐς τὸν συλλεγόμενοι ἀλλήλους ὀμνύντες ἐξαπατῶσι.

فى وسط المدينة مكان خاص ، فيه يجتمعون ويحلفون ويغشون بعضهم البعض .

الملك كورش فى هيرودوت ، ١ — ١٥٣ .

إن الأسواق ، وهى تلك المنظمات الحكيمة التى نظمها أجدادنا ، الذين كانوا حريصين كل الحرص على حسن إدارتها ، قد مكنت المنتجين والمستهلكين من أن يتصلوا ببعضهم البعض . . . أما محل البيع والوسيط فيجعلانهما منفصلين . . . إن السوق يجعل كل شىء مكشوفا .

Cobbett فى Rural Rides ، الجزء الثانى ، ص٢٥٧ — ٢٥٩ (طبعة ١٨٨٥).

عنينا إلى الآن بالرعاة والفلاحين واللصوص والصناع ، أى بالرجال الذين يكتسبون معاشهم لأنفسهم ، ولأهل بيتهم بالعمل ، أو باغتصاب الأشياء ، أو بانتظار ما تنبته لهم الطبيعة . وجميعهم فيما عدا اللصوص منتجون : وبما أن اللص ، كان فلاحا أو سماكا ، فى حالة من الضنك والشدة ، وكما يقول أرسطو « يسد نقص عمل بآخر » ، فيمكن إذن عده من المنتجين أيضاً ، وهو على أية حال ، يتخذ مكانا بين الرجال المحترمين . ونصل الآن إلى طبقة من مدبرى أمور المنازل ، وقد تحامل عليهم اليونانيون دائما ، ويرجع السبب الأساسى لهذا ، لا لكونهم غير منتجين بالمرة ، بل لأنهم وسطاء يعيشون بطريق « غير طبيعى » ، بتوزيع ومبادلة منتجات غيرهم[1].

= مانس بن أورعاس — νης Ὀρύμαιος, ὃ μνῆμα τόδ' ἐσ—
راقد فى قبره الجميل — τὶ καλόν· καὶ μὰ Δί' οὐκ εἶδον —
أقسم بزيوس أننى لم أر حطابا أحسن منى — ἐμαυτô ἀμείνω ὑλοτόμον.
لقدمات فى الحرب . — ἐν τῶι πολέμωι ἀπέθανεν.

(١) أرسطو ، السياسة ، ١٢٥٨ ب ، أنظر .Dem ، ٢٥ — ٢٦ (وهى فقرة نموذجية) .

ومع ذلك فلا يخفى أن الجماعة لا يمكنها الاستغناء عنهم . فكما قال أفلاطون « لنفرض أن مزارعا ، أو صانعا قد أحضر بعض المنتجات إلى السوق » ، (فى طريقه إلى المحكمة أو المجلس) ، « وجاء فى وقت ليس فيه من يبادله بها . فهل يترك عمله ويجلس عاطلا فى السوق ؟ كلا إنه سيلتقى هناك بأناس أدركوا هذه الضرورة ، فاحترفوا عمل البائع » . ولكن لاشك أن الفيلسوف ، وقد تذكر بين ما يتذكره ، اعتراضه الطريف على الذين يجلسون طوال النهار بلا عمل ، « فما من شخص يمكنه أن يكسب قوته بهذه الطريقة ، إذا أمكنه أن يعمل شيئاً آخر » . ثم يواصل قوله متبعا طريقة التعليل الطبيعية اليونانية ليقرر أنه « فى الدول المنظمة يكون هؤلاء عادة ، أضعف الناس فى قواهم الجسمانية ، ولذا لا يرجى منهم فائدة كبيرة فى أى عمل آخر . فواجبهم البقاء فى السوق ، يعطون النقود بدلا من البضائع ، لمن يريد البيع، ويأخذون نقودا ممن يريد الشراء»[1].

وبديهى أن ذلك يبدو للقارىء الحديث أمرا لاضرر منه ، بقدر ما هو ضرورى ، فى عالم يقوم على المحلات التجارية ، وفى أمة من التجار . ولكنه لا يمكن أن يكون لا ضرر منه فى نظر الفلاسفة . .لقد رأوا بالتجربة ، أن تجار التجزئة اليونانيين ليسوا أحسن مما يجب أن يكونوا عليه ، (وكثير من رجال العصر الحديث يؤيدونهم فى ذلك) ، وبدلا من أن يقبلوا ذلك كأمر لا مفر منه ، أو كمجرد مادة للتندر المألوف ، كما تعلمنا نحن أن نفعل فيما يخص أثر المهن الحديثة على الأخلاق ، بدلا من أن يقبلوا ذلك ، أخذوا يبحثون فيما حولهم عن السبب ، ورأوه فى ارتباط تجار التجزئة الوثيق بتنمية الثروة[2].

---

(١) أفلاطون ، الجمهورية ، ٣٧١ .

(٢) إن إهمال دراسة أثر الحرف الحديثة المختلفة فى الأخلاق ، على حين أننا نصر — بحق — على أهمية التربية التى ترمى إلى « تكوين الخلق » ، ليعد من أغرب الهفوات ، التي ترجع إلى تأثير طغيان الاقتصاديات فى القرن التاسع عشر . إلا أننا نعلم جيدا ، كما علم اليونانيون ، أن أخلاق الرجال والنساء ليست كما يدعى الآباء والمدرسون . « تتكون » =

فإذا ما فكر إنسان فى الوضع ، لرأى أن تجار التجزئة يكادون أن ينفردوا فى المدينة اليونانية بالتعامل الدائم بالنقود ، ولذلك كانوا معرضين بنوع خاص ، إلى الميل إلى قياس الثراء أو السعادة ، بهذه الوسيلة الخداعة فهم يقضون أيامهم فى لجاجات مستمرة فى سبيل أقل المكاسب ، حتى انتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأنه يمكن شراء كل ما فى الحياة ، وما من شىء مهما كبر ، يصعب التعبير عنه بالنقود . وقد نسوا ، كما قال أحد الكتاب اليهود الفكهين ، أن « فكة نابليون (قطعة نقود) لا تكون مساوية لنابليون » ، أو كما يقول الرسول لأصدقائه التجار فى كورنث إن « كلمة الرب » لا يمكن أن تعامل بالتجزئة[1] .

وعلى أية حال ، سنرى الأمر بأنفسنا ، فلنتأكد أولا من أن البرلمان غير منعقد ، ثم ننضم إلى إحدى جماعات القرويين المتطين بغالهم إلى المدينة . وأفضل من ذلك أن نركب إحدى عربات القرية التى ازدحمت بزقاق النبيذ ، أو المنتجات الثقيلة ، ثم ننطلق إلى أبواب المدينة عبر طرق وعرة غير ممهدة ، ثم نخترق طرقا ملتوية بين بيوت مبنية من لبن ، ومتاجر مزدحمة ، حتى نخرج إلى ميدان السوق الفسيح ، حيث يعمل تجار التجزئة . فنجدهم منهمكين فى العمل ، عبيدا وأحرارا ، يقسمون ويحاجون فى مساوماتهم . وفى فترات الهدوء التى بين هذه الصفقات ، يتلفون ما بقى فيهم من صوت بالصراخ العالى ، (على طراز أحسن مناد فى المدينة) حتى أنه من العبث أن نفكر فى الذهاب إليهم . مستعلمين عن شىء ، وإذا فعلنا ،

= وتتصلب فى الوقت الذى فيه يبدأون الكسب . وإنه لمن المؤسف أن ندرس (وفى بعض الحالات نقاوم) الآثار الفيزيقية التى تتركها المهن ، ونجهل الأثر العقلى ، أو أن ندرس سيكولوجية الشواذ ، كالمجرمين أو « القديسين » ، ثم نهمل دراسة الرجل المهنى .

(١) ٢ ، Cor. ، ٢ — ١ ، οὐ καπηλεύοντες τὸν λόγον ، وقد ترجمت بـ « يفسد » ، أى يغش . إن نقش نابليون لزانجفيل كان موجها إلى الصهيونيين فى ١٩٠٥ ، بعد موت هيرتسل (Herzl) .

فذلك يكافئنا أكثر مما يستحق ، فمن الخير الاكتفاء بالمشاهدة[١] .

إن تصميم السوق يشبه على وجه العموم ، مربعا على جانبين من جوانبه « بواكى » ذات أعمدة ، مفتوحة من جهة السوق ، وعلى حوائطه الداخلية نقوش زاهية الألوان ، تمثل بعض مناظر القتال بين الآلهة والمردة . أو بين المواطنين وجيرانهم ، الذين فى الناحية الأخرى من الجبل . وبما أن الشمس لم تبلغ مداها بعد ، فما زالت هذه البواكى خالية ، ولكن ما من شك ، فى أنها ستمتلىء فيما بعد بالمتسكعين . فقد بدأ الناس فعلا يخرجون من الأزقة الضيقة ، التى تقاطع هنا وهناك ممراتها المسقوفة . ويقوم على الطريق كما نعلم ، فقد مررنا بها توا ، المصانع وصالونات الحلاقين ، ومحلات الخزافين وغيرهم من الصناع . وعلى جانبى السوق الآخرين تقوم مبان عامة . فعلى أحدها نجد معبدا ذا محراب كبير ، أمامه جملة تماثيل وقرابين النذور . وعلى الجانب الآخر البريتانيوم أو مبنى الحكومة حيث يأخذ الرئيس اليومى وبعض الموظفين طعامهم ، وكذلك ينامون ، وربما كان هناك أيضا ، سجن وخزانة عامة . وقد تركت نصف ساحة المربع تقريبا خالية ومفتوحة للشعب ، الذى أخذ يتوافد ويتجمع لحديث الصباح . أما النصف الآخر ، فقد اكتظ فى غير نظام « بتخاشيب » شتى ، وصواوين ومظلات خشبية ، وألواح وأكواخ ، وكل نوع من أنواع المحلات التى تقام مؤقتا ، وقد رتبت بإهمال على شكل « دوائر » أو صفوف ، حسب طبيعة البضائع التى تباع عليها ، أو تحتها أو حولها ، هذا إذا جاز لنا استعمال كلمة الترتيب ، لمثل هذه الفوضى من الرجال والسلع ، ولما يكتنفها أيضا من تباين الأصوات . وأكثر هذه المبيعات تتألف من الأغذية التى لا يمكن أن تباع حيث تصنع ، شأنها فى ذلك شأن الأحذية والأوانى ، ولذا وجب حملها إلى

---

(١) فى أيام انعقاد الإكليزيا ، يمد حبل مغموس فى صبغة حمراء ، حول مكان السوق ، ثم يسحب تدريجيا إلى الداخل ، ليدفع كل من يتبطأ فى السير إلى البينكس أو تل البرلمان ، أنظر أرسطو ، .Ach ، ٢١ — ٢ . إن أصحاب الحوانيت من العبيد ، كانوا بطبيعة الحال ، معروفين فى المدن الكبرى ، وكان يسمح لهم بقدر فى المائة مما كسبوه .

السوق ، وهى الدقيق وربما الخبز كذلك ، والخضر والجبن والعسل والفواكه والثوم والنبيذ ، يصب من الزقاق ، واللحم (لهؤلاء الذين يستطيعون دفع ثمنه) الحديث الذبح ، حتى أنه مازال يخضب الأرض بالدماء ، والسمك المعروض على صفائح من الرخام البراق . وعندما نقترب من محل السمك ، نرى رجلا يتصبب عرقا يندفع بين الزحام ، يدفع الجمع فى طريقه ، ويدق ناقوسا فى يده بكل قوة ، وقد قيل لنا أن هـذا أحد كتبة السوق ، وأن الناقوس يؤذن يفتتح سوق السمك . وما من حاجة لأن يخبرنا أحد بذلك ، فحسبنا أدلة ما نسمعه من ضوضاء تزداد فجأة ، وما نراه من تدافع الناس ، فضلا عن تلك التعبيرات الصادرة من لغة السماكين الآتيكيين ، التى أخذت تصك أسماعنا. بعد ذلك ننسحب باحثين عن جو أكثر رقة وتهذيبا ، فنمر مسرعين بصرافى النقود ، الذين تتقد عيونهم شررا ، بينما هم يقومون بعادتهم الذميمة ، وهى رن النقود على منضدتهم ، فإذا بنا أمام جمع من المتأنقين الصغار ، حول محلات العطور والبخور . فقد وصلت من بلاد العرب عن طريق مصر ، شحنة من بضائع جديدة ، تحوى أنواعا بديعة غريبة من العطور ، لم تعرفها المدينة من قبل ، ولـكن الأثمان المطلوبة مرتفعة كل الارتفاع ، فلننتظر يوما أو يومين ، حتى تخمد الحماسة الأولى ، معتمدين على الحظ ، فى أن تكون الشحنة أكبر من توعد المستهلكين . ولنتجنب سوق العبيد ، فما بنا من حاجة إلى استعراض أجسام بشريه عارية ، ولنذهب إلى محلات الكتب المتواضعة المنزوية فى أهدأ أركان السوق . وهنا نلق أصدقاء ، يشغلوننا بالمناقشة عن « أسلافنا الهمجيين » ، بآخر أنباء سيثيا ، أو بالمفاضلة بين التراجدى والكوميديا ، مع الإشارة بلباقة إلى روايات اليوم الثانى ، حتى يأتى وقت الغذاء[١] .

---

(١) أنظر بوزانياس ، ٦ — ٢٤ : لا نعلم إلى أى حد اتخذت المدن الأخرى ، الطريقة التى سارت عليها أثينا ، من فصل تل البرلمان ، عن « ساحة السوق » . كان أفلاطون وأرسطو حريصين على جعل الأثنين منفصلين بعضهما عن بعض ، لا كالأثينيين بدافع توفير الراحة ، ولـكن لدوافع أدبية . أنظر السياسة ، ١٣٣١ ا ٣٠ ، والقوانين ٨٤٩ ، فيما يتعلق بقوانين =

يرى القارئ من ذلك ، أن منظرا كهذا يستدعى تنظيما كبيراً ، وبذا فإن كتبة الأسواق يستحقون أجورهم كاملة . ولكن الأجدر بنا أن نزج بأنفسنا برهة فى الإدارة الحكومية ، لنبحث عن واجباتهم ، وسيرينا ذلك كيف حاولت المدينة جاهدة ، فى أن تدع كل واحد يكسب معاشه ، وأن يتصرف ما شاء فى أعماله الخاصة ، ما دام الأمر لا يتعارض وواجبات المواطن .

إن أهم أعمال الكتبة هى المحافظة على نظام السوق ، وإخماد التنازع — وإن كان ذلك أمراً بعيداً — فعلى الأقل يحولون دون أخطر تطوراته السيئة . وعليهم أيضا مراقبة الموازين والمكاييل ، ومنع الغش ، وجمع إيجار التخاشيب والصواوين ، لا بأنفسهم ، ولكن عن طريق الملتزمين . ونعثر بين صفحات إجزينوفون ، على إشارة إليهم ، فنراهم يزنون خبز المنازل ليضمنوا تساوى وجهه وظهره فى الوزن ، كما هو مقرر[1] .

وكان عليهم أيضاً حماية المدنيين ، من أسعار المجاعة ، وذلك بالنسبة

= الأجداد . فى « القوانين ٩١٧ يحرم أفلاطون المساومة فعلا ، ويصر على « تحديد الأسعار » ، التى ربما تقضى على كل روح للفكاهة . فى القرن الرابع وما بعده ازدادت فخامة المبانى العامة (الأبهاء ذات العمد ... الخ) فى ميدان السوق وحوله ، وصار المنظر جميعه أقل اتساقا ونظاما . فيما يخص التفاصيل أنظر Wachsmuth فى Stadt Athen ، الجزء الثانى ، ص ٤٤٣ وما بعدها . وفيما يتعلق بمكان السوق فى القرية ، أنظر ديتنبرجر ، رقم ، ٤٣١ ، إعداد سوق جديدة فى سونيوم . وقد كان الرجال اليونانيون يقومون بشراء حاجاتهم بأنفسهم ، إلا إذا كانت حالتهم تسمح باقتناء عبد . وبما أن النساء الأحرار لا يقمن إطلاقا بشراء ما يلزمهن ، فكان على أزواجهن إذن القيام بذلك ، حتى وقت قيامهم فى الخدمه كحراس : أرسطو ، .Lys ٥٥٥ — ٥٦٤ . وفيما يخص الإجراءات بسوق العبيد ، أنظر الوصف الحى فى لوكيانوس βίων πρᾶσις . ويوحى هذا بأنه بيع خاص بالمزاد ، ولكنه فى الحقيقة مجرد بيع عادى بالشروط العادية ، التى يتبعها اليونان فى العمل علنا (أنظر موسوعة Pauly ، مقال Auctio) . وهذا العمل علنا أمام الجمهور ، يمكن تاجر التجزئة من الاستغناء عن كل أدواتنا ووسائلنا للاعلان والنشر ، لأن الإعلان ما هو إلا « فن البيع مضافا إليه ، فن النشر والإعلان » . والملتون المهرة عندنا ، يجتهدون فى أن يلفتوا نظرنا ، من الإعلانات أو الجرائد ، بمثل ما كان يفعل التاجر اليونانى القديم ، بصيحاته فى آذان العملاء المارين أمامه .

(١) إجزينوفون ، .Symp ، ٢ — ٢٠ ، حيث يقارن سقراطا برغيف الخبز هذا .

للمواد الضرورية ، التي لا غنى عنها . ولكن مجهوداً ما لم يبذل لتحديد الأسعار بصفة عامة ، وإن كان ذلك غالبا ما يرى في أماكن أخرى ، في ظروف اقتصادية مشابهة . ففي الجماعة الصغيرة التي تكاد تكتفي نفسها بنفسها ، حيث تقوم سوق واحدة ، وحيث يصعب النقل إلى مركز آخر ، كما أنه يتكلف نفقات كبيرة ، تتجه الحكومة الرشيدة غالبا ، إلى إصدار قوائم تحدد الأسعار تحديداً عادلا . أما السلطات اليونانية ، التي في يدها الإشراف على السوق ، فلم تستعمل أبداً هذا الحق الطبيعي ، إلا في ظروف خاصة استثنائية . فقد فضلت ترك الشاري والبائع يحددان ذلك بمحض حريتهما ، عن طريق الإقناع ، أوحسب الاتجاهات الاقتصادية التي لها أثرها السريع ، بين باعة البضاعة القابلة للتلف في جوحار . لقد كان التدخل في المساومات الخاصة لا يتفق وطبيعتهم . وكما يقول بركايس، وهذا المثل من السوق يضيف معنى آخر إلى الكلمات ، « نحن في حياتنا العامة ، نعطي الجميع حرية التصرف ، ونعمل بنفس الروح في معاملاتنا اليومية ، مع بعضنا البعض ، . فإذا ما هزمنا في المساومة هزيمة شنعاء ، هكذا نقرأ في جملته التالية) تقبلنا هذه الهزيمة بروح طيبة ، «دون أن ننظر إلى جيراننا متجهمين ، او نوجه إليهم كلمات قاسية[1] » .

---

(١) أنظر أرسطو ، .Ar. Ach ، ٨٩٦ ، فيما يخص كتبة السوق . حيث يذكر أن ديكابوليس أقام سوقا خاصة به ، وكان هو كاتبها . وفيما يخص بنص نموذجي بين واجباتهم أنظر ديتنبرجر رقم ٥٠٣ ، فكانوا في أيام السوق المتصلة بالاحتفال يمنعون السكان حسب التعليمات العامة التي لديهم ، من التغالي في الأسعار ، وأن يقدموا خدمات طيبة للجمهور . وفي اليونان الحديثة ، نجد أن السلطات المحلية تملك ، حق إصدار قوائم بالأسعار ، وقد رأيت بنفسي مثل هذه القوائم معلقة على بوابة إحدى مدن جنوب إيطاليا . ولكن الدليل الوحيد الذي استطعت أن أجده ، لتسعير السلع العادية (أي حيث لا توجد اعتبارات خلقية ، ولا كمالية ، ولا أية ضرورات خاصة توجب ذلك) كان إشارة في بلاوتوس ، بـ -Miles Glor iosus ، ٧٢٧ ، حيث من المحتمل أن يكون « المفتش الروماني » ، قد أخطأ . ويجب إن نحترس كل الاحتراس في اتخاذ ، تيرنس وبلاوتوس ، دليلين على الحياة الأثينية ، كما نحترس في اتخاذ الروايات الإنجليزية المقتبسة عن الفرنسية دليلا على ما هي عليه باريس الحديثة .

أنظر فضلا عن ذلك ، النص الهام من القرن الثالث الذي وجد في ديلوس ، والذي عولج في =

وفى متحف برلين ، لوحة صغيرة من الرصاص ، بها بضعة سطور بأحرف متآكلة جدا ، وهى أقدم خطاب يونانى لدينا ، ومن المحتمل أنه يرجع إلى آخر القرن الخامس قبل الميلاد . ولكن موضوعه يشابه كثيراً الخطابات التى نكتبها الآن ، بعد ٢٣ قرنا . وهو بشأن عمل صفقة طيبة وها هو نعرضه كاملا ، بعد أن كانت قراءته مستحيلة ، لولا مهارة الأستاذ ولهلم التى لا تبارى :

« أحمله إلى سوق الخزافين ، وسلمه إلى ناوسياس ، أو إلى ثراسيكليس ، أو إلى ابنى » .

يبعث منسيرجوس (Mnesiergos) بمحبته لكل من فى البيت ، ويرجو أن يجدهم هذا ، فى أحسن حال ، كما كان هو عندما تركه .

أرجو أن ترسل لى سجادة من جلد خروف أو جلد ما عز ، رخيصة بقدر ما تستطيع ، خالية من الشعر ، وبعض النعال المتينة ، وسأدفع لك الثمن فيما بعد[1] .

= الجزء ٣١ من Bulletin de Correspondance hellénique ، ص ٤٦ وما بعدها ، (ويجب أن نتذكر أن ذلك كان خاصا بمعبد مزدحم) وأشباه ذلك فى اليونان والعصور الوسطى جمعوا مما فى ذلك المقال . والنص خاص ببيع الوقود ، والشروط الخاصة به ، وجميعها يقصد بها صيانة الجمهور من الغش والابتزاز . فمثلا غير مباح للتجار تغيير الأثمان ، التى سبق تحديدها ولكن لا حاجة لنا أن نستخلص من هذا وغيره من القوانين المشابهة له ، الخاصة بسوق السمك الأثينى ، (ومن اعتراض أفلاطون المشار إليه آنفا) ، أن سلطات الدولة المدينة أصرت على « تحديد الأسعار » عموما . ولكن ما كان مذموما ، وهو ما زال أيضا ، وعلى سلطات الدولة مقاومته بقدر المستطاع ، هو أن يقول التاجر لزبونه أن الأسعار محددة ، فى حين أنها فى الحقيقة ترتفع وتنخفض حسب المهارة التى يبديها الشارى ، ومن الجائز أن يكون هذا وحده هو المشار إليه . وعلى أية حال فإن ديلوس لم تكن دولة مدينة عادية ، كما لم يكن الوقود ولا السمك (وهو صنف مفضل عند فقراء أثينا) بضاعة مألوفة والنص هام أيضا لما يلقيه من ضوء على نظم الجمرك ، وعلى معنى « الاعفاء » الممنوح لبعض التجار . أنظر أيضا فى هذا الصدد ديتنبرجر ، رقم ٩٣٦ . أما فيما يخص قوانين المجاعة ، فانظر ص ٣٦٥ فيما يلى .

(١) Jahreshefte des österr. arch. Inst. ، الجزء السابع ، ص ٩٤ وما بعدها . لم يستطع ولهلم أن يخبرنا عن الظروف السعيدة التى حفظت لنا هذه اللوحة . وقد نشرت أولا فى مجموعة « نصوص اللعنات الأتيكية » ، وهى لوحات من الرصاص رفيعة =

الفصل التاسع

اقتصاديات المدينة

الملكية الخاصة والملكية العامة

Κοινὰ τὰ φίλων.

كل الأشياء مشاعة بين الأصدقاء — مثل يونانى .

Δεῖ γὰρ πως μὲν εἶναι κοινά, ὅλως δ'ἴδια

يجب أن يكون للفرد حقوق شرعية كاملة ، إلى جانب ما فى المجتمع من عرف وعادات .
أرسطو ، السياسة ، ١٢٦٣ .

رأينا كيف كان يقوم اليونانيون بأعمالهم الخاصة داخل حدود مدينتهم دون تدخل قوانينها ، بل لم تقيدهم هذه القوانين فى الجزء الأكبر من أعمالهم

= متشابهة كانت توضع فى القبور ، وربما تكون هذه اللوحة قد أخذت خطأ على أنها واحدة منها فوضعت فى المقبرة معها . وهى كالآتى :

Φέρεν ἰς τὸν κέραμ—
ον τὸγ χυτρικόν·
ἀποδόναι δὲ Ναυσίαι
ἢ θρασυκλῆι ἢ θ' υἱῶι·
μνησίεργος
ἐπέστελε τοῖς οἴκοι
χαίρεν καὶ ὑγιαίνεν
καὶ αὐτὸς οὕτως ἔφασκε ἔχεν·
Στέγασμα εἴ τι βόλεστε
ἀποπέμψαι ἢ ὤας ἢ διφθέρας
ὡς εὐτελεστάτας καὶ μὴ σισυρωτὰς
καὶ κατύματα· τυχὸν ἀποδώσω.

وقد عثر فى روسيا أخيرا ، على خطاب مشابه لذلك ، (ربما عثر عليه فى أولبيا (Olbia) ، ونشره ولهلم فى Jahrshefte ، الجزء الثانى عشر ، ص ١١٨ وما بعدها : وهو أحدث قليلا من النص الآخر ، فتاريخه بلاشك يرجع إلى القرن الرابع ق — م . وتكاد صيغة الافتتاح تكون واحدة : τοῖς ἐν οἴκωι χαίρειν. (تحياتى لمن بالبيت) .

هذه . وعلينا الآن أن نعود إلى المدينة نفسها ، لنرى كيف كانت تشرف على أمور مواطنيها الخاصة . إذ لما غدت المدينة فى القرن الخامس ، كما رأينا ، أهم عنصر فى حياة المواطنين ، فلا بد أن كان لديها خطة معينة وسياسة معلومة إزاء المسائل الاقتصادية أيضاً . وعلى هذا فإنا نترك اليونانى من حيث هو عامل ، لنتناوله مرة أخرى كمواطن يؤدى عمله فى مجلس الشعب ، مجتازين الحد الفاصل بين الاقتصاد الفردى ، والسياسة الاقتصادية العامة .

كان من تقاليد المدن الإغريقية ودواعى فخرها ، أنها كانت دولة ذات سيادة مستقلة عن أى نفوذ خارجى . وقد دعمت تلك القرون الطويلة من العزلة ، حبها العنيف للاستقلال ، وكان هذا الحب كما رأينا أحد الدوافع القوية فى الحياة القومية . وسنكون مجرد محتذين مثلا سيئا لتجار ورواد القرن التاسع عشر إذا نحن فسرنا هذا الشعور بمعنى سياسى بحت . لقد كان فى أصله وجوهره ، عند اليونانيين وغيرهم ، فكرة اقتصادية فى كل ناحية من نواحيها ، بقدر ما هى سياسية أيضاً . فالسياسة والاقتصاد ، أى حكومة الدولة وتدبير شئونها الاقتصادية ، ليسا بالنسبة للشعوب الساذجة ، (كما يجب أن تكونا بالنسبة لنا) سوى مجرد مظهرين لشىء واحد . وبذا هيأ ما كان لقرون عدة نواة لسياسة اليونان الاقتصادية . فلكى تكون الدولة مستقلة يجب أن تحكم نفسها ، لا بطريقتها الخاصة فحسب ، بل يجب أن تكفل لنفسها أيضاً ، الغذاء والكساء كما يتراءى لها . فليس عليها أن تدبر أمورها فحسب ، بل عليها كذلك أن تسد حاجاتها الخاصة . فالحكم الذاتى والكفاية الذاتية (افتونوميا αὐτονομία وافتاركيا αὐτάρκεια) هما من وجهة النظر اليونانية التقليدية تعبيران متعادلان ، يحل أحدهما محل الآخر . ويمكن أن ترى قوة هذه التقاليد من استمرارها قائمة سنين طويلة ، بعد أن أخذ التجار اليونانيين

فى جلب البضائع بوفرة من الشرق والغرب . وذلك فيما كتبه الفلاسفة عن الاقتصاد السياسى(١) .

لذا فقبل أن تواجه المدينة اليونانية مشكلة كيف تضيف إلى مواردها المحلية، موارد جديدة من وراء حدودها (تلك المشكلة التى صارت ، كما سنرى ، ملحة فى القرن الخامس)، قبل أن تواجه ذلك بزمن طويل ،نشرت مذهبا عمليا عظيما عن كيفية مباشرة واستغلال ما ورثته ، متمشية مع تطورها السياسى .

فماذا كان هذا المذهب العملى ؟ وكيف كان موقف المدينة اليونانية العادية إزاء ما نسميه الملكية الخاصة ؟

لقد كان بكل تأكيد مختلفا كل الاختلاف عن موقفنا ، لأن نظمهم الاقتصادية مثل نظمهم السياسية ، نشأت عن أصول تختلف تماماً عن تلك التى نشأت عنها نظم الدول الغربية اليوم . فإن أردنا أن نفهمها ، يجب أن نمحو من أفكارنا مافيها من أهواء كثيرة . ويجب أن نرجع بتفكيرنا إلى الوراء ، إلى عالم بدت فيه الملكية العامة ، بل الشيوعية المطلقة ، للجادين فيه أقرب إلى الطبيعة وأوفق ، وأكثر تمشياً مع الماضى ، من «الحقوق المطلقة التى لأصحاب الملكية الفردية ، وإلى عالم بشر فيه المحافظون والرجعيون بنظريات وليم موريس«News from Nowhere» ،ونظريات الاشتراكيين العاطفيين . بينما لم يكتف الراديكاليون ، الذين بدأوا متهيبين ، لم يكتفوا فعلا بالمناداة بالمذهب الذى مازال باقيا حتى الآن بين أمثال Rip Van Winkles ، القائل بأن للمواطن الحر المولد « أن يفعل ما يشاء بما يملك » . لقد كان فى الواقع عالما يسير فى الطريق المضاد تماما لعالمنا . وذلك فيما يخص النظريات الاقتصادية ، عالما لا يسير من الفوضى إلى النظام ، بل من الرقابة الاجتماعية إلى الحرية الفردية .

---

(١) أنظر الصورة التى تخيلها أرسطو عن أصل المدينة (السياسة ، ١٢٥٢ أ ٢٤ إلى ٥٣ أ)، وهى تهدف إلى « الاكتفاء الذاتى » الذى هو « الغاية والأحسن » . ويبدو أن Critias لأفلاطون ، قد بنيت على نفس النص .

إن النقطة التى بدأ منها اليونانيون ، تخالف تلك التى بدأنا نحن منها . فنى عالمهم الأول ، عالم القبائل والعشائر والأسر ، لم يفكر أحد فى « حقوقه » ، ولم يناقش مطالب الجماعة ، فعمليا للعشيرة كل ما يملكه . ولن يدعى حقا له فى حياته ، إذا ما طلبوها منه وقت الحاجة . فلماذا إذن يفكر بالمطالبة بيبته أو بحقله أو بماشيته ؟ نعم إنها كانت ملكا له ، لأنه كان يحتاجها يوميا ، ولا يمكنه الاستغناء عنها . لقد استأثر بها باستخدامه إياها ، وكان مطلبه الرئيسى ، طيلة كونه أبا للأسرة أو رئيسا للقبيلة ، ألا يستعملها أحد غيره ، وذلك كقوس أوديسوس . وعلى ذلك إذا ماألقيت إليه إدارة ثروة الأسرة ، فهذا لن يعطيه حقا ما ، فى منحها والتصرف فيها ، إذ لا يقدر أن يهبها ويفقر بذلك أتباعه ، أو أن يتنازل عنها إلى الأجانب ، إذا انتهت حاجته منها . فهو يحتفظ بثروته من أجل الجماعة الصغيرة التى حوله . لأنه إذا كانت هذه الثروة تخصه بوصفه رأس العائلة ، أكثر مما تخصهم ، فذلك لأنه خلال تطور الأجيال البطىء ، رؤى أن الملكية الخاصة بهذا الشكل المحدود البدائى خير للجماعة كوحدة . فإن الأملاك التى تملك بهذا الوضع ، لا تتضمن حقوقا ، وإنما تفرض واجبات فقط . لقد كان دأب السياسة الاقتصادية اليونانية — وما من ميدان آخر كان فيه الذكاء العملى اليونانى أكثر توفيقا منه هنا — فرض هذه الواجبات على أجدر الناس للقيام بها ، وعلى نحو يستثير خير ما فيهم من قوى أثناء أدائها[١] .

ومن ثم نجد نفس الخيط الذى صحب التطور الاقتصادى . وكذلك التطور السياسى فى اليونان . فكما أن المواطن اليونانى قد استفاد من حيث الفردية والحرية الشخصية ، كلما قويت صلته بالمدينة ، فكذلك

---

(١) لسنا فى حاجة إلى أن نناقش هذا السؤال المحرج ، فيما إذا كان اليونان قد عاشوا فى فترة ما قبل التاريخ حياة شيوعية ، وما بدا للكتاب اليونانيين والكتاب المحدثين معا ، أنه البداية « المنطقية » لتطورهم الاقتصادى ، له دلالته الكافية . ولكن النظم الاسبرطية التى اتخذها أفلاطون وآخرون أساسا لهذه النظرية ، لم تكن بدائية حقيقة ولكنها حالة تقدم محرف . أنظر ص ١٢٣ ، ١٢٤ فيما سبق .

ازداد المالك حماسة وإقداما ، كلما زاد شعوره بالجماعة الكبرى التى يعمل فيها ، وبالأغراض التى من أجلها تحتاج المدينة إلى ثروته . وكانت سياسة المدينة ألا تقيد حريته بقيود جديدة ، وأن تزيل بالتدريج ، كما رأينا فى تشريع سولون ، القيود التقليدية التى تتدخل فى حريته فى العمل . ولكن كل توسع فى الحرية عنى ازديادا فى الوطنية ، فالواجبات التى تعود أن يؤديها للعائلة أو العشيرة ، أصبحت تؤدى الآن إلى المدينة التى وحدت بين كل هذه الوحدات الصغرى ، أى إذا كان قد أصبح حرا فى أن يوزع ثروته كما يشاء ، بل أن يورثها ، وإن كان ذلك فى حدود معينة ، فقد غدا ميالا بل متحمسا لأن تكون المدينة أول من يستفيد من كرمه . فلها حق على ثروته ، كما لها حق على وقته . وقد رأينا أنه أعطاها أكثر من عشر وقت عمله ، وكذلك كان يبذل ثروته لها فى سخاء وكرم . وكما لاحظ الكورنثيون ، بكل ما يشعر به متنافسون فى التجارة فاشلون من مرارة ، فإن الأثينيين فى القرن الخامس كانوا جسورين مغامرين فى العمل ، حتى أنه « لم يكن لديهم » سوى وقت قليل للتسلية والاستمتاع ، إذ هم دائما يسعون وراء الكسب » . ولكنهم كانوا كذلك متحمسين كمواطنين حتى « أن فكرتهم الوحيدة عن أيام العطلة والراحة ، هى القيام بواجباتهم . وإنهم ليأسفون لبعدهم عن الحياة العامة ، أكثر مما يأسفون على تعطلهم عن القيام بأشق عمل مرهق من أعمالهم الخاصة »[1] .

فالمدينة اليونانية إذن فى سياستها حيال الملكية الخاصة ، كان هذا التقدم المزدوج ماثلا بالفطرة أمامها ، وأميز نظمها ، ولا سيما فى أثينا ، تبين مدى غيرتها على صيانة وتقوية تقاليد الحرية الشخصية ، وكرم النفس . وإذا اعتاد إنسان البذل بسخاء للمدينة ، فلا بد أن يقوم طواعية بخدمتها

---

(١) توكيديدس، ١ — ٧٠ — ٨ ، أنظر ٢ — ٦٥ — ٧ فيما يخص رأى توكيديدس عن الميل الى الجد فى طلب « الكسب الخاص » .

بشخصه كذلك ، وأن يضحى بحياته إذا لزم الأمر ، كما قال بركليس ، فى سبيل المدينة .[١]

فليس من الصعب إذن ، أن نتبين السبب فى أحجام الديموقراطيات اليونانية دائما عن فرض الضرائب المباشرة ، إلا إذا اضطرتها الضرورة ، إذ اعتبرتها مهينة لكرامة المواطن الحر . فالغرباء المقيمون ، والمحررون ، قد يدفعون الجزية وهم شاكرون لهذا الامتياز ، ولكن المواطن يجب أن أن يترك حراً ليساعد البلاد بطريقته الخاصة . فكان يدفع كل نوع من الضرائب غير المباشرة عن رغبة ، سواء أكانت الضريبة من وقته أم من ماله . والضريبة المباشرة الوحيدة التى قدمها كمواطن ، لخزانة الدولة ، كانت منحة اختيارية حرة ، أو هى مايسمى فى أثينا وغيرها « ليتورجى » أو « العمل العام » . وكان جزء كبير من نفقات الدولة الأثينية العامة ، أى إخراج رواياتها ، وتسليح سفنها ، والاستعداد لألعابها وحفلاتها وأعيادها ، من إعداد العربة والحصان ، وسباق المشاعل ، وفرقها الموسيقية ، وسباق الزوارق ، سواء فى المدينة أو فى الأقاليم ، يقوم به المواطنون من النبلاء طواعية ، وكانوا يفخرون ويزدهون بمنافسة أسلافهم ، أو جمع من منافسيهم ، فى قيامهم بهذا الواجب . « وبهذه الهبات الحرة سلح الأثينيون أسطولهم ، الذى ظل صاحب السيادة مدة طويلة فى البحار ، كما كونوا بها أيضاً تلك الفرق التى قامت بالرقص وإلقاء الأناشيد التى علمهم إياها أيسخيلوس وسوفوكليس ، ويوريبيدس وأرسطوفانيز » . وقد لا تلق نظاماً آخرا فى حياة الدولة المدينة ، يقف الإنسان تمام الوقوف على سير أعمالها مثل هذا النظام . فلينز كراتس « متعهد الفرق الموسيقية » منح فى مباراة غنائية ، جائزة أحسن فرقة من الصبيان ، وقد سره ذلك

---

(١) « τοῖς σώμασιν καὶ τοῖς χρήμασιν λητουργεῖν »
٢٩ — ٥ من Ath.Pol. : (τὴν ἀρετὴν τῇ πόλει) ،
προϊέμενοι, ἔρανον κάλλιστον ، توكيديس ، ٢ — ٤٣ — ١ .

تماما حتى أنه أقام النصب الذى لايزال قائماً فى « شارع القواعد المثلثة » (Street of Tripods) ، تخليداً لهذه الذكرى ، وذلك مثل ما يقدمه الأفراد الآن (وإن كان نادراً ما يكون ذلك على سبيل المنافسة) ، من كتب وصور وكؤوس المباريات ، إلى المنظمات التى يهتمون بها اهتماما خاصاً . إن الحديث عن الضرائب فى مثل هذا الجو ، لخطأ ، بل خطأ جسيم ، فالضريبة دفع مال يفقر الشخص عن ذى قبل ، بينما التطوع للعمل العام (Liturgy) يزيده ثراء . فهو لايزال مالكا لما وهب ، ومع ذلك فقد أضاف شيئا إلى التراث العام . « فالعظمة القومية » نقلا عن بركليس ثانية ، « أنفع وأجدى لصالح المواطنين ، من أى سعادة فردية يصحبها الفقر العام » . هذه هى البديهيات فى النظرية المالية اليونانية العامة ، إلا أن تعقيد الدولة الحديثة ، وبعثرة الثروة الخاصة ، تحولان دون أن يظل ذلك أمراً بديهياً[1] .

ونلتقى هنا باختلاف هام بين المشاعر اليونانية القديمة والحديثة ، كانت له آثار غير متوقعة فى الحياة اليونانية الاقتصادية . فأثرياء الانجليز يميلون أيضاً إلى أن يفكروا بإمعان فى نفقاتهم ، ولكن نظراً لأصلنا الإقطاعى ، جرى هذا الحرص على طريقة مختلفة . فتقاليدنا الانجليزية تؤكد ، أن حسن الانفاق أمر خاص شخصى . فهو واجب يدين به الرجل نحو مكانته ومركزه . فالرجل الغنى يفضل أن يحتفظ لنفسه بالإشراف الكلى على ثروته ، وأن يجود بسخاء مما يفيض عن حاجته ، ولكن بطريقته الخاصة

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٦٠ — ٢ . والاقتباس الآخر من مقال Leitourgia فى دارمبرج وساجليو ، ويعطى تفاصيل عن كيفيته . وهذا النظام رغم أنه أثينى فى طابعه ، إلا أنه سادأنحاء اليونان ، التفاصيل فى موسوعة باولى مقال Choregia . ثم انظر أيضا دارمبرج مقال Trierarchia ، فيما يخص واجبات نوتية السفن (Trierarchs) الحقة ، التى هى موضع النزاع وهم الـ ٤٠٠ مواطن الذين يختارون سنويا . وكان على كل منهم تقديم سفينة . وواجباتهم هى : — (١) جمع النوتية (وليس دفع أجورهم) ، (٢) إعداد السفينة ومدها بالسلاح (المواد ... الخ كانت تقدمها الدولة) ، (٣) المحافظة على أن تكون السفينة صالحة . (٤) النفقات الإضافية فيما يتصل بتعويم المركب ، وجوائز المجدفين ... الخ .

ولما يراه هو من أسباب . وفى الواقع أنه يظل فى نظر الناس ، وفى نظر نفسه أيضاً ، « باروناً » أو « سيداً عظيم الجاه » ، أكثر منه مواطناً عادياً ، صادفه حظ ، أكثر قليلا مما صادف زملاءه . أما شعور اليونانى فيختلف عن هذا ، وبذلك كان مقياس بذله وعطائه أعلى بكثير . فعندما يخبرنا ليسياس عن مواطن أعطى ما متوسطه ٧٠٠٠ درخمة سنوياً (أى بما قوته الشرائية ١٣٠٠ جنيهاً) لمدة تسع سنوات ، فلا ينبغى أن تقدر ثروته بمقياس كرم أغنيائنا الزهيد . بل أحرى بنا أن نقيس ذلك بمقياس الفقراء ، فما هو إلا كالأرملة التى ستصرف نصف ماتركه عائلها على جنازته وشواهد مقبرته ، أو بمقياس المتحمسين من الطبقة العاملة ، الذين يقترون على أنفسهم فى طعامهم وملبسهم ، لبناء قاعة اجتماعات ، أو إصدار صحيفة[1] .

ولكننا لا نبحث هنا عن الشعور الذى دفع إلى هذا الكرم الفياض الموصول ، بقدر ما نبحث عن أثره فى اقتصاد المدينة التى زادها ثروة . فقد أحدث ما يعد فى نظرنا علاقة ، غير معهودة لنا كلية ، بين الثروة العامة والخاصة ، أى بين مصادر الدولة ومصادر المواطنين الخاصة . ففى جماعة فقيرة ، فقر أية دولة مدينة يونانية عادية ، لا تتجه المدينة فقط إلى أن تملك مصادر عظمى دائمة (منفصلة تماما عن دخلها السنوى من الهدايا والضرائب) ، تفوق كثيرا مصادر ثروة أى مدنى ، ولكنها بأراضيها العامة ، وخزائن معابدها يمكنها أن ، تفوق بسهولة مجموع ثروات الأفراد جميعا . ولم تكن الزيادة الكثيرة فى مصادر الثروات الحديثة ، من نصيب الدولة والكنائس ، أو الهيئات العامة ، بل كانت من نصيب الأفراد . وقد أدى هذا إلى تغيير نسبى ، كما أدى إلى تغير مطلق . فقد قلبت لأول مرة ، وإلى الأبد ، التوازن

---

(١) كثيرا مالوحظ أن الأمريكى الغنى يتبرع للمشاريع العامة بسخاء أكثر من الانجليزى الموسر . والأهم فى الأمر أن شعورهما إزاء التبرع يختلف كما يختلف شعورهما إزاء بيع جزء من أملاكهما ، أو بالنسبة لإنقاص عدد كلاب الصيد .

اليونانى القديم بين المصادر العامة والخاصة . فقد كانت الثروة الخاصة تشغل دائما نطاقا أوسع من الثروة العامة، فالدولة أو الإقليم أو المعبد شيء واحد ، أما المدنيون أو العابدون فكثيرون . والحديقة العامة أصغر من ١٠٠٠٠ حديقة خاصة ،وبهو المدينة أصغر من ٠٠٠٠١ غرفة استقبال . ولكن الميزان يتعادل فى المدينة اليونانية القديمة، بجمال أبهائها ، وعظم محاكمها ومبانيها. ولا زال ذلك حقيقة فى قليل من مراكز العالم القديم ، مع أن المبانى فى أغلب الأحيان كاتدرائيات أكثر منها دور بلديات . فاستانبول تشغل مساحات واسعة ، ولكن السائح سواء اقترب من البوسفور ، أو من بحر مرمرة ، يستقر نظره أولا على المساجد التى تتوج مرتفعاتها . وعند نزوله إلى البر فقط ، ومحاولته الوصول إليها ، يستطيع أن يدرك فقط بحاسة من المقارنة ، غير مألوفة للعقل العربى ، مدى بساطة هذه المساكن الخشبية وتواضعها ، وهى مساكن تتراكم حول مساحات المدينة الواسعة . فأثينا فى القرن الخامس كانت على مثل هذه الحال من التباين ، بل وأكثر منهـــا ، فكما يقول ديموستنيز ، إنك لتتطلع معجبا إلى معابدها ، وأقبيتها ذات الأعمدة ، ومخازن أسلحتها وأحواض سفنها ، وإلى مبانيها الخالدة على الأكروبول ، التى تلقاها أثناء مرورك بالمدينة ، جيئة ورواحة ، بارزة لامعة على كل جانب من حافة الصخر . ولكن إذا ما سألت عن بيت ثيميستوكليس أو كيمون أو أرستيدس أو أى عظيم آخر ، ممن تتردد أسماؤهم على شفاه الجميع ، لا تكاد تجد من يعرفه ، وإذا ما وصلته فى النهاية ، تلقاه أشبه ما يكون ببيوت جيرانه ، « ڤيلا » بسيطة من اللبن . إن ثروتهم الحقيقية لم تكن فى الواقع فى بيوتهم حيث تعمل العتة والصدأ على اتلافها ، واللصوص على اقتحامها من طريق الحـــائط الضعيف لسرقتها ، ولكنها كانت مشتركة بين زملائهم المواطنين ، وتجسمت فى أعمال فنانيهم ، لتكون متعة للجميع . فجماعة كهذه مهما كان فقرها ، لا بد وأن تعرف كيف تستغل قدرة فنانيها ، ومهندسيها ، ونقاشيها . وقد لا يكون لها حماة من الأغنياء ،

ولكن ستوفر لشعبها الغيرة والحماسة ، ولفنتنا الوحى والإلهام . على حين أن جماعة يعيش رجالها فى بيوت مزخرفة بأبدع الزخارف ، عرف أفرادها كيف يتذمرون ويجأرون بالشكوى من الأجور ، كالأثينيين فى عهد ديموستنيز ، تلك الجماعة لا يمكن أن تأتى بأعمال خالدة ، ولا هى على الرغم من تقدمها الفنى ، تستطيع أن تخرج من بين أعضائها ، مدرسة للفنانين لتقوم بتلك الأعمال[1] .

إن ذلك يوحى بسؤال طبيعى ، إذا كانت الدولة تقوم بدور كبير فى حياة المواطنين ، لا سياسيا فقط ، بل اقتصادياً أيضاً ، ليس فقط بالأعمال العامة التى باشرتها ، ولكن بالثروات التى ملكتها كذلك ، فلماذا لم تبسط رقابة أكمل على مختلف نشاط هؤلاء المواطنين ؟ لماذا لم تكفل لنفسها جميع ما فى حدودها من ثروات خاصة ، وتديرها مباشرة ، ولا بد أنها كانت تواقة لذلك ، كما يحدث فى دولة ديمقراطية ؟ وبمعنى آخر ، لماذا لم تقدم أثينا

---

(١) .Dem ، ١٣ — ٢٨ . متجها بناظره من البنكس إلى المبنى الذى يقع أمامه مباشرة ، إنه يتكلم عن « هذه البروبيليا » . ويبدو أن فكرة بركليس عن الأكروبول ، أن يكون بناء يطل على كل جبهة من الجبهات الثلاث . إن الصلة بين الثروة الخاصة والثروة العامة فى أثينا ، موضع نزاع ونقاش ، ولكن من المتفق عليه أن هناك توازن عادل بين الإثنين . يقول پوليب ، ٢ — ٦٢ — ٧ ، أنه فى عام ٣٧٨ عمل تقدير ، ولا شك أن ذلك كان فى وقت ركود ، فقدر مجموع رأسمال الثروة الخاصة فى أتيكا ، بما فى ذلك الأرض والبيوت والمنقولات بـ ٥٧٥٠ تلنتا (أقل من ٧ مليون جنيها قوة شرائية) ، وهو ما أيده .Dem ، ١٤٠ — ١٩ ، إجمالا (٦٠٠٠ تلنت) . وكان هذا الرقم الذى يعادل ست مرات مجموع دخل الإمبراطورية الأثينية ، منخفضا بشكل يثير الدهشة ، إلى حد أن قامت محاولات كثيرة لتفسيره بما ينفيه . ولكن أحدث الآراء ، تعتبره صوابا ، مع مراعاة وجود مجال كبير لتعرضه للخطأ والتدليس والخداع (مقال « Eisphora » فى دارمبرج وكتبه Lécrivain ، ڤيلاموڤيتز .Staat und Ges ، ص ١١١ ، والطبعة الثانية ، ص ١١٦) . ويبين كاڤينياك ، ص ١٢٥ ، أسباب تقدير الثروة الخاصة فى أثينا عام ٤٢٧ ، بمبلغ ٢٠ ألف تلنتا . وليس لدينا وسائل لتقدير مجموع ثروة الدولة الأثينية فى القرن الخامس ، من الأراضى والمناجم الخ. وقد قدر مجموع ثروة المملكة المتحدة بمبلغ يتراوح بين ١٨ إلى ٢٠ ألف مليون جنيها (Quarterly Review ، ١٩١٠ ص ٣٠٤) ، بينما كان دخل بيت المال للسنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ ، ٠٠٠و٠٠٠و١٥١ جنيها ، والأموال المحصلة من الضرائب فى انجلترا ، وولز ، ٥٩ مليون و٥٠٠ ألف جنيها .

للعالم مثلا للاشتراكية الإقليمية ، كما فعلت منافستها البندقية فيما بعد ؟[١]

سبق أن أعطينا إجابة بسيطة لهذا السؤال . فأثينا لم تشعر مطلقا بميل إلى عدم اتخاذ نظام اشتراكى ، بمثل ما شعرت فى القرن الخامس ، لأنها كانت تبتعد بشكل حاسم عن الشيوعية ، وتحكم الدولة متجهة نحو حرية فردية غير مقيدة فى العمل والنشاط . ولكن ذلك ، فى ذاته لا يعتبر تفسيراً مرضيا ، إذ لو كسب الأثينى حياته كموظف فى بلدية مدينته ، فلم يكن ليشعر بحرية أقل ، بل بحرية أزيد ، من كونه يكسب حياته من عمل خاص . وعلى أية حال ، فلم تكن الاشتراكية فى أثينا لتشل الكد والعمل كما تقول بذلك ، بدون تفكير ، التأكيدات الحديثة ، فما جد الأثينى أبدا فى عمله ، أو بذل مجهوداً فكريا فى شئونه ، بقدر ما يفعل ذلك عندما يعمل من أجل المدينة ، فيجب أن نبحث عن سبب أعمق من هذا التفسير السطحى .

إن السبب الحقيقى الذى حدا بالأثينيين إلى إدارة أعمالهم على مثل هذه الأسس الفردية القوية ، هو كره اليونانيين المتأصل ، وخاصة الأثينيين منهم ، للنظام والترتيب ، وذلك رغم ميل أفلاطون وغيره من الكتاب للنظام الاشتراكى . والسبب لم يكن رفضهم العمل حسب نظام حكومى ، بل رفضهم العمل بأى نظام كان . لقد كان هواهم المتأصل ، وأعظم مفاخرهم ، أن يظلوا هواة ممتازين ، وأن يكونوا كما قالوا عن رجل ، لعله أعظم ساستهم ، « موفقين فى ارتجال العلاج الصحيح للأزمات المفاجئة » . وقد زاد ذلك الميل قوة ، هذا النجاح المفاجىء الذى ساقهم إلى العظمة والتفوق ، والذى اتسع باتساع تجاربهم ، ولم ينتابه فتور ، بل دفعهم إلى ارتجال أعمال جديدة أروع

---

(١) فيما يخص أسطول دولة البندقية (التجارى) أنظر هوراتيو براون (Horatio Brown) فى Cambridge Modern History ، الجزء الأول ص ٢٧٧ . وهناك اقتراح مماثل قال به المؤلف الأثينى المقال الغريب الممتع عن « الطرق والوسائل » الذى يرجع الى القرن الرابع . وعلى هذا فلم يكن النقص فى القدرة على التفكير فى اتخاذ تطبيقات عملية للاشتراكية هو الذى جانب أثينا لها ، ولا لأنها لم تكن بحاجة إلى الأرباح التى قد تحصل عليها من ذلك .

وأمجد ، بازدياد تعقد العالم الذى رأوا أنفسهم يقومون فيه بدور هام .
فالمنهج الأثينى يقدم لنا صورة للمزاج الفنى فى العمل ، لو توفرت يوماً مثل
هذه الصورة ، والمزاج الفنى كما نعلم من صراعه الشاق مع الظروف الحديثة
يتحاشى بفطرته وغريزته ، لا عن سياسة وقصد ، شقاء العمل فى المكاتب ،
وقيود الوظيفة المستقرة ، وكل ما تتطلبه الخدمة المنتظمة من نظام وترتيب.
فهذه الأمور إنما هى لغير الأثينيين ، ولن يحسدهم الفنانون على ما يتناولون
من مكافأة . وإنا ليمكننا الاستماع إليهم يقولون ، كما قال زعيمهم العظيم،
« إذا اخترنا أن نواجه الحياة بعقل مطمئن ، أكثر من أن نواجهها بتدريب
مهنى شاق ، وأن نعتمد على وحى ذاتى ، أكثر من اعتمادنا على خطة تمليها
الحكومة ، فنحن الرابحون . لأننا نكون قد تجنبنا كل متاعب الاستعداد
للغد وما يجئ به . وعندما نرى أنفسنا فيما يتفق وميولنا ، سررنا بقدر مايسر
مناغسونا المكدودون . فليدربوا أنفسهم منذ الطفولة سعياً وراء الحصول
على الكفاية ، على حين إنا ونحن أحرار فى أن نعيش كما نشاء ، وننتقل حيثما
شئنا ، لعلى استعداد لأن نواجه المشاكل نفسها ، إذا ماحان الوقت . فثقتنا
ليست فى الحيل المهنية والتسليح المادى ، ولكن فى روحنا العظيمة ، فى
تحمسنا لحياة المدينة »[1] .

وإذا أردت الحق ، فإن تدابيرهم المادية كانت ذات عيوب كثيرة ،
وتتطلب أناساً ذوى روح عالية ، حتى يتجاوبوا معها . وإنه لتناقض غريب
حقاً ، ذلك التباين الذى بين المدينة كمسيطرة على حياة الناس ، وبينها من
حيث هى منظمة لأمورهم ، أى بين أثينا كمنبع النشاط وواهبة الحكمة ،
وبينها بوصفها بلدية ليس إلا . ومن الصعب أن نصدق بعض الحقائق ، لو
لم ندعم فكرنا بملاحظة نفس التباين الشاسع ، فى محيطات مشابهة فى بلاد أقرب
إلينا ، فى الجماعات التى تنشر الضوء الروحى على نطاق واسع ، ثم تأبى أن

(١) نقلا عن توكيديدس ، ٢ — ٣٩ . فيما يخص تيميستوكليس المرتجل أنظر توكيديدس ،
١ — ١٣٨ — ٣ .

تدخل النور الكهربائى ، والتى تبشر « بأن العقل السليم فى الجسم السليم » ، وتستخدم المهندسين المعماريين فى إنشاء مبان ينقصها أبسط المرافق المريحة العادية ، والتى تبذل نشاطاً وإخلاصاً فى تقديم غذاء عقلى لانظير له ، ولاتواجه مشكلة كل يوم ، فتكفل للناس الحصول على الطعام بثمن زهيد . فالأثينيون عاشوا تحت الأكروبول ، كما عاشت أجيال كثيرة تحت أبراج أكسفورد فى « أبهة قذرة » . إنه ليصعب تماما على النفس البشرية ،أن تعمل فى وقت واحد عملين مجيدين .

إنه بالرغم من كون المواهب كلها تحت تصرفها ، فلم تتطلع لأكثر من تنفيذ ما تريد . وقد كان نظامها مبدئياً أكثر من نظام أية مدينة متأخرة من مدن الأقاليم عندنا . كان عندها المـاء حقاً ، بفضل طغاتها ،وبالرغم من أنه يكاد أن يكون ألزم شرط أساسى لحياة المدينة اليونانية ، فإنه لم يمتد إلى پيريه ، التى ظلت حتى عصر « الوباء الكبير » ، تعتمد اعتماداً كاملا على الصهاريج . وكانت شوارعها ضيقة متعرجة قذرة ، غير مضاءة ولا ممهدة ، وليس بها مجارى ولا حتى بالوعات . وخير لنا أن نسدل ستاراً كثيفاً على كل المرافق الصحية . أما رجال الشرطة ، فمعظمهم من الهواة ، والباقى برابرة من ثيسيا ، وكانوا أضحوكة الأحرار من المواطنين . أما البوليس السرى الرسمى فلم تسمع المدينة به مطلقا ، ويقوم بعمله جواسيس خصوصيون ، أو مايسمونهم « سيكوفانت » ، الذين كانوا يحدثون فى مثل هذه الجماعة الثرثارة أضراراً أكثر من تلك التى يكتشفونها . ولا ننتظر أن يكون عندهم رجال بريد ، رغم أن كان للفرس ، وللبطالمة من بعدهم ، بريد قومى . ومن العجيب حقاً ، ولا سيما لو انتهينا للتو من قراءة نظم التعليم القومية عند أفلاطون وأرسطو ، أن نجد أن أثينا فى عهد بركليس ، لم توجه اهتماماً ما إلى الأطفال (الذين لم يصبحوا فعلا أطفالها إلا عندما يبلغون سن الثامنة عشرة) ، وأنها لم تخرج أى معلمين حكوميين ، إلا المواطنين الذين يدربون المجندين . وهؤلاء ليسوا ضباطا دائمين أعدوا إعداداً خاصاً للقيام بهذا العمل ، ولكنهم كانوا

ينتخبون سنوياً ، وهم كما يجب أن ننتظر من نظام فيه « الطاعة » تماثل « الإقناع » ، كان همهم أن يفوزوا بتقدير الناس ، لا لكفاياتهم ، وإنما للطفهم . وإنا لندهش مرة أخرى ، عندما نرى المدينة ، قد بلغ بها الكسل حداً ، حتى أنها لا تجمع أموالها بنفسها . وكانت الخزانة الإمبراطورية ، التى تمس مُثلها فى الصميم ، موضع عناية خاصة فى كل صغيرة فى الأمور ، وإذا تأخرت الجزية كان هناك موظفون يستعجلون دفعها . ولكن كل الضرائب البلدية ، وجزية الرأس المفروضة على الأجانب والجمارك ، وضرائب السوق والرخص المختلفة ، كانت تعطى بالالتزام « لجباة » ، نظير ربح يربحونه من وراء التزامهم هذا . وأحسن ما يصور لنا كم بدا هذا الترتيب (الذى مازال قائما دون شك ، فى أنحاء كثيرة من الشرق) طبيعياً للتفكير الأثينى ، وكم كانت التدبيرات المالية الإمبراطورية بالنسبة له خطوة كبيرة إلى الأمام ، هو شرح دقيق حفظ لنا مصادفة . فالحيوانات التى تذبح فى القرابين العامة الكبرى ، وهو ما يتكرر عدة مرات كل عام ، لم تكن الدولة الشارية لها ، أو يرسل بها المستأجرون من مراعى الدولة وفق نظام خاص ، وإنما يوردها ملتزمون خصوصيون ، ويمونون بها الحفل ، وفق سعر محدد[1] .

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٤٨ — ٢ ، (صهاريج المياه) ، وديتنبرجر رقم ... (الزصف ') . وفيما يخص الشوارع والمظهر الخارجى لأثينا ، أنظر الوصف الممتع ، والذى يرجع إلى القرن الثالث فى Geograpni Graeci Minores) Heracleides ، الجزء الأول ، ص ٩٧ وما بعدها ؛ .Fragmenta Hist. Graec ، الجزء الثانى ص ٢٥٤ وما بعدها) . لم يتجه اليونان إلى تصميم فنى للمدن ، إلا فى العصر الهيلينستى . وقد كان ذلك إحدى نتائج التفكير قصدا فى المدينة كعمل فنى ، كما فعل الفلاسفة . وقد كانت الأعمال المعمارية الكبرى فى عهد بركليس ، إما دينية أو دفاعية ، أى أنها فى كلتا الحالتين كان أساسها السياسة لا الجمال الفنى . إن كل ما حاولوه أحسنوا أداءه ، ولكنهم لم يفكروا فى مجالات واسعة ؛ بروح الإتقان التى يستلهمها المهندس المعمارى الحديث . وتصميم هيبوداموس المستطيل لمدينة بيريه ، لم يكن معماريا مطلقا ، وإنما كان هندسة محضة ، وكما يلاحظ ڤيلاموڤيتز ، كان « تصميما كئيبا بشكل لا يحتمل » . ومهما كان تصميم بركليس ، أو بالأحرى تصميم منسكليس للأكروپول ، فترتيب المبانى النهائى ، وقد أملته ، إلى حد كبير ، الاعتبارات =

وليس من شك فى أن كل هذه الأشياء، كما يقول لنا بركليس ، ليست أساسية ، ولا ينبغى لنا أن نطيل الكلام عنها . فيجب أن نتقبل الأبهة ،

= التقليدية ، ليبدو أيضا شيئا أماته المصادفة . إن المدينة الهلينستية الكبيرة ، مثل الأسكندرية أو أنطاكيا ، كانت عاصمة حقا بمعنى الكلمة الحديثة ، وتماثل لندن وباريس وڤينا ونيويورك ولكنها تختلف كل الاختلاف فى الشكل والروح ، معماريا واقتصاديا وسياسيا ، عن البلديات صاحبة السيادة فى اليونان القديمة . أنظر التفاصيل فى شريبر (Schreiber) فى " Zur Typologie der hellenistischen Stadtgründungen " (Kiepert's Festschrift; برلين ١٨٩٨ ، ص ٣٤١ بنوع خاص)، Pöhlmann; Die Übervölkerung der antiken Grossstädte، ثم Körnemann, Stadtstaat und Flächenstaat des Altertums in ihren Wechselbeziehungen فى Neue Jahrbücher für des klassische Altertum، ١٩٠٨ ، ص ٢٣٣ ومابعدها ، وهو يوضح منها (رغم تلاعبه قليلا بكلمة « إقليمى ») كيف أن الرغبة فى التوسع الإقليمى (« بتلوين الخريطة بالأحمر ») ، كان أمرا غريبا على دولة المدينة الحقة ، وأن الشكل الذى قامت عليه تلك الرغبة فى التوسع بدا لساسة اليونان لا بشكل الضم أو التملك ، بل النهب والسرقة . أنظر أيضا هاڤرفيلد (Haverfield) ، Ancient Town—Planning ، (أكسفورد ، ١٩١٣) ، الذى يبين أن تصميم المدينة اليونانية ، ابتدأ بالطريقة المعروفة بـ « Processional » (ص ٢٨) . وفيما يخص دورات المياه أنظر ، أرسطو ، الإكليزيا ، ص ٣١١ وما بعدها ، ثم بلوتارخوس ، ١١٨٤ ، التى لا تشير (كما جاء فى دارمبرج وساجليو مقال Latrina) ، إلى وجود مراحيض عامة . قارن فى هـذا المقال عدم التناسب بين القسمين اليونانى والرومانى . ليس هناك مثل يونانى ، وذلك لسبب واضح . إن أشياء قليلة هى التى أثرت فى نفوس اليونان الذين زاروا روما مثل « المجرى الكبير » (Cloaca Maxima) : أنظر سترابون ، ص ٢٣٥ ، Hal. Dion. ، ٣ — ٦٧ . وربما ازداد الأثينيون دهشة لو عرفوا ما كانت عليه طريقة المجارى من دقة وإتقان ، فى قصور ما قبل التاريخ فى كريت . ويبدو أن أثينا لم يكن لها سوى مصرف ، أو ميزاب كبير مكشوف ، غطى فيما بعد (Merkel, Ingenieurtechnik im Altertum ، ص ٤٥٢) . ومن المؤكد أن هناك وجه آخر لكل هذا . فكما لاحظ ، John Burns فى افتتاح معرض تصميم المدن « فقد نشأت عيوب حديثة ، لم تتعرض لها الجماعات السابقة فلم يكن بأثينا ، كما فى لندن ، ٦٠٠ ميلا من أشرطة السكك الحديدية ، على جسور قبيحة ، ينشأ عنها أزقة مقفلة حقيرة فقيرة ، مضافا إلى ذلك ٥٠٠ عطفة قبيحة شوهتها الإعلانات المبتذلة . ولم يكن بها أعمال جاز ، ولا الـ ٧٠٠٠ حانة القائمة فى لندن ، وكلها تقريبا فى نواصى الشوارع ، وفى مواضع كان يجب ان تشغلها فقط بنوك ، أو مكتبات ، أو مكاتب بريد ، أو مراكز بوليس . فنحن نعمل فى ظل مضايقات عدم توفر معدات الإنارة والحراسة والدخان والمواصلات السريعة » (جريده التيمز ١١ اكتوبر سنة ١٩١٠) . التضحية بواسطة العقود ، ايزوكراتيس ، ٧—٢٩ . وفيما يخص بتنظيم التزام الضرائب تفصيلا أنظر ، Attische Staatshaushaltung فى Böckh (طبعة ١٨٨٦) ، الجزء الأول ص ٣٨٢ وما بعدها . وبعد عام ٤١٣ أصبحت جزية =

ونستمتع بها ، وأن ندع القاذورات فى سلام ، لنقصد إلى الأشياء العظيمة مباشرة كما فعل هو ، ولنتجاهل ماعداها . والمهم هو ما أنجزته أثينا من أعمال الحضارة ، لا تلك العقبات التافهة التى لاحصر لها ، والتى كانت تقاومها كل يوم .

ولكن هل لدينا ما أنجزته ؟ يا حسرتاه فإن بركليس نفسه لأول من يأسف على هذا . لقد أتمت أثينا البارثنون ، ولكنها لم تنجز أكثر من ثلاثة أرباع البروبيليا أو نصف الإرخثيوم . وقد أثبتت مشروعات مبانيها العظيمة ، أنه من الصعوبة — بما هى عليه من النقص — على الأحفاد أن يتقبلوها ويفهموها ، لقد انقضى ٦٣ قرناً قبل أن يعرف الناس حقيقة أمرها . والحقيقة هى أن بركليس ، ورجال العصر العظيم ، لم يعالجوا فقط شئون حركة فكرية ليس لها من قبل مثيل ، وإنما عالجوا أيضاً مجموعة من حقائق مادية لم يسبقهم إليها أحد. فإن أثينا وقد جرفها تيار مغامرات روحية عظيمة ، أخطأت تقدير ضرورة الاهتمام بالتفكير فى تفاصيل الحياة العامة . ولما حان وقت هذه التفاصيل ، كانت حكماً ضدها . ففى أول سنة من سنى الحرب البلوبونيزية ، أثقل فيض سكان القرى الذين توافدوا عليها ، مصادر البلدية

= الإمبراطورية ، بالالتزام أيضا . والبنغال هى المثل الذى يعتمد عليه فى التزام الضرائب فى العصر الحديث حيث كانت تعهد الحكومة الانجليزية ، بجباية الدخل الى بعض الملتزمين وورثتهم من بعدهم على الدوام ، نظير مبلغ محدود يدفعونه . وفيما يتعلق بشئون التربية أنظر ، Aeschines ، ١ — ٩ ، (Solon's regulations controlling private schools) ، وبنوع خاص فريمان (Freeman) ، Schools of Hellas وهو بحث طريف ، ولكنه لم يكمل (حيث لم يوضح بما فيه الكفاية ، الفرق بين النظم فى القرن الخامس والرابع ، فمثلا لم يكن فى أثينا « تعليم ثانوى » ، فى الثلاثة أرباع الأولى من القرن الخامس) . أنظر أيضا النصوص الهامة (ليس بينها واحد من القرن الخامس) التى جمعها فريمان ص ٢٢١ — ٢٢٣ ، والجزء الثانى من ديتنبرجر (أرقام ٥١٨ — ٥٢٥) . وفى (رقم ٥٢١ ، سطر ٧ وما بعده) امتدح شخص « لمحافظته على روح الصداقة والوفاق ، بين الأولاد طوال السنة » ، ولسداده الغرامات التى جلبوها على أنفسهم ، وارجاعهم سالمين صحيحين من « رحلات » عديدة ، إلى الحدود . ومن الطريف فقط أن نضيف أن الأولاد قد اعترفوا بالامتنان ، لمآثره العديدة ، بأن توجوه فى حفل عام .

بشكل لم يحدث من قبل . ونورد هنا ما يقوله توكيديدس عن كيفية مواجهة هذا الضغط . «عندما وصلوا أثينا، رغم أن منهم من كان لهم بيوتاً يذهبون إليها ، أو كان يمكنهم أن يجدوا مأوى عند أقاربهم أو أصدقائهم ، إلا أن كثيراً منهم اضطر أن ينام على الأرض الخالية، وفي المعابد وأضرحة الأبطال .... وعسكر كثيرون أيضاً فى أبراج الأسواق ، أو حيثما استطاعوا ، إذ اتضح بعد أن جاء جميعهم ، أن المدينة أصغر من أن تتسع لهم » . وعلى أية حال « فلم يخطر لأولى الأمر ، هذا الإشكال . فبينما كان المهاجرون « يقسمون فيما بينهم المساحة بين الأسوار الطويلة وجزء كبير من پيريه ، أقساما يستقرون فيها » ، كانت الحكومة تفكر فى أمور أعلى . ويسترسل توكيديدس فى كلامه قائلا ، « يجرى كل هذا بينما وجه اهتمام كبير إلى الحرب ، لجمع شمل الحلفاء ، وأعدت مائة سفينة مسلحة للپلوپونيز . وعلى هذا النحو ، كان الاستعداد فى أثينا » . إن المؤرخ لم يطنب فى الوصف ، ولم يسرف فى الألفاظ . إن أولئك الذين قاسوا أخف الضررين ، « بأن استضافهم أصدقاؤهم فى منازلهم » فى مدينة يونانية أثناء الاحتفال ، وناموا أرضا مع عشرين أو ثلاثين صديقا ، فى غرف مقفلة لا هواء فيها ، هم وحدهم الذين يمكنهم أن يقدروا مدى تعاسة الذين حرموا هذه الامتيازات[1] .

لقد صدر الحكم بعد ذلك بثمانية عشر شهراً . إن شيئاً واحداً هو مافات بركليس التنبؤ به ، كما قال للأثينيين فى خطبة الوداع . ولكن هذا الشئ الوحيد كان نقطة الضعف التى أصابت أثينا . فإن الوباء الذى تنكر للأبهة ، موليـاً إلى القذارة رأساً ، كان أول خطوة فى طريق اضمحلال أثينا المحتوم . لقد ذهب الوباء بواحد من كل أربعة من المواطنين، ومعهم ذهب ، لا بمصادرها من الرجال والمال ، التى رعتها بعناية ، وإنما أيضاً بشجاعتها الشامخة المقدامة الفتية . لقد وهت مثالية أثينا لأول مرة مع هذا

(١) توكيديدس، ٢ — ١٧ . وقد اتبعت دورپفيلد (Dörpfeld) فى رسم الإرخثيوم.

الصدع ، ولم ترتأب تماماً خيوطها المنحلة ثانية أبداً . فقد كانت الذكريات أليمة مفجعة . وكما يقول المؤرخ ، وقد رجع بنا إلى الفقرة الأولى ، « إن القادمون الجدد من القرية ، كانوا أكثرهم معاناة . فهم ولا بيوت لهم ، اضطروا أن يسكنوا فى أشد فصول السنة حراً ، غرفاً مكتومة خانقة ، بها كثر الفناء كثرة لاحد لها . فتراكمت جثث الموتى بعضها فوق بعض، وترنح أنصاف الموتى فى الشوارع ، وتجمعوا حول الينابيع متلهفين على الماء . وغصت الأمكنة المقدسة بموتى من عسكروا فيها ، إذ وقد جاوزت الكارثة الحدود ، وأصبح الرجال وهم لايعلمون ما ذا سيحدث لهم ، صاروا لايعبأون بشئ ، مقدساً كان أو غير مقدس . فأوقفت تماما كل مراسم الدفن المعتادة ، ودفنوا الموتى قدر ما استطاعوا » . وكما يتوقع منا المؤرخ أن نتذكر ، فإن طقوس الموتى هى أقدس المقدسات فى حياة اليونان . ولكن شيئا ما لم يعد مقدساً الآن(١) .

وحتى توكيديدس نفسه ، الذى كان أكثر من نعرفهم من كتاب اليونان تفكيراً عميقاً ، حتى هو لم يقو على لوم أثينا على إهمالها عالم الأشياء الصغيرة ، إلا فى تهكمه الرقيق المعتاد ، من تلك الجملة التى تفيض ثقة واعتداداً ، والتى بها شاد بركليس بعظمة الهواة الأثينيين . ولكن المؤرخ امتلأ شعوراً قويا بما رآه قد تم ، فى استرجاعه للماضى بعد سنين ، أعجزه عن توجيه أى لوم أو تقريع ، على ماترك من غير إنجاز . وبعد أن رأينا الأثينى فى بيته وعرفناه على طبيعته مهملا كسلان بدون نظام ، رديئا ، خادماً كان أو سيداً ، يمكننا أن نكون أكثر تقديراً لما قام به فى الخارج ، ومن أجل الأجيال القادمة . كما يمكن أن ندرك مقدار أى مجهود بذلته « فرقة المحبين المختارة » لتلبية نداء أثينا ، لا من « شجاعة المحارب وحسن إدراك الرجل الحازم

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٥٢ ، ٣ — ٨٧ — ٣ (خسائر الطاعون ، تقررت نسبة الوفيات نهائيا بـ ١ الى ٤ فى الفرسان ، حيث يجب أن نتوقع أن تكون نسبتها بينهم أقل منها بين عامة الشعب ، ٢ — ٦٤ — ١ (الحدث الوحيد الغير متوقع) .

لواجبه فحسب ، ولكن من « دقة مسلك المرء فى أدائه » أيضاً ، إذ أنه « إذا كان لابد للعمل العظيم من الحماسة ، فكذلك لابد للعمل الخالد من البذل الشاق. فالآثار التى تركتها لنا أثينا، سواء فى الفن أو فى الأدب ، أو فى دستورها وعاداتها وتاريخها ، كلها سجلات تدل على ما بذل فيها من مشقة متناهية . وإن كانت قد قصرت هذه المجهودات على ماهو أجدر دون سواه فإنها بدلا من أن ترهق نفسها بخدمة أوسع ، وأن تنظم بلدية نموذجية ، فقد اختارت أن تصنع الجمال قبل الأمن والسلامة ، وأن تبنى معابدها على الأكروبول ، بدلا من أن تمد مواسير المياه إلى پيريه . ولكن كل ذلك الذى نعرفه أدركته هى نفسها بعد فوات الأوان، فأخذ مفكروها يخططون تلك البلديات النموذجية التى كانت تشبه كل الشبه أصولها الحية من جهة ، وتختلف عنها كل الاختلاف من جهة أخرى —

لا فى عالم اليونان كلية ، ولا فيما تجاوزها كذلك —

ومع كل ذلك فقد « كان الواجب عليها أن تنجز كل هذه الأشياء ، دون أن تترك غيرها دون إنجاز » .

الفصل العاشر

اقتصاديات المدينة : النقود

Εἰ δὲ τοῦτ' ἀγνοεῖς, ὅτι πίστις ἀφορμὴ τῶν πασῶν ἐστι μεγίστη πρὸς χρηματισμόι πᾶν ἂν ἀγνοησειας.

إذا لم تعرف أن الإيمان هو السبب الأكبر لنجاح الجميع فأنت إذن لا تعرف شيئاً .
ديموستنيز ، ٣٦ — ٤٤ .

كلما أمعنا النظر فى أسس الدين ، كلما ازداد وضوحاً أن الأساس نفسه يقوم إلى حد بعيد على الثقة نفسها .

Hartley Withers فى مؤلفه The Meaning of Money ، ص ٢٦٤ .

لقد بحثنا العلاقة بين الثروات الخاصة والعامة فى المدينة الدولة ، والموقف العام الذى اتخذته الدولة بصدد المشاكل الاقتصادية ، وسندرس الآن مصادر هذه الثروة الفعلية ، كما سندرس بعض المشاكل التى نشأت فيما يتصل باستغلالها .

فى كل جماعة مهما كانت بدائية ، أو ذات كفاية ذاتية ، قليل من الأفراد لهم من الثروة أكثر مما يحتاجونه فعلا لحياة بسيطة ، ويقدرون على إدخاره . وإنه لميل طبيعى فى البشر أن يدخر الإنسان شيئاً ينفقه وقت الحاجة ، أو ينفع الأسرة بعد موته . والذى يفعل ذلك هو الرأسمالى ، لأن رأس المال ليس بمجرد الثروة فى ذاتها ، ولكن الثروة تعتبر من حيث الاستفادة منها فى المستقبل ، لا استعمالها الوقتى ، واتخذت مثل هذه الثروات فى اليونان القديمة صوراً مختلفة . فنسمع بها فى أشكال حية مثل العبيد والماشية ، وهى وسيلة للاستثمار تدر أرباحاً وفيرة ، لأن الأشياء الحية تزداد وتتكاثر وتدفع الفوائد تلقائياً . ونسمع عنها فى شكل كنوز منوعة ، مثل التيل الرفيع والبلط والأسياخ ، أو المراجل النحاسية . ولكن أكثر

أشكالها اعتياداً ، كان بلا شك الذهب والفضة ، وخاصة الذهب . وقد ظل الناس أجيالا عديدة يتحدثون عن مسيناى ، عاصمة قادة الجيش الذين ذهبوا إلى طرواده للسلب والنهب ، بأنها « ذات الذهب الكثير » ، وعثر الأثريون الذين نقبوا عن خباياها ، على كثير مما يؤكد هذه الصفة . وقد أخذ الناس يعرفون فى الذهب والفضة الثروة التى ما بعدها ثروة ، وذلك لندرتهما وبريقهما ولاستغلالها فى أغراض الزينة البدائية . وحتى بعد ما كف سادة مسيناى عن الغزو والنهب ، وغدت مدينتهم مجرد مدينة إقليمية عادية ، ظل الذهب والفضة معتبرين فى دنيا الفلاحين كمقياس مناسب لتقدير القيمة . فلم يكن للثيران والنساء ، ولا حتى المراجل ، نفس القيمة دائما ، بينما يظل قضيب الذهب هو ، كتلة صلبة طيبة براقة تبهر النظر[1].

وعلى الرغم مما لكتل الذهب من إغراء ، فلم يكن لها فائدة خاصة فى شئون التجارة مع الشعوب البعيدة . واعتقاد الناس فى أن الذهب هو العودة الطبيعية لرأس المال ، وأنه دون شك الطريق التى يمكن أن يكنز بها الرجل الحازم ثروته ، لم يجعل من الذهب على أية حال ، سلعة عادية كالنساء.

---

(١) ربما كان أحسن فقرات هومر هى الفقرة المشهورة فى الإلياذة ، ٦ — ٢٣٦ ، χρύσεα χαλκείων, ἑκατόμβοι' ἐννεαβοίων ، وفيها يعطى جلاوكوس ديوميد Diomed القيمة « بالذهب بدلا من البرونز وهو ما يساوى مائة ثور نظير تسعة ثيران » . ويبين هذا أن الرجال يقدرون القيم بالثيران والمعادن ، والأغرب من هذا ، أنهم يقدرون ذلك من حيث كل من النوع والكم سويا . والفرق بين الذهب والبرونز هو فرق النوع (فأنت لا يمكنك أن تقول ، كم كانت النسبة بين الإثنين) وأن ما بين تسعة ثيران ، ومائة ثور هو فرق فى الكمية . إن فضل النظم النقدية العظيم ، هو أن دفع الناس الى أن يفكروا فى الكميات ، أى أن يفكروا فى حرص ودقة فى مجال واحد على الأقل من الحياة . فمثلا إذا فكرنا فى الثمن الصحيح سواء كان ذلك فى سوق شرقية ، أو فى لندن ومنشستر ، كان ذلك عملية تفكير دقيقة تتضمن فى كل حالة ملاءمة دقيقة للظروف الخاصة ، وهذا هو ما جعل الاقتصاد علما دقيقا بالمعنى الصحيح ، ولأنه يبحث بتوسع كبير فى النقود ، أى فى مقادير يمكن أن تقاس أو توزن ، وفى أفراد يفكرون ويعملون ، ويتأثرون من حيث القياس والوزن . فهو أول المعارف الإنسانية تطورا الى علم صحيح دقيق . وهذا بدوره بطبيعة الحال أدى به الى التورط فى شرك كفيل بأن يجعله فرعا من الرياضة ، وبأن يباعد بينه وبين العلوم البشرية الأخرى . [أنظر التذييل] .

والغنم والمراجل . ولا حتى ختم هذه الكتل بما يشير إلى وزنها ، جعلها كذلك . فالناس فى اليونان ، وكذلك الحكومات ، كانوا يجمعون كتل الذهب ويكنزونها فى المعابد ، وفى بيوت المال ، أو فى ركن من حقلهم ، وذلك قبل أن تتوفر الثقة ، لاتخاذها وسيلة للتعامل فيما بينهم بزمن طويل . وفى القرن السابع قبل الميلاد فقط ، حين بدأ الأمن يتوطد والمواصلات تتحسن ، أخذ الناس يشعرون جديا بالحاجة إلى مقياس عام معترف به فى معاملتهم . لقد سأموا العملية المملة ، أى تقدير القيمة الحقيقية لاستبدال الخادمة بثور للحرث أو لامة من السلاح ببغال ، أو سد أى نقص ببعض كتل من الذهب ، التى لابد من وزنها أولا . وهكذا فبدلا من مجرد وزن وختم ذهبهم وفضتهم وحليهم المختلفة الأنواع والأحجام ، أخذت الدول فى جعلها فى شكل بسيط يمكن حمله ، وتصديرها إلى رعاياها بقيمة يعترف بها ، وذلك لاستعمالها فى معاملاتهم اليومية ، أو بمعنى آخر لقد اختاروا المعادن النفيسة قصداً ، وخصوها وحدها بعملية التبادل . وقد أدى ذلك بالطبع فى البداية ، كما رأينا ، إلى انقلاب فى العادات الاقتصادية ، كان من جرائها القضاء على الأضعف والأجهل ، ولكنها كانت أول خطوة ضرورية فى سبيل الانتقال بالمدينة انتقالا مأموناً دائماً من مرحلة الكفاية الذاتية فى الحياة الاقتصادية . وأول من ضرب النقود واستعملها أى أصدرها كوسيلة معترف بها فى المقايضة، ملوك ليديا فى بداية القرن السابع . وبعد ذلك بسنين قليلة كانت أيجينا أول دولة يونانية تستعملها ، بعد أن مهدت جارتها أرجوس الطريق قبل ذلك بجيلين ، بإنشائها مقياسا للأوزان والمكاييل . وأيجينا هذه جزيرة صغيرة ، قليل ما لديها للاتجار فيه ، إلا أن الأيجينيين غدوا الوكلاء الموزعين بالنسبة للعالم الذى يحوطهم . وباشتغالهم كناقلين فى البحر ، وكبائعين متجولين فى البر ، اعتبروا منذ زمن كمستعملين للنقود ، وتجار تجزئة دون منازع ، وقد ظلت وحدة النقود الخاصة التى اتخذوها المعيار السائد ، والسائد دائماً ، فى العالم اليونانى أجيالا طويلة ، وما زال يعثر على

النقود المنقوش عليها السلحفاء فى كل أنحاء البلوبونيز(١) .

ولكن استعمال النقد المنظم سرعان ماخلف مشا كل جديدة خاصة به ، إذ دفع بالدول وحكامها إلى إغراءات معينة . وقد استعمل هيرودوت فى ذكره أول ظهور للنقد الحكومى جملة كانت موضع نقاش طويل . فيقول «كان الليديون أول من عرفنا عنهم أنهم سكوا واستعملوا عملة من الذهب والفضة » . فإذا كان معنى هذا أنهم أنشأوا أول نظام نقدى حكومى يضربهم نقوداً من الذهب والفضة فهذا ليس حقاً ، لأن أول نقود ضربوها كانت من الذهب والفضة معا ، أى من خليط منهما يعرف باسم الذهب الأبيض أو الإلكتروم ومازالت هذه النقود فى متحافنا حتى الآن ، وإن بريقها الباهت الذى يقع من الجنيه الإنجليزى بلونه الزاهى ، موقع القمر من الشمس ، ليعبر بفصاحة ناطقة عن سياسة الذين اخترعوها(٢) .

---

(١) أنظر ما سبق ص ١٢٦ — ١٢٨ ، وفيما يتعلق بالعملة البدائية فى اليونان وغيرها ، أنظر ردجواى ، Ridgeway فى Origin of Currency and Weight Standards ، كمبردج ١٨٩٢ . أما فيما يخص أوزان فيدون ومقاييسه الأرجويه فانظر بوازانيا س ، ٦ — ٢٢ — ٢ . وأنا متمسك بالتاريخ المبين به ، أى عام ٧٥٠ ق م . وفيما يتصل بهذا الموضوع المختلف فيه انظر موسوعة باولى مقال Geld ، وقارنه بلهمان — هاوپت (Lehmann—Haupt) فى هيرميس Hermes ، الجزء ٢٧ ، ص ٥٥٧ ، والجزء ٣٥ ص ٦٤٨ . مرت فترة ستة قرون (ابتداء من الملك أوفا إلى إدوارد الثالث) بين أول معرفة استعمال المعادن المختومة كمقياس عادى للقيمة فى انجلترا ، وبين أول استعمالها كوسيلة للتبادل ، موثوق بها فى التجارة الخارجية . وهناك فترة مشابهة لتلك ، دامت عدة قرون فى دول الشرق الأدنى . وقد عثر على « سبائك من المعادن الثمينة » ، فى كنوسوس وفى خرائب مايسينى . فى قبرص ، تدل « أنه على الأقل ، فيما لا يزيد على القرن ١٢ ق . م . قامت فى العالم المينوى وسيلة نقدية ، هى المرحلة الحقيقية السابقة على سك النقود فى أيونيا وليديا» . أنظر إيفانز Evans فى J. H. S. ، ١٩١١ ، ص ١٣٢ ، الذى يشير إلى قطعة قديمة من الإلكتروم الأيونى اكتشفت حديثاً ، عليها «أسدان متقابلان كل منهما قدمه على رأس عامود ، كما هو على بوابة الأسد فى مايسيناى » . فيما يخص أيجينا ، أنظر توكيديدس ، ٥ — ٤٧ — ٦ ، ثم اجزينوفون ، Hell. ، ٥ — ٢ — ٢١ ثم انظر Head فى Historia Numorum ، الطبعة الثانية ، عام ١٩١١ ، ص ٣٩٥ . [أنظر التذييل] .

(٢) هيرودوت ، ١ — ٩٤ ، ١ — ٥٠ ، سوفوكليس ، Ant. ، ١٠٣٨ . [أنظر التذييل] .

فأنت إذا أمعنت النظر فسترى أن رغم أن كل القطع باهتة ، إلا أنها تختلف في لونها ، فهي في أماكنها على الرفوف تزداد أو تقل اصفراراً . والحق أن الذهب في العملة الإلكترونية لم يكن بنسبة ثابتة ، فقد كان يختلف بنسبة ٨٠ إلى ٥٢ في المائة من الخليط . وهذا ما جعلها مناسبة لحكومات المدن الدول ، إذ يمكنها أن تقتصد في الذهب وهكذا ، إذا راعت الدقة في العمل فستكسب قدرا من مواطنيها في كل عملة تخرجها . وهذه في الواقع هي سياسة النقد في المدن ذات الكفاية الذاتية . فسك النقود احتكار حكومي ، وهو ككل مثل هذه الاحتكارات تقريباً ، أشبه ما يكون بضريبة غير مباشرة[١] .

وفي الحقيقة لم تكن القطع الإلكترونية منتشرة انتشاراً كبيراً ، إذ أن الدول اليونانية فضلت النقد الفضي . وكانت الفضة تخلط بالرصاص والنحاس ، كما خلط الذهب بالفضة ، ومثل ليديا كان درسا من الدروس ، ما كانوا لينسوه . وهكذا اعتادوا تخفيض نقدهم دون ماخجل ، وحتى عندما بلغت التجارة حداً كبيراً في القرن الرابع ، بين الدول بعضها البعض كان ما زال في مقدور ديموستنيز أن يصرح بأن « معظم الدويلات تضرب النقود الفضية مخلوطة صراحة بالنحاس والرصاص » ، وحتى إذا لم تكن نقودنا الموجودة مخلوطة فهي ناقصة الوزن غالباً . والواقع أن الشاذ هو العملة الخالصة الكاملة ، وهو ما يمكن أن نراه ، لا في كثرة استعمال أنواع المجاز المختلفة للتعبير عن العملة المخلوطة فقط ، وإنما أيضاً في التغييرات المستعملة للدلالة على النقود الجيدة . وكما قيل كانت نقود داريوس « أنقى » نقود » وهذا ليس دلالة على نقائها المطلق بل أنها أنقى من غيرها[٢] .

---

(١) موسوعة باولي مقال Elektron .

(٢) هيرودوت ، ٣ — ٥٦ و ٤ — ١٦٦ ، .Dem ، ٢٤ — ٢١٤ . قارن استعمال الكلمتين βασανίζω و κίβδηλος . وانى مدين بهذا القسم الى ريتزلر Riezler في كتابه Finanzen und Monopole ، ص ٦٢ — ٦٣ . فيما يخص بعض المشابهات الحديثة وآثرها ، أنظر ردجواى صفحات ٢٢٣ — ٢٢٦ . كانت الممالك الأسيوية تستعمل نظام المعدنين ، بنسبة ثابتة تقدر بـ ٣ و ١٣ : ١ بين الفضة والذهب . (أنظر هيرودوت ٣ — ٩٥ =

إن الحكومات المتمدينة الحديثة لاتغش عملتها ، نعم قد تفقد نقودها أو أوراقها النقدية قيمتها ، ولكن ذلك رغما عنها ، إذ هدفها أن تجعلها موزاية دائما لقيمتها الاسمية ، وأن تحافظ أن تكون دائما مساوية للقيمة المكتوبة عليها ، أى مساوية تماماً لمثيلاتها فى سائر العالم . والدافع إلى هذه السياسة ظاهر جلى ، فالدول الحديثة لن يضرها تخفيض قيمة عملتها ، إذ ليس نقدها مركز حياتها الاقتصادية . وأكبر اهتمامها هو الثروة نفسها لا وسيلة التبادل ، وهى تراعى فى سياستها المالية الثقة أولا ، لاالسبائك الذهبية . فأى كسب صغير تناله من جراء الاقتصاد الشحيح فى السبائك الذهبية ، ليضيع أمثاله ألف مرة فى ميدان الثقة . إنها لتفقد مركزها بين الدول ، وتنخفض قيمة نقدها فى الدوائر المالية الدولية ، ويتحتم عليها وعلى كل من يملك ثروة فى بلادها أن يدفعوا غالياً فى المعاملات الأجنبية نظير ضعف الثقة بهم . وفى الأحياء المعرضة للتأثيرات الأجنبية ، ترفع الأسعار كلما انخفضت قيمة النقد ويصبح فى الأوساط التجارية نوعان من الأسعار — كما حدث فى اليونان فى الأزمة الحديثة بالنسبة للورق والفضة — سعر للمعاملة اليومية ، وآخر للمعاملة الدولية[1] .

كيف كانت الدويلات اليونانية إذن قادرة على إتباع هذه السياسة ؟

= رغم أنه لم يذكر السكر المشرى) . وكانت المقاييس اليونانية الرئيسية ، أى مقاييس أيجينا وأيونيا وأثينا وكورنث تقوم كلها على اختلافها على المدن الواحد ، المعيار الفضى . ومن هنا يكون مؤلف Ways and Means على حق تماماً ، مادامت الأمور كانت على هذا النحو ، حين يقول ، إن وفرة الذهب تسبب انخفاضاً فى قيمته ، على حين لا يمكن أن تتوفر الفضة ، (٤ — ٧ إلى ١٠) . وقد انقطع التعامل بالفضة تدرجيا فى القرن الرابع ، قبل استعمال مقياس الذهب المقدونى . أنظر .Keil فى Anonymous Argentinensis ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(١) أنظر ، Laws ص ٧٤٢ ، حيث يقترح أفلاطون ، الذى ربما صادف هذه الطريقة مستعملة ، فى أثناء رحلاته ، ولكن لا يمكن أن يكون قد عاش أثناء استعمالها ، يقترحها لمدينته النموذجية . وأكبر مزاياها ، أن تمنع الناس من الترحال إلى الخارج دون تصريح من السلطات المختصة . إنه يأمل أن يجعل الرجال الناضجين أفاضل وذلك عن طريق حيل صغيرة ، نلجأ إليها نحن ، لنمنع التلاميذ من شراء الدخان ، أو المتشردين من دخول المحال العامة . ولا بد أن أفلاطون لم يذهب إلى اسبرطة مطلقا .

ومرة أخرى نجد السبب ، يرجع إلى عزلتها وكفايتها الذاتية ، فإذا كنت تضرب وسيلة للمعاملة لمنطقة محددة تماماً ، والذين يتداولونها يكونون تحت إشرافك ، فيمكنك أن تخرجها بأى شكل يروقك ، وترغم الناس على استعمالها ، سواء أكان ذلك فى شكل تذاكر مقهى ، أو على هيئة الأقراص النحاسية المستعملة فى غرف الملابس أو فى صورة القضبان الحديدية التى اتخذها الاسبرطيون البؤساء ، إذ لا بد أن كان لهم وسيلة للمعاملة . وإذا كانت القضبان الحديدية هى كل ما يستطيعون الحصول عليه ، وكانت تصدر بإشراف السلطات العامة ، فستتداول بينهم مهما كانت غير عملية وغير مريحة فى الاستعمال اليومى . واسبرطة مثل متطرف ، وقد استمسكت قصداً بنقدها هذا ، الذى لا يقبله العقل ، لكى تعوق الأعمال . فساستها عملوا كالمعتاد ، ونصب أعينهم أغراض نظامية لا اقتصادية . ولكن التدهور العادى الذى ظل مستمراً ، إنما يكمل مرحلة الحياة الاقتصادية عينها . فالحكومات اليونانية تستطيع أن تخفض قيمة نقدها ، لأنها كانت تعرف كل الأشخاص الذين كانوا ليستعملوه ، وتستطيع مراقبتهم ، ولذا يمكنها اتخاذ خطوات تحول بين نفسها وبين أن تخسر « على مر السنين » ، ما كانت تكسبه فى بدء إصدارها للنقود . فهى تعطى مواطنيها خمسة مليمات وتسميها ستة ، ولكنها تستطيع أن تمنع مواطنيها وسائر العالم من اتخاذ نفس الحيلة ضدها .[1]

---

(١) إن أسياخ الحديد التى ظلت تستعمل نقودا ، فترة طويلة فى اسبرطة ، بقيت إلى جانب ذلك اسما فى أثينا أيضا . فقديما كان ستة من هذه الأسياخ أو الأوبول (ὀβελοί) تكون حفنة أو درخمة (δραχμή) . وقد عثر على حزمة من تلك الأسياخ ، طولها حوالى أربعة أقدام ، ومربوطة بحزامين من الحديد فى هيرايوم (Heraeum) فى أرجوس ، وهو ما يؤيد الاشتقاق القديم للكلمة « حفنة » من ستة أسياخ . ويؤيد أيضا خرافة النقود الحديدية المستعملة فى اسبرطة . وقد عثر المكتشفون الانجليز هناك على عدد من « قطعهم » وقضبانهم الحديد (B. S. A. ، ١٣ ـ ١٧٣) . وربما طال استعمالها ، لأنه عندما مات ابيامينونداس كان فقيرا للغاية ، ويقول بلوتارخس (Fap. Max. ، ٢٧) « أنه لم يعثر على شىء عنده ، سوى سيخ واحد من الحديد » .

كيف يمكنها منع ذلك ؟ ذلك بكل أنواع الحيل البارعة . والبعض منها حفظ لنا ، وهو يضع أمامنا بوضوح مقدار مايحمله المواطن اليونانى من مدينته ، كما يبين لنا — الأمر الذى سبق أن أبرزناه — أى المكانة العليا التى شغلتها الدولة فى اليونان إذا ما قورنت بالأعمال الخاصة . فالدولة تستطيع مثلا أن تلزم الناس بوجوب الدفع لها بالوزن الكامل الصحيح ، متبعة السابقة البابلية التى تقول بوجوب وجود «مكيال للدولة وآخر للشعب». أو يمكن أن تسترجع فجأة كل نقودها ، وتدفع لمن يحضرها حسب وزنها الحقيق . أى أنهم يضيفون بذلك إهانة إلى الضرر الذى لحق بهم ، كما فعل الطاغية هيبياس فى أثينا ، بأن سارع وأعاد إصدار النقود القديمة بقصد تكرار العملية . أو أن يحاكوا ما فعله خازن حكومى أقسى من هيبياس ، وهو ديونيسيوس السراقوزى ، مفترضين أنهم وجدوا أنفسهم مدينين لمواطنيهم البارزين . فقد أمر دائنيه ، مهدداً إياهم بالإعدام ، أن يحضروا كل مايملكون من فضة . فلما أحضروها ختم كل قطعة من ذات الدراخم بزيادة قيمتها درخمين ، وبهذا دفعوا الدين من نقودهم . ولقد طرب لهذه الروايات مؤلف « الاقتصاديات » . فمغزاها دائماً واحد : فحيث تكون دولة مسيطرة كل السيطرة على كل من يستعملون نقدها ، يمكنها بسهولة أن تستعمل نفوذها لكى تستفيد من معاملتها معهم . أو بعبارة أخرى ليس هناك ما يمنع الدولة من سرقة نقود مواطنيها ، كما أن شيئاً لا يمنعها من ساب حياتهم فى حرب غير عادلة . والفارق الوحيد هو أن النقد المغشوش يفعل فعله بطريق غير مباشر ، حتى أن الديموقراطيات لم تدرك ، إلا بعد انقضاء وقت طويل ، كيف أنهم كانوا يسرقون أنفسهم بحيلهم ، فعندما تسرق اليد اليمنى اليد اليسرى يحتـــاج الأمر إلى اقتصادى بارع ليلحظ الفرق . إن الهواة الأذكياء هم الذين يستهويهم الغش فى العمل . وإن الأمر

ايتطلب إخصائياً ليظهر للناس أن الأمانة هى « أحسن سياسة »[1] .

ومع ذلك فقد كان لا بد لهم أن يكتشفوا ذلك بمرور الزمن لأنهم كان ولا بد أن يدركوه ، وإن لم يخل ذلك من كلام عنيف لاذع ، من التجار الذين أتوا إليهم من أقطار أكثر حضارة . إن أكبر مميزات أثينا كسوق ، كما يقول مؤلف « الطرق والوسائل » ، هى أنك يمكنك أن تحصل على فضة نقية هناك . ففى أغلب المدن يكون التجار مرغمين أن يشحنوا السفن بالبضائع عند عودتهم إلى بلادهم ، وذلك لأنهم لا يمكنهم أن يحصلوا على أية نقود صالحة لهم فى الخارج . وبمعنى آخر ، أن النظام السيء للنقد يكاد يجعل التجارة الخارجية مستحيلة . فالتاجر لا يمكن أن يأتى إلا عندما يستطيع أن يبادل ببضاعته بعض الصادرات الثابتة ، لأن صرافى النقود الذين على رصيف مينائه الوطنى ، لا قيمة عندهم لنقود مضروبة فى الخارج . وبذلك نستطيع أن نرى لماذا أن دولا مثل أثينا وأيجينا وكورنث وكيزيكوس ، التى افتخرت بنقاء نقدها استطاعت أن تنشره تدريجياً فى كثير من أجزاء العالم اليونانى المنزوية . حتى إذا لم يكن نقدها مستعملا فى الجهات الداخلية بين الرعاة والفلاحين الذين يترددون فى قبول شكلها الغريب ، فإن ميزات هذا النقد الظاهرة ، جعلته الوحيد المستعمل فى الميناء . وبالتدريج تخلت الحكومات عن ذلك الواجب الثقيل ، أى محاولتها جعل نقودها غير المقبولة متداولة بين

---

(١) [أرسطو] ، .Oec ، ١٣٤٧أ ٤ — ١١ (هيپياس) ، وهيد (Head) فى Historia Numorum ، ص ٣٦٩ إلى ٣٧٠ يفسر هذه القصة بأنها « إحلال المعيار الأيوبى الخفيف محل المعيار الثقيل » ، ولكنه يوضح أن هيپياس « نجح بهذا ، فى أن يضاعف موارده اسمياً ، إن لم يكن فعلياً » . ويمثل ذلك الروح صادر « الأدوار العليا من المنازل والسلالم والسياج والأبواب التى تبرز أو تفتح على الشوارع العامة » ، وذلك بحجة أنها من ممتلكات الدولة ، ثم باعها لملاكها الأصليين النكودى الحظ ، ١٣٤٩ ب ٢٧ (ديونيسياس Dionysius) . وقد تلجأ بعض الدويلات الحديثة إلى مثل هذه الحيل أحياناً ، بالنسبة لطوابع بريدها ، ولكن ذلك لأن جامعى الطوابع يشجعونهم على ذلك . ولم يكن عند اليونان هوايات مثل هذه — ١٩٢٤ . لقد تركت هذه الفقرة بدون تغيير ، لتفكير القراء العارفين بمالية الحكومات بعد الحرب .

سكان غير راغبين فيها . وأحد الأسباب الذى من أجله قبلت الحكومة أول الأمر اتخاذ تلك النقود ، هو صعوبة الحصول على سبائك جيدة ، وما تتطلبه ذلك من نفقات . فلما أدركت خطأها كان الوقت قد فات على إصلاحه ، بإصدار نقود صحيحة خاصة بها ، وكان الموقف فى أيدى أثينا وأيجينا لما لها من نفوذ . وهكذا تتوقف عن العمل الدار المحلية لسك النقود ، كما تنقص عملة رديئة مما على منضدة الصراف من نقود ، وكذلك سهم من سهام الشر التى فى جعبته المليئة بالخدع ، ويقترب العالم اليونانى خطوة نحو الطريقة الاقتصادية القومية ، ويبتعد عن الطريقة الاقتصادية المحلية البحتة[1].

ولكن إذا قارنا ذلك بتقدم اليونان الباهر فى النواحى الأخرى ، لتبين لنا أنها كانت بطيئة فى تقدمها نحو تحطيم تلك الحواجز ، وهو ما يسهل التعامل . فالدول اليونانية لم تكن فى يوم ما جماعات تجارية كبرى ، بالمعنى الذى نقصده نحن . حتى أثينا فى القرن الخامس ، فى عهد بركليس المالى العظيم ، الذى كان له إدراك لروح الأعمال أكثر من أى يونانى قديم عرفناه ، لم تنجح فى تذليل العقبات التى اعترضت طريقها .

وطبعاً كان أهم هذه العقبات تلك الحقيقة البديهية ، وهى فقر العالم اليونانى . فقد كان لهذا تأثيره على كل نواحى الحياة العملية . ولاسيما أنه جعل مستحيلا توفر شرط أساسى هام فى الاقتصاد الحديث ، وهو تداول النقد تداولا حراً سليما . فالدولة المدينه لم تتعلم أبداً ، ولم تنجح فى تعليم مواطنيها الكف عن اكتناز السبائك ، وهو ما كان يفعله بخلاء القرون الخالية ، و « وضعها فى البنك » ، وكما يقول المثل اليهودى « فربما احتجت إلى مالى ، وأيضاً فوائده » . وبعبارة أخرى بعد أن يستغل لأغراض التجارة وتمويل

---

(١) Ways and Means ، الجزء الثالث ، ٢ . فيما يخص وقف الضرب المحلى اختياريا فى عهد الامبراطورية الأثينية ، أنظر الجدول الهام فى كتاب كافينياك : Études Sur l'histoire financière d'Athènes ، ص ١٧٩ وما بعدها . ويرجع اشتهار « الفلورين » الفلورنسى ، إلى نفس السبب الذى من أجله اشتهرت البومة الأثينية .

المشروعات . لقد فضل الناس لف ما لديهم من تلاتنات فى فوط ، يخبئونها فى الحقول ، حيث كما قيل لنا « يسرون بها » ، كما لو كانوا يستغلونها ، وغالباً ما بقيت حيث كانت ، إلى أن عثر عليها كلقية للمتاحف الحديثة . حتى أرسطو ظل يذكر دائماً ، ويشيع الهرطقة القديمة بالنسبة للربا . وعلى ذلك فإلى أن تطلق حرية النقد ، كان لابد للتجارة والصناعة من أن تضعفا ، وتبقى موارد الدولة المادية مضمحلة مزعزعة[1] .

لننعم النظر فى أسباب هذا التعصب العنيف ضد السبائك الذهبية ، لأننا سنكشف فيما يلى عن أنه يتصل اتصالا حيوياً بالغرض الخاص من بحثنا .

فقد قيل أن الجماعة المتمدينة تقوم « أساساً على القوة » ، ومن الصواب أيضاً القول بأنها تعتمد على السبيكة . والمقصود فى كلتا الحالتين ، هو أنه إذا آلت الأحوال إلى أسوأ ما يكون ، فإنا نصطدم لا شك بهذه الحقيقة العارية . فإذا تهدم صرح حياتنا الدينية والاجتماعية ، الذى استغرق بناؤه أجيالا طويلة ، بذل فيها ما بذل ، من المجهود الخلقى والأدبى ، فإنا سنحارب من أجله بأيدينا ، أو بأحدث المدافع حسب الظروف . وهكذا إذا قدر لصرح حياتنا التجارية أن ينهار ويتحطم ، وإذا رغب كل فرد فى وقت واحد أن يصفى شئونه ، فليس أمامنا إلا أن نرجع إلى الذهب الخام الذى هو الأساس الوطيد لماليتنا ومشاريعنا . إلا إننا نعلم جيداً ، ولا حاجة إلى أن يقول لنا ذلك أصحاب المصارف ، أنه إذا وقع هذا فلن يكون هناك ما يكفى من الذهب للتداول ، فالذى نعيش عليه ليس الذهب على الإطلاق ، بل الثقة

---

(١) أرسطو ، السياسة ، ١٢٥٨ ب ، ثم Ways and Means ، الجزء الرابع ، ص ٧ و Matt. ، ١٣ـ٤٤ ، ٢٥ـ٢٥ ، ثم Luke ، ١٩ـ ١٢ وما بعدها ، ومتخذا كالعادة من صميم الحياة فى ذلك الوقت . حتى ليبدو أن رجلا مثل تيمستوكليس المعروف عنه ، أنه كان يماشى عصره ، ليبدو أنه كان يكنز أمواله : توكيديدس ١ ـ ١٣٧ ـ ٣ . فيما يختص بخزائن ثروات الدول فى الزمن القديم ، أنظر توكيديدس ، ٢ — ١٣ — ٤ ، وقائمة خزينة البارثنون (هيكس وهيل رقم ٧١) ، ثم أنظر أيضا الملوك ، ٢ — ١٨ — ١٦ ، الذى يبين أن المعبد فى بيت المقدس ، كان بيت مال مثل البارثنون تماما . إن اليونان لم يعرفوا أبداً ، الفرق بين المصرف والمتحف .

والطمأنينة . إننا نعيش على صور من ثروات يمكن أن تتحول إلى سبيكة تحت ضغط الحاجة الفردية ، ولكنها لا يمكن أن تصير كذلك إذا كانت الحاجة عالمية . فاحتياطى الذهب فى بنك باركليز ، ماثل دائماً مثل المسدسات وسياط الخيل التى يعتبرها جيراننا البارزون أمراً لا غنى عنه للحضارة . ولكن كما قال ديموستنيز منذ زمن بعيد ، « إذا كان ثمة رجل يجهل حقيقة وأكيداً ، أن الثقة هى أحسن رأس مال فى التجارة ، فلابد أنه يجهل كل شىء » . وذلك مثل لو جهل الرجل حقيقة وفعلا ، أن التأدب وضبط النفس اللذين اعتادهما الرجل المتمدين الحديث ، أحسن ضمان للحضارة ، وليس الغضب العنيف العارض . فرجل كهذا لابد وأن يكون قضى أيامه كلها فى سبات عميق . وإذا أردنا أن نفهم مهام الحياة فى اليونان ، بل وفى العالم القديم كله ، يجب أن نبعد تفكيرنا كل البعد عن هيكل الثقة ، يجب أن نبعد عنه ما لدينا من فرص للحصول على معلومات سريعة وثيقة عن الأسواق والبيوتات التجارية فى الخارج . فاليونانيون لم يتمكنوا إطلاقا من أن يحيوا حياة مريحة فى ظل الثقة ، دولا كانوا أو أفراداً . إن مهام الحياة تجرى الآن ، كما كانت ، على عجلات مليئة بالهواء ، فهى منتفخة بالثقة . ولم يمس اليونانيون فى تقدمهم طوال التاريخ إلا أطارها الخارجى . وقلما جرأت الجماعة أن تتعدى حدود موارد سبائكها . ولو فعلت لعرضت نفسها لكارثة . وقد حدثت مثل هذه الكوارث ، مرة أو مرتين فى التاريخ القديم ، بعد فترات من التضخم ، عندما بدت الثروة لحين وكأنها لا تفنى ، وجرت معها خسائر بعيدة المدى أكثر مما ينجم الآن عن إفلاس بنك ما[1] .

---

(١) Dem. ، ٣٦ — ٤٤ (فيما يخص اليونان أنظر شعار الفصل فيما سبق) . وربما كان مرجع الكارثة التى صحبت مؤامرة كاتلينا ، وعمت روما وكل إيطاليا — هو تدهور الثقة المفاجىء بعد عصر طويل من الإسراف فى المضاربة . أنظر فيريرو (Ferrero) ، الجزء الأول ص ٢٣٤ ، ٣١٩ ، ثم الجزء الثانى ص ٢٣١ (الترجمة الانجليزية) . وأيضا ديفز (Davis) فى The Influence of Wealth in Imperial Rome ، (نيويورك ، ١٩١٠) الفصل الأول ، بشأن بيان حى — وإن كان خياليا إلى حد ما — عن الفزع الذى انتشر فى دوائر الأعمال عام ٣٣ .

وعلى ذلك وعلى أية حال ، لقد كان محالا دائماً لأى جماعة فى اليونان ، وعلى الأفراد بالأكثر ، أن يعيشوا على القروض ، وذلك طيلة بقاء نظام الدولة المدينة ، وعدم قيام مراكز عالية مثل الأسكندرية وأنطيوخ وبرجاموس . فقد عاشت المدن مقتصرة على ما عندها ، وهو ما شمل بطبيعة الحال الملكيات الفردية لسكانها . فالمواطن كما رأينا لم يكن له أية حقوق قبل مدينته . لقد كانت المدينة كل شىء له ، أو ذلك هو ما ادعته ، فإذا ما طلبت منه ممتلكاته عند الحاجة ، فسواء كانت منحة اختيارية أو قرضا إجباريا ، فلم يكن الاختلاف إلا مجرد اختلاف مشاعر . وما من يونانى صادق يتطلع إلى استثمار ماله فى دين مدينته ، وبذلك يستفيد من محنتها . فإذا لم يمكنها الاقتراض داخليا ، لأنه لم يكن فى وسعها إلا أن تأخذ قهرا ، فلن يمكنها الحصول على مال من الخارج ، لا من أجل حرب تغنم من ورائها ، ولا للأعمال العامة « المنتجة » . والواقع أنه لم يكن ثم إنسان يقترض منه . فالرأسماليون الكبار فى ذلك الوقت ، كانوا هيئات عامة مثل المعابد البانهيلينية فى دلفى وأوليمبيا والمدن الكبرى . ولكن الذهب المقدس كان محرما ، وما كان لدولة أن تقرضه أخرى ولو بفائدة كبيرة . كذلك لم يكن ممكنا أن تأتى مساعدة من مصادر خاصة . فلم يكن فى اليونان بيوت مالية دولية (انترهيلينية) وليس هناك فجرز (Fuggers) ، أو أكسياچولى (Acciajuoli) ، مثل التى كانت فى عصورنا الوسطى ، والرجال القلائل الذين كان عندهم فائض من المال ، أغلبهم من السكان الأجانب المقيمين فى مدنهم ، والذين لم يكن لهم حق شراء الأرض ، فضلوا أن يودعوا نقودهم فى مراكب القمح ، ويضاربوا فى أوقات المجاعات المحلية ، على أن يكونوا دائنين لدولة قد لا يستطيعون استرداد نقودهم منها أبدا . لأن الدولة إذا رفضت أن تدفع ما عليها فمن يحاكمها ؟ فالدائن لا يمكن أن ينتظر من مدينته المؤقتة أن تحارب دولة أخرى لتسترجع له دينه منها . إنه لا ينتظر ذلك أكثر مما انتظره اليهود فى العصور الوسطى . وزيادة على ذلك فتوظيف

المال كان على أحسن تقدير مخاطرة أكثر من التعامل مع جماعات أمريكا الوسطى المتنقلة. وفى عالم يعيش على هذا النحو، قريباً من الفقر والعوز، لا يدرى المرء إن كانت المدينة فى أى وقت، «ستصاب بأزمة» كما يقول التعبير، أى بمحصول ردىء، أو بحرب، فتحتاج إلى كل مليم فى حوزتها من ربح ورأسمال، لشراء الطعام حسب سعر أوقات المجاعة. فلا عجب إذن أن نرى قروض الدول التى تذكرها النصوص التى لدينا، وهى ترجع إلى عصر متأخر عن هذا العصر الذى نحن بصدده، كانت قاسية فى شروطها قسوة لا رحمة فيها. وإذا ما سمعنا من المؤرخين أن دولة دفعت ما عليها من الالتزامات، فمن الواضح أن ذلك لا يعد إكمالا لعمليه مالية، إنما يعتبر فضيلة[١].

---

(١) Ways and Means، الجزء الرابع، ٩ (عرض)، إجزينوفون، Oec.، ٢٠ — ٢٨، Athenische Mitteilungen، ٣٦، ص ٨١ (المضاربات فى المجاعات). أخطار البنوك الخاصة. هيرودوت، ٦—٨٦. وقرض حرب داف — أوليمبيا المقترح فى توكيديدس، ١ — ١٢١ — ٣، لم يحدث مطلقا. إن هذه الأضرحة لم تخرج نقودا إلا مضطرة، كما اضطر الفوكيون داف فى القرن الرابع. وتقاليدهم جعلت من العسير على اليونان إدراك ما هو «القرض». و «السعى وراء دين» فى أيام هومر كان أمرا غير قانونى، وربما كان يعنى مجرد «مقابلة المثل بالمثل». أنظر الإلياذة، ١١ — ٦٨٧، ثم الأوديسة، ٢١ — ١٧، حيث يذهب أوديسيوس «يجمع الدين»، أى يذهب باحثا عن تعويضات عن الاعتداء على المواشى. وهكذا فكلمة χρέος المستعملة هنا، تعنى أن «لابد أن يدفع المرء عن ما يريده (Liddell and Scott) وهو تعبير طريف غامض. وأمثلة حالات القروض بين الدول لا تخرج عن كونها حالات مساعدة صديق لآخر وقت الشدة. وهكذا نجد الكورنثيين فى إحدى المناسبات يقرضون الأثينيين «الذين كانوا وقتئذ أصدقائهم الحميمين»، ٢٠ سفينة بفائدة جنيه واحد أو ثلاثين شلنا للقطعة، «لأن قوانينهم كانت تحرم إعطاء السفن دون مقابل». (هيرودوت، ٦ — ٨٩). كذلك أقرض الاسبرطيون الثلاثين طاغية فى أثينا، الذين وصلوا إلى السلطان بمساعدة اسبرطة مئة تلنتا. وقد دفع هذا الدين إلى اسبرطة بعد أن عادت الديموقراطية فيما بعد — وهذه حقيقة تستلفت النظر بشكل ملحوظ، حتى أنها ظلت ماثلة فى الأذهان لأجيال عدة (أيزوكراتيس، ٧—٦٨، ثم أرسطو، السياسة ١٢٧٦ أ ١٠). ومثل آخر لقرض حكومى رواه Aeschines (٣ — ١٠٣). فقد أعطت مدينة أوريوس (Oreus) ديموستينيز تلنتا نظير «خدمة أداها». «ولما أن أنفقوا كل نقودهم فى الحرب، وغدوا معدمين»، سألوه أن يرد لهم ما أعطوه، واعدين إياه بإقامة تمثال له من البرونز فى مكان السوق عندهم عوضا عن ذلك. فرد عليهم ديموستينيز «بألا حاجة له لتمثالهم البرونز» ولكنه يرد إليهم المبلغ إذا دفعوا له واحدا فى المائة كل شهر، كفائدة بضمان دخلهم العام، إلى أن يردوا له دينه. وعلى ذلك فقد كان عليهم =

وتنطبق معظم هذه الصعوبات على التعامل بين الأفراد داخل المدينة . لقد كان صعباً دائماً الحصول على المال، ومن وجهة النظر الحديثة تبدو الترتيبات التي كانت تتخذ، صبيانية وغير مرضية .وقد رأينا أى صفقة صوبها سولون إلى جماعة العمل الناهضة فى أثينا فى القرن السادس، عندما حرم عليهم الاقتراض بضمان أشخاصهم . وقد كان ذلك قانوناً ضرورياً ، ولذلك أخذ به فى جهات أخرى، ولكنه كان مع ذلك تدخلا فى حرية التعاقد . فالرجال لم يلجأوا إلى الاقتراض بضمان أشخاصهم ، إلا حين لم يكن لديهم ما يقدمونه غيرها . وإذا لم تخاطر بالعبودية لتبدأ عملا من الأعمال التجارية ، فمن المحتمل أن تضطر إلى عدم البدء فى هذا العمل أبداً . وفى ظل هذه الظروف لم يكن الاقتراض إلا أمراً

= أن يدفعوا فائدة قدرها ١٢ فى المائة سنويا . فيما يختص بالشروط العادية للقروض فيما بعد ، عندما غدت مثل هذه القروض أعمالا عادية فى المعاملات ، انظر دينتبرجر ، رقم ٥١٧ ، وهو يعالج مسألة الدين العام فى أمورجوس ، ويصحب ذلك ملاحظات ، وذكر المراجع . وقد اقترضت أمورجوس من رجل من ناكسوس مبلغا من المال ورهنت له « كل أملاكها الخاصة والعامة ، سواء فى داخل الجزيرة أو خارجها » ، أى أن الدائن له الحق فى أن يلقى القبض على أى مركب تابع لأمورجوس فيما وراء البحار . وفيما يختص بالثروة العظيمة الهائلة ، فى العهد الاسكندرى والبرجامى ، عندما غدا النظام الاقتصادى قوميا بعد أن كان محليا ، « أنظر ملاحظة ڤيلاموڤيتز الهامة ، وهى لسوء الحظ، مختفية فى كتيب عن نص واحد (Ein Gesetz von Samos برلين ، ١٩٠٤ ، ص ١٢) . إن الصعوبة فى ذلك الزمان لم تكن الافتقار إلى رأس المال ، بل إلى ندوة مالية (بورصة) لاستخدامه . فقد ظل كما هو قابعا فى خزانات عامة وخاصة ، ولم يكن هناك وسائل صالحة لاستثماره . وأخيراً ، كما يقول ، أتى الرومان وسلبوه ، إما فى الغنائم أو فى النقابات . ولم تحم الإدارة الحسنة فى عهد الأباطرة الأراضى اليونانية من الوقوع فى النهاية فى الفقر والبربرية . « ذلك لأنه فى عهد أباطرة الرومان ، لم يكن هناك بورصة فحسب ، بل إن مصارف العصر الهيلينى قد تركت حتى أفلست » وفى Greatness and Decline of Rome ، Ferrero ، الجزء الأول، الفصل ١٨ (الترجمة الانجليزية ص ٣٠٣ وما بعدها) ، وصف دقيق لأعمال هؤلاء الرومان بناة الامبراطورية (الذين فاقوا أسلافهم من اليونان فى طمعهم وقسوتهم ، بقدر ما كانوا دونهم فى جهلهم بطرق استغلال ثروتهم). أنظر أيضا ديفز (Davis) فى The Influence of Wealth in Imperial Rome . وبوجه عام أنظر ، « ريتزل » فى كتابه Über Finanzen und Monopole im alten Griechenland ، ص ٥٦ وما بعدها .

مبهظا للغاية يكلف أكثر من الـ ١٢ فى المائة ، أو ينجز على أنه شىء خاص يجرى بين الأصدقاء . وكانت الأرض والبيوت أكثر ضروب الضمانات اعتيادا فى الأعمال المالية . وقد أدى ذلك إلى إشكال ، لأن المقيمين الأجانب مثل بازيون (Pasion) الشهير ، هم فى المعتاد الذين كانوا يملكون فائضاً من المال ، لم يكن مسموحا لهم امتلاك العقارات ، وذلك لأسباب تقليدية ، وهذا أفضى بدوره إلى الوقوف فى سبيل المشروعات التجارية ، أو إلى رفع سعر الفوائد . وهكذا كانت العمليات التجارية تتم غالباً بوصفها أموراً خاصة لها طابع الصداقة ، بما تناسب وروح الزمالة الرائعة فى المدينة اليونانية . فكان يجتمع عدد من الأصدقاء ليكونوا جمعية مختارة خاصة أويسمى بنزهة مشتركة (إيرانوس ἔρανος) ، ولا يأخذون فوائد على أموالهم مطلقا ، فسداد رئيس المشروع للدين اعتبر وفاء بعهد شرف . وفى الواقع يبدو أن علاقات العمل بين الأصدقاء كانت حبية خالية من الإجراءات الرسمية ، كذلك بين ابن العم القروى وبين الصديق الذى « يعرف شيئاً بديعا فى المدينة » . وغالبا ما كانت تختفى النقود فى أعماق البحار ، أو فى جيوب القراصنة . ولكن لم ينجم عن ذلك كبير اختلاف ، ما دام خاسر النقود له قطعة أرض ضماناً له . ومع ذلك فمن الغريب أن نرى فى جماعة « تقدمية » مثل أثينا ، حيث الناس يغرمون بالتفرقة الدقيقة ، أن حياة الأعمال كانت بدائية لدرجة كما تخبرنا القواميس ، أن الناس لم يتعلموا بعد ، أن يفرقوا بين قرض حر يتم بين الأصدقاء ، وبين إيداع الأموال فى عمل منتج [١] .

---

(١) أن كلا من كلمتى χρέος ، δάνειον استعملت بالمعنيين . أنظر مقال Foenus فى دارمبرج وساجليو ، ومقال Eranos فى باولى ، الذى يقتبس من Hyperides ، ٥ — ٩ ، كيف أن « ديون الشرف » قد ترجع إلى المدينة لتستقر (فى القرن الرابع) ، بعد أن تنتقل من يد إلى أخرى . وفى الاقتصاديات (Economics) قصة (١٣٤٧ ١ ١) تروى ، كيف باعت مدينة بيزنطة مرة ، لبعض الدائنين من المستوطنين حق امتلاك الأراضى التى كانت مرهونة تحت أيديهم نظير دفع الدين . وفى مصر ، كما يروى هيرودوت (٢ — ١٣٦) مرت على الرجال فترة إعسار وضيق بالنسبة لشكل ما يتخذونه تأمينا ، حتى أنهم اضطروا إلى أن يرهنوا موميات آبائهم . =

ولكن برمنجهام ومانشستر تسخران منا . ولقد آن لنا أن نختم هذا الفصل .

= وفيما يخص مثالا « للشيء الجميل » في ألعاب « المدينة » ، أنظر ليسياس ، ١٩ — ٢٥ . وقد سمعت في المحاكم قصص كثيرة مشابهة منذ ذلك الوقت . إن دليلنا على نسبة الفائدة لتشغيل الأموال الخاصة في أثينا ، مستمد كله من القرن الرابع . وأدناها نسبة ١٢ في المائة (كانت عادية). وأعلى فائدة هي التي حددها « الرجل المستهتر في ثيوفراستوس » ، الذي أقرض النقود لرجال السوق بفائدة ٢٥ في المائة في اليوم ، و« كان يطوف بالمطاعم ومحال الأسماك وبملحى السمك ، فيرمون في وجهه الفائدة التي يأخذها مما يربحون » . ويسميه اليونان « المستهتر » ، (رغم أننا يجب أن لا نسميه كذلك) لأنه « مجرد من أي شعور شريف يحد من غيه » (ثيوافرستوس ، ١٦ ، وملاحظة جب على الاستهتار ، ص ٩٢) .

الفصل الحادي عشر

اقتصاديات المدينة : التجارة الخارجية

Αἱ ἐσχατιαί κως τῆς οἰκεομένης τὰ κάλλιστα ἔλαχον.

تتوفر فى أقصى أجزاء المعمورة إلى حد ما ، خير المنتجات .

هيرودوت ، ٣ — ١٠٦ .

وأخيراً وصلنا إلى مركز يتيح لنا معالجة موضوع التجارة الخارجية ، التى لعبت دوراً له أهميته فى حياة أثينا فى القرن الخامس .

إن إنشاء نظام صالح للتعامل ، وإن لم يكن مرضياً كل الرضى ، قدمكن دول المدنية الكبرى منذ القرن السابع وما بعده ، من أن تدخل فى علاقات تجارية مع البلاد الأجنبية . ولنرى الآن كيف فعلت ذلك .

كانت المدينة فى القرنين السابع والسادس لا تزال متمسكة بتقاليدها القديمة فى الكفاية الذاتية ، فهى مازالت تأكل من حقول قمحها ، وتلبس من أصوافها . ولكنها وقد أرسلت بمستعمرين إلى مناطق بعيدة ، وترامت إليها قصص عجيبة عن البلاد التى زاروها ، استثارت فضولها أكثرها أثارت طموحها ورغبتها فى الثراء والترف ، رغبت فى إنعاش حياتها اليومية بهذه الأشياء الجديدة الواردة من وراء البحار . فكل ما تأمل كسبه من وراء إنشاء هذه العلاقات التجارية ، هو «طرق جديدة للاستمتاع بالحياة» . فقد قالت للتاجر «إعطينى وسائل الترف وكماليات الحياة من الخارج ؛ ولن أسألك عن ضرورياتها» ، فالتجارة تبدأ بالكماليات كما تبدأ العادات «بحالات شاذة تماماً» . ولكن من المستحيل عادة أن تقف إحداها عند هذا الحد ، فما إن اكتسبت اليونان عادة التجارة ، لم تستطع أبداً التخلى عنها[1] .

---

(١) الأوليجارشي العجوز ، ٢ — ٧ . لا أتذكر أول من عكس ملاحظة بنيامين فرانكلين الحكيمة عن عدم طلب الكماليات .

ولكن ستواجه اليونان بعض المصاعب لتكون تلك العادة ، فالتقاليد كلها ضدها . ففى العالم الذى خاطرت بإرسال تجارتها إليه ، كان كل رجل معادياً لجيرانه وكذلك كل دولة . وكل من أراد الاشتغال بالتجارة ، كان معرضاً لأن يظنه الناس قرصاناً مرة ، أو مستكشفاً أو رسولا ، أو طليعة جيش غاز مرة أخرى . فلابد من الوقت والصبر ليبرر موقفه ، ويجعل مركزه ثابتاً منظماً (١) .

ولدينا بضعة ملاحظات شيقة عن هذه الفترة التى اندمج فيها التاجر والقرصان والضابط البحرى فى شخص واحد . فقد بدأت العلاقات الخارجية بالحرب واللصوصية . وكان للدولة التى اعتدى عليها بسرقة ، أو لحقها ضرر فى شخص أحد أعضائها ، أو فقدت هيلين أو إيو (Io) ، أو مركباً تجارياً محملا سلعاً ذات قيمة ، هذه الدولة كان لها حق معترف به فى « الأخذ بالثأر » من الدولة المعتدية ، أو من مركب من مراكبها ، أو من أفرادها ، ويظل لها حتى بين كلا الفريقين ، أو ينصف المعتدى عليه . أى أن الدول عاشت فى حالة انتقام مستمر . وأول واجب على الداعين إلى مذهب الدولية ، ما كان التبشير بالسلام والنية الحسنة ، فى عالم يصخب بالمخاطرة ، بل كان إقامة جزر قليلة ثابتة صلدة وسط خضم من القرصنة . ولذا فالمعاهدة ليست (كما يقولون لنا دائماً فى عصرنا هذا) « ضماناً إضافياً لسلام العالم » ، بل كانت فى هذه المرحلة المتقدمة مجرد ترتيب بين الدول لتتجنب مؤقتاً (فقد كانت المعاهدات الإغريقية تنص دائماً على وقت محدد إذ كانت الحرب الحالة الطبيعية) لذة الأخذ بالثأر من بعضها البعض ، وذلك لصالح عمليات مشتركة على نطاق أوسع . وعلى أية حال يبدو أن القانون الدولى فى اليونان ابتدأ على أساس « الشرف بين اللصوص ؟ » . ونورد هنا فقرة من أتفاق بين مدينتين صغيرتين تجاورتا عصراً جنباً إلى جنب ، فى تلك السهول الفيضية الصغيرة التى بين جبال لوكريس (Locris) وخليج

---

(١) أنظر ما سبق ص ٣٠٥ .

كريزا (Crisa) ومن هناك كانوا يرقبون يومياً بعيون نهمة، سفن الحجاج الغنية عندما تدور فى عظمة حول آخر منعطف إلى دلف . والويل لهذه السفن إذا اجتاحت هذا الركن المنعطف فى ليلة مظلمة ، مقتربة من الشاطىء أكثر مما ينبغى ! « ليس لرجل من أويانثيا (Oeantheia) إذا استولى على غنيمة ، أن يخطف تاجراً من خاليا فى أرض خالية ، وليس لشخص من خاليا أن يخطف تاجراً من « أويانثيا » ، فى أرض « أويانثية » ، وليس لأى أويانثى أو خالى ، أن يستولى على حمولة مركب تاجر من داخل المياه الإقليمية لمدينة الآخر . فإذا أخل أحد بهذه القاعدة ، يقبض عليه قانوناً ولا جناح على من يقوم بالقبض . وأملاك الأجنبى يمكن أن يستولى عليها فى البحر دون أن يتعرض الإنســـان للعقاب ، إلا إذا كان فعلا فى ميناء المدينة » . والمكيدة التى فى هذه المعاهدة تتركز طبعاً فى نهايتها فمنذا الذى يتنازل عن لذة سرقة رجل من لوكريس ، وعلى مرأى منه فى عرض البحر سفن محملة ؟ (١)

---

(١) هيكس وهيل ، رقم ٤٤ . والنص على لوحة من البرونز فى المتحف البريطانى . وإنى اتبع هنا ترجمة ريتزلر (Finanzen ، ص ٧٩) وهى على عكس ترجمة ماير وهيكس . من الممكن القبض على الأجانب فى أى مكان إلا فى الجهة المقابلة من الميناء . إن أعضاء « الفريقين المتعاقدين » فى أمان ماداموا على أرضهم . هذه المعاهدة ترجع الى القرن الخامس ، وعلى ذلك يمكننا الافتراض بأن أويانثيا (Oeantheia) وخاليون (Chaleion) كانتا تعملان على انفراد فى أيام دلف الزاهرة . إن Oeantheia هى جالاكسيدى (Galaxidhi) أول محطة فى طريق السفن التجارية من إيتيا (Itea) الى باتراس (Patras). أما خاليون فتقع بعد ذلك ، فى ركن من الخليج . قارن هيرودوت ، ١ — ١ ثم ٦ — ٤٢ ، وتوكيديدس ، ٥ — ١١٥ — ١ ثم Dem. ، ٣٠ — ١٣ ، ٢٦ . وأنظر مناقشة ٢٤ . والتفاصيل فى باولى مقال ἀσυλία الذى صححه ريتزلر ، ص ٦٩ . إن حق « الالتجاء » الذى تمنحه الولايات لمواطنى بعضها البعض كان يعطى أحياناً للأفراد بقرار خاص . والى جانب هذه الفكرة السياسية ، قامت فكرة أخرى دينية ، الاسيليا (ἀσυλία) ، إذ أصبحت المعابد والأضرحة ملاجىء للاجئين ، زعماء المعارضة مثــلا ، أو العبيد الهاربين . ولأمثال حديثة للنظم اليونانية فيما يخص الأخذ بالثأر ، أنظر Dareste فى Revue des études grecques ، الجزء الثانى ، ص ٣٠٥ وما بعدها . راجع فى هذا الموضوع بأكمله تود فى International Arbitration among the Greeks (أكسفورد ، ١٩١٣). ومع ذلك فالواقع أن كل الدلائل ترجع الى ما بعد القرن الخامس .

وهكذا كانت التجارة عبر البحار عملا ينطوى أحيانا فى هذه الفترة الأولى على مخاطرات خطرة . وفضل الرجال التعامل براً ما أمكنهم ذلك . ونقرأ عن أسواق للحدود مقامـــة على بعض مراعى الحدود ، حيث يجتمع الرعاة ويتبادلون بعض توافه الكماليات ، فيقايضون عسل أتيكا بالخنازير والخضر من ميجارا ، أو سمك المياه العذبة من سهول بيوتيا . وأثناء المساومة تنام كلاب أغنامهم وإحدى عينيها مفتوحة . ومع ذلك فليس من السهل أن يقوم الانسان بكثير من التجارة براً . فالبلاد وعرة ، والطرق رديئة . وحتى فى القرن الخامس لم يكن فى اليونان طريق واحد للعربات يعبر الحدود الوطنية إلا نادراً . فالتجار الذين يسافرون براً يسرحون كباعة متجولين أو سمكرية ، مثل باعة البصل والبرقوق الذين يعبرون البلاد بين انجلترا ويلز ذهابا وإياباً فى عصرنا هذا ، وقد علقت بضائعهم حولهم فهم أنفسهم حمالون لأنفسهم « كما يقول اليونان . وليس من شك فى أننا نجدهم يجتمعون فى دلفى وأولمبيا وفى البرزخ وفى المناسبات الدولية . ولكن حتى فى هذه المراكز حيث تتلاقى الطرق البرية الموجودة ، فإن أغلب من يقدمون بحيل أخاذة ، أو يبيعون طرفا أجنبية ، إنما يشقون طريقهم بحراً[1].

---

(١) « أسواق » الحدود (وعندنا فى الإنجليزية كلتى market ، march كلمتان متشابهتان) : .Dem ، ٢٣—٣٩ ، الذى اقتبسه Büchsenschütz فى Besitz und Erwerb ، ص ٤٧٤ ، حيث وردت بعض مراجع قيمة تتصل بما كان عليه دلف وأولمبيا ، ارجع إليها أيضا . ويجمل ميناندر ذلك فى خمس كلمات : « الازدحام ، والسوق ، واللصوص ، والبهلوانات ، والتسليات » . ويسقط من بين تلك الكلمات كلمة سادسة هى « الشحاذون » . أنظر تينوس فى أى ٢٥ من مارس أو أى ١٥ من أغسطس (النظام القديم) « والطرق المقدسة » ، كالتى تخترق فوكس (Phocis) إلى دلف ، والتى سار فيها Laius فى موكب حافل فى مركبة من مركبات الريف ، كانت الطرق الأهلية الوحيدة فى اليونان . ومن ذا الذى كان يمكن أن ينشىء طرقا أخرى ؟ إنها كانت تساعد الغزاة وحدهم كما أغرى اجزرسيس بالذهاب إلى دلف : أنظر هيرودوت ، ٦ — ٣٤ ، ثم سوفوكليس ، .O. T ، ٧٥٠ — ٣ ، ١٢٢ . وزيادة على ذلك فقد كان مقدوراً أن تبقى هذه الطرق غير مأمونة . إن عقدة قصة أوديب الملك قامت كلها على أساس أن سكان طيبة لم يفكروا أبدا ، أنه يجدر بهم أن يحققوا فى مقتل ملكهم . « فقد قى الجبال : إذن اللصوص طبعاً » ، ثم انصرفوا عن =

ومهما يكن الأمر فالبحر فى منطقة اليونان هو الوسيلة الطبيعية للنقل . ولا يمكن لشخص أن يعيش فى اليونان دون أن يشعر كما شعر اليونانيين ، أن الأرض هى التى تفصل بين الناس ، بينما يجمع البحر بينهم . فالرعاة يمكن أن يتسلقوا الجبل ويقضون شهور الصيف مع بعض أصدقائهم القاطنين وراء الجبال . ولكن الرجل العاقل الذى يريد أن ينطلق ليكسب عيشه كان يلقى بزورقه إلى البحر الهادئ ذى المياه الزرقاء ، ويذهب رأساً إلى إحدى المرافىء عبر القناة . ولذا كان اليونانيون يسمون تجارهم عابرى القناة ، لأنهم راقبوهم وهم ينتقلون ذهاباً وإياباً ، من خليج إلى خليج ، ومن جزيرة صغيرة إلى أخرى ، على متن أسهل طريق ، حيث يستطيع أن يتجه فيه الإنسان حيثما أراد . والسفر كما كان دائماً فى نظر اليونانيون وسيلة حقيرة فى المرتبـــة الثانية ، كما أن التجديف فى بحر هادئ وتحت شمس محرقة ليس إلا وسيلة عقيمة فى مرتبة ثانية بالنسبة للاندفاع فى سفينة شراعية أمام نسيم موات . إن الطريق البطىء المتعب الذى تسلكه القوافل فى الصحراء ، أو نقل البضائع إلى الممرات على ظهر الخيل فى طريق متعب تناثرت فيه الأحجار — ليس طريقاً لليونانيين ، فالرجل ذو الذكاء المتوقد يفضل الرحلات النشيطة ، وتنتقل سفينته فى رفق كالفراشة من مرسى إلى آخر ، حتى يصل إلى آخر المطاف سواء فى أسبانيا أو القرم ، ماراً بحدود ست من البلاد الأجنبية ،

= الموضوع . وفيما يخص تفاصيل عن الطرق المقدسة أنظر (ميركل) (Merkel) فى Die Ingenieurtechnik im Altertum ، ص ٢١٧ وما بعدها . وأنظر أيضا ليف (Leaf) فى Homer and History ، ص ٢٢٣ـ ٢٢٥ . الباعة المتجولون : فى إيسخيلوس ، Choeph. ، ٦٧٥ (αὐτόφορτος ، مثل خانثياس على حماره ، الضفادع ، ٢٥) . إن الحد الفاصل بين البائع المتجول الذى يحمل بضاعته ، والصانع المتجول (مثل السمكرى) ومعه عدده — ضيق جدا كما يوضح ديمولان (Demolins) فى قسمه الخاص « باقتصاديات الغجر » ، (فى كتابه Comment la route crée le type social ، الجزء الثانى ، ص ٧٨) . وفيما يخص التجارة الداخلية فى أثينا فى عهد بركليس ، أنظر Acharnians ، ٨٧٠ . إن حصة تلك التجارة كانت صغيرة جدا ، إذا ما قورنت بالتجارة « البحرية » . ويبدو أنه لم يكن لها ديوان جمارك : .Ach ، ٨١٨ (أنظر فرانكوت Finances des cités grecques ، ص ١١ — ١٢) .

وهو مرتاح الضمير إلى أن الطريق لم يضطره مرة ، فى تلك الأسابيع التى استغرقها لاجتيازه إلى دخول أرض من أراضى البرابره . فمن مزايا السفر بحرا ، كما لاحظ هوراس منذ زمن طويل ، أنه يحملك مسافات بعيدة دون أن تغير شيئاً من عاداتك . فأنت تبقى بين قومك طوال الوقت ، إلا إذا نزلت من المركب . وحين تصل ، وليكن ذلك إلى أبعد مستعمرة يونانية على نهر الوادى الكبير ، أو الدون ، فأنت تستطيع أن تتخيل أنك لازلت فى بلدك ، لأن من أنشأوا تلك المستعمرة حملوا معهم وطنهم أيضاً [١] .

---

(١) ἔμπορος = ὁ ἐν πόρῳ من περάω . ولمعانى δεύτερος πλοῦς التعبير الذى سرى مسرى المثل للدلالة على « الثانى الأحسن » ، أنظر ، Liddell and Scott ، أو إعلم عن طريق التجربة العملية . إن عبارة "Caelum non animum mutant qui trans mare currunt" تساعد على تفسير طبيعة الاستعمار اليونانى فى ذلك الوقت والآن . والحقائق المعروفة أن اليونان والإيطاليون يكرهون أن يرحلوا الى بلاد أمريكا ، لأنهم لا يرغبون فى ترك وطنهم . وكان الإسكندر أول سياسى نجح فى مقاومة تلك الفكرة عندهم . وكل إنسان يتذكر كيف كان هذا الشعور متمكنا من العشرة آلاف فى رحلة إجزينوفون ، كما يتذكر صيحتهم المشهورة لما أن خرجوا من جبال أرمينيا ورأوا البحر الأسود تحتهم ، فصاحوا « البحر » أو « الآن يمكن أن نرجع الى الوطن بسهولة » . وفيما يخص الطرق البحرية من حيث مقارنتها بالطرق البرية أنظر الأوليجارشى العجوز ، ٢ — ٥ : « إن السفر برا يعد عملا بطيئا ، ومن المستحيل أن يأخذ الإنسان معه مئونه كافية لرحلة طويلة » . وأنا أبرز هذه النقطة هنا وأوكدها ، إذ أن بيرارد (Bérard) قدطمسها فى قول له ألقى به جزافا عن « قانون البرزخ » . إنه محق فى اعتقاده أن التجار القدماء غالبا ما يأخذون البضائع عن طريق البر (١) لتجنب جهات معينة خطرة أو متعبة فى البحر ، أو (٢) لتوفير ساعة من التجديف المنهك خارج الثغر . أى أنهم يسلكون الطرق البرية خصوصا إذا ما مهدها لهم أمثال أجاممنون أو ألكينوس إما عبر برزخ ، أو من المرفأ الداخلى الى أقرب مكان للنقطة التى يبتدىء عندها الريح . إلا أن ذلك يختلف كثيرا عن القول بأن القدماء كانوا يفضلون « التقليل من الانتقال بحراً » ، والإكثار من التنقل براً ، هذا القول الذى لم يكن لينطبق على حالتهم . أنظر ص ١٥ وما بعدها فيما سبق ؛ ثم الجزء الأول من Le Phéniciens et l'Odyssée ، ص ٦٨ ، ١٧٨ (والمراجع أيضا) ، ثم ليف (Leaf) فى Homer and History ، ص ٢٢٠ . وتبدأ طرق القوافل خلف أو وراء التخوم اليونانية مباشرة ، والإبل التى لاتزال تروح وتغدو فى شوارع أزمير ، رغم السكك الحديدية ، شاهد على ذلك . إن فكرة انتقال مدينة على ظهر مركب ، ومعها آلهتها وكل شىء يخصها ، كانت معروفة عند الشعوب اليونانية البحرية . قارن هيرودوت ، ١ — ١٦٥ ، ثم ٨ — ٦٢ (الأثينيون يهددون بالانتقال إلى سيريس) ، وثوكيديدس ، ٨ — ٧٦ — ٤ إلى ٧ (أيهما أثينا الحقيقية ؟ مدينة الأسلاف ، أو المخيم المتحرك ؟) .

فتاجرنا إذن يحمل بضاعته بحراً ذهاباً وإياباً ، بين دول أقلعت عن الأخذ بالثأر ، فيما بينها ، وأعدت ملجأ آمنا فى موانيها . ولم يكن ليجرؤ على ذلك كتاجر ، (وإن كان يجرؤ بصفات غير هذه) ، حتى تحميه الشروط التى تمليها المعاهدات ، أو يجد من يدخله من المواطنين على أنه ضيف أو صديق . فله إذن على نحو ما ، طابع الممثل لبلاده وإن كان قائماً بعمل خاص بحت ، لجنسيته تحميه أو كما نقول الآن يحميه علمه ، رغم أنه قد يكون فى بلده فى عداد الأجنبى المقيم ليس إلا . ولنفس هذا السبب يمكنه أن يمكث مدة طويلة فى البلاد الأجنبية . ومع ذلك فقد كان يفخر وهو بين السيسليين والإيبريين ، بل وفى سراكوزا وقبرص بأنه من أثينا ، إذ ، لعظمة مدينته ، كان له حق جلب البضائع إليها [(١)] .

فلنتتبع أعماله بالتفصيل فترة ما . فوسائله تختلف كل الاختلاف عن وسائل أمثاله فى العصر الحديث . لقد تعودنا أن نتصور التاجر فى صورة رجل يجلس فى مكتبه يوجه ، بالبرق أو التليفون ، على أساس معلومات وصلت إليه بالمثل ، سواء كانت معلومات خاصة أو يتلقاها عن طريق الصحافة ، يوجه نشاط عملائه وأتباعه الذين لا عد لهم فى البلاد البعيدة ، وبإشارة منه وهو فى مكتبه البسيط فى لندن ، يعمل الرجال فى جنوب أفريقيا وأمريكا الجنوبية ، فى تشريط أشجار المطاط ، ويحمّلون مراكب القمح فى أوديسا ، أو يكدون ويعرقون فى مناجم جنوب أفريقيا ، وعلى أرصفة سنغافورة ،

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٣٨ — ٢ . فيما يخص المعاهدات التجارية أنظر ما سبق ص ٢٢٢ . هيرودوت ١ — ١٦٣ و ٦ — ٢١ (« الفوكيون » فى تارتسوس ، « الميليزيون » فى سيباريس وهذا لا يعنى ، كما يمكن أن يفهمه أحد مؤرخى البندقية ، من أنهم يقومون بالتجارة على مراكب حكومية) . قارن الجالية الأجنبية فى نوكراتيس (٢ — ١٧٨) ، حيث يمكن أن نتأكد أن أحدا لم يسأل أيجينيا أو رجل « ميليزى » (Milesian) عمن كان أبوه . إن الامتيازات كانت تعطى للأفراد أو الجماعات من الأصدقاء ، ولكن لم يحدث أن أعطى امتياز لنقابات كبيرة ، مثل نقابات روما أو شركاتنا ذوات الحقوق المكتوبة . ولا زال الكثير من آثار تلك الجاليات التجارية باقيا عندنا من عصورنا الوسطى . فنلا الحظائر الطويلة الخشبية للأعضاء من مختلف الشعوب ، الذين كانوا يتجرون فى بحار النرويج ، لاتزال ترى فى برجن ،

أو يشترون أسهما فى شركة من بورصات عواصم المال العالمية المزدحمة بالناس . فهو فى مركز الرجل العادى ، ولكن فى قوة الإمبراطور أو على الأقل الأوليجارشى ، لأن تزايد تداخل الأمور الاقتصادية ، وترابط نظم الأعمال العالمية بعضها ببعض ، فى كل أنحاء الكرة الأرضية ، دفع إلى تركيز القوة على أكتاف العمالقة القليلين ، الذين يستطيعون الاضطلاع بالعبء . إن الطموح يتحين الفرص كما تتدفق المياه على منحدرات الجبال ، وإن أشد رجالنا طموحا اليوم ليسوا قادة الجيش ورجال السياسة ، كما كان الوضع قديماً ، وإنما هم التجار والماليون و « كبار رجال الصناعة » .

وفى اليونان ، كما نعلم ، لم يكن الأمر كذلك . فلم يكن لدى التجار إلا القليل من رأس المال ، ما دامت الجماعة لم تملك إلا القليل لتقدمه لهم . وحتى إذا توفر لهم ، فما كانوا ليعرفوا كيف يستغلونه . فهم لا يستطيعون العمل فى نطاق واسع ، دون أخبار سريعة ، موثوق بها من الأسواق البعيدة ، أو مع زمرة طائشة متقلبة من اليونانيين غير قابلة للتنظيم ، تقوم على تنفيذ أوامرهم . فلو ظل جزء معين من هيئة العمل دائما كمحلفين لتعقدت مهام الحياة فى لندن . ومع ذلك فإن جانباً كبيرا من الأعمال اليونانية ، كان لابد وأن يكون قد تم فى مثل هذه الأحوال ، وأنجز على دورين . ومن هنا اقتصرت الأعمال التجارية على حيز ضيق محدود ، وظلت حتى القرن الخامس ، على أية حال ، يغلب عليها طابع الهواية وطابع الارتجال ، الذى يسود كثيرا من نواحى الحياة اليونانية .[1]

وزيادة على ذلك ، فإن الحياة القديمة كما رأينا ، كانت تنقصها لوازم الراحة . ويقوم الجزء الأعظم من التجارة فى أمة كبيرة حديثة على وسائل الراحة ، أكثر مما يقوم على الكماليات أو الضروريات . فليس قوام ،

---

(١) إن حالات « قرض النقود مقابل رهن السفن » التى جاءت فى خطاب ديموستينيز الخاصة ، تمت بالتأكيد إلى مرحلة من مراحل الحياة العملية أكثر تعقيدا إلى حد ما ، من تلك التى نحن بصددها هنا . وليس ثمة دليل على طريقة منظمة للتأمين البحرى أقدم من القرن الرابع ، أنظر هامش صفحة ٣٧٦ فيما سبق .

وارادتنا ، صنوف البيانو الفخمة أولوحات كبار فنانى إيطاليا ، التى «كعاج» الملك سليمان «وقردنه وطواويسه» لاتثير سوى اهتمام طبقة محدودة ، ولا الطعام والكساء اللذين لا غنى عنهما لمنع الموت جوعا والعرى ، ولكنها قوائم طويلة من أشياء (قد يتبين لنا مقدار طول تلك الكشوف إذا أتيح لنا رؤية كشف الأسعار العامة) مثل الشاى أو الساعات ، أو الورق أو التيل أو القطن اللازم لصناعة قصاتنا الداخلية ، تلك الأشياء التى أصبح لاغنى لنا عنها أبدا ، بل أصبحت جزءا من حياتنا اليومية المتحضرة ، حتى إننا نسينا منذ وقت طويل أنها ليست ضروريات على الإطلاق . ولم تكن مثل هذه الأشياء عند اليونانيين ضرورية ، ولا من وسائل الراحة ، ولو وجدت عندهم لاعتبرت شيئا نادرا أو كماليا غالى الثمن ، ولتعامل مستورديها من التجار مع طائفة قليلة غير ثابتة كتلك التى يتعامل معها الرسامين وتجار الصور عندنا . بل لكان حظهم يغدو أقسى ، إذ إذا كانت هذه الأصناف الممتازة من التجارة غير رائجة اليوم ، فذلك ليس لعدم توفر النقود ، ولكن لأنها تنفق فى أشياء أخرى — فى أعمال البر أو فى الضرائب الإضافية أو فى مونت كارلو . أما فى اليونان فكان على التجارة أن تكسد «لمجرد» أن المجتمع «لم تتوفر له النقود» حقا لا ادعاء . وفى العصر الحديث تقوم المنافسة التجارية المعتادة ، بين تاجر وتاجر وبين صنف وصنف . أما فى العصور القديمة فكانت «بين عدوين لدودين» : مطالب الإنسان وشح الطبيعة . فلحد بعيد لم يكن ما يخشاه التاجر اليونانى أو يكرهه ، زميله فى مهنته أو أى مهنة أخرى . فقد كان البحارة التجار يجتمعون كالصناع فى نقابة كأخوة ، ويعبدون فى معبدهم العام «زيوس الحامى» . فلم يحقد تجار العطور على تجار البخور ، ولا مستورد العبيد من الشمال على زميل له جاء بعدد من الزنوج والزنجيات من ليبيا . فتلك مخاوف وهواجس نظامنا الحديث حيث كل فرد لنفسه ، وللشيطان ما تخلف . أما فى عالم تجار اليونان الصغير فمخاوف الناس اختلفت تماما . فإذا كانت الجماعة فى وضع أحسن ، وكانت الطائفة المتاجرة أقل متاعب وأقل

تأثراً ، فليس ذلك لأن الأخطار التى كانت تهدد حياتهم ، كانت خيالية أو بعيدة أو أقل إثارة وتأثيرا ، إذا ما أحدقت بهم . فأخوف مايخافه التاجر اليونانى ، وهو ساهر عند مؤخرة المركب يحسب رحلته بالنجوم، ومامن أجله دعا آلهة عشيرته كلها أن تجنبه إياه، إنما هو بعض الكوارث العامة المألوفة لكل زملائه التجار ، من حرب أو مجاعة أو زلزال أو نوبة تصوف ، أو حركة سياسية قد تقلب فى لحظة مجرى الأعمال كلها[١] .

لنضع هذه الصعوبات أمام أعيننا ، ثم نراقب تاجرنا فى عمله . عندما تنتهى زوابع الشتاء تماما ، يبحر من أثينا أو كورنث فى مركبه الخاص « المستدير » ، أو فى سفينة لجماعة من أصدقائه أو شركائه ، يضعونها تحت تصرفه ، مجهزة بنفر من الملاحين يبلغون نحو العشرين من المواطنين أو الأجانب المقيمين الذين رحبوا بالرحلة ، حبا فى التغيير ولكونها فرصة للتدرب على التجديف وإدارة الدفة ، أو ربما لأشياء أخرى بجانب هذا أو ذاك . وسيحمل تاجرنا من بلاده زيتا مختلف الأنواع فى قدور من صنع بلاده منقوشة أو غير منقوشة ، وقدراً كبيراً من الحلى الرخيصة المغرية التى قد تنفع المتوحشين . وأول مايقصد موانئ ومحطات إيطاليا أو سوريا ، وإن كان ليس لديه أوامر محدودة ، ولا برنامج موضوع ، ولا جدول معين لأوقات الوصول

---

(١) أنظر ماسبق ص ٣٢١–٣٢٢ . آلهة التجار : I. G. ١–٦٨ Ζεὺς Σωτήρ، و ١ – ٣٤ — ٣٠ (Ανακες "أى δαίμονες، وهو أيضا θεοὶ σωτῆρες). أنظر نصا أطول (ولكنه متأخر عن ذلك ، والتجار الذى يذكرهم من أصل صورى) فى ميشيل ، Recueil ، رقم ٩٩٨ ، أو (أفضل) فى ولهلم ، Beiträge zur griechischen Inschriftenkunde ، ص ١٦٣ . مخاوف التجار (والمواطنين) : سوفوكليس، O. T. ، ٢٢ ، أفلاطون ، القوانين ، ٧٠٩ . « موسما حصاد رديئان أو مذبحة » ، ذلك هو قانون المشترى الغربى للسجاد الرخيص فى الأناضول اليوم . إنه حسن بالنسبة للمشترى الغربى الذى يتصيد الصفقات ، ولكنه عكس ذلك بالنسبة للبائع المحلى الذى يحاول أن يبيع أى شىء. — ١٩٢١ . ويمكن أن يقرأ كل ذلك على ضوء حصار الخمس سنوات لأوروبا الوسطى والشرقية وآثاره .

والارتحال . وهو حر تماماً فى أن يغير مسيره حسب الرياح أو كما يعن له ، أو لمعارضة من أحد زعماء البحارة ، أو لخبر يلتقـــطه من مركب مار به . فإذا ما ألقى مراسيه فى إحدى الموانئ ، باع ما يمكنه بيعه ، وشحن مركبه بما يجده ، معتمدا على ماينصح به الأهالى المحليين لتصريف بضائعه هذه . وهكذا يسير فى طرق البحر المتوسط المعتادة ،كموزع أو حمال عومى ، لايأخذ أرباحه من بضاعته التى جلبهامعه من بلاده ، بقدرماهى من البضائع التى يشتريها ويبيعها ، أو من الصفقات التى يجريها مع التجار المحليين عبر طريقه . وفى الحقيقة ، هو بتعبيرنا قبطان وبحار وناقل بضائع وتاجر فى آن واحد . وتجارته ليست قاصرة على القمح أو الزيت أو أى نوع معين من المهام ، بل يتجر فى أى شيء يصادفه فى طريقه . فبكونه سيد نفسه تماما أو على الأقل حرا فى تفكيره ، ولعدم ارتباطه بشركة أو بمطالب ينفذها ، فقد كان فى مقدوره توجيه نفسه أينما شاء . فإذا كسدت التجارة أو غفل بوليس البحر عن عملهم ، فليس هناك مايمنع من الالتجاء المؤقت إلى سبيل آخر من سبل الحياة . وفى الحقيقة لم تكن دعامته فى التجارة حمولته ، كأسلافه القراصنة ، وإنما مركبه الذى يعبر به البحار الضيقة ، كما يجوب الحوذى الطرقات بحصانه وعربته . وفى آخر الموسم عندما يأخذ النهار فى القصر ويحين هبوب العواصف ، يحمل شحنته الأخيرة ، وتكون أوفق كلما حوت ما هو جديد وغريب . وهكـذا يرجع بسفينته إلى الميناء[1] .

---

(١) الأوليجارشى العجوز ، ١ — ٢٠ ، توكيديدس ، ١ — ١٤٣ (البحرية التجارية) . إن ναύκληρος صاحب المركب وقبطانها فى الوقت نفسه ، كان قبل القرن الرابع على الأقل أعم من φορτηγός التاجر الذى يحمل بضاعته على مركب ليس ملكه . وقد كان أرسطو دقيقا فى التفرقة بينهما ، ثم فى التفرقة بينهما ، وبين الوكيل المحلى الذى يتعاملون معه فى الجهة الأخرى ، والذى يسمى عمله παράστασις : السياسة ١٢٥٨ ب ٢٢ ، أنظر برانتس فى Revue de l'instruction publique en Belgique ، الجزء ٢٥ ، ص ١٠٩ وما بعدها . والأمثلة هى : التاجر فى فيلوكتيتيس (٥٤٧) ، كولايوس الساموسى الذى « اكتشف » تارتسوس ، هيرودوت ٤ — ١٥٢ ، وواضح أن معظم الأيجيئيين كانوا صعاليك متجولين من الدرجة الأولى ، لأن جزيرتهم لم تنتج شيئا للتصدير . قارن القوانين ، =

وفقط عندما يرجع التاجر إلى وطنه ، يمكنه أن يتبين إذا كان من المحتمل أن يبيع هذا الشتاء ماجمعه من البضائع ، أو على الأصح إذا كان سيتخذ مقامه بين الموسرين أو بين المعسرين ، بين الموقرين أو المزدرين . فهذا يتوقف على محصول الزيتون ، وعلى الموسم ، كما يتوقف على أمزجة الناس والأحوال السياسية . إن أحسن فرصة له أن يكون كل إنسان ميسورا مبتهجاً ، تقدمي التفكير ، مستعدا لابتهاج أى أسلوب جديد رائع دون أن يعبأ بالنتائج . وهكذا نراه يفرغ متباهياً ، مامعه من قردة وعاج وعبيد ، وغير ذلك من الطرائف الأجنبية التي عمل على إحضارها سالمة إلى الوطن ، معلناً عنها فى أنحاء المدينه بمساعدة أصدقائه الذين تعودوا تنسيق الحقيقة ، ثم يبذل مافى وسعه لإغراء ألكبيادس أو أى « رجل آخر » ذى أطماع متواضعة ، بالإطناب فى مدح البضائع العربية . هذا بينما يعمل جاهداً كمواطن له نصيبه فى

= ٩٥٢ (E) . ، فيمايخص رحلة نموذجية فى جميع مراحلها ، ارجع إلى مناقشة ديموستينيز ، ٣٥. وكما ينقلب التاجر غالبا محاربا ، فمن الممكن أن ينقلب المحارب تاجرا عندما يجد السبيل إلى ذلك . أنظر توكيديدس، ٧ — ١٣ — ٢ . كلما كانت التجارة بدائية زادت سيطرة الموزع على المنتج ، فيما يخص الأسواق البعيدة . قارن الطرق التى بها يخضع المنتجون فى القرى الإنجليزية لرقابة الموزعين فى القرن الثامن عشر ، تحت مايسمى طريقة القومسيون. لابد وأن عانى الفخرانيون فى أثينا ، كمايبين ذلك فرانكوت (Indusirie ، الجزء الأول ص ٣٠٨) ، الشىء الكثير كذلك ، إذ أن القبطان التاجر كان حلقة اتصالهم الوحيدة فى الأسواق الإتروسكية . ولكن التجارة القائمة على التصدير فى أثينا لم تكن من الأهمية بمكان حتى يكون لهذه الضايقة تأثيرا كبيرا . ولا يزال محفوظا فى علامات التجار على بعض الأوانى الأتيكية ، بيان ممتع عن هذه التجارة . فالتاجر يذهب إلى الصنع ، ويأمر بنقش ما يريده على الأوانى المعتبرة عينة . ومعظم هذه العلامات كان مكتوبا بحروف أيونية ، وهى تدل على أنه قبل ٤٨٠ ، أثناء أزهر فترة للتجارة الإتروسكية ، كانت التجارة فى يد الأيونيين . ونحن نعرف من هيرودوت (١—١٦٣) أن الفوكيين هم الذين فتحوا الطريق . وقد عرقلته الحرب الفارسية (٤٨٠ — ٤٧٩) ، والحرب اليونانية الاتروسكية عام ٤٧٤ ثم استأنفه الأثينيون فيما بعد . التفاصيل فى Haekl ، Münchener Archäologische Studien ، ١٩٠٩ ص ٩٢ وما بعدها والمراجع ، ويجب أن يضاف إلى هــذا بوتير (Pottier) فى Revue Archéologique ، الجزء الثالث (١٩٠٤) ، ص ٤٥ وما بعدها .

تشكيل الرأى العام عل توسيع أفق زملائه ، وهدم بقايا تحامل السنين على كل ماهو جديد[1] .

وهكذا فما خشاه المستورد اليونانى من مدينته لم يكن تحديد أسعار البضائع الأجنبيه بما فيه صالح المنتج المحلى ، وإنما الأوضاع المتوارثة لمصلحة نفسه . لأن رجال السياسة فى المدينة القديمة لم يفقدوا غريزة المحافظة على الذات ، وأدركوا أن العادات والفضائل التى نشأت مع الوطن، قد تتوارى عن الأنظار بتوارى البضائع الداخلية . وبذا كان فى حساب التاجر أنهم قد يصممون على معاملة أى « عمل شريف » ، المعاملة التى نعامل بها نحن تجار الخمور والأفيون . فهناك جماعة المغالين ، التى لم ترفيه وهو يمشى مرحا على رصيف الميناء بوجهه الذى لوحته الشمس وبضائعه الغربية مسرورا كطفل يعرض لعبته الجديدة ، إلا رسول شر وبائعا للهلاك الأبدى . وقد لعن صائد سمك يهودى قديم (إن كان حقا هو الكاتب) مهنة التاجر تصحبها قائمة بضائعه · إن خبز الشعير والأسماك الصغيرة التى يأتى بها هؤلاء الذين يكدون طوال الليل دون أن يغنموا شيئا ، لأفضل له ولمدينته من « سلع الذهب والفضة والأحجار الكريمة واللآلىء ، والتيل الرقيق والحرير ، وكل الأخشاب العطرية ، والأوانى على اختلافها ، عاجية كانت أو من أجود الأخشاب ،

---

(١) أنظر تيوفراستوس ٧ (جب ، ص ٦١) بشأن « الرجل ذى المطمح الضئيل » ، ومعه عبده ذو الأسنان البيضاء ، يحمل عماما صقليا ... الخ « إنه أيضا لذلك الرجل الذى يقتنى قردا » . وقد رأى اليونان أن للزنوج طلعة لطيفة ، وتفكهوا بشعورهم الجعدة التى تشبه الصوف ، ولكنهم لم يظهروا أى « تعصب ضد اللون » . أنظر رؤوس الزنوج التى استعملت فى تزيين الأوانى فى Austrian Jahreshefte ، الجزء التاسع ص ٣٢١ ، ثم منظر سمسون بين الفلسطينيين على الآنية المصورة فى Furtwängler and Reichhold ، الجزء الأول ، الشكل ٥١ ، الذى يمثل « هيراقلا » ضخما أحمر يذبح جما من المصريين الضعاف ذوى الأنوف المنحنية ، بعضهم أسود ، والآخر أبيض (مرتدين تلك الملابس المشهورة النظيفة ، والمصنوعة من التيل) ، بينما يصل الحرس القوى من السود فى مشية منتظمة بديعة ، بعد فوات الوقت . ويبدو أن الشعور « ضد الملونين » إنما ذو نشأة حديثة نسبيا ، ولم يمتد إلى اليونان الحديثة . أنظر الملاحظات فى كتاب اللورد كرومر ، Ancient and Modern Imperialism ، ص ١٣١ إلى ١٤٣ .

أو من النحاس أو الحديد أو الرخام ، أو القرفة والروائح العطرية ، والطيب والبخور والنبيذ ، والزيت والدقيق الممتاز والقمح ، والحيوانات المفترسة والغنم ، والخيل ، والعربات ، والعبيد وأرواح الرجال» [1] .

---

(١) Rev. ، ١٨ — ١٢ . إن الإجراءات الواقية الوحيدة التى نسمع عنها فى اليونان هى « القوانين الخاصة بالقصد فى المصروفات » ، مثل قوانين سولون ، أو المقاطعة السياسية والدينية ، وضروب التحريم الدينية والسياسية كذلك ، (أنظر هيرودوت ، ١ — ١٦٠ ، ثم ٥ — ٨٨) والقرار الميجارى . وفى بعض الأحيان تكون البضاعة وأحيانا جنسية التاجر هى التى تقرر الاعتراض . قارن الطريقة التي اتبعها الاتراك أخيرا ، وهم قوم ليسوا تجارا ، فاستعملوا سلاح المقاطعة ضد النمسويين واليونان . ولو كان قرارا بريا (Brea) (هيكس وهيل ، ٤١) قد أبق فى تهشمه على سطر أزيد ، لعرفنا الأشياء التى كان لا يمكن دخولها فى المستعمرات الأثينية . إن دخل الجمارك كان يعتبر كله دخلا للدولة . قارن القوانين ، ٨٤٧ ، حيث يلغى أفلاطون المكوس ولكنه فى نفس الوقت يحدد الواردات . وقد يبدو هذا متناقضا فى دنيانا الكبرى ، ولكن لو أننا نظرنا المسألة بعقل الرجل العادى لبدا أمرا معقولا . فخلاقو المدرسة يدخلون بدون دفع رسم ، ولكنه غير مسموح لهم أن يبيعوا السجائر ، وليس ذلك لأن المدرسين يزرعون الدخان فى حدائقهم الخلفية . كما أن الأتراك يقاطعون الطرابيش النمسوية لالأنهم يريدون صناعتها بأنفسهم . قارن جيرود فى Propriété foncière ص٥٦٣ـ٥٦٤ .

الفصل الثانى عشر

اقتصاديات المدينة : السكان

Οὐδέν ἐστιν οὔτε πύργος οὔτε ναῦς
ἔρημος ἀνδρῶν μὴ ξυνοικούντων ἔσω.

ليست المدينة المسورة ، ولا المركب بشىء يذكر ، إذا كانتا خاليتين
وليس بهما أناس يعيشون فيها . سوفكليس ، O. T. ، ٥٦ — ٥٧ .

Οὐ γὰρ τάδε τοὺς ἄνδρας ἀλλ' οἱ ἄνδρες ταῦτα κτῶνται.

إن هذه الأشياء قــد خلقت من أجل الرجال ، ولم يخلق الرجال
من أجلها . بركليس فى توكيديدس ، ١ — ١٤٣ — ٥ .

يعنى السياسى بالناس والأشياء معا . فى اللجنة غالباً ما يكون عليه البت ، مثل المهندس أو العالم ، فى قدر جاف من التفاصيل المادية التى لا تؤثر فى الناس إلا بطريق غير مباشر . بينما عليه أن يعنى فى البرلمان بالقوى الحيوية فى الحياة القومية . وكذلك على رجل الاقتصاد السياسى ، نفس هذا الواجب المزدوج ، فى قياسه وتدبيره لموارد وطنه . فهو لا يعنى بقوة المال وحدها ، ولكنه يهتم بالناس كذلك . إنه لا يهتم بالثروات المادية وتوزيعها فحسب ، ولكنه يهتم أيضاً بالبشر المنتجين والمستهلكين لها ، والتى بدونهم لا تساوى شيئاً . فمشكلة السكان تعتبر الآن بحق إحدى المشكلات الخطيرة الدائمة التى يجب أن يواجهها كل اقتصادى .

وهذه المشكلة التى نحن بصددها الآن لا تعنى فقط ، كما يدعو إلى الافتراض أحياناً ، بالمسائل التى تؤثر فى مقدار زيادة السكان وسرعة هذه الزيادة فى داخل المدينة الدولة ، بل تعنى كذلك ، إذا لم يكن ذلك أهم ما تعنى به ، بالمسائل

التى تؤثر فى قيمهم . وهذا مذهب قديم واضح ، قد أخذنا فى تعلمه من جديد من علماء تحسين النسل ، وقد عرفه اليونانى منذ أمد بعيد . وبوضعنا مشكلة السكان فى موضعها المناسب فى بحثنا الاقتصاد الأثينى ، نجد أنفسنا معنيين لا بمسألة العدد وحدها ، ولكن بجملة مسائل أصعب وأكبر أهمية ، تتصل بما فى الحياة الأثينية من أخلاق وآداب .

ويجب أن نبدأ بحثنا بالتعداد لأن ذلك ، وهو أظهر جوانب مشكلة السكان وأخطرها ، كان أول ما استرعى تفكير رجال السياسة فى بلاد اليونان . فقد رأوا أنفسهم وجها لوجه أمام مشكلة فعلية خطيرة ، هى الازدياد الطبيعى لعدد السكان .

وهى نفس المشكلة التى حفزت مالتوس (Malthus) ومن بعده داروين ، وبذلك أصبحت معروفة فى شكلها النظرى لأجيال متعددة من رجال الفكر . ولكن لم ير فيها المفكرون اليونانيون الأول مجرد مشكلة بيولوجية أو أخلاقية ، بل رأوا فيها خطراً دائما على كيان الدولة السياسى ذاته ، ولم يكن قد توفرت لهم معرفتنا العلمية ، ولا الخبرة التى تنير لهم الطريق . ولم يعرفوا شيئاً عن أمر التنازع على البقاء القائم أبداً بين المخلوقات الحية ، ولا عن علاقات الإنسان المادية الوثيقة بمملكة الحيوان . ولم يحفلوا بالوازع الخلق ، بذلك الحافز الأخلاقى اليقظ الذى يرفع الإنسان عن مستوى الحيوان ثم يستبقيه . فما عرفوه فى نطاق مدينتهم الضيق هو أن الناس آخذون فى الزيادة باستمرار ، وأنهم يفوقون فى تزايدهم الزيادة فى الإنتاج . وقد كان ذلك أكثر من مشكلة ، لقد كان خطراً مفزعاً يزداد اقترابا كل عام . ولم يكن فى اقتصادهم البدائى سوى رصيد ضئيل يلجأون إليه . كما كان هناك حد طبيعى لعدد الناس الذين يعيشون فى الدولة ذات الكفاية الذاتية . وقد انتشرت الزراعة فى بقعة بعد أخرى على جانب التل العارى ، ومهدت الأرض وحرثت ونقيت مما بها من الحشائش ، حتى تنتج ذلك الكفاف الذى لا يغنى ،

ولكن جاء يوم فيه أصبحت زيادة السكان على الإنتاج أكبر من أن تحتمل، واضطر رجال السياســـة اليونانيون أن يبحثوا عن مأوى لشعبهم فى مكان آخر .

وقد خفف الضغط حركة الاستعمار الكبرى التى حدثت فى القرنين الثامن والسابع . ولم يظهر بعد ذلك مطلقاً بهذا الشكل الحاد ، لأن التحسن الاقتصادى الذى تبع ذلك ، فضلا عن تحسن المواصلات ، ونمو التجارة الخارجية ، جعل الدول أقل اتكالا على مواردها الزراعية ، ويسر أعمالا دائمة لبعض أعضائها الذين لا أرض لهم . وفى العصر الذى نحن بصدده ، لم تكن الدولة اليونانية العادية منعزلة تماماً ، أو مقتصرة على الكفاية الذاتية فقد كان فيما اتخذته من معالجة لتفادى زيادة السكان الطبيعية شىء من المرونة . ومهما قل اعتمادهم عليها ، فيجب أن نذكر ذلك عند كلامنا على موقف رجال السياسة والفكر فيها ، حيال هذه المشكلة .

ومع ذلك فقد ظل الفزع القديم باقياً ، وإن لم يكن فى شكل ملح ومهدد كما كانت الحال قديماً ، ظل أكثر وقعا واستمرارا مما يمكن أن نلمسه فى سهولة ويسر ، فى ظل النظام الدولى اليوم ، بعد أن اعتدنا اعتبار السكان قوة متزايدة غير ثابتة ، بل وظل أبدا كعامل للقلق . ولن نفهم مطلقاً موقف رجل دولة المدينة من هذا الموضوع وأمثاله ، حتى ندرك قوة التأثير الخفى التى كانت له على أفكاره وسلوكه .

وليس من السهل علينا أن نفعل ذلك ، لأن الكتاب اليونانيين لا يساعدوننا على فهم ما يدور بفكرهم ، فإذا ما قرأناهم دون تمعن ، بدوا لنا أنهم قد أغفلوا أمر هذا المشكل . لقد فضلوا أن يتكلموا كما لو كان عدد السكان يتجه من تلقاء نفسه إلى أن يظل ثابتاً ، كما لم يكن هناك ازدياد طبيعى للبشر . ويبدو أن تنظيم الجماعة الكلى فى الدولة المدينة وضع على أساس فكرة أن عدد أعضائها يظل ثابتاً . فالمدينة تتكون من عدد عديد من الأسر ومن أقسام ثانوية أخرى، كلها حدد عدد أعضائها ، واعتبر ثابتا غير متغير. فأثينا مثلا

قبل إنظام كليستنيز ، كانت مقسمة إلى أربع قبائل ، ١٢ أخوة و ٣٦٠ عشيرة ، وكان المفروض أن كل من هذه العشائر تتكون من ٣٠ شابا ، فيكون عدد رجال المدينة ١٠٨٠٠ . وبعد ما أحدثه كليستنيز من تغيير ، ازداد العدد ، وتراوح عدد الأثينيون فى القرن الخامس بين ٢٠ إلى ٣٠ ألفاً «كعدد صحيح» ولكن مهما كان العدد فقد كان معتبراً ثابتا لا يتغير ، وأنه الأساس الذى تقام عليه نظم المدينة . ويمكن أن نرى ذلك بشكل أوضح فى التدابير التى كانت تتخذ لإنشاء مدن جديدة . فأول ما يعمله الرجل السياسى هو تقدير عدد السكان ، الذى يمكن للأرض الجديدة أن تستوعبه ، ثم يمدها بالسكان فى حدود ذلك التقدير ويجب أن يعلن عن هذا الحد ، وأحيانا يعبر عنه بوضوح فى اسم المستعمرة الجديد مثل مستعمرة مدينة العشرة آلاف على ساحل كيليكيا . ونلق نفس الفكرة عند أفلاطون وأرسطو . وهى تتناسب تماما وفكرتهم العامة عن المدينة فى كونها عملا فنيا ، وتتلائم وإحجامهم عن السماح بمجال كاف لتطور قوى جديدة . ويحدد أفلاطون «العدد اللازم» لمدينته الفاضلة ، عن طريق حسابى . بينما يفضل أرسطو تعريفه بأنه «أكبر عدد يكفى لأغراض الحياة ، ويمكن أن يستوعب بنظرة واحدة» . وكلاهما يرى ضرورة قلته وثباته . وقليل من التفاصيل ترينا بشكل واضح ، ماذا تعنى الدولية الحديثة ، أكثر ما تظهره لنا تلك المقارنة بين هذه البلاد الريفية القديمة البالية ، وبين اتساع المدينة الحديثة السريع المعروف مثل شيكاجو وجوهانسبرج وويnبج . فمثل هذه المدن لا يرى فيها اليونانيون مدناً بقدر ما لا يرون فى «الأولومبيك» أو «أكويتانيا» سفناً . فكيف تدعو شيئاً سفينة مع أن طوله يبلغ فرسخا ، أو تسميه مدينة إذا كنت لا تستطيع أن تسمع منادى القرية من الطرف الآخر[1] ؟

---

(١) سترابون ، ٦٧٣ (Μυρίανδρος) ، أرسطو ، السياسة ، ١٣٢٦ ، ثم أفلاطون ، الجمهورية ، ٥٤٦ ، والقوانين ٧٤٠ (٥٠٤٠ بيتا) وفيما يخص الأرقام الأثينية =

ومع ذلك إذا اهتم اليونانيون وفكروا فى ذلك لعرفوا ، كما نعرف نحن ، أن فرضهم العادى ، لا أساس له . فعدد السكان لا يميل حقيقة من نفسه أن يبقى ثابتاً ، والظروف التى اعتادوا الكلام عنها بأنها طبيعية وضرورية فى الدولة المتحضرة لم تكن طبيعية على الإطلاق . فقد كانت مصطنعة إلى حد كبير ونتيجة لفعل أسباب خاصة ، كان بعضها على أية حال فى نطاق مراقبتهم .

وأول هذه الأسباب وأعمها هو نسبة الموتى المرتفعة . وإنها لحقيقة معروفة الآن ، أن علم الطب دائب على زيادة « الأمل فى الحياة » ، على اختلاف العمر . ومن المستحيل تقدير الفرق فى نسبة الوفيات عند اليونانيين وعندنا اليوم ، ولكن من المحتمل ألا نكون قد تعدينا الحد إذا قلنا أنها كانت فى وقت السلم مثل نسبة الوفيات فى تركيا أو روسيا اليوم ، أى أنها كانت تقريباً ضعف النسبة فى المملكة المتحدة الآن . وفى عبارة مشهورة يلوم بوليب يونانى عصره رفضهم تربية أكثر من ابن أو ابنين ، وبهذا لا يتركون رصيداً للحرب أو المرض ، كما أنهم يعملون على انقراض عائلاتهم . وواضح جداً هنا أنه يعتبر الموت قبل سن الزواج مصادفة محتملة حتى بين الأطفال الذين اختيروا قصداً للحياة . ومن الخطر أن نستنتج من عبارات متفرقة أو من مجرد التأثير العام ، إلا أنه جدير بالملاحظة كثرة الإشارات

= التى يمكن قبولها أنظر هامش ٢٠٣ ، فيماسبق . وفى ميناندر ، Epitrepontes ، ٥٤٨ ــ ٥٥٠ ، فقرة جيدة تظهر الفكرة المشهورة عن الأرقام المحددة ، حيث يتكلم شخص عن العالم كما لو كان مكونا من ألف مدينة ، تحوى كل منها ٣٠٠ ألف من السكان . أما فيما يخص الافتراض المعروف القائل بأن عدد سكان الدول يجب أن يكون بقدر إنتاجها الغذائى ، أنظر هيرودوت ، ١ — ٦٦ (قارن به إجزينوفون . Pol. Lac ، ١ — ١ ، الذى يوضح كيف أن اقتصاديات اسبرطة كانت خرقاء كسياستها) ، هيرودوت ١ — ١٣٦ ، اجزينوفون ، .Hell ، ٥ — ٢ — ١٦ ، وهى فقرة من أهم الفقرات من عدة وجوه (ذلك مثلا : للضوء الذى تضفيه على حياة الفنادق فى اليونان) ، بوليب ، ٢ — ١٥ — ٤ إلى ٧ . « إن سهل لومبارديا غنى إلى حد أنك لا تحتاج أن تساوم فى ثمن الطعام فى الفنادق . ومن ذلك يمكنك أن تحكم (١) كيف كان السكان آهلا بالسكان ، (٢) وأى رجال أذكياء ضخام يأتون بهم ، (٣) وكم كانوا يحسنون الحرب » .

فى الأدب الإغريقى إلى ما اعتبره اليونانيون دائماً أكثر ما فى حياتهم إثارة للشجون ، وهو انتزاع الحياة فى شرخ الصبا وذروة الجمال . فاليونانيون ، كما نعرفهم ، كانوا جنسا قويا سليم الصحة ، ولكننا قد ننسى الاختبار القاسى الذى ساعدهم على أن يكونوا كذلك(١) .

والسبب الثانى الذى يجب ألا نغفله هو انتشار الحروب . فالحرب كما قيل من قبل ، طريقة لعملية اختيار معكوس ، فهى تقتل خير الناس وتبقى على الأفل صلاحية . ولقد كانت المدن اليونانية فى حرب باستمرار ، ولذا كانوا دائماً بحاجة لسد النقص فى صفوفهم . وصحيح أن نسبة الوفيات فى العمليات الحربية العادية لم تكن عالية ، ولكن من وقت لآخر تنشأ ظروف تكون فيها النتيجة أشد وأخطر من المعتاد ، وذلك عند ما يشتد حنق المحاربين وغضبهم ، ويغدو القتال قتالا حتى الموت . من هذه الحروب مثلا ، الحرب التى يحدثنا عنها هيرودوت أنها كانت بين الاسبرطيين وأهل أرجوس عندما حاصرهم كليومنيز فى غابة مقدسة ، وأبادهم حرقاً ، تاركا أرجوس خلوا من الرجال ، « حتى أن عبيـــدهم أخذوا يحكمون البلاد ، ويديرون أمورها ، حتى كبر أولاد هؤلاء الناس الصرعى » . فالدول اليونانية كانت معرضة دائما لفرص فجائية من هذا الاستفزاز . وقد كان جزءاً من الواجب الوطنى أن يستعد لمثل هذه الأحداث . وقد كان هدف المواطن اليونانى الثابت الذى يتفق كما رأينا ، والتقاليد القبلية العتيقة المتأصلة فى نفسه إلى حد بعيد ، أن لا تقصر أية عائلة فى أعطاء نصيبها من الأنفس للدولة ، فإذا حدث بعض النقص المؤقت فعلى الآباء « الذين لا يزالون فى سن مناسبة الاحتفاظ بشجاعتهم على أمل إنجاب غيرهم ، إذ أن » (ولنستمع إلى

(١) بوليب : ٣٦ — ١٧ — ٧ . قارن مايرز Greek Lands and the Greek People ، س ٢٠ ، الذى يوضح كيف أنه « ما زال فى مثل هذه الأماكن الفنية بشكل واضح ، رقابة فيزيقية فعالة إلى حد أنها تجعل الأقلم عسيرا جدا وبطيئا » . وعلى ذلك فالعنصر الدخيل ، مثل أغلبية دول المدن اليونانية لابد أن كان معرضا إلى اختبار قاس مصدره عوامل الجو وغيرها . والملاريا التى تهد قوى الإنسان أكثر مما تقتله ، ليس لها أهمية فى العصر الذى نحن بصدده .

الاقتصادى الذى لا يعرف رأفة) ، الأطفال الجدد سيساعدونكم على أن تنسوا الفراغ الذى حدث فى دائرتكم ، ويساعدون الدولة على ملء الثغرات التى حدثت فى صفوف عمالها وجنودها »[1] .

إلى هنا عالجنا السببين اللذين ليس للسياسى أو المواطن سلطان عليهما ، وسنتناول الآن السببين الآخرين اللذين يدخل اختصاصهما فى مقدورهم .

وأول هذين السببين ليس بحاجة إلى تفصيل . وهو التخلص من زيادة عدد السكان بإقامة مستعمرات خارجية . ولقد سبق أن أشرنا إلى الاستعمار من حيث هو وسيلة اتخذت لتخفيف ضغط السكان فى القرنين الثامن والسابع . وكل ما يجب علينا أن نضيفه هنا ، هو أن وسيلة الاستيطان فى الخارج هذه ، بقيت دائماً طوال تاريخ الدولة المدينة علاجاً ممكناً عند الحاجة . وسيل الهجرة الذى حبذته الدولة لم ينقطع تماماً . فلم يمض عصر دون أن ترسل فيه البعثات من أول اندفاع الملاحين القدماء ، حتى حركة إحياء الرغبة فى الاستعمار ، تلك الحركة الكبرى التى أوحى بها الأسكندر المقدونى .

ولنترك ذلك ونمضى إلى بحث جملة أسباب يمكن أن تعرض إجمالا بعنوان عام ، تجنب الموت بين الأطفال . وهو موضوع صعب ولكن إذا أردنا أن نفهم الحضارة اليونانية يجب أن نهرب من الدليل ، بل يجب أن نعمل على وضعه الصحيح بالنسبة إلى سائر مظاهر الحياة فى الدولة المدينة . ليس من السهل على المعجبين باليونانيين أن يسلموا بأن اليونانيين نظرياً وعملياً كانوا يوافقون على القيود التى كانت تفرض فرضاً على تزايد عدد السكان . ومع ذلك فإن الدلائل تثبت لنا أن هذه كانت فعلا هى الحالة . فإذا ما ولد مولود ، فطبقاً لعادة متبعة فى أنحاء اليونان ، كان يتوقف على حكم أبيه ما إذا كان ينبغى أن يعيش . وقد ظل ذلك على الأقل حتى القرن الرابع

(١) توكيديدس ، ٢ — ٤٤ — ٣ ، ثم هيرودوت ، ٦ — ٨٢ إلى ٨٣ ، ثم توكيديدس ، ٣ — ٧٣ (وهى وسيلة شبيهة إلى حد ما) . أنظر هيرودوت ٦ — ٢٧ ، ثم توكيديدس ٧ — ٢٩ (مصيبتان كبيرتان حلتا بأطفال المدارس ، والخسارة التى لحقت الدولة من جراء ذلك) .

حسب ما وصل إليه علمنا . وفى اليوم الخامس من مولدهم على الأكثر ، يقدم المولودون الجدد إلى الأسرة ، حيث يحتفل بقبولهم فى عضويتها . وحتى يقام هذا الاحتفال ، للأب الحق الكامل فى اختيار الحياة أو الموت لطفله . وزيادة على ذلك يبدو أن هذا الحق كان يمارس فى كثير من الأحوال ولا سيما بإزاء البنات . لأن تدبير أمر صداقهن كان يشغل فكر الأب « اليونانى » ، أليس الأسهل عليه أن يتجنب ذلك ويتذرع منذ البداية بعجزه ؟ وعندما يتقرر أن لا « يعال » الأطفال ، فينبغى وضعهم فى مهد أو قدر ، كما هو الغالب ، ثم يوضعون فى مكان عام . وكانت الأم المسكينة تأمل عبثاً بلا شك مثل « كروسا » فى « إيون » (Ion) ، أن تأخذ أحد المواطنين الرحماء الشفقة بوليدها . وإنه لأمر غريب بل ومروع ، أن تتصور أنه قد يعترض سبيلك فى يوم بإحدى مدن اليونان طفل « معروض فى جرة » ، كما يسميهم الأثينيون ، ملق فى ركن من أركان السوق ، أو بجانب أرض المصارعة أو عند مدخل معبد ، أو فى كهف مقدس . وقد ترى جارية تتطلع حول المكان هلعة لترى إن كان ما زال ممكنا إنقاذ الطفل ، أو راجعة تجرى حاملة الأنباء إلى أمه الصغيرة الكسيرة القلب . إذ رغم أن هذه عادة وحشية دفعت إليها ، إن لم تكن فرضتها ، ضرورة وحشية قاسية ، فإن اليونانيين الذين أخذوا بها ظلوا مع ذلك متمدينين رجالا ونساء . وهذا نص خطاب خاص كتبه زوج يونانى عثر عليه أخيراً . « أرجو بل أتوسل إليك أن تعتنى بالطفل الصغير ، وحالما نتسلم أجورنا أرسلها إليك . وإذا وضعت — وإنى لأرجو لك حظاً سعيداً — وكان المولود ذكراً دعيه يعيش وإن كان بنتاً فعرضيها للموت » . وزيادة على ذلك فللأثينى كراهية تقليدية للقسوة والعنف ، وكان يتدخل إذا ما استطاع فى جانب من لا سند له . فإذا ما وافق على ممارسة هذا الحق الذى اختص به منذ زمن قديم بشأن أولاده ، فإنما يفعل ذلك بأسف بالغ ، من أجل مدينته وأطفاله الآخرين ، فذلك أكثر رحمة فى النهاية . وليس لنا أن نلقى عليه ،

أو على أحد من أقرانه أى لوم . فقد كانوا فريسة قسوة المجتمع مثل آلاف الأمهات العاملات اللاتى يرغمن فى عصرنا هذا على إهمال أولادهن ، ومثل آلاف من الآباء والأمهات الغربيين الذين ، صواباً أم خطأ ، يفضلون الأسرة القليلة العدد . فالطبيعة والمجتمع يفرضان واجبات قاسية ، وليس للمؤرخ أن يحكم ، وإنما واجبه أن يفهم ، ويشفق[1] .

---

(١) Oxyrhynchus Papyri ، الجزء الرابع ص ٢٤٣ وما بعدها ، الذى أعيد طبعه بنصه فى مجموعة مليجان النافعة ، Selections from the Greek Papyri . وكان الكاتب فى عمل بالخارج بعيدا عن بيته : التاريخ ١٧ يونيه عام ١ ق. م. أنظر التفاصيل الخاصة بمصر دولة المدينة فى دارمبرج وساجليو مقال ، Infanticidium, Expositio لجلوتز ، الذى أعاد كتابته (مع مراجع أقل) لمؤلفه ، Études sociales et juridiques . وعلى أية حال ، لقد أوردت فيما يلى باقتضاب ، وجهة نظره من حيث مدى سريان العادة . فيقول (Études ص ١٨٨ — ١٨٩) ، « حينما نلاحظ أحوال اليونان ، تمكننا مصادرنا أن نتتبع أثر هذه العادة القاتلة » حتى فى أثينا فى القرن الخامس التى كانت تستطيع أكثر من معظم الولايات أن تقدم مثونة أكبر لشعب متزايد . « ويعتبر أرسطوفانيز مثلا ، دليلا له قيمته ، عندما يتحدث عرضا عنها فى صوت هادىء متزن على أنها شىء طبيعى » . والإشارة هنا إلى الضفادع ١١٩٠ ، والسحب ٥٣١ . إن مسرحيات ميناندر التى يجب بالطبع ألا تعتبر دليلا على القرن الرابع ، تتناول كثيرا هذا الموضوع (أنظر Four Plays of Menander التى طبعها كابس (Capps) ، نيويورك ١٩١٠) ، فمثلا فى منظر من مناظر الـ Epitrepontes تدور مناقشة طويلة حول هل إذا عثر رجل على طفل ملقى فى الطريق ، ثم أعطاه لآخر يربيه ، فهل له حق فى الهدايا (γνωρίσματα) التى وضعت مع الطفل (συνεκτιθέμενα) . وبالرغم من كثرة المسرحيات التى يكون فيها دور الأطفال الملقاة ومعهم هداياهم ، يرى جلوتز أن نسبة هؤلاء الأطفال ، التى وصلت إلينا أنباؤها ، قليلة جدا . فتربية مثل هؤلاء الأطفال كبيرة التكاليف ، وأرخص منها شراء عبيد كبار من الخارج . وزيادة على ذلك إذا تصادف وعرف آباء هؤلاء الأطفال ، فالقانون يحتم أن يردوا إليهم ، وبذا كانوا ملكية غير ثابتة . وتوكر (Tucker) فى مؤلفه ، Life in Ancient Athe s (وهو كتيب رائع عن الحياة الأثينية كتب بأسلوب سهل) متفائل جدا فى هذه النقطة (ص ١١٨) . أنظر ڤيلاموڤيتز ، Staat und Gesellschaft ، ص ٣٥ . إن القانون الوحيد المعروف الذى صدر ضد « تعريض » الأطفال فى طيبة ربما يكون قد صدر فى تاريخ متأخر ، وليس الحافز على سنه الإنسانية ، وإنما قصد به الوقاية من خطر نقص عدد السكان . أنظر اليان (Aelian) ، V. H. ، ٢ — ٧ ، ثم قارن بوليب ٣٦ — ١٧ — ٥ إلى ٨ (الذى أشرنا إليه فيما سبق ص ٣٩٤) . وفى اسبرطة ، كان الأطفال معرضين لمحنة مزدوجة ، فكانت الدولة تعمل على التخلص من بعض الأطفال الذين احتفظ بهم أهلهم . وكما هو المنتظر نرى أن أفلاطون وأرسطو ، بما جبلت عليه طبيعتهما من قسوة معتادة نحو الفرد ، قد وافقا وأثنيا على تطبيق هذا الإجراء أو ما يعادله . فهما يستندان إلى ضرورة تحسين النسل ، لتدعيم =

إلى هنا لم نعالج سوى مسألة العدد ، ولقد رأينا أن الدولة اضطرت إلى الاحتفاظ بعدد سكانها ثابتا ، أو تقريبا كذلك . كما درسنا نوعى القيود « الأوتوماتيكى » والموضوع قصداً ، اللذين كانا يعملان على مقاومة قانون ازدياد السكان الطبيعى . ولكن بحثنا قد حملنا إلى الشطر الثانى من موضوعنا ، أى إلى الكيف إذا ما قورن بالكم .

فهذه القيود التى أتينا على ذكرها لم تنق الحياة دون تمييز . لقد مورست وفق مبدأ ما للاختيار ، وإن كان ذلك على غير أساس علمى . فالساسة اليونانيون الذين سلموا بعمل هذه القيود لم يقصدوا إلى مجرد عدد ثابت ، بل رغبوا فى إيجاد جنس صالح . ويقول أيزوقراط فى سياق مرثية له « إنه شىء نادر وصعب ، أن يكون للإنسان عائلة كبيرة ، هى فى نفس الوقت عائلة نابهة . ولكن هذا الرجل قد حقق ذلك » . فالفكرة التى ينطوى عليها خطاب المتكلم واضحة . فكلما كثر عددما يأتى به الرجل من أولاد ، كان ذلك أفضل ، ولكن يجب أن يكونوا جميعا أطفالا نابهين جديرين بمدينتهم التى سيكونون مواطنين فيها ، بل وجديرين بالجنس اليونانى كله . وعلى هذا تخلص الأب اليونانى من كل من كان كسيحا مشوها ، أو من كان رقيقاً أكثر مما يجب ، إلا فى حالات قليلة مواتية . وهكذا تخلصت الجماعة اليونانية بسهولة من مسئولياتها نحو هؤلاء الذين يكونون اليوم مشكلة من أخطر المشاكل فى حياتنا الاجتماعية . فالمدينة اليونانية كانت وطن صحاح الأجسام فالضعف والعلة لا يجدان مدخلا سهلا إليها ، وإذا حدث ومثلا فيها فلن

= السياسة والاقتصاد (أفلاطون . الجمهورية ، ٤٥٩ وما بعدها ، ثم أرسطو « السياسة » ١٣٣٥ ب ٢٣) . وقد أيدا الإجهاض « وتمريض » الأطفال فى حالات خاصة ، ولكنهما لم يعالجا منع النسل . ومن المؤكد أن أطفال الرقيق كانت لهم فرص أقل ثباتا من فرص الأطفال الأحرار ، إذ أن من الأسهل دائماً أن يشترى الإنسان عبدا ، بدلا من القيام على تربيته ، كما وضح ذلك كيرنس (Cairnes) فى (Slave — power ، ص ١٢١ وما بعدها) . أنظر إجزينوفون ، .Oec ، ٩ — ٥ ثم [أرسطو] ، .Oec ، ١٣٤٤ ب ١٧ . وكلا الكاتبين يؤيد وجوب السماح للعبيد بإنجاب الأطفال مكافأة لهم ، وتشجيعاً على سلوكهم الطيب . (أنظر التذييل) .

يؤثرا فى الحالة العامة . وإن روحا من الشدة ، بل من القسوة لتسود الحياة كلها فى اليونان ، كما فى جامعة داخلية حديثة . فالصحة السليمة والقوة الجسمانية تحيط بنا سواء فى الأحياء أو « الرخام » . « بينما يبدو أنه لم يكن للعواطف الرقيقة وجود إلى حد ما ، لا بمجرد السكون والحنو اللذان فى غرفة المريض ، ولكن مراعاة شعور الغير والمشاركة الوجدانية اليومية اللذين هما النتيجة الطبيعية للاختلاط الدائم بين القوى والضعيف . وقد اعتدنا أن نعد أفرادنا كما كان يفعل كل يونانى، على أساس المحاربين منهم ، مغفلين باقى السكان من شيوخ ونساء وأطفال ، باعتبار أن لافائدة منهم . فقد رأى إخصائيو المدينة فى الإحصاء أن المجتمع كما نعرفه ، إنما واضح للغاية، أنه يقوم على القوة قبل كل شىء ، فماذا يمكن أن يفعل هذا الجمع الذى لا فائدة منه ، عندما يكون العدو على الأبواب ، كما قد يحدث فى أى فصل من فصول السنة ؟ ويقول توكيديدس : « إن المدينة قوامها الرجال ، لا أسوار وسفن لم تزود بهم » ويمكننا أن نضيف إلى قوله معبرين عن أفكاره التى لم يعبر هو عنها : وليس عماد المدينة النساء أيضا ، فأى فائدة منهن فى مثل هذه الأزمات ، إلا القليل منهن للقيام بطهى الطعام ؟[1]

هكذا كانت الدنيا التى يولد فيها الطفل اليونانى ، والتى من أجلها كان على الأبوين تقرير صلاحيته لها بقلق زائد . فهل نعجب إذن أن تكون فرص البقاء للولد أكثر منها للبنت ؟ فإذا كان للاختيار من نتيجة مهما كانت ضيقة المدى ، فالنتيجة التى لا مفر منها أنه رجح إلى جانب واحد ، التوازن

---

(١) أيزوقراط ، ٩ — ٧٢ ثم توكيديدس ، ٧ — ٧٧ — ٧ و٢ — ٧٨ — ٠٣ لما رحل ، « جمهور » غير المحاربين « الذين لا جدوى منهم » ، من بلاتيا (Plataea) قبل الحصار ، تركت ١١٠ امرأة ليقمن بإعداد الطعام لأربعمائة من الرجال . أما فيما يخص المقارنة بين المدينة اليونانية والجامعة الحديثة الداخلية فانظر الفقرة البديعة فى لفنجستون (Livingstone) فى مؤلفه ، The Greek Genius and its Meaning to Us (١٩١٢) ، ص ١٣٧ . إلا أن أكسفورد وكمبردج ليستا إلا مدرستين نهائيتين يعد فيهما الشباب للحياة وليستا الحياة نفسها ، كالمدينة اليونانية . إن النظام الجامعى الحقيق لا يزال فى دور التكوين .

الطبيعي بين تعداد الجنسين ويكمن كما نعلم اليوم ، فى انحراف الميزان بفعل تأثير مستمر ثابت ، مهما يكن طفيفا ، نتائج خطيرة اجتماعية وخلقية . فلنتتبعها فى اليونان القديمة لأنها تمت إلى موضوعنا بسبب قريب [١] .

يتضح مما لدينا من الأدلة ، أن عدد البنين فى المدينة اليونانية العادية ، كان دائما أكبر من عدد البنات من سكانها المواطنين . وكان عدد الرجال الذين فى سن الزواج دائما — أو تقريبا — أكثر من عدد البنات اللاتى فى هذه السن ، إلا عقب الحروب الطاحنة . وبعبارة أخرى كان عدد الأزواج أكثر من اللازم . وعلى ذلك فالبنات كن يربين على أمل حق فى الزواج ، وأغلبهن تزوجن فعلا ، وإن أردت الحق كن يتزوجن فى سن مبكرة جدا . فسن الخامسة عشرة لم تكن إلا سنا مألوفة . وفى الحقيقة إن قليلا جداً من بنات المواطنين بقين دون زواج . فأنتيجون وكذا إليكترا التى يعنى اسمها العانس ، يجعلاننا نحس مأساة الوحدة للمرأة المستقلة فى نظر رجل أثينى صادق مثل سوفوكليس . وفى الحقيقة لم يكن لهن قط أى استقلال فعلى . إذ لأغراض قانونية ظلت المرأة فى أثينا ، على أية حال ، فى حماية الرجل . وإذا تكلمنا من الوجهة العملية فلم يكن للمرأة المواطنة غير الزواج . ولنبحث النتائج الاجتماعية التى تنجم عن مثل هذه الحقيقة البسيطة ، على أسلوب وطابع الحياة اليونانية الخاص [٢] .

ونساء عالم الدولة المدينة ، كالرجال ، لم يعرفن شيئاً عما لهن ، وإنما عرفن فقط ما عليهن ، وقبلن بالرضى والانشراح الواجبات التى فرضتها المدينة عليهن . وأول هذه الواجبات وأعظمها « الإبقاء على الأسرة » بإنجاب الأطفال لخدمة الدولة . فالرجال يخرجون للعمل والحرب ، ليخلقوا

---

(١) لنأخذ ثلاث عائلات يونانية عادية تصادف أننا نعرف شيئا عنها . كيمون وبركليس وسقراط لجميعهم أنجبوا ثلاثة ذكور ، وواضح أنهم لم ينجبوا بناتا .

(٢) كانت إلبينيس (Elpinice) أخت كيمون تعتبر مثلا لطبقة النساء المواطنات ، اللواتى اشتهرن بتفكيرهن المستقل . ومع ذلك فهى لم تظل بدون زواج ، ولكنها تزوجت فقط استثناء فى سن متأخرة . فسن الرابعة عشرة هى السن المعتادة التى فيها يتزوج البنات فى الأقاليم اليونانية فى عصرنا هذا .

الثروات المادية للمدينة ، ويدافعوا عنها ومن أجلها . أما النساء فيبقين في المنزل يخلقن ويرعين أندر وأصدق مصدر للثروة . وكن يلقين كل عناية ومحافظة عليهن ، في حمى البيت الأمين الوادع . وكن يحطن بالرعاية كأثمن الممتلكات حتى لا يمسهن أي تأثير من العالم الخارجي . ولكننا عندما يأخذنا الضحك من الزوج اليوناني وتشدده في مطالبة زوجته بالسلوك اللائق بحق الزوجية ، فإنا ننسى أحياناً ما كان عليه مجتمع الرجال الذي عاش فيه ، من طيش واستهتار وسرعة انفعال . فحيث لم يتعلم الرجل بعد ضبط نفسه ومقاومة طيشه الطبيعي ، ينبغي ألا ننتظر منه أن يعطي زوجته مسئوليات الحرية . فالزوجات والأمهات اليونانيات عشن في منازلهن الصغيرة هادئات منعزلات . ولم يتحدثن إلينا خلال تلك العصور لأنهن لم يكن على علم بالبيان ولا دراية لهن بالقلم . إلا أن الشعراء والفنانين تكلموا عنهن . ولندع واحداً ممن فهموا رسالتهن يحدثنا عنهن .

يقول ڤيلاموڤيتز «إن يوم عرس الفتاة اليونانية كان في الحقيقة أكبر عيدلها في حياتها . فهي تتزوج في سن مبكرة جدا حتى أن المشاعر التي تحرك اليوم الفتاة عند تعميدها ، بما أنها طبيعية وعن حق ، كانت تجتمع بتلك التي تصحب الزواج . لقد انتهى وقت الحرية واللعب. فتحضر دميتها وكرتها إلى أرتميس (Artemis) التي كانت ترعى طفولتها . إنها تواجه الآن عهد جد وعمل وإنكار للذات . فتنتقل من منزل آبائها ومعها خادمة أمينة مخلصة لتقوم بتدريبها ، بينما تنحل سائر الروابط الأخرى . فلن تصنع الأكاليل بعد ذلك للمذبح أمام البيت القديم ، ولن تحمل أبداً القرابين لأجدادها ، إلى المقابر عند ظهور الهلال الجديد ، ولن ترقص بعد الآن مع أترابها ، أو تحمل سلة الآلهة في الموكب الكبير ، بل ستكون تحت رعاية آلهة أخرى من آلهة المنزل ، وستحمل القرابين إلى قبور أخرى . وستبتهل إلى أرتميس لا لهوا ، وإنما في ألم مرير ، وستجلس في عقر البيت كما كانت تجلس أمها الطيبة تدير عجلة العمل وتأمر الخادمات ، تعمل وتدبر ، وتهب في المساء

ملأى بالسرور والرغبة فى العمل ، تستقبل زوجها وسيدها عندما يعود »[١].

والذين يدرسون الحياة اليونانية كثيراً ما يعجبون ، لا سيما فى هذه الأيام الأخيرة ، لماذا عندما كان العالم من حولهم يجيش بالتعبير الذاتى ، بقيت المرأة وحدها فى عصر اليونان الزاهر فى عزلة بعيدة عن الحياة الجديدة ؟ لهذا هنا جواب واحد على الأقل . ففى تراث أثينا ماهو قديم وآخر حديث . ويقوم الكثير من عظمتها كما رأينا عند دراستنا حقوق المواطنين على تبجيل وتعزيز بعضا من قواها الاجتماعية المسرفة فى المحافظة ، ومن بين هذه الأشياء كان للزوجة والأم ، زميلة الرجل فى بيته ، وشريكته فى الاضطلاع بشئون الأسرة أو فى نصيب . فأثينا كانت تقدر زوجاتها وأمهاتها وتعظمهن كما نرى ذلك فى مئات الدلائل . وهى تكرم وتقدر فيهن الصفات نفسها التى تكرمها وتقدرها فى الرجال ، مثل ضبط النفس والإيثار والشجاعة والدماثة. وإنا لنستطيع أيضاً أن نجلهن أكثر من الإشفاق عليهن . فإذا ما نأينا بأنفسنا عن تطاحن الصراع الاجتماعى اليوم ، ورجعنا إلى الأم والزوجة اليونانية كما صورت لنا بين المناظر التى تصور حياتها اليومية ، على شواهد المقابر والأوانى ، شعرنا بالفطرة نحن الحديثين ، إنه ولو أن هذه الأشخاص الوقورة الرقيقة ، كان ينقصها المعرفة والحرية وبعض عناصر الكرامة الإنسانية ، إلا أنهن كن مع ذلك نفوساً رقيقة نبيلة جديرة بمدينتهن وجنسهن .

وإذا كنا مخلصين لأنفسنا وللدلائل ، نحس أنه لا يزال أمامنا الكثير ليقال . فرجال أثينا قد أدوا أعمالهم وكانوا سعداء راضين ما دامت المدينة مزدهرة سعيدة ، وكذلك قامت نساء أثينا بأعمالهن أيضاً . ولكن عملهن يجعلهن سعيدات تماما ، لأنهن شعرن شعورا غامضاً غير واضح فى البداية ، ثم سرعان ما تبين بعد ذلك بجلاء ، أن ليس فى عملهن هذا حرية كاملة .

---

(١) فيلاموفيتز ، Hippolytus ، (الترجمة) صفحات ١٠ — ١١ . ثم أنظر أرسطو ، Lys. ، ص ٦٤١ وما بعدها .

فهذه الخدمة لا ترضى كل أما نيهن وغرائزهن الطبيعية . ولذا ، وكما رأينا ، بينما كانت سنو عظمة أثينا أسعد فترات رجالها فى كل تاريخ العالم ، كانت النساء اللواتى يعملن بجانبهن غير مستقرات ومبلبلات الفكر . كان هناك خطأ ما . ولكن لاهن ، ولا الرجال ، أمكنهم أن يضعوا أيديهم على موطن العلة . وقد كتب أحد الباحثين الأذكياء اللامعين الدارسين للحياة اليونانية يقول ، « فى كل نقطة يمكن أن نختبرها و نفحصها ،كان الرأى فى اليونان غير مستقر بالنسبة لمركز المرأة الصحيح فى مجتمع متمدين » . ولسنا بحاجة إلى أرسطوفانيز ليؤكد لنا بأحدث فكاهاته صدق هذا الحكم على أثينا فى القرن الخامس . فهو مكتوب بشكل واضح للجميع ، فى كل مؤلفات يوريبيدس من « هيبوليتوس » ، « وهرقليداى » ، إلى الاستفزاز الثورى فى «باخاى» . فالنساء كن يشعرن أنهن أيضاً نفوس يونانية حرة . فهن أيضاً خدمن المدينة وأعطينها الرجال الذين كانت فى حاجة إليهم . وهن أيضا يبذلن عند الضرورة أرواحهن فى سبيل المدينة . وقد سئمن سماع القصة التقليدية عن ضعف المرأة ومركزها الثانوى . وكن مغيظات حانقات من أنهن حبيسات المنازل كأفراد أقل قيمة من الرجال ، بعيدات عن أروع نواحى الحياة فى المدينة . فلسن بعيدات ، فقط عن النشاط فى الأعمال العامة ، ولكنهن بعيدات كذلك عن مجال المرح والثقافة ، وعن موسيقى المدينة وشعرها ومناقشاتها . وفى الربع الأخير من القرن الخامس شهدت أثينا بداية حركة تحرير المرأة التى باستحواذها على قلب أفلاطون أكبر المحافظين ، تركت أثرا لا يفنى فى أدب العالم . ومع ذلك فإن يوريبيدس ، لا أفلاطون ، هو الذى كان أصدق مشاعرا ، وأكثر المفكرين إخلاصا لقضيتهن . فلنسمع إلى صيحة الحرب من نسائه المتألمات ، تلك الصيحة التى تقع فى الآذان الحديثة التى اعتادت مثل هذا النشاز ، فتهزها ذكريات غريبة عن الماضى .

تتراجع الأمواج على النهر الدائم الجريان :

الحياة ، الحياة تغيرت وقوانينها وطئت ،

سيغدو الرجل هو الخاضع ، الجزع ، الكائن الضعيف !
لقد نسى الرجل الإله .
والمرأة ، نعم المرأة ستكون فى التاريخ مرهوبة :
والقصص ، أراه أيضاً ، مخالفا لما كان عليه فى ماضى الأزمان .
فثم خوف من المرأة ، وثم مجد ونخار ،
لن تنالها أصوات الحقد البغيضة بعد لليوم !
سيصمت الشعراء القدماء ، وما بقى من ذكراهم
فى تلك العرائس الواهنة الجاحدة ، سينضب ، كما لو تأتى
عليها النيران .
إنهم لم يحبونا ، ولم يعرفونا ، فكانت شفاهنا صماء ،
وأصابعنا
لم تقو على استثارة سر القيثارة .
وإلا ، فيأيها الإله المغنى ، لقد تغنيت وسط العواصف
بقصة طويلة عن الرجل وأعماله ، عن حسناته وأخطائه .
ولكن العالم القديم يعلم — فهى حديثه عبر العصور —
أخطاء الرجل وأخطاءنا : إنه يعلم ومازال يعلم .(١)

---

(١) Medea. ، ص ٤١٠ وما بعدها ، (ترجمة مورى) . مايرز ، Anthropology and the Classics ، ص ١٥٤ ، أنظر أيضا برونز (Bruns) فى مؤلفه Frauenemancipation in Athen — ، (كيل ، ١٩٠٠) ، وقد أعيد طبعه فى Reden und Vorträge ، لنفس المؤلف ، وفيلاموفيتز ، هيرميس (Hermes) ، الجزء ٣٥ ، ص ٥٤٨ وقد أجمعوا على إظهار كم يبدو تفكير القرن الخامس الفلسفى جامدا من خلال هزليات أرسطوفانيز ومقالات أفلاطون عن المرأة . أنظر Medea ، ٢٥٠ ، فيما يخص مناقشة أن المرأة لا يمكن أن تموت من أجل وطنها ، الذى كان يجب أن تمنحه كل جهودها . فالنساء كن يدخلن المسرح حيث يجلسن كما يقول براونتج كل على شاكلته « فالطيبات مع الطيبات ، والمرحات مع المرحات » ، ولكن ليس من الضرورى أن يصطحبهن أزواجهن أو حراسهن . أنظر الشراح لأرسطو فيما يختص بالإكليزيا ٢٢ (قد وضع روثرفورد (Rutherford) مع ذلك جزءا منها بين قوسين : تاريخ القرار المذكور غير معروف) ، ثم Balaustion's Adventures ، وهى صحيحة من حيث موضعها العام صحتها فى تفاصيلها . وبالطبع كان النساء أيضا يشتركن فى الاحتفالات العامة ، والدليل على ذلك رسوم افريز البارثنون . وعن المشكلة العامة أنظر أيضا كتاب الرئيس دونالدسون ، Woman : her position and influence in Ancient Greece ad Rome and among the early Christians (١٩٠٧) وبه مراجع .

لقد انتقلنا بعض الوقت من عالم القرن السادس إلى أواخر القرن الخامس، أى من دولة المدينة العادية إلى عصر الامبراطورية الأثينية . ولكن هذا الاستطراد كان ضروريا لموضوعنا ، لأن عدم الاستقرار الذى كنا نتكلم عنه ، كان النتيجة الطبيعية لأسباب كانت تعمل فى صمت فى مجتمع الجيل السابق .

فما هى تلك الأسباب ؟ ما الذى جعل نساء القرن الخامس هؤلاء حاقدات كل هذا الحقد ؟ فهن لم يرهقن أو يكددن بالأعمال ، ولم يذقن مرارة تأثير الصناعة . فمن هم إذن سادتهن الذين يرهقونهن ؟ وما هى تلك « الأصوات القاسية الغاضبة » التى يتكلمن عنها ؟ لنرجع إلى المرثية ، فسيعطينا بركليس الجواب ، لأنه قد بين الروح التى كن يحاربنها فى شكلها الكلاسيكى بقوله : « فإذا كان لى أن أقول كلمة أيضا لأولئك اللاتى ترملن ، عن حقوق وواجبات النساء ، فسأضع نصيحتى فى جملة واحدة مختصرة . سيكون مجدكن عظيما إذا لم تقللن من مزايا كن الطبيعية ، فأعظمكن فخراً تلك التى ستكون سيرتها من مَدْح وذم أقل جريا على ألسنة الرجال » . فهذه الكلمات نفسها مؤلمة للمرأة ذات النفس الحساسة والعقل . ولكن إذا أردنا أن نحس كل قوتها فيجب أن نذكر الوقائع التى يقررها المتكلم . فالرجل الذى نادى بهذا المذهب بين شعب أثينا المجتمع ، كان فى ذلك الوقت عشيق أسبازيا المعروف ، وكانت أسبازيا من أمهر وأذكى نساء المجتمع الأثينى وأشهرهن ، وهى المرأة التى لم تكن موضع ثقة رجال السياسة وحدهم ، بل والفلاسفة كذلك . فكيف جاءت إذن هذه الكلمات على شفتى عشيقها ؟ وكيف حدث هذا التفاوت الغريب بين كلامه وفعله ؟ هذا هو السؤال الذى علينا الآن أن نحاول له جوابا . (١)

وتفسير ذلك أنه كان فى أثينا فى عهد بركليس نوعان من النساء الأحرار .

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٤٥ — ٢ . فيما يخص أسبازيا ومركزها فى المجتمع بصفتها امرأة مفكرة ، أنظر ماير ، Forschungen ، الجزء الثانى ، ص ٥٥ — ٥٦ (الذى يعارض ڤيلاموڤيتز ، A. A. ، الجزء الثانى ، ص ٩٩) ، ثم اجزينوفون ، Mem. ، ٢-٦-٣٦ .

أحدهما النساء اللواتى وجه إليهن بركليس كلامه ، وهن أزواج المواطنين وأمهاتهم ، والآخر النساء الأجنبيات المولد مثل أسبازيا الملطية ، ووضعهن فى وضع مختلف كل الاختلاف . وقد كان هذا التقسيم فى دور التكوين طيلة العصر الذى نحن بصدده : ويرجع أصله إلى هجرة الغرباء غير المقيدين بالمدينة ، التى كانت نتيجة حتمية لتحسن طرق المواصلات وزيادة التجارة . وقابلتهم أثينا فى أول الأمر بصدر رحب ، رجالا ونساء ، لأنها كانت تقدرهم كمحاربين وعمال ، فمنحت الرجال امتيازات عظيمة ، كما رأينا ، وكانت سياسة طبيعية أن تعطى النساء حقوقا كاملة كذلك للدخول فى حياة المدينة . ولما كان الكثيرات منهن قد جئن من أيونيا ، حيث الحياة أكثر حرية ، فقد أحدثن أثرا فى المجتمع الأثينى . وقد استغل بعض التقدميين منهم مالهم من حرية الاختيار ، واتخذوا زوجات أيونيات ويقول ماير : « كان هذا الزواج أمرا عاديا بين العائلات النبيلة بنوع خاص . فكثير من أبرز الشخصيات الأثينية ، مثل كليستنيز وثيميستوكليز وكيمون وأبناؤه من زوجته الأولى ، كانوا أبناء أمهات أجنبيات . فأثينا كانت تتقدم بخطى واسعة نحو فكرة عن المجتمع والمواطنين ، تحطمت بها كل التقاليد القديمة التى كانت سائدة فى حياة دولة المدينة . وهى وقد قبلت الأجانب فى الكورة وفى المدينة ، قبلت الآن الأجنبيات حتى فى أضيق دائرة فى الحياة العائلية الخاصة (١) .

ولكن هنا صاح الشعب أن قفوا ، لأنهم لم يكونوا قد استعـــدوا بعد لهذا التحرر الذى لا يعدو أن يكون انتهاكا لحرمة المقدسات القديمة فى الحياة القبلية . فاتخاذ زوجة أجنبية بدا كفرا ، وخروجا خطراً على التقاليد . وفى عام ٤٥١ وجد هذا الاعتقاد الغامض منفذا ومجالا ليعبر عن نفسه .

---

(١) ماير ، الجزء الرابع ، الفقرة ٣٩٢ . أنظر فيلاموفيتز ، Staat und Ges. ، ص ٤٠ ، الطبعة الثانية ، ص ٤١ ، فيما يخص كان اليونان بطيئين فى الأخذ بأن يكون الزواج (conubium) بعد المعاشرة (commercium) .

فقد سن قانون ينص على أن الأطفال الذين يولدون بعد هـذا التاريخ لا يستحق منهم حقوق المدينة ، غير الأطفال الذين من أباء أثينيين ، وأمهات أثينيات أيضاً . وبعد سبع سنوات من هذا التاريخ ، عندما أهدى أحد الحكام الأجانب كميات كبيرة من القمح إلى الشعب الأثيني ، جعل لهذا القانون أثراً رجعياً ، وشطبت أسماء كثير من المواطنين . ولم يكن أثر ذلك الإجراء على هؤلاء الذين ينطبق عليهم ذا بال . فقد ظل من ولد من زواج مختلط عضوا في الكورة ، كما كان يخدم كأجنبي في الجيش والأسطول ، ويتمتع بكامل الحرية في المجتمع الأثيني ، ولكن آثاره على المرأة الأجنبية كان كارثة لا علاج لها . فقد أصبحت منفصلة تماماً عن أختها الأثينيات ، مقصية عن مكانها الكريم في البيت اليوناني ، وانحطت إلى ما نسميه على التحديد محظية . وهكذا عاقت عقلية الديمقراطية الأثينية الحرة ، بنزوة شاذة من تلك النزوات العمياء التي قد تصاب بها شعوب عظيمة ، تقدم حركة قوية نحو تقوية روابط المدينة ، وإقامتها على أساس أوسع وأفضل ، وهي نفس الديمقراطية التي في نزوة جامدة كهذه ، ودفاعاً عن الأمور المقدسة عينها ، أودت بسقراط إلى الموت[١] .

---

(١) Ath. Pol. ٢٦، ٣ — ٤ ؛ ثم بلوتارخوس ، الفرس ، ٣٧ . فيما يخص معالجة وافية دقيقة للموضوع كله أنظر مولار في Untersuchungen zur Geschichte des attischen Bürger-und Eherechts ، الملحق ، ٢٥ Fleckeisen's Jahrbücher ، ١٨٩٩ ، حيث يبرز المؤلف الشعور الديني الذي أثارته هـذه المواضيع ، وهو ما يمكن تنبيه « كالخيط الأحمر » ، في كل التعديلات التي أدخلت على القانون الأثيني المتصل بهذا الموضوع (ص ٧٤٢) : فلم يكن مجرد العزلة السياسية (كما قيل عادة) ، بل الشعور الديني كذلك هو المسئول عن تحديد حقوق المواطنين عام ٤٥١ . لقد أدى القانون إلى الاعتراف « بزواج شرعي ثان معترف به بين الرجل والمرأة » سماه مولر (ص ٧١٠) « الزواج الأعسر » . فزوجة « اليد اليسرى » تقف في الوسط من حيث الاعتبار الاجتماعي بين γυνή أو أم المواطنين ، والشريكة ἑταίρα ، ولكن القانون القديم قد اعترف فقط بنوعين من النساء اللائي يمكن للرجل معاشرتهن هما الزوجات والخليلات (παλλακαί) ، وهكذا عرفت « زوجة اليد اليسرى » بالاسم الغير معبر تماما « خليلة لإنجاب أبناء أحرار » (παλλακὴ ἣν ἂν ἐπ' ἐλευθέροις =

وهنا عند هذا الحاجز العظيم ، الذى يفصل بين قسمين من النساء ، والذى زاده قوة ودواماً قرار عام ٤٥١ ، وصلنا إلى سبب من أقوى الأسباب لعدم الاستقرار الذى كنا نتكلم عنه . فكل من هذين القسمين يحتاج إلى الآخر ليستمد منه القوة والشجاعة والزمالة ، وذلك العون الذى يأتى من اختلاف التجارب ، واتحاد الطبائع المتباينة . فقد جر التفريق بينهما ، الذى دفع إليه عادة قاسية ، ابتدعها الرجال أو أيدوها على الأقل ، تعاسة الفريقين لأنه ذهب باحترامهما الذاتى .

فكيف تسنى للديمقراطية أن تحافظ على مثل هذا الحد الفاصل ؟ وما الذى فصل هاتين المجموعتين بعضهما عن بعض ، لا من الناحية القانونية فقط ، ولكن من الناحية الواقعية أيضاً ؟ وهنا نرجع مرة أخرى إلى النقطة التى ابتدأنا منها . وعلى أية حال ، فإن أحد أجوبة هذا السؤال اقتصادى . فبما أن النساء المواطنات كن أقل عدداً من الرجال ، فنادراً ما اضطرت إحداهن لكسب عيشها معتمدة على نفسها . والقليلات التى فعلن ذلك كان معظمهن أرامل . ولم تكن المرأة الأثينية فى حاجة إلى استقلال اقتصادى ، والنضال من أجل الاستقلال الاقتصادى ، كما نعلم ، هو غالباً الحافز إلى مطالب أكبر .

= (παισὶν ἔχῃ) ، ص ٧٢٩ — ٧٣٠ . أنظر .Dem ، ٥٩ — ١١٨ . ان أسپازيا التى تزوجها بركليس بعد عام ٤٥١ ، كانت « زوجة ثانية » من هذا النوع (مولار ، ص ٨١٤ ، ٨٢٣) . وقد خفف الحزب الأوليجارشى هذا القانون عام ٤١١ ، وهو الحزب الذى كان يشايع الزواج المختلط . وهذا تفسير لإشارة الضفادع ، ٤١٨ (عام ٤٠٥) إلى المواطن البالغ سبع سنوات الذى لم « يبلغ مرتبة الأخوة » بعد . قارن هذا بالطيور ، ١٦٤٩ وما بعدها (عام ٤١٤) . وقد أعيد العمل بهذا القانون مرة أخرى عام ٤٠٣ ، أعاده الزعماء الشعبيون أنفسهم الذين أعدموا سقراط . فيما يخص القداسة التى استبعدت عنها المرأة الأجنبية أنظر ديموستينيز ، ٥٩ — ٧٣ . وبعد الحملة الصقلية ، عندما تناقص عدد المواطنين ، حتى أن البنات اللاتى فى سن الزواج لم يجدن أزواجا ، سن قانون يبيح الزواج المزدوج . وقد تزوج سقراط زوجة ثانية بهذه الطريقة ، ومن المحتمل أن ذلك كان إلى حد بعيد لإغاظة Xanthippe . وقد كانت أرملة معدمة ، وابنة مواطن كامل يدعى ميرتو وحفيدة أرستيدس (مولار ، ٧٩٥ ، أنظر .Diog. Laert ، ٢ — ٢٦ و Athen ، ١٣ — ٢ ، ص ٥٥٥) . ويقال أن يوريبيدس قد فعل نفس الشىء . أنظر أيضا دونالدسن ص ٢١٣ .

ولما كانت الزوجة أو الأم الأثينية آمنة اقتصادياً ، فقد ظلت منعزلة لاصلة لها بأخواتها الأجنبيات المولد . وفى مجال الرجال ، كون المواطنون والأجانب مع خدامهم وتلاميذهم فى الصناعة وحدة اجتماعية متصادقة متجانسة . أما بالنسبة للنساء فلم يكن الأمر كذلك ، لأن حياتهن ونشاطهن كانا منفصلين بعضهما عن بعض ، وبذلك سارا فى اتجاهين مختلفين ، ربة البيت تحت وصاية الزوج ، أو أى رجل آخر قوام عليها ، والمرأة العاملة المعتمدة على نفسها ولها « وليها » كما يحتم القانون الأثينى ، ولكنها تحتفظ به لمناسبات خاصة ، كما نفعل نحن مع المحامين[1] .

ومن مجموعة نصوص أثينية ترجع للقرن الرابع أهداها بعض المعتقين والمعتقات ، نعرف بعض المهن التى احترفتها هؤلاء النساء العاملات . فثلاث وثلاثين امرأة محررة على الأقل وصفن بأنهن « عاملات نسيج الصوف » وهو وصف يعنى أعمال تحضير الصوف وغزله ونسجه . وهى عمليات تجرى

(١) فيما يخص حراس النساء « المتك» أنظر الضفادع ٥٦٩ — ٥٧٠ ، ثم ڤيلاموڤيتز ، Hermes ، الجزء ٢٢ ص ٢٢٣ . الأرامل : أرسطو ، ثيمستوكليس ، ٤٤٦ ، والإلياذة أيضا ، ١٢ — ٤٣٣ . وفيما يخص النساء الوطنيات الأصل كعاملات ، أنظر ديموستينيز ، ٥٧ — ٣١ — ٣٥ ، حيث يمكن أن يرى المرء الى أى حد كن شخصيات معروفة . وانظر أيضا إجزينوفون ، .Mem ، ٢ — ٧ ، خاصة فقرة ١٠ (التي ذكرت فى ص ٣١٩ فيما سبق) ، حيث يذكر مواطنا أثينيا قد انحدر إلى العوز ، لأنه كان يعول عددا من النساء من أقاربه ولم يخطر له مطلقا أن يدفعهن الى عمل نافع كما يفعل الإماء ليدفعن قيمة إعالتهن . قارن نفس هذه الفكرة البعيدة عن اللياقة عند الزراع الأمريكيين . « لقد تملك المزارع خوف حقيقى عند ما سمع عن تشغيل الإماء فى الولايات الشمالية لأغراض نافعة . انحدر توماس دابنى الى الفقر المدقع فى أخريات أيامه ، لإصراره على أن يدفع ديونا تسببت عن سوء نية آخر . إن هذه الصورة الموقرة لبطولة هذا الرجل العجوز وبناته ، بتخليهم عن راحة الحياة كما تركتهم الحرب ، لتوضح أنه مازال باقيا بعضا من الوهم (وتقول ابنته) إن طبيعة الشهامة فى أبيها كانت تنفر لمرأى امرأة تعمل عملا مضنيا ، ولم يكن ليقوى على تحمل معرفة أن بناته قد وقفن على حوض الغسيل . ولذا فقد كان يغسل الملابس بنفسه . وقد أبدأ ذلك وهو فى نهاية السبعين من عمره . لقد صيغ العقل البشرى صياغة عجيبة ، حتى أن من استخدم النساء راضيا طول حياته فى حرث قطنه دون مقابل — لا يستطيع أن يحتمل انهيار سيدة » . (پوتنام ، The Lady ، ٣٢١) .

كلها فى بيوتهن ، وطائفة أخرى توصف بأنهن نساء سوق أو بائعات تجزئة ، بل كان هناك أيضاً امرأة إسكافية . ولكن أهم وأشهر عمل أمام المرأة الأجنبية المولد فى مدينة يونانية ، هو أن تكون ما عرف باسم « الخليلة » . فإن أولئك اللائى كان يلقاهن الشبان الأثينيين فى الاجتماعات الجامعة للجنسين كن خليلات لا بنات حريات بالزواج ، وربما كن يلازمن بعضا من أرقى وأشهر رجال العصر . وكن يكسبن عيشهن من الاشتراك فى إنجاح هذه الاجتماعات المحرمة بشدة على النساء الأثينيات المولد . ويقول ديموستينيز ، واضعاً حداً فاصلا لا يرقى إليه أدنى لبس : « عندنا رفيقات من أجل اللذة ، ولنا زوجات لتلدلنا أبناء شرعيين ، وليكن حارسات أمينات على منازلنا » . وإذا أقمنا أنفسنا قضاة نحكم على تلك المهنة التى تكسب العيش ببذل « اللذة » ، فيجب علينا أن نستعمل تفكيرنا وشفقتنا معاً . فأفراد هـــذه المهنة كن صانعات السرور والمرفهات فى دنياهن الصغيرة . والصفات التى تتطلبتها كانت اجتماعية بقدر ما هى جسمانية ، فأجوبتهن المفحمة ، ونكاتهن اللبقة ، التى تبدو فاترة إذا ما كتبت على الصفحات العديمة الحساسية ، كانت تذكر وتحفظ كنكات مهرجى العصور الوسطى . وبالرغم من أن أثينا خلت من شكسبير يساعدنا على تفهمهن ، إلا أنهن لابد وأن شعرن بأنهن وحيدات كسيرات القلب شأن « المهرج » المسكين . فلو منحن تأييد إخوتهن المحجبات اللائى لم يكن لهن إلا مراقبتهن من نوافذهن باشتياق ، فى اختلاطهن بالرجال فى الشوارع والسوق ، لكان يمكن أن يضعن مسألة اختلاط الجنسين لأول مرة فى التاريخ على أساس معقول ، ولحافظن على ذكرى أثينا من اللوم الذى لا يمكن أن نخليها منه[1] .

---

(١) ديموستينيز ، ٥٩ — ١٢٢ . ثم تود فى British School Annual ، الجزء الثامن ص ١٩٧ وما بعدها (المرأة المحترفة) . وكما يوضح Mahaffy (Social Life in Greece ص ٢٨٤) فسافو لا تزال تستعمل الكلمة المؤنثة « رفيقة » بدون أى معنى خاص (Fr. 10, Bergk) . وقد انحط مدلول هذه الكلمة إلى ما انحطت إليه الكلمة الإنجليزية « mistress » . فيما يخص سيرة رفيقة نموذجية ، أنظر هيرودوت ، ٢ — ١٣٥ ، أما فيما يخص أخلاقهن فانظر اجزينوفون ، Mem. ، ٣ — ١١ والخطاب الذى كتبته إحداهن =

ولنرجع الآن مرة أخرى إلى الجزء الأساسى لمناقشتنا الاقتصادية . لقد كان هناك عامل آخر غير مباشر حال دون تزايد السكان ، ذلك هو إعراض الرجال عن الزواج المبكر نسبياً . فالمواطن الأثينى لا يتزوج فى المعتاد حتى

= إلى ديمتريوس بوليوركيتيس ونشره ڤيلاموڤيتز مع ترجمة ألمانية ، فى هيرمس الجزء ٤٩ ، ص ٤٦٨ . وهذا الخطاب يحمل طابع القرن الثالث لا الخامس ، ولكنه أقرب الخطابات التى يمكن أن نحصل عليها لهذا العصر . وفيما يخص أمثلة عن ذكائهن ، أنظر Athenaeus ، ١٣ . وكما فى كل الحرف كان بينهن بالطبع ، الحسن والردىء المحترم والحقير ، ولكن يجب أن نكون حذرين كما كان اليونان ، فلا نعاملهن معاملة واحدة ، أو أن نخلط بين أثينا فى القرن الخامس ومدينة أنطاكيا والإسكندرية ، حتى ولا بين وسط لا يمثل اليونان حق التمثيل ، مثل كورنث . فليس فى أثينا مثلا إماء المعابد ، ويجب أن نضيف أن هذا الموضوع كله لم تعقده بعد مسألة انتشار الأمراض التناسلية . وتكون الجيشات (geishas) فى اليابان ، فئة تشبه « الخليلات » فى اليونان القديمة ، وهى حرية بأن تساعدنا على إنصافهن . ومن الخطأ اعتبار يونان القرن الخامس (كما يميل إلى ذلك « الوثنيون » الحديثون) ، « شهوانيين » . فهم لم يجروا وراء اللذة ، كما لم يكونوا نساكا متقشفين . ولم يسمروا عن أنفسهم أكثر من أن يفعلوا أو يحجموا عن الأشياء ، « بحسب ما تمليه عليهم ضمائرهم » . هذه مواقف اضطرارية حساسة . ولم يكن اليونان القدماء يخجلون لهذه المسائل . وليس على الإنسان إلا أن يرجع لهيرودوت ليتأكد من ذلك . ولكنه من العسير أن يقرر الصفات الإيجابية التى تعادل هذه النواحى السلبية ، فاليونان كانوا أكثر حيوية مما نحن عليه ، فقد ملكوا ميزة الاندماج كلية فى أى عمل يقومون به ، أو أى شىء أملته عليهم الطبيعة أو العادات الاجتماعية التى ترمى إلى إيجاد الانسجام . وعلى ذلك فبالرغم من أنهم « يطلقون الزمام لأنفسهم » أحيانا ويجدون فسحة فى نظمهم المناحى الديونيزية الصاخبة ، فقد ظل Dion,sus دائما كما نراه فى نقوش الأوانى « مثلا للسلوك الرفيع » رغم أتباعه الحسيين . كذلك كان الميناد (Meanads) . اقرأ Bacchae ، صفحة ٦٧٧ وما بعدها ، جاعلا أمثلة من الفن ماثلة أمام عينيك ، مثل المينادتين الجميلتين اللتين مثلتا على الآنية فى Furtwängler وفى Reichhold ، الجزء الأول ، الشكل ٤٤ . ولم يكن وصف يوريبيدس دعارة مكشوفة ، وإنما هو مراسم صباحية . أنظر « نيتشه » وملاحظته الرائعة على هذا الموضوع (Works ، الجزء ١٧ ص ٢٩٧ — ٢٩٩) ، ثم قارن مورى فى يوريبيدس ص ٥٩ وما بعدها . إن الحياة تسير فى المدينة بطيئة ، كما تسير فى خطوات إفريز البارثنون ، بينما تسير سريعة فى الأرض العراء والفيافى ، ولكن فى كلتا الحالتين يمثل « شعور الصباح الباكر » الذى هو بعيد كل البعد عن التورع ، بل هو عكسه . إن الإنسان يبدو وكأنه واقف على حافة ضيقة تشرف على واديين عميقين ، وذلك لا شك مركز خطر ، ولكن « الحياة نفسها خطرة » ، والجماعة مثل الإنسان ، لا بد من أن تخاطر . وعندما كان هذا الشعور على وشك الزوال من الحياة اليونانية ، كتب أرسطو مبلورا له فى مذهبه الذى كان بعيدا عن الإيحاء « الفضيلة وسط بين طرفين » .

يقارب الثلاثين ، أو حتى بعد هذه السن . وشجع على ذلك الرأى العام ، والمفكرون الذين يوجهونه ، وكان الأثر المباشر لانفصال الجنسين فى صدر الشباب ، وإخراج المرأة من دائرة الأمور التى يهتم بها الشبان . فقد كانت المدينة اليونانية كالكلية الانجليزية عادة نادياً للرجال ، وكان من السهل ، بل وطبيعى ، على الرجل اليونانى أن يتخطى بداية منتصف عمره قبل أن يشعر بالحاجة إلى الارتباط الدائم بشىء آخر غير الزمالة فى حياة النوادى . فكل مثله العليا ، وكل أعماله فى شبابه ، كان يتقاسمها مع زملائه الذكور . وكان من الطبيعى أن يتجه إليهم بما فى طبيعته الآخذة فى النمو من إخلاص وولاء . فأخيل وباتروكليس وأرستيس وبيلادس وهارموديوس وأرسطوجيتون ، كانوا المثل التى يعجب بها ، والتى شجعه ، بل وحثه على الإعجاب بهم أبواه ورجال السياسة والشعراء . ومن أعظم ما خلفته لنا اليونان ، فكرتها السامية عن الصداقة العميقة لغرض نبيل . وتدعمت مثل هذه الروابط فى ملاعبهم ، وفى الخدمة الحربية ، وغالباً ما تختتم بالموت فى ميدان القتال . فهى صداقة فيها شهامة وقوة حصينة كالصداقة الحديثة التى تنشأ فى مدارسنا الداخلية وجامعاتنا ، وتبقى مع تقلبات الحياة المتباينة ، وأحياناً تصنع التاريخ . فإذا ما أدهشنا أن نرى مثل هذه الصداقة هى التى اختارها أكبر فلاسفتهم ليحيك حولها بحوثه عن الحب والجمال والخلود ، فيجب أن نتأكد أن تبجيلها إنما يرجع إلى الأحوال الاجتماعية ، حيث سادت مشاعر الرجال وما يحوز اهتمامهم سيادة طبيعية .

فإذا أردنا أن نعرف شيئاً عن الجو الذى نمت فيه هذه الزمالة ، والذى عاش فيه الشاب اليونانى الخيالى وتحرك ، كما شعر بكيانه ، فلنرجع فى الختام لحظة إلى الدولة المدينة فى زمن الحرب ، لأننا إن لم نر المدينة فى ظل هذه الحالة ، فلن نعرف إلا نصف ما يجول فى خاطرها . ويقول كاتب من أحسن كتابنا المفكرين الحديثين : « إذا بحث الإنسان ودرس بعناية ما فى التماثيل

اليونانية من تعبير ، ووعى ما فى الأدب اليونانى ، لرأى بوضوح أن مثل الحياة اليونانية الأعلى كان مثلا عفيفاً نزيهاً ، هو اليونانى المدرب ، ذلك الرياضى المعتدل الضابط لنفسه ، بل الورع ، وذلك من أجل تحسين قواه . وحول هذه الفكره اضطرمت أرفع مشاعر اليونانيين . « فن أجل أى شىء كان الرياضيون الذين تمثلهم التماثيل يدربون ؟ لا من أجل الأكاليل والجوائز ، أو من أجل الشهرة ، بل من أجل أن يقوموا على أحسن وجه بخدمة المدينة وبخدمة أصدقائهم . من أجل أن يذهبوا إلى الميدان مستعدين عن جدارة ، لبذل حياتهم فى سبيلها[1] .

---

(١) تتكون « فرقةطيبة المقدسة » كلهامن زملاء شديدوالصلة بعضهم ببعض : ولما تم جمع الموتىبعد موقعة خايرونيا (Chaeronea) ، قيل إنه لم يفقد من بينهم رجل واحد . ومع ذلك فان الرأى فى طيبة لم يكن متشددابالنسبةلروح هذه العلاقات كما علمنا . أنظر اجزينوفون ، Pol. Lac. ، ٢ — ١٢ إلى ١٤ ، ثم أفلاطون ، Symp. ، ١٨٢ ، والجمهورية ،٤٦٨ ، وأيضا الـ Charmides و الـ Lysis . ولكن كل هذه الفقرات الرئيسية القديمة ، عن الصداقة اليونانية تتعلق بالقرن الرابع ، وعلى ذلك فهى مريحة بالنسبة لعصرنا . فيجب أن نتذكر هذا ، فى أى حكم نكون بصدد إصداره على موقف اليونان ، إزاء الإسراف فى العناصر الفيزيقية فى مثل هذه الصداقة — « الحصان الأسود» فى فيدروس(Phaedrus) لأفلاطون . إن الشعور الحديث الذى يعتبر هذه العلاقات مستنكرة وغير طبيعية ، كان بالنسبة لظروف الحياة فى مجتمعهم ، لا وجود له مطلقا فى عقول اليونان . ومما لا شك فيه أن هذا يرجع من جهة إلى عدم استطاعة اليونانيين أن يقابلوا بهذه العلاقات ، كما عكنا نحن ، مثلا أعلى آخر للمشاعر يختلف تماما عن مثلهم ، ويمكن أن تتركز حوله أفضل عواطفهم . ولكنهم على أية حال ، لم يفكروا فى القرن الخامس فى أنفسهم كثيرا : فكانت عواطفهم غضة جياشة ، وكانت أيضاً خالية تماما من كل خجل وارتباك . حتى لم يكن سهلا عليهم أن يفصلوا بإحكام بين الجيد والردىء . إن الموضوع صعب ، وفى مثل هذه الحالات تكون الأمثال غالباهى أنفع دليل. وسيجد القارىء فى مؤلف هان (Hahn) : Albanesische Studien (فينا ١٨٥٣) ص ١٦٦ ، على لسان شاب ألبانى من الجج (Gheg) لا يعرف شيئا عن اليونان القديمة ، تقريرا عن جو عاطفى مماثل بين الجج (Ghegs) فى شمال ألبانيا . ففى هذا التقرير نجد التفاصيل ، وحتى الجمل فى بعض الأحيان ، تشبه كل الشبه ماورد فى أفلاطون واجزينوفون ، والشاعر الموصوفة قد قيل عنها بمقارنتها مقارنة ساخرة مع شبيهاتها التركية والألبانية الجنوبية ، « إنها ناصعة كضوء الشمس » . أنظر أيضا ص ١٤٧ — ١٥٠ حيث ذكرت مقطوعتان شيقتان من أشعار الحب عند الجج . فالجج ، مثل اليونان فى دائرة بنذار ، لم يكن لديهم «أشعار الحب حول المرأة» . أنظر أيضا فيلا موفيتز فى Orestie ، =

لم تكن المدينة بطبيعة الحال فى حرب مستمرة ، ولكنها كانت دائماً تتدرب استعداداً لها . لأن الحرب إذ ذاك لم تعد كما كانت ، مجرد وسيلة إنتاج عن طريق النهب والسلب ، ولكنها اتخذت شكلا طبيعياً من أشكال الخدمة العامة ، يدعى لها كل مواطن ، بل لقد كانت أكثر من ذلك . لقد أصبحت تقليداً رياضياً يستهوى الناس . ومن الصعب أن يتبين الإنسان هذه الأيام ، بعد ما أصبحت الحرب ترهق الأعصاب وتتعب الجسم ، بل فقدت معظم ما فيها من روعة واستثارة وكل مثيراتها الحيوانية ، من الصعب أن يتبين كم كانت رياضة بديعة فى تلك الأيام التى فيها اعتبرها الرجال رياضتهم العظيمة ، بل الوحيدة . إن المدينة اليونانية ، كما ذكرنا تشبه تماماً مدرسة كبيرة ، أو كلية ، فيها الحرب وما يتصل بفنونها من تدريب ومباريات ، أهم ضروب الرياضة البدنية . فإذا ما اعتز شاب بجسده واحتفظ به قويا سليما ، إذا ما رمى الرمح فى الاستاد ، وتسابق جريا عاريا ، أو فى أتم سلاح ، وإذا ما خرج سائراً أشواطا بعيدة فى طريق صعب غير ممهد ، تحت وهج الشمس ، واستراح ليلا على جانب التل فى العراء ، أو استلقى على فراش من القش يرقب القمر عندما يطلع على البحر ، بعد يوم قضاه فى تجديف مضن ، كل ذلك إنما كان ليعد نفسه لليوم العظيم ، الذى يحل فى أى ربيع ، إذا ما نادته المدينة ممثلة فى مجلسها ، أو فى أصحاب السلطة فيها . وهكذا كان يعيش المواطن وأصحابه فى جو المعسكرات ، تدور كل مناقشاتهم حول الحراب ، وأربطة الدروع وأرض المعسكر ، ومن أين يحضرون أكلهم وهم فى التلول المرتفعة ، أو عن مساند المجاديف والأماكن التى تربط منها السفينة ، والبثور وما إليها التى تنشأ من الخدمة فى البحار . كما كانت تدور حول كيفية إنزال الخيل إلى المراكب ذات الثلاث طبقات بنزع المقاعد ، أو النزول إلى صخرة للعدو وإقامة حصن دون آلات ، وذلك بأن يحمل الناس الملاط

= ص١٣٩ وما بعدها ، ثم .Staat und Ges ، ص٩١ ، الطبعة الثانية ص٩٥ ، وادوارد كاربنتر ، The Intermediate Sex ، ص ٦٨ (سبق ذكره) . (أنظر التذييل) .

على ظهورهم المنحنية ، لافتقادهم الأحواض التى يحمل فيها هذا الملاط عادة .
أو كيفية الإغارة الفجائية الخاطفة على ميناء العدو الرئيسى ، وذلك بالإبحار
ليلا مع الرياح ، وإشعال النار فى أسواقها حتى يتسق الأمر مع حمرة نور
الفجر ، أو عما إذا كان من العدل والشرف ، ووفق أصوب تقاليد اللعب
القديم ، أن يوقع العدو فى شرك مستنقع أو أن يضعوا له كميناً فى واد ضيق ،
أو أن يستعينوا بكتيبة من رجال تراقيا المتوحشين ، لتعوضهم عن قلة
عددهم . إن قراء العصر الحديث ليعجبون أحياناً من أن توكيديدس وإجزينوفون
قد أغرقاهم بتفاصيل القتال ، وقد يسأمون أو يسخرون من تلك التفاصيل
الصبيانية ، التى عنى هاذان المؤرخان الوقوران بسردها ، وينبغى أن
يتذكروا تلك المناقشات التى استمعوا إليها ، أو ربما اشتركوا فيها فى غرف
تدخينهم أو اجتماعاتهم ونواديهم ، وتدور حول شتى ضروب اللعب والتسلية
ثم ليسألوا كم منها يكون واضحاً مفهوما ، مهما كان مكتوبا بأسلوب بديع ،
لخلف يشغفه البحث والاستقصاء ، واتجه إلى أنواع أخرى من التسلية .
لقد كانت الحرب جزءاً طبيعياً من حياة المدينة اليونانية كالألعاب الرياضية
عندنا اليوم . ولا شك أن هناك فوارق كبيرة من حيث الدرجة . فأنت
تحارب بأسلحة برنزية ، وتحتاج إلى درجة عالية من الشجاعة البدنية وضبط
النفس ، وإذا خانك الحظ ربما تؤخذ أسيراً أو تقتل . وأنت بحاجة كذلك
إلى جسارة للهجوم أو لمواجهة لاعب كرة سريع . وفى كلا الأمرين الغرض
واحد وهو أن تلعب دورك ، وأن تعمل ما فى وسعك لصالح فريقك .
وإذا كان قتل الرجال لم يعد بعد رياضة ، فقتل الحيوان ما زال كذلك .(١)

(١) قارن أقوال توكيديدس عن محاصرة بلاتيا (٢ — ٧٥ إلى ٧٩) وسيراكوز ،
وخاصة من المعركة الضروس التى انتهت بموت ٢١٢ + ٥٠ شخصا (٤ — ٤٣ إلى ٤٤) ،
وعن الآلة العجيبة فى ديليوم (Delium) أيضاً، (٤ — ١٠٠ — ٢)، وكذلك ٤ —
٤ ، ٢ — ٩٣ ، ثم إجزينوفون ، .Hell ، ٥ — ٤ — ٢٠ ، ثم أرسطو ، الفرسان ،
٥٩٤ — ٦١٠ ، وتوكيديدس ٢ — ٥٦ — ٢ (النقل بالحصان) ، وأرسطو ، السلام
(Peace)، ٣٤٧ (الأسرة بجانب شاطىء البحر) ، ثم الضفادع ٢٢٢ ، ٢٣٦ (التآليل).
ومن هنا كنا نخطر دائماً عن «بيان» الخسائر (هيرودوت ،٧ — ١٧٠ ، وتوكيديدس، =

ما من عصر اعتبرت فيه الحرب أمراً شاذاً طيلة حياة الدولة المدينة . فالحرب القائمة أو حرب الأمس أو الغد هى الحال الطبيعية للمدينة اليونانية . وكما لاحظ هيرودوت الذى يعرف روح اليونانيين الرياضية « لابد وأن ترتبط الدول ببعضها برباط وثيق إذا ما أريد الدوام لاتفاقاتها» . وقد يكون من السهل تهدئة بعض الخلافات التى تنشب فى جو أقل سرعة للاشتعال ، أو حين تكون فرق الجيش بعيدة عن التدريب . وقد تحدث إغارة ليلا على المزارع الواقعة على الحدود لسرقة الماشية . « فالماشية والغنم والخيل والأوانى النحاسية ، أشياء معرضة للغارات » ، كما لاحظ هومر ، وقد ضرب الأبطال ، بل والآلهة أنفسهم المثل فى ذلك منذ زمن بعيد . وهذا يدفع إلى الأخذ بالثأر . فتوطأ بعض حقول القمح ، وتدمر مزارع الزيتون وتحرق ، وقد يفقد بشكل غامض القليل من النساء ، والكثير من الماشية والأغنام . وما أن يبزغ الفجر إلا ويكون هؤلاء الناهبين قد عبروا الحدود سالمين يسوقون أمامهم ما أسروه واغتصبوه عن بشر وماشية دون ما رحمة . وترد الأنباء المدينة ، وينطلق المنادى بصوت حزين متظلماً ، طالباً التعويض السريع ، فيقابل بالمعارضة والنقض ، فينصرف فى وقار هادئ على لسانه الأسف لا الغضب ، ويعاد إلى الحدود مخفورا حتى لا يرى كثيراً مما فى الطريق ، وقبل أن تغرب شمس اليوم نفسه يكون فى بلدته ثانية .

لقد أعلنت الحرب . وينتشر الخبر بين الدساكر ، فيأخذ الفلاحون دروعهم ورماحهم من أماكنها فى ركن إلى جانب مخزن القمح ، ويأخذون مناخيس الثيران ويسرعون إلى أرض الاستعراض ، مرحبين وإن كانوا

= ٣ — ١١٣ — ٦) ، وعن « بيان » الفرق » (توكيديدس ٦ — ٣١ — ١ و ٣ — ١٧ و ٥ — ١٧٤ و ٧ — ٥٦ — ٤) ، وعلى «عدم التثبت من الأهداف السامية » للحرب (٢ — ١١ — ٤) . وفى كل الألعاب الأخرى ، قد كانت معرضة لأن تنهار بالاحتراف . قارن مقال Sir George Trevelyan الطريف عن « An Ancient Gre[ek] War » (طبع فى [An]d Prose Interludes in Vers[e] ، ١٩٠٥ .

وجليين ، وإنما لنعرف شعورهم هذا حق المعرفة) من محنة المعركة المعتادة ، آملين أن تنتهي قبل موعد الحصاد . وبعد بضعة أيام يهب الجيشان في الفجر المبكر ، ويصطفان وجهاً لوجه في السهل القريب من أبواب المدينة ، ويقطع قوادهم النصيف ساعة الأخيرة القلقة التي تسبق بدء المعركة في نقاش مناسب ، محفزين الناس ناصحين لهم ، كما يعلم ذلك حق العلم رؤساء التجديف وكرة القدم . فإذا كان القائد أثينياً أخبرهم بأن العقول هي التي يكون لها النصر ، وأن تفوق جيش العدو في العدد ليس سوى دليل على اضطراب أعصابهم . أما إذا كان اسبرطياً ، فيذكر جنوده بأن الأسبرطيين لا يقولون نموت أبدا ، وأن كل ما عليهم عمله هو طاعة تعاليم مدربيهم . وأخيراً ينطلق النداء بالانتباه ، ويتقدم الزحف البطيء الثابت ، والدروع متلاصقة — كم تبدو تلك اللحظة لا نهاية لها — ويلمع البرنز على بعد قريب (شكراً للآلهة فإن الشمس وراءنا) ، وتتشابك الرماح ، ويتصادم المجن بالمجن ويشتد الطعان والمصارعة والالتحام ، ويحمى وطيس المعركة[1] .

---

(١) هيرودوت ، ١ — ٧٤ والإلياذة ، ٩ — ٤٠٦ ، ثم قارن النشيد الهومري للإله هرميس ونقش على الخزانة السيكيونية في دلف ، توكيديدس ، ٢ — ١٢ (آخر بعثة سياسية) ، ٢ — ٨٩ و ٤ — ١٠ (خطب المعارك الأثينية) ، ثم ٢ — ٨٧ ، ٥ — ٩٠ (وكذلك الاسبرطية) ، ٥ — ٧١ (« الترس مجتمعة متلاصقة تماما » ثم اضطراب الرجل الذي على اليمين) ، وفيما يخص الاشتباك أو « دفع الترس » ، أنظر توكيديدس ، ٤ — ٩٦ — ٢ ، وهيرودوت ٧ — ٢٢٥ ، ٩ — ٦٢ . وفيما يخص جيشا مهزوما يتقهقر ، أنظر الصورة البديعة لسقراط في أفلاطون ، Symp. ، ٢٢١ . القتال في الإلياذة وتيرتايوس (Tyrtaeus) قد اضطرب ، إذ جمع بين أبطال الطراز القديم ذوى طريقة النزال المستقل ، وبين « فرق ذوى الدروع » من مشاة دولة المدينة العاديين . قارن Trachiniae ، ٥٠٧ — ٢١ حيث « تم الدروع ورتب واضحة » كما يقول جب (Jebb) ، فهرقل يحمل هراوة وقوسا ، وسلاح دولة المدينة ورتبه ، وتاريخ اليونان وشعرهم مليئان « بحروب الجيران » العادية ، مثل توكيديدس ، ١ — ١ — ٢ ثم ٤ — ١٣٤ ثم ٥ — ٣٢ — ٢ ، وهيرودوت ، ١ — ٨٢ ، ثم يوريبيدس ، supp. ، ٦٥ وما بعدها . دار الحرب في السهل لأن رجل الحرب العادي اليوناني كان لا يرجى منه نفعه في الحرب على أرض وعرة . وكان يلبس خوذة ودرعا على صدره ، وآخرا على ظهره ، ثم يلف على ساقيه واقية من البرونز ، ويحمل رمحا طوله ستة أقدام ، ثم ترسا بيضاويا طوله ثلاثة أقدام وسيفا . جرى الجيل المشهور في مراثون ، لم يكن إلا « مشيا » δρόμο في توكيديدس ، ٤ — ٥ . وانظر في هذه =

وعلى هذا النحو كان هذا النزال يسير ، عند ما كانت الدول تحارب من أجل مزيد فى المؤن أو المال ، وقبل أن تتجه إلى اتخاذ السرقة مصدر دخلها الرئيسى ، وتجعل من فلاحيها وصناعها محاربين محترفين . وقواعد المباراة التقليدية كلها تبين نفس الروح ، فليس هناك أى محاولة للاحتلال أو الإبادة ، فالعدو قوة ذات سيادة ، وجار قريب فى وقت واحد . فهو لن يخضع للاحتلال ، وإذا أنت قضيت عليه فلن يبقى أمامك ما يسرق . فإذا كانت الأرض هى ما تريده ، فأولى بك أن تطلبها بين البرابرة ، الذين لن يبالوا بخضوعهم إليك مختارين ، وأن يصيروا لك عبيدا . فكل ما تتطلبه الحرب قتال عادل بأسلحة متكافئة ، على سهل وراء أسوار المدينة . فإذا انتهت الحرب قبل غروب الشمس بكثير (إذا بقيت بعد فترة الغذاء) ، يقيم الجانب المنتصر نصبا لذكرى فوزه ، ويسلم الفريق الآخر قتلاه ، ويمضى بالغنائم حائزاً لشرف الموسم . أما إذا كانوا أثيروا بشكل مثير ، فإنهم قد يمكثون للحصار ، مما يضر بموسم حصاد الجانب الآخر ، ولكن معناه أيضاً سحب عدد من رجالهم . ثم يحاولون الاستيلاء على الأسوار عنوة ، فيصدون خاسرين إذ تكشف ألغامهم ، وتكسر أنوف كباشهم ، ويرتد « رجال السلحفاة » بسلالمهم مرتاعين ، إذا ما طاف أحد بهامة الطاحون المستديرة ، منقبا حول الحائط التى كانوا يستعدون لتسلقها من هذه الناحية . فإذا ما كن خمسون رجلا ، أو حتى خمسون امرأة فى زى الرجال ، خلف سور يونانى فهما كانت قوة تحصينه ، فهم يوازون مائة مرة عدد من بخارجه ، ماداموا لا يرمون بشىء (أى لا يتشابكون). وقليل فى تاريخ الدولة المدينة الحصارات التى انتهت بانتصار المهاجم . وكما يقول نيكياس إن مدينة بأكملها لازمة للاستيلاء على مدينة أخرى . ثم إذا كنت بعيداً عن قواعدك فقد

= النقطة جرندى (Grundy) فى Thucydides and the History of his Age ، ص ٢٤٢ — ٢٤٤ ، الذى يكتب عن خبرة شخصية ، سواء عن وزن الأسلحة اليونانية ، أو التنقل من موضع الى آخر على سفوح التلال اليونانية. « كان حديد الخوذة اليونانية سميكا جدا ، واستطيع أن أقول أن وزنه قد يبلغ تقريبا ضعف وزن أثقل خوذة فى العصر الإقطاعى » .

تغدو الأوضاع ضدك . إن آمال المحاصرين تنحصر فى تجويع المحصورين ، أو فى الخديعة ، رغم أن معظم المدن على استعداد كامل . وعند رؤية العدو على الأبواب يشعر المناوئون المشاغبون ، وحتى العبيد المتمردون ، بتجاوب العواطف ، والتعلق ببيوتهم وبسادتهم . وعلى هذا فمن المحتمل أن ينظر المنتصرون إلى ما سيتكبدونه ويعدلون عن الحصار ، كما فعل الحاكم الفارسى حسب ما ترويه القصة ، وقد نصحه قائد اليونان المرتزقة الذين كان يحاصرهم بأن « يقدر الوقت الذى تستغرقه العمليات الحربية ويحسب أيضاً التكاليف التى تتطلبها . « لأنى » كما قال « على استعداد لأن أخلى المدينة فوراً ، إذا دفعت لى مبلغاً زهيداً من المال »[1] .

وقواعد الحـــرب فى البحار مشابهة لتلك وإن كانت شكلت حسب اختلاف الظروف . بل إن الحرب البحرية لأبسط وأسلم وأكثر إرضاء ، إذ كما لاحظ الأوليجارشى العجوز ، يمكنك أن تصل إلى الهدف فى السهول الغرينية الفسيحة ، دون أن ترهق نفسك فى أرض معادية ، ويمكنك أن تقوم بعمل باهر ، تعجز عنه القوات البرية . فأنت « يمكنك » أحيانا أن تدمر حقول قوة أعظم من قوتك ، لأنك تستطيع أن تواصل الإبحار حيث لا مقاومة ، أو حين تكون المقاومة ضعيفة . ثم عند ما تبتدىء الجيوش

(١) توكيديدس ، ٣ — ٤٦ — ٣ (لم يبق شىء يسرق) : إن أحسن تصوير لثقة اليونان البالغة فى الأسوار ، اعتقادهم أنهم قد ردوا الجيش والأسطول الفارسيين عام ٤٨٠ بتحصنهم وراء السور عبر البرزخ . إن أحسن الأسوار القديمة الباقية هى أسوار القسطنطينية ، التى لم تسقط إلا فى عام ١٤٥٣ بعد كثير من الحوادث رغم التفاوت بين المحاربين ، إذ أن ١٥٠ ألفا حاربوا ضد ثمانية آلاف . توكيديدس ، ٦ — ٢٣ — ٢ (مدينة ضد مدينة) ، أرسطو ، السياسة ، ١٢٦٧ أ ٣١ ، وهيرودوت ، ١ — ١٧ وما بعدها . توكيديدس ، ٣ — ١٠٢ — ٤ إلى ٥ . إن أحسن المراجع عن الحصارات هو بالتأكيد Aeneas Tacticus الذى عرف كل حركة فى المعركة ، كما كان يعلم أنه « يمكنك أن تتعرف على المرأة من طريقة قذفها مهما بعدت المسافة ، (٤٠ — ٤ إلى ٥) . وعلى أية حال فيمكن لأى إنسان « مهما قلت قدرته » أن يدافع عن السور مادام هذا السور عاليا وسميكا بالقدر الكافى (توكيديدس ، ١ — ٩٣ — ٥ إلى ٦) ، وكذلك لم يكن من الضرورى إبقاء رجال من ذوى الأسلحة الثقيلة بالمدينة لهذا الغرض . وبعض المدن كانت تخطط محيطها واسعا حتى يشمل داخله مزارع القمح ، كما يظهر جليا من الآثار الباقية فى مسينى (Messene) . قارن Jonah ، ٤ — ١١ .

فى التجمع ، تنسحب إلى مركبك وتقلع » . فواضح إذن أن المخاطرة بحرب جبائية ، سواء براً أو بحراً لم يكن مأخوذاً بها . ولا بد أن نذكر الرهائن وإن كانت تبدو بعيدة عن الروح الرياضية . فإذا ما أسر رجل أثناء معركة أفقرت أرض وطنه فقد تمر سنين قبل أن يتمكن أصدقاؤه من جمع النقود المطلوبة لافتدائه . وقد سمعنا عن رجل أنقذ من الأسر بفضل زيارة عارضة قام بها ممثلى مدينته ، وكان أسيراً منذ أمد طويل حتى أنه اكتسب لهجة أجنبية ، لدرجة أن كاد مواطنوه أن ينكروه . ولكن هذا ، وهو ما يجب أن نعترف به ، ما كان ليكون من جراء حرب مع الجيران الأقربين [١] .

والآن لقد آن أن نترك هؤلاء الرياضيين لأنفسهم ، وسنرجع إليهم مرة أخرى فنجدهم أحسن نظاما ، وأحكم قيادة ، وأكبر خططا ، وأكثر غنائم . وزيادة على ذلك تدفع لهم أجور منتظمة ، ولكن لن يكونوا ثانية سعداء جسورين كما كانوا فى معاركهم الصاخبة فى اليونان القديمة .

---

(١) الأوليجارشى العجوز ، ٢ — ٤ ، ثم ديموستينيز ، ٥٧ — ١٨ .

الفصل الثالث عشر

اقتصاديات الإمبراطورية : القوة البحرية

Τὴν πόλιν τοῖς πᾶσι παρεσκευάσαμεν καὶ ἐς πόλεμον καὶ ἐς εἰρήνην αὐταρκεστάτην.

لقد جهزنا المدينة بكل شيء ، حتى أنها لتكتفى نفسها فى الحرب والسلم .

بركليس فى توكيديدس ، ٢ — ٣٦ — ٣ .

لم يفسر أحد للشعب بوضوح وظائف التاجر الصحيحة . . . . إن عمل التاجر أن يمون الأمة .

راسكين ، فقرة ٢١ ، ٢٢ من Unto this Last

عندما وصفنا اقتصاد المدينة كنا نبنى صرحنا طبقة طبقة ، مبتدئين بأبسط الأسس . وقد قدمنا الآن كل العناصر الأساسية للحياة ، التى علمنا المفكرون اليونانيون أن نعدها « الحياة العادية » فى دولة المدينة . لقد زودت المدينة بالفلاحين والصناع وتجار التجزئة والتجار الأجانب . فهى تنتج محلياً كل ضروريات الحياة ، وتستطيع أن تستورد الكماليات التى تحتاجها ، لتعيش كما ينبغى أن تكون عليه دولة متمدينة. فهى لم تكن صغيرة جداً ولا كبيرة كذلك ، لم تكن فقيرة للغاية ، كما لم تكن غنية أيضاً . فلو كانت أصغر عما هى عليه ، لتعرضت لخطر هجوم جيرانها عليها . ولو كانت أكبر مما هى عليه ، لتعرضت لفقد وحدتها . ولهذا صعب حكمها . أما إن كانت أفقر عما هى ، فلن يستطيع سكانها أن يحيوا حياة متمدينة . وإن كانت أغنى ، تعرضت لمغريات التطرف والإسراف . فهى قد وصلت إلى ما بدا للمنطق اليونانى ، أنه منتهى التوسع السليم . وكل ما بدا واجباً على ساستها ، هو الإبقاء بحرص على توازن القوى الاقتصادية الموفق هذا[1] .

---

(١) أرسطو ، السياسة ، ١٣٢٦ ب .

هذا هو ما كانت عليه الكثير من المدن اليونانية فى مرحلة ما من مراحل تطورها . ومثلا ، على هذا النحو ، كانت أثينا فى القرن السادس . وعلى هذا الوضع كانت بلا شك مدن أخرى كثيرة عاشت فى هدوء وسعادة ، حتى إنا لا نعرف كثيراً عن تاريخها الداخلى . لقد كان تطوراً ظل حياً فى ذاكرة الرجال ، ليكون نموذجاً بديعاً لعالم قديم ، اتخذه الفلاسفة المتأخرين رمزاً للمدن المثالية . فأرسطو وإيزوكراتس ، وأفلاطون أيضاً ، بعد أن صار أكثر ليونة فى أواخر أيامه ، حنوا جميعاً إلى العهد الذى كان فيه الرجال « عاملين نشطين ومقتصدين ، لا يعرفون إلا أعمالهم » ، عندما كانت حاجات الناس على نحو مكن الدولة من أن تكون « ذات كفاية ذاتية منتجة لكل ما تحتاجه » ، وكان كل أمرىء يعيش « معتدلا وحراً فى تمتعه بأوقات فراغه » ، عنـــد ما كانت فضائل التقشف القوية تمتزج فى تناسق بما فى الحضارة الناشئة من روعة وتقدم[1] .

وقد كانت هذه المدن الفاضلة « الطوبيات » التى نودى بها فى القرن الرابع صوراً خيالية فى كثير من وجوهها الأساسية ، كما يخبرنا كتاب العصر الحديث . ولكن حتى إذا لم يكن هذا كذلك ، فقد يكون وصف مؤلفيها لها مضللا لأنهم ادعوا أن القوى السياسية يمكن أن تستبقى ثابتة . وما دام القالب الصحيح قد وضع ، فما على السياسى إلا أن يصونه بدقة ويعجب به أيضاً . وقد ارتكبوا الغلطة المألوفة التى هى من خصائص الفكر اليونانى ، أى اعتبار المدينة عملا فنياً ، ولم يقفوا ليسألوا أنفسهم لماذا رضيت القوى التى تعاونت على الإتيان بمثل هذه النتيجة المرغوبة ، أن تقلل من حماستها ، وتغدو حواجز مانعة تقف فى وجه أي تطور جديد[2] .

---

(١) أيزوكراتس ، Areop. ، وبخاصة الفقرة ٢٤ وما بعدها ، حيث نجد وصفا جيلا لأثينا القديمة ، ثم أرسطو ، السياسة ، ١٣٢٦ ب ٣٠ . وقد فضل أفلاطون جوا أكثر تقشفا لجمهوريته فاتجه نحو اسبرطة يتخذها نموذجا له .

(٢) وإن أردت نقدا جيدا لتصور « الطوبيات » فى القرن الرابع أنظر ماير ، ٥ ، الفقرة ٩٢١ ، حيث شرح « التناقض الداخلى » الذى ساد كل هذه المحاولات ، وذلك أنه « افترض أن أساسها حضارة من بيئة راقية » . إن أهل « المدينة المتعلمين » الأثرياء ، فى القرن الرابع ، الذين افترضهم الفلاسفة ، والذين كانت تؤخذ منهم طبقة المستمعين ، ما كانوا يطيقون أبداً « الحياة البسيطة » ، التى رؤى ضرورة فرضها عليهم .

ونحن فى العصر الحديث نعرف أن القوى الاقتصادية لا تحفل أبداً بالانسجام الاجتماعى ، أو « الحدود الطبيعية » ، فإذا ما أطلقت مرة فليس من السهل كبحها . فأثينا فى القرن السادس ، بعد أن حلت مشكلة الأرض بسياسة سولون وبيزستراتوس ، قد تبدو للملاحظ المعاصر ، كما بدت للمفكرين المحافظين بعد ذلك بقرنين ، صورة مثالية لدولة استقرت بسهولة ، فى نهاية سعيدة لمرحلة طويلة شاقة . ولكن الحقيقة أن أثينا كانت فى بداية أشق نضال فى تاريخها ، إنه نزاع روحى بين اثنتين من أشد القوى فى الجماعة البشرية ، سوف يودى بحضارتها ، فى اللحظة التى بلغت فيها أوج عظمتها . فنحن فى الواقع إنما ننتقل من اقتصاد الدولة المدينة ، إلى اقتصاد الامبراطورية .

وقد أحس كل الناس بهذا الصراع فى كل الأراضى اليونانية ، التى دخلتها التأثيرات الاقتصادية الجديدة،من أيونيا إلى أيتوليا ، ومن صقلية إلى القرم . ولكنه استقر فى أثينا المستمسكة بالتقاليد القديمة ، الشديدة الحساسية بالتأثيرات الجديدة ، بمنتهى القوة وترك أعمق الأثر فى المجتمع والأدب . فهنا كما رأينا ، كانت آمال الرجال عظيمة ، ومن هنا كان فشلهم أسرع ، وشعورهم بخيبة الأمل حاداً مؤلماً . فمن عصر المرثية التى قيلت عند ما كان كل شىء على مايرام فى الإمبراطورية الأثينية ، إلى عهد «جمهورية» أفلاطون ، التى كتبت فى عصر لم تكن فيه حتى ذكرى تلك الإمبراطورية لامعة ، لم يمض إلا مايزيد على نصف قرن قليلا . وبين سوفكليس فى أوج إيمانه المشرق ، وبين الكآبة المظلمة التى خيمت على روايات يوريبيدس الأخيرة ، فترة لا تعدو بضع سنين . لم يحدث أن قامت مدينة يونانية أخرى ، اضمحلت بمثل هذه السرعة ، أو تركت سجلا صادقاً مستمراً ، لتتابع حياتها العقلية . فلنترك من الآن المدن القليلة الأهمية جانباً ، ولنتجه إلى أثينا وحدها ، كما

اتجهنا إليها فى وصفنا لتقدم اليونانى كمواطن ، لنتابع القوى الاقتصادية التى جمعناها[١] .

رأينا فى الفصول السابقة فصلا فصلا ، العناصر التى غدت أجزاء أساسية فى اقتصاد أثينا ، بعد حوالى منتصف القرن السادس . والذى علينا عمله الآن هو أن نرقب ونحلل المؤثرات الجديدة ، التى صارت ملموسة فى المائة سنة التى تلت هذا العصر ، حتى نفهم القوى التى غيرت أثينا فى عهد المرثية ، عن أثينا فى عهد سولون وبيزستراتوس .

وليس من الصعب أن نتتبع أولى خطوات هذا التطور ، فقد وصفها لنا بلوتارخوس فى كلامه عن حياة سولون وصفا واضحاً . كانت مشكلة الأرض فى طريق الحل ، والبحار تتحول إلى بحار آمنة ، واتخذت أثينا مقاييس وموازين جديدة ، والأثينيون فى طريقهم إلى أن يكونوا تجاراً نشطاين . وكانوا على استعداد لا ليتاجروا مع غيرهم فقط ، ولكن ليتاجر الناس معهم أيضاً . ويقول بلوتارخوس ، «لقد غصت المدينة بأشخاص تجمعوا من كل الجهات ومرد ذلك إلى الاطمئنان العظيم الذى أظل الناس فى أتيكا . وعندما لاحظ سولون ذلك ، وهو يعرف أن معظم أراضى البلد قاحلة غير منتجة ، وأن التجار الذين يجوبون البحار لم يتعودوا توريد البضائع إلى الأمكنة التى لا يمكن أن يجدوا فيها مايقايضون عليه ، وجه اهتمام الناس إلى الفنون والصناعات . ولهذا الغرض سن قانوناً ينص على أن الابن ليس مضطراً لأن يعول أباه مالم يكن علمه حرفة» . ويواصل بلوتارخوس قوله : لقد كان حسناً من اسبرطة التى لم تقبل أى غريب ، والتى تستطيع بلادها أن تكفى ضعف سكان أتيكا ، أن ترغم «الهيلوت» وحدهم على العمل ، «وأن تعفى مواطنيها

---

(١) أنظر ص ١٤٨ — ١٤٩ فيما سبق ، ثم قارن مورى «يوريبيدس» ص ٢١ . وسيجد القارئ بيانا عاما عن النزاع فى مؤلف Pöhlmann: Geschichte des antiken Sozialismus und Kommunismus (فى جزءين ، ميونخ ١٨٩٣ — ١٩٠١ ، ولا سيما الجزء الثانى) ، وهو عمل نافع مفصل ، وإن كان عنه يقول ماير بحق (٥ ، الفقرة ٨٨٣ ، ملحوظة) أن عنوانه نفسه ليدل على افتقار المؤلف إلى الحكم السديد .

من العمل الشاق والنشاط الآلى لتستخدمهم فى الحرب بصفتها الفن الوحيد الذى عليهم أن يعملوه ويمارسوه . ولكن سولون وقد جعل قانونه ، وفقاً لحالة البلاد ، أكثر من أن يجعل البلد وفق قانونه ، ولعلمه أن أرض أتيكا التى لا تكاد تكفى زارعيها ، لا يمكن أن تكفى الكسالى والعاطلين ، أمر بأن تعتبر الفنون والصناعات أعمالا شريفة وعلى مجلس الأريوپاجوس أن يفحص الوسائل التى يتخذها كل مواطن للعيش ، وأن يعاقب العاطلين[1] » .

هذه الفقرة تحمل طابع عصر متأخر ، ولكن وقائعها صحيحة إلى حد بعيد . فليس حقا كما يشير بلوتارخوس ، أن الفنون والصناعات لم « تعتبر مهنا محترمة » ، حتى جعلها سولون كذلك ، وإن كان من المؤكد أن بذل سولون ما فى وسعه ليجعل من أثينا مركزا صناعيا . فالثروة هى أولى احتياجات البلد فى ذلك الوقت ، الثروة التى تجعل الزراع يقفون ثانية على أقدامهم آمنين ، وتخفف من حدة النزاع المدنى . ولكن أحسن وأسرع طريقة لجمع الثروة كانت خارجية ، عن طريق البضائع ، وأكثر من ذلك عن طريق عقول التجار الأجانب ونشاطهم . والبضائع لابد أن يدفع ثمنها طبعا ولكن كيف ؟ ليس بمنتجات الأرض ، لأن أثينا لم يكن عندها إلا القليل ، أو لم يكن عندها ما تستغنى عنه ، إنما بالمصنوعات ، وهنا الصعوبة فإنه وإن كان لديها من الخامات الكثير : الرخام من بنتليكوس ، والفضة من لاوريون وأنواع من أجود صلصال اليونان ، اللازم لصنع الأوانى ، فلم يكن لديها من الأيدى ما يكفى لصنعها ، وهكذا فهى لم تكن فى حاجة إلى ثروة فحسب ، إنما إلى أيد أيضاً ، لم تكن فقط فى حاجة إلى تجار يأتون كزائرين فى الصيف ليقايضوا على بضائعهم ، وإنما إلى مهاجرين يأتون للاستقرار ويهبون أنفسهم وعقولهم وسواعدهم للخدمة الاقتصادية بالمدينة . وعلى هذا يكون بلوتارخوس قد وضع العربة أمام الحصان عندما قال لما كانت المدينة

---

(١) بلوتارخوس ، سولون ، ٢٢ .

ملأى بالمهاجرين ، رأى سولون أن الواجب عليه أن يبدأ بالصناعات حتى يتمكن من إطعامهم . والواقع كما يخبرنا هو بعد ذلك بصفحات قليلة ، أن تشجيع الهجرة ، كان أحد أركان الزاوية فى سياسة سولون . فهو يريد مستوطنين لا تجارا ، أى رجالا يمكثون فى أثينا ليزيدوا ثروتها ، بدلا من مجرد « كانزى ذهب » يجمعون أكداسهم ثم يرجعون إلى أوطانهم . ويعود بلوتارخوس فيعطينا الحقائق ، وهو ولم يتوفر لتوجيهه المثل الحديثة المتوفرة لنا ، فإنه يحار فى فهم معانيها فيقول « إن قانون تجنيس الأجانب صعب الفهم ، لأنه يحرم منح حق المواطن لأى إنسان ، إلا للذين نفوا من وطنهم إلى الأبد ، والذين استقروا فى أثينا بعائلاتهم لممارسة حرفة يدوية » . لقد نسى بلوتارخوس ، أو أنه لم يدرك مطلقاً ، كم كان صعبا على مدينة من مدن العالم القديم ، أن تدخل الغرباء فى هيئتها . ولكن الكاتب الذى تبعه بلوتارخوس كان يفوقه فى فهم هذا ، فأوحى إليه أن يقترح التأويل الصحيح ، فيقول « إن هذا القانون سن كما قيل لنا ، لا ليبعد الأجانب ، بل ليدعوهم إلى أثينا ، على أمل مؤكد من أنهم سيحصلون على حقوق المواطن . وقد توهم سولون أنه سيجد عونا مخلصا من بين هؤلاء الذين طردوا من بلادهم اضطرارا ، أو ممن تركوها بمحض اختيارهم »[1] .

وفى هذه الناحية نجح سولون ، والساسة الذين اتبعوه ، أكثر من كل ما يتوقع . لقد جذبوا إلى أثينا سيلا دائما من المهاجرين ، وأشرك هؤلاء القادمون الجدد مع السكان القدامى ، فى العمل على تقدم الموارد القومية وزيادتها . وسنترك النتائج الصناعية التى أدت إليها الهجرة إلى فصل قادم . أما الذى يهمنا هنا ، فهو أن نجاح هذه السياسة ، قد أوقع هؤلاء السياسيين فى مشاكل اقتصادية جديدة . فأثينا لا شك قد نمت ثروتها فى هذه الظروف ولكنها أخذت أيضاً فى إيواء سكان أكثر من أن يضمن الانتاج كفايتهم .

---

(١) بلوتارخوس ، سولون ، ٢٤ . أنظر فيما يخص موارد أتيكا الطبيعية ، Ways and Means ، الفصل الأول .

وأخذ تضخم عدد سكانها يفوق بسرعة موارد غذائها المحدودة . وبذا تعلم الأثينيون بالتجربة إغفال المذهب القديم القائل بأن الاستقلال والكفاية الذاتية يتحتم بالضرورة ، أن يتمشيا مع بعضهما البعض .

ولا شك أن اكتشاف إمكان زيادة عدد سكان المدينة ذات السيادة ، على كفايتها الغذائية ، دون ما خطر ، إنما كان خطوة إلى الأمام كبيرة فى الاقتصاد السياسى العملى ، ولكن ذلك جر على رجال السياسة الأثينيين واجبات جديدة معينة . إنه ألقى على عاتقهم مسئوليات ضمان وصول المواد الغذائية من الخارج ، كما دفعهم إلى ضرورة إنشاء علاقات خارجية ، لم تكن كما كانت قديما وليدة الظروف ، وذلك حتى يكفلوا أسواقا لتجارهم كلما تسنى لهم ، بل كانت على نحو مستمر حاسم حتى يتثبتوا من إبعاد شبح المجاعة الذى كان يهددهم باستمرار . وهكذا فإن الحالة الاقتصادية الجديدة الناشئة عن اجتذاب المهاجرين من العمال ، غيرت تماما حالة الدفاع القومى ، وغيرت معها كل اتجــاهات رجال السياسة الأثينيين . وبعبارة أخرى غيرت خصائص الدولة الأثينية تدريجيا .

ولكى نفهم كيف حدث ذلك ، يجب أن نقف لحظة لننعم النظر فى مسألة الدفاع القومى . فى الأيام السالفة كانت المدينة التى تقوى على الدفاع عن حقولها وجمع حصادها ، تستطيع أن تعيش فى سلام داخل أسوارها فى عزلة مريحة ، على شرط واحد هو أن يكون مواطنوها المحاربون على أهبة الاستعداد للقتال عندما يدعون إليه . فلم تكن الدولة فى حاجة إلى اتباع أية سياسة خارجية على الإطلاق . وكل ما كانت فى حاجة إليه هو أن تكون مثل السلحفاة « تحفظ نفسها لنفسها » ، ويمكن أن نلخص سياستها فى الكلمات التى ادعى الخبراء المحايدون من أهل أرجوس أنها وجهت إليهم عام سلاميس ، عن طريق ذلك الوحى الذى يدور مع الزمن :

دعوا العالم كله يكرهكم
ما دامت الآلهة رحيمة :

دعموا أسواركم بالجنود وانتظروا
خلفها بالرماح مطمئنين.(١)

ولكن أيام هذا السبات السهل ، قد مضت إلى غير رجعة ، واضطرت المدينة إلى اتباع طريقة دفاع جديدة أشد خطراً . فلم تعد قوتها الآن فى الهدوء والثقة ، بل أصبحت فى حاجة إلى التطلع إلى الخارج لصيانة نفسها وأمنها ، فى حاجة إلى أن تكون نشيطة فى حذر ، مقدامة فى حزم . لقد سلكت طريقاً خطرا على كل الشعوب الطموحة ، هو طريق الهجوم للدفاع ، فكان لا بد من مد خطوط مواصلاتها ، وبسط نفوذها تدريجياً عبر البحار ، من إيوبيا إلى الخرسونيس التراقى ، ومن البسفور إلى القرم ، بل من كريت وقبرص إلى أفريقيا . فهى الآن أصبحت تعتمد على غيرها ، لا من أجل الكماليات ، إنما من أجل الضروريات ، لا من أجل كسب العيش ، بل من أجل الحياة نفسها . فهى تعتمد على محاصيل مصر أو قبرص أو القرم ، وعلى القوة لضمان وصولها سالمة إلى موانيها . وهذه الخطوط البعيدة المعرضة للخطر ، لاساحة المدينة بما يجرى بين جدرانها من نبضات سريعة لأعمالها اليومية ، هى التى غدت الشرايين الأساسية التى تجرى فيها دماء حياتها . لقد أوغلوا فى بحار غريبة خطرة ، لم يعرفها الكثير من مواطنيها ، إلا فى الروايات . ومن هناك وبعد أسابيع كثيرة ، بالرغم من سرعة سفنها ، ترد الأنباء متقطعة إلى قلب الامبراطورية . فإن جاءت الأخبار سيئة ، فلم يعد فى إمكان أثينا أن تجمع احتياطى جندها من « الشيوخ والشبان » كما كانت تفعل قديماً ، لتخرج وتخلص جيشها ، على أبواب حصن على الحدود . ذلك لأن حراسها قد صفوا الآن ، لا فى أبراج المراقبة الرمادية ، تلك التى تطل على الميجاريد ، أو على جانبى ممرات بيوتيا ، ولكنهم الآن فى الموانىء التى لا عد لها ، وفى النقط الممتازة فى منطقة بحارها الجديدة . هؤلاء الستة آلاف جندى وبحار ، وهم سبع عدد مواطنيها الذين عرفناهم فى الخدمة الدائمة فى أوقات السلام فى الإمبراطورية الأثينية ، لم يرسلوا

---

(١) هيرودوت ، ٧ — ١٤٨ .

للحرب . فقد كان واجبهم واجباً متعباً ، هو حماية السفن ، التى تقوم بتموين المدينة بالقمح ، أو حراسة الأموال التى تحتاج إليها أثينا لدفع ثمن ما تحمله هذه السفن . إنهم :

لا ، لم يكونوا محاربين — إنما
فرقاً تحمى الخطوط ،

وبما أنهم لم يموتوا فى حرب ، فإن بركليس عندما تكلم عن الموتى ، لم يتمكن من أن يعترف بخدماتهم إلا بطريقة غير مباشرة . لقد كانوا حماة أثينا الحقيقيين ، لا الشيوخ أو الصبية ، الذين تخلفوا أيضاً لتزويد حصون الحدود وأسوار المدينة . فلحظة وجيزة من الإهمال ، فى بعض الطرقات البعيدة قد تؤدى إلى انهيار كل شىء . لقد كانت فترة قيلولة بعد ظهر صيف على شواطىء الدردنيل المتوهجة بفعل الشمس ، هى التى غدرت بأسطول «إيجوسبوتامى» ، وهبطت بأثينا إلى الرغام. فإذا ما وقع هذا الخط المائى فى يد العدو ، فلا الأسوار الطويلة ، أو أبراج المراقبة ، أو أرصفة موانىء پيريه ، ولا انتعاش الروح المعنوية ، كما حدث فى مراثون ، ولا الإيمان بقدرة صمود الأبطال يمكن أن ينقذ المدينة من المجاعة . لقد صارت أثينا تحت رحمة ليساندر ، وما كان عليه إلا أن يحسب كم شهراً أو أسبوعا ، تستغرقه الخفقة الواهنة الباقية من المقاومة [1] .

(١) توكيديدس ، ٣ — ١٣ — ٥ (شروط جديدة للدفاع) ، ٢ — ١٨ — ٢ (حصن قديم على الحدود) ، ٨ — ١ ، واجزينوفون ، Hell. ، ٢ — ٢ — ٢ إلى ٥ (أخبار سيئة فى أثينا ، فليساندر يتباطأ فى هجومه) . لقد اصطبغت الرثية كلها ، كما رأينا ، بمسحة محافظة ، وقد قصر بركليس نفسه بقدر الإمكان على المشاعر الملائمة للنظرية القديمة فى الدفاع . فالموتى الذين يتكلم عنهم فى مرثيته ، كانوا كلهم أو جلهم ، جنودا لا بحارة ، وقد جره ذلك إلى قول بعض جمل غير حقيقية غريبة . أنظر توكيديدس ، ٢— ٣٩ ثم ص ٢٤٠— ٢٤١ والملاحظات فيما سبق . وكانت ἀπραγμοσύνη («عدم التدخل») ، الكلمة التى ميز بها بركليس النظرية القديمة فى الدفاع . وإنه لمن الطريف أن نتعقب استعمال بركليس واستعمال خلفائه لها ، فى خطب توكيديدس. أنظر توكيديدس ، ٢ — ٦٣ — ٣ ، ٦٤ — ٤ ، ثم المرافعة السكورسيرية (١ — ٣٢ وما بعدها) ، ثم قارن ٦ — ١٨ (كلا من الحجة والصياغة ، ثم ٤ — ٦١ — ٧) . أما من حيث تجارة القمح الأثينية فى القرن السادس ، مع قبرص ومصر فانظر مؤلف ڤيلاموڤيتز ، Reden und Vorträge ، ص ٤٠ ، الملاحظة الأولى (الطبعة الثالثة، ١٩١٣، ص ٤٢) وقد أيدتها رحلة سولون إلى هذه البلاد ، وكذلك المكتشفات الأخيرة فى قبرص .

هذه هي حقائق السياسة الإمبراطورية في أثينا . ولكن النـــاس لا يواجهون الحقائق بسهولة . وهم إذا ما اتجهوا اتجاهاً مخالفاً لعادات كثيرة موروثة في الأفكار والأعمال ، عزيزة عليهم ، كما حدث في مثل هذه الحالة ، يكونون بطيئين في إجبار أنفسهم عليها . وقد صار بركليس في سياسته على فكرة الدفاع الجديدة ، وإن لم يعبر عنها أبداً في خطبه ، أي بكل ما فيها من قسوة مجردة لازمة . ويجب أن نسبق ذلك بنصف قرن لنعرف ما صار معروفاً لدينا منذ ذلك الوقت كأماكن عامة لبعض النظريات الإمبراطورية . « إننا لا ندعي أن لنا الحق في إمبراطوريتنا ، لأننا قضينا وحدنا على البرابرة ، أو لأننا خاطرنا بوجودنا من أجل رعايانا ومن أجل الحضارة ، فالدول مثل الرجال لا تلام على تأمين سلامتهـا . فإذا كنا اليوم في صقلية فذلك لسلامتنا . . . . إنه الخوف الذي يدفعنا إلى التمسك بإمبراطوريتنا في اليونان ، وهو الخوف أيضاً الذي يدفعنا إلى البقاء هنا ، بمساعدة أصدقائنا ، لننظم الأمور بأمان في صقلية » . فبالنسبة للعالم الخارجي وبالنسبة لبلاد اليونان ، التي كلها عيون مترقبة ، وحتى بالنسبة لأبولون في دلفي المطلع على كل شيء ، بدت حملة أثينا على صقلية ، كأنها اعتداء لا مبرر له . وفي أثينا اعتبرت مجرد خطوة لتأمين دفاعها ، أو هي كانت تخدع نفسها بأنها كذلك[1] .

وإنا وقد دلفنا إلى المستقبل بخطى واسعة ، فلنرجع ونمعن النظر في مسألة قوميسارية (إدارة تموين) المدينة اليونانية ، إذ هي المقدمة الطبيعية لتحليل الاقتصاد الإمبراطوري في أثينا .

وربما كان من الأحكم أن ندرس هذا الموضوع قبل ذلك ، لأنها مسألة كان على كل دولة يونانية ، صغرت أو كبرت ، معالجتها بشكل ما . فالمجاعة كانت بالنسبة لكل دولة خطراً دائماً ، عليها أن تؤمن نفسها منه بحذر . والواقع أنه من أجل ضرورة تأمين الدولة هذا ، وذلك بتدخلها في إنتاج القمح

(١) توكيديدس ، ٦ — ٨٣ — ٢ إلى ٣ .

وتوزيعه ، وهو أكثر الأعمال التجارية المحلية حيوية ، من أجل هذا كان أن تورطت المدينة فى أمور السياسة الاقتصادية لأول مرة . وطالما كانت التجارة لاتعنى إلا بالكماليات والترف ، فقد تركت الحكومة التاجر وشأنه إلا من حيث تدخلها فعلا كرقيب . ولكن بتمييز كان اتجاهه طبيعياً بالنسبة لها ، بقدر ما هو عسير الفهم علينا ، دخلت الضروريات فى نطاق قانون مختلف تماما . ويقول مؤرخ إيطالى ، « إذا قدر لرجل من العالم القديم أن يعود للحياة ثانية ، فما من شىء يبدو له غير مفهوم أكثر من قوانيننا الخاصة بالقمح » . فروسيا وكندا اليوم يتوقان لبيع القمح لنا ، توقهما إلى بيع أية سلعة أخرى ، ونرى من الصعب علينا أن نتخيل (والكتاب الذين يتكلمون بشكل غامض عن « سياسة أثينا التجارية » لم يحاولوا حتى هذا) الفارق بين الأشياء السهلة النقل ، المخصصة لعدد قليل من المواطنين ، الذين لديهم وفر من المال ، وبين الأشياء ذات الكميات الضخمة ،التى تعتبر ضروريات عامة ، والتى بما أن الحاجة إليها أكثر نسبيا ، فلن يبقى منها إلا القليل ليشتريه الخاصة . فستوردو القمح فى العصر الحديث ، حتى ولو كان الثمن مرتفعا ، يلقون بالقمح على شواطئنا . أما عند اليونانيين فستوردو القمح ، ومثلهم مثل كثير من العمال ، يجب أن يجتذبوا إلى ذلك العمل بوسائل مصطنعة . ومن الأفضل تتبع بعض الوسائل المتبعة فى ذلك[1] .

ولكن أولا يجب أن نبين أن السياسة التجارية التى سنصفها ليست خاصة بالقمح وحده . فالقمح كان الأهم ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون هو الوارد الوحيد الذى لا غنى عنه . فهناك أشياء أخرى ليست لها هذه الأهمية من ناحية الكم ، ولكنها لا تقل عن القمح من حيث ضرورتها .

---

(١) فريرو (Ferrero) فى Greatness and decline of Rome (الترجمة الإنجليزية) ، الجزء الأول ، ص ٣١٨ .— ١٩٢١ . إن حرب الغواصات وحصار المتحالفين ، كان يمكن أن يساعد على تقريب هذه الظروف إلى أذهان الطلبة فى بريطانيا وفى القارة الأوروبية .

وهذه تختلف طبعا باختلاف الأمكنة حسب سياسة الدول المختلفة وظروفها . فنجد ديلوس تشرع للوقود ، وتشرع أثينا فى القرن الخامس للسمك الرخيص . ولكن من أهم هذه الأشياء ، على أية حال ، وذلك فى أثينا ، كانت المواد المختلفة اللازمة لبناء السفن ، مثل خشب شجر الصنوبر الطويل الجميل فى تراقيا ومقدونيا ، والكتان والقنب للأشرعة ولحبال السفن ، والحديد والبرونز وشمع العسل والزفت . كل هذه البضائع المختلفة ، كما يقول الأوليجارشى العجوز ، توجد غالبا فى جهات مختلفة . « فحيث يكثر الفول تكون التربة خفيفة وخالية من الأخشاب . وكذلك لا يكون الحديد والبرونز من منتجات نفس المدينة . ونفس الشىء بالنسبة لبقية المواد ، فلم يحدث مطلقا أن توفر صنفان أو ثلاثة أصناف على الأكثر فى دولة واحدة ، ولكن شيئا هنا وغيره هناك » . وكل هذه البضائع فى بلدانها المتعددة ، وعلى الطرق المختلفة المؤدية إلى المدينة المستوردة ، كانت موضع عناية واهتمام المدينة وبمثابة « خط حربها الطويل المدى »[1] .

---

(١) الأوليجارشى العجوز ، ٢ — ١١ . فيما يخص تجارة الخشب الأثينية ، أنظر توكيديدس ، ٤ — ١٠٨ ثم إجزينوفون ، .Hell ، ٥ — ٢ — ١٦ و ٦ — ١ — ١١ (تراقيا ومقدونيا ، أنظر ، ٢ — ٩٨ — ١) ، توكيديدس ٧ — ٢٥ — ٢ ، ٦ — ٩٠ — ٣ (أخشاب كالابريا ، للاستعمال فى صقلية) ، ٤ — ٥٢ — ٣ ، ١ — ١ — ٢٥ (جبل إيدا (Ida) فى ترواده) . قارن المعاهدة بين مقدونيا والمدن الساحلية فى خالسيديا ولوائحها الخاصة بحق تبادل تصدير الخشب فيما بينها . لاحظ أن دول الساحل قد احتفظت لنفسها بحق (على عكس المقدونيين الذين كانوا الجانب الضعيف فى هذه المعاهدة) وقف تصدير الخشب لبناء السفن فى أية لحظة بإصدار قرار . وقد جاءت هذه المعاهدة فى هيكس وهيل ، رقم ٩٥ (ولكنهما لم يدركا هذه النقطة) وفى ديتنبرجر ، رقم ٧٧ ، حيث يرجع إلى الملاحظة الخامسة بخصوص مراجع أخرى . إن سياسة أثينا كما يوضحها الأوليجارشى العجوز تشمل كذلك واجب منع الدول الأخرى من الحصول على مواد بناء السفن . وتصدير هذه المواد من أثينا كان ممنوعا (ربما كان ذلك إبان الحرب فقط) : الضفادع ، ٣٦٢ (أنظر ، الفرسان ٢٨٢ بخصوص نفس كلمة ἀπόρρητα عن تصدير الطعام) . وكان من ضمن الصعوبات الكبيرة التى صادفت أعداء أثينا أثناء الحرب البلوبونيزية ، صعوبة بناء السفن . وقد كان من العسير عليهم الحصول على الخشب ، فضلا عن صعوبة العمل . لم تكن السفن ذات الثلاث طبقات تحتاج إلى مهارة فى التصميم والتركيب ، وليس هناك ما يشعر الإنسان بالفخر فى تصميم هيكل السفينة كعمل منفصل عن اللوازم التى كان يقدمها المواطنون البارزون هبة للدولة . =

ولنعد الآن لعملية التموين بالقمح . ويرجع فضل تمكننا من تتبع هذا التموين فى جميع مراحله ، إلى النصوص والأبحاث الحديثة . وسنرى أصبع الدولة يعمل فى كل مرحلة .

يحدثنا أرسطو أن فى أثينا ، عندما يجتمع المواطنون جميعا فى اجتماعهم البرلمانى المقرر فى ابتداء كل « رياسة » ، كانت ترد فى جدول الأعمال عبارة « خاص بالقمح » فاهتمام الشعب يوجه رسميا إلى هذه المسألة عشر مرات فى السنة . وسنرى بعد قليل كيف كانت تعالج أثينا هذه المسألة بوصفها دولة ومدينة كثيرة الاستيراد . ولكن يجب أن نقف أولا لنبين أن نفس المسألة كانت تظهر فى آن واحد فى جدول الأعمال ، وفى تفكير جماعات أصغر من ذلك بكثير ، لأنه حتى إذا ظهرت دولة بمظهر الكفاية الذاتية ، فقد تعرض المجاعة فى أى سنة عن طريق تلف عام أو جزئى يصيب محصولاتها . ولهذا كانت « إدارة التموين » الوطنية دائما ، وفى كل مكان فى عالم الدولة المدينة ، موضع اهتمام عام ومراقبة الدولة . ولم يسمح أبدا بتصدير القمح دون مراقبة ، واتخذت خطوات محكمة ، كما تبين النصوص التى لدينا ، للإبقاء على مورد رخيص دائم للتموين ، سواء فى الداخل بصفة مطلقة ، أو إذا ثبت أن ذلك غير كاف ، ففى الخارج بمساعدة التجار .

وثم اثنان من هذه النصوص جديران بالذكر هنا . ففى ١٩٠٣ عثر على حجر فى ساموس ، يعطينا تفاصيل هامة عن كيفية تنظيم الدولة المدينة لإدارات تموينها فى القرن الثانى قبل الميلاد . فساموس كانت تعتمد فى تموينها ، أو الجزء الأكبر منه على مزارع مقدسة للإلهة هيرا ، واقعة فى الأرض الرئيسية . وهذه الأرض كانت تؤجر بالطريقة العادية إلى وسطاء ، كانوا يبيعون القمح بأسعار تعتبر مرتفعة جداً . وبذلك عزمت دولة ساموس على الاضطلاع

= ولم تكن الصعوبة فى نوع العمل ، بل فى القدر المطلوب لبناء أسطول بسرعة . وفى هذه المناسبات — بل وعموما فى الواقع — يبدو أن الخشب لم يكن يحفظ وقتا كافيا ، حتى يجف ويكون صالحا تماما للعمل . أنظر توكيديدس ، ٧ — ١٢ — ٣ ، ٨ — ١ — ٣ ، ٨ — ١٥ — ١ إلى ٨ — ٢٥ — ١ (ست وحدات صغيرة بنيت على عجل) .

بإدارة الأراضى . ويبين النص كيف كانت تعمل لتنظيم هذا العمل . فقد جمعت المال اللازم لنفقات العمل ، لا بفرض ضريبة ، ولكن بفتح قائمة اكتتاب واعدة كل من يكتتب من المواطنين أرباحاً سخية (الرقم المضبوط لم يعرف بعد) . فسيباع القمح إلى المواطنين إذن بثمن زهيد ، وبعبارة أدق ستوزعه الدولة بهذا الثمن على كل من يطلبه من السكان الأكثر فقراً . وكما يشير الناشر فلدينا فى أبسط الاحتياطات الضرورية هذه ، التى اتخذتها الجماعة الصغيرة ذات الكفاية الذاتية ضد خطر أسعار المجاعة الدائمة المثول ، نواة سياسة «الخبز والسرك» التى اتبعتها روما الإمبراطورية . فلما آلت إلى روما ممتلكات برجاموس ، عاملتها كما عاملت ساموس ضيعة هيرا الصغيرة . وكم يكون خطيرا عندما يكون السياسيون منطقيين للغاية ، أن يوسعوا خيالهم بالتوسع فى مسئولياتهم ! وكما نقل شيشيرون نظرية أرسطو السياسية ، فعل كايوس جراجوس المسيطر على عاصمة الإمبراطورية ، واتخذ سياسته عن خبرة دويلات اليونان السياسية[1] .

أما النص الآخر فقد عثر عليه فى تاورومنيوم أو تاورومينا ، فى صقلية التى لم تكن فى ذلك الوقت بعد مركز سياحة . وهو يعطينا بعض حسابات المدينة الحقيقية خلال عدة سنين ، ومن بينها حسابات « حراس القمح » الذين يشرفون على المخازن العامة ويبيعون القمح للمواطنين . وهذا القمح يأتيهم من مصدرين ، فبعضه من موظفين مسمون « شراة القمح » ، وكان اختصاصهم أن يمونوا الشون لحساب الدولة وذلك بالشراء من التجار ،

---

(١) Ath. Pol. ، ٤٣ — ٤ (مفكرة) : ڤيلاموڤيتز وڤيجاند (Wiegand) فى Ein Gesetz von Samos über die Beschaffung von Brotkorn aus öffentlichen Mitteln ، أنظر هيرميس ، المجلد ٣٩ ، ص ٦٠٤ وما بعدها : أنظر أيضا Jahreshefte ، الجزء العاشر ، ص ١٩ وما بعدها ، فيما يخص نصا هاما عن القرن الأول ق. م. فى تكريم رجل ميجارى لمناسبة شغله وظيفة « قدم طعاما لكل المواطنين والغرباء والمقيمين الرومان ، ولكل العبيد وأولادهم » — ويخالف هذا كثيرا الاحتفالات الرومانية المنظمة تنظيما محكما ، وما يفرق من هبات ، التى نشأت عن تلك الحفلات الرسمية الصغيرة السارة للدولة المدينة .

والباقى من موظفين آخرين يسمون « بالمتسلمين » ويتسلمون المحصول من أراضى الدولة التى يزرعها زراع خصوصيون كما فى ساموس . وهكذا تقع المسئولية فى أيام المحنة على حراس القمح (وأمامهم تكون مسئولية الموظفين التابعين أنفسهم) ، الذين قد يحاسبهم الشعب على قصر نظرهم فى توفير المئونة لهم [١] .

فإذا ما رأت بلدة صغيرة مثل تاورومينا ، أنه من الضرورى أن تستخدم مالا يقل عن ثلاثة مجموعات من الموظفين لتأمين تدبير تموينها ، فكيف يكون الأمر إذن بالنسبة لبلدة كبيرة ، مستوردة مثل أثينا ، حيث اتخذت المسألة شكلا أوسع بكثير ؟

فلنتتبع إذن سياسة هيئة تموين أثينا ، كما تتبعها ساستها ، من خارج أثينا من ساعة شحن السفن بالقمح وإبحارها ، حتى بيعه فى سوق أثينا العامة .

فأول واجب على المدينة المستوردة طبعاً ، هو أن تعقد معاهدة تجارية مع بلدة تزرع القمح ، حتى يصبح لتجارها الحق فى أن يذهبوا بسفنهم إليها لإحضاره . ويبدو أن أولى علاقات أثينا كانت مع قبرص ومصر . ولما أقفلت هذه الأسواق فى وجهها أثناء عدائها مع الفرس المسيطرة على تلك البقاع ، كافحت بقوة لاسترجاعها . فأرسلت حملات عدة « لتحرير » قبرص . ولما أن أظهرت مصر استعدادها لطرد الفرس والتخلص من نيرهم ، دخلت أثينا فى علاقات مع أمير وطنى كان على استعداد لأن يبيح لتجارها « التجول الحر فى بلاده » . ولما فشلت تلك الخطط ، شقت أثينا طريقها نحو الهيلسبونت والبسفور ، وأنشأت علاقات لها مع الإمارات الصغيرة فى جنوب روسيا ، حيث « يزرع » الرجال القمح ، « لا ليأكلوه بل ليبيعوه » ، كما يقول هيرودوت . وهذه العلاقات الأخيرة التى قويت

---

(١) ديتنبرجر ، رقم ٥١٥ ، خصوصا الملاحظة رقم ١٥ . ويرجع ذلك الى حوالى عام ١٠٠ ق.م .

بزيارة بركليس الشخصية ، وتوطدت عندما ضم تماماً طريق البسفور الهام . بعد ثورة بيزنطة القصيرة المدى ، بقيت حتى آخر القرن الخامس ، بل وبعد ذلك ، المصدر الأساسى لتموين أثينا بالغذاء . أما أهميتها فيمكن أن ترى من التمجيد الذى رأت أثينا من الحكمة أن تسبغه على الأمراء الوطنيين الذين يشرفون على التموين ، تمجيداً دفع بالأثينيين المستقرين فى بلدتهم ، والذين لم يقدروا مصاعب إدارة مستعمرات متمردة على حدود الإمبراطورية ، إلى الغضب[1] .

فإذا ما حصلوا على الإذن بالتجارة ، فالواجبان التاليان هما إغراء التجار بالذهاب لإحضار القمح ، وتأمين الطرق . وأول هذين الواجبين ليس سهلا كما يبدو ، فالحبوب صعبة النقل . وزيادة على ذلك فالتجارة فيها لا يحتمل

---

(١) توكيديدس ، ١ — ٩٤ ثم ١ — ١٠٤ — ٢ ثم ١ — ١١٢ — ٢ (قبرص) ، ديودور ، ١١ — ٧١ — ٤ (مصر) ، هيرودوت ٤ — ١٧ ، بلوتارخوس ، الفرس ، ٢٠ (بركليس فى بونتس) ، ولم يحدد لذلك تاريخ ، ولكن يمكن أن تربط عن ثقة بأحداث عام ٤٣٩ . أنظر توكيديدس ، ١ — ١١٧ ودعوستينيز ، ٢٠ — ٣١ وما بعدها (الأمراء الوطنيون). — (١٩٢١ .قارن أشكال الضغط والمداجاة المختلفة ، وكتابة القوائم السوداء ، وتقدير المنح ، وحتى الأوسمة التى اختبرت فى ظروف مشابهة قبل الدول المحايدة ، وبعض الأفراد فى أثناء الحرب .) أنظر فرانكوت Le pain à bon marché et le pain gratuit dans les cités grecques. فى Mélanges Nicole ، جنيف ١٩٠٥ ، ص ١٣٥ وما بعدها . وهذا المقال ، الذى يجب إعادة طبعه على نحو تلخص فيه الموضوعات الأخرى ، ملىء بمراجع نافعة . أما ما انتهى إليه من نتائج فلم تتأثر إلا قليلا بالجزء من الموضوع الذى عالجه L. Gernet حديثاً بشكل أكثر إسهابا فى ، L'Approvisionnement d'Athénes en blé au Ve et au IVé Siècle. (Mélanges d'histoire ancienne ، باريس ١٩٠٩) . وقد جمع جيرنيت عددا من الوثائق والمراجع يشكر عليها ، ولكن أسسه الاقتصادية مزعزعة . فمثلا هو لا يؤيد فقط عدد عبيد أتيكا الذى كان يقدر قديما بـ ٣٠٠ ألفا ، وهو رقم مستحيل ، بل يذكر مؤيدا أيضا ، التقليد الذى عفى عليه الدهر ، ويقضى بإرجاع الأزمات الاقتصادية فى اليونان إلى إغراق السوق بالقمح الرخيص (ص ٣٣٠ ملاحظة) ، أى أن الضرائب المفروضة على القمح لحمايته ربما كانت مفيدة فى بعض الأحيان . وقد ثبت بطلان هذا الرأى نهائياً ، حتى فى ظروف روما التى كانت أكثر اتساعا ولينا . أنظر الجزء الثانى من مؤلف فريرو Greatness and Decline of Rome ، التذييل رقم ١ ، الذى أكمله سالفيولى (Salvioli) ، Capitalisme ، ص ١٦٩ وما بعدها .

أن تكون عملا ماليا مربحا ، مثل التجارة فى « طرائف » أرض البرابرة الداخلية ، التى كانت أقل منها فى المقدار . ولذا كان التجار فى حاجة إلى حسن الإدارة . وقد ساست أثينا أمورهم على طريقتها الخاصة بسياسة مزدوجة ، من الملاطفة والإرغام . فرحبت بتجارها وفتحت لهم ذراعيها ، وكانت تسرف فى إغداق التيجان الذهبية ومراسم التكريم على الأجانب الذين استحقوا شكرها بإحضارهم حمولة مركب تجارى . إلا أن الإغراء لم يكن كافيا فى هذا المجال ، بل كان لابد من القوة لتدعمه .

ويرينا قانونان محفوظان فى ديموستينيز الصورة التى اتخذها هذا الإرغام . أولهما كما يلى : « لايجوز لأى أثينى ، أو لأى أجنبى مقيم فى أثينا ، أو لأى شخص تحت إشرافهم » (وبهذا جعلت أثينا السادة يشرفون على ما يدخره عبيدهم) « أن يقرض مالا على مركب لم تكلف بإحضار قمح لأثينا ، أو أى شىء آخر ذكر بوجه خاص » . ويحتمل هنا ألا تكون الكلمات الأخيرة جزءا من نص القانون الأصلى ، ولكن أحلها المتكلم ، رغبة منه فى الاختصار ، محل قائمة طويلة تحوى ضروريات أخرى موضحة — مثل مواد بناء السفن التى قد أشرنا إليها . وحتى بهذا التصريح ، فالقانون كان شديدا ، بما فيه الكفاية ، ولابد أن أحس التجار وقعه الشديد عليهم .

أما القانون الثانى ، فقد كان أشد وأقوى من الأول . هو يحرم على أى شخص يسكن أثينا أن يشحن الحبوب مباشرة إلى ميناء غير بيريه . وأثر هذين القانونين واضح . فما من تاجر يستطيع أن يترك القرم أو مصر دون شحن سفينته قمحا ، وسيقوم هذا بدور المغناطيس ليجذبه ثانية إلى أثينا . وحتى إذا ما صادفته مجاعة فى الطريق ، فلن يجرؤ أن يمس الكنز الذى يحمله فى قاع مركبه ، لأن النقطة الوحيدة التى اتفقت فيها النصوص الثلاثة ، هى أن كان عقاب من يخالف هذا القانون الخاص قاسيا « منتهى القسوة » .[1]

---

(١) القانون الأول : ديموستينيز ، ٣٥ — ٥١ ، الثانى ، ٣٤ — ٣٧ ، ٣٥ — ٥٠ ، ليكورج فى .Leocr ، ٢٧ . إن العقاب البريطانى فى مثل هذه الظروف يكون رفض تموين السفن بالفحم .

وطبعاً كان الطريق إلى الوطن محمياً بقوة أثينا البحرية العامة . ولكنها اتخذت تدابير خاصة لتتأكد من أن أوامرها مرعية . فعند سستوس فى الدردنيل ، وهى أخطر نقطة فى طريق قمحها المطروقة ، أقامت مجلساً خاصاً من الموظفين الرسميين ، أى « حراس الهيلسپونت » ليراقبوا السفن المارة ، للتأكد من أنها قصدت پيريه رأساً . ومن قرار صدر فى سنين حرب البلوپونيز الأولى ، نعلم أن أثينا صرحت لمدينة صغيرة على ساحل مقدونيا بنقل قمحها إليها رأساً من بيزنطة ، بدلا من طريق پيريه ، وأعطت الحراس تعليمات لتسهيل هذا الامتياز . ومواد النص تبين كم كان هذا القانون العادى شديداً ، وكم كان هذا التصريح عظيما وسمحا[1] .

وعلى ذلك كانت سفن القمح تقلع من المضايق ، وتتجه جنوباً مع التيار عند سيجيوم ، ثم تشق طريقها بين الجزائر وتمر قريبة تحت صخرة سونيوم يعلوها معبدها المتألق ، ثم إذا بها تفرغ حمولتها فى پيريه . ولكن أصحاب الشحنة لم ينتهوا بعد من النظم الأخرى . فالقمح يجب أن يخزن فى أهراء الدولة . حيث تشرف عليه هيئة مكونة من عشرة مفتشين رسميين ليتأكدوا من أن ثلثى القمح ، قد نقل رأساً إلى أسواق أثينا . أما الثلث « الباقى » ، ففى الظروف العادية ، كان التجار أحرارا فى إعادة تصديره[2] .

---

(١) هيكس وهيل ، رقم ٦٠ ويتكلم كما لو كان مركز الحراس بيزنطة . وطبعا كان مركزهم فى هيلسپونت كما يدل اسمهم على ذلك وربما كان فى سستوس (أنظر توكيديدس ، ٨ — ٦٢ — ٣ ، ١٠٢ — ١ ثم هيرودوت ٩ — ١١٥) ، وفضل پيزستراتوس سيجيوم : هيرودوت ٥ — ٩٤ . وليس لدينا وسائل نعرف بها مدى التوسع فى الامتياز الذى منحه القرار . وفى توكيديدس ٣ — ٢ — ٢ تنتظر ميتيلين « الرماة والقمح من البحر الأسود » ، وواضح أنه وارد إليها مباشرة وربما بتصريح من موظفى الدردنيل ما دام الأمر يتعلق بالقمح .

(٢) Ath. Pol. ، ٥١ — ٤ (دليل من القرن الرابع . ومن المحتمل أن كان يشرف على واجبات هؤلاء المفتشين الخصوصيين فى القرن الخامس مراقبو القمح فى المدينة ، ولكن المهم أن تلك الواجبات كانت تؤدى فعلا) . المخزن : توكيديدس ٨ — ٩٠ — ٥ . ويتحدث توكيديدس ٨ — ٤ (أنظر ، ٧ — ٢٨ — ١) بأن سونيوم حصنت فى شتاء ٤١٣ — ٤١٢ ، « لتكفل الأمن لسفن القمح فى طريقها حولها » . وقد كانت الحصون فى أعلى =

لم تبق إلا آخر عملية مالية ثم نترك ربان سفينتنا التجارية . فما زال عليه بيع ثلثيه إلى تجار التجزئة المحليين . وهنا أيضاً يجب أن يكون حذرا . فالدولة تحرم عليه أن يبيع أكثر من خمسين « مكيالا » إلى تاجر واحد . والغرض من هذا الشرط واضح ، وهو وضع القمح فى أيد كثيرة ، ومنع كل محاولة لاحتكار السوق . ولكن هذا القانون ككثير غيره ، قد يفضى إلى النتائج نفسها التى وضع لتجنبها . فربان السفينة التجارية كان إلى حد بعيد محتكرا ، مثل تاجر التجزئة المحلى أو الطحان ، فإذا ما كان فى الميناء مركب واحد أو اثنان من مراكب القمح ، وكانت مخازن المدينة آخذة فى النقصان ، أمكنه دفع تجار التجزئة إلى مضاربة بعضهم البعض فى رفع ثمن الخمسين مكيالا . ومن هنا ، وعلى أية حال عطل هذا القانون وقتيا فى إحدى المناسبات ، عطله هذا الموظف الجرىء ، هذا العجوز الشجاع نفسه أنيتوس الذى بتهوره قدم سقراطا للمحاكمة . أغرى أنيتوس تجار التجزئة ، على مسئوليته هو ، بتكوين جماعة ضد المستوردين . وهؤلاء بالطبع قاموا بضجة ، بخصوص عدم شرعية هذا الإجراء ، وعهدوا إلى ليسياس أبرز نواب المجالس فى الدفاع عن قضيتهم . ولازالت مرافعته ، وهى مثل بارع على كيف يستطيع محام قدير تعكير المياه لإخفاء موضوع النزاع الحقيقى . ولكنه التقى اليوم أخيراً بالمفسر الذى يعادله مهارة وذكاء ، فنجح ڤيلاموڤيتز (بالتأكيد أكثر بكثير من خصم ليسياس فى ذلك الوقت) فى أن يجعلنا نرثى لهؤلاء « الأبالسة » تجار التجزئة[1] .

= المرتفع ، إلى جانب المعبد ، حتى لم يكن واضحا من أول وهلة ، الغرض منها . وكان الاحتفاظ بسفن الحراسة فى الميناء المجاورة الصغيرة يبدو عمليا أكثر . ولكن ذلك « الأمن » المنشود ربما كان ضد الجو والهجوم من ناحية البر ، وليس ضد سفن القراصنة . فالسفن التى تبحر فى الشتاء تستطيع أن ترسو وتنتظر فى سونيوم رغم احتلال البلوپونيزيين لأتيكا . لقد اضطرت أثينا فى الواقع إلى أن تحصن پيلوس (Pylos) أخرى فى أرضها .

(١) ليسياس ، ٢٢ و ڤيلاموڤيتز ، A. A. ، الجزء الثانى ص ٣٧٤ وما بعدها . وتؤرخ الخطبة بالشهور الأولى من عام ٣٨٦ قبل إمضاء معاهدة « سلم الملك » مباشرة ، تلك المعاهدة التى لاشك فى أن ثمن القمح المرتفع كان له صلة بها .

وأخيراً ، بعد أن تمت إجراءات المخازن ، ينقل القمح إلى السوق . ولكن ما يتعرض له من التقلبات لم ينته بعد . فبينما تركت السلع العادية تحت مراقبة كتبة السوق فقط ، كانت هناك لجنة خاصة من حراس القمح ، قوامها خمسة أشخاص ، ثم أصبحت فيما بعد حوالى ٢٠ لمراقبة بيعه . ولم يكن واجبهم بالضبط تحديد الأسعار (رغم أنه يكاد أن يكون وصل إلى ذلك) ، ولكن أن يكفلوا للجمهور العدل والنزاهة . وهذا يشمل مثلا الحق فى منع الطحان أو الخباز من العمل على الحصول على ربح مُبالغ فيه . فيجب أن تبقى أسعار الدقيق والخبز فى مستوى شديد الارتباط بتكاليف المواد الخام . وثم واجب آخر أدق وهو إغراء بائعى الحبوب بالتزام « الثمن المقرر » ، والتنازل عن الأرباح الفاحشة عند ما ييسر لهم ذلك ، نقص القمح وقلته . « والثمن المقرر هو ثمن البيع المحدد فى المصفق (البورصة) . وهو الثمن الذى تبيع الدولة به قمحها عند الحاجة » . « ولكن الدولة لم تجرؤ على اتخاذ إجراء عنيف ، كأن تحرم على التجار تجاوزه . وكل ما تفعله ، هو أن تستعمل كل الوسائل الممكنة لإقناع التجار ليكونوا كرماء إلى حد أن يتعاملوا طوعاً بهذا الثمن » . وقد كان لمثل هذه الأساليب أثرها فى القرن الخامس فى أثينا ، حيث كان الشرف والواجب العام يعدلان عند معظم الناس ، الذهب والفضة . أما فيما بعد فلم يكن لها هذا الأثر ، كما يمكن أن نرى ذلك على الأقل ، من ازدياد عدد الموظفين الذين يعملون فى تموين القمح [1] .

---

(١) ڤيلاموڤيتز ، .A. A ، الجزء الأول ص ٢٢٠ ، ولا سيما ملاحظة ٦٧ و .Ath. Pol ، ٥١ — ٣ ، ثم ديموستينيز ، ٣٤ — ٣٩ ، ٥٦ — ٨ (« والثمن المقرر ») . قارن النصوص التى درسها ولهلم فى هيرميس ، الجزء ٢٤ ص ١٤٨ وما بعدها ، ثم ديتنبرجر ، رقم ١٠٢ ، وأيضا (١٩٢١) فى طرق التسعير وأقصى ثمن تقرر أثناء الحرب .

هذا إذاً ماعناه بركليس ، حين قال لمستمعيه ، مستعملا الجملة القديمة ، إن المدينة كانت « تكفى نفسها بنفسها كل الكفاية فى الحرب والسلم » . فالكلمات بالنسبة لمن يستمع عرضاً ، لتعنى صوت عجلات نقل القمح عندما تحمل المحصول من الحقول إلى أهراء المدينة . ولكن بركليس عندما تكلم إذ ذاك ، تراءى له المراقبون فى سستوس وفى أراضى الحراث السيثيون البعيدة .

الفصل الرابع عشر

اقتصاديات الإمبراطورية . التعامل الحر

’Επεσέρχεται διὰ μέγεθος τῆς πόλεως ἐκ πάσης γῆς τὰ πάντα.

إن عظمة مدينتنا تجذب منتجات العالم إلى موانينا .

توكيديدس ، ٢ — ٣٨ .

إن النتيجة الطبيعية للتجـــارة هى أنها تؤدى إلى السلم . فالأمتان اللتان تتعاملان سوياً تنتهيان إلى الاعتماد المتبادل على بعضهما البعض ، فإذا كان لأحداهما صالح فى الشراء ، فصالح الأخرى فى البيع . وكل الصلات قامت على الحاجة المشتركة .

مونتسكيو ، ٢ روح القوانين ، ٢٠ — ٢ .

أصبح فى مقدور أثينا أن تتسع بعد أن ضمنت موارد الغذاء ، فقد زال العائق الكبير الذى كان يحول دون تقدمها المادى ، فجعلت من نفسها بعد عناء بالغ وهى مدينة ليس إلا ، إمبراطورية . ولم يكن عليها ، كما قال بركليس إلا أن تحتفظ بما كسبته لتبقى على المجهودات التى بذلها آباؤها . ومهما ازدادت عظمتها فلم تكن لتخشى الجوع أبدا ، فقد تم انقلابها الاقتصادى ، وكما حدث فى أوروبا الغربية فى بداية القرن التاسع عشر ، بدت كل الحضارة بين يديها . لقد أوتيت الكثير بوسائل قليلة ، رغم حكم الطغاة لها وانحصار اعتمادها على موارد أتيكا الضئيلة . فأى شىء لا يمكنها الآن ، وهى فى فيض من الحرية ، والعــــالم كله فى وسعها أن تشركه فى مشروعاتها[1] ؟

---

(١) هناك أكثر من اتصال لفظى بين الحرية السياسية ، والتجارة الحرة كما أكدته مرارا المرثية . أنظر هيرودوت ، ٥ — ٦٦ : « لقد كانت أثينا من قبل عظيمة ، ولكنها لما أن تخلصت من الطغاة ، زادت عظمة » . إن هيرودوت يكاد يعتذر لستمديه من الديموقراطيين فى القرن الخامس المنادين بحرية التجارة ، بالتقدم الاقتصادى الذى أحرزته أثينا فى عهد آل بيزستراتوس .

وعلى هذا النحو بدت آمالها لبركليس وأقرانه ، الرجال وأبناء الرجال الذين جعلوا أثينا ذات كفاية ذاتية ، فقد تطلعوا إلى عهد رخاء مادى ، وتقدم روحى يعززها ويحميهما سلم مسلح ، يسود الإمبراطورية الأثينية . يجب ألا يكون هناك أى اعتراض على سيادة البحرية الأثينية ، وألا يضن بوقت أو مال لصيانة كفالة قوتها ، فالأثينيون يجب أن يضربوا للعالم مثلا للولاء المدنى للخدمة الشهيرة التى اعتمدوا عليها جميعاً ، إلا أن هذا لم يكن إلا أساس نظرية بركليس الإمبراطورية . ومهما كان ما قد أوحوا به من ولاء ، فالأساطيل والدفاع ليسا سوى وسائل لأغراض روحيـة ، ولم يخطىء بركليس مطلقاً بخلط الوسائل بالغايات . فبالنظرة الثاقبة التى امتاز بها جيشه وعصره ، وضع بركليس نصب عينيه الأمور الجوهرية . فأثينا يجب أن تسبق العالم فى التسلح ، إذ عليها أن تقوده فى الحضارة ، ويجب أن تـكون سيدة بالمعنى المزدوج حاكمة ومعلمة[1] .

فماذا تعلم ؟ للجواب على ذلك يجب أن نعود مرة أخرى إلى المرثية . هى لن تعلم الفن أو الأدب ، أو ما نعرفه حديثاً بالهيلينية ، وإنما هو مجرد ممارسة الفضيلة المدنية ، « ما هى الحياة الخيرة منذ مظاهر قوتها الأولى ، إلى تمام كما لها » . ولـكن أثينا منذ أن غدت إمبراطورية ، نأت بلواء الفضيلة المدنية عن ما قد نلحقه به من واجبات تافهة جامدة . فإذا كان مواطنوها سيغدون حقاً « قدوة لليونان » ، فيجب أن يهيئوا مكانا فى طبيعتهم ، ووقتاً فى حياتهم لعالم الفن والآراء الجديد ، الذى انفتح لهم باتصالهم الحر بالعالم الخارجى . ويجب أن يضطلعوا بعملهم لا باستقامة الاسبرطيين الجامدة ، لـكن بروح وضاءة مرحة ، « بروح مستقلة ، وإدراك متشعب النواحى ،

(١) توكيديدس ، ٢ — ٣٧ — ٤١ ، ٦١ — ١ . أنظر ١ — ١٤٤ — ١ ، ثم ٤ — ٦٢ — ٢ . اعتبر بركليس حرب البلوبونيز فترة لابد منها لتنقية الجو . ولـكنه يبدو أنه كان يتطلع دائما إلى الاستقرار الدائم الذى كان ليليها . وكذلك فعل المهندس الذى استخدمه فى البروبيلايا والإرخثيوم .

وسلوك كله سهولة وسماحة تلقائية ،. ويجب أن يرحبوا الترحيب كله بما يقدمه العالم لهم ، كما كانت تسعد مدينتهم دائماً بالترحيب ، كما تقضى التقاليد، بالوافدين من كل فج . ويجب أن يكونوا محبين للجمال والحكمة ، حب لهذا بدون إسراف، ولذلك بدون تخنث . وبهذا وحده يستطيعون، لا بأقوالهم إنما بأفعالهم أن يعلموا البشرية السر العظيم ، الذى لم تعمل أى جماعة للكشف عنه جدياً على هذا النحو ، وهو كيف يمكن للرجال ، بل وكيف يجب أن يعيشوا معاً ، فى مجتمع متمدين ، وكيف يمكن للحرية والصلاح والجمال والمعرفة والعدل ، أن تعيش معاً فى مكان واحد ، وتشيع السعادة فى الجماعة(١).

---

(١) أنظر ثوكيديدس ، ١ — ٢ — ٦ والأفكار المشابهة فى المرثية . إن الترحيب بالأجانب والأخذ بالآراء الأجنبية ، أمور متشابهة تخطر لعقول الناس ، ويجب اعتبار المجتمع الأثينى فى عصر بركليس ، أنجح مثل للتنظيم الاجتماعى عرف فى التاريخ . فمجتمعها قد رتب (arranged) (organized) (كلمة منظم) كلة فيها كثير من الدقة والقصد) ، الترتيب الذى يمكنه من أن يستفيد أكبر فائدة من الناس الذين تحت تصرفه . وبدون أى نظام للتربية القومية ، كما نفهمه نحن من معنى هذه الكلمة ، فقد استطاعت أن «تستخلص» من أعضائه كل ما فيهم من قدرة وميزات . « وتدلاحظ Galton (Hered- itary Genius ، طبعة ١٩١٤ ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠ ، القائمة ، ص ٣٠) العدد الفذ الذى أخرجته أثينا « من الشخصيات الممتازة » فى ذلك العصر ، وحاول أن يبين أن الأسباب المواتية لظهور ذوى الكفاية الممتازة ، لابد وأنها أخرجت أيضا مثل هذا العدد وأكثر منه ، من رجال ، يعدون ذوى قدرة استثنائية ، وإن لم يكن لديهم ما نسميه « نبوغاً» . وبعبارة أخرى ، إن المستوى الروحى لهذه الجماعة كان مرتفعا بشكل يثير الدهشة. « ومستوى الكفاءة فى الجنس الأثينى يكاد أن يكون ، على أقل تقدير ، على درجتين أعلى من مستوى جنسنا ، أى نحو مقدار ما يعلو به جنسنا عن مستوى زنوج أفريقيا . وهذا التقدير الذى قد يبدو للبعض غريبا أثبته ، ما للشعب الأثينى من فكر وقاد ، وثقافة عالية ، ذلك الشعب الذى كانت تلقى أمامه المؤلفات الأدبية ، وتعرض عليه الأعمال الفنية ذات الطابع الجدى ، الذى يعلو كثيرا ما يمكن أن تدركه أوساط الناس من بنى جنسنا » . هذا صحيح ، ولكن العبرة الخاصة بتحسين النسل التى استخلصها جالتون منه لم تكن مقنعة ، أى أن أثينا « بطريقة انتخاب لا شعورية إلى حد ما استطاعت أن تنشئ سلالة رائعة من الحيوانات البشرية» ، أنجبت فى مدى قرن(٥٣٠ — ٤٣٠ ق.م.) ١٤ « شخصية ممتازة » . وبقدر ما كان الاختيار اليونانى أمرا مقصودا ، فقد كان يتم بدون أى مراعاة للصفات العقلية والخلقية (أنظر ص ٤٠١ فيما سبق) . إن السلالة يمكن أن تفسر لنا جزءا من ذلك ، ولكنها لا تفسر كل عظمة اليونان القديمة . لماذا ازدهرت كل هذه الكفاءات فى أثينا بصفة خاصة وفى هذا الوقت بالذات ؟ طبيعى أن ذلك لم يكن لأن البراعة حلت بالأثينيين فجأة ، إنما ذلك يرجع لأسباب اجتماعية. ويجدر بنا أن لا ننسى أننا لا نرجع تحت البارثنون =

ولكن إذا كان على أثينا أن تؤدى رسالة الحضارة العظيمة هذه ، كان لا بد من توافر شرطين ماديين ، الأمان المطلق ، والثروة الكافية . وقد رأينا أن الشرط الأول قد ضمنته قوتها البحرية . فكيف تحصل على الشرط الثانى إذن ؟

وهذه المسألة التى يجب أن نتناولها الآن ، كانت المشكلة الدائمة فى سياسة الأثينيين فى القرن الخامس . ودار حولها فى الصور العديدة التى اتخذتها باختلاف الظروف ، معظم المناقشات الكبرى فى السياسة الأثينية . إذ على الجواب الصحيح عليها ، يتوقف كل مستقبل أثينا ومثلها العليا ، وهو ماشعر به الناس على نحو مبهم .

وكان أحكم سياسيين فى الإمبراطورية على ثقة من الجواب الصحيح . وكان أحدهما مؤسس الإمبراطورية والآخر أكبر نصير لها . فأفضل طريق لجعل أثينا دولة غنية ، كما ناديا ، هو ألا تقنع بدخلها عما يدفع للامبراطورية

= إلى ذكاء وعبقرية فيدياس وحده ، وإنما يرجع ذلك أيضاً إلى عبقرية النظام الاجتماعى الذى عرف كيف يستفيد منه . وعلى هذا القياس فإنشاء Albert Memorial لا يرجع لأن أحدا لم يولد فى هذا البلد وله تلك القدرة الكاملة اللازمة لتصميم ما هو أحسن منه ، ولا حتى لأن أحدا لم يقدم مشروعاً أحسن من ذلك (فقد أرسل على الأقل مشروع يفوقه كثيرا ولا يزال موجودا) ، ولكن ذلك يرجع إلى النظام الاجتماعى والصناعى اللذين أشرفا على إقامته . ومن المستحيل أن نقدركم من الكفايات نفقدها إذن فى ظل إدارتنا السيئة ، ولكن سيادة أقوى الصفات (إجمالا هى تسلط قوة الإرادة على العقل والشعور) الملحوظة فى الحياة الغربية الحديثة تبين لنا ، كم هى كبيرة هذه الخسارة . ومن حيث أخطاء « التربية » الغربية فى هذا الموضوع ، أنظر كتاب What is and what might be لإدموند هولمز (Edmond Holmes) كبير مفتشى المدارس الأولية ، الذى أقنعته تجاربه « أنه فى الأحوال المواتية ، من الممكن أن يغدو الطفل العادى هو الشاذ النادر ، ويصل إلى ما يعتبر عادة درجة مرتفعة من التقدم العقلى والروحى » (ص ٣٠٣) ، وهذا تعليق أخاذ على تقدير جالتون . ١٩١٤ — وقد تركت هذه الملاحظة بدون تغيير . فتجارب سنتين فى نفس العمل الذى كان فيه المستر هولمز ، قد أيدت اعتقادى فى رأيه الذى لا ينطبق على الأطفال والمراهقين فحسب ، بل إلى حد ما على البالغين أيضاً . أنظر فى هذه النقطة ، University Tutorial Classes الذى كتبه البيرت مانزبردج (لندن ، ١٩١٣) ثم انظر مقالا بعنوان « Education, National and Social » فى كتابى Nationality and Government (لندن ١٩١٨). أنظر أيضا فى موضوع البيئة كله R. M. Maciver فى بحثه البديع Community, a sociological study ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٠ ص ٣٧٣ وما بعدها .

من جزية ، بل يجب أن تنهض بتجارتها وصناعتها . وكما أدركنا لم يكن هذا بأسرع الطرق ولا أقربها للتقاليد ، كما لم يكن أوفق وسيلة تغرى بالتقدم إلا أنه كان أسلمها ، بل لقد تضمن الحرية ، مثل الإمبراطورية الأعلى الجـــديد .

إذن قبل ان نسأل ما هى وسائل الإثراء الأخرى التى تراءت لساسة أثينا ، ينبغى أن نتجه بتفكيرنا إلى مواردها التجارية والصناعية ، وما يعول عليهما ، فهل كانت كافية لإمدادها بالثروة المادية التى تحتاجها إذا ما أرادت إنجاح مشاريعها ؟

طبيعى أن تتوقف التجارة على القوة البحرية ، فبعد موقعة سلاميس وميكالى فى عام ٤٨٠ ، ٤٧٩ ، حل الأسطول الأثينى محل أساطيل مدن آسيا الصغرى فى بحر إيجه . وذلك نفس ماحدث فى نهاية الأمر لبحريتها التجارية . لقد تأثر بالحرب الفارسية أهم منافسى أثينا فى ميدان التجارة ، تأثروا بها بشكل واضح فنهبت ميلتوس ، واستعبد سكانها بعد الثورة الأيونية ، وضرب الفرس إريتريا فى طريقهم إلى مراثون . وفقدت مراكز تجارية هامة أخرى ، مثل فوكيا ، بعضا من أكثر شخصياتها نشاطا وإقداما ، الذين ماكانو ليخضعوا لنير الفرس[1] .

ولكن تقدم التجارة الأثينية كان أبطأ من تقدم أسطولها. فالقوة البحرية يمكن أن تكتسب بعد حرب منتصرة واحدة . أما التجارة فلها قوة دافعة تظل فعالة حتى بعد فتور الباعث الأصلى . فإذا ما قامت العلاقات ، وأنشئت الوكالات ، ونسقت الطرق ، ووضعت الخطط ، فسيظل مأخوذا بها مدى طويلا ، حتى بعد أن يزول عنها كونها أكثر نفعا وملاءمة ، ومرد ذلك العادة . وهذا صحيح حتى فى العالم الحديث ، حيث اعتاد الناس التغييرات السريعة . كما ألفوا تبجيل الأساليب المندثرة . فما قد انقضت أربعة قرون على

---

(١) هيرودوت ، ٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٠١ ، وما نقش على القبر من تعبير بديع بشأن الإتروريين الأسورين فى بابل ، المجلد السابع من Anth. Pal. ، ص ٢٥٦ (Mackail ، الطبعة الثانية ص ١٥٢) .

اكتشاف العالم الجديد، ولا زالت عاصمة الإمبراطورية البريطانية، مع مالها من علاقات عديدة عبر المحيط، لا زالت تطل شرقا من مصب التيمز متطلعة إلى أوروبا. وليس بمستغرب فى اليونان، حيث ملكت العادة الرجال أكثر منها فى غيرها من البلدان، ليس بمستغرب أن نرى تأثيرا قويا بدافع القوى الاقتصادية الطبيعية. ونجح تجار أثينا، وإن كان بخطوات بطيئة، فى الاستيلاء على الوكالات، والعلاقات التى كانت أصلا فى يد منافسيهم، وفى أن يجتذبوا إلى پيريه البضائع التى كانت تشحن إليها ليعاد تصديرها منها إلى ميلتوس وساموس وفوكيا. ولم يكن ممكنا حتى منتصف القرن الرابع، اعتبار أثينا المركز التجارى العظيم، وسوق العالم اليونانى الذى على كل تاجر أن يقطع مسافات طويلة ليمر به. وحتى فى أعظم عصور إمبراطوريتها، عندما كان يوجه بركليس سياستها التجارية، «كانت تجارة أثينا لا تزال أضعف من تجارة مدن آسيا الصغرى». ويضيف ڤيلاموڤيتز، وهذا دليل على استطاعة تلك المدن الاستفادة من الأمن والعدل اللذين تمتعت بهما فى ظل الإمبراطورية الأثينية. وكان تقدمها التجارى فى الغرب الذى ظل خارج نطاق نفوذها البحرى، أبطأ من ذلك، إذ كان لها بعض المنافسين الناجحين المتحمسين للتجارة، وأشد هؤلاء خطرا سيراكوز. فقد كان لها مشاريع ومطامع مثل أثينا نفسها. وكان لها شهرة تشحذ قواها، ترجع إلى حربين ناجحتين ضد البرابرة [1].

فلنضع تلك الاعتبارات نصب أعيننا، ثم نلخص ما نعرفه عن التطور التجارى لأثينا من القرن الخامس حتى حرب البلوپونيز، وما نعرفه من العلاقات الجديدة التى أقامتها أثينا فى الشرق والغرب، مع مراعاة تأثير سلاميس عليها.

---

(١) Ways and Means، ١ ـ٦ـ ٨، ڤيلاموڤيتز، Reden und Vorträge (= Aus Kydathen، مع ملاحظات مختلفة)، الملاحظات على ص ٣٩ و ٤١، الطبعة الثالثة، ١٩١٣، ص ٤٢، و ٤٤ بنيت على أساس «المعلومات المطبوعة والشفوية عن الاكتشافات التى تمت فى السنين القليلة الأخيرة». وفيما يخص التقدم الذى حدث فى صقلية فى القرن الخامس أنظر ديودور، ١١ — ٦٨ — ٦ و٧٢ — ١ (من تيمايوس).

لقد كان الشرق أقرب لها . وهى أكثر معرفة به ، فهى فيه تعمل على أرض مهدها لها بيزستراتس . ولكنها رأت أنها هى نفسها قد أقامت عقبات فى طريقها هنا . فبينما مدن آسيا الصغرى الساحلية كانت لا تزال على علاقات طيبة مع السلطة المسيطرة على طرق التجارة فى الأقاليم الداخلية ، فقد تدفقت بطبيعة الحال تجارة آسيا الداخلية عبر وديان الأنهار ، إلى الموانى اليونانية الواقعة قرب مصباتها . وبما أن اليونان وفارس صارتا عدوتين ، فقد تعطلت طرق القوافل ، ومنذ ذلك الوقت لم تنتعش التجارة الداخلية المعتمدة على المدن الساحلية . حقا لقد ضعفت حدة العداء بعد المعارك الأولى ، وسحب الفرس قواتهم إلى الداخل ، ولم يجرؤ الأسطول الفينيقى أن يظهر فيما كان معتبرا إذ ذاك مياه يونانية . ولكن ظلت القوة البحرية والقوة البرية ، الإمبراطورية الفارسية والإتحاد الأثينى ، ظلتا فى حرب اسمية مدى ٣٢ عاما منذ سلاميس . وكانت النار الخامدة تتأجج من وقت لآخر وتضطرم . ولقد كان اثيمستوكليس ، وهو أبعد نظرا من معاصريه ، من الشجاعة مادفعه إلى معارضة استمرار حالة الحرب هذه . إلا أن الرأى العام المعاصر اتهمه بالخيانة العظمى للقضية الوطنية ، وانتهت مجهوداته من أجل الصلح بنفيه ليس إلا . وبعد موته بذل خلفاؤه محاولات مضنية للمضى بآرائه دون التخلى عن آراء معارضيه . أى انتهاج سياسة تجارية فى المياه الشرقية ، دون عقد صلح مع العدو القومى . فبذلت جهود لجعـــل قبرص مستقلة دائما عن الفرس ، لتصبح مطروقة للتجار . كما يبدو أن قامت الجيوش الأثينية بغزوة لفينيقية . ولكن هدف هذه السياسة الحقيقى كان مصر ، التى كانت وقتئذ فى ثورة صريحة ضد النير الفارسى . فأرسلت أثينا أكبر حملة أمكنها جمعها طوال تاريخها ، وذلك لتطرد الفرس من أفريقيا ، وتكفل لنفسها بابا مفتوحا فى مصر . إلا أنها كانت تراهن على رهان عال . وفشلت المحاولة تاركة قوتها البحرية مزعزعة ، حتى أن بحر إيجه ظل تحت رحمة أسطول أجنبى لفترة قصيرة . أما بركليس الصغير

الذى أوحى بتلك الفكرة ، فقد عاد نهائيا إلى سياسة ثيمستوكليس القديمة الداعية إلى السلام وإلى التعامل التجارى . وأخيراً فى عام ٤٤٨ غدت أثينا وفارس صديقتين . وكان معنى ذلك بالضرورة الحد الأبدى لأطماع أثينا البحرية فى المياه الشرقية. حقيقة لقد ضمنت أثينا حرية التجارة الكاملة وهو كل ماتمناه لها ثيمستوكليس . فتجارها وسياحها تمكنوا من الذهاب حيثما شاءوا كما نعرف من رحلات هيرودوت ، ولكنها أخضعت مطالبها إلى القوة المسيطرة فى الشرق ، واضطرت أخيراً أن تقبل النزول إلى ميدان المنافسة مع غيرها . ومنذ ذلك الحين تركت كل أمل فى احتكار محصول القمح المصرى لأغراضها الخاصة ، وسرها مشاركة تجار فينيقيين مدربين فى نقل التجارة الشرقية . ولا بد أن إعتاد الأثينيون رؤية بحارة ساميين برابرة فى پيريه ، يغنمون من امتياز التبادل الذى اضطرت أثينا إلى منحه لهم . ونود لو نعرف ما الذى كانوا يتحدثون به على رصيف الميناء ، ولأى مدى كانوا عاملا فى نقل الأفكار بين اليونان وفلسطين ، إلا أن كتاب القرن الخامس البارزين فضلوا جميعاً تجاهلهم . ولم تولهم أثينا اهتمامها ، لأنها كانت تفكر فى أمور أخرى[1] .

---

(١) فيما يخص سياسة ثيمستوكليس التى اتبعها لتوثيق العلاقات التجارية مع الفرس. أنظر ماير، ٣ ، فقرة ٢٨٣ . وطبيعى أنها تلبم توكيديدس ، ١ — ٩٣ — ٤ ، فيما عدا بعض أدلة مفصلة . لم يفهم ثيمستوكليس كنه القوة البحرية فحسب ، بل أدرك أيضاً فهم ما يجب أن تؤدى إليه . لقد كان لثيمستوكليس لسانا حاداً ، وكان ينقصه بشاشة خصمه كيمون ، ولذلك لم يكن محبوباً من الشعب طيلة حياته . ويبدو أن حلفاءه تطلعوا لسرقة أفكاره بعد موته ، وإلى الحط من قدر خدماته — وقد أرسلت أثينا ٢٠٠ + ٥٠ سفينة إلى مصر على دفعتين، بينما أرسلت إلى سيراكوز ١٣٦ + ٧٥ سفينة . وبينما كانت جنودها فى مصر كانت مشغولة فى نفس الوقت فى إيجينا وميجارا ، وفيما بعد فى بيوتيا (توكيديدس ١ — ١٠٥ — ٣ ، ١٠٧ — ١٠٨) ، رغم أن مواردها المالية كانت أقل كثيرا مما صارت عليه بعد جيل. وبكل أسف يعوزنا بيان معاصر عن أثينا فيما يخص حوادث هذه السنين . إن أهم تقرير عندنا عنها هو نص يرجع إلى عام ٤٥٩ — ٤٥٨ ، ذكر ١٦٨ اسما من أفراد قبيلة إرخثيس (Erechtheis) « الذين ماتوا فى حرب قبرص ، وفى مصر وفينيقيا ، وفى هاليس (Halieis) ، وميجارا فى نفس السنة » . وهو إحدى القوائم العشرة المشابهة الخاصة بكل قبيلة (هيكس وهيل ، رقم ٢٦) . وفى توكيديدس ، ٦ — ١٧ — ٧ ، صدى لهذه السنين المجيدة حيث نرى =

فلنلق الآن نظرة سريعة غربا ، فهنا اتصلت أثينا ، نظراً لأطماعها المتزايدة ، لا بمنافسين برابرة ، ولكن بيونانيين . كانت الثلاث قوات البحرية اليونانية التالية ، لها إذ ذاك ، واقعة فى طريق تجارها المتجهين غربا . فالطريق البحرى إلى إيطاليا وصقلية يمر أولا فى مياه كورنث وما يتبعها ، ثم بمياه كورسيرا ، ثم على جانب المضايق الأيونية المقابل ، مارا بمنطقة سيراكوز البحرية . وسيطرت كورنث نفسها على الخليج ، بينما سيطرت مستعمراتها على البحر من الشمال الغربى حتى مصب خليج أمبراكيا . وهنا يدخل التاجر فى مياه كورسيرا الإقليمية ، تلك التى تعيش على ضرائب المرور التى تأخذها من السفن التى ترسو بها عند مرورها . أما حدود المناطق البحرية على ساحل إيطاليا فلم تكن واضحة على هذا النحو ، إلا أن سيراكوز قد اعتبرت نفسها على قوة كافية لمد نفوذها البحرى شمالا حتى خليج تارنتم إذا ما لزم الأمر . وهكذا كان على أثينا إذا مارغبت فى الاتجار غربا ، إما أن تقهر هؤلاء

= ألكيبيادس الشاب فى مناقشة بخصوص الحملة الصقلية ، يستشهد بسياسة بركليس الصغير . وطبقا لمعاهدة ٤٤٨ صارت بحار اليونان تمتد من جزائر الـ Cyanean (عند مدخل البوسفور إلى البحر الأسود) إلى جزائر Chelidonia على ساحل ليكيا ، التى لا تبعد كثيراً عن نهر Eurymedon حيث هزم الأسطول الفينيقى فى عام ٤٦٦ . وكان مسلماً بأن البحر الأسود بحرا يونانيا ، ولم تجرؤ سفينة فارسية على الظهور فيه . ونحن نعرف القليل عن الحياة التجارية فى فرس ومصر والسواحل السورية فى السنين التى تلت عام ٤٤٨ ، فيما عدا ما يمكن أخذه عرضا عن هيرودوت ، الذى أمكنه أن يسيح هناك بكثرة . وقد ظلت العلاقات بين أثينا وفارس حسنة ، وكثرت البعثات الأثينية إلى سوسة (Susa) ، حتى كادت تتخذ صبغة سفارة دائمة ... بينما لم تكن معرفة الفارسية أو الأرامية أمراً غير عادى الأثينيين » (ڤيلاموڤيتز ، Reden und Vorträge ، ص ٤١ ، الطبعة الثالثة ، ص ٤٤) . أما ما يخص العلاقات بين أثينا وغزة فانظر ص ٢٢٩ فيما سبق ، وانظر هيرودوت ، ٣ ، ١٣٦ — فيما يخص رحلة فينيقية ساحلية . ويشير اجزينوفون ، Oec. ، ٨ — ١١ فى تعبير مألوف إلى « السفينة الفينيقية العظيمة » ، التى كانت نموذجا لما يجب أن تكون عليه شكل السفن . هذا وقد عرف القليل عن تبادل الأفكار بين الأثينيين والساميين . وقد قامت فى بيرايوس مستعمرة فينيقية صغيرة ، ولدينا حوالى ٣٠ نصا لهـا صلة بها مقابل نقش واحد جاء على قبر رجل قرطاجنى : كليرك فى Métèques ath. ، ص ٣٨١ — ٣٨٢ ، فرانكوت ، Industrie ، الجزء الأول ، ص ٢١٨ (أنظر ، Hyper ، ٥ — ٤ ، بشأن صاحب محل مصرى فى أثينا) . (أنظر التذييل) .

المنافسين ، وتضم إليها ممتلكاتهم البحرية ، وتقوم على حراستها ، وإما أن تسير على سياسة التفاهم والتفاوض ، وأساسها المنفعة المتبادلة للطرفين .
وهنا كما فى الشرق ، اتجه بركليس إلى سياسة التفاهم . وبهذا كانت أثينا على علاقات طيبة مع كورسيرا وسيرا كوز طيلة حكمه ، ومع كورنث أيضاً فى الجزء الأخير من عهده [١] .

لا يمكننا أن نتتبع بالتفصيل اتساع العلاقات التجارية التى كانت أثينة قد أنشأتها فى موانىء ايطاليا وصقلية . إذ لم تبق إلا حقائق متفرقة قليلة ، تشهد بازدياد نشاط تجارها . فنحن نعرف من علامات التجار على الأوانى الأتيكية ، أن الرجال الذين حملوها إلى السوق الغربية ، لم يكونوا منذ ٤٨٠ فصاعداً أيونيين على الإطلاق ، بل كانوا أثينيين . ونعلم ، وهو ما يجب أن نتوقعه ، أن ثيمستوكليس قد أيد هذه الحركة بسلطانه ، وأنه كان على علاقات قوية بشمال البلوبونيز ، كما عقد علاقات وثيقة مع كورسيرا ، وربما أيضاً مع هيرو (Hiero) ، طاغية سيرا كوز الغنى . ونحن نعرف أيضاً — إذ أن شواهد ذلك من الأحجار محفوظة — أن أثينا ابتدأت ترتبط بمعاهدات وثيقة مع المدن الغربية ، مع سيجستا أولا عام ٤٥٤ ، ثم مع

---

(١) توكيديدس ، ١ — ٢٩ — ٣ ثم ٣٠ — ٣ (المياه الكورنثية) ، ٣٦ — ٢ — ٣ (المياه الكورسيرية) ، ٢ — ٧ — ٢ (معاهدة أثينا التجارية مع صقلية) ، ٣ — ٨٦ — ٣ و ٤ — ٦٤ — ٣ و ٦ — ٢١ — ٢ و ٣٤ — ٤ ، وانظر معها ديودور ، ١٥ — ١٣ — ١ (المياه السيرا كوزية) . كانت أثينا فى حرب مع كورنث فيما بين ٤٥٩ و ٤٥١ ، وقامت بغزوات فى مياهها ، حتى أن سفنها الحربية رابطت فى بيجاى على رأس الخليج . ولكن منذ عام ٤٤٥ أصبحت الدولتان فى سلم ، بأن قبلت كل منهما سيادة الأخرى على مياهها ، وظلت كورنث مخلصة لهذا الاتفاق حتى خلاله ثورة أهل ساموس فى ٤٤٠ — ٤٣٩ . أنظر توكيديدس ، ١ — ٤٠ — ٥ و ١١٧ — ١ و ١٢٠ — ٢ (حيث أشير بوضوح إلى هذه الترتيبات) . إن كورنث بما فيها من أراضى القمح الجيدة ، ومن خلفها حلفاؤها البلوبونيزيون ، لم يكن يحق لها أن تخشى الجوع ، مثل أثينا . ولم تر أى دولة من دول البلوبونيز ضرورة ، لأن تحاول تنظيم الحصول على القمح من وراء البحار . ويبدو أن العجز السنوى كان يسد أولا ، من جنوب روسيا ، وفيما بعد ، بعد أن احتكرت أثينا مصدر القمح هذا ، من صقلية ومصر (هيرودوت ، ٧ — ١٤٧ ، توكيديدس ، ٣ — ٨٦ — ٤ و ٤ — ٥٣) .

رجيوم وليونتيني فيما بعد ، فى عام ٤٣٣ . كذلك فى عام ٤٣٨ نسمع عن وجود أمير بحر أثيني فى مستعمرة نابولى اليونانية ، وواضح أنه كان يساعد المدينة ضد هجوم برابرة من الأراضى الداخلية .(١)

ولكن أهم وثيقة ترينـــا طبيعة خطط أثينا ومداها ، هى خطة استعمار ثورى (Thurii) . كانت عاصمة جنوبى إيطاليا التجارية القـــديمة مدينة سيباريس الشهيرة التى تسيطر على طريق المضيق الموصل من شرق البحر المتوسط إلى غربيه . وفى عام ٥١٠ خربت سيباريس هذه ، وآلت علاقاتها الخارجية إلى أيد أخرى . وآوى الباقون من سكانها إلى موانيهم على الساحل الغربى . وبعد فترة من الزمن أرادوا الاستقرار ثانية فى المكان القديم ، ولكن حقد جارتهم القديمة وعدوتهم كروتون ، حال دون ذلك . وفى عام ٤٤٣ صممت أثينا على أن تحقق لهم ذلك . وما كانت المستعمرة الجديدة لتغدو فرعاً لأثينا فى نطاق دول اليونان القديمة ، إنما لتكون مستعمرة بانهيلينية تحت رعاية أثينا ، وتكون تجسيما دائماً لمثلها العليا الجديدة فى حرية التجارة والتبادل . وكان ذلك بأن يدمج رجال من جميع الدويلات اليونانية فى هيئة المواطنين الجديدة . فدعيت اليونان كلها لتشترك فى هذا العمل . وتوافد عليها المستعمرون والزائرون ، لا من أثينا وامبراطوريتها فقط بل من أركاديا وإيليس وآخيا ، ومن بيوتيا وباقى اليونان الوسطى . ومن بينهم شخصيات معروفـــة تماماً إذ ذاك ، مثل بروتاجوراس السفسطائى ، وإمبدوكليس الشاعر الفيلسوف ، وهيبوداموس المهندس ، وهيرودوت المؤرخ .

---

(١) الأوانى . أنظر ماسبق ص٣٨٨–٣٨٩ . المادهدات : هيل ، Sources ، الفصل الثالث فقرة ، ٣٢٧ ثم هيكس وهيل رقمى ٥١ ، ٥٢ . نابولى ، هيل ، الفصل الثالث ، الفقرات ٣٨١ إلى ٣٨٣ ، ماير ، ٤ ، الفقرة ٤٣٥ . تيمستوكليس : توكيديدس ، ١ — ١٣٥ — ٣ و١٣٦ — ١ ، بلوتارخوس ، تيمستوكليس ، ٢٤ و٣٢ : سميت بنتان من بناته إيطاليا وسيباريس . مات هيرو (Hiero) عام ٤٦٦ أى فى نفس الوقت الذى هرب فيه تيمستوكليس . فإذا افترضنا أن هذه الأنباء واتتة فى كورسيرا ، فى طريقه إلى صقلية ، فإننا نعرف سبب الطريق الدائرى الذى سلكه إلى فارس .

وقد أنشئت المدينة توا ، فدهيپوداموس الشوارع على الطراز المستطيل السائد ، واشترك بروتاجوراس فى وضع الدستور النموذجى . ومع ذلك فإن كل من جمعتهم من حكماء لم يمكنوها من أن تحيا الحياة المثالية التى رنت إليها . فطبائع الدولة المدينة القديمة كانت أقوى من أن يتخلص منها . فخلال عام أو عامين ، انقسمت هيئة المواطنين الجدد إلى قبائل حسب الجنسية السابقة لأعضائها . وفى عام ٤٤٠ رجع إلى أثينا هيرودوت وغيره من البارزين المناصرين للمبادىء الجديدة ، رجعوا كاسفى البال تاركين المدينة فى أيدى الأغلبية التى كانت ضد أثينا . وهكذا فشلت على نحو مشين أول محاولة لممارسة التعاليم الأثينية عملياً . فتقاليد الدولة المدينة كانت متأصلة للغاية . ولم تكن اليونان صالحة لتلقى فكرة البانهيلينية ، كما فهمها بركليس . كما لم تكن أثينا ، كما سنرى ، مستعدة حقاً لذلك[١] .

هذه هى سياسة أثينا البركليسية فى الشرق والغرب . فهى لم تكن فى كلتا الجهتين قوة بحرية بمعنى الكلمة اليونانية ، فلم تسيطر ، ولم يكن غرضها أن تسيطر ، على الخطوط البحرية . وما كانت لتأمل ضم البحار الشرقية والغربية إلى إمبراطوريتها . فهى لم تكن فى الحقيقة حاكمة ، ولكنها كانت مجرد مبشرة ورائدة . أما ما أراده تجارها ، وحاول

---

(١) ديودور ، ١٢ — ٩ وما بعدها ، ماير ، ٤ ، الفقرة ، ٣٩٧ وما بعدها ، وفيما يخص هيرودوت ،أنظر Forschungen ، الجزء الثانى ص١٩٦ وما بعدها. وآخر مصدر فى ذلك على أية حال ، مقال جاكوبى فى موسوعة Pauly-Wissowa ، الملحق الثانى ، ص ٢٤٢ وما بعدها . ويرى المؤلف أنه مكث فى ثورى حتى موته . ولم يذكر أن ساهم الكورنثيون فى المستعمرة . ولا شك أنه كانت لديهم علاقاتهم التجارية الخاصة ، وأنهم نظروا شزرا إلى أثينا فى محاولتها إنشاء علاقات جديدة . ولكن لا أثينا ولا كورنث كان لديها القوة الكافية فى المياه الغربية ، لتفكر فى القيام بحرب لتخرج الأخرى منها . من هنا أذعن كلاهما مضطراً لبقاء الآخر هناك . وفى ذلك الوقت ، نقلا عن ڤيلاموڤيتز، (Reden ، ص ٤١ الملاحظة ، الطبعة الثالثة ، ص٤٤ ، من Helbig)،« كانت مدن صقلية ، وخاصة سيراكوز، صاحبة ، السيطرة على التجارة المحلية مع ساحل إيطاليا الغربى » . ومع ذلك فإن Pottier (Revue Archéologique ، ١٩٠٤ ص ٤٦) ، يعتقد أن الإتروسك شاركوا الصقليين هذه السيطرة .

ماسنهم الحصول لهم عليه ، فلم يكن احتكار الأسواق الخارجية لشراء البضائع و بيعها ، بل سهولة الاتصال ، والمعاملة الحرة ، والتمكن من الاختلاط والتبادل مع أمم أخرى ليس غير . إن فكرة حرية التعامل الحر بين الرجال وحرية تبادل البضائع والأفكار هذه ، هى هبة العصر البركليسى البارزة للسياسة والاقتصاد الأثينى . وهذا ما نراه مؤكداً فى المرثية مراراً . فجيل مراثون وسلاميس أعطى أثينا مظهر إمبراطورية ، تعمل على توسيع تراث الأجداد ، فى أتيكا ، وذلك عن طريق عضوية حلف ديلوس . وقد استغل الجيل الذى تلاه هذا النفوذ ، ليصون للمدينة كفايتها الذاتية فى الحرب والسلم . وقد قال بركليس ، « إن طلائعنا شقت طريقها إلى كل بحر وأرض » . وترتب على هذه الصلات التى أطلقت ، أن اتخذت المنتجات من أقصى بقاع الأرض طريقها إلى أثينا .

ويقول الأوليجارشى العجوز « إن الأشياء المختارة من صقلية وإيطاليا ، وقبرص ومصر وليديا ، ومن بونتس أو البلوبونيز أو من أى مكان آخر ، استهلكت كلها كما لو كانت فى مركز واحد » . فما هى هذه « الأشياء المختارة » ؟ لحسن الحظ أعطانا كاتب هزلى مسن قائمة لكثير منها . جمعت فى السنة الرابعة من حرب البلوبونيز ، وكأنه يعبر بها عن مدى قلة استطاعة اسبرطة وحلفائها على اعتراض طريقها . وهاك بعض الأشياء من أقاليم خارج نفوذ أثينا البحرى : جلود ، وخضر من سيرين ، وحبوب ولحوم من إيطاليا ، لحم خنزير وجبن من سيراكوز ، وقلوع وبردى من مصر ، ولبان وبخور من سوريا ، وخشب السرو من كريت ، وعاج من أقاصى أفريقيا ، وأبو فروة ولوز من بافلاجونيا ، وبلح ودقيق القمح الممتاز من فينيقيا ، وسجاجيد ووسائد من قرطاجنة . وكان على أثينا أن تستغنى عن أشياء كثيرة أثناء حرب البلوبونيز فقد اجتيحت أراضيها ، وقطعت طرق تجارتها البرية ، فلم تستطع الحصول على خنازير وخضر من ميجارا ، ولا سمك الثعبان الحبيب إليها ، من بحيرة بيوتيا . ولكن أمكن بركليس

أن يحافظ على تموين أثينا بهذه الأصناف الكمالية ، التى ترد إليها من الأقاليم البعيدة ، إلى أن صارت هذه الأصناف كما يقول لنا ، « مألوفة » ، أكثر من منتجات حقولهم الفقيرة (١) .

كل هذه الأشياء كانت جزءاً من الحياة الطيبة التى رغب الأثينيون فى دوامها . ولكنها بالتأكيد كانت كماليات يمكن من وجهة نظر السياسى الاستغناء عنها إذا اقتضى الحال . وكان مواتياً الحصول عليها بطريقة الاستمالة والإقناع الأثينية الطبيعية ، بالاتفاقات الاختيارية والمعاهدات . وقد ضمنت أثينا ضروريا تها الحقيقية ، كما رأينا ، عن طريق رباط أقوى ، هو رباط السيادة البحرية الذى لا ينازعها فيها منازع . وفى الختام لنلقى نظرة عجلى على هذه الناحية من التجارة الأثينية . فمن المهم لهدفنا ألا نرى فقط حدود السيادة البحرية الأثينية ومداها ، ولكن يهمنا أيضاً أن نلاحظ إلى أى مدى كان بقاؤها ملائماً للمثل البركليسى الأعلى ، أى حرية التعامل .

إن معارك سلاميس وميكالى وإريميدون ، والمعاهدات الفارسية التى تلتها عام ٤٤٨ ، وإخضاع إيچينيا قبل ذلك بسنين قليلة ، كل ذلك جعل أثينا سيدة بحر إيجا الوحيدة ، والتى لا منازع لها . وفى فترة العشر سنوات التى سبقت قيام الحرب البلوبونيزية . بسط بركليس هذه السيادة ، لا على بحر مرمرة فقط ، إنما أيضاً على الجزء الأكبر من البحر الأسود . ومنذ عام ٤٣١ تحول البحر ، من كريت إلى القرم ، إلى بحيرة أثينية فيما عدا بعض مراكز قليلة الأهمية . وقد أصبح هذا كله منطقة نفوذ الشعب الأثينى ، بل أصبح ملكا لهم ، أكثر من موطنهم أتيكا ، لأنهم اعتمدوا عليه كل الاعتماد فى حياتهم اليومية . وما من أحد يبحر فيه إلا بإذن من أثينا ، وتعدى تعاليمها هناك كان

---

(١) Hermippus ، قطعة ٦٣ (Kock) ، ap. Athen. ، الجزء الأول ، س ٢٧ ، المكتوب فى عام ٤٢٨ ، الأوليجارشى العجوز ، ٢ — ٧ ، Ar. Ach. ، ٨٧٠ وما بعدها — ١٩٢١ . قارن السجاد التركى الذى كان لدى ألمانيا منه أكثر من حاجتها أثناء الحرمان الناشىء عن الحصار !

جرما لا يعدله إلا غزو أتيكا . والحق أن سياستها هنا ، كما فى كل مكان ، كانت سياسة التعامل الحر . لقد حررت البحار اليونانية ، لتكفل الحرية المدن اليونانية ، وكان تجار الدول الداخلة فى امبراطوريتها ، وحتى تجار الدول الخارجة عنها ، مثل كورنث وميجارا ، يمكنهم استغلالها زمن السلم ، كما لو كانوا تجارها ، ولكن بإذن منها . لقد أدركت أثينا ، كما أيقنوا هم ، أنه ما أن تعلن الحرب ، إلا وتكون تجارتهم بين أيديها . فسفن الحراسة الأثينية كانت توضع فى كل مكان يصلح للهجوم ، والمواصلات قد تتعرض للقطع بين اليونان وآسيا ، بل وبين جزيرة وجزيرة ، حتى أن أعداء الدولة صاحبة السيادة ، أو رعاياها الثائرين ، لا يمكنهم متابعة خططهم إلا فى رحلات خفية ، أو اجتماعات مختلسة ، كالقراصنة والمتآمرين [1] .

وثم فقرة من فقرات الاوليجارشى العجوز ، بها يضع هذا المنذر الشيخ نصب أعيننا بوضوح يفوق به حتى توكيديدس ، ماعنته حقاً هذه السيادة الإيجينية فيقول : إن المركز الاستراتيجى لقوة بحرية هو لا شك أحسن من مركز القوة البرية . « فرعايا القوة البرية يمكنهم أن يتحدوا ويكونوا مدينة كبيرة من جملة مدن صغيرة ، وبذلك يستطيعون أن يخرجوا إلى الحرب مجتمعين . أما رعايا الدولة البحرية ، فإن كانوا جزريين فلن يمكنهم ضم مدنهم بعضها إلى البعض ، لأن البحر يفصلهم ويباعد بينهم ، ولأن حاكمهم

---

(١) إن « الاستثناءات القليلة الأهمية » فى إيجينا كانت رؤوس خاجان أزمير وأدراميتيوم (Adramyttium) ... ثم يضم مراكز منعزلة مثل أنايا (Anaea) تجاه ساموس (توكيديدس ، ٤ — ٧٥ ، ماير ٣ ، الفقرة ٢٩٢) . وربما يرجع سبب تجاهل أثينا لهم ، إلى تدبير سرى مع الفرس . سفن الحراسة الأثينية : توكيديدس ، ٢ — ٢٤ — ١ (السنة الأولى من الحرب) : لم تكن دائما مرابطة على مصب خليج كورنث لمنع الكورنثيين من الخروج ، وذلك حتى شتاء ٤٣٠ — ٤٢٩ ، بعد زوال سلطة بركليس (توكيديدس ، ٢ — ٦٩ ، أنظر ١ — ٣٠ — ٢) . أما كيف أرسل أسطول البلوبونيز لمساعدة ميتيلين فى ٤٢٧ ، وعبر خلسه إلى أيونيا ، ثم ارتد فى الحال « عبر البحر المفتوح مصمما على ألا يقف فى أية جهة ما استطاع السبيل إلى ذلك ، حتى وصل البلوبونيز » ، فانظر توكيديدس ، ٣ — ٢٩ إلى ٣٣ ، ولا سيما ٣٢ — ٣٣ . وأيضا رحلتى أرستوس (Aristeus) فى ١ — ٦٠ و ٢ — ٦٧ — ١ و ٥ — ١١٠ .

قوة بحرية . وحتى إذا أمكنهم أن يجتمعوا سراً فى جزيرة واحدة ، فهم إنما يتعرضون بذلك للموت جوعا . ولم تكن المدن الساحلية الواقعة فى ظل النفوذ الأثينى بأحسن حال . فالمدن الكبيرة منها يضطرها الخوف ، والصغيرة ترغمها الحاجة القاسية ، إذ ليس هناك دولة فى الوجود لاحاجة لها إلى الصادرات والواردات ، ولا يمكن لأى دولة أن تكفل ذلك ، إلا إذا بقيت خاضعة للقوة البحرية المسيطرة . وزيادة على ذلك فهناك كثير من السبل مفتوحة أمام القوة البحرية ، ومحرومة منها القوة البرية . فيمكنها مثلا أن تغزو وتخرب أرض دولة أقوى منها عسكرياً ، لأن قواتها يمكن أن تبحر طول الساحل إلى نقطة خالية من القوات المضادة ، أو تكاد أن تكون كذلك . وإذا ما لاحت الإمدادات نزلت القوة إلى السفينة ثانية ، ثم تبحر تاركة القوة البرية فى أسوأ حال . هذا والقوة البحرية يمكنها أن تبتعد عن قواعدها حسبما تريد ، بينما القوة البرية لا يمكنها أن تتحرك إلى أبعد من سفر أيام قليلة ، إذ المشى عمل بطىء ، والقوات البرية لا يمكن أن تحمل مئونة تكفيها مدة طويلة . وزيادة على ذلك فإن الجيوش البرية يجب أن تمر بأرض صديقة ، أو تحارب لتشق طريقها ، بينما القوة البحرية... يمكنها أن تمشى على طول الشاطىء ، حتى تصل إلى أرض صديقة أو أراضى دولة أقل قوة[1] » .

هذه الحجج يصح أن تكون قد نقلت من مذكرات بركليس ، فهى تطابق كل المطابقة كل ما نعرفه من توجيه السياسة الأثينية . على أن هنا ليس مكان مناقشة هذه السياسة بالتفصيل ، ولا مكان بيان كيف أن كل حركة فيها كانت تقوم على فرض تفوق أثينا فى مناطق نفوذها ، فى بحر إيجا وفى البحر الأسود . ويكفى لذلك مثل واحد . ففى عام ٤٢٣ بعد حرب دامت ثمانى سنوات ، تهادن الأثينيون والبلوبونيزيون على قاعدة الاحتفاظ بالحالة

(١) الأوليجارشى العجوز ، ٢ — ٢ ، أنظر قول بركليس فى توكيديدس ، ١ــ١٤٠ وما بعدها ، ثم أرخيداموس فى ١ — ٨١ — ٣ .

الحاضرة . والمادة الرابعة من الاتفاق ، تقول « أما بالنسبة لاستخدام البحر ، فطالما أن الأمر يخص سواحلهم وسواحل حلفائهم فيمكن للاسيدمونيين وحلفائهم ، الإبحار فيه على أى مركب ذات مجاديف ، لا تزيد حمولتها عن ٥٠٠ تلنت ، ولا تكون مركباً حربيا » . هذه المعاهدة قبلها ممثلوا اسبرطة وكورنث وسيكيون وميجارا وإبيدَوْرس ، الذين أذعنوا بذلك لاستبعاد سفنهم من بحر إيجا استبعاداً تاماً . وتضاد المثل الأعلى لحرية التعامل ، وضرورة المحافظة على الذات ، لا يمكن أن يكون أوضح من ذلك . وسرعان ما كان ذلك مصير كثير من المثل العليا الأخرى[1] .

---

(١) توكيديدس ، ٤ — ١١٨ — ٥ وانظر ، ٨ — ٥٦ — ٤ وكذلك هيرودوت، ٦ — ١٠٤ (قبل السياحة البحرية الأثينية وبعدها) ، وأيضا توكيديدس ، ٥ — ٤٧ — ٥ . فيما يخص التضاد ، وعدم التلاؤم التام بين التجارة وأقدم أنواع التوسع (الامبرياليزم) ، قارن فقرة بديعة فى مونتسكيو ، Esprit des Lois, ، ٢٠ — ٤ . فهو ينقل ملاحظة شيشيرون (De Rep. ، ٤ — ٧) ، 'Nolo eundem,populum imperatorem et portitorem esse terrarum,' . ويوضح أن سجايا الجنس الامبراطورى القديم الطابع وعاداته ، مثل الرومان فى عهد الجمهورية ، تختلف تماما عن تلك فى شعب من التجار أو « الصناع » (facteurs) ، ولكن لسوء الحظ ، أنه فى هذا ، كما فى الأمور الأخرى ، لا تختفى هذه السجايا عندما تصبح ضارة أو عتيقة . قارن هامش ص ٢٩٤ فيما سبق . إن التلنت كان يساوى قدما مكعب من الماء ، أى حوالى ٧٥ لبرا (رطلا) فخمسمائة تلنت تساوى حوالى ½١٢ طنا .

الفصل الخامس عشر

اقتصاديات الامبراطورية : العمال

Τὴν γὰρ πόλιν κοινὴν παρέχομεν, καὶ οὐκ ἔστιν ὅτε ξενηλασίαις ἀπείργομέν τινα.

لقد فتحنا أبواب مدينتنا على مصراعيها للعالم ، ولم نتخذ قرارا لمنع الأجانب أبدا .

بركليس فى توكيديدس ، ٢ — ٣٩ .

Οἰκέτας οἱ δυνάμενοι ὠνοῦνται ἵνα συνεργοὺς ἔχωσι.

إن ذوى المقدرة يشترون عبيدا ليكونوا لهم عمالا

اجزينوفون ، Memorabilia ، ٢ — ٣ — ٣ .

وبقدر ما قيل أن الأصواف المصبوغة فى تركيا ، هى أثبت الأصواف وأحسنها لونا ، . . . فعليك أن تفكر فى طريقة لتحسين الصباغة فى انجلترا بإرسال شاب فريد فى هذا الفن إليها . . . فإذا لم يمكنك أن تفعل ذلك بالطرق المعتادة ، فعليك أن تلجأ إلى طريقة سامية فى تنفيذه — ذكريات عميل : ماذا تصنع فى تركيا إلى جانب مهمتك كوكيل . ١٥٨٢ . (رحلات هيكلوت ، الجزء الخامس ، ص ٢٣٤ — طبعة Maclehose) .

لم تفتح أثينا فى القرن الخامس أبوابها على مصراعيها للبضائع الأجنبية وحدها ، إنما كانت تجتذب أيضا الآدميين وتدعوهم إليها .

فى العصور القديمة ، كما رأينا ، كان عدد السكان وإنتاج الطعام مرتبطين ببعضهما البعض ، فإذا ما ضمنت أثينا لنفسها موردا للغذاء من الخارج ، أمكنها الترحيب بالمهاجرين . وقد فعلت ذلك بسرور

دون ما حقد ، إذ كان ساستها من الحكمة بحيث أدركوا أن الثروة إنما تتكون بالعقول والأيدى ، وأن كل عامل يزاد إنما هـــو زيادة محتملة فى مصادر تلك الثروة . وكان هـذا فى الحقيقة إحدى بديهيات رجال الاقتصاد فى الدولة المدينة . وكان لكلمات بركليس التى ذكرناها فى أول هذا الفصل ، صدى دائم عند الكتاب الآخرين . ويقول ديودور ذاهبا مذهب بعض المؤرخين القدماء ، « لقد حث ثيمستوكليس الشعب على أن يمنح الأجانب المقيمين والصناع إعفاء من بعض الواجبات الخاصة ، حتى يأتى المدن أناس كثيرون من جميع الأرجاء ، وحتى يمكنهم بسهولة إقامة صناعات أكثر » . ويقول مؤلف « الطرق والوسائل » ، إن لأتيكا مزايا طبيعية كثيرة : فلها جو معتدل ، وموقع حسن ، ثم هى غنية بنوع خاص بمحاجر المرمر ومناجم الفضة ، « ولكن كل هذا يمكن أن يضاف إلى مراعاة الدقة فى معالجة شئون المقيمين من الأجانب ، وهو ما كان فى المقام الأول . أما أنا فلا أكاد أتصور مصدرا للدخل أبدع من هذا الذى يأتى إلينا من هذه الناحية » . فماذا يقصد بعبارة « مراعاة الدقة فى المعالجة » ؟ إنه لا يعنى إجراءات النفى ، ولا حتى إجراءات التفتيش ، كتلك التى اعتدناها فى الوقت الحاضر للاحتفاظ بمستوى المعيشة ، أو للحد من المنافسة غير العادلة ، ولكنه يعنى اتخاذ خطوات « تقوى من عزيمتهم » حتى « يمكن أن يتطلع كل من لا مدينة له إلى مركز المقيم الأجنبى فى أثينا ، وبذلك يزيد دخل المدينة » . ويعبر الأوليجارشى العجوز عن هذا الرأى بطريقة أكثر وضوحا . فقد كتب أثناء السنين الأولى من حرب البلوبونيز يقول : « إن المدينة بحاجة إلى مقيمين أجانب لازدياد صناعاتها ، ولمصلحة أسطولها . « لهذا السبب أقمنا المساواة . . . بين المقيمين الأجانب عندنا وبين المواطنين الأصليين » . وهكذا لا يمكن أن يعبر عن تهدم نظام المدينة القديم كهيئة قائمة بذاتها ومقصورة على أهلها بأصرح من هذا التعبير . وفى ظل النظام الاقتصادى الجديد ، رحبت أثينا بعمال من جميع أنحاء العالم ، وكيفت نظمها

لتطابق مقتضياتهم . وقد ساهم سولون وكليستنيز ، ثيمستوكليس وكيمون ، ساهموا جميعا فى هذا التغيير ، حتى كان فى وقت المرثية حوالى ١٢٥ ألف أجنبي فى أتيكا ، ولم يكن هذا بأقل كثيرا من عدد الشبان المواطنين ونسائهم .(١)

وقد سبق أن قابلنا بعضا من هؤلاء المهاجرين ، من أحرار وعبيد ، يعملون جنبا إلى جنب مع المواطنين فى مختلف نواحى الحياة فى الدولة المدينة . ولم نطل الوقوف عندهم ، لأنهم لم يكونوا فى المدينة العادية إلا صورا عابرة . ولم يصبحوا عنصرا من السكان كبيرا ، بالغ الأهمية ، إلا فى ظل نظام السيادة فيه للسلطة البحرية ، كما كان فى أثينا . وعلى ذلك كان من الطبيعى أن نرجىء إلى هذه المرحلة من دراستنا معالجة الموضوع معالجة كاملة ، وخاصة معالجة أعظم ظاهرة محيرة فى الحياة الأثينية ، بل ومتناقضة ، أى نظام الرق .

وقد أمدنا الأوليجارشى العجوز بنقطة ابتداء مناسبة لمناقشتنا ، إذ بطريقته التصميمية ذكر قولة عامة ، تمس صميم الموضوع كله . فهو يقرر بشكل قاطع أن أثينا قد أقامت «مساواة ديموقراطية» بين مواطنيها والمقيمين الأجانب . وبهذا عنى هذا البيان ، لا الرجال الأحرار فقط ، بل والعبيد أيضا(٢) .

فما الذى يعنيه ؟ أما بخصوص الأحرار الأجانب الذين يبلغون ثلث الأجانب المقيمين ، فبيانه ليس صعب التفسير .

---

(١) Ways and Means ، ٢ — ١ ، الأوليجارشى العجوز ، ١ — ١٠ إلى ١٢ ، ديودور ، ١١ — ٤٣ — ٣ ، وأيضا بلوتارخوس ، سولون ، ٢٤ ، وذكرت مراجع أخرى ص ٢٠٩ فيما سبق ، أنظر أيضا ص . وأنا أقدر عدد الشبان العبيد بثمانين ألفا (أى أكثر من ثلاثة أرباع العدد كله) ، وأقدر عدد الشبان الغرباء ، من نساء ورجال (والنساء أقل) بخمسة وأربعين ألفا .

(٢) الأوليجارشى العجوز ، ٢ — ١٢ . إن كلمة ἰσηγορία ، هى نفسها التى استعملها هيردوت فى مدحه النظم الأثينية الحرة ، ٥ — ٧٨ .

لم يحصل كل أجنبي أتى أثينا على حقوق الأجنبي المقيم أو «متك» (metic)، فكثير منهم لم يكونوا سوى سائحين عابرين، أتوا من أجل موسم التجارة، ورحلوا قبل أول عاصفة. ولم تمنح أثينا هؤلاء أية امتيازات. «فلكي يكون المرء مقيما أو «متك» يجب أن يستقر نهائيا ببيته وعائلته في المدينة، وأن يكون قد أقام هناك وقتا معلوما، ويكون مساهما في بعض الواجبات العامة». أو بمعنى آخر يجب ألا يكون تاجراً عابراً بل مستقرا، والأفضل أن يكون ذا حرفة. فما ابتغته المدن اليونانية، وما احتاجته أثينا بصفة خاصة، كلما ازدادت تجارتها المتنقلة إنما كان الصناع. ولم تكن حاجتها لهم لمجرد سد حاجيات الحياة الداخلية لسكانها المتزايدين، ولكن لينتجوا بضائع تحملها سفنها إلى الخارج في تجوالها الصيفي. ولم تغد أثينا، كما نفهم نحن، مركزاً صناعيا عظيما، فمعظم منتجاتها التي تصنع في مصانعها الصغيرة وفي المدارس، وفي المعامل، إنما كانت للسوق المحلي. ولكن مع ذلك فهي الآن تحاول أن تجعل صادراتها تساير بقدر المستطاع ازدياد تجارتها، ولم ترسل تجارها وطلائعها بالنبيذ والزيت فقط اللذين كانا يفيضان عن حاجتها في السنين الطيبة، بل أرسلتهم أيضا بقدور من الفخار ليعبئا فيها، وأواني منقوشة وتماثيل صغيرة وتروس وغير ذلك من أنواع المصنوعات المعدنية المصنوعة من المواد الخام المستوردة إلى أثينا، وكذلك بالمصنوعات الفضية المصنوعة من منتجات مناجم لاوريون ومعها أيضا كتل الرخام «البنتيليك» الخام اللازمة لنحت التماثيل المهمة في المزارات الأجنبية. تلك هي صادرات أثينا الصناعية في القرن الخامس. فهي مجرد مدينة ريفية إذا ما قورنت بالمراكز الصناعية الحديثة، أو حتى بالمراكز الهيلينية كالاسكندرية، أو بالبندقية في القرون الوسطى. وحتى هذا المستوى ما كانت لتبلغه دون جلب العمال المهرة[1].

---

(١) استعمل الرخام البنتليكس لإصلاح واجهة باب فدياس في أوليمبيا. وكذلك في هرايوم أرجوس.

هؤلاء الأجانب لم يكونوا مواطنين بمعنى الكلمة، على الأقل بعد تنفيذ قانون ٤٥١ . ولكنهم تمتعوا بكثير من امتيازات المواطنين ومسئولياتهم . فخدموا فى الجيش وفى الأسطول ، وربما كان ذلك بعد تدريب مماثل لتدريب المواطنين . وكانوا يؤدون نفس الهدايا الحرة ، أو التكاليف ، كالمواطنين تماما ، ويدفعون نفس ضريبة الدخل فى زمن الحرب وبنفس النسبة . وإلى حد كبير أيضاً كان مركزهم الاقتصادى مماثلا لمركز المواطنين. ومع أنهم لم يتمتعوا بحق تملك الأرض (وهو نقص أراد مؤلف الطرق والوسائل أن يزيله) فقد كان بينهم ، كما نعرف ، بعض المزارعين على الأقل، واندمجت غالبيتهم فى صغار التجار والصناع . ووصفت أقلية صغيرة غنية منهم فى صفوف كبار التجار وأثرياء النبلاء . ولكن كطبقة اجتماعية ، لم يكن لهم مصالح مادية خاصة بهم . فلم يكونوا كما يظن بعض العلماء جماعة غنية من التجار تضمر خططا سياسية ضارة ، كما أنهم لم يكونوا وهو ما قد يبدو أكثر احتمالا ، طبقة وضيعة محتقرة من العمال المهاجرين ، كتلك التى تأويها بعض البلدان الحديثة اليوم . والواقع أن تكوينهم الاجتماعى جعلهم عنصراً مستقرا ومتناسقا فى الحياة الأثينية . وهم يوصفون فى القرن الخامس دائما بأنهم «لم يكونوا حملا ثقيلا ، ولاهم كانوا بأى حال مكروهين بالمدينة». وهو ما يقوله الملك أدراستوس عن الأجنبى النموذجى المقيم (الملك النموذجى) فى Supplices ، الذى احتل مكانا مناسبا له تمام المناسبة هناك بين صور متحف أثينى صغير . وفى الواقع لماذا إذن يكونون مدعاة لكره الشعب فى بلد مثل أثينا فى عصر مثل ذلك العصر ؟ إنهم كانوا فخورين وسعداء أن يكونوا هناك حتى كغرباء ، كما ينبغى أن نكون نحن لو أتيحت لنا الفرصة . لقد اجتذبتهم « مدرسة اليونان » ولم يكن ذلك بالتأكيد لمجرد سياسة « الباب المفتوح »، ولكن لأنهم أعجبوا بمثلها العليا، وكانوا متحمسين للتعاون فى نظمها . وأغلبهم كما نعلم من شواهد قبورهم ، لم يكونوا برابرة ، بل كانوا يونانيين أمكنهم تقدير سمو أثينا وعلى استعداد ، كالمؤمنين الجدد دائما ، ان يكونوا أكثر

التابعين والداعين حماسة . وهكذا فليس من الصعب أن نرى كيف أقيمت المساواة بين هؤلاء الغرباء ومضيفيهم المواطنين ، والذى يحتاج إلى تفسير هو لماذا حرموا حق المواطن الكامـــل ، أكان ذلك لسبب دينى أو لحسد وضيع[١].

ولكن ماذا كان من أمر الرقيق ؟ هل كانوا هم أيضاً مماثلين فى الروح والأخلاق للسكان الأحرار ، وهل كانوا على استعداد لأن ينسجموا مع النظم الأثينية ؟ يبدو أن الأوليجارشى العجوز يقول بذلك ، وهو المصدر الوحيد المعاصر الذى يدلى برأى مباشر فى هذا الموضوع . وهذه هى العبارة وهى وافية معبرة ، بها تهكم بديع للغاية وبذا لا تحتمل اختصاراً . « هذه نقطة أخرى عن (الديموقراطية الأثينية)، هى الامتيازات العظيمة التى منحت

---

(١) يوريبيدس .Supp، ٨٩٢. فيما يخص « المتك » أنظر ڤيلاموڤيتز فى « هيرميس »، ١٨٨٧ (مثبتا أنهم كانوا رجالا ينتمون الى الدم) ، كليرك (Clerc) فى Les Métèques athéniens (فيما يخص النقط المشار إليها أعلاه أنظر ص١٣، ٢٥، ٣٦، ٣٨٢، ٤٠٩ـ٤١٠). فرانكوت فى De la condition des étrangers dans les cités grecques (لوڤان، ١٩٠٣) ، فيما يخص رتب الامتياز المختلفـة والحصانة . وفيما يخص الغرباء « كحراس » (περίπολοι) يساعدون شبان المواطنين المجندين أنظر Freeman فى Schools of Hellas، ص ٢١٥ — ٢١٦ والمراجع ؛ مثلا : توكيديدس ، ٨ — ٩٢ — ٢ مع ليسياس ، ١٣ — ٧١ ، أنظر توكيديدس ٤ — ٦٧ — ٢ . وأيضـا تود فى British School Annual ، الجزء الثامن ص١٩٧ وما بعدها ، حيث الملاحظة فى صفحة ٢٠٥ تذكر أن ثمانية من « المتك » المحررين وضعوا فى طبقة الـ γεωργοί الفلاحين أو « عمال الحقول » . ويفضل أفلاطون وأرسطو أن تكون المدن ذات كفاية ذاتيـة ، ولـكنهما اضطرا إلى أن يسلما بمبدأ ضرورة وجود الغرباء من أصحاب المهن « من أجل الحياة الطيبة » ، أنظر السياسة، ١٣٢٦ ا ٢٠ ، والقوانين، ٨٥٠ حيث يقول أفلاطون ، إنه لن يأخذ من أى غريب ضريبة أكثر من إلزامه بالخلق الطيب . إن نظريات السياسة الخارجية الأثينية المبنية على اختلاف مزعوم فى المصالح بين المواطنين والسكان الأجانب، يبدو أنها لا أساس لها كلية . إن التمييز الحقيقى الذى أحسه الرجال كان بين « الأجنبى المقيم » والغريب العابر (ξένος) . أنظر كيف لوحظ ذلك مثلا فى أوديب الملك. فلم يكن أوديب (كما هو المفروض) طيبى المولد ولـكن كان غريبا (metic) إلا أنه قد عد « طيبيا بين الطيبيين » (السطر ٢٢٢ وتعبير ، Teiresias ، سطر ٤٥٢) . قارن قائمـة الموتى فى ديتنبرجر رقم ٣٢ ، حيث قسم القتلى إلى : (١) مواطنين نظموا حسب القبائل ، (٢) غرباء فى قائمـة الجيش (ἔγγραφοι) ، (٣) الرماة وربما كانوا مرتزقة، (٤) الغرباء (ξένοι) أى فرق من الإمبراطورية.

للعبيد والأجانب المقيمين فى أثينا ، حتى اعتبر ضربهم مخالفاً للقانون ، ولم يكن العبد ليتنحى عن الطريق ليدعك تمر . وسأشرح سبب هذه التقاليد العجيبة . هب أن ضرب المواطن للعبد كان أمراً شرعياً ، فقد يحدث غالباً أن يختلط الأمر فيضرب أثينى خطأ ، على أنه عبد أو أجنبى ، إذ أن الشعب الأثينى لم يكن يلبس ملابس تفضل أحسن ملابس العبيد أو الأجانب ، ولا هم بخير منهم فى المظهر الشخصى . هذا وإن كنا ندهش من أن العبيد فى أثينا كانوا ينغمسون فى الترف ، ويحيون حياة فخمة أحيانا ، فهذا أيضاً يمكن أن يقال أنه وضع لغرض معين . فإذا كان عندك قوة بحرية تعتمد على الثروة ، فنحن مضطرون أن نكون عبيداً لعبيدنا ، حتى يمكننا الحصول على أجر عبدنا ، وأن ندع العبد الحقيقى يعيش حراً . وعند ما يكون لك عبيد أغنياء ، فما من فائدة فى أن يخشاك عبدى . وفى لاسيديمونيا يخافك عبدى . ولكن عندنا إذا خافنى عبدك فهناك خطر من أن يضحى بنقوده فى سبيل صون شخصه . ولهذا السبب إذن قد أقمنا مساواة بين عبيدنا ورجالنا الأحرار »[1] .

يحتاج بعض هذا إلى شرح أكثر ، ولكن المغزى الرئيسى واضح . فعبيد أثينا كانوا ينعمون بمعاملة حسنة جداً ، بل أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من حياة المدينة ، حتى أنهم لم يتميزوا فى مظاهرهم عن المواطنين . وزيادة على ذلك ، فبالرغم من أننا أُفهمنا دائماً أن العبد شىء ، والشىء لا يمكن أن يملك شيئا آخر ، فقد كان عبيد أثينا أحيانا من الثراء ، بحيث « ينغمسون فى الترف » أو « يدفعون أموالهم » فدية حتى ينجوا بأنفسهم . ولم يكن السبب فى معاملة العبيد معاملة حسنة والسماح لهم بالإثراء سببا إنسانيا ،

---

(١) الأولبجارشى العجوز ، ١ — ١٠ إلى ١٢ (ترجمة داكنز) . والقانون المشار إليه مذكور فى .Dem، ٢١ — ٤٧ . وهو كما يأتى : « إذا ارتكب أى إنسان إساءة شخصية ضد رجل أو امرأة أو طفل ، سواء كان حرا أو عبدا ، أو ارتكب أى عمل غير قانونى ، ضد أى واحد ممن ذكروا ، فلأى أثينى ، ما لم يكن محروما من حقوقه القانونية أن يقاضيه أمام القضاة » . أنظر. Aeschin فى .Tim ، ١٧ .

بل كان سببا اقتصاديا . ذلك لأن أثينا تريد المال ، وكان العبيد منتجى الثروة ، فلن ينتجوها إلا إذا عوملوا معاملة حسنة .

هذه هى نظرية عن العبد العامل ، تخالف تماما ما اعتدنا أن نسمعه من مهاجميها أو مؤيديها . فالرق كما نقرأ عنه فى أرسطو ، وفى كتابات المزارعين الجنوبيين ، يقوم على فكرة عن طبيعة العبد تختلف تمام الاختلاف . يقول أرسطو : « إن أدنى الأنواع البشرية هم عبيد بطبيعتهم ، وإنه لمن الخير لهم ، كما هو بالنسبة لكل الطبقات الدنيا ، أن يكونوا تحت إمرة سيد . فذلك الذى يمكن أن يكون ، وعلى ذلك فهو فعلا ، ملك لآخر ، والذى لا يستطيع بما لديه من التفكير إلا أن يفهم ما يلقى عليه ، دون أن يملك قدرة التفكير بنفسه ، هو عبد بطبيعته . على حين أن الحيوانات الدنيا لا يمكنها حتى أن تتبع العقل ، فهى تستجيب لغرائزها . الحق أن استخدام العبيد ، واستخدام الحيوانات المستأنسة ، لا يختلفان كثيراً ، فكلاهما يخدم بجسده مقتضيات الحياة . فالعبد بالنسبة لأرسطو والمزارع الجنوبى ، وسط بين الإنسان الحر والحيوان ، «قضى عليه فى شخصه ومستقبله ، أن يعيش دون معرفة ودون قدرة على امتلاك أى شىء امتلاكا شخصيا ، وأن يعمل شخصيا ليجنى غيره ثمار عمله » . وإذا بنينا حكمنا على ما ورد على لسان الأوليجارشى العجوز ، فالعبد فى أثينا فى القرن الخامس كان رجلا مثله تماما ، حتى أن أحسن طريقة للحصول منه على عمل متقن ، هو أن يسمح له بأن يندمج روحا ومظهراً بعالم الأحرار الذى يحيطه . « فلكى نحصل على أجر عبيدنا ، يجب علينا أن نكون عبيدا لعبيدنا ، وأن نترك العبد الحقيقى حراً » . ما هو تفسير تناقض وجهات النظر هذه ؟[1]

---

(١) أرسطو ، السياسة ، ١٢٥٤ ب . أما الاقتباس الآخر فمأخوذ من الحكم الشهير للقاضى Ruffin من شمال كارولينا ، الذى ذكره كيرنس (Cairnes) فى Slave - Power ، ص ٣٨٥ . أنظر أيضا ص ٣٩٠ وما بعدها ، فيما يخص مقال عن "The Philosophy of Secession" فى Charleston Mercury ، عدد ١٣ فبراير ١٨٦١ ، وهو أفصح تعبير عن المثل الأعلى لأرسطو فيما يخص المجتمع القائم على العبيد ، « المراعى فيه التناسب بين =

أما التفسير فسهل جداً . إنه كامن فى طبيعة العمل الذى يدعى العبد لأدائه . فإذا كان كل مايطلب عمله إليه لايتطلب إلا جهداً آليا لقواه الجسمانية، فسيعمل العبد كآلة ، وسيعتبره أصحاب النظريات آلة . وبعد فترة قصيرة ، سيضرب بالسياط وينحط إلى الحيوانية ، وتسلب مشاعره حتى يتبلد ، وينزل إلى المساواة التعسة بالآلة التى لا حس لها والتى يقوم مقامها . بينما ،من جهة أخرى ، إذا دعى العبد للقيام بعمل مهم مسئول عنه ، بل عمل فنى يستدعى مواهب خاصة ويصادف مطمحه الطبيعى وهواه ، فيحتمل أن يرقى إلى عنصر نشيط فى الجماعة العاملة له قيمته ، حتى أنه ليدفع المفكرين فى مركزه والمدافعين عنه إلى نواحى مختلفة تماما من المناقشة . وإذا أطلنا الشرح ، ففى الواقع كان هناك نظريتان عن الرق ، لأن هناك نوعين مختلفين من العمل للعبيد . وعلى هذا فهناك نوعان من العبيد . وقد ضمت أثينا فى حدودها كلا النوعين ، فمن الضرورى إذن أن نناقش هذين النوعين مناقشة فيها شىء من الدقة . ولكن من المستحسن أولا أن نعرض باختصار إلى نظم الرق عامة ، إذ ما من ناحية فى الحياة اليونانية يسودها مثل هذه البلبـــلة .

لقد درجنا على اعتبار الرق فى جميع صوره بصفة خاصة ، شيئاً خاطئاً غير طبيعى . فإذا كان علينا أن نفهم مكان الرق فى الحياة اليونانية ، وندرك نظرة اليونانيين إليه ، فيجب أن نترك جانبا هذه النظرة الحديثة . أو بالأحرى يجب أن نرتفع ، متخذين من اليونانيين مرشدين لنا ، إلى مستوى أعلا من التفكير تغلب عليه الصبغة الفلسفية . فنظم العمل كلها مهما كانت ، ليست

= العمل والأنجاه ، فيه العقل والمادة متناسبان نسبة عادلة ، مصورا لنا أسمى ما تصل إليه الطبيعة الحية .... إن سفينة الدولة لديها ما يثبتها ويحفظ توازنها بوجود طبقة المحرومين من الحقوق المدنية ، وليس هناك إذن أى مجال لاضطراب سياسى ، وعلى ذلك فمن المعقول أن تسير المركب بعد أن اتزنت بهذا الشكل متجهة إلى الأمام مدة لا نهاية لها » . إن الفلسفة الاجتماعية الممثلة هنا لا تقتصر على الدول القائمة على العبيد .

إلا تنظم العلاقات بين الكائنات البشرية ، أو بين مجموعات هذه الكائنات وعلى ذلك ليس لنا أن نحكم عليهم ، حتى ننظر إليهم على ضوء هذا المجال الأوسع ، وحتى نرى أية علاقات بشرية أخذوا بها ، وما كانت عليه حياة الكائنات البشرية التي تأثرت بهم ، وحالتها المعنوية . فلنقدم نظم العمل العالمية أمام تلك المحكمة فلن يرى الرق فى نفسه المذنب الوحيد ، ولا حتى أكثر ، المذنبين بشاعة . وسيقول القاضى إنه من الخطأ دائما أن يستعبد أو يستغل أو يُسخر الرجال بعضهم البعض ، أو أن يعامل بعضهم البعض الآخر كما لو كانوا أجسادا مجردة من الروح . فكل نظام للعمل يؤسس وينظم على افتراض أن الإنسان ما هو إلا آلة وسط آلات أخرى كثيرة ، ويجب أن يعامل على هذا الأساس ، هو نظام غير إنسانى وغير طبيعى ، يلحق ضررا بالغا بطبيعة المرء الحقيقية . ولكن هل كان هذا الخطأ يظهر فى نظم الرق إلى درجة أكبر منها فى غيره من النظم ، ذلك أمر لا يحكم عليه بالعقيدة المتوارثة ، أو التأكيد الاعتقادى ، ولكن يجب ألا يقضى فيه إلا بالدراسة الدقيقية المفصلة .[1]

(١) ليست مسألة شروط العمل مجرد مسألة قانونية « إن الرق بمعناه الأوسع يعنى معاملة العمال ، كأنهم آلات لا روح فيها ، ولا يمكن أن يلغى بتشريع قانونى فهو أمر يختص بالقوى الأدبية ، وبرأى الجماعة وشعورها العام . وهو بهذا المعنى سيظل مشكلة قائمة بيننا ما دام سوء استعمال القوة باقيا كإغراء بشرى طبيعى . إلا أن المجال سيظل مفتوحا لنشاط المصلح الطالب بإلغاء الرق ، إذا وافق على الاعتراف بقصور التعريف القانونى للرق . ففى المناطق المدارية كما يقول نيفنسون ، فيما يتصل بأجر العمال المتعاقد معهم فى جزر الكاكاو البرتغالية (وهذه الملاحظة تنطبق أيضا على دافعى الضرائب الأحرار فى الكنغو) « إنه يجب أن تواجه المسألة كلها من جديد ، لأن الحلول التى تمت على أيدى أسلافنا لم تعد مرضية البتة » . بل يجب أن تواجه من جديد فى ظل نظامنا الصناعى الأكثر تعقيدا ، حيث يمكن أن يتشكل استغلال العامل ألف شكل ، كما يعلم جيدا أى فرد على صلة بظروف طبقة العمال . وقد يفزعنا أحيانا ظهورها بمظهر يشابه الظروف القديمة مشابهة عجيبة . « وأجر العبد هو طعامه » ، كما يقول مؤلف اقتصاديات أرسطو (δούλῳ μισθὸς τροφή) . وهناك عمال كثيرون حديثون ، فلاحون ، وعمال زراعيون ، وعمال محلات وغيرهم ممن لا زالوا يأخذون أجرهم مقايضة كالعبيد فى اليونان القديمة . والفارق الرئيسى بينهم هو أن من مصلحة صاحب العمل القديم أن يدفع لهم أجورا بالقدر الذى يجعلهم يستمرون فى العمل ، لأنه يتحمل تكاليف استبدال غيرهم بهم .

وعلى أية حال فاليونانيون لم يشاطرونا وجهة نظرنا الحديثة . فالرق عندهم ، وهو أبعد من أن يكون غير طبيعى ، كان جزءاً من نظام الطبيعة . وقد شبوا على معرفة أن كان باليونان عبيد من قديم . فصلة السيد بالعبد لم تكن عندهم أمراً يختلف عن صلة الزوج بالزوجة أو الأب بالابن . وكان للعبد مكانه فى العائلة ، فى الملاحم والمآسى ،وفى إنجيل النظم اليونانية. ولم يفكر أحد أن يلوم سيدا يستغل عبده دون أجر . فلم يعتبر اليونانيون امتلاك عبد واستغلاله ، جرما أو خطأ أخلاقيا ، ولا حتى عدم لياقة ، فقد كان ذلك إلى حـــد بعيد جزءا لا يتجزأ من العالم القديم الذى درجت فيه جماعتهم . إلا أن هذا الرق على طول المران والتعود ، لم يترك شعور اليونانى المرهف سليما دون ما تأثير . فعلى خلاف صاحب العمل الكبير ، أو المساهم فى العصر الحديث ، فقد كانت معظم أدواته الحية هذه تحت يده لا بعيدة عنه بعدا يجعل مشاعره لا تتأثر تأثيراً مباشراً . وعلى ذلك مع أنهم لم يعتبروا الرق خطيئة بالنسبة للسيد ، إلا أنهم رأوا وشعروا بأنه سوء حظ للعبد ، كما شعر الضمير اليونانى العام ، الذى رفض أن يلوم السيد ، بالأسى للعبد . والأدب اليونانى من عهد هومر إلى يوريبيدس وما بعده ، ملئ بالعطف على الأسير ، ملئ بصرخة الألم التى تصدر عن الرجل القوى الذى فقد باستعباده « نصف رجولته » ، ملئ بالنساء والأطفال اللائى لم يعد له قدرة على حمايتهن من الخجل والمهانة . وكان الفزع الحقيقى فى الحرب اليونانية ،والهول الأكبر الذى يتمثل خلف تلك المباراة العظيمة المثيرة ، هو طول أمد الأسر الذى قد ينتظر من بقى من المهزومين التعساء . وإن الشعراء والمعـــلمين الذين أحبوا أن يطيلوا البحث فى تقلب الأمور الإنسانية وتغيرها ، لم يدعوا هذا الخوف يتضاءل أبداً فى عقول جمهور قرائهم ومستمعيهم . وإن أثينى القرن الخامس ، وفى حوزته عبيد يساعدونه فى أعماله اليومية ، ليستمع بتأثر وانفعال إلى قصة هيكوبا وأندروماخوس أوإيفيجنيا ، ثم يرجع من

المسرح إلى منزله ، لا ناقدا ولا مستهجنا نظام العبودية ، ولكن مصمماً على أن يكون أكثر شفقة وصبراً على البرابرة الصغار الذين بإرادة غريبة من السماء ، صاروا جزءاً من كيان منزله . فما زالت تتردد فى أذنيه كمذكر حى أبدى ، كلمات جماعة المنشدين الأخيرة ، وهم يهمون بمغادرة المسرح :

هناك كثير من الأسرار
وعديد من الأشياء ، الله يخلقها
تخفى على الفهم .
والغاية التى إليها رنا المرء لا تكون ،
ولكن هناك طريق لم يخطر لإنسان ،
وهو ما هنا كان .

وعندما يشعر أنه كان على وشك أن يتفجر غضباً من جراء السرقة التافهة التى ارتكبتها خادمته من تراقيا ، أو من سماجة الصغير الشقى خانثياس المتناهية ، « عند ذلك » يحس أنه « لو لا فضل الآلهة العلى لكان لك هذا المصير » .(١)

---

(١) Πολλαὶ μορφαὶ τῶν δαιμονίων,
πολλὰ δ᾽ ἀέλπτως κραίνουσι θεοί·
καὶ τὰ δοκηθέντ᾽ οὐκ ἐτελέσθη,
τῶν δ᾽ ἀδοκήτων πόρον ηὗρε θεός.
τοιόνδ᾽ ἀπέβη τόδε πρᾶγμα.

Bacchae ، ١٣٨٨ ، ترجمة مورى ، أنظر ميديا ، ١٤١٥ .

لم يكن فى القرن الخامس أى أثر لفكرة أرسطو من أن الرق فيه خير للعبيد ، فذلك لم يكن سوى دفاع فى القرن الرابع وضع ليوقف نقد عصر كثر فيه الشك . فيونان القرن الخامس لم ينتقدوا الرق ، ولكنهم كانوا يأسفون لعبيدهم ، وهذا هو الوضع الآن أيضا بالنسبة لنظام العمل الذى يعد من بعض الوجوه بربريا أيضاً . فصاحب العمل الذى ينقص عدد عماله فى أيام الكساد لا ينتقد النظام الصناعى ، ولكنه غالبا ما يشعر بالأسف من أجل العمال الذين يفصلهم ، وهو كصاحب العبد يشعر بألا حول له ولا قوة . والأسطر الهومرية المشهورة عن الرق جاءت فى الأوديسة ، ١٧ ، ٣٢٢ — ٣٢٣ . (أنظر التذييل) .

ولنعد الآن إلى اقتصاديات أعمال العبيد ، وإلى دراسة نوعيهما .

إن معظم العبيد فى أثينا كانوا برابرة مجلوبين من الخارج . فبصفة عامة لم يسمح بتربية الرقيق فى المدينة نفسها . فهم إما أن يكونوا قد خطفوا أو أسروا من بلاد تراقيا ، أو آسيا الصغرى أو سوريا أو دلماشيا ، وجيء بهم إلى پيريه ليباعوا مع سائر ما يجلبه التجار من سلع . فلنتتبع حياتهم منذ أن يصلوا إلى أيدى تجار الرقيق[1] .

فأول ما يعمله التاجر كان أن يتعرف نوع بضائعه ، وأن يحدد مدى صلاحيتها للأعمال المختلفة . ويجب أن يعرف أى مشترياته يمكن أن تحمل أو تدرب على العمل بسهولة ، ومن منهم شديد الخطر وكثير المشاكسة ، أو فى منتهى الضعف أو الغباوة ، مما يجعلهم لا يصلحون إلا أن يعملوا عمالا يدويين تحت مراقبة صارمة . وقد ينجح التاجر أحياناً فى جعل بعض هؤلاء الأخيرين يفتدون أنفسهم . ومن المحتمل ألا يعيش بعضهم طويلا ، ويذهب معظم الباقين إلى مناجم الفضة حيث لا يمكن أن نتتبعهم الآن . ولا يبقى مع التاجر سوى طائفة صالحة وديعة من الممتلكات . فمن منهم فى سن الحرب ، إما أن يكونوا فتوا أو تخاص منهم ، والنساء ، رغم أنهن فى المتوسط عادة يكن أكبر من الرجال قليلا ، فإن قليلات منهن من يكن تجاوزن مقتبل العمر ، إذ ليس هناك سوق للعجائز من النساء . هذه هى مجموعة الوافدين الجدد ، أو المبتدئين الذين سيشتركون فى العمل فى المدينة فيدربون كصناع أو بائعين أو عمال فى البيت ، أو مضحكين يعودون بالربح على سادتهم[2] .

---

(١) أنظر قائمة العبيد المنسوبين إلى وطنهم الأصلى فى منزل غريب غنى ، المذكورة فى هيكس وهيل ، ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) إن الاصطلاح اليونانى بعد نهب مدينة ما هو ، « قتلوا الرجال الناضجين ، واستعبدوا النساء والأطفال » توكيديدس ، ٥ — ٣٢ و ١١٦ ثم ٣ — ٣٦ — ٢ ، أنظر بوليب ، ٣ — ٨٦ — ١١ . ويبدو أن كان بأثينا نفسها ، عدد قليل من العبيد اليونان ، وإن كانوا بلا شك غير معتادين فى أسواق الرق اليونانية . ويقال أن أفلاطون نفسه قد خطف مرة وافتدى نفسه .

فكيف كانوا يدربون ؟ كانوا يدربون على الطريقة اليونانية الحقة ، عن طريق الإقناع أكثر من أن يدربوا بطريقة الإجبار . فهم لم يعلموا أن يؤدوا واجبهم فحسب ، ولكنهم سيعلمون أيضاً أن يعشقوا عملهم . فالخدمات التي يدعون للقيام بها كانت من كثرة التنوع والصعوبة ، حتى مالم يكن فنياً منها ، حيث لا تتعلم بطريق التمرين الآلي أو الإجبار .

وهذا هو ماتختلف فيه حياة العبد اليوناني العادي عن حياة الآلات الحية في المزارع المدارية . صف المنظرين يتضح لك الفارق من أول وهلة . ويقول نيفنسن (Nevinson) : « لقد كان صفاً طويلا من الرجال والنساء يمتد على مسافات متباعدة إلى ما يقرب من الياردة ، كأنهم فرقة من المشاة ذاهبة إلى الحرب . لقد كانوا ينظفون مزرعة بن منحنيين على العمل أزواجاً ، ويتقدمون عبر الأرض بطيئاً ، يعزقونها أينما ذهبوا . . . ويقف إلى الوراء على بعد خمس أو ست ياردات ، المشرفون على الجماعة أو السواقون أو موجهوها ، كقواد فرقة في خط النار . . . يمسك كل بعصا طولها ثمانية أقدام ، من الخشب الصلب ، مدببة الطرفين ، ومظهر هذه العصي يفسر تماماً الدافع إلى إتقان العمل والمثابرة عليه ، وكذلك الهدوء الذي يسوده ، الأمر الذي لم يكن مألوفا بين الأهالي ، سواء كانوا يعملون أو يلعبون » . فكم يختلف هذا عن الحياة الحرة السهلة في المحاجر ، أو في المصانع أو السوق العامة ، أو حتى بينها وبين الأعمال اليومية المتنوعة التي تجرى داخل المنزل . فالإرهاب في المزارع المدارية هو الوسيلة الوحيدة المنطلية ، والإرغام الجثماني هو المهماز المستعمل الوحيد . ولكن إذا ما بعدت الجماعة أو الفرد عن متناول السوط ، يصبح كما يقول أفلاطون « بضاعة متعبة » واليوناني الذي يملك العبيد مهما أراد أن يكون قاسياً ، فإنه لن يقدر على إدارة بيته بالإرهاب وحده ، إذ العمل لم يكن آلياً بحتاً ، والإشراف يتطلب نفقات كبيرة ، فضلا عن أنه مرهق . وقد دفعه منطق الأشياء ، إلى أن يجد لعبيده دافعا آخر يدفعهم إلى العمل . ولنذكر هذا الجانب الجائر فيما يخص عبيد

المزرعة ، فهو لن يجنى شيئا من وراء العمل ، لا لنفسه ولا لعائلته ، بل إن هناك مزيداً من الألم يقاسيه إذا ما كان كسولا . وإنه لواجب مالك العبيد اليونانى ، كما هو واجب صاحب العمل الحديث ، أن يرغب عماله فى العمل . فعليه أن يشعرهم بأن هناك غاية من وراء عملهم . وهكذا يتعلم تدريجياً أن يطرح جانباً (إلا وقت الضرورة) السوط المرغم البغيض ، وأن يتجه إلى نوع من الدوافع أقيم ، أو على الأقل أثبت ، إلى الأمل أو الطموح ، أو المنفعة أو المنافسة ، أو حتى إلى المودة الشخصية ، أو إلى روح الفن الصادق ، إذا كان معلماً ناجحا .(١)

وتترتب كل النتائج الأخرى على هـذا التباين الأولى فى القوة المحركة . فالحقيقة الأساسية عن العبد فيما يعنيه الزارع بهذه الـكلمة ، أنه ليس فى دخيلة نفسه أى دافع على العمل ولا حتى للحياة ، لأنه هو وكل ماينتجه ملك لغيره. فالعبد الذى وهب على نحو ما بعض الرغبة الشخصية فى العمل ، وبهذا أدرك بريقا من الأمل ، واسترجع بعضا من الاحترام الشخصى ، إنما هو كائن مختلف عن غيره من العبيد تمام الاختلاف ، إنه يشغل أدبيا واقتصادياً مركزاً آخر فى المجتمع . فهو ينتمى فى الحقيقة إلى طبقة جديدة من العمال ، أوثق اتصالا بطبقة ذوى الأجور والصناع المهرة ، التى تعلوه فى المرتبة الاقتصادية ، أكثر من اتصاله بجماعة العبيد البهيمية المملوكة الذين هم دونه. وهـذه قفزة إلى الأمام من مركز العبد المساعد عند حلاق فى پيريه ، إلى العتق وحقوق المواطن . ولـكن بالنسبة الاقتصادى هى أول درجة فى السلم، هى إدخال دوافع جديدة إلى العمل ، وهو أمر بالغ الأهمية . فالعبد الذى يعمل دون إجبار مباشر إنما يدعم حقه فى الحرية .

---

(١) نيفنسون فى A Modern Slavery ، ص ٣٣ — ٣٤ ، أفلاطون ، القوانين ، ٧٧٧ (δυσκολόν ἐστι τὸ θρέμμα ἄνθρωπος) ، فقرة توضح كيف أن أفلاطون أدرك كل الإدراك وحـدة الطبيعة البشرية ، وسخف تقسيم البشر الى طبقتين منفصلتين ، ولـكنه على أية حال يوافق فى « القوانين » على تقسيمهم إلى أحرار وعبيد ، كتقسيم أساسى ، ويحاول أن يستفيد من ذلك التقسيم أقصى فائدة .

كيف كان يحمل السيد الأثيني عبيده على العمل ؟ وأى خطوات اتخذها ليعيد إليهم احترامهم الشخصى ؟ إن مالدينا من أدلة من القرن الخامس من القلة بحيث لا تمكننا من إعطاء جواب مفصل على هذا السؤال . فإذا تكلمنا بإسهاب وبشكل عام ، فقد انتهج فى هذا الصدد سبيلان . لقد كان ممكناً إدماج العبد فى العائلة حتى أنه لم يعد يشعر بوضاعة مركزه ، وأصبح فخورا أن يعمل من أجل سيده حتى مماته كما يفخر الخادم المخلص . وتلك كانت الطريقة الهومرية القديمة التى أخرجت إيوما يوس راعى الخنازير ، وإيريكليا مربية العائلة ، وقد بقيت هذه الطريقة قائمة مع تقاليد البيت حتى بلغت عالم القرن الخامس الواسع . ولكن بازدياد هجرات العبيد فى العصر الذى نحن بصدده انتشرت وسائل أخرى وأصبح معروفاً على وجه عام بين رجال الفكر ، أن الطريقة المثلى لتزويد عبد بدافع مناسب للعمل ، هى إعطاؤه أملا فى أن ينال الحرية فى النهاية — أى بأن يدمج فى السكان الأجانب الأحرار . ونعلم أنه أخذ بهذه الطريقة فى أثينا منذ وقت مبكر ، فمن بين الأجانب الذين منحهم كليستينيز عام ٥٠٧ حقوق المواطن ، عدد من المعتوقين . ولابد أن كان فى أثينا منذ ذلك الوقت فصاعدا ، عدد ما من السكان المحرومين . وهذا خليق بأن يفوتنا لأن الاسم لم يكن يذكر إلا نادرا . فالرجل المحرر كان يعد فى مرتبة الغريب ، وإذا ما حصل على حقوقه المدنية لم يثر أحد مشكلة أصله . لقد كان من تقاليد الأثينيين فى إكرام الضيف إغفال الماضى ، حتى فى المنازعات المثيرة أمام ساحة القضاء ، فلما كان يزاح الستار عن ماضى الرجل المحرر . « فباسيون » الأثينى العظيم صاحب المصرف المعروف فى القرن الرابع ، كان من أغنى الرجال ومن أكثرهم تشبعاً بالروح العامة . هذا الرجل ابتدأ حياته عبداً . ولابد أن عرف ذلك كل من كان فى أثينا . وكان ممكننا أن يظل ذلك خافيا علينا لولا جملة قيلت عفوا فى سياق حديث . إذ صاح ابنه فى قضية ضد أحد المحررين قائلا « من أنت حتى تبحث عن أصل أبى ؟ من منكم لم يحنق على هذه العادة يا رجال أثينا ؟ » إننا لانعرف أصل باسيون فهل

« ولد فى المنزل » أو هو أحد هؤلاء « الليديين أو الفريجيين أو السوريين ؛ أو غيرهم من برابرة الجهات المختلفة »، الذين ألفوا جزءا مهما من المقيمين الأجانب كما يقول مؤلف « الطرق والوسائل » فاسمه لا ينم عن جنسيته . ولكن أيا كانت جنسيته فإنه يمثل ما كان ، طبقة كبيرة وهامة فى أثينا فى القرنين الخامس والرابع .

إن التلويح بالأمل فى الحرية كحافز للعمل ، كان وسيلة شائعة الاستعمال ويظهر ذلك واضحا من اتفاق الآراء بين رجال الاقتصاد اليونانيين فى هذا الصدد . لقد كان أفلاطون الكاتب الوحيد الذى اقتنع بصلاحية النظام القديم الذى يقضى بمعاملتهم معاملة أبوية . وقد رأى أن يكتفى بمعاملة العبيد بشفقة فى حزم ، كما كان الحال فى الأيام السابقة الطيبة ، « لا أن يحذروا فقط كما لو كانوا أحرارا ، الأمر الذى لن يجعل منهم إلا متغطرسين » . وقد اعترف أرسطو بأن هذه الطرق المحافظة ، لن تكفل حلا مرضيا لمشكلة الخدم فى أيامه . ورغم أنه لابد وأن شعر أنها تخالف بقية نظريته عن العبيد ، فقد استرسل بشجاعة فى الحديث عن موضوع الحرية قائلا : « إنه من الأوفق أن يلوح بالحرية دائما للعبيد كمكافأة لهم على خدمتهم » . ثم يعد بمتابعة مناقشة الموضوع فيما بعد . لكن لم يرد ذلك فى النص الذى لدينا من كتاب السياسة . إلا أن لدينا بينة أقوم ، وهى وصيته الأخيرة . فقد أوصى بالحرية لخمسة من عبيده البالغ عددهم ثلاثة عشر . واضطر إجزينوفون ، الأكثر واقعية ، إلى الوصول إلى نفس هذه الخلاصة ، رغم أنه يعبر عنها بشكل أقل وضوحا فيقول « يحتاج العبيد إلى أن يمنوا بالآمال الطيبة أكثر من الرجال الأحرار ، وذلك حتى يمكن الإبقاء عليهم فى مراكزهم » ، بينما يذهب مؤلف « الاقتصاديات الأرسططاليسية » حتى إلى أبعد مما ذهب إليه أرسطو فيقول : « يرضى العبيد أن يتكبدوا المشاق ، عندما تكون الحرية جائزتهم بعد وقت محدود » . وبمعنى آخر إنه ينصح قراءه أن يتخذوا وضعا ثابتا مع عبيدهم ، بأن يتعهدوا بمنحهم الحرية بعد عدد معين من السنين (أو بعد حادث معين كموت السيد

مثلا) ، فذلك أفضل من تركهم فى حيرة وشك . وأخيرا إذا لزمنا بدقة حدود العصر الذى نحن بصددة فلنقتصر على تقرير الأوليجارشى العجوز القائل بأنه من الخطر أن نرهب عبدا أثينيا ، لأنه « سيجازف بإعطاء نقوده ليتجنب المخاطرة بشخصه هو » ، أى أن يدفع دية اغريب الإضرار بمصالح سيده ، أو ربما لأن يطلب أن يشترى حريته بما يوفره من المال ، حتى يتخلص من المعاملة القاسية . كل ذلك لا يرينا فقط ما نعرفه جيدا من مصادر أخرى من أن العبيد فى أثينا كان يتاح لهم عادة امتلاك المال ، بل يوعز أيضا بأن الفكرة التى كانت تشغل تفكيرهم دائما عند ما يحصلون على النقود هو شراء حريتهم كاملة . وقلما نحتاج إلى دليل على ذلك فالحرية بالنسبة للعبيد والأسرى فى كل العصور حتى ولو كانت حرية الموت جوعا ، تلوح لهم عن بعد كأنها الخير الوحيد . وبالنأ كيدلم تخرج أثينا فى القرن الخامس على هذه القاعدة .[1]

---

(١) Dem. ، ٤٤ — ٨١ إلى ٨٢ (Pasion : أنظر أيزوقراط ، ١٧ فيما يخص حياته الأولى التى وصفت على نحو غامض ، فقرة ٢٢ ، بأنها « متواضعة ») ، Ways and Means ، المجلد الثانى ، ص ٣ ، أفلاطون ، القوانين ، ٧٧٧ : ويعترف فى فقرة ٩١٥ بأنه يجب أن يحسب حسابا للرجال المحررين ، ويضع الشرط الهام ، أنه يجب ألا يكونوا أغنى من سادتهم السابقين . أرسطو ، السياسة ، ١٢٧٥ ب ٣٦ ، ١٣٣٠ ا ٣٢ ، Diog. فى Laert. ، ٥ — ١ — ٩ (وصية أرسطو : خلفاؤه ، الثلاثة فى اللوكيوم (Lyceum) زادوا نسبة العتق . فالأول أعتق خمسة من تسعة عبيد ، والثانى أعتق أربعة من ستة عبيد ، والثالث أعتق أحد عشر عبدا من اثنى عشر) . اجزينوفون .Oec ، ٥ — ١٦ ، [أرسطو] ، .Oec ، ١٣٤٤ ب ١٥ ، إن بحث الرق كله هنا زاخر بآراء واقتراحات قيمة ، أما بخصوص الصروف الشخصى فأنظر ميناندر فى Hero ، ٢ — ١ إلى ١٠ (طبعة Teubner) ، حيث تبرع عبد بأن يحل محل عبد آخر ، إذا وقع فى مشكل وأن يكبل بالسلاسل ويرسل إلى الطاحون (التهديد المعتاد) كعقاب له . ولسوء الحظ ، نكاد أن نرجع معظم الأدلة التى لدينا من النصوص المفصلة عن العتق ، إلى عصر متأخر عن القرن الخامس . ويبدو أن ذلك كان إلى حين عرضا ، بما أن كالدرينى ، الذى جمع تلك النصوص ، يقول إن النصوص القليلة التى بقيت من القرن الخامس تبين أن العتق غدا بعد ذلك عاما فى اليونان . أنظر مؤلفه ، La Manomissione e la condizione dei liberti in Grecia (ميلانو ١٩٠٨) ، ص ١٨ . ولكن من ناحية أخرى ، فذلك يرجع إلى تهذيب العادات العامة ، وزيادة الميل إلى الشعور بعدم الارتياح إلى نظام الرق . عن هذا الموضوع أنظر تشيكوتى (Ciccotti) فى Il Tramonto della schiavitù nel mondo antico ، تورينو ١٨٩٩ ، خصوصا =

وهكذا لم تقم موارد أثينا المادية على أساس من عمل العبيد كما يقال غالباً . إنما أقامتها على مر القرون ، جماعة مؤلفة بصفة رئيسية من عمال أحرار .

= ص ١١٨ وما بعدها . وهناك بعض التفاصيل الهامة عن عقود العتق المتأخر في فرانكي (Francke) de manumissionibus Delphicis (مونستر ، ١٩٠٤) . وهناك شكلان من العقود هامان بصفة خاصة . أحدهما يشترط فيه « البقاء في العمل » (παραμονή) ، أي أن العبد يعتق ، ولكنه يبقى عند سيده ، بعقد مكتوب أحيانا لمدة محددة تختلف ما بين سنتين إلى عشر سنين ، وأحيانا يبقى حتى يدفع ثمن شرائه أقساطا . وهناك ضروب من الشروط الخاصة في مثل هذه الحالات ، فمثلا إذا مرض الرجل المحرر أطيلت مدة خدمته تبعا لذلك ، ليعتاض الوقت الضائع ، وأنه في حالة النزاع يدعى المحكمون للفصل في شروط العقد ، وإذا ولد له طفل في أثناء الخدمة فهو حر في أن يخنقه εἴ κα μὲν θέλῃ ἀποπνεῖξαι) ، أو أن ينشأه كرجل حر، الخ . أما الشكل الآخر من العقود (وأغلبه يرجع إلى حوالي ١٧٠ ق.م) ، فهو الذي يقوم فيه العبد بسداد دين سيده نظير حريته ، ويحدث هذا إذا استدان سيد نقودا مقدماً عبدا غنياً كرهينة . وقد كشفت نصوص دلفي عن حقيقة أخرى هامة ، وهي أن الأثمان التي اشترى بها السادة العبيد ، كانت أقل بكثير من المبالغ التي دفعها العبيد ثمنا لتحريرهم . فالأثمان الأولى تختلف ما بين مين وثلاث مينات ، بينما الثانية (أي المبالغ التي يدفعها العبيد) تختلف بين ثلاث وخمس مينات . وعلى ذلك فإن أسياد العبيد فرضوا على عبيدهم أن يدفعوا ثمنا غاليا للشيء الوحيد الذي يطلبونه ، وهو الحرية . وأحيانا يطلب منهم أن يجرنوا عبدا صانعا ليحل محلهم ، للقيام بعملهم القديم . والآن وقد جمع « كالدربني » الأدلة ، فإن موضوع هذا النظام الوسيط بين الرق والحرية بأكمله ، يستحق أن يبحثه بحثا دقيقا ، أحد الاقتصاديين ، الذي يجب أن يكون محاميا أيضا . أنظر مقالي في Sociological Review (يناير وأبريل ١٩٠٩) ، التي حاولت في أولاها عمل تحليل عام لنوع العبيد المأجورين ، وأضفت ترجمة لعقد تحرير نموذجي . وهناك مجموعة منتخبة من هذه العقود في ديتنبرجر ، رقم ٨٣٥ وما بعده . إن أسماء العبيد مهمة إذ تكشف عن نوع العاطفة التي قامت بين السيد وعبده ، وقد ألحق بكتاب Dialektinschriften ، (الجزء الرابع ص ٣١١—٣١٧) فهرس بأسماء العبيد في نصوص دلفي ، يبدأ باسم Ἀβροσύνα (الرقة) وينتهي باسم Ὠφελίων (« المساعد الصغير ») . وبهذه التسمية ، يشب العبد فلا يعرف من أي جنس هو ، أسوري أم فريجي فقد دخل في دور الإعداد للهيلينية . أنظر ، Dem. في de Cor. ، ١٣١ ، حيث يتهم Aeschines بأنه قد حسن اسمي والديه . أنظر أيضا فيلاموفيتز ، A. A. ، الجزء الثاني ص ١٧٥ — ١٧٩ . وقد كانت الأسماء الوحيدة المحرمة على العبيد الأثينيين هي هارموديوس وأرسطوجيتون ، لاتصالها الوثيق بالحرية وهي قاعدة خاصة للغاية . أنظر Aulus Gellius في Noctes Atticae ، الجزء التاسع — ٢ . وقد يكون هاما أيضا إذا سمح لنا المقام ، أن نعالج موضوع العبيد الذين يعملون أحيانا في أعمال ذات مسئولية في الدولة أو المعابد . وأحسن مثل لهذا هو معبد أيون (Ion) الذي ذكره يوريبيدس . وقد كان يكنس أفنية المعبد ويعيش على ما يهبه الغرباء ، وهو أيضا أمين خزانة المعبد ، ويتمتع بقسط وافر =

ولم يكن إلا فى وقت متأخر من تاريخها عند ما أصبح عبء حضارتها أكبر من أن تضطلع به أثينا بجهودها الخاصة دون مساعدة ، أن احتشد بها العبيد والمهاجرون الأحرار ليساهموا فى البناء . وهؤلاء لم تعاملهم أثينا فى معظم الحالات كأنهم مجرد آلات حية ، بل عاملتهم « كعمال زملاء » يعملون مع مواطنيها ، « وكشركاء أحرار فى الامبراطورية » . وعسى أن نكون بذلك قد خلصنا اسم أثينا من قذف جائر علق به ، منذ أخذ وعى الإنسانية يهتم بهذه المسائل . فالديمقراطية الأثينية كما يقال لنا غالباً ، لم تقم إلا على ما كان لدى سكانها الذين يملكون العبيد من فراغ . فجمال اليونانيين الجسمانى، إنما يرجع لكراهيتهم للأعمال اليدوية . ويعزى تقدم الفن اليونانى والأدب والفلسفة اليونانية وما تميزوا به ، إلى تحرر الرجال من القلق الفعلى وانشغال البال ، تحرراً يحسدون عليه . وبالإجمال فالحضارة اليونانية بكل هذا التراث من الأعمال الباهرة ، متصلة اتصالا لا ينفصم بقسوة وظلم مقصودين . ولا يمكن بحال أن نستعيد لمجتمعنا روح وطابع ذلك العصر المجيد ، لأن الرجل العصرى لا يمكن أن يحتمل بدائية ذلك العصر وخصائصه التى لا غنى عنها . كل ذلك غير صحيح ، غير صحيح فى نظرته للماضى وفى يأسه من المستقبل ، بل هو غير صحيح، وممعن فى ذلك ، فى تقديره الساخر للطبيعة الإنسانية . فالمجتمعات مثل الرجال لا يمكن أن تعيش فى صوامع مقفلة .

= من « أعز شىء إلى قلب الإنسان ، وهو الفراغ » . إنه يقوم بهذه الوظائف المتعددة التى لا يرغب فى التنازل عنها ليحيا كأمير فى أثينا ، وهو يقوم بها بلباقة وحزم خادم حديث فى كنيسة، أو بواب كلية من الكليات . أنظر ٢ — ٥٤ و ١٠٢ و ٣٢٣ و ٥١٧ وما بعدها ، خصوصاً ، ٥٤٤ (لباقة)، ٦٣٤ وما بعدها. وفيما يختص بعبيد الدول أنظر ڤازينسكى (Waszÿnski). فى De servis Atheniensium publicis (برلين ١٨٩٨) ، وبنوع خاص فيما يتعلق بمركزهم الشرعى ، راجع مقاله ، فى هيرميس ، الجزء ، ٣٤ ص ٥٥٣ وما بعدها، حيث يبين مدى ما تمتعوا به من استقلال : « مع أن كل واحد من هؤلاء الـ ὑπηρέται» (γραμματεῖς، الخ.) « كموظف حكومى كان يتبع ἀρχή » (موظفا رئيسا أو وزيرا) ، « فهو فى الحياة الخاصة سيد نفسه »، مثل موظفينا المدنيين الدائمين . (أنظر التذييل) .

ولا يمكن أن يأملوا فى الحصول على العظمة ، بأن يعوضوا من حسن استخدام الفراغ ، تلك الأرواح التى قسوا عليها فى سبيل الحصول عليه . فالفن والأدب والفلسفة وكل إنتاج عظيم لعبقرية أمة ما ، ليست مجرد نباتات غضة تنمو فى أمكنة مصطنعة مقفلة ومنعزلة ، بل يجب أن تتمكن بقوة وتتأصل وترعى باستمرار ، فى تربة الحياة القومية العامة الواسعة . وإذا كنا نبحث عن الدروس والعبر ، فهذا درس يجب أن نأخذه عن اليونان القديمة.[1]

---

(١) أنظر أثينيوس (Athenaeus) ، ٦ ، ص ٢٦٥ (من Theopompus) عن إدخال العبيد المشترين إلى اليونان ، ولكن دخولهم بكثرة ، لم يكن على نطاق واسع إلا بعد أن استطاعت الدويلات أن تشتريهم وتمولهم ، وكما لاحظ أورى (Ure) فى (J. H S. ، الجزء ٢٦ ، ص ١٣٥) ، فعصر الطغاة كان لا يزال عصر العمل الحر . أنظر كذلك كتيبي ماير Die wirtschaftliche Entwickelung des Altertums (١٨٩٥) و Die Sklaverei im Altertum (١٨٩٨) ، وقد أعيد طبعهما فى كتابه Kleine Schriften (١٩١٠) ، وهذان الكتيبان قد قضيا على الرأى القديم القائل بأن الرق كان أساس الحياة اليونانية . وإن أردت تقريرا بديعا ، وإن كان فيه شىء من المغالاة عن هذه النظرية ، فانظر باترسن (Paterson) فى The Nemesis of Nations ، الذى حاول فيه أن يبحث فيما تضمنته مذاهب الكتاب الذين انبعهم ، باذلا مجهودا فى التخيل والتصور أكثر مما بذلوا هم .

الفصل السادس عشر

اقتصاديات الإمبراطورية : مناجم الفضة

ملكة الفرس :

Καὶ τί πρὸς τούτοισιν ἄλλο; πλοῦτος ἐξαρκὴς δόμοις;

جماعة المنشدين :

ἀργύρου πηγή τις αὐτοῖς ἐστι, θησαυρὸς χθονός.

ملكة الفرس : وماذا عندهم غير ذلك ؟ هل فى أوطانهم ثروة كافية ؟

جماعة المنشدين : إن لديهم من الفضة ما يمكن أن يقال عنه إنه نبع ، إنه كنز فى الأرض .

أيسلوس ، الفرس، ٢٣٧ — ٢٣٨ .

ترجمة هدلام

اعتمد ثيمستوكليس وبركليس على تنمية موارد أثينا من حيث هى مركز تجارى وصناعى ، وذلك للإبقاء على قوتها ونفوذها . وقد شرحنا هنا معظم هذه الوسائل باختصار ، ولم يبق إلا موضوعا واحدا للمناقشة .

إذا ما نزل تاجر العبيد إلى بيريه ومعه شحنة من الأسرى البرابرة ، باع أكثرهم بأثمان طيبة ، إلى أصحاب المنازل والمصانع . إلا أن بعض ضحاياه كانت لاتصلح لمثل هذا ، وذلك لبعض الظروف أو لما هى عليه من طباع . فهم بضاعة من صنف أدنى ، فنهم من هو شرس أو شرير ، أو غير قابل للتعليم لسبب ما . فلماذا إذن يتحمل التاجر العناء فى سبيل نقلهم عبر البحار؟

ذلك لأن أثينا اكتشفت استعمالا خاصا لهذا الصنف من العبيد . فعندما ينتهى المزاد الأول ، يجمع التاجر الحثالة الباقية منهم التى لم يجد لها سيدا أو معلما ، ويبيعها بثمن بخس إلى ملاك ليسوا فى حاجة إلى عبيد ذوى خصال طيبة أو رغبة أو طاعة أو ذكاء أو جمال جسمانى ، أو فى الحقيقة ليسوا فى حاجه إلى أكثر من أذرع وسيقان قوية . فلا تمضى بضعة أيام أو ساعات حتى يرون أنفسهم مسوقين جماعات ليعملوا كآلات حية فى مناجم الفضة فى لاوريون .(١)

لقد أدرك الأثينيون دائما ، أنه من المحتمل أن يكون فى مناجم الفضة والرصاص الواقعة فى الركن الأقصى من شبه جزيرتهم ، مصدرا من مصادر ثروة مدينتهم . ولكن فى الأيام الأولى لم يبذلوا إلا قليلا فى استغلالها .

---

(١) ليس لدينا أى بيان عن مزاد للعبيد فى القرن الخامس ، ولكن الفرق فى النوع بين عبيد المناجم والعبيد العاديين ، كان ظاهرا من طريقة الكلام عن عبيد المناجم مثلا فى Ways and Means ، الجزء الرابع ، « أنظر سترابون ، ٥٦٢ (يصف بعض المناجم بجوار سينوب : « كان يدير العمل فى هذه المناجم المجرمون المحكوم عليهم » (τοῖς ἀπὸ κακουργίας ἀγοραξομένοις ἀνδραπόδοις) : إن الكلمات المختلفة الدالة على العبد هى ، ἀνδράποδον (« الرجل الواقف » أو « الأسير ») وσῶμα (« الجسم ») ، هذا بالنسبة لعبيد المناجم . أما بالنسبة للعبيد العاديين فيسمون οἰκέτης (« عبد المنزل ») وأيضا παῖς (« الغلام ») ، وهى توحى بهذا التمييز النوعى ، ولكنها غالبا ما كانت تستعمل استعمالا غير دقيق ، ويلاحظ كقنياك (ص ١٧٢ — ١٧٣) أنه بينما كانت أثمان الأشياء جميعها فى صعود فى القرن الخامس فى أثينا ، كانت أثمان العبيد وحدها تميل إلى الهبوط . والسبب فى ذلك أنه فى ذلك الوقت تيسر استعمال مادة أرخص لم تعرض فى السوق من قبل . ولم يؤثر ذلك فى عبيد المناجم وحدهم ، ولكنه أثر كذلك فى ثمن كل العبيد ، ذلك لأن عادة استعمال المحصول الثانوى قد سبب هبوط تكاليف الإنتاج عامة . كان على مالكى العبيد وتجارهم أن يدخلوا فى حسابهم خسارة كبيرة جدا ، ولكن هذه الخسائر قد قلت كثيرا ، بسبب كثرة الطلب على عبيد المناجم . وأما عن الأسعار فقد سمعنا كثيرا عن مبلغ ٢٠٠ درخمة كفدية عادية فى القرن السادس (هيرودوت ، ٥ — ٧٧) ، بينما كان متوسط ثمن العبد فى أثينا عام ٤١٥ فى مزاد لعبيد المنازل ، ١٦٦ درخمة للرجال و ١٧٠ درخمة للنساء (٣٣ جنيها انجليزيا وأربع شلنات و ٣٤ جنيها) . وبحسب مؤلف « الطرق والوسائل » فى عام ٣٥٥ ، كان يمكن شراء عبيد المناجم بسعر ١٥٨ درخمة للعبد ، ويتحدث ديموستينيز (٣٧ — ٤) عن صفقة كان عبد المنجم فيها يساوى ١٥٠ درخمة .

فقد رفض الرجال الأحرار العمل تحت الأرض ، ولم يكن فى إمكانهم جلب عدد كاف من العبيد . وزيادة على ذلك فإن تحديد موقع تلك المعادن واستخراجها ، كان عملا مجهدا مثبطا للهمم ، لأن وضعها كان مما يثير حيرة كل جماعة ينقصها المعرفة اللازمة أو الخبرة . وحتى فى القرن الرابع فإن المستغل الذى يحفر بئرا كان لازال معرضا لمخاطرة ألا يجد شيئاً فيفقد كل ما أنفقه . أما فى القرن السادس ، فيبدو أنه لم يكن هناك عدد كاف من الأثينيين المغامرين الذين كانوا على استعداد لفقد أية مبالغ كبيرة . فالعالم اليونانى كان لايزال يعتمد فى معادنه النفيسة بصفة غالبة على مناجم سفنوس وتازوس .[1]

ولكن فى عام ٤٨٣ ، قرب نهاية الفترة القصيرة التى مرت بين مراثون وسلاميس ، تغير الموقف كله . فقد وقع الأثينيون فجأة ، وربما كان عن طريق المصادفة ، على عرق جديد من المعدن الخام كبير النفع فى بقعة تسمى مارونيا (Maronea) . ومن المحتمل أنها تطابق المكان الذى لازال إلى الآن أكثر البقاع إنتاجا ، فى هذا الإقليم . فاندفع الناس نحو المناجم ، فكل من كان يملك مالا وعبيدا صالحين للعمل ، حصل على تصريح من الدولة نظير أجر يدفعه . وما أن جاءت نهاية العام ، إذا اعتمدنا على مصادرنا ، إلا ورأت الدولة نفسها ، مالكة لثروة غير منتظرة تبلغ على الأقل ٥٠ تلنتا ، وهى نصيبها من مناطق التعدين وذلك خلاف أرباح الباحثين أنفسهم .[2]

---

(١) Ways and Means ، ٤ — ٢٩ ، وكاثينياك ، ص ٩ (التأمينات) ، هيرودوت ، ٣ — ٥٧ (سفنوس) و ٦ — ٤٦ (تازوس وأرضها) ، أنظر ١ — ٦٤ ، حيث نعلم أن بيزستراتوس اعتمد على موارد أتيكا وتراقيا ، ولكن أورى (Ure) (J. H. S. ، الجزء ، ٢٦ ، ص ١٣٥ وما بعدها) كان قد أخطأ فى اعتقاده بأن العمل فيها قد السم . سولون ، ١٢ — ٤٩ ، يشير الى الأشغال المعدنية لا التعدين ، ولا شك فى أن الجبليين (διάκριοι) لم يكونوا معدنين .

(٢) النصان هما هيرودوت ، ٧ — ١٤٤ و Ath. Pol. ، ٢٢ — ٧ . ويقدر النص الثانى ربح الدولة بمائة تلنت ، والأول بعشر درخمات للرأس . كما أن هيرودوت فى =

فماذا كان يفعل بهذا المبلغ الكبير ؟ حسب تقاليد اليونان المالية لم يكن ممكننا هنا إلا جواب واحد . يجب أن يقسم هذا المبلغ بين المواطنين . لقد قاسموا المدينة شقاءها ، واقتطعوا عن رضى من مواردهم القليلة ليكفوا حاجة المدينة . والآن وقد صادفها هذا الخير ، فقد جاء دورها لتكون سخية . لقد اعتادت المدن اليونانية أن تعيش من اليد إلى الفم مثل مواطنيها . وفى هذه الحالة بنوع خاص ، حيث لم يكن هذا الخير الوفير مجرد غنيمة جاءت بها المصادفة ، بل بدا محتملا أن يتكرر ويزداد من عام إلى عام ، فلم يكن ثمة حاجة للادخار . وسرعان ما عمل الحساب . فتقسيم خمسين تلنتا بين ٣٠٠٠٠ معناه ١٠ درخمات لكل . ولو كانت الأحوال عادية وفى عهد قادة عاديين ، لأنفق المبلغ على هذا النحو .

ولكن أثينا لم تعثر على كنز فقط ، بل عثرت أيضاً على أمين للكنز . فثيمستوكليس الذى كان فى تلك اللحظة السياسى صاحب التصرف ، أدرك احتمالات الموقف . ورفض أن يترك هذه الأموال تبعثر ، فأقنع زملاءه المواطنين بأن ينفقوا تلك النقود ، بدلا من ذلك ، فى تعزيز الأسطول حتى يبلغ ٢٠٠ مركب . وهذا الأسطول هو الذى أنقذ اليونان وأوربا بعد ذلك بثلاث سنوات ، وذلك فى موقعة سلاميس . ومنذ ذلك الحين لم تقدم اقتراحات أخرى لصرف الفائض من الدخل السنوى على الطريقة القديمة . وبذا دخلت أثينا عصراً جديداً ، سواء فى الناحية المالية أو السياسية . فبتزايد العبيد الذى تلا الحرب استؤنف استخراج المعادن بنشاط جديد ، بعد ما توقف العمل فيها وقتيا ، بسبب الغزو الفارسى . وفى بداية الحرب البلوبونيزية قدر أن ٢٠٠٠٠ عبد ، من بين مايقل عن ١٠٠٠٠٠ عبد ، ممن

= مكان آخر (٥ — ٧٩) ، يقدر عدد السكان المواطنين بثلاثين ألفا . فعلى حسابه إذن يصل ربع الدولة إلى ٥٠ تلنتا فقط وهو رقم يوافق عليه كافينياك كتقدير لدخل الدولة العادى السنوى من المناجم . وليس لدينا وسائل لتقدير مجموع الإنتاج السنوى ، لأننا لا نعرف الشروط التى عقدتها المدينة مع الملتزمين . أنظر أيضا أسخيلوس ، .Eum ، ٩٤٧ .

كانوا فى أتيكا عملوا هناك ، إما فوق الأرض أو تحتها ، فلنتتبعهم فى عملهـــم .[1]

يقوم العمل فى لاوريون على مرحلتين ، استخلاص المعدن الخام ، ثم حمله فوق الأرض لسحقه وطحنه . والعمل تحت الأرض كان موكولا كله إلى العبيد ، الذين أصبحوا بذلك منفصلين تماماً عن مجتمع الأحرار . وكان العمل يجرى إما فى آبار أو فى ممرات .هذا وقد اكتشف حوالى ٢٠٠٠ بئر ومن ٨٠ إلى ١٠٠ ميل من الممرات . وكانت الآبار عادة عميقة ، يبلغ عمقها فى بعض الأحيان ٢٥٠ قدماً ، وجوانبها ملساء ، وغالبا ماتكون رأسية ، بها حافات تتخذ كسلم . ويقدر الخبير الذى فحصها أنه إذا اشتغل فى حفر كل بئر عاملان، أمكن أن يحفر فيها بمعدل ١٦ قدما فى الشهر. ولكن معظم العمل كان يجرى فى الممرات ،وهذه كانت حلزونية تتبع عرق المعدن الخام ، وروعى أن تكون ضيقة جداً ، وذلك لتوفير مجهود تدعيمها من ناحية ، ومن ناحية أخرى للحصول على نتائج سريعة . وكانت فى المعتاد تتراوح بين قدمين وثلاثة أقدام فى ارتفاعها ، وبين ٢ و٣ فى عرضها . ويتم تهويتها عن طريق فتحات أعدت لإدخال الهواء . وبما أن تلك الممرات كانت مظلمة تماما ، فقد كان المعدنون يعملون على ضوء مسارج من الفخار ، خصصت لها بعض التجاويف فى الصخر ، وتظل المسرجة عشر ساعات ، وغالبا ما كانت هى التى تحدد طول العمل اليومى . وقد قدر

(١) فيما يخص عدد العبيد أنظر ما سبق هامش ٢٠٨ . وإنى أنحو وفق مذهب كافينياك (ص ١٧٢) ، الذى لا يريد أن يتعدى المائة ألف ، ويقدر الجملة عام ٤٣١ كما يلى :

العدد الكلى فى أتيكا	٩٠٫٠٠٠
عبيد المناجم	٢٠٫٠٠٠
عبيد آخرون	٧٠٫٠٠٠
وهم مقسمون الى :	
شبـــان	٣٥٫٠٠٠
شابات	٢٥٫٠٠٠
أطفال	١٠٫٠٠٠

ولكن هذه التقديرات افتراضية إلى حد كبير .

أن فى إمكان العامل حفر حوالى ١٢ ياردة من الصخر خلال دورات يومية منتظمة مداها شهر . وكان العمال يعملون وهم مكبلون بالأصفاد ، ويكادون أن يكونوا عراة ، ويوسمون بسمة سيدهم . وكانوا يصلون الليل بالنهار كى يزيدوا الإنتاج . (١)

ومن أول وهلة يمكن أن نلاحظ كيف أن نظام العمل هذا يكاد أن يطابق ماسبق أن عرفناه من أحوال المزارع المدارية . فالعمل غير الفنى فى التعدين تحت الأرض ، هو فى الحقيقة نوع من العمل يناسب تماما ذلك الصنف من الرقيق . فكل مايتطلب فى العبد هوجسم قوى ، ومايكفى من ذلك النوع من التفكير الوضيع ، الذى يحدثنا عنه أرسطو بأنه لابد منه لتمكين العبد من أن يفهم أمراً شفويا . وكل مايتطلب من السيد هو مراقبة يقظة قوية ، أو رأسمال كاف لاستخدام مراقبين مهرة ، يقومون له بذلك . فالعمل آلى لايتغير ومستمر فعلا ، ولا يحتاج إلى مهارة فنية كلية . وغالبا ما كان العمال ثابتين فى أماكنهم ، حتى أنه من الممكن أن يكبلوا بالسلاسل دون أن يحول ذلك دون قدرتهم على العمل . وهم يعملون بأبسط الأدوات والعدد . ولا ينجم ضرر عن هذا العمل (وهو ماكان معناه ضياع رأس المال) ، وإن كان مرهقا للغاية ، حتى أنه يقلل من الحيوية ، وبذا يجعل محتملا أن يعقب الموت انهيار القوة العاملة . ويجرى العمل فى عدة آبار منفصلة وممرات تحت الأرض ، فى ظروف تجعل من السهل معرفة مقدار العمل الذى أنجز ، وتقدير مدى نجاحه ، كما تجعل من المراقبة واجبا بسيطا فوق ماينتظر ، لايكلف كثيراً . فالمراقب (وهو عادة عبد موثوق به) ،

---

(١) للتفاصيل أنظر أردايون (Ardaillon) فى Les Mines du Laurion dans l'antiquité ، ولنفس المؤلف مقال فى دارمبرج وساجليو بعنوان Metalla . وانظر كذلك باترسن (Paterson) فى The Nemesis of Nations ، ص١٩٠ وما بعدها . وفيما يخص بيانات أخرى عن التعدين القديم ، أنظر ديودور ، ٣ — ١٣ إلى ١٤ و ٥ — ٣٦ إلى ٣٨ . وقد أثارت تلك التقارير انتباه ماركس (Capital ، الترجمة الانجليزية ، ص ٢١٩) ، الذى استنبط منها مقدار قلة مثل هذه الأحوال الاقتصادية قديماً .

يمكن أن يولى اهتمامه لكل مايملكه صاحب منجم عظيم ، أو ملتزم . وفوق كل ذلك فقد كانت يتوسع فى استخراج الفضة إذ هى تقريبا المادة الوحيدة ، التى يمكن أن يقال أنها ذات سوق دولية ، وطلبها غير محدود.[١]

وهكذا كانت أثينا تتعلم تدريجيا أن تتخلص من تقاليدها القديمة ، حتى فى المحيط الصناعى . فقد استخدمت طبقة جديدة من العمال لنوع جديد من الإنتاج . وكانت تستغل الأولى لتنتج الثانى بكميات كبيرة كما نستغل العمل اليوم ، وننتج البضاعة الآن . وكان للدروع وجلود الضأن وزقاق الزيت خصائصها كما لصناعها ، وصبيانهم ، الذين صنعوها شخصياتهم ، ولكن النقود التى ضربت فى لاوريون ، وشقت طريقها عبر بحر إيجه ، سكت كلها متشابهة ، وتحمل على وجهها طابعا هو طابع السياسة الصناعية الموضوعة ، مثل الوشم الذى وشم به العبيد ، الذين عدنوا معدنها الخام . ومازالت فى متاحفنا كثير من قطع النقود لم يترك لنا صانعوها طابعاً خاصا . وإنما نعرف فقط أن فى أزمة الحرب الكبرى ، حين كان زملاؤهم القدماء فى أثينا مستعدين للموت فى الحرب على ظهور السفن ، إلى جانب أسيادهم ، لم يشعر هذا الحشد المكدود فى لاوريون بشىء من هذه الروح . ولم يروا فى تلك الأزمة إلا فرصة ليهربوا بجموعهم إلى ما أملوا أن يكون أهون استعبادا.

(١) دفع نيكياس تلنتا واحدة ، إلى مراقب عمال ماهر (إجزينوفون ، Mem. ، ٢ — ٥ — ٢) . وما كان ليدفع مثل هذا المبلغ الكبير ، إذا كان فى حاجة إلى عديد منهم . أنظر أرسطو ، السياسة ، ١٢٥٥ ب ٣٥ . كان المسنون من العبيد دائماً ، عقبة فى طريقة نظام الرق . وقد أشار « كاتو » ، وهو أقسى الاقتصاديين ، ببيعهم مع الأدوات القديمة الأخرى نظير أى ثمن — « بيعوا الثيران العجوزة ، والخراف المريضة ، والحيوانات الأخرى ، صوفها وجلودها ، والعربات والأدوات ، وأى عبد مسن أو مريض ، أو أى شىء تالف آخر » (boves vetulos,armenta delicula, oves deliculas. lanam, pelles plostrum vetus, ferramenta vetera, servum senem, servum morbosum et siquid aliut supersit vendat» — De Agric.II-7). ولم يجرؤ أى يونانى ، فى أى عصر على أن يكتب جملة بتلك القسوة والغلظة كهذه . فيما يتعلق بتحليل أكثر تفصيلا خاص بمشكلة العبيد ، أنظر كيرنس (Cairnes) فى Slave - power ، ثم أنظر كذلك ، Sociological Review ، ١٩٠٩ ، ص ٤ — ٥ .

وفيما عدا ذلك لا يمكن أن نتصور كيف كانت حياتهم إلا على ضوء المثل الحديثة. فقد كتب نيفنسن فى وصفه تلك المحنة البرتغالية، «جاء الطبيب فى زيارته الرسمية ولاحظ عرضاً فى أثناء الأكل، أن نسبة الوفيات هنا بلغت حوالى ١٢ أو ١٤ فى المائة بين العمال. فسألت «ماهو السبب» الأساسى قال «أنيميا». فقلت مجيبا، «هذا حدث غامض. وما الذى يحدث الأنيميا ؟» قال بصراحة «الشقاء»». ويمكن أن نتأكد أن هذا الداء الغامض نفسه قد أتى على العمال فى فى لاوريون يوماً بعد يوم. فهل فكر أسيادهم الأثينيون عندما جاء دورهم ليموتوا فى محاجر سيراكوز بردا، أو من الآمال المحطمة، هل فكروا فى تلك النفوس التى أرسلوها إلى ذلك الموت فى أرض الوطن ؟ يقينا لا. فلو أنهم فكروا فى عبيدهم بشكل ما، للعنوا السماء لما ألحقت بهم من جور جزاء شفقتهم بهم. ولما عذب السيراكوزيون المنتصرون بقسوة، قائدهم نيكياس وأعـــدموه، قال توكيديدس «هكذا مات رجل كان من بين اليونانيين الذين عاصرتهم، آخر من يستحق نهاية مفجعة كهذه. فقد كان يأخذ بدقة بفضائل الحياة المرسومة». ومع ذلك فإن نيكياس هذا نفسه ابن نيكراتوس، كما عرفنا من كاتب فنان؛ كان يملك ألف عبد فى مناجم الفضة، وتلك كانت سخرية الصناعة.[1]

(١) توكيديدس، ٧ — ٨٦ — ٥ (أنظر ملاحظة كلاسن على νενομισμένην وهى ليست تهكمية)، Ways and Means، ٤ — ١٤، وأنظر ٢٥ — ٤٣ إلى ٤٤. فيما يخص أثر الحرب الديكلية على المناجم، إجزينوفون، Mem.، ٢ — ٥ — ٢، توكيديدس، ٧ — ٢٧ — ٥ (حيث لابد وأن تشير كلمة χειροτέχναι إلى عبيد المناجم، وإذا كان توكيديدس نفسه من أصحاب المناجم، فإنه لم يفرق بينهم وبين العمال الآخرين: أنظر ٤ — ١٠٥ — ١ و ٦ — ٩١ — ٧، حيث لمح إلى فرارهم، إن العبيد الموجودين داخل أسوار لا يمكن أن يهربوا)، Hellenica Oxyrhynchia، ١٢ـ٤ (إن العبيد الهاربين، قد غمروا السوق فى طيبة)، العبيد فى المراكب: إجزينوفون، Hell.، ١ـ٦ـ٢٤، وقائمة الموتى منهم فى I. G.، ٢ — ٩٥٩؛ ثم نيفنسون فى A Modern Slavery، ص ١٩٠، قارن بما ذكر أخيرا ترنر (J. K. Turner) فى Barbarous Mexico (لندن عام ١٩١١)، الذى يقرر أن الذين يستخدمون العمال فى زراعة القنب فى يوكاتان، يقدرون الموت بين عمالهم بـ ٦٦ فى المائة سنوياً، وفى حقول التبغ فى الـ Valle Nacional فى Oaxaca يقدرون بـ ١٠٠٪ سنويا (ص ١٢ و ٦٣ وما بعدها).

الفصل السابع عشر

اقتصاديات الإمبراطورية : المالية

Ὠνητὴ ἡ Ἀθηναίων δύναμις μᾶλλον ἢ οἰκεία.

تعتمد قوة أثينا على المال أكثر من اعتمادها على القوة الأهلية .

الكورنثيون فى توكيديدس ، ١ — ١٢١ — ٣ .

لو أن أثينا أرادت تحقيق مثلها العليا لاحتاجت إلى ثروة مناسبة . وقد بحثنا كل الوسائل المختلفة التى أراد بركليس أن يغنى بها أثينا ، واحدة بعد الأخرى . وقد اعتبر بركليس التجارة والصناعة ، وما يتطلبه انتشارها من كد وبراعة دعائم متينة ثابتة لرخاء أثينا وازدهارها . فهما ، كما اعتقد ، دون قوى الإنتاج الجالبة للثراء فى أيامه ، كانتا تتفقان ومثل المدينة والإمبراطورية .

ولكن التجارة والصناعة والهجرة ، لا سيما فى العالم اليونانى القديم المحافظ ، تحتاج فى تقدمها المستمر إلى عناية وصبر . بل وفوق كل ذلك إلى وقت ، وقد كانت أثينا فى القرن الخامس تتقدم بسرعة ، لم يحدث أن تقدمت بها أية جماعة سبقتها أو أتت بعدها . ولقد كانت فى حاجة إلى مصادر أسرع وأكمل لتتفق وأطماعها فى ذلك الوقت . ولم تكن أثينا لتعيش على الآمال والأمانى ، فكان طبيعيا أن تعود إلى الوسيلة القديمة وهى السرقة الحكومية .

رأينا أن تقدم التجارة الأثينية قد عاقه كثيرا فى المياه الشرقية استمرار الحرب مع الفرس ٣٢ عاما ، بعد معركة سلاميس . فالسلم لم يعقد نهائيا إلا فى عام ٤٤٨ بفضل بركليس . وحل التجار المسالمون والسائحون مثل

هيرودوت محل الغزاة النظاميين وقطاع الطرق . وخلال هذا القرن والنصف أتى أثينا كثير من الخير فى شكل أسلاب الحرب . فقد بعث القواد إلى وطنهم بالذهب والفضة ليحفظ فى خزانة الدولة ، وبأفواج الأسرى إلى السوق العامة لتباع لحساب الدولة ، كما بعث الجنود والبحارة ، الذين يعملون تحت إمرتهم ، إلى منازلهم بزيادات مرغوبة أضيفت إلى مخزن العائلة . وبعد الاستيلاء على سيستوس وبيزنطة ، تمكن كيمون عند تقسيم الغنيمة ، من أن يشترى مؤونة أربعة أشهر لسفنه . فضلا عن أنه أرسل كمية من الذهب إلى خزانة أثينا . بعد ذلك بسنين قليلة ، آل إليه ، كما قيل لنا ، من موقعة إيريمدون (Eurymedon) التى انتصر فيها على قوات الفرس البرية والبحرية ما يزيد على ٢٠٠٠٠ ألف أسير وكمية كبيرة من الثروات، منها حصل الشعب على المال الكافى لبناء السور على جانب القلعة الجنوبى ، ووضع أساس الأسوار الطويلة حول بيريه لقد ، أخذت أثينا تثرى على حساب أعدائها ، بوسائل السلب القديمة .(١)

ولكن بعد عام ٤٤٨ ، عندما عقد الصلح مع فارس ، جف معين مصدر الثروة هذا ، وكان مطمح بركليس ألا تسلب أثينا فارس بعد ذلك ، وإنما تتجر معها . ولم يعد يتدفق عليها مزيد من الذهب والأسرى من الانتصارات البعيدة فى آسيا لبناء الأسوار والمعابد . وكان لابد لأثينا أن تبحث عن وسائل أخرى إذا كان لابد لمشروعاتها من أن تنفذ . وقد توفر لها ذلك ، لا فى مصادر الأفراد ونشاطهم التى كان بركليس يفضل كثيرا الاعتماد عليها إذا اعتمدنا على أقواله ، إنما فى خزائن الدولة . فبانى الأكروبول العظيمة التى أفرغ فيها الأثينيون الكثير من قوتهم المبدعة ، خلال أسعد سنيهم التى لم تدم طويلا ، بنيت مما فى خزينة الدولة من أموال . فيجب علينا إذن أن ننتقل من مصادر ثروة الأفراد ، إلى مصادر الدولة ، وأن نتناول بالبحث طبيعة المالية الأثينية العامة ونظم إدارتها .

(١) بلوتارخوس ، .Cim ، ٩ (من إيون خيوس) ، ١٣ ، ديودور ، ١١ — ٦٢ .

لقد اعتادت الولايات والأفراد فى ظل فقر العالم اليونانى العام ، الاعتماد على قوت يوم بيوم . وكان للدول والهيئات العامة ممتلكات كثيرة أحيانا تكون مساوية لأملاك كل مواطنيها ، أو تكاد أن تكون كذلك. ولكن قليلا من هذه الدول من كسب مالا يكفى لنفقات الإدارة المستمرة . وإذا أمكن أن نعرف ميزانية هذه الدول من المصروفات والإيرادات ، لتبين لنا أنها كانت قليلة جدا بشكل يدعو للسخرية . فقد سادت اسبرطة البلوبونيز دون أن يكون لهذا إطلاقا دخل حكومى منتظم . لكن أثينا فى القرن السادس لم تكن بدائية إلى هذا الحد . وحتى ذلك الوقت كانت خزانة حكومتها القديمة تؤدى عملها معتمدة على مصادر محدودة . وكان لها ثلاثة مصادر منتظمة للدخل : إيجار أراضى الدولة ، ورسوم المحاكم والغرامات ، والمبالغ الصغيرة التى تأتى من الضرائب والتكاليف غير المباشرة المختلفة . وإلى أن استغلت مناجم الفضة ، لم يكن أحد من هذه الأبواب ذا بال . فقد كانت هذه المصادر تستغل لسد مصروفات الإدارة الجارية ، التى كانت بالقياس على ذلك بسيطة . وتشمل صيانة الأعمال العامة وإعالة عبيد الدولة القليلين ، « ومكافآت لقتل الذئاب ، وجوائز للشعراء والأطباء ، ومنح للعجزة ، وفى مقدمة كل هذا ضحايا وقرابين للآلهة القومية والبانهيلينية » . وهذا الواجب الأخير الذى لا بد أن كان له النصيب الأكبر بالنسبة للجميع بلغ فى القرن السادس ثلاث تلمثات .(١)

وهكذا من السهل أن يرى الإنسان ، كم كانت ترحب الدولة بهبات المواطنين الحرة للسفن والقرابين والتمثيل ، وغير ذلك من الأغراض العامة . وكم كان طبيعيا أنه كلما أتى المدينة ثراء ، وجب توزيعه على هؤلاء الذين ساعدوها . وحتى الحرب الفارسية ، لم تقم فى أثينا أية فكرة عن جمع احتياطى من دخل الدولة الجارى .

(١) ليسياس ، ٣٠–٢٠ ، كافينياك ، ص ٥ فيما يخص الـ δημόσιον أى خزانة الدولة القديمة . وخزنتها هم الـ κωλακρέται أو الحفارون (Carvers) . أنظر هامش ص ٩٢ فيما سبق .

ولكن خزينة الدولة القديمة لم تكن المستودع الوحيد للأموال العامة فى أثينا . فهناك مصادر دينية للأموال أيضاً : الكنوز والهبات المحفوظة فى معابد الآلهة المختلفة . وأهم هذه الآلهة « أثينا » التى كانت تعبد فوق الأكروبول. وترجع عبادتها ، كما ترجع الكنوز التى جمعتها ، إلى عهود مجهولة نائية . وفى القرن السادس اعتبرت هذه الخزينة ذات أهمية عامة كافية لاعتبار الخزنة الذين يشرفون عليها موظفين عموميين . وقد وضع سولون قواعد جديدة لطرق تعيينهم فى تشكيلاته القانونية الجديدة . ولا يمكن تقدير قيمة الكنز الذى أشرف عليه هؤلاء . ولكنا نعلم فقط أن هذا الكنز لا بد أنه كان يزداد سنة عن أخرى ، لأن الدولة سمحت للآلهة أن تفيد من بعض مصادر دخلها الخاصة . على أن هذه الاستفادة لم تكن فى شكل نقود دائماً . لقد أخذت قدراً من الغرامات التى تفرضها المحاكم ، وعشر الأسلاب فى حالة النصر المهم . وبما أن النفقات المقدسة كانت أقل بكثير من المصاريف الدنيوية ، فإن الآلهة رغم كونها أفقر بكثير من الآلهة البانهيلينية فى دلف وأولمبيا ، أخذت تشغل تدريجيا مركزاهاما فى الاقتصاد القومى . وقد كان هناك أيضاً خزائن أخرى فى المعابد المختلفة ، لا يمكن أن نقدرها فى القرن السادس . وقد ضمها ماليو القرن الخامس إجمالا إلى بعضها ، وعرفت بمالية « الآلهة الأخر ».[1]

ولما احتل الفرس أثينا عام ٤٨٠ لم تبذل أية محاولة لنقل هذه الكنوز المقدسة . وأمل الأتقياء عبثا أن تنجو بمعجزة . ولكن العدو حاصر الأكروبول ، وشق طريقه إلى الداخل عن طريق منحدر جانبى ، وسلب المقصورات من ثروانها ، محرقا كل ما لم يمكن حمله . ولما عاد الأثينيون رأوا أنفسهم لم يفقدوا فقط الأموال والكنوز المكدسة التى جمعوها عبر قرون ، إنما فقدوا أيضاً المحاريب التى حوتها . لقد أنقذت الإلهة أثينا حقا، ولكن هى نفسها فقدت كل شىء . وعاد عبادها إلى مدينتهم المخربة يحملون

(١) Ath. Pol. ، ٧ — ٣ ، هيرودوت ، ٥ — ٧٧ ، كافينياك ، ص ٣٠ إلى ٣١ .

فى قلوبهم الممتنة مشروعا عظيما ، هو بناء معبد لإلهتهم القومية جديراً بأثينا حامية بلاد اليونان . فبدأوا باهدائها بخشوع أفضل ما فى أسلابهم من قطع مثل عرش إجزرسيس وسيف مردونيوس وغير ذلك من التحف الشهيرة، ثم شرعوا فى العمل على إعادة تدعيم الماليتين القومية والمقدسة،وهو مايبدو أن كان عملا طويلا شاقا .(١)

وقد كنا فى حاجة إلى هذا القدر كمقدمةلمالية الدولة فى القرن الخامس. ويجدر بنا أن نبحث هذا الآن فى شيء من التفصيل بادئين بالمدينة أولا ، ثم بالإمبراطورية .

فى عهد بركليس كان على بيت المال القديم أعباء أكثر كثيراً مما كانت عليه قبل ذلك بقرنين . ربما لم تعد هناك مكافآت الذئاب ، ولكن نشأ عدد كبير من التزامات جديدة أكثر أهمية : أعياد أبهج وأكثر عددا ، وأعمال عامة أكبر وأكثر عدداً كذلك ، ذلك إلى ضرورة مراعاة إعداد ، ودفع سيل الأجور المتزايد إلى أفراد المواطنين ، مقابل قيامهم ببعض الخدمات كمستشارين وقضاة فى المحاكم . ولكن مصادر الدخل أيضاً كانت قد اتسعت . فازدهار التجارة جعل فرض الضرائب فى پيريه ،والسوق العامة ملائماً ، وبازدياد الهجرة ازداد ما يدفع من رسوم الرخص على العبيد والأجانب ، وتضخمت مصاريف المحاكم بازدياد الواجبات الملقاة عليها . وأهم من كل هذا دعم بيت مال الدولة إذ ذاك بدخل ثابت منتظم يقدر بحوالى ٥٠ تلنتا ، إن لم يكن أكثر من ذلك ، قوامه مناجم الفضة بأتيكا ، ومبالغ أخرى كبيرة من ممتلكات جديدة من بينها مناجم تراقيا .

---

(١) هيرودوت ، ٨ — ٥١ ، كاڤيناك ، ص ٣٢ ، الذى يشير إلى حالات أخرى (فى أولمپيا ودلفى وبرانشيداى) من محاولات جمع النقود لإصلاح ما ألم بالأضرحة الكبيرة من تخريب . وقد ظل الكرسى والسيف المحدب بين كنوز الأكروپول حتى سلبهما «خازن» غير أمين فى القرن الرابع : ديموستينيز ، ٢٤ — ١٢٩ .

ويبدو أن مجموع الدخل السنوى الذى حصلته الخزينة فى عهد بركليس قد بلغ أكثر من ٥٠٠ تلنت.[١]

لكن غدا لأثينا الآن مصادر أخرى تعتمد عليها . ففى عام ٤٧٨ اختيرت أثينا لرئاسة حلف أو اتحاد الدول اليونانية ضد الفرس . وقد حدد أرستيدس العادل ، الذى وكل إليه هذا العمل ، المبلغ الكلى السنوى اللازم لأغراض هذا الحلف بـ ٤٦٠ تلنت . وهذا المبلغ حصل بطريقة اتفق عليها بين الدول المتحالفة ، وربما قام فى أغلب الحالات على تقدير إجمالى لأراضى تلك البلدان . وكان يعاد النظر فى التقديرات بالتفصيل كل أربع سنوات ، ولكن القواعد الأساسية لدفع هذه الضرائب كما أنشأها أرستيدس كانت جزءاً من النظم الأصلية المتفق عليها ، بين أثينا والمدن ، ولا يمكن أن تغير أو تبدل دون قصد سيء . ولدينا دلائل كافية تعيننا على إعادة بناء التقديرات التى حدد أرستيدس على أساسها هذا المبلغ . كان أكبر عدد لأسطول الحلفاء العامل ، مكوناً من ٣٠٠ تريريم ، تجهز كل بمائة وسبعين مجدفاً ، وثمانية ضباط وعشرة نوتية ، أى أن الجميع كانوا ١٨٨ رجلا . وتمتد سنة خدمتهم من مارس إلى أكتوبر ، عندما ينتهى الموسم فى أثينا بدفن القتلى رسمياً فى احتفال عام . والمبلغ الذى كان يحتاجه الفرد إذ ذاك لشراء غذائه وحاجياته الأخرى من موانى أيجينا ، هو ٢ أوبل يومياً (ثلث دراخمة) فتقدير أرستيدس كان إذن كما يأتى :

يتكلف كل جندى فى الموسم وطوله ٢١٠ يوما ، $\frac{1}{3}$ × ٢١٠ = ٧٠ دراخمة .

يتكلف كل تريريم عليها ١٨٨ رجلا ١٣١٦٠ دراخمة .

يتكلف الأسطول المكون من ٣٠٠ مركب ٣٩٤٨٠٠٠ دراخمة .

---

(١) اجزينوفون ، .Anab ، ٧ — ١ — ٢٧ ، كاڤينياك ، ص ٥١ . فرانكوت فى Finances des cités grecques ، ص ١٧٥ ، يقدرها بستمائة . توكيديدس ، ١ — ١٠١ — ٣ (أراضى جديدة) .

وبما أن التالنت يساوى ٦٠٠٠ درخمة ، فهذا يعادل ٣٨ ⅔ ٤ تلنت وعلى ذلك فالمبلغ الذى يجبى سنوياً وهو ٤٦٠ درخمة ، يتضمن مبلغاً احتياطياً يكفى لتجديد السفن.(١)

من يملك هذه الأموال؟ إنهم هؤلاء الذين يشرفون على صرفها . وقد كانت « جزية » وسميت بذلك صراحة ، تدفع إلى المهيمنين على التحالف. بنفس الطريقة التى كانت تدفع بها معظم البلدان المتحالفة الجزية إلى ملك الفرس سابقاً . ومن هم هؤلاء المهيمنون ؟ كانوا نظرياً ممثلى دول الحلفاء أنفسهم ، لكن فى الواقع ، هم قادتهم المعترف بهم ، أى الشعب الأثينى . فالقائمون على الخزينة الذين يتسلمون النقود كانوا موظفين أثينيين ، والقواد الذين تدفع لهم هذه النقود كانوا ضباطاً أثينيين منفذين ، والهيئة التى تعينهم وتشرف عليهم هى الشعب الأثينى . وإذا أردنا الحق ، لقد كانت أموالا تدفع للأثينيين بشرطين معروفين ومتفق عليهما . أولا : يستمر فى جبى النقود وفق الطريقة التى اتفقت عليها الدول المتحالفة والتى اقترنت باسم أرستيدس . وثانياً : على أثينا أن تحمى هؤلاء الذين يدفعونها من كل عدوان فارسى . ويقول كاتب ، تعمق فى بحث الجانب القانونى للموضوع ، أنه فيما عدا ذلك فهى ، كأى جزية ، تخص هؤلاء الذين دفعت لهم . وعلى ذلك أصبحت ملكا للدولة الأثينية . وقد وقفتها أثينا أول الأمر على نفقات الحرب ، ولكى توحى للمتحالفين بثقة أكبر وضعتها فى بند منفصل عن دخلها وأموالها العادية ، واحتفظت بها فى ديلوس.(٢)

---

(١) توكيديدس ، ١ — ١٠٤ ، ١ — ١١٢ — ٢ ، بلوتارخس ، .Cim ، ١٢ (٢٠٠ مركب) ، أنظر توكيديدس ، ٢ — ٧ — ٢ ، بلوتارخس ، أرسطو ، ٢٤ (تقدير الأرض) ، بلوتارخس ، تيمستوكليس ، ١٠ وأرسطو ، Wasps ، ٨٨ (Schol ٢ أوبل) ، توكيديدس ، ٢ — ٢٣ — ٢ (البحرية) ، كافينياك ، ص ٤٤ ، ماير Forschungen ، الجزء الثانى ، ص ١٧٠ . إذا كانت خمسون تلنتا تكفى لبناء ٢٠٠ سفينة فى عام ٤٨٣ ، فإن عشرين تلنتا لتبدو احتياطيا كبيرا لتعويض ما قد يتلف . وكانت الأجهزة تقدم هبات من الأفراد . إن مدة الأربع سنوات كانت الفترة بين الأعياد الباناثينية .

(٢) فرانكوت ، ص ١١٤ و ٦٣ وما بعدها . فيما يخص معنى كلمة φόρος و =

ولم يكن أرستيدس مالياً عادلا فحسب ، بل كان أيضاً مالياً حريصاً . وفى الحق إنه كان ، كما تبين من الحوادث ، أكثر دقة من اللازم . لقد بنى تقديره على افتراض وقوع غزوة كل موسم ، وعلى أن هذه الغزوة قد لا تأتى بأية فائدة . وسرعان ما نقض هذان الافتراضان . فقد انسحب الفرس إلى البر ، وتركوا لليونانيين البدء بالهجوم ، وهو ما تباطأوا فى تنفيذه . ولما أن قاموا به ، كما حدث فى تراقيا وإريميدون ، اتبعوا بصفة عامة ، سياسة أن « الحرب تغذى نفسها » ورجعوا إلى أوطانهم محملين بالغنائم . وفى أثناء ذلك استمرت الجزية السنوية ترد إلى الخزينة ، وقد تركها الخازنون تتزايد حتى بلغت احتياطياً إمبراطورياً ضخما . وفى عام ٤٥٤ — ٤٥٣ عند ما نقلت الخزينة إلى أثينا ، إما إيثاراً للأمان أو المنفعة ، لا بد وأن كان هذا الاحتياطى قد بلغ ٣٠٠٠ تلنت .[١]

وابتـــداء من عام ٤٥٣ صار الأثينيون فى الظاهر والحقيقة هم المسيطرون على أموال الحلفاء . فأودعت الأموال الأكروبول ، حيث حفظت أموالهم الأخرى . وبذا غدا لأثينا الآن ثلاث خزائن منفصلة تخص على التوالى المدينة والإلهة والإمبراطورية . فلنتتبع ما كان من أمر هذه التعقيدات المـالية .

دأبت أثينا طوال ذلك الوقت على جمع المـال لبناء معبد الإلهة الجديد الشاسع . وقدمت الدولة هبات شخصية من الأسلاب ومن مصادر أخرى لدخل المدينة ، وقام المواطنون بنصيبهم فى اغتباط . فحائط الأكروبول الجنوبى الذى أقامه كيمون من الأسلاب ، بنى لتدعيم أسس المقصورة المراد

= σύνταξις ، أنظر بصفة خاصة ١١٧ . إن كلمة φόρος (الجزية) كانت تستعمل منذ البداية (توكيديدس ، ١ — ٩٦ — ٢ و ٥ — ١٨ — ٥) ، وترتبط مالية الاتحاد بمالية مملكة فارس . أنظر هيرودوت، ٣ — ٨٩ ، حيث يوصف داريوس بأنه صار إلى نفس ما أصبحت أثينا أى « جابيا للنقود الصغيرة » .

(١) كافينياك ، ص ٦٨ — ٦٩ (أنظر ص ٦٢ فيما يخص التحويل) ، فرانكوت ، ص ١٦١ .

بناؤها . لكن كان تقدم العمل بطيئاً . أما معبد زيوس فى أولمبيا ، الذى انتهى من بنائه عام ٤٥٦ ،فقد بنى من مال استغرق جمعه قرناً . وكانت أولمبيا تعتمد على تبرعات اليونان كلها . « على حين كادت كل معابد المدن الغنية فى اليونان الكبرى (ماجنا جريكيا) وصقلية المعاصرة لها ،أن تكون نتيجة نشاط طويل،استؤنف عدة مرات.وكل هذه المعابد كانت من الحجر العادى ، بينما كان المقرر أن يكون البارثنون من المرمر » . ولكن كانت أثينا فقيرة بالنسبة لهذه الدول ويبدو أنها سمت بآمالها بعيداً.[١]

ومنذ حوالى ذلك الوقت نرى أنها تخطو خطوات حاسمة للإسراع فى تنفيذ مشاريعها الدينية والفنية الكبيرة . ويقول بلوتارخس «إن بركليس وقد حرص على استنهاض روح الشعب وتشجيعه على الأعمال الجليلة ، اتخذ قراراً بأنه ينبغى على كل اليونانيين أينما أقاموا ، سواء كان ذلك فى أوروبا أو آسيا ، سواء كانت مدنهم صغيرة أم كبيرة ، أن يبعثوا بممثليهم إلى أثينا ليتداولوا فى إعادة بناء المعابد اليونانية التى أحرقها البرابرة ، وليبحثوا أيضاً كيفية توجيه تلك الهبات التى نذرت أثناء الحرب الفارسية لسلامة بلاد اليونان ، وليتفاوضوا أيضاً بشأن البحار حتى يبحر عليها الجميع دون ما خوف ، ولتدعيم السلام ». ولا يمكن تحديد تاريخ هذا القرار الهام ، الذى جمع بين سياسة بركليس فى السيطرة البحرية، وبين مشاريعه العمرانية تحديداً دقيقاً . ولكن يبدو أنه يرجع إلى الفترة بين عامى ٤٦٠ و ٤٥٠ ؛ ويقول بلوتارخس : « لم يكن لهذا المرسوم أى أثر ولم ترسل المدن ممثليها،وقيل أن السبب فى ذلك معارضة اللاسيديمونيين ،التى كانت تعمل فى الخفاء ، إذ أن الاقتراح رفض أولا فى البلوبونيز . ولكنى كنت أود أن أذكره كنموذج لعظمة روح الخطيب ، وميله لوضع مشروعات عظيمة».[٢]

إلا أن أثينا قد اتخذت فى نفس الوقت سبيلا آخر أقل طموحاً ،ونفذ

---

(١) كافينياك ، ص٥١ — ٥٢ .

(٢) بلوتارخس ، الفرس ، ١٧ ، كافينياك ، ص ٦٠ ، وقد اتبع فى ذلك كايل (Keil).

بسهولة أكبر . فقد جعلت الحلفاء يساهمون فى مشروعاتها الدينية ، بأن يدفع كل إلى خزينة الآلهة «أولى ثمرات» الجزية . وهكذا كانت النسبة التى خفضت تبلغ سدس كل ضريبة . وإلى تسجيل هذه الهبات ترجع معرفتنا المفصلة عن النظام الإمبراطورى ، فقد نقشت القوائم على ألواح حجرية وصلنا الكثير منها.(١)

وبمجرد أن وضعوا المبـــدأ نفذوه . ولا يمكن تتبع تقدمه بالتفصيل ، ولكننا نعرف القصة بوجه عام . فالحقائق تتحدث عن نفسها . فى عام ٤٤٨ عقد الصلح بين أثينا وفارس ، ولكن رغماً من أنه لم تعد هناك حاجة إلى الضرائب المفروضة على الحلفاء ، فإنهم لم يعفوا منها . وفى عام ٤٤٧ ابتدىء فى بناء معبد البارثنون العظيم . وفى عام ٤٤٥ عقد الصلح بين أثينا وأعدائها فى بلاد اليونان نفسها . وفى عام ٤٤٤ ثارت فى أثينا مناقشات حامية فيما يختص باستغلال أموال الإمبراطورية . وإن كانت هذه المسألة قد صدعت الجبهة ، إلا أنها حسمت نهائياً عام ٤٤٣ ، بنفى السياسى الذى كان معارضاً لسياسة بركليس المالية . وفى عام ٤٤٣ — ٤٤٢ قسم الاتحاد ، أو الإمبراطورية كما سميت إذ ذاك ، خمس مناطق ضرائبية تيسيراً لجمع الأموال . وفى عام ٤٤٠ وحد فى يدى خازنى أموال الإلهة احتياطى مالية الإلهة والإمبراطورية . وهكذا وفرت أثينا النقود اللازمة لمشروعاتها.(٢)

وفى عام ٤٤٠ — ٤٣٩ فوجئت أثينا أثناء تنفيذ مشاريعها بثورة قام بها اثنان من أهم حلفائها أو رعاياها هما ، ساموس وبيزنطة . وقد كلفها إخماد تلك الثورة حرباً دامت فصلين ، فضلا عن مبلغ ١٢٧٦ تلنتا من احتياطيها (غير الدخل الإمبراطورى الجارى) ، وهكذا تعطل العمل فى بناء البارثنون فترة قصيرة . لكن الدفع ظل مستمراً لإعداد التمثال الذهبى

---

(١) كافينياك ، ص ٦٠ — ٦١ . وليس هناك دليل على أن جنية أولى مماثلة من الهبات ، قد قدمت لأبولون بينما كانت الخزينة فى ديلوس.

(٢) كافينياك ، ص ٧٦ ، ملاحظة ٢ ، ص ٨٥ ملاحظة ٢ ، ص ٩٢ ، ملاحظة ٣ (أنظر التذييل) .

العاجى الذى كان يجب أن يكون الميزة البارزة للمعبد الجديد . وعند نهاية الحرب استؤنفت المشاريع الأخرى.[١]

وشهدت السنون السبع التالية ، أى حتى قيام الحرب البلوبونيزية ، ذروة الثراء والنشاط الأثينى . وفى عام ٤٣٨ كان بناء البارثنون قد تقدم تقدما كافيا ليفتتح رسميا فى الاحتفال « الباناثينى » ، فى صيف هذا العام . وفى الوقت المحدد لهذا الاحتفال أتم فيدياس تمثال أثينا الذهبى العاجى ، ثم وجه الفنانون اهتمامهم إلى الأكروبول ، فرسم منيسكليس تصميم البهو العظيم ، وبدأ العمل فيه عام ٤٣٧ . وقبل ذلك بسنين عديدة ، « حدد مكان على حافة ، الأكروبول الغربية البارزة لمعبد صغير « لأثينا المنتصرة » . إلا أن البناء تأخر لنقص الأموال ، ولكنه بدىء فى تنفيذه إذ ذاك رغم أن تصميمه واتجاهه قد تداخل إلى حد ما فى تصميم بهو منيسكليس واتجاهه. وابتدىء كذلك فى بناء عدد آخر من المعابد — الإرخثيوم على الحافة الشمالية للأكروبول ، ثم معبد هيفايستوس (المسمى ثيسيوم Theseum) فى المدينة نفسها ، وكذلك معابد سونيوم ورامنوس على الشاطىء . وكان هناك بالإضافة إلى هذه المعابد ، عدد من الأبنية العامة الأخرى ، الأوديوم أو صالة الغناء ، والسور الثالث ، أو السور الطويل الأوسط لتسهيل عملية الدفاع عن المدينة والمرفأ ، ثم أحواض جديدة وأعمال أخرى فى بيريه.[٢]

ولا يزال كثير من هذه الأبنية قائما ، شاهدا على إقدام وأناة الفنانين الذين صمموها أو أقاموها . كذلك بقيت أيضا كثير من سجلات المبالغ التى دفعت لهذه المناسبات ، تشهد على أنها بنيت حقا ، كما يخبرنا بركليس ، مع مراعاة شديدة للاقتصاد . وهذا « واضح فى كل صغيرة » ، حتى فى الترتيبات الدقيقة التى اتخذت لبيع الخشب الذى استعمل فى سقالاتها . وقد نوقش كل فرع من فروع المصروفات بدقة ، وروقب بشدة ، لأن العمل

(١) كافيناك ، ص ٩٠٤ — ٩٠٥ .

(٢) (أنظر التذييل) .

كان يجرى ، كما أدرك كل فرد ، لا على حساب مصادر المدينة القومية أو العادية ، إنما من الأموال التى كانت مخصصة فى الأصل للأغراض الحربية ، ومن المحتمل أن تحتاج إليها أثينا ثانية فى أية لحظة . وإليك تقدير عام للمبالغ التى صرفت على الأعمال العامة بين ٤٤٧ و ٤٣٢ .

عدد			
٧٠٠	تلنت	(٨٤٠٠٠٠ جنيه انجليزى)	البارثنون.
١٠٠٠	«	(١٢٠٠٠٠٠ « «)	تمثال أثينا الذهبي العاجي.
٤٠٠	«	(٤٨٠٠٠٠ « «)	البروبيليا أو البهو لم (يتم)
٣٠٠٠	«	(٣٦٠٠٠٠٠ « «)	الأوديوم أو (صالة الغناء)، دور للسفن، السور الأوسط، أعمال فى بيريه
٢٠٠	«	(٢٤٠٠٠٠ « «)	إلهتان للنصر من الذهب
٢٧٠٠	«	(٣٢٤٠٠٠٠ « «)	معابد أخرى بما فيها معبد النصر
المجموع ٨٠٠٠	«	(أى ما يساوى ٩٦٠٠٠٠٠ جنيه انجليزى).	

انفقت هذه المصروفات فى مدى ستة عشر عاما من عام ٤٤٧ إلى ٤٣١ . لكنها بلغت حدتها فى الجزء الأخير فقط من هذه المدة ، عندما سيطرت الإلهة على زمام أموال الاتحاد الزائدة . وعلى قدر ما تمدنا به النصوص فقد بلغ متوسط الصرف السنوى بين ٤٤٧ و ٤٣٨ ، ما بين ٣٠٠ ، ٤٠٠ تلنت ، بينما كان معدل الصرف ٦٥٠ تلنتا فيما بين ٤٣٨ و ٤٣١ . ويؤيد هذا تقرير توكيديدس ، وهو أن أقصى ما بلغته الخزانة قبل البدء فى بناء البهو ، كان مبلغ ٩٧٠٠ تلنت كاحتياطى تحت يده . ويكاد أن يبدو كما لو كان بركليس ، وقد أدرك أن حربا كبيرة كانت على وشك الاندلاع ، وأنه وفنانوه سيدركهم الكبر ، صمم على إنجاز ما بقى من العمل ما دام فى الوقت بقية .

وفى عام ٤٣١ عند ما انفجرت العاصفة ، كانت معظم الأعمال قد أنجزت ، لا جميعها.[1]

ومن العسير علينا فى هذه الأيام الموسرة الحديثة ، أن نكون فكرة عن طابع أثينا خلال هذه السنين القليلة الغاصة بالإنتاج البديع . فهذه الـ ٨٠٠٠ تلنت التى دفعت لصناعها وعمالها ، ليعبر عنها بالعمل القاسى والقدرة الفنية ، وفوق كل شىء بالتضحية الذاتية ، أكثر بكثير مما يمكن أن تعبر عنها النقود فى لغتها الواهنة فى هذه الأيام . فمن وجهة نظرنا الحديثة الحذرة، التى تضع العمل المربح قبل كل اعتبار ، وتأخذ الفن كفكرة ثانوية ، فماليتها كانت مختلفة . وكما قال اقتصادى حديث ، « إن أعمال بركليس لا يمكن أن تدر ربحا ، أو تصدر للخارج ، أو تستغل لتنمية الثروة . حقاً إن بناءها قد أتاح وسيلة لتشغيل الشعب ، لكن عندما تمت لم تقدم أية خدمة للصناعة أو أى حافز للتجارة . وعند ما تصرف مبالغ كثيرة فى أعمال عامة منتجة مثل تلك المبالغ التى صرفها المصريون على بحيرة موريس ، فالثروة التى تنفق على هذا النحو لا تعطى فرصة للعمل وقت القيام به فقط . لكنها تتيح فرصاً للعمل المستمر فيما بعد . مثال ذلك المرافىء والقنوات والرى والطرق

---

(١) فرانسكوت ، ص ١٧٥ وقد اتبع بوزولت (Busolt) فى ذلك ، ويوافق كافينياك بصفة عامة (على ما يخص البارثنون مثلا ، ص ٩٩ ثم ما يخص البروبيليا ، وما يخص معارضة Heliodorus ، ص ١٠٢) . آخرون على أية حال (مثل ديكنز فى خطاب خاص) قد خفضوا المجموع إلى أربعة آلاف تلنت . إنى أقدر قوة الدراخمة الشرائية بأربعة شلنات . أما كافينياك (ص ٨٨) فيقدرها بخمسة شلنات . وقد كانت بطبيعة الحال آخذة فى الانخفاض طوال القرن .

(٢) فرانسكوت ، ص ١٧٥ (المصاريف السنوية) ، توكيديدس، ٢ — ١٣ — ٣ (٩٧٠٠ تلنت) ، ٢ — ٦٤ — ٥ (المخاطرة فى سبيل العظمة)، ولم يعتقد كافينياك بوفرة أكثر من ٦٠٠٠ تلنت فى أى وقت معين ، ويبدى حججه فى تنقيح نص توكيديدس تبعا لذلك (ص ١٠٨) . ولم أجرؤ أن آخذ برأيه ، رغم أنه من العسير تبرير وجود مثل هذا المبلغ الكبير بعد الحرب الساميانية مباشرة ، وبعد تكملة البارثنون وتمثاله . يفضل ماير، Forschungen ، الجزء الثانى ، ص ١١٩ ، ألا يأخذ كلمات توكيديدس بمعناها الحرفى . أنظر أيضا قول كافينياك الأحدث فى Histoire de l' antiqnité ، الجزء الثانى ، ص ٨٤ الملاحظة .

والسكك الحديدية أو أى شىء آخر يزيد فى إمكانيات مملكة ما . وبركليس فى سعيه لإيجاد عمل مربح للشعب ، إنما وجه نشاطهم قصداً إلى أعمال عامة غير منتجة . وهكذا ابتلعت المبانى الفخمة العظيمة التى شيدت فى حكمه وتحت إشرافه ثروة المدينة واستنزفتها ، دون أن تكون أى مصدر طبيعى ، أو تقدم أية تسهيلات للتجارة مقابل ذلك . فالخزينة قد نضبت إلى الأبد ، وقد صبت أموالها فى أعمال عظيمة من الوجهة الفنية ، ولكنها من الوجهة الاقتصادية لا قيمة لها » . وهذا النقد صحيح من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، ولا شك أن بركليس نفسه كان ليقره . لقد ذهب صديقه هيرودوت إلى بحيرة موريس وأخبره ، كما أخبرنا ، عن المنشئات العامة المصرية المنتجة . ولم يكن الأثينيون من الغفلة بحيث لا يدركون أن معابدهم لن تأتى بدخل إلا عن طريق المشاهدين ، وأن المبالغ التى بنيت بها إنما كان نفعها محدوداً للغاية . كما أدركوا أنهم إنما أضاعوا الوقت ، وأنفقوا على ذلك العمل ، مبالغ كان الرجل العاقل يدخرها للدفاع القومى والتقدم التجارى والصناعى . ولكن ينبغى لهم معارضة الاقتصادى الحديث بقوة فى نقطة واحدة فقط . فهو يتكلم كما لو كانت تلك المبانى « قد شيدت لتوفير عمل مربح للشعب » ، وكما لو كان البارثنون قد أقيم للترف . لقد شاد البارثنون صناع مخلصون مشوقون لتكريم إلههم ، وقد أعطوا أجراً زهيداً نظير خدماتهم المتفانية . فالفنانون لا يعملون للمال وإن كانوا كغيرهم يحتاجون المال ليحيوا . هذا وتؤيدنا النصوص فى قولنا عن الصناع والعمال الذين استخدموا فى المعابد ، شأنهم فى ذلك شأن من استخدموا فى المدينة بوجه عام ، من أنهم إنما كانوا « عشاقاً للجمال مع ثمن زهيد » .[1]

---

(١) هيرودوت ، ٢ — ١٤٩ ، ٣ — ٩١ (بحيرة موريس) ، النظارة : الأوليجارشى المجوز ، ١ — ١٧ ، أنظر سطرا حفظ من لسيبوس (Lysippus) الكوميدى (floruit ، ٤٣٤) « إذا لم تكن قد رأيت أثينا فأنت أبله » (εἰ μὴ τεθέασαι τὰς Ἀθή-νας στέλεχος εἶ) ، كاننجهام (Cunningham) فى Western Civilization ، ص ١٢٠ — ١٢١ . ويرد ذكر الإرخثيوم أكثر من غيره لما يحويه من نقوش بارزة =

هاقد استعرضنا بوجه عام تاريخ المالية الأثينية حتى ما قبل حرب البلوبونيز ، ولحسن الحظ وصلنا الآن إلى حقائق ثابتة فى بحثنا ، إذ يخبرنا توكيديدس بالدقة ، كم بقى فى الخزينة عند ما أوقف البناء بسبب نشوب الحرب . « فيما عدا الدخل الآخر ، (أى خزينة المدينة القديمة) متمثلا بقول بركليس ، « لقد سحبنا ٦٠٠ تلنت من الفضة فى المتوسط من دخل الحلفاء ، ولا يزال موجوداً ٦٠٠٠ تلنت من العملة الفضية محفوظة فى الأكروبول .... وهذا لا يشمل الذهب والفضة غير المسكوكين من الهبات العامة والخاصة ، ولا الأوانى المقدمة للمواكب والاحتفالات والمباريات ، ولا الأسلاب الميدية والمصادر المشابهة ، مما يساوى ٥٠٠ تلنت. وقد أضاف بركليس إلى هذا دخل المعابد الأخرى .... حقاً لو أن الأثينيين اضطروا إليها ، لربما نزعوا أيضاً زخارف الإلهة أثينا نفسها الذهبية ، إذ كان التمثال يحمل ٤٠ تلنتا من الذهب الخالص ، كلها سهل نزعها . وهذا

= إذ استؤنف العمل فيه عندما كانت أثينا عامرة — وهو لا شك عمل من أهم الأعمال الفنية القومية الرائعة التى تمت فى التاريخ كله . وقد انتشرت الفكرة القائلة بأن الأثينيين فى أوج عظمتهم كانوا جشعين فيما يتصل بالمسائل المالية ويرجع هذا من جهة ، إلى انتقاد أفلاطون الذى عارض طريقة الدفع فيما يخص الأعمال العامة ، ومن جهة أخرى يرجع الى الحقيقة التى لا شك فيها وهى إرتفاع مستوى المصروفات : ويرجع هذا الى الارتفاع العام فى الأسعار الذى كان النتيجة الطبيعية ، لفيض السبائك الفضية من المناجم ، وفى شكل جزئ. لقد كانت أثينا كأنها تعيش على تعويض مستمر يدفع نقدا . وكما اتضح حديثا ، فالتعويضات ليست نعمة خالصة للبلاد التى تأخذها . (أنظر أنجيل (N. Angell) فى The Great Illusion ، الفصل السادس، وقد كتب هـذا الفصل بعناية أكثر فى أحدث طبعات الـكتاب) . ولا شك فى أن ارتفاع الأسعار قد أدى على نحو ما ، الى عرقلة ازدياد الصادرات الأثينية ، وأنه كان لاسترجاع القوى السريع وما تبعه من اتساع التجارة الأثينية بعـد عام ٤٠٤ ، صلة بهبوط الأسعار الذى نشأ عن فقدان الإمبراطورية وإقفال المناجم . إن هذا الموضوع من المواضيع التى تستحق بحثا آخرا دقيقا . فمثلا من الصعب القول كم كان مدى تأثير الأسعار هذا . ويرى كافينياك (ص ١٢٧) بأن هذا الأثر كان ملموساً فى منطقة بحر إيجا عامة ، ولـكن يبدو واضحا من توكيديدس ، ٨ — ٢٩ ، إذا ما قورن به ٣ — ١٧ — ٤ أن هذا الأثر لم يكن على هذا النحو . أنظر أيضا ٥ — ٤٧ — ٦ (حيث تساوى ثلاثة أوبل أيجينية خمسة أتيكية وزنا) . أوبما لا شك فيه أن الأثينيين قد حملوا معهم معيار أسعارهم، وأن بائعى السوق فى منطقة بحر إيجا كانوا يميلون إلى معاملتهم بالمثل .

يمكن استغلاله فى المحافظة على النفس ، على أن يجدد كله بعد ذلك . وهكذا كان مركزهم المالى ، وبالتأكيد هو مركز مرضى » . هذه هى الموارد التى زود بها أثينا أعظم رجالها الماليين، والتى وصفها أعظم مؤرخيها بأنها « وفورة بكثرة » . ملايين قليلة من السبائك الخام وليس بعدها أمل فى قرض أو مساعدة أخرى من أصحاب رؤوس الأموال ، لا فى الداخل ولا فى الخارج ، إلا فى المتحف الوطنى الذى يمكن أن يتحول إلى أموال سريعاً . وما من شىء يمكن أن يصور أحسن من هذا ، كم كان الأساس الذى حاولت أثينا أن تبنى عليه صرح الحضارة الباهظ التكاليف ضعيفاً بشكل يرثى له .(١)

ولنحاول أن نعمل فى الختام لبركليس ما فعلناه لأرستيدس من قبل ، أى أن نوضح بالأرقام تقديره لتسيير دفة الحرب المرتقبة . ولكى نفعل ذلك يجب علينا أن نتذكر أن الأسعار كانت فى ارتفاع فى أثينا ، وأن المبلغ الذى قدره أرستيدس للوقاية ، لم يعد على أية حال كافياً . وسيرينا ذلك مدى فقر مصادر أثينا لا فى المال فقط ، بل وفى الرجال أيضاً . فإذا ما أخذنا بمقاييسنا الحديثة ، فلقد كانت حفنة قليلة من البشر هى التى هزمت الفرس ، وأنشأت الإمبراطورية ، وجملت أثينا بمبانيها الخالدة ، وها هى الآن على استعداد فى ٤٣١ أن تأخذ مكانها فى صفوف المقاتلين ، أو على متن البحار ، لتدافع عن تراثها ، وتسلمه سليماً إلى المستقبل . ولكن لقد أدرك بركليس كم يستحيل على أثينا أن تحارب وتواصل عملها الخاص ، فلم يرد أن يوجب عليها الحرب . ومن الأفضل أن نبدأ تاريخ هذه الحرب وأمامنا هذه الأرقام :

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ١٣ — ٣ إلى ٥ ، ٦٥ — ١٣ . ربما كانت الـ ٦٠٠ تلنت تتضمن التعويض الذى كان يدفعه سنويا أهل ساموس منذ عام ٤٣٩ ، وكذلك بعض ملحقات الإمبراطورية (فى البحر الأسود مثلا) وذلك منذ أن حدد أرستيدس المجموع الكلى أصلا . قارن الوسائل التى اضطرت الجمهورية النمسوية إلى اتخاذها بأن رهنت ذخائرها الفنية الخ . للحصول على اعتمادات للطعام والمواد الخام .

عدد الشبان فى أتيكا عام ٤٣١ :

عـــدد		
حوالى	٤٠٠٠٠	مواطن
«	٢٤٠٠٠	أجنبي
«	٥٥٠٠٠	عبيد
	١١٩٠٠٠	المجموع

هذه هى القوة الكاملة من الأيدى العاملة والعقول المفكرة التى اعتمدت عليها أثينا فى بقائها كمركز للحضارة . ويمكن أن نرى لأول وهلة ، مدى خطر ما يصيب تلك القوة العاملة من عجز إذا ما تحول ، ولو جزء صغير منها ، من فنون السلم إلى فنون الحرب .

ولنحاول الآن دراسة نفس السكان لو نظموا لأغراض الدفاع القومى. فيجب أن نسقط الـ ٢٠٠٠٠ من العبيد الذين يعملون فى المناجم ، والذين لا فائدة منهم ، ثم الـ ٣٥٠٠٠ من العبيد الآخرين الذين لا يمكن استدعاؤهم إلا عند الضرورة القصوى، وبذلك ينقص المجموع إلى ٦٤٠٠٠ (منهم ٤٠٠٠٠، من المواطنين ٢٤٠٠٠ من الأجانب) . وهذا كان مجموع القوة الحربية لسكان أتيكا نفسها مكتوباً على الورق . ولكن يجب أن نضيف إليهم المقيمين فى الخارج ، ويبلغ عددهم من ستة آلاف إلى عشرة آلاف ، فى جاليات منتشرة فى دائرة بحر إيجا ، الذين كانوا حتى ذلك الوقت يدعون إلى الخدمة العسكرية ، ويعطينا هذا الأرقام الآتية :

حوالى	٤٨٠٠٠	مواطن
«	٢٤٠٠٠	أجنبي
«	٧٢٠٠٠	المجموع

كيف نظم هؤلاء الـ ٧٢٠٠٠ لأغراض الدفاع القومى؟

إن طبيعة الواجبات العسكرية على كل رجل فى أثينا تتوقف على مرتبته فى الإحصاء ، أى ما لديه من أملاك . فإذا كان غنياً بحيث يستطيع أن يزود

نفسه بالعدد الحربية ، عمل فى سلاح الفرسان ، أو فى فرق الجنود الثقيلة ، وإذا لم يكن كذلك ، عمل فى فرق الأسلحة الخفيفة ، أو كمجدف ، وهو الأمر الأكثر اعتبارا . وإذا اعتمدنا على تقديراتنا السابقة نصل إلى الأرقام الآتية :[1]

عدد	
٢٨٠٠٠	المواطنون المسلحون بالأسلحة الثقيلة .
٨٠٠٠	الأجانب » » »
٣٦٠٠٠	المجموع
٢٠٠٠٠	المواطنون المسلحون بالأسلحة الخفيفة .
١٦٠٠٠	الأجانب » » »
٣٦٠٠٠	المجموع

ولنضع إلى جانب هذه التقديرات التى لا تعدو أن تكون تخمينية ، تنظيم بركليس الخاص للجيش ، مستعينين بالأرقام التى أوردها توكيديدس.[2]

١ — جيش خدمة الميدان		١٥٨٠٠
١٠٠٠	فرسان	
١٣٠٠٠	المشاة الثقيلة	
٢٠٠	سلاح الفرسان الخفيفة	
١٦٠٠	» المشاة »	
١٥٨٠٠	المجموع	
٢ — احتياطى (كله من السلاح الثقيل)		١٦٠٠٠
٨٠٠٠	مواطنون (شيوخ وشبان)	
٨٠٠٠	أجانب	
١٦٠٠٠	المجموع	

(١) أنظر ص ٢٠٢ — ٢٠٥ فيما سبق .
(٢) توكيديدس ، ٢ — ١٣ — ٦ إلى ٨ .

٣ — ٢٥٠٠ حاميات فى الأمبراطورية

وإليهم يجب أن يضاف :

٤ — ٣٠٠٠ بحارة الأسطول

٥٥٠٠ مجموع (٣ ، ٤)

٣٧٣٠٠[1] المجموع الكلى

ويتكون من :

٣٥٥٠٠ السلاح الثقيل

١٨٠٠ « الخفيف

أما فيما يختص بشئون البحرية فلم يكن توكيديدس واضحا مثل ذلك الوضوح . ويبدو أن كان هناك ٣٠٠ سفينة من نوع التريريم على قدم الاستعداد دائما ،وكانت ثمة مائة أخرى احتياطية . وفى حالة الضرورة يعين لها القواد سنوياً . وكان العدد الذى ينزل به فعلا إلى البحر سنوياً وقت السلم للتمرين وجمع الجزية وحراسة الطرق البحرية ، ستين مركبا .

فالبحرية زمن السلم كانت تتكون إذن من ١٨٨ × ٦٠ = ١١٢٨٠ ، منهم حوالى ٣٥٠٠ مدنيين ، والباقى من الأجانب والمجدفين المأجورين .

---

(١) إن عدد الحامية مأخوذ عن .Ath. Pol ، ٢٤ ، وأخذ عدد القناصة من الخيالة (لم يقدر منفصلا عن الفرسان فى توكيديدس) عن ماير . Forsch ، الجزء الثانى صفحة ١٦٢ . وإنى أخالفه فيما يخص عدد الفرباء المشاة . هناك صعوبة منحيث المعنى الذى يقصد إليه توكيديدس بقوله « من الأكبر سنا إلى الأصغر » وكما أرى فإن احتياطى المواطنين كان بنسبة ١ إلى ٢ بالنسبة للمشاة العاملين ، كما هو بالنسبة للبلوبونيزيين (توكيديدس ٢ — ١٠ — ٢) . لماذا قام تكوين الاحتياطى المخصص للدفاع عن الأسوار على حملة الأسلحة الثقيلة كاية ، كما يقول توكيديدس بوضوح ، هذا أمر عسير التفسير . وكما بين فاوكوس (Fawcus) (.J. H. S) ، الجزء ٢٩ ، ص ٢٧) فالفرق الخفيفة يمكن أن تكفى لهذا العمل . وربما أمكن تفسير ذلك بانخفاض قيمة العملة مما أوجد عددا من المواطنين الفقراء فى دائرة « تعداد المشاة » (أو الهوبليت) ، سواء كان فى أمكانهم شراء أسلحتهم ، أو لم يكن ، أنظر كافيناك ، ص ١٦٨ . يوضح توكيديدس ، ٣ — ١٨ — ٤ ، أن هناك مشاة فى أثينا ، قد تدربوا من قبل على أن يكونوا مجدفين .

أما فى زمن الحرب فتتكون من :

١٧٠	مجدفاً × ٣٠٠	= ٥١٠٠٠
٨	ضابطاً × ٣٠٠	= ٢٤٠٠
١٠	بحارة مسلحين أسلحة ثقيلة × ٣٠٠	= ٣٠٠٠
المجموع الكلى ١٨٨	× ٣٠٠	= ٥٦٤٠٠ [١]

ولكن ذلك يزيد كثيراً على العدد الكلى أى المواطنين والأجانب المدعوين للخدمة البحرية ، والذى يبلغ فقط ٣٦٠٠٠ . فإذا ما أرسل الأسطول كله ، أو حتى جزء كبير منه إلى البحر ، كان على أثينا أن تستأجر مجدفين أجانب . وكل شىء كان يتوقف على مقدرتها فى الدفع لهم بسخاء لقاء خدماتهم . وهنا ، كما علم أعداؤها ، كانت نقطـــة الضعف فى دفاعها . وليس أمامنا إلا أن نقول ، كما قال الكورنثيون ، « اعتمدت قوة أثينا على المال لا على قوة أهليها » .

لنحسب الآن مع بركايس النفقات التى ينبغى وقفها على هذه القوات .

من المحتمل أن يكون الأجر فى الجيش والأسطول قد زيد فى ذلك الوقت إلى درخمة واحدة فى اليوم ، وذلك أيضاً فى كل الرتب . فإذا استمر جيش الميدان فى العمل خلال فصل الحرب ، أى ستة أشهر ، لكانت التكاليف كما يأتى :

$$\frac{١٥٨٠٠ \times ١٨٠}{٦٠٠٠} = ٤٧٤ \text{ تلنتا}$$

(١) توكيديدس ، ٢ — ١٣ — ٨ ، ٢ — ٢٤ — ٢ ، فى الأوليجارشى العجوز ، ٣ — ٤ (٤٠٠ تريرارخ) ، وبلوتارخس ،الفرس ، ٢ (٦٠ مركبا كانت فى العمل ،أنظر فيلاموفيتز ، A. A. ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٦) ، ثم الأوليجارشى العجوز ، ١ — ١٩ ، توكيديدس ١ — ١٤٢ — ٦ إلى ٨ (المناورات البحرية) ثم Ar. Ach. ، ١٦٢ (كان المواطنون يعملون رؤساء مجدفين) ، توكيديدس ١ — ١٢١ — ٣ ، ١٤٣ — ١ (مجدفون مأجورون وضباط من المواطنين) .

بينما مدة الخدمة فى البحر لثلاثمائة مركب لنفس المدة لا تـكلف أقل من :

$$\frac{٥٦٠٠٠ \times ١٨٠}{٦٠٠٠} = ١٦٨٠$$ تلنتا .

وإزاء مثل هذه المبالغ كان مبلغ الستة آلاف تلنت الذى فى الأكروبول ، لا يمـكن أن يكفى أثينا مدة طويلة فى حرب غير معروفة المدى . ومن المؤكد أن بركليس لم يفـكر مطلقاً فى إنفاق هذا المبلغ.[1]

وفى الختام لننتقل مرة أخرى من فنون الحرب ، ونعود إلى فنون السلم ونضع فى جدول مختصر نتائج بحثنا فى الاقتصاد الأثينى . وليس هناك حاجة لأن نوجز عملية الإنتاج والتوزيع فى حدود الدولة المدينة نفسها أى عمل الزراع والصناع وتجار التجزئة فى السوق العامة . فهذه سارت فى أتيـكا أثناء السلم ، كما سارت عليه كل مدينة أخرى . أما جدولنا فلن يبين إلا ما كان جارياً فى أثينا زيادة على اقتصاديات الدولة القائمة على كفايتها الذاتية ، أى علاقتها الخارجية . ومن الأنسب أن نعبر عن ذلك فى شـكل كشف ميزانية قومية ، وقد رقمنا المفردات حسب ترتيب أهميتها النسبية :

رصيد	ديون
١ — الجزية من الحلفاء (٦٠٠ تلنت سنوياً) تتداول بين الأثينيين لمصاريف الحـكومة ، وتشييد الأعمال العامة والمراكب الخ .	١ — الضروريات وتشمل : (ا) ثلثى تموين القمح لـ ٣٥٠٠٠٠ شخص . (ب) خشب لبناء السفن وبعض الضروريات الحربيـــة الأخرى (مثل حديد الأسلحة والـكتان للأشرعة) .

(١) الدفم : توكيديدس ، ٣ — ١٧ — ٤، ٦ — ٨ — ١ ، ٣٠ — ٣ . إن معركة بوتيدايا قد تكلفت من البداية الى النهاية ٢٠٠٠ تلنت (توكيديدس ٢ — ٧٠ — ٢) ، وقد بلغ عدد القوات التي استخدمت هناك لمدة الثلاثين شهرا ، ٣٠٠٠ محارب فقط من المشاة وأقل من ٥٠ سفينة . ولم تـكن أثينا فى مركز يسمح لها أن تقوم بمعارك أكثر من ذلك فى الشتاء والصيف .

رصيد	ديون
٢ — الأرباح من نقل التجارة .	٢ — الكماليات وتشمل :
٣ — الصادرات :	(ا) المواد الخام للمصنوعات (فيما عدا الصلصال والرخام والصوف) ،
(ا) فضة من المناجم ،	(ب) عمال مشترون (أى العبيد) ، للصناعات والخدمة فى البيوت والمناجم ،
(ب) زيت زيتون (= زبد وصابون وإضاءة) ،	(ح) مصنوعات جاهزة من كل نوع .
(ح) أوانى من الفخار منقوشة وتماثيل صغيرة الخ ،	
(ى) رخام ،	
(ه) مصنوعات من المواد الغفل المستوردة مثل التروس ،	
(و) واردات معاد تصديرها :	
ه ، و = أشياء تافهة . والكل فيما عدا ، (ا) عرقلها ارتفاع الأسعار بسبب (١) و (٣،١) .	
٤ — ما دفعه الزوار الذين جاءوا لأعمال قضائية أو كمتفرجين .	

عندما نضع هذه الحقائق والأعداد المتفرقة إلى جانب بعضها البعض ، ونحاول أن نتصور تأثيرها الاجتماعى جملة ، فإننا نبتدئ أن نفهم بشكل ما ، معنى كلمات بركليس عن زملائه المواطنين ، كيف ، أن أحداً لا يفوقهم فرداً فرداً فى استقلال الروح ، وتشعب نواحى المعلومات ، والاعتماد الذاتى التام ، فى النواحى الصناعية والفكرية» . فنحن نعجب بهم منذ أكثر من ألفى سنة فى كتاباتهم وآثارهم لهذه البساطة التى لا مثيل لها ، وتعدد آفاق العقل وصفاء الروح التام . والآن فقط وقد أمكننا أن نجمع شتات صفحات ماليتهم

المنزلية ، فلنا أن نعجب أيضا بتلك الشجاعة القوية الدائمة التى تواجه بجرأة حقائق الحياة القاسية . والآن فقط يمكننا أن نقدر لماذا تكلمت أثينا « التى أظهرت لنا فى كل سطر كتبته وفى كل حجر قطعته ، كيف أنها خضعت برغبتها ومحض إرادتها لقوة الفن القاهرة ، وكيف تكلمت باحتراس ، وبعقل بالغ ، عن العناية التى أولتها قضيتها — لماذا أنها ، لا عن اختيار ، بل عن ضرورة قد ، أحبت الجمال وقلة التكاليف » . (١)

(١) أنظر التذييل .

الخاتمـــة

الحرب البلوبونيزية

Ὁ πόλεμος, ὑφελὼν τὴν εὐπορίαν τοῦ καθ' ἡμέραν, βίαιος διδάσκαλος καὶ πρὸς τὰ παρόντα τὰς ὀργὰς τῶν πολλῶν ὁμοιοῖ.

إن الحرب بما تذهب به من وسائل الراحة فى الحياة اليومية ، إنما هى معلم يعلم بالقسوة ، ويجعل أخلاق الناس تتناسب وظروفهم .

(توكيديدس ، ٣ — ٨٢ — ٢) .

فى عام ٤٣٤ ، بينما ما زال العمال منهمكين فى عمل « الردهة » ظهرت سحابة فى الغرب . فقبل ذلك بعامين عمت المدينة الصغيرة المسماة إبيدامنوس ، وهى مستعمرة كورسيرية على شاطئ ألبانيا ، اضطرابات داخلية . فلجأت جماعة من مواطنيها إلى كورسيرا طالبة العون ، لكن الدولة الرئيسية الأم كورسيرا رفضت أن تساعدهم . وعلى هذا اتجهوا إلى كورنث لتكون بدلا عن كورسيرا ، ووافق الكورنثيون فى الحال . ويخبرنا توكيديدس بالتفصيل عن دوافع ذلك القرار ، مرتبة دون شك حسب أهميتها فى نظره . وهى تكشف عن مزيج من العواطف والمصالح المادية امتاز به اليونانيون . فهم وقد اعتقدوا أن المستعمرة تنتمى إليهم ، كما تنتمى إلى الكورسيريين ، رأوا أن من واجبهم القيام بحمايتها . وزيادة على ذلك فقد كانوا يكرهون الكورسيريين لتغافلهم البلدة الأم (كورنث) فبدلا من أن تقابل بالاحترامات المعتادة فى الاجتماعات العامة الواجبة على كل مستعمرة أخرى نحو المدينة الكبرى ، مثل السبق فى تقديم القرابين ، فقد رأت كورنث نفسها تعامل باحتقار من دولة ، إذا أخذت من ناحية الثروة ، فيمكن أن تقارن بأغنى دول الإغريق إذ ذاك ، ومن ناحية القوة فقد ملكت قوة

حربية كبيرة ، لا يمكنها أحياناً أن تسكبت اعتزازها بمركزها البحرى السامى كجزيرة ترجع شهرتها البحرية إلى أيام سكانها الأقدمين الفاكيين الذين تحدث عنهم هومر . وهذا كان أحد أسباب الاهتمام الذى أسبغوه على أسطولهم الذى كان قوياً للغاية ، حتى أنهم بدأوا القتال بقوة تبلغ ١٢٠ سفينة . كل هذه الإحن جعلت كورنث تواقة لأن ترسل إلى إبيدامنوس المساعدة التى وعدت بها :(١)

وقد كان قرارها هذا خطيراً فبين كورنث وإبيدامنوس تقع منطقة كورسيرا البحرية . ولذا كانت موافقة كورنث على مادعت إليه تحدياً مباشراً لابنتها العاتية . لقد كانت كورنث وكورسيرا القوتين البحريتين الرئيسيتين فى اليونان الغربية . وكانت كورسيرا أقواهما ، فسفنها المائة والعشرون كانت «مسيطرة على البحار» شمالاً وغرباً من مصب خليج أمبراكيا . ولكن وإن كان أسطول كورنث يصغر أسطولها ، فقد كان لها عضد ، فى أصدقاء وجيران مخلصين ، بينما ظلت كورسيرا فى عزلة متعالية ، ابعدها عن عالم دولة المدينة . وقد التجأت كورنث إلى حلفائها وسرعان ما جندت قوة من ٧٥ سفينة و ٢٠٠٠ من المشاة الثقيلة . وعند ما وصلوا حدودهم ، أى أكتيوم على مصب خليج أمبراكيا ، « حيث يقوم معبد أبولون أرسل الكورسيريون » ، كما يقول توكيديدس « منادياً فى قارب خفيف ينذرهم بألا يسيروا ضدهم . وفى أثناء ذلك أخذوا يزودون سفنهم بالرجال ، وكانت كلها على استعداد للقتال ، بينما كانت تُصلح السفن القديمة لتكون صالحة للبحر . وعند رجوع المنادى بلا رد سلمى من الكورنثيين ، كانت السفن قد زودت إذ ذاك بكل شىء ، وأقلعوا لمقابلة العدو فى أسطول من ٨٠ سفينة (٤٠ منها كانت مشغولة بحصار إبيدامنوس) صفت صفاً واحداً ، ومضت للقتال . فأحرز أهلها نصراً حاسماً ، وحطموا ١٥ سفينة

(١) توكيديدس ، ١ — ٢٥ . (أنظر التذييل) .

من سفن الكورنثيين . وشهد اليوم نفسه إپيدامنوس وقد أرغمها محاصريها على التسليم » .(١)

وكان من أثر هذه المعركة أن أصبحت كورسيرا قوة مسيطرة على البحار الغربية اليونانية ، كما كانت أثينا فى بحر إيجا . « وأقام الكورسيريون نصب النصر فى لفكيمى (Leucimme) ، وهى رأس فى كورسيرا ، وذبحوا جميع أسراهم عدا الكورنثيين ، فقد أبقوهم كأسرى حرب . وعاد الكورنثيون وحلفاؤهم تاركين الكورسيريين سادة بحار هذه الجهات جميعها . فأبحروا إلى لفكاس (Leucas) المستعمرة الكورنثية واجتاحوا أراضيها وأحرقوا Cyllene ميناء الإيليين ، لأنها أمدت كورنث بالسفن والمال . وقد ظلوا تقريباً سادة البحار طوال المدة التى تلت المعركة ، واكتسحت سفنهم الحربية حلفاء كورنث ، وأخيراً حوالى الخريف أرسلت كورنث ، وقد استفزتها آلام حلفائها ، سفناً وجنوداً . . . لحماية لفكاس ، وسائر المدن الصديقة ، فأقام الكورسيريون مركزاً مماثلا فى لفكيمى ، ولم يشتبك الفريقان إنما ظل يواجه كل منهما الآخر حتى نهاية الصيف . وأصبح الشتاء على الأبواب ولم يرجع أحد منهما الى موطنه بعد .(٢)

وإلى هنا لم تسر الأمور إلا فى الطريق المألوف لغزوة بحرية موسمية . ولكن كان من الواضح أن الأوضاع لا يمكن أن تبقى على هذا المنوال . فالنتائج التى تضمنتها كانت بالغة الأهمية . فكورنث لا يمكن أن تقبل ضياع سيادتها البحرية خارج خليج كورنث ، ولا أن تتخلى عن الدول البحرية الصغيرة التى كانت تعتمد على حمايتها لتقع تحت رحمة القراصنة الكورسيريين، التى لا ترحم . وكانت على استعداد للمغامرة بكل شىء لاسترداد سيادتها البحرية من ابنتها العاقة . « ولذا قضت السنة التى تلت الحرب ،

---

(١) توكيديدس ، ١–٢٩ . فيما يخص منطقة كورسيرا البحرية أنظر ليف (Leaf) ، Homer and History ، ص ١٨٦ والخريطة .

(٢) توكيديدس ، ١ — ٣٠ .

والأخرى التى تلتها فى بناء السفن ، وبذل كل جهد لإعداد أسطول قدير ، وتوافد المجدفون من البلوبونيز ومن سائر اليونان ، تحت إغراء الأجر المرتفع . هالت أنباء ذلك الاستعداد أهل كورسيرا ، وهم لا حليف لهم فى اليونان ، . . . وقرروا أن يلجأوا إلى أثينا ، فى خريف عام ٤٣٤ ، ليدخلوا فى حلف معها ، وليحاولوا الحصول على معونة منها . وما أن سمعت كورنث بنيتهم إلا وأرسلت هى الأخرى بعثة إلى أثينا ، لتمنع أسطولها من الانضمام إلى الأسطول الكورسيرى ، وبذلك قضى على آمالها فى تسيير الحرب حسب رغباتها . فعقد المجلس وظهر المحامون المتنافسون أمام الشعب ».[1]

هذه هى اللحظة التى اختارها توكيديدس لأول أحاديثه المشهورة ، أو استعراضاته للسياسة والرأى . فما واجهته أثينا وما واجهه بركليس ناصحها الأول ، إنما كان وضعا حرجا لحد بعيد . وكانت حجج الجانبين متوازنة بشكل دقيق . ولكى نفهم الوضع الكامل يجب أن نذكر عناصر أخرى فى الموقف السياسى العام . فالعالم اليونانى كان منقسما ، كما كان منذ أكثر من جيل ، إلى قسمين سياسيين مركزهما أثينا واسبرطة . فكانت أثينا ومئات المدن التابعة لها على سواحل بحر إيجا ، وبعض الحلفاء المستقلين الآخرين ، القوة البحرية الرئيسية . بينما كانت اسبرطة وحلفها البلوبونيزى الذى ضم كورنث وبيوتيا كلها عدا بلاتيا ، القوة البرية الرئيسية . وكان الفريقان فى سلم محدد بهدنة مداها ٣٠ عاما ابتدأت منذ إحدى عشر عاما . إلا أن المشاعر بينهما كانت تزداد جفوة ، وشعر كل بأن المعركة الحاسمة لا تحتمل التأخير طويلا . ولم يكن ما يدفعهم إلى التقاتل أسباب سياسية خاصة ، إذ لم تتعارض مصالحهم بعضها البعض إلا قليلا ، ولم تكن الحرب لتعيد تنظيمها على أساس مرضى . والقوات التى شهدتها اليونان كلها تعد لحرب عظيمة ، إنما كانت بدافع عاطفى أكثر منه مادى . فهى تتعلق بالشرف أكثر منها بالتجارة أو الثراء . فقديما اعتبر الجميع

---

(١) توكيديدس ، ١ — ٣١ .

اسبرطة بجيشها المدرب الذى لا يقهر ، القوة الرئيسية فى اليونان . ولكن نافسها الآن بحارة أثينا المحنكين . ويقول توكيديدس «إن ازدياد قوة أثينا ، وما أوحت به من فزع فى لاسيديمونيا ، هو الذى جعل الحرب لا مفر منها» (١)

ويتجلى الموقف العام بشكل واضح فى الحجج التى أدلى بها خطباء كلا الفريقين . فأعلن الكورسيريون بجرأة أن الحرب العظمى لا مناص منها ، ويجب أن تكون عاجلا لا آجلا . وإذا ما سلم بذلك فقد هان أمر حججهم الأخرى ، تذكروا أن فى اليونان ثلاث قوى بحرية كبيرة ليس غير ، أثينا وكورسيرا وكورنث ، فإذا ما رضيتم لاثنتين منها أن تتحدا . ولكورنث أن تحتفظ بنا لنفسها ، فعليكم أن تقاوموا فى البحار أساطيل كورسيرا والپلوپونيز المتحدة . ولكن إذا ما رضيتم تحالفنا فستشد سفننا أزركم فى المعركة » .

ولم يكن لدى كورنث أمام هذه الحجج السياسية المفحمة شيئاً محدداً تقترحه . بل لقد كان مبعوثيها فى مركز دقيق نوعا . فى القرن الأخير كما يعرف الجميع ، كانت العلاقة بين أثينا وكورنث علاقة «عداء مستحكم» . فلم تكن الصداقة ، وإنما هى الظروف التى أبقت على السلام بينهما . ويرجع العداء إلى ٢٠ عاما مضت ، عندما تدخلت أثينا فى حرب حدود بين كورنث وميجارا ، وساعدت الأخيرة على بناء أسوار طويلة ، وهكذا أصبحت بالمساعدة الأثينية منيعة إزاء جارتها الغربية . لذا لم تخل إشارة المبعوثين الكورنثيين من السخرية عندما ذكروا مستمعيهم ، بأن كورنث وأثينا مرتبطتان بمعاهدة سياسية ، بينما كورسيرا وأثينا «لم يكونا فى هدنة أبدا» . وذلك لسبب بسيط وهو أنهما ، ما اشتبكا فى حرب مطلقاً . ثم أخذوا يسلمون بوجود خلافات قد تؤدى إلى قيام حرب كبيرة ، ونصحوا بتسويتها . لكن حججهم الأساسية قامت على اقتسام مناطق النفوذ البحرية . فإذا

---

(١) توكيديدس ١ — ٢٣ — ٦ ، أنظر ١ — ٦٨ — ٣ . أرسطوفانيز (Wasps ، ٧٠٧) يقدر عدد المدن التى تدفع الجزية بألف مدينة . وهذا الرقم مبالغ فيه بدون شك ، ولكن ربما جعلت اعتبارات التقسيم فى قوائم الأنصبة بعيدة عن أن تكون كشفا مستوفيا .

تركت أثينا دون أن تضايقها كورنث فى بحر إيجا ، فيجب عليها أن تترك كورنث حرة فى الغرب . أما إذا نقضت التوازن البحرى فيجب أن تتوقع نفس المعاملة .(١)

وقد عقد اجتماعان قبل أن يتخذ الشعب الأثينى قرارا . وفى أى جانب كان يتخذ القرار ، فإنه ليعنى تغييرا فى سياسة أثينا . لقد تجنبت حتى الآن التدخل فى سياسة الجزء الشمالى الغربى ، مكتفية بأن تعتمد فى تأمين تجارتها ، وهى مصلحتها الوحيدة فى الغرب ، على سياسة الحياد وعلى مصالح كورسيرا التجارية ، ولكن هذا ما ان تستطيعه الآن . فإذا قطعت علاقاتها بكورنث فستخاطر بحرب عامة . لكن إذا ما قطعتها بكورسيرا فإنها ستؤجل هذا الخطر ، لا تتفاداه ، فضلا عن الخوف من أن مواصلاتها الغربية ستكون فى خطر مستمر . وزيادة على ذلك فلم تكن راغبة فى الأخذ بنظرية كورنث بشأن مناطق النفوذ البحرية ، التى كانت ستحصرها طول الوقت ، فى نطاق نفوذها فى منطقة بحر إيجا . فقد أخذت فى خارج امبراطوريتها بمبدأ التجارة الحرة والتعامل الحر ، ولم يكن بركليس مؤسس ثورى (Thurii) مستعدا للسماح لكورنث عن طيب خاطر ، بأن يكون لها فى مياه البحار الغربية ، الحقوق التى ادعتها أثينا لنفسها فى المياه الشرقية ، على أنه كسياسى كان حذرا كل الحذر ، من أن يزج بها فى حرب لا حاجة لها بها . والحل الذى اتخذ أخيرا وكان بلاشك وفق اقتراحه ، تضمن محاولة التسوية . فوافق الأثينيون على عقد معاهدة مع كورسيرا على أن تكون ذات صبغة دفاعية بحتة ، بينما استمرت أثينا فى المحافظة على هدنة الثلاثين عاما ، بأن رفضت مشاركة كورسيرا أى هجوم على كورنث ، ولكنها وعدت أن تخف لنجدتها إذا ما اجتيحت أراضيها . وكما يخبرنا توكيديدس بصراحة ، لقد كان الاعتقاد أن يضعف الفريقين أحدهما الآخر فى هذا القتال ، وبهذا يتركان التجارة حرة لأثينا ، فتكون أعظم قوة بحرية دون منازع .(٢)

---

(١) توكيديدس ١ — ٣٢ إلى ٤٣ ، ١٠٣ — ٤ .

(٢) توكيديدس ، ١ — ٤٤ .

يستطرد المؤرخ حديثه قائلا ، « بهذا تحالفت أثينا مع كورسيرا ، وأرسلت عشر مراكب لمساعدتها . والتعليمات التى أعطتها كانت تجنب التصادم مع الأسطول الكورنثى إلا فى ظروف خاصة . وذلك إذا أبحر تجاه كورسيرا وهدد بالنزول إلى شاطئها ، أو فى أى من ممتلكاتها ، فيجب أن يبذلوا جهدهم لمنع ذلك . وكان الدافع إلى هذه التعليمات الحرص على تجنب خرق المعاهدة » . ولكن كان من الصعب التنفيذ فمن الذى يقرر فى حرب بحرية الحد الفاصل بين الدفاع والهجوم ؟

هذا ما بينته النتيجة . لقد أكمل الكورنثيون استعدادهم ، وأبحروا فى ١٥٠ مركبا لها ولحلفائها نحو كورسيرا ، التى قابلتهم فى ١١٠ مركبا ، أما الـ ١٠ مراكب الأثينية الباقية فقد ظلت كاحتياطى . وعندما بدا أثر تفوق العدد ، لم يسع الأثينيون إلا أن يشتركوا فى المعركة . « حقا لقد امتنعوا أولا عن الهجوم على أية سفينة ، ولكن لما أن صارت الهزيمة واضحة ، وأخذ الكورنثيون يضغطون على أعدائهم حان الوقت الذى يجب أن يتحرك فيه الجميع دون تمييز ، وهنا اصطدم الكورنثيون والأثينيون ببعضهما » . وانتهت المعركة ، ولكنها لم تكن حاسمة ، وأقام كلا الفريقين نصب نصر . . . أما الكورنثيون « فقد أرسلوا للأثينيين بعض الرجال على ظهر مركب بدون عصا المنادى » ، ليسجلوا احتجاجاً رسمياً على نقضهم هدنة الثلاثين عاما . ثم عادوا إلى أوطانهم ، وانتهت الأعمال الحربية مؤقتا . ويقول توكيديدس ، « بهذه الطريقة احتفظت كورسيرا بكيانها السياسى أمام كورنث ، وتركت السفن الأثينية الجزيرة . وكان ذلك ، أول سبب للحرب التى شنتها كورنث على الأثينيين ، أى محاربة الأثينيين لهم ، مع الكورسيريين وقت الهدنة » .(١)

« ويكاد أن يكون بعد ذلك مباشرة ، ربما فى شتاء ٤٣٣ — ٤٣٢ ، » أن قامت خلافات جديدة بين الأثينيين والبلوبونيزيين فساهموا بنصيبهم فى

(١) توكيديدس ، ١ — ٥٥ .

الحرب » . فعندما تدخلت أثينا فى الغرب « كانت كورنث تعد الخطط للانتقام . فشكت أثينا فى مقاصدها العدائية » . وكانت نقطة الضعف فى الإمبراطورية الأثينية ، ماسمى « المنطقة صوب ترافيا » ، وتشمل المدن الواقعة على ساحل بحر إيجا الشمالى ، من خليج سالونيك إلى الدردنيل . فقد حدث نقص فى الجزية فى هذه المنطقة خلال السنين السابقة . وكان هناك خطر قيام بعض الثورات ، إذأن إحدى القوى الداخلية ، أى مملكة مقدونيا ، كانت وقتئذ عدوة لأثينا . وأدرك رجال السياسة الأثينيون أن كورنث تتطلع إلى حدوث اضطراب هناك ، فقرروا أن يسبقوا أية محاولة ممكنة لها . وكانت حركة كورنث المتوقعة فى هذه الناحية عن طريق مدينة بوتيديا على برزخ پالين ، وهى إحدى مستعمراتها القديمة ، ولكنها أصبحت الآن ككل مدن الساحل ، حليفة لأثينا ممن يدفعون الجزية . ولهذا أمرت أثينا البوتيوديين بهدم جانبا من أسوارهم ، وبتقديم رهائن ، وقطع كل المواصلات المألوفة بينهم وبين مدينتهم الأصلية . واحتج البوتيديون أول الأمر ، ثم رفضوا ، ثم انضموا إلى الحلف البلوبونيزى ، وأخيرا ثاروا على أثينا . فأسرعت كورنث فى وضع قوة لمساعدتهم ، تمكنت أن تتسلل عبر بحر إيجا ، بينما كانت مراكب الحراسة الأثينية مشغولة فى جهة أخرى ، وأن تدخل المدينة خلال ٤٠ يوما من ثورتها . وفى الحال أرسل الأثينيون قوة لحصارهم.(١)

أصبحت لكورنث الآن شكوى مزدوجة . فقد هاجمت أثينا بحارتها عند كورسيرا ، وهى الآن تحاصر بعض جنودها فى بوتيديا . ثم رأت أثينا مستعدة فى كل السواحل فى الشرق للمحافظة على إمبراطوريتها بأى ثمن ، ولتحارب من أجل البحار المفتوحة ، أو ربما من أجل إمبراطورية بحرية أخرى فى الغرب . ولم تعرف مدى للخطط الأثينية ، أو للمهارة والنشاط والتفانى التى عملت بها ، وهو ما يختلف تماما عن اسبرطة باندفاعها ونظامها

---

(١) توكيديدس ، ١ — ٥٦ إلى ٦٨ .

السيء الجامد . ودفعها الغضب والخوف إلى التلهف على استعجال الحرب التى لا مفر منها . ووطنت نفسها على القيام بالواجب الصعب وهو استفزاز قواد اسبرطة وإلهاب مشاعرهم رغم ماعرفوا به من جمود.[1]

لقد كانت أثينا ملمة بالموقف تمام الإلمام . إلا أن بركليس لم يكن راغباً فى الحرب ، ولكنه أدرك تماماً أن المدينة قد سارت نحوها شوطاً بعيداً ، فما كان لها أن تتراجع ، فيجب أن تخضع بوتيديا بأى ثمن ، وقف معها الكورنثيون أم لم يقفوا ، لا من أجل هيبة أثينا ونفوذها فقط ، ولكن لأن أثينا اعتمدت اعتماداً كلياً على انتظام وصول الجزية منها . ولم يكن هناك إلا طريقة واحدة قد يمكن بها تجنب الحرب ، وذلك باستعراض القوة الأثينية ، التى قد تنجح فى أن تكون درساً عملياً للپلوپونيزيين ، يريهم طبيعة الحرب التى يُدفعون لخوض غمارها . وصمم بركليس أن يقيم عرضاً لإظهار ما تعنيه القوة البحرية حقاً . وقد اختير الميجاريون ضحايا لهذه الغاية ، إذ كانت تحمل لهم أثينا ضغناً منذ أن تخلوا عن محالفتها ساخطين ، ومنذ أن ذبحوا حاميتهم الأثينية فى لحظة حرج بالغ ، قبل ذلك بثلاثة عشر عاماً . فصدر قرار مقاطعة ، يقضى بإقفال أبواب كل موانىء الإمبراطورية ، وأسواق أتيكا فى وجه السفن والبضائع الميجارية . وهكذا بضربة واحدة غدت ميجارا منعزلة تماماً عن العالم ، ورجعت ثانية إلى الاعتماد فى حياتها على نظام الاكتفاء الذاتى القديم القائم على الزراعة . ونحن نعلم مقدار شعورها بشدة وطأة الضربة ، لا من الدور الذى لعبته فى مداولات اسبرطة الأخيرة وحده ، ولكن من تصوير أرسطوفانيز للرجل الفقير الميجارى الذى أخفى بناته فى شكل خنازير وهربهن عبر الحدود إلى الأسواق الأثينية لبيعهن . وما اتخذته أثينا إزاء ميجارا ، تستطيع أن تتخذه أيضاً إزاء المدن البحرية الأخرى فى حاف الپلوپونيز ،

---

(١) توكيديدس ، ١ — ٦٦ إلى ٧١ .

بمجرد أن تعلن الحرب . وقد كان يهم بركليس أن تقدر هـذه المدن تلك الحقيقة قدرها فى مجالسها الحربية .[1]

فزع الاسبرطيون وحق لهم ذلك . وما أن اجتمع مجلسهم لمناقشة الموقف : حرب أم سلم ، تساءل العقلاء بينهم بصراحة كيف ينتظرون أن يهزموا قوة بمنأى عن أن يصيبها الأذى براً ، والتى هى بقيادتها البحرية الممتازة وتفوق قدرتها المالية على ثقة من إمكان طردهم من البحار . وقالوا إن اسبرطة ليس لديها موارد خاصة بها أياً كانت . إن أثينا لا يمكن غزوها إلا بحراً ، والسفن تحتاج إلى مال ، واستئجار البحارة المهرة يتكلف أكثر . إلا أن الـكورنثيين قابلوا هذه الحجج باستثارة كبرياء اسبرطة بمهارة وبراعة . فالسكوت على أعمال أثينا الأخيرة واعتداتها ، قد يثبت للعالم أجمع أنهم فقدوا سياستهم الأولى القديمة ، التى انتقلت نهائياً من يد القوة البرية إلى القوة البحرية . فيجب أن يهبوا هبة واحدة ، ويعزموا على الحرب ، ويجمعوا ما يمكنهم من المال ، ويخاظروا بالنتائج . وقد أيد هذا الاتجاه الحاكم الاسبرطى الذى كانت له الرئاسة ، وأقره المجلس بصفة نهائية ، إذ صوت بأن المعاهدة قد نقضت ، وأن الحرب لا بد وأن تعلن . وكما يقول توكيديدس ، « لم يرجع ذلك لاقتناعهم بحجج الحلفاء ، فقليلا ما اهتموا بالشكاوى الخاصة ، » بقدر ما يرجع لخوفهم من قوة الأثينيين ، بعد أن

(١) توكيديدس ، ١ — ٦٧ ، ٤ — ١١٤ ، ١ ، Ar. Ach. ، ٥٣٠ — ٥٣٥ ، ٧٢٩ وما بعدها . لقد سبق القرار بعض ترتيبات مضايقة بشأن الحدود ، مما أسخط الميجاريين كثيرا : توكيديدس ، ١ — ٤٢ — ٢ ، Ar. Ach. ، ٥١٩ وما بعدها ، أنظر ماير ، فصل ٤ ، الفقرة ٥٣٩ و Forschungen ، الجزء الثانى ص٢٩٧ وما بعدها ، بوزلت (Busolt) ، الجزء الثالث ، ص٨١٢ . وقد اعتمدت ميجارا كثيرا على الحبوب المستوردة ، والتى تدفع بدلا عنها ، صادرات صناعية ولا سيما الملابس الرخيصة ، ولم تكن تملك إلا قليلا من الأرض الصالحة ، رغم أن أيزوكراتيس كان لاشك ، كما هى العادة ، مبالغا عندما قال أن زراعها « لم يكن لديهم سوى صخور يزرعونها » ، (أيزوكراتيس ٨ — ١١٧ ، اجزينوفون ، .Mem ، ٢ — ٧ — ٦) . وقد كانت علاقتها التجارية مع الغرب عن طريق بيجاى (Pegae) ، لا تزال قائمة شكلا ، ولـكنها ربما كانت قليلة الجدوى .

رأوا معظم اليونان قد خضعت لهم » . حدث ذلك فى خريف عام ٤٣٢ . فكان على عام ٤٣١ إذن ، أن يشهد ابتداء النضال الحاسم بين القوتين العظيمتين للسيطرة على اليونان.[1]

أخذ السفراء يروحون ويجيئون موجهين الحزازات القديمة وعارضين طلبات مستحيلة . ولما أن وصلت بعثة السفراء الأخيرة ، اجتمع فى البرلمان شعب أثينا الأعظم لاتخاذ قراره النهائى ، سلم أم حرب . ودعا بركليس ، ناصحهم الأول إلى الصمود أمام أصحاب القلوب الواهنة الذين كانوا حتى ذلك الوقت ينادون بالاتفاق . ثم انطلق يتحدث ، بوصفه قائداً ، عن السياسة التى يريد أن يتخذها . وكانت تقوم على مبدأ الإرهاق واستنفاذ القوى ، لا على مبدأ الهزيمة . واقترح تجاهل العدو لا مهاجمته ، أو إن لم يكن ليترك دون ما أذى ، فعلى الأقل أن ينزل فى الإضرار به ، أقل ما يمكن من موارد أثينا القيمة فى المال والرجال . فقد كانت أثينا إذ ذاك ، خيراً كان ذلك أم شراً ، قوة بحرية لا برية . ويجب أن تترك أرضها للغزاة البلوبونيزيين دون ما قلق ، وأن تشعرهم بضآلة ما يمكن أن يأملوا فيه من حيث إجبارها على طلب الصفح عن طريق وطء حقول قمحها ، وقطع أشجار زيتونها . وبعد بضع فصول قليلة غير موفقة من الحرب ضد عدو خفى ، قد يدركون أن لا حول لهم ولا قوة ويستعدون لقبول سيادتها . فالغزوات البرية تستلزم أيضاً نفقات ، وسيأبى المزارعون البلوبونيزيون ترك محصولهم وقت الحصاد . أما ما كان على أثينا أن تعمل حسابه دون عداه ، فهو المحافظة على سيادتها البحرية . ثم يستطرد بركليس بلهجته المؤثرة الخاصة (وهى ما سماها الأثينيون أولمبية) التى يلجأ إليها دائماً ، إذا ما أراد أن يقول شيئاً يبدو غير مستساغ . « تمعنوا قليلا ، هبوا أننا سكان جزر فهل يمكن أن تتصوروا مركزاً أمنع من ذلك ؟ حسناً إن هذا هو ما ينبغى أن يكون عليه تصورنا لوضعنا فى المستقبل بقدر الإمكان . ينبغى أن نحمى البحر

---

(١) توكيديدس ، ١ — ٨٠ إلى ٨٨ ، ٦٨ إلى ٧١ .

والمدينة تاركين التفكير فى أرضنا وبيوتنا . . . . ينبغى ألا ننتحب على فقد بيوتنا وأرضنا ، إنما نبكى موت الرجال ، ما دامت المنازل والعقار لا تصنع الرجال ، وإنما الرجال هم صانعوها » . فبسلامة البحر والمدينة ، وبقاء الخزينة على الأكروبول ، وورود الجزية من الإمبراطورية ، ومواصلة تجارها وصناعها أعمالهم السلمية الناجحة ، وقيام حامياتها ومراكب الحراسة بحماية مياهها الإقليمية وسواحلها ، يمكن لأثينا أن تدع أعداءها يضربون أينما استطاعوا . وينبغى أن تقابل اللطمة دون أن تبالى ، ما لم يمسوا النقط الحيوية.[1]

أطاعت أثينا بركليس فى كل ما قاله . وردت على اسبرطة متحدية . وفى بداية الربيع التالى ، سار الفلاحون إلى المدينة ، تصحبهم أطفالهم ونساؤهم ، وكل ما بقى من متاع منازلهم حتى أخشابها ، وأرسلت الأغنام والدواب عبر البحار إلى إيوبيا والجزر المجاورة . واستقروا أينما استطاعوا فى أحياء المدينة المزدحمة ، وانتظروا ليروا ما قد يأتى به الغد.[2]

وما حدث كان بالضبط ما تنبأ به بركليس وأعد عدته . فقد تقدم جيش البلوبونيز البالغ ٣٠٠٠٠ رجل إلى أتيكا ، فى اللحظة التى نضج فيها القمح ، ناهباً مدمراً البلاد أينما ذهب ، ثم عسكر بضعة أسابيع فى السهل خارج أثينا واشتبك فى مناوشات قليلة مع فرق المدافعين من الخيالة الخفيفة . وأخيراً

---

(١) توكيديدس ، ١ — ١٣٩ — ١٤٤ . فيما يخص « سياسة إنهاك القوى » كمبدأ ستراتيجى ، أنظر بحث دلبروك (Delbrück) القيم Die Strategie des Pericles erläutert durch die Strategie Friedrichs des Grossen, الذى استشهد به Clausewitz ، لصالح بركليس ، وبالتأكيد قد وجد أدب صريح لكتاب متحمسين أرادوا أن يجعلوا بركليس على حق ، وإلى بعضهم يشير دلبروك . أما من حيث التدمير فقد أشار (ص ١١٠) ، إلى أن إحراق المنازل ، أمر بسيط ، أما تخريب حقول القمح والكروم فيكلف وقتا وتعبا . ففى العصور الوسطى اعتادت الجيوش أن تصطحب حاصدين لهذا الغرض . « إن قطع شجرة واحدة متوسطة الحجم حتى بأحسن الآلات ، يتطلب عدة ساعات » . وهذا يفسر كيف تمكن الأثينيون « من الاستمتاع بمحصولاتهم طوال فترة الحرب الأولى » ، إلى وقت احتلال ديكيليا . (توكيديدس ٧ — ٢٧ — ٤) .

(٢) توكيديدس ، ٢ — ١٤ إلى ١٧ .

« وبعد أن مكث فى أتيكا حتى فرغت مئونته ، انسحب إلى وطنه مخترقاً بيوتيا بطريق يخالف الذى جاء به » .[١]

وكانت هذه الأسابيع أسابيع مثيرة لأثينا . فلم يكن سهلا على الشعب الأثينى المتعالى ، أن يرى العدو على أبوابهم ، بل رابضا خلف أسوارهم . وقد كان على بركليس أن يستغل كل نفوذه ليكبح مشاعرهم ، حتى أنه مارس سلطانه كقائد ، وحال دون اجتماع الشعب صاحب السيادة فى اجتماعاته المعتادة كل شهر . وكان من جراء عدم انعقاد المجلس ، وهو صمام الأمان الدستورى أن « تألفت جماعات فى الشوارع وتشابكت فى مناقشات حادة .... وتنوقلت تنبؤات مضمونها على جانب كبير من الاختلاف ، وصادفت آذاناً صاغية .... وبالاختصار كانت المدينة كلها ثائرة إلى أقصى حد . وكان بركليس موضع حنق عام ، ونسيت كل نصائحه السابقة ، ونَدد به لعدم خروجه على رأس الجيش الذى كان يرأسه . وعد مسئولا عن كل ما يقاسيه الشعب » . وطبعاً كان بركليس قد توقع هذا التغيير فى مزاج الشعب ، ولذا فقد أعد له دواءه . فبينما كان الاسبرطيون ما زالوا فى أتيكا ، أرسل بركليس قوة بحرية من مائة مركب حول البلوبونيز ، لا لإحراز نصر معين ، لكن ليرد على وخز الإبر بوخز مثله ، وليحفظ روح المواطنين المتذمرين عالية . وزيادة على ذلك أطلق حراس الحرب النظاميين « براً وبحراً ، فى المراكز التى صمم على أن يقيم بها حراساً نظاميين أثناء الحرب » ، وبذلك أقفل الممتلكات الأثينية فى وجه سفن الأعداء » . ومنذ هذا الوقت حتى إعلان السلم كان يعتبر قرصاناً كل من يبحر هناك دون إذن من أثينا . وفيما بعد وفى نفس الموسم سمح لجنود الأسلحة الثقيلة بالخروج أيضاً . فأرسلت قوة كبيرة فى أول الخريف إلى ميجارا لتحقيق مطمعها فى الانتقام

(١) توكيديدس ، ٢ — ١٨ إلى ٢٣ . لقد كان فى أثناء إحدى هذه المناوشات أن مات قاطع الخشب الفريجى ، والذى ذكرنا النص المنقوش على قبره سابقا (ص ٣٣٣) . ويخبرنا توكيديدس فقط ، بأن الجيش البلوبونيزى كان مكونا من ثلثى الجيش العامل . وقد اتبعت تقدير ماير (٤ ، الفقرة ٥٤٥) .

بوطء حقول القمح وكروم جيرانها الجوعى . فاجتاحوا الجزء الأكبر من أراضيها ، ثم انسحبوا مصممين على إعادة الغزو كل عام . تلك وبضع حوادث صغيرة ، كانت أحداث الفصل الأول من الحرب.[١]

وبنهاية هذا الفصل استرد بركليس نفوذه وسلطانه كاملين . وفى الخريف وفى اليوم الثانى من نوفمبر ، يوم « جميع الأرواح » وبعد أن رجع الجيش من ميجارا ، اختير بركليس ليؤبن موتى العام . وهنا يتوقف توكيديدس عن قصته ليرينا ، بأى آمال سامية وبأى أمانى وضاءة ، طالعت أثينا وقائدها للعام الثانى من الحرب العظمى . فقوتها الإمبراطورية سليمة لم تمس ، تبدو منيعة للجميع . كما ظل حلفاؤها أصدقاء لها ، يربطهم بها قبولهم علائم الود من بطلة الحرية . فقد كانت أثينا فى معاملتها العامة والخاصة مدرسة اليونان ، وذلك بنظمها الحرة فى الحكم الذاتى وأخلاق مواطنيها الشخصية السامية . وقد كانت تنتظر فقط سلما نهائيا ، واعترافاً قاطعا بسيادتها لتجمع العالم المتمدين كله تحت سلطانها الدائم.[٢]

ويواصل توكيديدس بهدوء يكاد ألا يحتمل قائلا « هذا هو الاحتفال الجنائزى الذى أقيم فى أثينا هذا الشتاء ، والذى به انتهت السنة الأولى من الحرب . وفى أوائل أيام الصيف التالى ، غزا اللاسيديمونيون وحلفاؤهم أتيكا كما فعلوا من قبل . ومكثوا فيها وخربوا البلاد . ولم تمض أيام كثيرة على وصولهم إليها ، حتى أخذ وباء الطاعون يظهر بين الأثينيين . . . . إن كل تعليل يتصل بمصدره وأسبابه ، إن وجدت أسباب كفيلة بإحداث اضطراب كبير كهذا ، أتركه لكتاب غيرى . أما من جهتى أنا فسأقتصر على عرض طبيعته وشرح أعراضه ، التى ربما يمكن أن يتعرف عليها الطلبة ، إذا كان ليحدث مرة أخرى . وأنا أجيد هذا لأننى أنا نفسى كنت أحد المصابين به ، كما شهدت تأثيره فى الآخرين » .[٣]

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٢١ إلى ٢٣ ، ٦٧ آخر ، ٣١ .
(٢) توكيديدس ، ٢ — ٣٤ إلى ٤٦ ، أنظر ٦١ — ١ .
(٣) توكيديدس ، ٢ — ٤٧ إلى ٤٨ .

إن أعراضه الجسمانية لا مكان لها هنا ، فقد قاساها واحد من كل أربعة من السكان ، أى أن ربع القوة البشرية العزيزة فقدتها أثينا بهذا المرض ، ولم يبق إلا ثلاثة أرباعها ، إلا أن اهتمامنا هنا ليس بالجسم إنما بالروح ، بالمدينة لا بالمواطنين . لقد عوفى الأثينيون وصحوا ثانية، لكن أثينا نفسها لم تزدهر بعد ذلك ، أبداً . وطوال فصل الصيف القائظ حيث لا رياح تهب ، وطوال الشتاء الذى تلاه ، ثم اصيف آخر واشتاء يتلوه ، رفرف على أثينا ملاك الموت يقبض روح من يريد . وعند ما ذهب عنها أخيراً لأجل قصير ، استيقظت أثينا لتجد روحها قد وهنت . فالآمال القديمة وشعور القداسة والتنظيم الذاتى والمرح ، كلها حلم . وشغل مكانها الحماقة والجشع والشك ونظرة الحسد الخسيسة ، واليأس الواهن ، بل وكل شرور الانحلال . لقد استيقظت لتتبين حقائق وضعها ، فرأت نفسها فى النهاية طاغية لا داعية للحرية . بل لقد فقدت قدرتها القديمة على التفكير بهدوء وثبات ، وبآراء صائبة . ومنذ ذلك الوقت لم يكن ممكناً ، حتى ولا لبركليس نفسه الذى أضناه المرض ، أن ينهض بعقول مواطنيها أو يسمو بقلوبهم . « فلا خوف من الآلهة ولا قانون البشر يستطيع أن يردعهم ».[1]

يجب ألا نحاول تلمس تفاصيل تدهور السياسة الأثينية الطويل ، أى ما بين طابع المرثية ، عند ما كانت أثينا لا تزال المحررة ، وبين طابع حملة صقلية الكبرى ، حين وقفت تعترف بنفسها أنها إمبراطورية مغتصبة . فقد سجل توكيديدس ، بدقة متناهية وتهكم لاذع لا تجنى فيه ، كل دقائق هذه الفترة ، لأنه عاصرها بنفسه . وسنتركه يقص علينا القصة التى كان هذا الكتاب كله ، مقدمة لها . وكل ما بقى علينا هنا أن نبين الأهمية الكاملة لهذا التغيير ، وأن نشير فى النهاية إلى بعض معالم الطريق .

فلنصف قرن كامل رائع ، هو أغنى وأسعد فترة سطرها التاريخ لأية

---

(٢) توكيديدس ، ٢ — ٥٣ ، ٥٨ — ٣ ثم ٣ — ٨٧ ، ديودور ١٢ — ٥٨ — ٤ . وكان الوباء (الطاعون) قد عاد بشكل مريع فى شتاء ٤٢٧ — ٤٢٦ .

جماعة ، سارت السياسة والأخلاق ، أعمق وأقوى دوافع الحياة القومية والفردية ، سارتا قدماً متماسكتين إلى مثل أعلى مشترك ، هو المواطن الكامل فى الوطن الكامل . ويبدو أن غص هذا الطريق بكل ما هو سام فى الحياة البشرية : « الحرية والقانون والتقدم ، الصدق والجمال ، المعرفة والفضيلة ، الإنسانية والدين » . والآن لقد شطرتها الآلهة شطرين فى أحدهما الحرية والقانون والفضيلة والإنسانية وغيرها من القوى القديمة فى حياة المدينة ، بينما فى الآخر الجمال والمعرفة والتقدم ، وكل مظاهر المدنية الكبرى فى العالم الجديد ، وأمسك بمفتاحها « المال والقوة » . لقد فصلتها الآلهة بعضها عن بعض ، وأبقتها كذلك . والآن وقد انقضى ٢٣ قرناً ، وازداد العالم حكمة وعقلا فاقت كل ما تطلع إليه اليونانيون ، وازداد إنسانية أكثر مما كانوا يحلمون به ، كما بلغ ثراء أبعد مما كانوا ايرنون له يوماً ، ورغم هذا لم يقو الإنسان على توحيدها ثانية .

وقعت أثينا إذ ذاك فى حالة من الغضب والضعف الصبيانى . وبافتقادها مثلها العليا فى المستقبل أصابها اليأس حتى مما نالته منها . ويقول توكيديدس « لقد طرأ تغيير على روح الأثينيين بعد غزوة البلوبونيزيين الثانية . فأرضهم خربت مرتين ، واجتمع عليهم الحرب والوباء ، فأخذوا يلومون بركليس كسبب للحرب ، وأس كل بلاء حاق بهم ، وغدوا يتطلعون إلى الصلح مع اللاسيديمونيين . وفعلا أرسلوا سفراء إلى هناك ، لم يكن نصيبهم إلا الفشل فى مهمتهم . وبذلك اكتمل يأسهم وتجمع كل شىء على بركليس . فلما رآهم حانقين مما تطورت إليه الأمور ، ويتصرفون تماما كما توقع ، جمع المجلس بصفته أنه مازال القائد (وهو ما يجب أن نتذكره) وذلك لغرضين ، إعادة الثقة إليهم ، وليبعدهم عن هذه المشاعر الغاضبة ، وليجعلهم فى حالة أهدأ وأكثر أملا » .[1]

ولم ينجح فى ذلك إلا نجاحا جزئيا ، ولكن ما أكثر ما كلفه هذا النجاح !

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٥٩ .

فرغم أنه صرف عقولهم عن التفكير فى سلم مشين ، إلا أن ذلك كان يدفعهم دائما إلى طريق أخطر . فقد حاول معهم فى البداية أن يلجأ إلى الحديث عن النزعة الإمبراطورية القديمة . هذا الحديث الذى كثيرا ما لجأ إليه فى الأيام الأخيرة ليقوى من عزيمتهم . « لقد ولدتم مواطنين فى بلد عظيم ، ولكم أخلاق ومميزات جديرة بمولدكم ، فيجب أن تكونوا على استعداد لملاقاة أشد الكوارث ، وأن تحتفظوا مع ذلك باسمكم متألقا لاشية فيه » إلا أن هذا النداء وقع على آذان صماء . فالكلمات هى هى ، ولكن النظارة هم الذين تغيروا . فقال قائدهم محزونا ، « أنا الرجل نفسه لم أتغير ، ولكنكم أنتم الذين تغيرتم » ، ثم لجأ شأن كل خطيب عندما يكون الاجتماع خاملا كئيبا ، إلى نغمة أعنف وأكثر اندفاعا . « سأكشف لكم عن ميزة نشأت عن عظمة ممتلكاتكم ، وهى ميزة لا أعتقد أنها تراءت لكم من قبل فأنا لم أذكرها مطلقا فى حججى السابقة . إن لها لرنة قوية مدوية ، حتى أنى أكاد لا أجرؤ على ذكرها الآن ، لولا الكآبة غير الطبيعية التى أراها من حولى . ربما أنتم تعتقدون أن إمبراطوريتكم لا تخرج عن حلفائكم ، ولكنى سأكشف لكم عن الحقيقة . إن ميدان العمل المعروف ينقسم قسمين ، البرى والبحرى وأنتم متفوقون تماما فى قسم كامل منهما ، ليس إلى مدى ما المستوه حتى الآن فقط ، ولكن إلى أقصى حد يمكن أن تظنوه مناسبا . فصادركم البحرية تيسر لسفنكم الحرية أن تذهب حيث تريد ، فلا ملك أو أى شعب آخر على الأرض يمكن أن يقف فى سبيلها » . وهكذا كان من أقسى سخريات القدر أن غدا بركليس ، الحذر ذو النظرة الثاقبة ، بطل حرية البحار ، بل وحرية التعامل ، والذى كان يحذر أثينا طوال جيل بأكمله من خطر التوسع ، أن غدا أول من يدعوها إلى مذهب القوة البحرية العالمية المشئوم .[1]

وقد كان آخر خطاب عام يدون له . وكان عند قوله برما بالوباء محزونا

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٦٠ إلى ٦٤ .

أيضاً لفقد الأصدقاء ، وفقد آخر ابن شرعى له . وبعد ذلك بقليل فقد مركزه ، ورغم أنه استعاده فى الانتخابات التالية ، فلم يتح له العيش أن يستأنف سلطانه ، وإلى هنا ثم يختفى من تاريخ الحرب . « لقد عاش بعد قيامها سنتين وستة شهور » ، كما يقول توكيديدس ، « وبعد موته بدا للناس سداد نظرته فى الحرب » . ويقص بلوتارخس عن ساعاته الأخيرة قصة تبين بوضوح الأفكار التى كانت تجول بذهنه أكثر مما تبينها أحاديثه المدونة .

« عند ما أشرف على الموت التف حول فراشه أصدقاؤه وخلصاؤه المواطنون البارزون ، يتجاذبون الحديث عن مناقبه كرجل ، والسلطان العظيم الذى مارسه ، ويعددون مآثره المختلفة ومرات انتصاره ، فبينما كان قائداً أقام ما لا يقل عن تسعة نصب حربية للنصر تكريماً للمدينة . تحدثوا بهذه الأشياء متصورين أنه لا يتابع ما يتولون ، وأن قدرته على الفهم قد ذهبت . ولكنه تابع كل كلمة واستطاع أن يجيبهم قائلا : « إننى لأعجب من أنكم بينما تتذكرون أعمالى هذه وتمجدونها ، رغم ما كان للحظ من نصيب فيها ، ورغم أن قام الكثير من القادة غيرى بمثلها ، لم تبالوا بأعظمها وأمجدها . ألا وهى ما من أثينى أتشح أبدا بالسواد من جـــراء خطأ لى » . لقد مات بركليس وعلى شفتيه النبل من طبيعة الحرب »[1] .

بوفاة بركليس تغيرت الروح تغيراً كاملا . فالمجاملة والشجاعة والمثالية لم تعد جزءاً من حياة المدينة ، فناصحوها الجدد لم يأبهوا لأمر القـــواعد الأخلاقية ، ولم يبالوا بالأفكار السديدة ، فسواء كانوا حكماء أو حمقى فقد سلكوا طريقهم حسب ما تقضى به الظروف وما تمليه المصالح وحدها . فالمفاخر الإمبراطورية القديمة ، كاهتمام أثينا بالضعفاء ، والذود عن المظلومين لم تعد تثير نخوة الناس . ففى السنة نفسها أرسلت حليفتها البرية الوحيدة المخلصة ، پلاتيا ، التى شاركتها مراثون وحدها ، تخطرهم أن البلوپونيزيين على أبوابها ، فهل تخاطر بتحمل الحصار ؟ فعاد سفراؤها بهذه الرسالة ، التى صيغت فى أسلوب التعالى القديم : « يقول الأثينيون أنهم حتى هذا الوقت

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٦٥ ، بلوتارخس ، الفرس ، ٣٦ — ٣٨ .

لم يتخلوا عنا فى أية مناسبة ، ولن ينصرفوا الآن عنا ، ولكنهم سيساعدوننا قدر طاقتهم ، وهم يستحلفونكم بنفس الأيمان التى أقسمها آباؤكم أن تصونوا وتحفظوا الحلف سالماً دون تغيير » . ومراعاة للقسم أطاعهم البلاتيون . ولكن أثينا هى التى تغاضت عنهم ، إذ اعتبرت المخاطرة بالقتال غير ملائمة . فقد كانت أثينا منهمكة فى توسيع سلطانها البحرى ونشره فى البحار البعيدة ، ولا تستطيع الاستغناء عن المال والرجال . فقاومت بلاتيا سنتين على أمل ، بينما كان الأثينيون يجوبون البحار من كريت إلى كاريا إلى خليج كورنث . وأخيراً عند ما استسلمت بلاتيا جوعا ، أعدم من بقى من أهلها لاعتمادهم على وعود أثينا ، مع أن هذه المدينة الصغيرة لا تبعد إلا مسيرة يوم وليلة من حليفتها . فهى تقع على آخر المنحدر الجبلى الذى يحف بحدود سهل أثينا . ورغم كونها مخلصة فقد تسنى للأثينيين نسيانها ، وهم الذين كانوا يراقبون غروب الشمس وراء جبالها . ترى ما الذى كانوا يفعلونه لو ثبت عدم إخلاصها ؟ (١)

هذا ما لا يمكن أن نجيب عليه . فبلاتيا كانت مجرد حليفة ولم تكن من رعاياها ، أى ليست لها أهمية نقدية لأنها لم تكن ضمن دافعى الجزية . ولكننا نعلم نوع المناقشات التى كانت تدور إذا سحبت إحدى الرعايا ولاءها . فبعد موت بركليس بعـــام ، ثارت ميتيلين فجأة وهى من أغنى دول الإمبراطورية ، وإحدى القلائل التى ما زالت تؤثر أن تدفع الجزية سفناً لا نقداً . فتحركت أثينا بنشاط محموم وأرسلت أسطولا كبيراً . وسرعان

(١) توكيديدس ، ٢ — ٧٣ ، ٨٥ — ٥ إلى ٦ ، ٣ — ١٩ ، ٢٠ إلى ٢٤ ، ٥٢ إلى ٦٨ . تبعد بلاتيا عن أثينا حوالى ٣٠ ميلا على المنحدر الشمالى لجبل كيثابرون (Cithaeron) وتطل على سهل بيوتيا . وهى على مسيرة يوم حين من حصن أينو (Oenoe) الواقع على الحدود ، والذى ظل طوال الوقت فى يد أثينا (توكيديدس ، ٢ — ١٩ — ١ ، أنظر ٨ — ٩٨) . ولم تكد تسقط بلاتيا ، حتى بدأت أثينا تضع الخطط لغزو بيوتيا ، وبذا اكتشفت الأطماع مسلكا لم يكن الوفاء ليعرفه . توكيديدس ، ٣ — ٩٥ ، ٤ — ٧٧ . وكيثابرون يقع على مرأى من الأكروبول ، وفى ٢٤ يونية من كل عام تغرب الشمس وراء قمته تماماً .

ما وردت الأنباء بأن كل شيء على ما يرام . فقد استعاد حزب الشعب فى ميتيلين سلطته ، وأعلنت المدينة ولاءها . ودعى المجلس ليتخذ قراراً فى معاملة الثائرين ، وذكر لنا توكيديدس المناقشة ليرينا الروح الجديدة ماثلة.[1]

لم يكن الأمر نزاعا بين المثل العليا والاقتضاء ، فأحد لم يعد يهتم بالمثل الآن ، ولكن النزاع كان بين الحكمة والحماقة . فالناصح الذى كان له أكبر أثر فى أثينا الآن، كان رجلا برلمانياً يسمى كليون . ويصفه توكيديدس بأنه « أعنف رجال المدينة من كل الوجوه » ، هو تجسيم كامل لروح الحرب الهوجاء ، التى كانت تهوى بأثينا إلى الحضيض . وكانت نصيحة كليون بسيطة جداً : أن يعطى الحلفاء درساً فى الولاء ، بأن يعدم كل سكان ميتيلين . وحمل المجلس على إقرار ذلك . ولكن بعد التروى استؤنفت المناقشة فى جلسة تالية ، وساد الموقف ناصحون أثقب فكراً . فقرر المجلس أن من الأوفق ألا يعدم كل السكان ويكتفى بالزعماء . ويضيف توكيديدس وهو غاضب ، « ولقد تجاوز هؤلاء الألف » . والسبب الذى مال بالمدينة نحو هذا الحل الثانى كان مالياً ، لأن السعى وراء القوة البحرية العالمية ، ثبت أنه يستنزف خزينة المدينة . وقال المتكلم الفائز : يجب أن نشجع المدن على أن « تستسلم ما دامت لا تزال قادرة على رد المصاريف ودفع الجزية فيما بعد » . فلو قسونا على الحلفاء الثائرين ، فسنرغم كل مرة على تحمل « تكاليف الحصار ، وعند ما ننتصر لا نحصل إلا على مدينة مهدمة ، لا نستطيع أن نحصل منها أبداً ذلك الدخل الذى هو عماد قوتنا الحقيقية إزاء العدو » . لقد فقدت أثينا إنسانيتها ، لكنها رغم وجود كليون ، ما زالت تحتفظ ببعض بصيرتها .[2]

وبعد ذلك بعامين ، أى فى السنة السابعة من الحرب ، عاد الحظ فجأة ، كما يحدث أحياناً فى حروب اليونان ، فقد نجحت أثينا بتتابع جملة من

(١) توكيديدس ، ٣ — ٢ إلى ١٨ ، ٢٥ إلى ٢٨ .
(٢) توكيديدس ، ٣ — ٣٦ إلى ٥٠ .

الأحداث ، فى أن تعزل فرقة من المواطنين الاسبرطيين فى جزيرة بعيدة عن ساحلهم ، وفى موضع لا يمكن لقوة برية أن تخلصهم منه . ولما كانت اسبرطة تعانى نقصاً كبيراً فى مواطنيها ، وفى خوف دائم من ثورة الهيلوت ، لم تقو على التضحية بتلك الفرقة . لقد أخضعها الخطر ، فأرسلت الرسل إلى أثينا ملتمسة الصلح فى ذل وانكسار . وكانت الشروط التى قدمتها هى نفس الشروط التى نصح بركليس أثينا بانتظارها . فقد رضيت اسبرطة أن تلتزم الأمر الواقع بإخلاص ، وتعترف بحقيقة الإمبراطورية الأثينية ، وبالتالى سيادة القوة البحرية على القوة البرية . وقد ناشد مبعوثيها مجلس الشعب بقولهم : « إن اللاسيديمونيين يدعونكم لعقد معاهدة ، وإنهاء الحرب . ويقدمون لكم السلام والمحالفة ، وأخلص العلاقات الوثيقة الحبيبة فى مختلف النواحى » . ولم يخامرهم أى شك مطلقاً فى قبول هذه العروض . فالحرب قد طالت أكثر من المعتاد ، ولم تسأم اسبرطة وحدها حالة الحرب ، بل سئمها كل اليونانيين ، وزيادة على ذلك فهم يدركون ، أو يستطيعون التكهن ، كم كان الأثينيون يشعرون بالعناء لفقد الرجال والأموال . « فإذا كان السلم مبغياً لكلا الطرفين فى وقت ما ، فمن المؤكد أن هذا هو وقته ، قبل أن يقع بيننا شىء لا يغتفر ، وقبل أن تنقلب عداوتنا العامة إلى عداوة شخصية مريرة »[1]

ولنشترك مع الشعب صاحب السيادة فى مناقشاته قبل أن يجيب ، لنرى إلى أى جانب يميل الميزان ، إلى الحرب أم إلى السلام .

لقد قضوا الآن تسعة فصول فى حرب منذ موقعة كورسيرا ، وكان الأمر أولا مجرد دفاع إلا فى غزوات الصيف . ولكن فيما بعد ومنذ موت بركليس ، انقلب الأمر إلى هجوم أيضاً . فاحتفظوا بالمراكب فى البحار

---

(١) توكيديدس ، ٤ — ٣ إلى ٢٠ ، وبخاصة ٢٠ — ١ . إن كلمة ἀνήκεστος كلمة قاسية للغاية بمعنى « لا علاج له » أو « لا يغتفر » ، ولا تعبر إلا عن ظل من معناها الدينى الكامل ، فهى متصلة بالفكرة القديمة لجريمة إراقة الدم أو التدنس بالقتل ، أنظر ص ١٠٠٧ وما بعدها فيما سبق ، وسوفوكليس ، O. T. ، ٩٨ .

شتاء ،خارج مياههم الإقليمية ،وأرسلوا فرقاً من الجنود إلى ميادين بعيدة ، إلى أيتوليا وحتى إلى صقلية . فكيف أمكن لهذه السنة آلاف تلنت المحفوظة فى الأكروپول أن تفى بكل هذه الطلبات غير العادية ؟

لحسن الحظ أننا نستطيع أن نقدم إلى مستمعى كليون قائمة بالمصروفات أكملت من بقايا نصوص دفع أجور القواد ، وهى بنود الصرف الرئيسية فى الغزوات ، فيما عدا مصاريف بناء السفن وغيرها من الزيادات . وكانت كما يأتى :

عام ٤٣٣	كورسيرا	٣٠ تلنتا
« ٤٣٢	حملة تراقيا	١٠٠ تلنت
	حصار پوتيديا (ابتداء من سبتمبر)	٥٠٠ »
« ٤٣١	» »	١٠٠٠ »
	١٠٠ سفينة حول الپلوپونيز (من يونيه إلى سبتمبر)	٢٠٠ »
	٣٠ » إلى لوكريس (» » » »)	٣٠ تلنتا
« ٤٣٠	حصار پوتيديا	١٠٠٠ تلنت
	١٥٠ مركباً إلى الپلوپونيز (يوليه) ثم إلى پوتيديا (حتى سبتمبر)	٢٢٥ تلنتا
	(وهنا اعتزل بركليس الحكم)	
	٢٠ مركباً إلى ناوپاكتوس (طوال الشتاء)	٤٠ »
« ٤٢٩	٤٠٠٠ جنـــدى مسلحين بأسلحة ثقيلة ، و٤٠٠ حصان تراقى حتى يونية	١٢٠ »
	٢٠ مركباً فى ناوپاكتوس برئاسة فورميو ، ربيع ٤٢٩ إلى ربيع ٤٢٨ .	١٢٠ »
	٢٠ مركبا مرسلة إلى فورميو عن طريق كريت (أكتوبر ٤٢٩ : إلى ربيع ٤٢٨) .	٤٠ »

عام ٤٢٨	٤٠/ مركباً مسلحة للپلوپونيز أرسلت إلى ميتيلين (بأجر دراخمة واحدة)	١٥٠ تلنتا
	٣٠ مركباً انقصت فيما بعـــد إلى ١٢ حول ناو پاكتوس .	٣٠ »
	١٠٠ مركب إلى آسيا الصغرى .	١٠٠ تلنت
عام ٤٢٨	(شتاء) ٥٠٠٠ جندى مسلحين بالأسلحة الثقيلة لحصار ميتيلين .	٢٠٠ »
	١٢ مركباً فى ناو پاكتوس	٢٤ تلنتا
عام ٤٢٧	حصار ميتيلين (إلى يوليو)	٢٠٠ تلنت
	٦٠ مركباً إلى كورسيرا (أغسطس)	٣٠ تلنتا
	١٢ » إلى ناو پاكتوس	٧٥ »
	٢٠ » إلى صقلية (الأجر دراخمة واحدة)	١٠٠ تلنت
عام ٤٢٦	(حتى يوليو) ١٢ مركبا فى ناو پاكتوس	٢٤ تلنتا
	٢٠ مركبا فى صقلية	٨٠ »
	مبالغ قدمت للقادة فى صقلية	٤٨٠ »
	٢٠٠٠ جندى مسلحين بالأسلحة الثقيلة و٦٠ مركبا تحت قيادة نيكياس	٣٥ »
	٣٠ » وفرق من الجنود تحت قيادة ديموستنيز إلى أيتوليا	٦٥ »
	المجمـــوع	٤٩٩٨ تلنتا.[1]

(١) فى الحقيقة ، كان تقدير كاڤينياك ، ص ١٢٠ — ١٢١ ، معتدلا للغاية ، إذ يحسب الدفع على أساس ثلاث أوبلات ، إلا إذا نص على العكس. وأعتقد أن سعر الدراخمة الواحدة ، الذى يذكره توكيديدس ، ٣ — ١٧ — ٤ ، كان سعرا معتادا . فقد كان الأجر العادى لعمل يوم فى ذلك الوقت . وزيادة على ذلك فإن الجندى فى السلاح الثقيل فى پوتيدايا كان يأخذ أجره درختين ، درخمة له ودرخمة أخرى لتابعه . ومن جهة أخرى فإن ثلاثة أشهر ، ربما تعد فترة طويلة بالنسبة لحساب حملات الصيف عام ٤٣١ .

فى بداية الحـــرب أقنع بركليس الشعب أن يضع جانباً ١٠٠٠ تلنت من الـ ٦٠٠٠ تلنت التى فى الخزينة ، وأن يقرر ألا تمس إلا فى آخر لحظة ، وذلك إذا ما عانت أثينا هزيمة فى البحر ، وتقدم أسطول الأعداء نحو بيريه ، ومن يخالف ذلك له الموت . وقد صرف من الـ ٤٧٠٠ تلنت الباقية جزء كبير أثناء قيادته ، وذلك لقمع الثورة فى پوتيدائيا ، وهو أمر كان لا بد منه . لقد سعت أثينا إذن للحصول على السيطرة البحرية العالمية بموارد ضئيلة للغاية ، لا فى الرجال فقط ، بل وفى المـال أيضاً.[١]

وقبل ذلك بثلاث سنوات أى فى ربيع عام ٤٢٨ ، على أثر توارد الأنباء عن ثورة ميتيلين ، رأت أثينا نفسها فى ضيق مالى. فقد احتاجت إلى مال لأسطولها قبل ميعاد وصول جزية هذا العام إليها . وقابلت الأزمة بأن عمدت إلى حيلة غير مألوفة وهى فرض ضريبة مباشرة على مواطنيها . فزيد ٢٠٠ تلنت على القيمة الأساسية لممتلـكات المواطنين . ومن المحتمل أن يكون ذلك بنسبة ١ فى المائة . وفى السنة نفسها حل ميعاد إعادة النظر فى الجزية التى يدفعها الحلفاء ، وهو ما يجرى كل أربع سنوات . وبفضل التوجيه الحـكيم من الرجال الذين أنقذوا دافعى الضرائب فى ميتيلين ، أحدثت تغييرات طفيفة ، ولـكنها تركت المجموع فعلا دون تغيير . فقد ظل عالياً بالقدر المناسب ليـكون مأمونا ، وبتكاليف قليلة ، فالوقت العصيب ، ليس بالوقت الذى يمـكن أن يخاطر فيه بقيام ثورات أخرى .[٢]

ومر عامان على ذلك ، وما زال لدى أثينا ما تنفقه . والآن عرض السلام لا مصحوبا بالشرف وحده ، ولـكن مشفوعا أيضاً بالاعتراف بالنصر . لقد سمعنا قول رسل اسبرطة . فبماذا أجاب القوم ؟

---

(١) توكيديدس ، ٢ — ٢٤ ، أنظر ، ٨ — ١٥ ، وأرسطو ، .Lys ، ١٧٤ .

(٢) توكيديدس ، ٣ — ١٩ ، كاڤينياك ، ص ١٢٥ . إن القرض المزعوم من السلطات المحلية ، الذى ذكر فى الطبعة الأولى من هذا الـكتاب ، مع إشارة الى هيكس وهيل ، رقم ٥٨ ، كان قائما على أساس حرف واحد فى نص قرأه والهلم على نحو مختلف [ἀ[ποδεκτôν بدلا من [δ[ημαρχôν . أنظر ص ٧٧٥ من Göttingische Gelehrte Anzeigen ، ١٩٠٣ .

يقول توكيديدس «إن الأثينيين وفى قبضتهم الرجال محاصرين بالجزيرة، اعتقدوا أن المعاهدة رهن إشارتهم ، تبدأ فى اللحظة التى يختارونها ، وكانوا فى وضع جعلهم يطمعون فيما هو أبعد . وكان أبرز المشجعين لهم على ذلك كليون بن كليانيتوس ، وهو خطيب معروف فى ذلك العصر وله تأثير على الجماهير ». فطلبوا تحت تأثير كليون شروطا مستحيلة . ولم يرفضها الرسل ولكنهم أظهروا صحة عزيمتهم ، بأن أجابوا فى تعقل واتزان : « سألوهم أن يختاروا نوابا عنهم يمكنهم أن يتفاهموا معهم ويناقشوهم نقطة نقطة ، حتى يبحثوا الموضوع فى هدوء ، ويحاولوا الوصول إلى اتفاق » . وبذلك استغاثوا من فيليب الثمل بفيليب الواعى ، من الشعب صاحب السيادة فى المجلس العام ، بالشعب صاحب السيادة فى اللجنة . وهذا أعطى البرلمانى فرصته . « لقد أدرك من أول الأمر ، كما قال ، أن نيتهم لم تكن صادقة ، وقد ظهرت الآن واضحة تماما للجميع . لقد خجلوا من أن يتكلموا أمام الشعب مفضلين التفاوض سراً مع اثنين أو ثلاثة . كلا ، إن كانوا يعنون شيئاً شريفاً فليقوموا به هنا أمام الجميع » . وكان له رأيه طبعاً . « أما اللاسيديمونيون وقد رأوا أنه مهما بلغ استعدادهم للاتفاق على انكسارهم ، فيستحيل عليهم أن يتكلموا أمام الجمهور فيفقدوا ثقة حلفائهم فى مفاوضات قد لا ينجحون فيها بعد كل هذا . ومن جهة أخرى ، إن الأثينيين ان يجيبوهم إلى ما يسألونهم إياه بشروط معتدلة . إنهم وقد رأوا كل هذا ، عادوا من أثينا إلى وطنهم ، دون أن تنجح مأموريتهم » . وهكذا عندما جاءها النصر ، أغمضت عنه أثينا عينها دون ما اكتراث . ولم تقربها ثانية الآلهة المتقلبة ذات الأجنحة »(١) .

لقد غدا كليون الآن زعيمها المعترف به ، وكان عنفه الأحمق سوء طالع لها . فإذا ما أراد المواطنون أن يعيشوا فى تكاسل لا يقطعه إلا مناوشات الحروب البحرية ، فمن السهل توفير المال . فما من داعى لجمعه

(١) توكيديدس ، ٤ — ٢١ ، ٢٢ .

من الوطن ما دام هناك كنز وراء البحار يمكن الحصول عليه منه إذا ما أريد ، « من البحر الأسود إلى سردينيا » . فمنذ ذلك الوقت لم يدفع الأثينيون ضرائب حرب . فقد دلهم كليون على طريقة أفضل . فليدفع رعاياهم الكسالى فى الشرق والغرب لقاء تمتعهم بالحكم الأثينى . وفى خريف هذا العام نقضت أثينا وثيقة امبراطوريتها ، أى ذلك العقد الذى عقده منذ جيلين أرستيدس العادل بين أثينا وحلفائها ، وذلك بأن ضاعفت الجزية.[1]

وقد بقيت لنا أجزاء من قوائم الجزية المعدلة هذه ، ولدينا المبالغ التى دفعها الأعضاء ، والمجموع الكلى والكثير من تفاصيل التقييدات الحسابية . فلنعرض أولا حساب الإثنى عشر الأولى فى إقليم الجزائر ، واضعين القيم القديمة مع الجديدة حتى نبين اتجاه كليون فى العمل.[2]

باروس	٣٠	تلنتا	بدلا من	١٦	تلنتا	أى	١٢٠٠ درخمة
ناكسوس	١٥	»	»	٦	تلنتات	»	٤٠٠٠ »
أندروس	١٥	»	»	٦	»		
ميلوس	١٥	»					
سيفنوس	٩	»	»	٣	»		
إريتريا	١٥	»	»	٩	»		
ثيرا	٥	»	»	٣	»		
كيوس	١٠	»	»	٤	»		

(١) كاڤينياك ، ص ١٢٨ ، أنظر ١٢٤ و ١٣٢ (انتهاء ضريبة الحرب) ، وانظر أيضا ، Wasps ، ٧٠٠ ، ثم أنظر فرانكوت ، Finances ، ص٩٩ و ١١٥ .

(٢) I. G. ١، ٣٧ — ١ ، الذى طبع فى هيكس وهيل ، رقم ٦٤ ، وجزء منه فى كاڤينياك ، ص ١٢٨ . العنوان هو Τάξις φόρου ، والمجموع ٩٦٠ ، مقابل ٤٦٠ التى ذكرها أرستيدس (ارتفع الى ٦٠٠ دراخمة بالتعويض الذى تدفعه ساموس الخ ، أنظر الملاحظة ص٥٠٦ فيما سبق) . لم يذكر ثوكيديدس تقديرا للضرائب ، ولكن أنظر ، ٤ — ٥١ فيما يخص قلق خيوس الذى نتج عن ذلك .

كاريستوس	٥	تلنتات	بدلا من		٥	تلنتات
خالكس	١٠	»	»		٦	»
كيثنوس	٦	»	»		٣	»
تنوس	١٠	»	»	٥	٣	» »

ويلفت نظر القارئ مبلغ واحد . فلماذا لم يكن لميلوس نسبة معينة فى القائمة الأولى ؟ ذلك لأن هذه الجزيرة ، هى الوحيدة بين جزر الأرخبيل التى استطاعت أن تحتفظ بحيادها . فلم تكن فى حاجة إلى حماية أثينا ، ولم تثر مطلقا عداوتها ، ومن هنا سمحت لها أثينا بأن تظل خارج شبكة نفوذها البحرى فى بحر إيجا . وكانت جزيرة صخرية صغيرة، سكانها من يحافظون على التقاليد الدورية التى يرجع تاريخها إلى سبعمائة سنة متصلة الحلقات . ولم يخطر ببال أحد أنها تستحق إرسال حملة إليها ، حتى أدخلها كليون المالى العظيم فى قائمته المعدلة.[1]

وأدرج فى القائمة سكان تلك الجزيرة تسع سنوات ، دون أن يدفعوا شيئا . وأخيراً فى عام ٤١٦ أثناء فترة سكون مؤقت تخللت تلك الحرب التى لا تنتهى ، تذكرت أثينا مالها من متأخرات لم تدفع ، وصممت على تحصيلها بالقوة . فأرسلت بعض القوات إلى الجزيرة ، وبعث قوادهم بالرسل إلى المدينة يطلبون الأموال ، وتبودلت الآراء بين زعماء الجزيرة وزائريهم . وتخير توكيديدس هذه الفرصة ليعبر فى قوة متناهية وتهكم مر ، عن روح الحرب السائدة فى ذلك العصر . قال الأثينيون بهذه الصراحة الباردة ،

---

(١) توكيديدس ، ٥ — ١١٢ — ٢ . ليس هناك اقتراح ما، لا فى توكيديدس ، ولا لأى كاتب آخر من كتاب القرن الخامس ، بأن أهل ميلوس قد استغلوا حيدتهم فى القيام بأعمال القرصنة أو التهريب . وبالرغم من فقر بلادهم ، وبالرغم من مناشم الصالحة التى يكتنفها البر ، فقد ظلوا مزارعين مثل زملائهم الدوريين فى كريت . وقد تمكن المنقبون الإنجليز من التعرف على مكان سوق مدينتهم . فهو يقع فى أعلى نقطة فى المدينة (وهى تقع على سفح تل وعر) فى موقع مناسب للتعامل مع الداخل لا مع الميناء(.J. H. S، الجزء ١٧ ، ص ١٣١، .B. S. A، الجزء الثانى ، ص ٧٧ وما بعدها مع الصور) ، ومن المحتمل أن تكون هذه هى الأجورا (أى السوق) المذكورة فى توكيديدس ، ٥ — ١١٥ .

التى أصبح متكلموهم العموميون يفاخرون أن يتحلوا بها : « لن نضايقكم بادعاءات مموهة . لا عن كيف أن لنا الحق فى إمبراطوريتنا ، لأننا قد طردنا الفرس وهزمناهم ، ولأننا نهاجمكم الآن من أجل خطأ ارتكبتموه ضدنا . فأنتم تعرفون بقدر ما نعلم نحن أن الحق ، ما عاشت الدنيا ، لا يكون موضع بحث إلا فيما بين المتساوين فى القوة ، وللأقوياء أن يعملوا ما يستطيعونه ، وعلى الضعفاء مقاساة مالا بد لهم من مقاساته » .

فأجابهم أهل ميلوس ، « ومهما يكن من شىء ، فنحن نرى أنه من الأوفق ألا تقوضوا ما هو أمننا المشترك ، أى الحق فى التماس ما هو عدل وحق ساعة الخطر . وبالتأكيد يهمكم هذا ، كما يهم أى شخص آخر ، إذ أن سقوطكم سيكون إيذاناً بأشد انتقام ، كما سيكون مثلا للعالم كله » .

ورد الأثينيون بقول متعالى كأنما يتحدون به الآلهة فى عليائها ، « نحن لا نشعر بأى قلق من أجل إمبراطوريتنا ، حتى وإن كان لا بد لها أن تنتهى ، فإمبراطورية زميلة كإمبراطورية لاسيديمونيا — وإن لم تكن عدوتنا الحقيقية ، ليست بالإمبراطورية التى تثير المهزوم ، إذا ما كان الرعايا أنفسهم يعرفون كيف ينقدون حكامهم بل ويبذونهم . وهذه على أية حال مخاطرة نحن أهل لها » .

فسألهم أهل ميلوس ، « بالله عليكم كيف أنه من صالحنا أن نكون رعايا لكم ، بقدر ما هو من صالحكم أن تكونوا حكامنا ؟ » .

« لأنكم ستحظون بالخضوع دون معاناة ما هو أقسى ، وسنغنم نحن بعدم إزالتكم من الوجود » .

« وهل يرى رعاياكم فى هذا سياسة عدل — فى أن يساووا الأجانب والمحايدين بدول ، بعضها هى مستعمراتكم ، بل إن بعضها الثوار المقهورون ؟ » .

فأجابت القوة البحرية ، « ما بقى عدل ، فرعايانا يعتبرون أن لكل الحق فيه بقدر الآخر ، أى إذا ما احتفظ أحد منهم باستقلاله فذلك لقوته ، وإذا

نحن لم نناوئهم فلأننا جبنـــاء . وهكذا فزيادة على أننا سنوسع من إمبراطوريتنا فإننا سنزداد أمناً بإخضاعكم ، وكونكم أهل جزر ، وأضعف من غيركم ، يؤكد أنكم لن تنجحوا فى مضايقة سادة البحار » .

« لكننا نعلم أن حظ الحرب يكون أحياناً أكثر عدالة مما يجعلنا نتوهم عدم التناسب فى العدد . فالخضوع هو تسليم بالهزيمة بينما ما زال لنا فى المقاومة الأمل فى النصر » .

فكان الرد النبوى « إن إلهة الأمل لعزاء خطر . فليتعلق بها أولئك الذين لهم موارد موفورة . فهى قد تضيرهم ولكنها لن تقوى على القضاء عليهم . إن التغرير لفى طبيعتها ، وعند ما يراهن البشر بكل ما لديهم على اعتماد عليها ، فإنهم لن يعرفوا حقيقتها إلا ساعة الخطر » .

« كونوا على يقين من أننا نعلم بقدر ما تعلمون ، الخطورة التى تنجم عن منازعتكم النفوذ والسلطان ، ما لم تكن القوى متعادلة . ولكننا نأمل أن تتيح لنا الآلهة حظاً طيباً مثلكم ، ما دمنا رجالا عادلين نحارب ظالمين » .

وأثار الالتجاء إلى الدين والأخلاق ، ملجأ الجزريين البسطاء الأخير ، اهتمام زوارهم الذين جاءوهم من العالم الكبير . لقد تعلموا فلسفتهم فى مدرسة جامدة ، فى ميدان العمل والتجربة ، لا فى المعابد المتواضعة لجزيرة نائية . لقد كانوا رجالا عمليين وسياسيين ازدهوا بمواجهتهم الحقائق . وهكذا بسذاجة الرجل العقلى الساخرة ، وهو يعظ ابن عمه القروى بأن يرعى العقل والحكمة ، انتهوا إلى نشر المذهب الذى كانت تدين به أثينا المستنيرة إذ ذاك ، بل لقد كان أكثر من مذهب ، لقد كان ناموس الحياة . لذا فمن الأفضل لنا ، كما كان لميلوس ، أن أبانته بصراحة : « عند ما تتحدثون عن فضل الآلهة ، فإن لنا أن نأمل فى ذلك كما تأملون ، فلم تكن إدعاءاتنا ولا مسلكنا بأى حال عكس ما يعتقده الناس فى الآلهة ، ونعرف عن البشر أن طبيعتهم تدفعهم إلى أن يسودوا أينما استطاعوا . ولسنا أول من وضع هذا القانون ، ولا أول من سار عليه بعد أن وضع فقد وجدناه

فى الدنيا ، وسنتركه فيها بعدنا . وكل ما نفعله أننا نفيد منه عارفين أنكم أنتم وكل إنسان غيركم ، ستفعلون ما نفعله لو أوتيتم نفس القوة التى أوتيناها . وهكذا فإننا لن نخشى شيئاً ما دام الأمر يتعلق بالآلهة » .[١]

وانسحب الأثينيون من المؤتمر تاركين أهل ميلوس يتباحثون وسرعان ما أعلن قرارهم : « يا أهل أثينا إن قرارنا هو نفس ما قررناه فى البداية . فلن نحرم الحرية فى لحظة ، مدينة شهدت الحياة الحرة ٧٠٠ عام . إننا نضع ثقتنا فى القدر الذى به حماها الآلهة حتى الآن ، وفى مساعدة الرجال، أى اللاسيديمونيين . وهكذا سنحاول وننقذ أنفسنا » .

ولم تخف الآلهـــة لمساعدتهم ولا البشر . فقد صمدوا طوال الخريف وقاموا بهجومين ناجحين . وأخيراً فى الشتاء أرسل المحاصرون افى طلب النجدة « لقد اشتد الحصار إذ ذاك ، وبقيام خيانة فى الداخل سلم أهل ميلوس بمحض إرادتهم » . ولما كانت أثينا قد ازدادت إذ ذاك خبرة بالأمور الدنيوية ، فلم تكن لتكرر حلمها فى ميتيلين : « فأعدم الأثينيون كل الرجال وباعوا النساء والأطفال كعبيد ، ثم أرسلوا فيما بعد بخمسمائة مستعمر واستوطنوا هم المكان» .[٢]

وهكذا لم تدفع ميلوس ضريبة لأثينا أبدا . إلا أن القمح نبت مرة أخرى فى أوديتها الصغيرة . وجلس الرجال فى سوق مدينتها يشربون النبيذ الحلو الوارد من سفوح تلالها .

وحيث أريقت دمـــاء بنيها تدلت السنابل مثمرة

ما أسرع ماتنسى الأرض الخضراء ، فوحدها الآلهة

---

(١) توكيديدس ، ٥ — ٨٥ إلى ١٠٥ . لقد اختصرت المحادثة كثيرا ، ولـكنى لم أتعب القارىء بتعيين ما حذفته . أما الترجمة فجلها من ترجمة كراولاى (Crawley) .

(٢) توكيديدس ، ٥ الآخر . تذكر عند قراءة هذا الجزء من توكيديدس أن التقسيم إلى كتب ليس تقسيمه . أنظر .I. G ، ١٢ — ١١٨٧ بخصوص نص مقدم من أحد أهالى ميلوس خان مدينته ، فمنح الرعوية الأثينية لخدماته . (أنظر التذييل) .

لا تنسى : إنمـــا تضرب

بلا رحمـــة ، والمثـــل بالمثل أبدا.

بذاكرتها القوية اشتهرت الآلهـــة.

وحيث أن المدينة الإمبراطورية ما زالت طامحة ، فقد تطاعت إلى فريسة أفضل منها ، من جزيرة صغيرة فى الشرق إلى أكبر منها فى الغرب . فبعد ستة شهور من تخريب ميلوس ، أقلعت الآرمادا العظيمة صوب صقلية .

تذييـــل

صفحة ١٢ هامش :

« يقول المستكشف الفرنسي الكوماندر بنجر (Commander Binger) ، إن عدم وجود الملح كان من الأسباب التي عاونت على رواج تجارة الرقيق في إقليم نهر النيجر الأعلى ، فقد كان الملح يرد من الشمال ونظراً لعدم وجود منتجات يمكن نقلها رضي باعة الملح أن يقبلوا العبيد ثمناً لبضائعهم » . لوجارد (Lugard) ، The Dual Mandate in Tropical Africa ، ص ٢٦٦ . أنظر كذلك موسوعة Pauly ، مقال الملح (١٩٢٠) .

صفحة ١٥ :

أيدت الاستكشافات الحديثة الرأي القائل أن الغموض الذي أحاط به القرطاجينيون نشاطهم ، كان السبب في تلك المسحة الخرافية التي تجلى بها المحيط الأطلسي لليونان في العصر الكلاسيكي . أنظر ، A. Schulten في Fontes Hispaniæ Antiquae ، الجزء الأول ، Avienus (برشلونة ، ١٩٢٢) و Tartessos في ein Beitrag zur ältesten Geschichte des Westens (هامبورج ، ١٩٢٢) ويرى Schulten أن الـ Ora Maritima لأفينوس (القرن الرابع بعد الميلاد) يتضمن معلومات قيمة مأخوذة عن الجغرافيين اليونان الأول ، ولا سيما ما نقل عن الملاحة (περίπλους) لكاتب من مرسيليا كان يعيش في القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وأن الأتلانتس كانت ذكريات أسطورية عن استعمار الفوكيين لطرطوس (Cadiz ، أي قادس) ، وقد محى القرطاجينيون فيما بعد هذا الاستعمار واجتثوا آثاره . وإني أدين بهذه الملاحظة إلى مقال كتبه Fritz Netolitzky في أول عدد من Cultura ، (يناير ، ١٩٢٤) ، وهي مجلة تصدر في Cluj بترانسلفانيا ، باللغات الرومانية والمجرية والألمانية والفرنسية ..

ويذهب نيتوليزكى هـذا بعيداً فى قوله بتعريف أتلانتيس بأنها جزيرة Santipetri التى تبعد عن قادس ١٢ ميلا جنوبا . قارن الصعوبات التى تعرض لها ملاح إنجليزى عند توغله شرقا من الأتلانتيك . ولقد كان روبرت استورمى (Robert Sturmy) وهو من أهالى برستول ، أول إنجليزى سجلت مخاطرته فى سنة ١٤٥٨ إلى الشرق ، على ظهر مركب انجليزى ، وقد أسره أناس من جنوة ، وسلبوه ما معه أثناء إيابه إلى وطنه ، إذ نمى إليهم أنه يحمل فلفلا أخضرا وأنواع أخرى من التوابل ، لزراعتها واستنباتها فى انجلترا ، وبذلك يمكن لبلاده من الاستغناء عن التجارة الإيطالية : أنظر وليمسن (Williamson) فى A Short History of British Expansion ، ١٩٢٢ ، ص ٢٨ . أما بخصوص أول ظهور البحرية البريطانية الحديثة ، (ولـكن ليس على نحو مشرف جداً) ثم فيما بعد ظهور القوة البحرية البريطانية فى البحر المتوسط ، راجع التقرير الرائع الذى ضمنه Corbett كتابه England in the Mediterranean ، الجزء الأول ، الفصل الثانى وما بعده .

صفحة ٢٥ :

بحسب رأى Rostovtzeff فى Iranians and Greeks in Southern Russia ، (أكسفورد ، ١٩٢٢) ، فإن المستعمرات اليونانية فى القرم مثل فاناجوريا (Phanagoria) ونمفيـوم (Nymphaeum) وبانتيـــكاپايوم (Panticapaeum) قد أسست لاستغلال مصايد الأسماك فى بحر آزوف ومضيق كيرتش (Kertsch — بسفور القرم) . « ولنفس هذا السبب أنشئت مستعمرة لصيد السمك على مصب نهر الدنيبر ونهر بج (Bug) ، وتسمى تلك المستعمرة أولبيا (Olbia) وكان لها فرع فى جزيرة برزان (Berezan) » التى تقع على مصب الخليج (ص ٤٤) . « وفى أثناء القرنين الثامن والسابع ق . م . احتلت طوائف الصياديين من الميليزيين مصاب الأنهر الـكبيرة التى على هذا الطريق ، الواحد تلو الآخر ، وهى مصاب الدانوب والدنيستر وبج والدنيبر » (ص ٦٣) .

صفحة ٢٩ :

أعطى Rostovtzeff فى كتابه المذكور ، بيانا شاملا للمستعمرات اليونانية فى الجزء المتاخم المذكور فى النص ، وعن علاقات تلك المستعمرات مع سكان سيثيا (Scythians) فى الداخل وما يتبعهم من شعوب .

صفحة ٥٩ :

من الطريف أن نلاحظ أن العزلة، غريبة عن الأمريكيين أكثر منها عن التدابير التقليدية البريطانية . فالمدن الأمريكية بحدائقها التى لا حوائط لها ولا سياج حولها ، أقرب فى طلاقتها الديموقراطية إلى المدن اليونانية منها إلى المدن الإنجليزية .

صفحة ٧٦ :

فيما يخص أثر الهند فى أفلاطون أنظر Urwick فى The Message of Plato ، ١٩٢٠ ، الذى بنى تأويله « للجمهورية » على أساس الفكر الدينى الهندى . ولسوء الحظ قد أرغمه ضيق المقام أن يحذف «بحثا طويلا فى السبل التى دخل عن طريقها الفكر الهندى إلى اليونان فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد » ، ولذا فإن حجته تقوم على شواهد داخلية فقط .

صفحة ٨٦ :

يجب أن نذكر البحث الذى قام به كالهون (Calhoun) والذى لم ينشر حتى (١٩٢٤) ، عن تطور القانون الجنائى فى اليونان ، وقد لخص المؤلف عدة فصول من هذا البحث فى Proceedings of the Classical Association ، الجزء الثامن عشر (١٩٢٢) ، ص ٨٦ وما بعدها .

صفحة ٩٣ :

راجع الآن أيضا نص كالهون المشار إليه ص٩٣، بخصوص إثبات هذا البيان بوجه عام .

صفحة ٩٥ :

فيما يختص بالرجل الذى لا أرض له أنظر جلوتز فى Le Travial dans la Grèce ancienne ، باريس ، ١٩٢٠ ، صفحة ٣٧ وما بعدها ، وهو كتاب رائع ، ولا يعيبه سوى عدم ذكر المراجع .

صفحة ١٢١ :

فيما يخص تاريخ اسبرطة القديم أنظر أيضاً Toynbee فى J. H. S. ، ١٩١٣ ، ص ٢٤٦ وما بعدها ، ثم المختصر المفيد لنتائج البحث الأثرى والتاريخى الذى كتبه Woodward فى مجلة History ، أكتوبر ١٩٢٣ . أما فيما يختص بنظام اسبرطة الدستورى فى العصر التاريخى فانظر Kahrstedt فى Griechisches Staatsrecht ، الجزء الأول (جوتنجن ، ١٩٢٢) وكله تقريباً مخصص لاسبرطة . أما قيام فقهاء القانون أمثال Vinogradoff و Calhoun و Kahrstedt بالكتابة فى ميدان دولة المدينة اليونانية ، وهى كتابات كان يجب أن تتم منذ زمن طويل ، فتعد أهم مميزات الدراسات اليونانية فى السنوات العشر الأخيرة . هذا التقدم ربما كان يتممه إدخال فصل خاص بالقانون اليونانى فى كتاب The Legacy of Greece (أوكسفورد ، ١٩٢٢) ، وهو نقص ربما يتدارك فيما بعد . ولقد صدم المدافعون عن أصالة الرومان بشدة عند اكتشاف فضل اليونان على روما فى الميدان الوحيد الذى بقى لهم . قارن رأى Zulueta الدقيق فى كتاب The Legacy of Rome (أوكسفورد ، ١٩٢٣) ، ص ١٨٦ـ١٨٨ برأى Holland الذى قوله عن ثقة وينسب فى غير تحفظ إلى فقهاء الرومان «الأولوية» فى علم القانون . أنظر مؤلف هولاند Jurisprudence ، الطبعة الحادية عشرة ، ص ٢ وما بعدها ، ثم كالهون فى Greek Law and Modern Jurisprudence , California Law Review ، يوليه ، ١٩٢٣ .

صفحة ١٢٢ :

فيما يخص كورينيفورى κορυνηφόροι وكينوفالى κυνόφαλοι (لا كينوفيلى κυνόφιλοι)، أنظر موسوعة Pauly ، مقال عن حاملى الهراوات السيكيونيين (Sicyonian club-carriers) ، ويبدو أنهم كانوا فرقة من الحرس ، وليسوا طبقة من التابعين .

صفحة ١٢٥:

كما يبين جلوتز (Glotz) فى كتابه Travail ، ص ١١٤ — ١١٨ ، فى بحثه الرائع ،رغم إيجازه المتناهى ،عن اسبرطة ، فالپيريوكى (Perioeci) كانوا أيضاً يعملون فى التجارة والصناعة وصيد الأسماك والملاحة . وقد حرمت هذه الأعمال على الاسبرطيين بعد أن قضى ليكورج على التقدم الفنى الذى أظهرت لنا آثاره الحفائر الحديثة . ثم فيما يخص الپيريوكى والهيلوت أنظر Toynbee السالف الذكر ، مع خريطة تبين توزيع الأراضى المختلفة فى لاكرنيا ومسينا . وكذلك Kahrstedt ، ص ١ — ٨ (the geographical distribution of the Spartan state) وصفحات ٥٧ — ٨١ وما بعدها (status of Helots and Perioeci)، حيث يشير إلى أن الهيلوت كانوا يتكلمون الدورية ، مما يدل على أنهم لم يكونوا شعبا بدائيا غزاهم الدوريون الدخلاء ، وفى هذه الحالة ، كما يقول عن حق ، ووفقا للتمثيل التاريخى ، يكونون قد احتفظوا بلغتهم مثل الإستونيين واللاتفيين واللتوانيين على ساحل البحر البلطى تحت حكم الألمان الإقطاعى. أنظر أيضاً Pareti فى Storia di Sparta arcaica ، الجزء الأول (فلورنسا ، ١٩٢٠) ، ص ١٥٤ وما بعدها .

صفحة ١٥٠:

أعيد الآن نشر نصوص جورتين (Gortyn) يصحبها تعليق قيم ، مرتب ترتيبا قانونيا للأستاذين Kohler و Ziebarth : جوتنجن ، ١٩١٢ .

صفحة ١٥٣ :

أنظر كذلك كالهون فى Proceedings of Classical Association ، الجزء ١٨ (١٩٢٢) ، ص ٨٨ .

صفحة ١٦٣ :

فيما يخص النقد الفضى الذى اتخذه بيزستراتوس ، أنظر P. Gardner فى History of Ancient Coinage ، ١٩١٨ ، ص ١٥٧ — ١٥٨ . إذ قد امتد تأثيره حتى صقلية ، حيث سك طغاة سيراكوز نقودا على أساس المعايير الأثينية .

صفحة ١٨٩ :

أنظر أيضاً Ledl فى Studien zur älteren athenischen Verfassungsgeschichte ، هايدلبرج ، ١٩١٤ ، حيث يناقش (ص ٣٦٤ وما بعدها) ولكن بدون حجة قوية ، كون طريقة αἵρεσις ἐκ προκρίτων (الاختيار بالتفضيل) لا ترجع إلى عهد سولون أو كليسثينيز ، بل أدخلت لأول مرة فى عام ٤١١ .

صفحة ٢٠٥ :

فيما يخص حملة النبالى السيثيين راجع أيضاً مقال Plassart البديع التصوير فى Revue des Études grecques ، ١٩١٣ ، ص ١٥١ وما بعدها .

صفحة ٢٢٠ :

إن ذلك قد أثبته « وود وارد » فى B. S. A. ، الجزء ١٥ ، ص ٢٤٣ وما بعدها .

صفحة ٢٢٢ :

أنظر أيضاً Vinogradoff فى Jurisprudence of the Greek City-State (١٩٢٢) ، صفحتى ١٥٧ و١٦١ .

صفحة ٢٢٧ :

أنظر جادرنر فى كتابه السالف الذكر ص ٢٢٦ ، فهو يأخذ بقول بابلون (Babelon) فيما ذهب إليه من أن أثينا قد ادعت لنفسها حق احتكار سك النقود أينما مكنتها القوة من تنفيذ ذلك ، على عكس سياستها الأكثر حرية المعزوة لها فى النص . ويوافق مع ذلك ، على أن نتيجة بحثه إنما بنيت أساساً على دليل سلبى ، وأن عدم سك نقد محلى للوحدات الكبرى فى معظم جزر إيجينيا والمدن الأسيوية ، (لكن دون أجزاء الإمبراطورية الأثينية الأخرى) فى عهد بركليس قد يعزى أيضاً إلى اعتبارات اقتضتها ظروف عملية . أما بخصوص الحقائق ، فانظر إلى جانب كافينياك المذكور فى ص٢٢٧ فيما سبق ، جاردنر ، ص ٢٢٢ وما بعدها ، ولا سيما ص ٢٨٥ وما بعدها ، ثم فيل (Weil) فى Zeitschrift für Numismatik ، الجزء ٢٨ ،ص٣٥٧ وما بعدها و Babelon فى Revue Numismatique ، ١٩١٣ ، ص ٤٥٧ وما بعدها . أما نقود فوكيا المصنوعة من الإلكتروم (توكيديدس ، ٤ — ٥٢) وميتيلين فتستحق ذكرا خاصا بجانب نقود لامبساكوس وسيزيكوس . أنظر بابلون السالف الذكر ص ٤٧٥ ثم موسوعة Pauly ،مقال Cyzicenoi ويورد جاردنر حجة جديدة يعتقد أنها قاطعة — قرار سفنيا (Siphnian decree) فى I. G. ، ١٢ — ٥ — ٤٨٠ . ولكن من المحتمل جداً أن يرجع تاريخ هذا النص بشكله وطريقة كتابته، إلى الفترة بين عامى ٤٢٠ و ٤١٥ (Weil ، السالف الذكر ، ٢٥ ، ص ٥٦) ، وليس هناك سبب كاف لأن يؤرخ قرار كليا رخوس السابق، والذى ذكرفيه ، بتاريخ أقدم كثيرا منه . والفقرة المعروفة فى الطيور Birds (السطر ، ١٠٤٠) التى استنتج فيلا موفيتز أهميتها فى هذه المناسبة ، قبل اكتشاف نص

سيفينيا ، تؤيد هذه النتيجة ،وهى نفس ما انتهى إليه كاڤينياك فى Histoire ، الجزء الثانى ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .

صفحة ٢٥٥ هامش :

هناك نقطة صغيرة تستحق الملاحظة ، وهى أن ملابس اليونان كاورد وصفها فى النص لم يكن بها جيوب . وكما بين Halliday فى Growth of the City-State (مطبعة جامعة ليفربول) ، فإن الأشياء الكبيرة مثل الورق والخضر ، أو الكلاب الصغيرة ، كانت تحمل كلها فى ثنايا الهماتيون (ἱμάτιον) . أما الوحدات النقدية الصغيرة فكانت تحمل بالفم . ويضيف هاليدى ، وربما كان ذلك هو السبب فى أن النقود فى أتيكا كانت من معدن الفضة وليست من النحاس .

صفحة ٢٧٧ :

أنظر أيضاً جلوتز ، Travail ، ص ٣٠٠ وما بعدها ، وهو يعتقد أن أتيكا قد انتجت على الأكثر ربع ما تحتاج إليه أثينا (أى من الزيت والنبيذ والقمح) .

صفحة ٢٧٩ :

أنظر أيضاً بخصوص هذا الموضوع فى جملته هايتلاند (Heitland) فى Agricola ، كمبردج ، ١٩٢١ ثم Orth فى موسوعة Pauly ، مقال Landwirtschaft (١٩٢٤) وبه مراجع ، ومع ذلك لم يذكر هايتلاند من بينها .

صفحة ٢٨٩ :

قام Andreades (Revue des Études grecques ، الجزء ٢٨ ص ٣٧٧ وما بعدها) بدراسة مهمة لما سماه — ربما على وجه الدقة التناهية ، بـ « les finances de l'état homérique » . أنظر بنوع خاص صفحة ٣٩٣ (وذلك فيما يخص « هل كان الملوك الهومريين يعدون جنودهم بالأكل ؟ ») ثم ص ٤٠٦ وما بعدها المعنونة بـ ' Extraordinary Receipts ' والتى قد

درسها تحت عنوانين : (١) « مالية طفيلية » أى الدخل الوارد من الأعمال الحربية والقرصنة وغيرها ثم (٢) « الدخل الملكى فى وقت الحرب » ، أى نصيب الملك من الأسلاب .

صفحة ٢٩٩ :

تركت الفقرة التى فى ص ٢٩٢ بدون تغيير رغم أنها ، إذا ما أردنا الدقة فى كلامنا ، كان يجب أن تعاد كتابتها بصيغة الماضى . إذ قد وجد الآن ، وعد فى ميثاق عصبة الأمم ، تضمنته معاهدات السلام الأربع — وهو وعد ملزم ضد الالتجاء إلى التحكيم فى الحرب . والحق أن بعد تأخر إجراءات الصلح تسعة أشهر ، قد تظل الحرب قانونية فى نطاق الميثاق ، رغم أنه حتى فى هذه الحالة يستبعد ضم الأقاليم . ولكن الحرب بين الدول الكبرى داخل تلك الحدود الدستورية ، إذا قبلت نظريا ، صارت من الوجهة العملية لا يمكن تصورها . أما بالنسبة للحرب بين الدول الصغرى ، أو بين دولة كبيرة وأخرى صغيرة ، فإن تجربة عام ١٩١٤ قد أظهرت ، أن مثل هذه الحروب قد أصبح من العسير جداً حصرها فى مجالها سواء فى أوروبا أو خارجها . والواقع أننا دخلنا منذ كتابة تلك الفقرة ، فى عصر انتقال ، سيبلغ منتهاه ، ما لم تتزعزع كل ضماناتنا واحتياطاتنا ، بقبول اتخاذ القوة فى الأعمال الدولية ، لا كوسيلة تحكمية فظة كما كانت فى عصر ما قبل الحرب ، إنما كعقاب جماعى فى يد جمعية الدول ضد المعتدين على القانون . ولا يفوت انتباه القارىء لهذا الكتاب ، ولا الباحث المدقق فى الديموقراطية ، أن تحول الأفكار والعمل ، قد أصبح صعباً ومليئاً بالأخطار ، فهو ليس مرغوبا فيه فقط ، بل هو ضرورى وملح ، وقد وضح لى ذلك الآن ، كما كان واضحاً لى عندما كتبت مقدمة الطبعة الثانية .

صفحة ٣٠٥ :

إن هؤلاء الذين يرغبون فى مقارنة طرق الاستعمار اليونانى بطرق الاستعمار البريطانى ، يجدون الآن بياناً عاما جامعاً عن الاستعمار البريطانى منذ أيامه الأولى

حتى ذلك الحين ، وبه مراجع كثيرة ، فى A Short History of British Expansion ، كتبه James A. Williamson ، لندن ، ١٩٢٢ .

صفحة ٣٠٨ :

بخصوص مثل حديث لهذا الميل الذى أشرنا إليه فى آخر الملاحظة أنظر ، Ure فى The Age of Tyrants (١٩٢٢) .

صفحة ٣٣١ :

لقد طبق حديثاً نظام « القرعة » فى بلغاريا مؤقتاً ، وطبق فى روسيا السوفيتية فى فترة آخر الأسبوع . وقد زكاه William James ، ولكن على أساس يختلف عن ذلك تماماً ، فى مقاله ، The Moral Equivalent of War ، الذى نشر فى Memories and Studies (١٩١١) . وهدفه أن يربى فى الناس الخلق الحربى من غير حرب .

صفحة ٣٦٢ :

إن الاتجاه المشار إليه فى آخر الملاحظة ، قد صور تماما ، بل تصويراً دقيقاً ، فى المناقشات الخاصة بمسألة التعويضات .

صفحة ٣٦٤ :

أنظر بابلون فى Les Origines de la Monnaie ، ص٩٣ – ١٣٤ ، إذ يرى أن النقود الأولى فى اليونان وسائر الجهات الأخرى ، ضربها التجار والمولين لا الحكومات ، ويورد أمثلة لهذا ، فى كل من الدنيا القديمة والدنيا الحديثة . ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن هذا النوع من ضرب التجار ، ما زال مستعملا فى الجزء الشمالى من أستراليا .

صفحة ٣٦٥ :

يعتقد جاردنر ، ص ٦٨ ، أن المدن اليونانية فى آسيا الصغرى هى المسئولة ، لا ملوك ليديا ، عن الضرب الأول من الإلكتروم . ولكن ، كما يعلم هو ، فإن

ميزان الرأى فيما يتعلق بالنقود لا يؤيده . وعلى أية حال فمن المؤكد أن كريسوس (٥٦٠ — ٥٤٦) قد استبدل بالنقد من الإلكتروم الذى ضرب به أسلافه ، عملة من الذهب والفضة ، وتلك العملة ، كما يعتقد جاردنر نفسه (ص ٨٢ — ٨٣) ، كانت الأولى من نوعها . أنظر أيضا بابلون les Monnaies grecques (باريس ، Payot Manuals ، ١٩٢١) ، ص ١٠ — ١١ و ص ٢٤ .

صفحة ٤٠١ :

أنظر كذلك van Hook فى Transactions of the American Philological Association ، ١٩٢٠ ، ص ١٣٤ وما بعدها .

صفحة ٤١٦ :

فيما يخص سن الزواج أنظر أفلاطون ، الجمهورية، ٤٦٠ ، والقوانين ، ٧٨٥ ، ثم أرسطو ، السياسة ، ١٣٣٥ (الذى يقرر أن أنسب سن لزواج البنت فيما بين ١٦ و ٢٠ ، وللرجل ما بين ٣٠ و ٣٥) ، ثم أنظر يوريبيدس ، القطعة ، ٢٤ (Nauck) وأرسطوفانيز ، .Lys ، ٥٩٧ ، ثم أنظار الوصف الكامل الذى أورده إجزينوفون فى Oeconomicus .

صفحة ٤٥٣ :

يجادل كارى (Classical Quarterly ، الجزء السابع ، ص ١٩٨ وما بعدها) فى أن المائتى مركب المذكورة فى توكيديدس ، ١ — ١٠٤ ، تشير إلى قوة أرسلت إلى قبرص ثم قسمت فيما بعد ، جزء منها ذهب إلى فينيقيا ، وآخر إلى مصر ، وربما بقى جزء فى قبرص : وهذا التفسير الذى لا تعارضه أقوال توكيديدس ، قد يفسر لماذا لم ينتفع أعداء أثينا بفشل هذه الحملة . فيما يخص كريت ، أنظر توكيديدس ، ٢ — ٨٥ — ٥ (πρόζενος فى جورتين أى فى الطريق المصرى المباشر) .

صفحة ٤٧٣ :

فيما يخص لماذا لم تقم فى العالم القديم ، حركة «لإلغاء الرق» ، أنظر Heitland فى Agricola ، ص ٤٤٦ وما بعدها .

صفحة ٤٨١ :

أنظر أيضاً جلوتز ، Travail ، ص ٢٥٤ — ٢٥٧ ، ثم Brillant ، فى Les Sécretaires Athéniens ، باريس ، ١٩١١ ، وكذلك Lysias ، ٣٠ — ٢ وما بعدها ، بخصوص قصة نيكوماخوس ، الذى تمكن بعمله ككاتب للمجلس ، وهو عمل مقصور على العبيد ، من أن يصير أعلم الحامين فى أثينا ، فاختير ليكون عضواً بل أهم وأبرز عضو فى هيئة أناجرافيس (ἀναγραφεῖς) التى تشكلت لسن مجموعة جديدة من القوانين بعد ثورة ٤١١ . أما فيما يخص بوليس العبيد السيثى فانظر ما سبق ص ٢٠٥ .

صفحة ٥٠٠ :

أعاد دنزمور (Dinsmoor) فى American Journal of Archaeology ، ١٩١٣ ، ص ٦٤ــ٦٥ ، ترتيب نفقات مبانى الأكروبول ، وبين أن المساعدة التى سحبت من خزينة الحلف لبناء البروبيليا ، وذلك فى الأعوام من ٤٣٧ — ٤٣٦ إلى ٤٣٣ — ٤٣٢ ، « تعادل ١/٦ من الضريبة السنوية » ، أى بالضبط المبلغ المقرر دفعه لأثينا حسب المعاهدة . أما تكاليف البارثنون نفسه (من ٤٤٧ — ٤٤٦ إلى ٤٣٨ — ٤٣٧) فمبتورة إلى حد كبير ، حتى أنه من الصعب استخراج بيان بها ، إلا أن رأى دنزمور « أنه من المؤكد » ، أن الحلف لم يساهم فى بناء البارثنون نفسه بأكثر من ١/٦ ، أى الحق المشروع ولكن من العسير أن نوفق بين هذه الوجهة ، وبين الإقرار القاطع بشأن المجادلة التى دارت بين بركليس وتوكيديدس ابن مليسياس فى بلوتارخوس ، Per ، ص ١٢ وما بعدها . وتفسير دنزمور لهذا ، أن اتهام توكيديدس لبركليس بإساءة استعمال أموال الحلف كان هراء .

ولكن إزاء خطورة هذه الواقعة ، فإنها صعبة التصديق ، ولا هي متفقة مع قول بلوتارخس . وأسلم من ذلك أن نشاطر كاڤينياك ، ص٩٣ الرأى ، فى أن أموال الحلف كانت تسلم إلى صرافى خزانة الإلهة ، وأن صرافى مالية الحلف « استمروا فى القيام بأعمالهم من تسلم الضرائب ، والإنفاق على الأعمال الحربية الجارية ، ولكنهم احتفظوا بمبالغ زهيدة فقط تحت أيديهم » .

صفحة ٥٠١ :

لقد بين كل من وودوارد فى .B. S. A ، جزء ١٦ ، ص١٨٧ ومابعدها ، ودنزمور فى الكتاب السابق ذكره ، أن النقوش المنحوتة فى البارثنون ، والتى كان الرأى السائد أنها معاصرة لبانيه نفسها ، قد نحتت فى المدة بين الأعوام ٤٣٩ — ٤٣٨ إلى ٤٣٣ — ٤٣٢ ، بعد أن تمت تلك المبانى . ولما كان فيدياس مغضوبا عليه بعد ٤٣٨ ، فمن المحتمل أنه لم يكن مشرفا على تنفيذها .

صفحة ٥١٣ :

أنظر أيضا التقرير الكامل عن نظام أثينا المالى الذى كتبه اندريادس (Andreades) فى الجزء الأول ، ص ٢٢٩ وما بعـــدها من كتاب ἱστορία τῆς Ἑλληνικῆς δημοσίας οἰκονομίας ἀπὸ τῶν ἡρωϊκῶν χρόνων μεχρὶ τῆς συστασέως τοῦ Ἑλληνικοῦ βασιλείου, (أى تاريخ الاقتصاد اليونانى العام من عصر الأبطال حتى عصر إنشاء المملكة اليونانية) والذى تناول الموضوع كله بشكل أكثر تنظيما .

صفحة ٥١٥ :

فيما يخص العلاقات بين كورنث ومستعمراتها أنظر Kahrstedt ، ص ٣٥٧ وما بعدها .

صفحة ٥٤٣ :

فيا يخص مطابقة بيان توكيديدس والنقوش (الإبجرافية) أنظر وودوارد فى J. H. S.، الجزء ٣٤، ص ٢٨٩ ، الذى يدحض فيه رأى جاردنر . أما فيما يخص ميلوس كمركز للقرصنة فى القرن الرابع ، فى عهد سكانها الجدد فانظر [Dem.] ، ٥٦—٥٨، الذى يعزى إلى دينارخوس (Deinarchus) . وقد نجح سكان ميلوس فى غش الأثينيين المنتصرين عليهم ، إلى حد أن دفنوا ، مبلغ مائة قطعة من النقود من ضربهم المحلى ، ولم يكتشف هذا المال إلا عام ١٩٠٧. أنظر Jameson فى Revue Numismatique ، ١٩٠٩ ، ص ١٨٨ وما بعدها ، و Weil فى Zeitschrift fur Numismatik، ٢٨، ص ٣٥٩، ثم بابلون فى Revue Numism.، ١٩١٣ ص ٤٧١ . ثم أنظر أيضاً ما ذكر سابقا ص ٢٢٧ ، وكذلك الملاحظة فى التذييل . أما وجه هذه العملة فعليه تفاحة (μῆλον) بينما تختلف رسوم الظهر فأحيانا دوافين ، أو موركس أو عربة أو بعض الرموز الدينية .

جدول التواريخ

(يجب أن تؤخذ كثير من التواريخ القديمة على وجه التقريب .)

ق. م.	
١٣٠٠ — ٩٠٠	أول استقرار اليونان — من آخيين أولا ثم دوريين فيما بعد — بأقسامهم القبلية ، فى اليونان وفى الجزر وفى سواحل آسيا الصغرى . بدأت الحياة فى القرية بالتمركز التاريخى حول المراكز المحصنة .
٩٠٠ — ٨٠٠	انتشار الحياة فى المدينة ، بقانون أوله الحكام بأنه ، « وراثى بامتيازات محددة » . التاريخ اليونانى التقليدى «لهزويد» و «هومر» (هيرودوت ، ٢ — ٥٣) .
١٠٠٠ — ٧٠٠	التجارة الإيجينية مركزة فى أيدى الفينيقيين .
٨٠٠ — ٦٥٠	ازدياد التجواب والتجارة والاستعمار . انتشار سك النقود الذى أخذ عن ليديا ،فى كل أنحاء اليونان ، وما أدى إليه من ثورة اقتصادية ، تأثير موحى دلف « كناصح لليونان الأوروبية » ، ثم الأنبياء العبرانيين (عاموس، ٧٥٠ ،وهوسيا (Hosia) ٧٤٣ وإيزايا(Isaiah) ، ٧٢٠).
٨٠٠ — ٧٠٠	غزو اسبرطة لمسينا (الحرب المسينية الأولى) .
٧٧٦	التاريخ التقليدى اليونانى لأول احتفال أوليمبى .
٧٥٠	فيدون « ملك أرجوس يدخل معيارا محددا للأوزان والمقاييس .
٧٣٥	التاريخ التقليدى المستعمرة الصقلية الأولى، ناكسوس ، التى شجعها أبولون.
٧٣٤	التاريخ التقليدى لتأسيس سيراكوز .
٧٢١	التاريخ التقليدى لتأسيس سيباريس .
٧١٥	التاريخ التقليدى لتأسيس زانكل (مسينا) .
٦٨٣ — ٦٨٢	بدء قائمة الحكام السنويين (أرخون) فى أثينا .
٦٦٨	التاريخ التقليدى لهزيمة اسبرطة على يد أرجوس فى هيسايا .
٦٦٤	التاريخ التقليدى للمعركة البحرية الكبرى بين كورنث وكورسيرا .
٦٥٠ — ٦٠٠	عصر المشرعين فى اليونان (٦٢٣ ،تاريخ العثور على كتاب التعاليم فى معبد اليهود وما ترتب على ذلك من إصلاحات) :
٦٤٨	(٦ أبريل) كسوف الشمس الذى ذكره أرخيلوخوس .

ق. م.	
٦٤٠ — ٦٣٠	تأسيس مستعمرة يونانية فى ناوكراتس على النيل .
٦٣٠	تأسيس سيرين Cyrene (طرابلس شمال أفريقيا) .
٦٣٠ — ٦٠٠	خضوع مسينا النهائى لاسبرطة (« الحرب المسينية الثانية ») .
٦٠٠	الحرب بين أثينا وميتيلين على سواحل الدردنيل . سافو وألكايوس وپيتاكوس فى ميتيلين .
٥٩٤ — ٥٩٣	سولون « حاكم » فى أثينا . إلغاء عبودية الدَّين « والتخلص من الديون » .
٥٩٣ — ٥٩١	استمرار تشريع سولون .
٥٨٥	(٢٨ مايو) كسوف الشمس . طاليس (الرجل الحكيم) فى أوجه .
٦٠٥ — ٥٦٢	حكم نبوخاذنزّار (Nebuchadnezzar) فى بابلونيا .
٥٦٠	تولى كرويسوس عرش ليديا .
٥٦١ — ٥٦٠	پيزستراتوس يغدو « طاغية » أثينا .
٥٥٩ — ٥٥٦	ملتيادس يغدو « طاغية » الخرسونيز التراقى (ساحل الدردنيل الشمالى) .
٥٥٠	غزو اسبرطة لثيرياتس (Thryeatis).
٥٤٨ — ٥٤٧	حريق معبد أبولون فى دلف .
٥٤٦	كيروس ، ملك الفرس ، يغزو ليديا ويعزل كرويسوس عن عرشه .
٥٤٦ — ٥٤٥	الغزو الفارسى ليونان آسيا .
٥٣٨	استيلاء كيروس على بابلونيا .
٥٢٨ — ٥٢٧	موت پيزستراتوس .
٥٢٦	پوليكراتس « طاغية » ساموس يتخلى عن محالفة مصر ويحالف الفرس .
٥٢٥	غزو الفرس لمصر .
٥٢١	تولى دارا مُلْك فارس .
٥١٤	مؤامرة هارموديوس وأرستوجيتون .
٥١٢	أول حملة يوجهها دارا إلى أوروبا ، غزو تراقيا .
٥١٠	انتهاء حكم عائلة پيزستراتوس . الاسبرطيون فى أتيكا . أثينا تشترك فى معاهدة الپلوپونيز . حرب سيباريس وكروتون .
٥٠٨ — ٥٠٧	إيزاجوراس « حاكم » فى أثينا . الاسبرطيون فى أتيكا وحاصرتهم فى الأكروپول وتسليمهم . كليستنيز يقبض على أزمة الأمور .
٥٠٣ — ٥٠٢	أول سنة أهلية وفق نظام كليستنيز .
٤٩٩	نشوب الثورة الأيونية على فارس .

ق. م.	
٤٩٨	أثينا فى حرب مع إيجينا .
٤٩٧	الأيونيون يحرقون ساردس مع جيش أثينى .
٤٩٤	هزيمة الأيونيين فى لادى (Lade) ، واستيلاء الفرس على ميلتوس .
٤٩٣ — ٤٩٢	« حكم » ثميستوكليس .
٤٩٢	الفرس يخضعون تراقيا ومقدونيا .
٤٩٠	الحملة البحرية الفارسية على اليونان . تخريب إريتريا . موقعة مراثون .
٤٨٩	حملة ملتيادس إلى پاروس .
٤٨٧	حرب أثينا مع إيجينا .
٤٨٧ — ٤٨٦	ابتداء تعيين الحكام بالقرعة من بين المرشحين المنتخبين . القواد المنتخبون يحلون محل « البوليمارخ Polemarch » كرؤساء عاملين.
٤٨٥	موت دارا وتولى إجزرسيس .
٤٨٣ — ٤٨٢	اكتشاف عرق جديد للفضة فى مناجم لاوريون . فيض عظيم .
٤٨٢	تقوية الأسطول الأثينى .
٤٨٠	(الربيع) أثينا تستدعى المواطنين المنفيين.
٤٨٠	(أغسطس) إجزرسيس يدخل اليونان. معارك أرتميزيوم وثرموبيلاى .
	(سبتمبر) معركة سلاميس .
	(٢ أكتوبر) كسوف الشمس . القرطاجينيون يغزون صقلية ، ويهزمون فى همرا (Himera) .
٤٧٩	(الربيع) الفرس فى أتيكا .
	(أغسطس) موقعة پلاتيا، موقعة ميكالى، الأيونيون يخرجون على فارس.
٤٧٩ — ٤٧٨	(الشتاء) تحصين أثينا . استيلاء أثينا على سستوس (Sestos) على الدردنيل .
٤٧٨ — ٤٧٧	تنظيم أرستيدس لحلف ديلوس .
٤٧٦ — ٤٧٥	استيلاء كيمون على إيون (Eion) فى تراقيا .
٤٧٤	موقعة كيمى ، وهزيمة الإتروسك على يد السيراكوزيين .
٤٧٣ — ٤٧٢	كيمون يضرب على أيدى القراصنة فى سكيروس (Scyros) .
٤٧٢	أسخيلوس يكتب « الفرس » .
٤٧٣ — ٤٧١	الأثينيون يخضعون كاريستوس فى إيوبيا . نفى ثميستوكليس . « اتحاد » إليس ومانتينيا .
٤٧١	هروب ثميستوكليس من اليونان .

ق. م.	
٤٧٠ — ٤٦٩	ثورة ناكسوس وإخضاعها.
٤٦٨	أول انتصار لسوفوكليس .
٤٦٧ أو ٤٦٦	موقعة يوريمدون (Eurymedon) ثم هزيمة القوات الفارسية برا وبحرا.
٤٦٥	ثورة تازوس (Thasos) .
٤٦٤	زلزال فى اسبرطة ، ثورة الهيلوت . حصار إيثوم (Ithome).
٤٦٣	خضوع تازوس (Thasos) واتساع أراضى أثينا ومناجمها . (٣٠ أبريل) كسوف الشمس .
٤٦٣ — ٤٦٢	كيمون فى مسينا ليساعد اسبرطة ضد الهيلوت .
٤٦٢ — ٤٦٠	دفع أجور للقضاة فى أثينا . أول ظهور بركليس .
٤٦١ — ٤٦٠	نفى كيمون . تحالف أثينا مع أرجوس وتساليا .
٤٦٠ — ٤٥٩	انتصار أثينا على ميجارا . بناء أسوار طويلة لميجارا . النزاع بين أثينا وكورنث . الحملة الأثينية إلى مصر .
٤٥٩ — ٤٥٨	معارك مع الكورنثيين والإپيدوريين والإيجينيين فى خليج سارونيك. نشاط أثينا فى قبرص ومصر وفينيقيا وإيجينا وميجارا .
٤٥٨	أسخيلوس يكتب Orestean Trilogy. بناء الأسوار الطويلة حول أثينا .
٤٥٧	معارك تناجرا (Tanagra) وأوينوفتا(Oenophyta) ، تغلب الحزب الأثينى فى بيوتيا .
٤٥٧ — ٤٥٦	(الشتاء) غزو الأثينيين لإيجينا .
٤٥٦	موت أسخيلوس . إكمال معبد زيوس فى أولمپيا . أثينا تدعو اليونان لإصلاح المعابد التى أحرقها الفرس .
٤٥٦ — ٤٥٥	أول ظهور الأسطول الأثينى فى خليج كورنث .
٤٥٤	نكبة حملة مصر .
٤٥٤ — ٤٥٣	نقل خزينة الحلف من ديلوس إلى أثينا .
٤٥٣	إخضاع إيثوم(Ithome). حملة بركليس إلى خليج كورنث. استقرار المسينيون فى ناوپاكتوس . معاهدة أثينا مع سجستا (Segesta) .
٤٥٢ — ٤٥١	سلم الثلاثين سنة بين أرجوس واسبرطة . هدنة الخمس سنوات بين الأثينيين والپلوپونيزيين .
٤٥١ — ٤٥٠	إصدار قانون فى أثينا يقصر حقوق المواطن على المولودين من أبوين أثينيين . إرسال مستعمرين إلى أندروس .
٤٥٠ — ٤٤٩	حملة كيمون إلى قبرص . موت كيمون . معاهدة مع ميلتوس .
٤٤٨	السلم بين أثينا والفرس ، تحديد المياه الإقليمية .
٤٤٧	تخلف بيوتيا (معركة كورونيا Coronea) . إرسال مستعمرين إلى الخيرزونيز التراقى (الدردنيل) وإيوبا وناكسوس . بدء العمل فى البارثنون .

ق. م.	
٤٤٧ — ٤٤٦	ثورة إيوبيا وإخضاعها . تخلف ميجارا . فشل الغزو البلوپونيزى لأتيكا .
٤٤٦ — ٤٤٥	سلم الثلاثين سنة بين الأثينيين والبلوپونيزيين .
٤٤٣	تأسيس ثورى (Thurii) . نفى توكيديدس بن مليسياس .
٤٤٣ — ٤٤٢	تقسيم التحالف الأثينى إلى خمس مناطق . سوفوكليس « رئيس خزانة اليونان » .
٤٤٠	ثورة ساموس وبيزانتيوم .
٤٣٩	إخضاعهما . بركليس فى البحر الأسود .
٤٣٨	افتتاح البارثنون . يوريپيدس يكتب Alcestis .
٤٣٦ — ٤٣٥	اضطرابات فى إپيدامنوس .
٤٣٥	انتصار كورسيرا البحرى على كورنث .
٤٣٣	محالفة دفاعية بين أثينا وكورسيرا . اشتراك الأثينيين فى المعركة ضد الكورنثيين .
٤٣٣ — ٤٣٢	ثورة پوتيديا .
٤٣٢	(الخريف) اشتداد مقاطعة ميجارا.
٤٣٢ — ٤٣١	المجالس فى اسبرطة تقرر الحرب .
٤٣١	السنة الأولى من حرب البلوپونيز . أول غزو پلوپونيزى لأتيكا (مايو). يوريپيدس يكتب ميديا(Medea).
٤٣٠	السنة الثانيه من حرب البلوپونيز .انتشارالوباء فى أثينا . الغزوة الثانية لأتيكا .عزل بركليس من القيادة ومحاكمته وتغريمه ثم إعادة تعيينه فى السنة التالية .فورميو تعمل فى الغرب :خضوع پوتيديا . إتمام تاريخ هيرودوت.
٤٢٩	السنة الثالثة للحرب . حصار البلوپونيزيين لپلاتيا . موت بركليس (الخريف) .
٤٢٨	السنة الرابعة للحرب . الغزوة الثالثة لأتيكا . ثورة ميتيلين. يوريپيدس يكتب Hippolytus .
٤٢٧	السنة الخامسة للحرب. الغزوة الرابعة لأتيكا . خضوع ميتيلين . خضوع پلاتيا . نشوب الحرب الأهلية فى كورسيرا .
٤٢٦	السنة السادسة للحرب . حملة ديموستنيز الى أيتوليا بقصد الوصول الى بيوتيا .

ق. م.	
٤٢٥	السنة السابعة للحرب . الغزوة الخامسة لأتيكا . الأثينيون يرسلون حملة إلى صقلية . احتلال پيلوس (Pylos) . أثينا ترفض شروط اسبرطة للصلح . تسليم الاسبرطيين فى سفاكتريا . أثينا تزيد الجزية على الحلفاء . أرستوفانيز يكتب Acharnians . التاريخ المحتمل لكتيب الأوليجارشى المجوز .
٤٢٤	السنة الثامنة للحرب . أثينا تفوز بأونيادای (Oeniadae) فى خليج كورنث ، ثم تستولى على نيسايا مع أسوار ميجارا الطويلة و Cythera . غزو أثينا لبيوتيا ، معركة ديلوم . براسيداس فى تراقيا . ثورة Acanthus وأمفيپولس ومدن أخرى . نفى توكيديدس المؤرخ . أرستوفانيز يكتب الفرسان (Knights) .
٤٢٣	السنة التاسعة للحرب . مفاوضات الصلح . هدنة السنة الواحدة (مارس) . ثورة سكيون (Scione) . أرستوفانيز يكتب السحب (Clouds) .
٤٢٢	السنة العاشرة للحرب . موقعة أمفيپولس . موت كايون وبراسيداس . مفاوضات الصلح . أرستوفانيز يكتب Wasps .
٤٢١	السنة الحادية عشرة للحرب . سلم نيسكياس (مارس) . أرستوفانيز يكتب Peace . الاستيلاء على سكيون . قتل السكان أو استعبادهم .
٤٢١ — ٤٢٠	محالفة دفاعية بين أثينا واسبرطة .
٤٢٠	السنة الثانية عشرة من الحرب . تحالف أثينا مع أرجوس .
٤١٩	السنة الثالثة عشرة من الحرب .
٤١٨	السنة الرابعة عشرة من الحرب . هزيمة أرجوس على يد اسبرطة فى مانتنيا . أرجوس تكون تحالفاً مع اسبرطة .
٤١٧	السنة الخامسة عشرة من الحرب . نيسكياس فى تراقيا .
٤١٦	السنة السادسة عشرة من الحرب . فتح ميلوس . بعثة سجستا (Segesta) إلى أثينا .
٤١٥	السنة السابعة عشرة من الحرب . حملة أثينا إلى صقلية . يوريپيدس يكتب Trejan Women.
٤١٤	السنة الثامنة عشرة للحرب . أرستوفانيز يكتب « الطيور » . محاصرة سيراكوز . وصول جيليپوس الاسبرطى إلى صقلية .
٤١٣	السنة التاسعة عشرة للحرب . الاسبرطيون يحتلون دكيليا فى أتيكا .

ق. م.	
	حملة أثينا الثانية إلى صقلية. يوربيدس يكتب Iphigenia in Tauris والكترا . المعركة الكبرى فى ميناء سيراكوز (٩ سبتمبر) . انهزام الأثينيين الكلى .
٤١٢	السنة العشرون من الحرب . ثورة حلفاء أثينا .معاهدة ميلتوس (بين إسبرطة والفرس) . يوربيدس يكتب Helen .
٤١١	السنة الحادية والعشرون من الحرب . ثورة رودس . ثورة أبيدوس ولامبساكوس . اجتماع فى كولونوس واتخاذ الأهبة لوضع دستور جديد (مايو). مجلس الأربعمائة يتولى السلطة (أوائل يونيو) ، ويحكم حتى سبتمبر . ثورة إيوبيا (سبتمبر) . تعطيل مجلس الأربعمائة وتأسيس هيئة الحكومة (سبتمبر) . معركة كينوسيما (Cynossema) فى الدردنيل . أرستوفانيز يكتب : Lysistrata و Thesmophoriazusae .
٤١٠	السنة الثانية والعشرون من الحرب . موقعة كيزيكوس (Cyzicus) فى بحر مرمرة . إعادة الديموقراطية فى أثينا . أثينا تسترد تازوس .
٤٠٩	السنة الثالثة والعشرون من الحرب . أثينا تسترد كولوفون ، وتفقد بيلوس ونيسايا .
٤٠٨	السنة الرابعة والعشرون من الحرب . أثينا تسترد خالسيدون وبيزانتيوم . يوربيدس يكتب Orestes .
٤٠٧	السنة الخامسة والعشرون من الحرب . الأمير كيروس الفارسى يزحف إلى الساحل .
٤٠٦	السنه السادسة والعشرون من الحرب . موقعة Arginusae . محاكمة القواد الحاكمين وإعدامهم .موت يوربيدس وسوفوكليس .
٤٠٥	السنة السابعة والعشرون من الحرب . أرستوفانيز يكتب الضفادع (Frogs) (يناير) . ليساندر يغدو قائد اسبرطة البحرى . استدعاء كيروس الى سوزا . إخراج Bacchae ليوربيدس . موقعة إيجوس بوتاموس فى الدردنيل (نهاية الصيف) .
٤٠٥ — ٤٠٤	السنة الثامنة والعشرون من الحرب . حصار أثينا .
٤٠٤	خضوع أثينا . هدم الأسوار الطويلة (أبريل) . حامية اسبرطية على الأكروبول .
٤٠١	«أوديب فى كولوتوس» لسوفوكليس (أخرجها حفيده) .
٣٩٩	موت سقراط .
حوالى ٣٩٨	نشر تاريخ توكيديدس .

الفهارس

ملحوظة

سيجد القارىء وصفاً كاملا لكل مؤلف حديث عند أول ذكر له . أما بالنسبة للمصادر القديمة المذكورة فيلاحظ :

Hellenica Oxyrhynchia تشير إلى بقايا كتاب لمؤرخ يونانى عاش فى القرن الرابع (ربما كان **Theopompus**) وعثر عليه فى مصر عام ١٩٠٦ . ومنذ ذلك الوقت نشر فى مجموعة **Oxford Text Series** ، مع بقايا أخرى نسبت إلى مؤلفيها المزعومين .

الأوليجارشى العجوز يشير إلى عمل لمجهول تحت عنوان Ἀθηναίων Πολιτεία، وجرت العادة بوضعه بين أعمال إجزينوفون الصغرى كما فى نصوص **Teubner** . أنظر **Murray** فى مؤلفه **Greek Literature** ، ص ١٦٧ — ١٦٩ . ومن المحتمل أنه يرجع (وذلك يمكن تقريره اعتماداً على شواهد داخلية) إلى عام ٤٢٥ . وقد نشره **E. Kalinka** مع ترجمة وشرح كامل (ليبزج ، ١٩١٣) . وترجمه إلى الإنجليزية أيضاً فرانسس بروكس (**Francis Brooks**) (لندن ، ١٩١٣) .

Πόροι . تشير إلى بحث لمجهول تحت عنوان **Ways and Means** ، والمعتاد طبعه بين أعمال إجزينوفون الصغرى التى ما زال يعتقد بعض العلماء أنه مؤلفها . ويكاد أن يكون مؤكدا تأريخها بعام ٣٥٥ .

I. G. تشير إلى مجموعه برلين **Inscriptiones Graecae**

I. G. A. اختصار ل **Inscriptiones Graecae Antiquissimae**

لأسباب مطبعية لم أتمكن من إثبات الصفحات المذكورة فيما بعد على وجهها الصحيح .

الصفحة	السطر	التصويب
٣٧	هامش ١	ص ٣٥
٤٢	هامش ٧	ص ٢٧٢ — ٢٧٣
٤٨	هامش ١١	ص ٧٧
٦٩	هامش ١٣	ص ٤٤٧ — ٤٤٨
٩٣	هامش ١٢	ص ٢٠٤ بدلا من ١٧٥
٩٥	هامش ١٩	ص ١٢٢ بدلا من ١١١
٩٩	هامش ١	ص ١٨٠ بدلا من ١٥٧
١٣٠	هامش ٤	ملاحظة ص ٣٦٤ بدلا من ملاحظة ص ٣٠٣
١٤٦	هامش ٨	ص ٩٦ بدلا من ٩٠
١٤٦	هامش ١٢	ص ١٩٢ — ١٩٣ بدلا من ١٦٧
١٨٥	هامش ١٨	ص ٢٢١ بدلا من ١٨٨
٢٠٨	هامش ٥	ص ٥٠٨ بدلا من ٤١٦
٢٠٩	هامش ١١	ص ٤١٠ بدلا من ٣٣٩
٢٠٩	هامش ١٣	ص ٤٦٢ بدلا من ٣٨٠
٢٣١	هامش ٢	ص ٥٠٠ بدلا من ٤١٠
٢٧٦	هامش ٢، ٣	ص ٣٤١ بدلا من ٢٨٤ — ٢٨٥
٢٤٦	هامش ١	ص ٥٠٦ — ٥١١ بدلا من ٤١٥ — ٤١٨
٣١٥	هامش ٧	ص ٤٧٥ — ٤٧٨ بدلا من ٣٩٠ — ٣٩٢
٣١٥	هامش ٩	ص ٥٠٢ بدلا من ٤١٢
٣١٩	هامش ٤	ص ٣٩٧ بدلا من ٣٢٩
٣٤١	هامش ١٣	ص ٣٤٣ بدلا من ٣٦٠
٤٦٤	هامش ٣	ص ٤٨٧ بدلا من ٣٩٩

يجد القارئ في هامش ص ٥٠٣ ملحوظتين مع الإشارة إلى واحدة فقط في النص وذلك كما جاء في الطبعة الإنجليزية . والأرجح أن الملحوظة الأولى تتعلق بالمجموع الوارد في ص ٥٠٢ ، بينما الثانية هي الخاصة بصفحة ٥٠٣ .

فهرس المؤلفين الحديثين

هذا الفهرس يشمل كل مؤلف حديث وكل مجلة* ذكرت فى الكتاب . وتسهيلا للقراء وضعت نجمة على أسماء المؤلفين الذين يمكن أن يرجع إليهم بنوع خاص .

---

* رأيت فى الترجمة أن أفرد المجلات المثبتة فى الطبعة الإنجليزية فى فهرس المؤلفين الحديثين وملحقه فهرساً خاصاً ، وأثبتها بلغتها الأصلية حتى يكون فى ذكرها على هذا النحو نفع مؤكد للقارىء .

(ك)

(ل)

(م)

ملحق فهـــرس المؤلفين

المجـــلات

فهرس الكلمات والعبارات اليونانية

الفهرس العـــام

هذا الفهرس أعد للذين قرأوا الكتاب ويرغبون فى الرجوع إلى بعض مواضيع عولجت به . وعلى ذلك عنى بنوع خاص بالهوامش والمواضيع التى بحثت بحثاً كاملاً وصرف النظر عن الأشياء التى يسهل معرفتها من منهج الموضوعات .

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

تصويب

رأيت أن أكتفي في هذا التصويب بالإشارة إلى أخطاء معينة تاركا للقارىء إدراك ماعداها . وألفت نظر القارىء بنوع خاص إلى التصويب الخاص بصفحات ١٢ ، ١٣، ٢٨، ٤٠ ، ٩٥ ، ٣٩٨ وذلك إلى جانب التصويب الخاص بالأرقام .

الخطأ	الصـواب	الصفحة	السطر
السياسية	السياسة	١	قول أرسطـو
Land	Lands	١	هامش ٥
ينس	ينسى	٥	١٠
٥٦	٦٥	٥	هامش ١
٩٩٧	٧٩٩	٦	» ٣
٤١٣	٤١٢	٨	» ٥
colonisation	colonization	٨	» ٦
Proceeding	Proceedings	٨	» ٦
٧٣٩١	٣٩١	١٠	» ٢
٤٢	١٤٢	١١	بركليس في توكيديدس
ومن ثم انتشرت من القدم عملية	ومن ثم كانت عملية	١٢	٨ ، ٩
وقد كانت	تلقى	١٢	١٠
وراجت تجارة	وراجت قديماً تجارة	١٢	١٠
أكل	آكل	١٢	هامش ٣
الهيلاني	الهيلينستى	١٣	٦
كما يقول بندار	كما يقول بندار في إحدى تعبيراته المديدة التى كانت تتخلل سرده قصة طويلة	١٣	١٥
١٠١	١١١	١٦	هامش ٢
٧٢	٨٢	١٦	هامش ٧
القسطينطينية	القسطنطينية	١٧	هامش ٢
of	in	١٧	هامش ٥
للياة	المياه	١٨	١٠

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
١ — ٢٢ — ١	١ — ١ — ٢٢	١٨	هامش ٨
فى	تلفى	١٩	٧
الجزو	الجزر	١٩	هامش ٢
ابوبيا	إيوبيا	٢١	١٧
٣	٢	٢٤	هامش ١
Ar. Aq.	Ar. Eq.	٢٥	هامش ٣
بريطاليا	بريطانيا	٢٥	هامش ١٠
پوريرة	پورپورة	٢٦	هامش ٣
٢٠٦	٦ — ٢	٢٧	هامش ١
أرسطو	أرسطو فانيز	٢٨	قول أرسطو فانيز
أوربا	أوروبا	٢٨	١٥
ص	تلفى	٢٩	هامش ٢
يتعودا	يتعودوا	٣١	٩
التجرية	التجربة	٣٢	١١
وأما	أما	٣٣	٢
ديمو سثنيز	ديموسثنيز	٣٣	١٧
٥٥ — ٤	٥٥	٣٣	هامش ٣
أووربا	أوروبا	٣٤	١٢
اليوزنا	اليونان	٣٤	هامش ٤
١ — ٧٥ — ١٨٩	١ — ٧٥ ، ١٨٩	٣٥	هامش ٤
٣ — ٩ — ١١٧	٣ — ٩ ، ١١٧	٣٥	هامش ٥
من	ومن	٣٥	هامش ٦
:	تلفى	٣٧	قبل النص اليونانى
أعلا	أعلى	٣٨	١٩
٧ — ٢٨ — ٤	٧ — ٢٧ — ٤	٣٩	هامش ١
فإن كلمة ἄλσος بمعنى مجموعة من الشجر حول مقصورة إله	فإن ἄλσος أى مجموعة الشجر حول مقصورة الإله	٤٠	هامش ٥

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
لم تكن مزروعة أصلا وإنما هى متروكة	لم تزرع أصلا وإنما تركت	٤٠	هامش ٦ ، ٧
بينما قد اقتلعت بعضها لبناء مستعمرات حولها	بينما مهد ماحولها لبناء مستعمرات	٤٠	هامش ٧ ، ٨
غذاءا	غذاء	٤٣	١
أشبه	فهى أشبه	٤٤	الأخير (٢١)
فالقمح	والقمح	٤٦	١
١	٧١	٤٧	هامش ٥
(سقط بعد ٢ — ٦٠)	، ١ — ١٩٣	٤٨	هامش ١
المحارد	المجارد	٤٩	هامش ١٧
٦٨ ش ٢٠٣	لوحة ٧٨ ، شكل ٢٠٣	٤٩	هامش ١٩
٩ — ١	١ — ٩	٤٩	هامش ٢١
هيلانية	هيليفية	٥٠	٩
عام ٤٨٠	حوالى عام ٤٨٠	٥٠	هامش ٣ ، ٤
إفريقا	إفريقيا	٥١	١
٤١٠	٢٤٠	٥١	هامش ٢
الفرولة	الفراولة	٥٢	١
٣٠	٢٠	٥٣	هامش ١١
محددة	محدودة	٥٤	هامش ٢
أمر	أمرا	٥٤	هامش ٤
أنهم	لأنهم	٥٥	١ (ترجمة)
وأبهج	أبهج	٥٧	قول برك ، ٢
وأشرف	أشرف	٥٧	قول برك ، ٢
٣٦	٣٥	٦٠	هامش ١
٨٨	١٨٨	٦٢	هامش ١
الديس	القديس	٦٣	٩

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
٣ — ٨ — ٨٢	٣ — ٨٠ ، ٨٢	٦٣	هامش ١
ديموستينيز	ديموستنيز	٦٣	هامش ٣
مليق	تليق	٦٣	« ٣
٣ — ٢ — ١٣٩	٣ — ١٣٩	٦٣	« ٨
يبدر فاضلا	« يبدو فاضلا »	٦٤	الأخير
سقط بعد ٢ — ٣٧ — ٢	، ٤٤ — ٤	٦٤	هامش ١
الجمهورية ٣٦٥٠	الجمهورية ، ٤٦٥	٦٤	« ٢
معترفا	معترف	٦٥	٩
١٩٧	٢٩٧	٦٦	هامش ٢
من	منذ	٦٧	٢٠
types	type	٧١	هامش ٩
الهيلانية	الهيلنية	٧٢	١٠
الهيلانيين	الهيلينيين	٧٢	١٤
الرتبية	الرتيبة	٧٧	١٢
بيوشيا	بيوتيا	٧٨	٢١
البيوشيين	البيوتيين	٧٨ ، ٧٩	٢٢ وهامش ١
كليسثينيس	كليستنيز	٨٢	٢٤
عائن	عاش	٨٣	١
يستطيعون	لا يستطيعون	٨٩	٥
ليس	تلفى	٨٩	٥
ثمة أنواعاً وضروبا	ثمة أنواع وضروب	٨٩	هامش ٢
بروتاحوراس	بروتاجوراس	٩١	٩
الشارع	الشوارع	٩٢	٧
فيلاموفيدس	فيلاموفيتز	٩٣	هامش ٦
مادر	ماير	٩٣	هامش ١١

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
يعض	يعضى	٩٥	١١
بوريعاخوس وهبته أعمال الترفيه	هبة يوريعاخوس للترفيه	٩٥	هامش ٦
٩١٣	٩٣٣	٩٥	هامش ١٢
يتشكاون	يتشكتلون	٩٥	« «
زيوس	زيوس	٩٦	١
كليستنيز	كليستنيز	٩٦	١٩
تخفى عن	تخفى على	٩٧	٢١
١٢٩	١٢٩٧	٩٩	هامش ٤
« «	تلفى	١٠١	١٣
جديدة	نقية	١٠٣	١٢
	،	١٠٥	٢٤
و	،	١٠٦	١٢
مصلحا	مطلقاً	١٠٧	٥
أجيال	أجيالا	١٠٧	١٠
تسند	تسنه	١٠٧	١٧
اسبارطة	اسبرطة	١١١	١
الذى	الذين	١١١	٩
وأى	رأى	١١١	هامش ٤
نششوا	نشأوا	١١١	« ١٠
بدما	بدماه	١١٢	٤
Soldier, Three	Soldiers Three	١١٢	هامش ١٠
جلة ، يكون . . . يموت	بين « »	١١٣	٢ ، ٣
ابن	بن	١١٣	١١
. بعد حالا	،	١١٣	٢٠
٢٥٩	١٥٩	١١٣	هامش ٧
« التفسير »	التفسير ،	١١٥	٧

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
جملة إن لهذا . . . الحديثة	بين « »	١١٥	٧ و ١٠
I.A.G.	I.G.A.	١١٥	هامش ٢
مايسينا)	مايسينا (	١١٥	« ١١
البيوشى	البيوتى	١١٨	١٠
جهلوا	أخذوا	١١٨	١٩
فإذا	فلو	١١٩	١٥
ما يجعلهم يحافظون	بحيث يحافظون	١١٩	١٧
أعظما	أعظم	١١٩	هامش ٣
المدنية	المدينة	١٢٠	١
الهيلانيين	الهيلينيين	١٢٠	١٩
فاللون	ڤالون	١٢٢	هامش ١
ينس	ينسى	١٢٥	٣
إن	كون	١٢٥	هامش ٣
الجزء	القطعة	١٢٥	« ٤
اسبارطة	اسبرطة	١٢٥	« ١١
Platon	Plato	١٢٥	« ١٣
لهم	تلقى	١٢٦	٥
الحكام الاسبرطيين كانوا	كان الحكام الاسبرطيون	١٢٦	٦
Pol.Ath.	Ath. Pol.	١٣٠	هامش ١٠
البيوشى	البيوتى	١٣٤	١١
الهيلانيين	الهيلينيين	١٣٨	٢٥
السياسية	السياسة	١٤٣	هامش ١
أريسون	أريون	١٤٧	« ٤
جيجس	جيجس	١٤٧	« ٦

الخطــأ	الصــواب	الصفحة	السطر
quelques	Quelques	١٨٤	هامش ٣
١٢٥٥	١٢٦٦	١٥١	» ٦
بهشهم	بهيئتهم	١٥٥	٣
وقد	، قد	١٦١	١٣
أوموجالاكنس	هوموجالاكتس	١٧٠	٢
٤٠٦ . ١٠٢٨	٤٠٦ ، ١٠٢٨	١٨٠	هامش ٢
لأغنياء	الأغنياء	١٨٢	» ٢
Socialpollitischen	Sozialpolitischen	١٨٢	» »
٥ — ٢٦ — ٣ — ٥٣ — ١	٥ ، ٢٦ — ٣ ، ٥٣ — ١	١٨٢	» ١٠
إطهار	إظهار	١٨٥	» ٤
٧٠٣	٣ — ٧	١٨٧	» ٢
وتــكون	وتتــكون	١٩١	» ٣
السيثيين	السيثيين	٢٠٥	» ٣
واحدا	واحد	٢٠٧	٢
الأسثنين	الأثينيين	٢٠٧	٩
٤٦٠	٤٦٦	٢١٠	هامش ٧
١ — ٥٧ — ٧ — ١٧٠	١ — ٥٧ ، ٧ — ١٧٠	٢١٢	هامش ١٧
ثيمستوكلايس	تيموستينيس	٢١٨	٤
٢٣ —	٢٣ — ٥	٢٢٠	هامش ١
كبوليكراس	كبوليكرانس	٢٢٣	٥
٤٦٠	٤٤٦	٢٢٤	٢٢
؟	؟ »	٢٣٢	١٦
Nietyzsche	Nietzsche	٢٣٣	
أوه	أتوه	٢٤٣	١١
الهاتليون	الهاتيون	٢٥٤	هامش ٩

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
كورس	كورش	٢٧٩	قول هيرودوت
يماج	يعالج	٢٨٧	هامش ٣
قدمه	رجله	٢٩٧	١٤
كيكاوپس	الكيكاوپس	٣٠٣	١٢
تلنتا	تلنت	٣١١	هامش ١٥
٣	٨٣	٣١٤	« ١
المذكورون	المذكورات	٣١٩	« ٤
٣ ، ١٠	٣ — ١٠	٣٢٨	« ٢
انظر أرسطو ، Ar.Ach.	انظر ، Ar.Ach.	٣٤٠	« ١
jahrshefte	Jahrehefte	٣٤٢	« ١٦
٢٠ ألف تلنتا	٢٠ ألف تلنت	٣٥١	« ١٣
٧	٧٠	٣٥٧	« ٩
وتصديرها	وتصدرها	٣٦٣	١١
وفى خرائب مايسينى . فى قبرص	وفى خرائب مايسينى المتأخرة فى قبرص	٣٦٤	هامش ١٠
صفقه	صفمه	٣٧٥	٣
ديقنبرجر	ديتنبرجر	٣٧٥	هامش ٢
و Ferrero	لـ Ferrrero	٣٧٥	« ١٥
lufluence	Influence	٣٧٥	« ١٨
Büchsnschütz	Büchsensehütz	٣٨١	هامش ٢
اليونانيون	اليونانيين	٣٨٢	١٠
أراض	أراضى	٣٨٣	٢
متاعب	متاعبا	٣٨٦	الأخير
الفارسة	الفارسية	٣٨٩	هامش ١٣
قرارا	قرار	٣٩١	هامش ٦
فيها	فيهما	٣٩٢	قول سوفوكليس، ٢
٣٠٠ ألف	٣٠ ألفا	٣٩٦	هامش ٣

الخطـأ	الصـواب	الصفحة	السطر
يجب أن نهرب من الدليل	يجب ألا نهرب من الدليل	٣٩٨	١٦
على وضعه الصحيح	على وضعه وضعا صحيحا	٣٩٨	١٧
Athe s	Athens	٤٠٠	هامش ٢٠
بعضا	بعض	٤٠٥	٧
لليـوم	اليوم	٤٠٧	٦
Dion sus	Dionysus	٤١٤	هامش ١٨
قائـد	قائد فرق اليونان	٤٢٢	٦
توكيديدس	بركليس فى توكيديدس	٤٤٥	قول بركليس ، ١
٢	٣	٤٤٥	قول مونتسكيو
كفالة	وكفالة	٤٤٦	٥
تـكون	يكون	٤٥٣	هامش ١٣
ثابولى	نابولى	٤٥٥	هامش ٢
حسابا	حساب	٤٧٩	« ٤
صلب	طلب	٤٨٤	« ١٥
تلث	تلثا	٤٩٦	٦
عاصريها	محاصروها	٥١٦	١
شيئا محددا	شيء محدد	٥١٨	١١
فى	تلقى	٥١٨	« ٣
اليوتيوديين	اليوتيديين	٥٢١	١٢
جانبا	جانب	٥٢١	١٢
١ — ١٣٩ — ١٤٤	١ — ١٣٩ إلى ١٤٤	٥٢٥	« ١
أخضرا	أخضر	٥٤٦	٦

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
Ἑλλάς	Ἑλλὰς	١	سطر أول ـ قول هيرودوت
εὔδουσιν	εὕδουσιν	٥	هامش ٣
θέρε	Φέρε	١١	سطر أول ـ قول Aeschylis
συμπράσσειν	υμπράσσειν	١١	» ٢ ـ » »
Οὐ	οὐ	١١	» ٣ ـ » »
ποτ	ποτ᾽	١١	» ٣ ـ » »
δῷεν	δρῷεν	١١	» ٢ ـ » بركليس
Αὖται	Αὖται	٢٨	» ٢ ـ » أرسطوفانيز
δένδερον	δένδρον	٤٢	هامش ٣ ، ٦
αὐτῶν	αὐτῶν	٤٣	» ٦
ὄψον	ὄψον	٤٦	سطر ، ٦
κρασὶ	κρασί	٤٨	هامش ، ٢
Βούτυρος	Βού — τυρος	٤٨	» ، ١٢
εἶρον	εἶριον	٥٤	» ١
ζύλον	ξύλου	٥٤	» »
τοῦς	τοῖς	٥٥	الأول
τό	τὸ	٦٢	١٩
ἄν	ἂν	٦٣	هامش ١
Καθιππάσασθε	καθιππάσασθε	٨٧	سطر ٢ ـ قول أسخيلوس
ἤ	ἢ	٩٣	هامش ٤
γὲροντες	γέροντες	٩٥	» ٢
Ζεύς	Ζεὺς	٩٦	» »
βασιλεὺτερος	βασιλεύτερος	٩٧	» ٣
θὲμιςτες	θέμιστες	١٠٣	٧
θὲμις	θέμις	١٠٣	١٦

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
σώφρουύνα	σωφροσύνα	١١٧	سطر أول ـ قول يوريبيدس
δῆμος	δῆμός	١٢٠	هامش ١
γυναικοκρατομ-ενου	γυναικοκρατού-μενοι	١٢٥	» ٧
''Ατοις	''Ατθις	١٣٠	» ٨
ἀποφεὺγει	ἀποφεύγει	١٣٣	» ٧
῞Εστε	῎Εστε	١٣٥	» ٥
‛ἐμμεν	ἔμμεν	١٣٥	» ٧
ὓδωρ	ὕδωρ	١٣٥	» ٩
ἥ	ἤ	١٣٥	» ١١
ἐλεύθεροί	ἐλεύθεροί	١٤٠	أول ـ قول هيرودوت
ἄν	ἄν	١٥٨	الثاني ـ » سوفوكليس
ἕν	ἔν	١٦٨	هامش ٣
δημιοργός	δημιουργός	٢٠٢	» ٢
ἄ	ἄ	٢١٤	» ٢
ἤν	ἦν	٢١٨	» ٢
ἅς	ἄς	٢٢٠	» ١١
πεντα'κόσιοι	πεντακόσιοι	٢٢٠	» ١٢
ἐροσταὶ	ἐρασταὶ	٢٣٠	» ٣
ἕτερα ἕτεροι	ἕτεροι ἕτερα	٢٣٦	» ٧
ἕστι	ἔστι	٢٤٨	» ١
βίων	Βίων	٣٣٩	» ١٠
γὰρ	γάρ	٣٤٢	قول أرسطو
ἲδια	ἴδια	»	» »
ὢας	ὥας	»	هامش ١٢

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشراف الفنــى : حسـن كامــل



تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة